عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين

د. عبد الله إبراهيم

عالم القرون الوسطى
في أعين المسلمين

المجلد الأول

١- أقاليم وبحار وبشر
٢- كتاب الشمال

د.عبدالله إبراهيم

٩٥٣
ال ع ا
عبد الله ابراهيم.
عالم القرون الوسطى في اعين المسلمين / عبد الله ابراهيم. - ابوظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠١.
٢مج
يشتمل على ببليوجرافيات.
المحتويات: مج ١: اقاليم وبحار وبشر - كتاب الشمال. مج ٢: كتاب الشرق - كتاب افريقية السوداء.
١- العالم الاسلامي - تاريخ - العصور الوسطى.
٢- معاجم البلدان - العالم الاسلامي.
٣- العصور الوسطي - تاريخ.
أ- العنوان.

© المجمع الثقافي 1422 هـ / 2001 م
ابوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380- هاتف: 6215300
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae

حقوق الطبع محفوظة للمجمع الثقافي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع الثقافي

اصدارات المجمع الثقافي

عالم القرون الوسطى
في أعين المسلمين

فهرس المجلد الأول

شكر وتقدير 9

مدخل: مركزية دار الإسلام في القرون الوسطى وصورة الآخر. 13

1– ذكر الأرض وشكلها وطبائع أهلها ، المسعودي 62

2– كروية الأرض وأبعادها ومسالكها، ابن رسته 69

3– في الأخبار عن هيئة الموجودات الكلية في العالم، أبو الريحان البيروني 83

4– الأرض المعمورة، البتّاني 113

5– أخلاق البشر، الدمشقي 118

6– في المعمور من الأرض وما فيه من الأشجار والأنهار والأقاليم، ابن خلدون 124

7– في المعتدل من الأقاليم، وتأثير الهواء في ألوان البشر وأحوالهم، ابن خلدون .. 164

8– بحار، الدمشقي 174

9– البحرالمحيط بالشرق (= المحيط الهادي)، الدمشقي 177

10– البحر المحيط بالغرب(=المحيط الأطلسي)، الدمشقي 182

11– بحر الروم(= البحر المتوسط)، ابن حوقل 185

12– بحر الروم ، الدمشقي 194

13– البحر الحبشي (=المحيط الهندي) ،المسعودي 201

14– جزائر المحيط الهندي، الدمشقي 206

15– بحر الصين، الدمشقي 209

16– جزائر بحر الصين، الدمشقي 212

17– بحر الخزر (= بحر قزوين)، ابن حوقل 216

18– بحر الخزر ، أبو حامد الغرناطي 225

19– بحر نيطس(= البحر الأسود)، الدمشقي 228

20- بحر فارس(= الخليج العربي) ،الدمشقي 230
21- بحر اليمن وبحر القلزم(= البحر العربي والبحر الأحمر)، الدمشقي 231

مدخل: صورة أهل الشمال في أعين المسلمين خلال القرون الوسطى

22- الأقاليم الشمالية وشعوبها، ابن سعيد المغربي 296
23- ذكر شمال الأرض، ويشتمل على بلاد الإفرنج والأتراك وغيرها، أبوالفداء...... 320
24- أخبار أمم الشمال من اللان والخزر والترك والروس وغير ذلك، المسعودي...... 324
25- دخول النصرانية إلى بلاد الروم ، وأخبار ملوك القسطنطينية، المسعودي........ 342
26-ذكر أجزاء بلاد الروم، وحدودها ،ومقاديرها، المسعودي.................. 350
27-ذكر الصقالبة والافرنج والجلالقة،ومساكنها، وأخبار أهلها، المسعودي......... 355
28-وصف الترك والصقالبة والبلغار ويأجوج ومأجوج والتتر، الدمشقي.......... 359
29- وصف بلاد البلغار والصقالبة والباشغرد، أبو حامد الغرناطي................ 365
30-وصف بلاد الخزر والسرير والروس والبلغار، الإصطخري.................. 370
31-وصف القسطنطينية وكنيستها، ووصف بلاد الروم، ومدينة روما، ابن رسته..... 376
32-وصف روما، ياقوت الحموي.................................... 386
33-مدن وبلاد إفرنجية، القزويني.................................. 492
34-صقلية، قبرص، القسطنطينية، سالونيك، روما، أبو الحسن الهروي.......... 396
35-وصف بلاد تركستان، ياقوت الحموي............................ 400
36- وصف جزيرة صقلية، ابن حوقل................................ 405
37- رحلة ابن جبير إلى جزيرة صقلية.............................. 416
38- رحلة إبراهيم الطرطوشي في غرب أوربا ووسطها وشرقها............... 446
39- رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة............. 459
40- رحلة الغزال إلى بلاد الشمال................................. 489
41- رحلة سلاّم الترجمان إلى بلاد يأجوج ومأجوج....................... 494

42– رحلة أبي دُلف إلى أرمينيا وبلاد القوقاز وأذربيجان وماجاورها............. 498
43– رحلة ابن بطوطة إلى بلاد الأوزبك وشرق أوربا والقسطنطينية............. 522
44– أسامة بن منقذ يصف الصليبيّن............................ 558

شكر وتقدير

يسرّني أن أتقدّم بالشكر المعبّر عن احساس حقيقي بالعرفان للدكتورة سلمى الخضراء الجيّوسي، الباحثة المتميّزة، والمُعَرِّفة المرموقة بالحضارة العربية في كلّ مكان،ومدير عام مؤسسة بروتا/ رابطة الشرق والغرب لنشر الثقافة العربية والإسلامية في العالم؛لجهودها المتميّزة والمثمرة في إغناء هذا الكتاب ورعايته،وقد كانت المناقشات الطويلة والشاقة معها خلال عام ٢٠٠٠ في غاية الأهمية بحيث صاغت الركائز الأساسية له ،وحدّدت أهدافه الكبرى،وفي مقدمة ذلك وضع النصوص الأصلية الخاصة بالصورة التي شكّلها المسلمون للعالم في القرون الوسطى تحت نظر الدارسين والباحثين في كلّ مكان،وهي نصوص متناثرة في المظان وغير مترابطة،وكثير منها لم يخدم لاتحقيقا ولاطباعة؛ الأمر الذي يحول دون الإفادة منها بالطريقة السهلة الميسورة للبحث والتحليل.

وأتقدّم أيضا بشكر مفعم بالامتنان للأستاذ علي بن تميم، الباحث والشاعر والأستاذ في جامعة العين في الإمارات العربية المتحدة على مرافقته التي لم تعرف الكلل طوال المدة التي كنت أنسّق فيها النصوص، وأربط فيما بينها،وإلى الآنسة نورة محمد فرج، من دولة قطر،التي تفضّلت مشكورة بطباعة أجزاء من مداخل هذا الكتاب، وإلى الأستاذ مهدي عيد الباحث في مجمع بحوث الحضارة/ مؤسسة آل البيت في الأردن على بحثه الدؤوب عن مصادر شبه مفقودة ،كان الكتاب بحاجة ماسّة إليها،وإلى الدكتورة ماجدة حمود من جامعة دمشق التي أمدتني بما أنا بحاجة إليه من مراجع،والدكتور أسامة أبو النعاج من جامعة قطر الذي وفّر لي مصادر من بلاد الشام .

وإذا كان أجلّ التقدير هو الذي يختتم به الكلام، فأخصّه بالقائمين على المجمّع الثقافي في دولة الإمارات،بشخص الأستاذ جمعة عبدالله القبيسي، والأستاذ أحمد راشد ثاني ،اللذين قدّرا قيمة الكتاب فورا، وسارعا مشكورين إلى تبنّي طباعته في المجمّع.ولكل هؤلاء،الذين كان دعمهم لايستغنى عنه،أزجي شكرا وامتنانا؛ ذلك لأنهم لم يدّخروا من

جهودهم وصبرهم وسعا إلاّ وتقدموا به إليّ طوال مدة إعدادي الكتاب الذي كان العمل فيه يمرّ أحيانا بأوقات عصيبة بسبب عوائق التأليف التي يعرفها المشتغلون به.

سيلاحظ القاريء الكريم بأنّ الكتاب عُزّز بمداخل واسعة تعتبر أطراً فكرية تنظّم نصوصه، ثم حُرّرتْ مادته طبقا لنمط متدرّج من الترتيب بحيث تحيط بصورة الآخر من كل جانب،وقد عرّفتِ العربُ التأليفَ بأنه الجمع والتحرير والتنسيق، وهدف الكتاب امتثل لهذا التعريف ،إذ باستثناء المداخل التحليلية التي تستكشف صورة الآخر في أعين المسلمين خلال القرون الوسطى ، نُضّدت النصوص الأصلية على التعاقب ، ورُبط بينها بسياق يفضي بها إلى النتيجة التي يقصد الكتاب تحقيقها.وقد لجأتُ في كثير من المرّات إلى تحقيق النص داخل متن الكتاب بهدف التوضيح ،وميّزتُ ذلك بقوسين، وتجنّبتُ ماأظنه سيتسبّب في تخريب النص إلا ماوجدتُ لاضرورة له في مجال تشكيل صورة الآخر ،كالأطوال والمسافات والمقادير ، والاستطرادات التي تقتحم سياق الفكرة الرئيسة ،ولاتؤدّي غرضا،وذلك من أعراف التأليف القديم كما هو معلوم.

لعل أكثر ماحرص الكتاب على صونه، هو: إيراد نصوص متكاملة ومتنوعة ومستوفية الشروط ، تتضافر فيما بينها من أجل كشف مختلف الأوجه للعالم خارج دار الإسلام طوال القرون الوسطى (= مفهوم القرون الوسطى يثير إشكالية في الثقافة العربية – الإسلامية؛لأنه لاينطبق تماما على المفهوم الزمني الذي يحمله في الثقافة الغربية ،وقد تجنّبنا إثارته هنا لأنه حظي باهتمامات كثيرة من لدن المختصين) وكان ذلك العالم يحيط بدار الإسلام من جميع الجهات تقريبا،وقد خصّت أقوام الشرق والشمال والجنوب بأجزاء خاصة بها ضمن هذا الكتاب ؛لأنّ نظرة المسلمين لهم تباينت تبعا لتباين المنظومات الثقافية التي ينتمون إليها،وتبعا لمناطقهم الجغرافية وأعراقهم أيضا.ويهدف الكتاب إلى توفير المادة الأصلية التي يمكن الاستناد إليها في رسم صورة الآخر في أعين المسلمين خلال تلك الحقبة الطويلة والمتقلّبة،إلى ذلك فكثير من النصوص أدرجت كمصادر موثوق بها في كشف الأبعاد الإثنوغرافية للمجتمعات الوسيطة.

أقاليم وبحار وبشر

مدخل

مركزيّة دار الإسلام في القرون الوسطى وصورة الآخر

١ .توطئة

يلزم الحديث عن صورة العالم في أعين المسلمين خلال القرون الوسطى أن نبحث في مركزية دار الإسلام خلال تلك الحقبة المشبعة بالسجالات الدينية؛ فالمركزية الإسلامية هي التي صاغت ملامح تلك الصورة .ومصطلح " دار الإسلام" بحد ذاته سيشكّل في الأفق منحى محددا لمكونات صورة الآخر،ومن المهم أن نتحرّر نسبيا من ضغط المفهوم، فالموجهات الفكرية لمصطلح "دار الإسلام" تتدخل في ترتيب رؤيتنا لمن هم خارج تلك الدار، إنها تدفع بنا إلى موقف منهم أكثر مما تستخلص صورة، ولكن هل يمكن أن نكون أكثر دقة لو استخدمنا مصطلح" العالم الإسلامي "؟ الواقع ينبغي الاحتياط والتحسّب أيضا عند استخدام هذا المصطلح ؛ فهذا الوصف يشوبه نوع من عدم الدقة من جهة والتعميم من جهة أخرى. فهو لا يأخذ في الاعتبار ما تمور به هذه المناطق الشاسعة التي استوطنها المسلمون كأغلبية، أو يشكلّون في بعضها أقليات ضخمة،لها خصوصيات عرقية ولغوية وتاريخية. وكان القدماء قد استخدموا مصطلح "دار الإسلام" كنقيض لـ"دار الحرب" . أما "العالم الإسلامي" فاستعماله في الوقت الحاضر يوجب بحثاً عن نقيض ، وهو أمر أصبح محاطا بالحذر في عالم تداخلت مصالحه وعلاقاته وأفكاره وشعوبه، وتخلّص جزء كبير منه من سجالات العصور الوسطى التي يقوم نموذجها الفكري على الثنائيات الضدية، وإن كانت بعض أمشاج الماضي مازالت حاضرة في صلب التفكير المعاصر، إذ لم تندثر تماما الحساسيات العقائدية والثقافية بين الشرق والغرب أو الشمال والجنوب على سبيل المثال، ولابين المجالات المؤمّمة من هذه العقيدة أو تلك، أو هذه الثقافة أو تلك. وفي الوقت الذي سيتناوب فيه استخدام المصطلحين،فمن المفيد القول إن العالم الإسلامي أو دار الإسلام كان إطارا جامعا لعدد من الشعوب والأعراق، وأحيانا الثقافات، فقد ظهرت للإسلام ملامح

متعددة في مختلف الأزمنة والأمكنة بتأثير من العوامل المحلية الجغرافية والاجتماعية والسياسية فيه ،وبقوة استجاب لها الإسلام(١) .

لقد بُذل جهد كبير للحفاظ على وحدة العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى بوجه التحديات الخارجية والداخلية في محاولة لبلوغ أكبر درجة ممكنة من الوحدة الدينية والاجتماعية والثقافية،لكنّ ذلك لم يتحقق الاّ بعد التفكك السياسي الذي لحق بدار الإسلام، وخلال ذلك وقع تفاعل واسع المدى بين شعوب تنتمي إلى أرومات وثقافات وتقاليد مختلفة، وبرزت الثقافة الإسلامية في القرون الوسطى إلى الوجود من خلال عملية التفاعل هذه، بل كادت تكون في الحقيقة نتيجة لها(٢) .

ليس من الحكمة الآن النظر إلى واقع دار الإسلام كما كان ينظر إليها حينما كانت قائمة بالفعل.ولكن من المهم التأكيد على خاصية الوحدة المتنوعة بشريا وثقافيا لها،وتجنب تكريس المصطلح للتعبير عن دلالة رغبوية كامنة في الوعي الإسلامي المعاصر الذي يواجه تحديات حقيقية، فينظر إلى الماضي نظرة شفافة تستبعد الخصوصيات التي أضفت على الإسلام الثقافي أبعادا خصبة في كل مكان وصل إليه. من الصحيح أن الإسلام كان عقيدة دينية، لكنّ مفهوم دار الإسلام كان يتأكد وجوده من كونه عالما واسعا يشترك في تصورات ثقافية وأخلاقية متقاربة أكثر ممايمتثل لوحدة سياسية ودينية مطلقة.وكان هذا معروفا عند القدماء، وجرى التعامل معه كحقيقة واقعة.

ولئن ذوّبت نزعات الحداثة والعولمة بعض التخوم الرمزية الفاصلة بين التجمعات القومية والعقائدية،وفكّت جانبا من الانحباس التقليدي المتوارث فيها، فإنها بذرت خلافا جديدا تمثله مفاهيم التمركز والتفوق والتفكير بسيطرة نموذج ثقافي على حساب آخر، وهو أمر نشّط مرة أخرى المفاهيم التناقضية – السجالية التي تخمّرت في طيّات القرون الوسطى، وصارت تُبعث اليوم بصورة إشكاليات الهوية والخصوصية والأصالة.وينبغي التأكيد على أمر يكاد يصبح قانونا ثقافيا، وهو أن البطانة الشعورية–العقائدية ،وهي تشكيل متنوع من تجارب الماضي والتاريخ والتخيّل والاعتقاد واللغة والتفكير والانتماءات والتطلعات ، تؤلّف

جوهر الرأسمال الرمْزي للتجمعات المتشاركة بها،أقول إن تلك البطانة المركّبة تعمل على جذب التجمعات البشرية الخاصة بها إلى بعضها، وقد تتراجع فاعليتها التأثيرية في حقبة بسبب ضمور فاعلية عناصرها، لكنها قابلة للانبعاث مجددا في حالة التحديات والتطلعات الحضارية الكبرى .وليس يُستبعد أن تُغذّى بمفاهيم جديدة تدرج فيها من أجل موافقة العصر الذي تتجدّد فيه .وهذا هو الذي يبعث التفكير مجددا في الماضي الذي يصبح حضوره ملحّا حينما تشرف المجتمعات على حالات تغيير جذرية في قيمها وأخلاقياتها وتصوراتها عن نفسها وعن غيرها .ينبثق تفكير ملح بالماضي حينما يكون الحاضر مشوّشا،وعلى عتبة تحولات كبيرة إما بسبب مخاضات تغيير داخلي أو بفعل مؤثّرات خارجية .

تعيش الشعوب الإسلامية حالياً ازدواجاً خطيراً تختلط فيه قيم روحية رفيعة وقيم مادية منحطة، ولم تفلح أبداً في فك الاشتباك بين الاثنين على أسس عقلية واضحة. فالقيم الأولى حبيسة النصوص المقدسة وحواشيها (= القرآن والحديث النبوي) وقد آلت إلى نموذج أخلاقي متعال يمارس نفوذاً فيوجه الحاضر انطلاقاً من الماضي، أما القيم الثانية فقد غزت الحياة بشتى جوانبها، باعتبارها إفرازات مباشرة لنمط العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في العصر الحديث، وبالتحديد بفعل المؤثّر الغربي. وهكذا فقد اصطدمت وتداخلت جملة من القيم المختلفة في مرجعياتها ووظائفها، فلم تعد الشعوب الإسلامية قادرة لا على الدخول إلى قلب الحداثة ولا الانفصال عن الماضي. ثمة زمنان يحملان قيماً ثقافية مختلفة يتواجهان في وسط هذا العالم الكثيف بشرياً: العالم الإسلامي، الذي لم تستطع شعوبه أن تنجز فهماً تاريخياً متدرجاً ومطوّراً للقيم النصيّة الكامنة في القرآن والحديث، بما يمكّنها من إدراج تلك القيم في صلب السلوك الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ولم تستطع في الوقت نفسه هضم كشوفات العصر الحديث في كل ما يتصل بالحياة والمشاركة فيها. وبعبارة أخرى فإنها لم تتمكن من إعادة إنتاج ماضيها بما يوافق حاضرها، ولم تتمكن أيضاً من أن تتكيّف مع الحضارة الحديثة المنبثقة أساساً من

الغرب، وعلى هذا فقد انشطرت بين قيم متعالية وقيم غربية، وحينما دفعها سؤال الحداثة إلى خانق ضيّق، طرحت قضية الهوية، كقضية إشكالية متداخلة الأوجه. فالقائلون بالهوية الإسلامية التقليدية المميزة قدموا قراءة هشة للإسلام تقوم على فهم مدرسي له يعنى بالطقوس والأزياء والتمايز بين الجنسين والحلال والحرام والطهارة والتكفير والتحريم، وإنتاج أيديولوجيا استعلائية متعصبة لا تأخذ بالاعتبار اللحظة التاريخية للشعوب الإسلامية، ولا تلتفت إلى قضايا الخصوصيات الثقافية والدينية والعرقية للأقليات، وسعوا إلى بعث نموذج أنتجته تصورات متأخرة عن الحقبة الأولى من تاريخ الإسلام، نموذج يقوم على رؤية تقديسية للأنا وإقصاء للآخر،ويحبس الإسلام في قفص ذهبي، دون أن يسمح له بالتحرّر من سطوة الماضي،وينخرط في التفاعل الحقيقي مع الحاضر. وهنا سوف يصطدم هؤلاء بحقيقة لا يمكن تذويبها، وهي: أنه ليس من الصعب فقط استدعاء نموذج أنتجته سجالات القرون الوسطى وفروضها وتعميمه على الحاضر، بل من المستحيل تطبيق قراءة مختزلة للإسلام، أنتجتها العصور المتأخرة، وهي تقوم على التمايز المذهبي، والتعارض الطائفي ،والانغلاق على الذات، وتبجيل السلطة وتسويغ طاعتها، وتجهيل الناس بحقيقة حالهم، كل هذا ضمن نمط من الحياة والتفاعل والمصالح والعلاقات الاجتماعية التي تكاد تختلف كلياً عمّا كان شائعاً إبّان تلك الحقبة التي يفترض أن النموذج المطلوب قد ظهر فيها.

ليست هذه وحدها هي العقبة الكأداء، إنما ترافقها صعوبة لا تقل أهمية، وهي أنه لا يمكن تبني نموذج لمجرد الرغبة فيه، فذلك أدخل بباب المحالات، فلا بد من كفاءة وتنوع يفيان بالحاجات المتكاثرة للناس .وفي جميع الأحوال لا يمكن تطبيق أي نموذج مستعار من الماضي لاستيعاب الحاضر، فالأحرى اشتقاق نموذج حي ومرن وواسع ومتنوع وكفء من الحاضر نفسه، يأخذ في الاعتبار كل أوجه الحاضر ، ويتجدد بتجدده، ولا ينغلق على نفسه، ولا يدعي اليقين، ولا يزعم أنه يوصل إلى الحقيقة المطلقة،ويتفاعل دائماً مع المستجدات الداخلية، ويتناغم مع حركة التاريخ بشكل عام. ويكون جريئاً في الحوار مع نفسه وغيره، ويتجنّب الانحباس داخل قمقم مغلق. ويترك للآراء والاجتهادات والرؤى والمنظورات أن

تتفاعل فيما بينها، ولا يتكيء على السجالات اللاهوتية والمنطقية، إنما يقدم نفسه كنموذج مفتوح يُثرى بالاقتراحات والممارسات، ويفكّ نفسه من الأقواس التي تقيّده، فلا يدعي أنه يقدم الخلاص، ولا يعد بالنجاة الكاملة.

أما القائلون باحتذاء الغرب، واستعارة حداثته، والاندماج بعالم يمور بالكشوفات العلمية والفكرية والاقتصادية، باعتبار أن الغرب استكمل حلقة التحديث الأساسية، وأنجز التطور في معظم مجالات الحياة العملية، وضَمن للإنسان حقوقه كفرد وكمواطن وكفاعل اجتماعي، ورسّخ سنناً قانونية وحقوقية واجتماعية وثقافية تحول دون إلحاق ضرر بالمجتمع والفرد على حدّ سواء، فإنهم يتخطّون حقيقة لا تخفى، وهي: أن النموذج الغربي تولّد من نسق ثقافي خاص، وأنه نتيجة لتمخّض شهده الغرب منذ القرن السادس عشر الميلادي، وأنه أُشتّق من حالة الغرب الخاصة، وتكمن كفاءته بالضبط من أنه زبدة ذلك الواقع، لأنه متصل به اتصال الجنين بالرحم. نعم، إنه نموذج يتصف بالشمول والسعة والكفاءة، وإنه عملي ومنضبط، وقد تطور استجابة لواقع الغرب الذي يكاد يشمل العالم، ولكن ركائزه الأساسية مبنية على وفق الخصوصيات الثقافية والسياسية والاجتماعية والتاريخية الغربية. وتكمن الصعوبة في تقليده ومحاكاته، ناهيك عن نقله وتبنيه. وبافتراض إمكانية ذلك، فإنه سيكون في نوع من التعارض مع جملة القيم الموروثة التي أشرنا إليها. والحقيقة إن التوترات القائمة في العالم الإسلامي حالياً، يتصل كثيراً منها بالصدامات الظاهرة والضمنية بين النموذجين اللذين ذكرناهما. في النهاية لا يمكن تجريد نموذج من خصائصه الذاتية وفرضه على حالة مختلفة سواء أكان نموذجاً إسلامياً مستدعى من الماضي أم نموذجاً غربياً مستعاراً من الآخر .الواقع يفرض نموذجه الخاص الذي لايُشترط فيه التقاطع مع النماذج الأخرى،ولكن تُشترط خصوصيته.

نريد من كل هذا التأكيد على أن العالم كمجال ثقافي سيبقى دائما مضمارا للمنازعة والمدافعة، وقد تأخذ المنازعة أشكالا، وتنتظم في أهداف، لكنها تستعين بالمكوّن الثقافي–العقائدي كمنشّط في صراعها مع الآخر. مازلنا بعيدين عن تصور حقيقي يمارس

وظيفة فاعلة في دمج التكوينات الثقافية داخل أطر تفاعلية، تستبدل بالمساجلات الحوار. ومادام الأمر قائما فليس ثمة إمكانية حقيقية للتخلّص الآن من التسميات التي تحمل معها مستنداتها الثقافية والدينية ، كـ"العالم الإسلامي "و" العالم المسيحي"و" الغرب" وحتى "دار الحرب" و "دار الكفر" و"دار الإسلام" فالمفاهيم والتسميات تعبّر عن حقيقة ظاهرة أو مضمرة،ولكن من المفيد التنبيه إلى ضرورة تفريغ دلالاتها من شحن الغلواء القديمة. المفاهيم التي توجه الأفكار هي الأخرى لها سُنن تطور خاصة بها. ولا يراد استخدامنا لبعضها موافقة لدلالاتها، إنما نهدف إلى تعديل الدلالات الموروثة فيها.

يشير مصطلح" العالم الإسلامي" إلى ذلك المجال الشعوري الذي تتراسل فيه منظومة من القيم الروحية والأخلاقية والعقائدية التي انبثقت عن القرآن،وعززت بفهم المسلمين لطبيعة الرسالة التي يتضمنها، وهو تراسل يتجاوز الانتماءات العرقية والثقافية والجغرافية، ولكنه لايهملها ولا يتقاطع معها، ذلك أن الإسلام لم يضع أية شروط محددة للتوفيق بين العرق والعقيدة ،فهما انتماءان لا تعارض بينهما في المنظومات الدينية، يتوازيان ويلتقيان ويتماسان دون أن يلغي أي منهما الآخر، وهذا الأمر بذاته هو الذي يظهر إلى الوجود إسلاماً متنوّعاً يتم تلقيه وإنتاجه والتفكير به طبقاً للخصوصيات الثقافية والاجتماعية،؛فالإسلام الفارسي له نكهة مختلفة عن الإسلام العربي، والإسلام التركي ينطوي على ما يميزه عن الإسلام الهندي أو الأندونوسي أو الأفغاني، ولكن الإسلام كمنظومة قيم روحية وعقائدية عامة واحد، فهو يضم هذه التصورات ويهضم الاختلافات والخصائص الثانوية، وذلك أمر شائع يفرضه واقع حال المسلمين المتصلين بأعراقهم الكثيرة، والمنتمين إلى هويات ثقافية متعددة،داخل إطار الثقافة الإسلامية العامة. وهذه الحقيقة دفعت محمد أركون لأن يحتج على برنارد لويس الذي يستخدم في كتبه مصطلح "العالم الإسلامي" . ومؤدى اعتراض أركون يتمثل في أن هذا المصطلح إنما هو مفهوم شمولي وضبابي يغطي تحته عدداً كبيراً من المجتمعات والمجموعات البشرية المختلفة. وهذه الفئات والمجتمعات شديدة التنوّع والابتعاد عن بعضها في الزمان والمكان. إنها من التباعد والاختلاف بحيث إن مفهوم "العالم

الإسلامي" يفقد كل فعالية عملياتية ،وبالتالي فيصعب استخدامه دون أخذ احتياطات كثيرة[٣] وليس من الحكمة استخدام المصطلحات جزافا، فالتحرّز تفرضه الدقّة، وعليه فلابد من العودة إلى الحاضنة الثقافية والسياسية التي تشكلّت فيها مثل هذه المفاهيم،لكي نتمكن من فهم الدور الذي لعبته في تركيب صورة الآخر.

٢ . دار الإسلام ودار الحرب

يصعب من ناحية تاريخية تحديد اللحظة التي بدأ يتداول فيها مصطلح " دار الإسلام"، ليس لأن هذا المصطلح غير قادر على الإفصاح عن مضمونه، إنما لأن قيمته الحقيقية تكمن في دلالته الثقافية، فدار الإسلام لم ترتهن أبدا لمعنى جغرافي مباشر.كانت تتمدد وتتقلّص على وفق درجة حرارة البعد الثقافي للإسلام كمنظومة ثقافية يوجهها بعد ديني لتفسير العالم. ويبدو لنا أن وحدة دار الإسلام كانت ثقافية بالدرجة الأولى،وجرى باستمرار تهميش للعوامل العرقية والجغرافية .ولكن هذا لايقصد منه طمسها،إنما لأنها انتماء طبيعي، فيما العقيدة انتماء ثقافي. لم تكن دار الإسلام في أي وقت من الأوقات أرضا تحتكر السيطرة عليها دولة واحدة. بل يبدو لنا– وهذا أمر يحتاج إلى اختبار خاص– أن هناك تعارضا شبه دائم بين المفهومين السياسي والثقافي لدار الإسلام. ففي حدود علمنا نشأ المفهوم الذي ينطوي على أبعاد ثقافية لايمكن تجاهلها بعد موجة انحسار السيطرة العربية على جزء كبير من العالم؛ فمنذ العقد الأخير من القرن الأول الهجري(=بداية القرن الثامن) حصل أمران ملفتان للنظر: أولهما توقف الفتوحات في أقاصي الشرق داخل الأراضي الصينية عند (كاشغر) وظهور بوادر تقهقر دائم في تلك النواحي، انتهى بعد أكثر من خمسة قرون بوصول الأقوام المغولية إلى بغداد، القلب الثقافي النابض لدار الإسلام آنذاك، وثانيهما اندفاع الفتوحات العربية(الإسلامية) إلى أوربا عنْ طريق الأندلس، ثم توقفها شبه المفاجئ، بعد فترة قصيرة. ولعلّ العقد الأخير من ذلك القرن هو البداية التي شهدت اللحظة الفاصلة بين اندفاعين يصعب تفسيرهما، وبداية تقهقرين لا يقلان عنهما غموضا، هذان الأمران

كانا دائما مثار خلاف في التفسير،وتتقاطع حولهما المواقف، وبخاصة حينما يخلع عليهما الغطاء الديني،فيكون المفسر الوحيد لانهيار الممالك، والمفسر الوحيد للتقهقر.

كان الحديث عن دار الحرب قد احتل أيضا مكانا بارزا في الأدبيات الفقهية الإسلامية منذ القرن الثاني الهجري، وزاد الاهتمام به في القرون اللاحقة ، وأسهم فيه نخبة من الفقهاء ، وقد كان العالم حسب المفهوم الإسلامي ينقسم إلى قسمين :دار الإسلام التي تضمّ المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية التي رضخت للسيادة الإسلامية،ودار الحرب . أما دار الإسلام فتشمل فئة المؤمنين، والفئات التي حالفت المسلمين من أهل الكتاب الذي آثروا البقاء على ديانتهم مقابل دفع الجزية،وجميع الساكنين في دار الإسلام يعتبرون من رعايا الإمام أو الخليفة ، ولهم حق الحماية في الداخل وحق الدفاع عنهم في حال اعتداء خارجي .أما دار الحرب فكانت تضمّ العالم المحيط بدار الإسلام،وتضم جميع الشعوب والأقاليم غير الخاضعة للسيادة الإسلامية .وكانت دار الحرب هي الهدف الذي كان الشرع يسعى إلى ضمّه إليه،ومن واجب كل حاكم مسلم أن يسعى لاخضاع دار الحرب للسيادة الإسلامية عندما تتوافر له القوة الضرورية لذلك، وسكان دار الحرب يُعتبرون أنهم لايزالون على سجيتهم الأولى البدائية، وكانت تنقصهم الكفاءة الشرعية التي تؤهلهم للدخول في مفاوضات مع المسلمين على قدم المساواة، وعلى مبدأ العدالة بالمثل ، لأنهم يعجزون عن الانسجام مع المستوى الخلقي والشرعي لدى المسلمين،وعلى هذا فالمعاهدات معهم لم يكن معترفا بها ضمنا طبقا للشرع الإسلامي(٤) .

وقع خلاف بين الفقهاء المسلمين فيما يخص هذا التقسيم للعالمين ،ومع أن الغالبية قبلته كأمر واقع فإنّ فئة منهم،ولاسيما فقهاء المذهب الشافعي،افترضوا وجود عالم آخر هو دار الصلح أو دار العهد .وحسب هذا المذهب فإن الإسلام قد اعترف اعترافا محدودا ومشروطا بالشعوب غير الإسلامية التي تكون قد أبرمت معاهدة أو حلفا مع المسلمين على شروط متفق عليها من قبل الطرفين المتعاقدين على أن يدفعوا الجزية، لكن فقهاء الحنفية لم يقبلوا بهذا، وما اعترفوا أبدا بالصلح، وحجتهم في ذلك أنه متى عقد سكان الإقليم معاهدة سلام

ودفعوا الجزية فإنهم يصبحون بذلك ضمن دار الإسلام،وعلى الإسلام أن يضمن لهم الحماية. إن دار الإسلام من ناحية نظرية هي في حالة حرب مع دار الحرب، لأن الهدف الأخير للإسلام هو العالم بأسره،وإذا أفلح في ذلك، فإن حالة السلم التي يفرضها الإسلام تحلّ محل كل تدبير سلمي آخر،وتصبح الشعوب غير المسلمة إمّا جزءا من من الدولة الإسلامية، أو خاضعة لسيادتها كأقليات دينية معترف بها، أو كوحدات ذات استقلال ذاتي تربطها بالدولة الإسلامية معاهدات تنظّم العلاقات بينهما[٥].

طبقا لهذا التصور فإن الفكر السياسي الإسلامي أوجد دولة بمقتضى عقد مقدّس قائم على الشريعة، ولاانفصال بين الدولة والمجتمع ولابين الدولة والدين[٦] . وكما يذهب شاخت فإن الشريعة هي نموذج للقانون الديني[٧]. وكان الخليفة أو الإمام هو الشخص المسؤول مباشرة عن حماية الشريعة، ومسؤول أيضا ليس فقط عن الحفاظ على حدود دار الإسلام وصيانتها، إنما توسيعها لتهيئة العالم لقبول الشريعة بما يجعل العالم كله معتنقا للإسلام ؛فالله هو المصدر النهائي للسلطة، والجماعة الإسلامية أمّة الله، وممتلكاتها مال الله، بما في ذلك الغنائم، وأعداؤها هم أيضا أعداء الله[٨] .وقد نظر إلى الشعوب المقيمة خارج دار الإسلام باعتبارها شعوبا ضالة ينبغي أن تمتثل للشريعة الإلهية،ويجب أن يبسط الإسلام فيها قيمه الأخلاقية، هناك حرب قائمة بين دار الإسلام ودار الحرب، حرب معلنة أو مضمرة ،وهي لاتنتهي إلاّ حينما يدخل الجميع في الإسلام أو يخضعون له، فالسلام بين الدارين غير ممكن من ناحية شرعية لأنه مصالحة بين نقيضين: حق وباطل، هدى وضلالة، ووجود هدنة لايعني أن تضع الحرب أوزارها دائما، فالهدنة مؤقتة لاتزيد على عشر سنوات، وللمسلمين حق نقضها من طرف واحد ،ومواصلة الجهاد، متى وجدوا ذلك ممكنا وضروريا[٩] .وكان هذا يشمل كل الممالك المتاخمة لدار الإسلام، باستثناء الحبشة التي استثنيت من ذلك لأسباب تتصل بموقفها من الإسلام في مرحلته الأولى.

يتضح مما سبق أن النظرة إلى الآخر كانت تقوم على أسس دينية، فالدين هوالذي يمنح المعنى للأشياء، للظواهر وللآخرين، لذلك فإن البحث عن ملامح الآخر يفترض العودة،

بكيفية ما إلى النص المرجعي الذي يزود النظر ببعض عناصر الإدراك والوعي أو يطعّم المتخيّل بما يحتاج إليه من صور وأشكال ورموز..ومادام الإسلام يحمل تصورا للعالم وللإنسان، ويمثل النص القرآني تكثيفا للكلام الرباني، وتعبيرا عن تجلّيات المقدّس، فإنه يشكل مصدرا للرؤية، وقاعدة معيارية للجماعة(١٠).

لم يستطع المسلمون الحفاظ على هذه الوحدة المتماسكة التي توجهها الشريعة وتنظمها،فسرعان ماتفككت أواصر الوحدة السياسية داخل دار الإسلام،وظهرت مراكز سياسية تدعي احتكار الإسلام الحقيقي، وتصارعت تحت ستار امتلاك الشريعة الحقيقية، وقسمت دار الإسلام سياسيا، وإن ظلت موحدة عقائديا،ولهذا فدار الإسلام كانت ذات طابع ثقافي أكثر مما هو سياسي،ومع الزمن تمّ قبول الجوار كحقيقة لابد منها، فمادام التنوع قد قُبل داخل دار الإسلام،فقد امتد، مع كثير من التحفّظ الذي أبداه الفقهاء باعتبارهم منشّطين لقيم الشريعة،ليشمل العالم كله، ولكن واقع الحال هذا لم يفرض نفسه إلاّ في وقت متأخر بعد أن تعددت الدول السياسية داخل دار الإسلام.

لم تتثبّت أبدا حدود جغرافية لدار الإسلام، ولكن ليس هذا ما نريد الإشارة إليه هنا، إنما الأمر الرئيس الواجب إثارته هو عدم إمكانية ظهور دلالة ثقافية لهذا المصطلح في ظروف فتوحات كاسحة، وما إن توقفت حتى جرى شبه تثبيت عقائدي، هو الذي لعب دورا بالغ الأهمية في ظهور مفهوم دار الإسلام.

لم تكن الحدود الجغرافية بين الدولة الإسلامية والدول المجاورة لها في يوم ما ثابتة،ولم يجر طوال القرون الوسطى في أي مكان من العالم الاتفاق النهائي على حدود ثابتة معترف بها بصورة كاملة، والقول بحدود خاصة وشرعية فكرة تمخضت عن النزاعات الدائمة بين الدول الأوربية في القرن السابع عشر،وظل الشك يلازم تطبيقها النهائي إلى الآن. فلم يحدث أن أخذت دولة لها قوة حقيقية في القرون الوسطى أمر سيادة الدولة المتاخمة لها بعين الجد الكامل، فعنصر القوة،وليس الحق، هو المهيمن في العلاقات السياسية بين الدول،وهذا ينطبق أكثر ما ينطبق على مجموعة الدول التي كانت تتنازع السلطات ضمن دار الإسلام

فيما بينها أو مع الدول المتاخمة لها. وهو يفسر لنا جزئيا ظهور مجال فاصل بين دار الإسلام ودار الحرب، مجال فرضه التنازع الدائم،وشكل دارا ثالثة، هي (دار العهد) أو (دار الصلح). وغني عن البيان تفصيل القول في أن هذه الدار المزدوجة الولاء بين الدارين المذكورتين كانت هشة التكوين، ضبابية الهوية،مخترقة دائما من إحدى القوتين المحاذيتين لها،تقوم بدور التخوم الفاصلة حينما تغيب التخوم الطبيعية المانعة لتقدّم هذا أو ذاك،إضافة إلى ذلك كانت سهلة الاختراق ، فنسيجها الاجتماعي والثقافي والعقائدي خليط مستعار من هذا وذاك. وهي دار رمزية يتزحزح مكانها بصورة دائمة، لا تعرف الثبات أبدا، وكثيرا ما ينعدم وجودها.

يبدو لنا أنه بداية من القرن الخامس الهجري(=الحادي عشر الميلادي)كانت العلاقة بين المجال السياسي والمجال الثقافي فيما يسمى بـ دار الإسلام هي علاقة عكسية؛ فكلما تراجعت السيطرة السياسية، تقدمت السيطرة الثقافية، وبعبارة أكثر تحديدا،فقد حالت التنازعات الداخلية في دار الإسلام دون القدرة على إبقاء قوة كاملة في تخومها تؤمّن حدودها بشكل دائم.وعلى هذا فقد امتصت تلك المنازعات القوة المطلوبة،وظلت حدود دار الإسلام غامضة،وغير واضحة بصورة تامة، يحددها لزمن ما عامل القوة الذي ينبثق هنا أو هناك ،بفعل شخصية قوية أو سلطان أو إمارة أو دولة، ثم يعيدها الضعف إلى سابق عهدها.ولكن بالمقابل فإن المسلمين المتاخمين لدار الحرب، والذين تتلاعب بهم القوة، فيكونون مرة ضمن دار الإسلام ، ومرة ضمن دار العهد ، وثالثة داخل دار الحرب، كانوا قد نجحوا على نحو منقطع النظير في تشكيل هويتهم الثقافية الإسلامية كائنا ما كان وجودهم داخل هذه الدار أو تلك،وكائنا ماكانت قراءتهم للإسلام، وعلى هذا فقد تتراجع الحدود السياسية لدار الإسلام، ولكن الحدود الثقافية شبه ثابتة، إن لم نقل إنها تتوسع (= يظهر هذا بوضوح لا يخفى في آسيا وإفريقية حيث تمددت دار الإسلام بوسائل غير عسكرية) ومع التراجع المطّرد للحدود السياسة، نشأ وضع جديد في ظل هذا التوتر المستمر ؛ فقد نشأت دول وكيانات سياسية غير خاضعة للمركز التقليدي السياسي لدار الإسلام، لكنها

تدين بالعقيدة نفسها،والحق فإن هذه الكيانات، و هي أكثر من أن تحصى في هذا المقام، وتمثل أطراف دار الإسلام،لعبت الدور الرئيس والفاعل في إضفاء التنوع الخصب ثقافيا وعقائديا على دار الإسلام طوال قرون وقرون،وفيها نشأت عبر الزمن فكرة الإسلام المتنوع الذي لا يتعارض مع وحدته العامة.وعلى هذا لم تكن دار الإسلام كتلة ثقافية متطابقة التصورات ،ومتماثلة التفسيرات، إنما كانت تتصف بالتنوع الذي أضفى خصبا ثقافيا لايمكن إهماله عليها. كان الإسلام يمثل هوية ثقافية أكثر منه كياناً سياسياً.

قلنا إن مصطلح "العالم الإسلامي" قد بدأ يحل محل" دار الإسلام" وهذا يتسبب في نشأة وضع آخر ،وهو التفكير في البحث عن المصطلح الذي يمكن إطلاقه على " العوالم الأخرى" ،فمادام قد غُطي هذا العالم بغطاء ديني، فما الذي يمنع من خلع أغطية مماثلة على العوالم الأخرى التي تشترك في العقائد والثقافات واللغات؟ إضافة إلى ذلك فالمصطلح الجديد إنما هو تشكيل رمزي ليس له قيمة سوى القيمة الثقافية التي كانت اللب المكوّن للمصطلح القديم، فشأن هذا شأن ذاك، لايمكن أن يُعبأ بغير الأبعاد الثقافية. ومادام التفكير في (الأنا) يتمّ في ضوء سلّم محكم من القيم الدينية، فمن الطبيعي أن يظهر (الآخر) المختلف.

لقد فرضت المفاهيم القديمة للعالم تباينا في التصورات ، أدت إلى تركيب صور إكراهيّة للآخر ، صور سادت لفترة طويلة توجهها منظومات قيم متباينة. إن الآخر في الفكر القديم هو المختلف قيميا بالدرجة الأولى. وتثير قضية الآخر في أذهان المسلمين موضوع القيم الإسلامية وضرورة تعميمها على العالم بأجمعه. الآخر هو موضوع ينبغي أن يُغزى بالقيم الإسلامية لكي يصلح أمره.

كان التصور الشائع عن الذات والآخر يستمد حيويته من المركزية الدينية، أي تلك البؤرة التي تنبثق منها قيم الحق إلى الأبد. وبالنظر إلى أن التصور يذهب إلى اعتبار أن الله هو مصدرها، وأنه قد حلّ هنا" دار الإسلام" ولم يحل هناك" دار الحرب" فينبغي إذا الوصول إلى نتيجة واحدة: قيم دار الإسلام هي الحقيقية، وهي الشاملة، وهي المطلقة الصواب. وقيم الآخر مثار استغراب، واستهجان؛ فهي وثنية، محقّرة،مدنّسة،يلزم تطهيرها من النجاسة

والوثنية. قيم الآخر هي موضوع لحكم القيمة وليس للوصف.

في عصر يتصدّر فيه الشعور الديني أي شعور آخر، لامكان للمصالحة والشراكة في القيم والأخلاقيات. ولكي يظلّ ذلك الشعور حيّا، متوهجا، ومتقدا بالتنازع القيمي لابد من تفريق حاسم قائم على ثنائية الحق والباطل بين قيم(نا) وقيم(هم). هذه الثنائية تصوغ وعيه لاوعي المجموع، وتجعله يبني تخيلاته ومواقفه وأحكامه واختياراته على أساس فكرة التفاضل والتراتب التي تقود إلى الإعلاء من شأن الذات وخفض قيمة الآخر. لقد تم تخطّي الإنسان كذات، وصار التركيز عليه كموضوع للقيم، وأهميته لاتتحدد من كونه بشرا، إنما في اعتناقه ضربا من القيم دون غيره.

سلّم القيم الذي صاغه الإسلام، وتحول إلى جزء مكمّل من العقيدة حسب الفهم الشائع لها سيتدخّل في تركيب صور مشوّهة وإكراهية للآخر. وبالإجمال فصور الآخر منتقصة،يشمل الانتقاص بالدرجة الأساس القيم الشائعة لديه، ويمتد ليشمل الإنسان حامل تلك القيم. هنالك تشويه لحقيقة الآخر ذهنيا وجسديا،ففضلا عن البلادة والجهل والضلال والسفه والبوهيمية، يتراوح الآخر بين تصغير يشوش إنسانيته كما هو الأمر بالنسبة إلى أقوام أقصى الشمال الشرقي من آسيا حيث يفترض أن تكون بلاد يأجوج ومأجوج، أو تضخيم مقصود كما هوالأمر في حالة الزنوج والصقالبة وكثير من الأقوام الشمالية.

تتصف القيم الدينية بالثبات، وكان الفهم الديني للحياة يقوم دائما بمراجعات دقيقة كي لا يخرم الزمن ثبات القيم، فتصاب بالفساد بسبب التحوّل. بعبارة أخرى القيم الدينية تتخطّى البعد التاريخي، ولها قدرة الشمول والديمومة والثبات؛ لأنها قيم مكانية وليست زمانية. فهي لاتقرّ بالتحول ،ثابتة، ساكنة، دائمة الصحة، تريد للإنسان أن يتكيّف معها، فيظل في حالة تصحيح دائم لمساره، لكي يمتثل لها. هي المركز المشع الدائم، وهو يدور في فلكها. قربه وبعده عنها هو الذي يحدد قيمته. مادامت القيم الدينية هي التي تحدد أهمية الإنسان فمن الطبيعي أن تجرد قواها كاملة لتضمّه إلى عالم الحق. فحيثما تكون ثمة حقيقة

مطلقة الصواب ينبغي نشرها، يسود العنف والقسوة كوسيلتين لذلك.أصبحت القيم جوهرا ،وصار الإنسان عرضا.

تُستمد القيم من طبيعة المجتمع الذي رسمه الإسلام، تلك القيم هي المعيار الوحيد لصواب المسار الذي ينبغي على المرء أن يسلكه، ذلك سيؤدي لامحالة إلى وجود نقيض؛ النقيض يسوغ صيانة القيم من جهة، والعمل على نشرها لتعمّ العالم من جهة ثانية، ففي المجتمع النصّي القرآني تمثل الثنائيات الضدّية دوراً حاسماً في شطر العالم إلى عالمين، ثمة تعارض ثابت ودائم بين الحق والباطل ،والخير والشر، والإيمان والكفر. ولايمكن أن يظل الصراع منحبساً في المصحف، واستناداً إلى مركزية كلام الله وقدمه، فإن العالم بتناقضاته قد صيغ على غراره. المجتمع الأرضي المنشود إنما هو محاكاة للمجتمع النصي، كما قرر ذلك علم الكلام ثم الشريعة الإسلامية. في نهاية المطاف، لا بد من انتصار وظفر، فكل من أهل الباطل والشر والكفر يتآكلون؛ لأنهم زاغوا عن الحق والخير والإيمان، والصراع محكوم بالثبات والديمومة، وأهل الحق هؤلاء أنيطت بهم مهمة خالدة: نشر كلمة الله في أرجاء الأرض، إذ ليس ثمة حدود نهائية تحول دون ذلك، وبالنظر إلى اختلاف العقائد والأديان والثقافات. فمن المنتظر أن يتعثر أهل الحق في مهمتهم، ولكن ينبغي عليهم الالتفاف حول كلمة الله، والتمسك بها، ونشرها، وذلك هو الجهاد. فالجهاد إذن وسيلة لحسم التناقض العقائدي، وإحلال الوحدة محل التعدد، وما دام نسق الثنائيات الضدية قائماً في صلب التفكير الديني فالجهاد لن يتوقف. إنه فعل محكوم بنظام لاهوتي عام. والحق فإن فعل الجهاد كممارسة تهدف إلى تحويل البشر إلى عقيدة واحدة، سيصطدم مع فرضية انشطار العالم إلى عالمين: دار الإسلام ودار الحرب. ولمّا كان الصراع يُعبّر عنه بتجليات مباشرة، فالمؤمنون يوضعون دائماً في تضاد مع الكافرين، وبينهم يتحرك المنافقون حركة مكوكية خادعة.

لقد أشار جاك بيرك إلى هذا التضاد الذي يحكم هذه الأطراف بالصورة الآتية "المؤمنون يتعارضون مع مختلف أجناس الخصوم، ويتعارضون حسب أنماط الغيرية. ويقف المؤمنون

إزاء الوثنيين والمشركين موقف التضاد المنطقي، وتنخفض حدة هذا التناقض إلى تعاكس بسيط . .في حال المنافقين الذين يظهرون وكأنهم مؤمنون، لكنهم ليسوا كذلك في الحقيقة .. تتحرك سلوكياتهم المراوغة بين جميع اللايقينيات والتقسيمات الناجمة عن ازدواج الوجود والفعل والكلام، وفي النهاية فهم ينضمون إلى جانب الباطل .. غير أن هنالك خصوماً آخرين سبق أن لمسهم الحق و بُلّغوا به، لكنهم يرفضونه ويخفونه. إنهم الكفار، هؤلاء الكفار لا يقدمون أنفسهم إذن كمنافقين، وإنما كتضمين للاعتقاد من ناحية الباطل"(١١) .

العالم طبقا للتصور العقائدي يحتاج إلى الانقسام أولا من أجل أن تكون الوحدة هي الهدف المنشود فيما بعد، ومادام الحق ينبثق من دار الإسلام فلابد أن تكون تلك الدار هي المركز ، بكل المعاني الثقافية والدينية والجغرافية والأخلاقية.وهذا فيما نرى الدافع وراء مركزية دار الإسلام طوال القرون الوسطى حسب التصورات الإسلامية. من الصحيح أنها تمددت جغرافيا في قلب العالم القديم،ولكن اعتبارها مركز الحق فاق المكون الجغرافي في تثبيت مركزيتها .ظهرت الجغرافيا لتسوغ كل ذلك.

٣ . مركزية دار الإسلام

من الطبيعي أن تجد المنظومات الثقافية تعبيرا لها في التواريخ والآداب والفلسفات،وفي نظُم التفكير والمواقف ،وفي كل هذه تتجلّى المركزية الإسلامية بدرجة أو بأخرى، ولكن من الواضح أن الجغرافيا هي الوسيلة الأكثر فاعلية في تحديد الأطر العامة للحدود الرمزية لتلك المركزية الإسلامية." دار الإسلام"– كمصطلح– كانت الجغرافيا قد لعبت دورا مباشرا في صوغه،مع أنها تدرك بوضوح أن الحدود السياسية كانت مثار تنازع وعدم استقرار.فكرة دار الإسلام هي التعبير الأكثر وضوحا لمفهوم المركزية الإسلامية.وقد سلّم الجغرافيون بهذه الحقيقة، وجعلوها موجّها لتصوراتهم.لم ينج أحد من ضغطها الواعي وغير الواعي في صوغ فرضياته،وتحديد منطلقاته في النظر إلى الذات والآخر.

تبدو صورة الأرض التي رسمها ابن حوقل في القرن الرابع الهجري)=العاشر الميلادي) أول محاولة جادة وتفصيلية لتقريب صورة الأرض في الثقافة الإسلامية. فالأرض كرة، تقع ديار العرب في قلبها تماماً،وفي المحيط الضيق للإطار المائي حول الأرض، بالكاد تظهر من ناحية المشرق والمغرب ممالك الكفار، ثمة تضخيم متعمد للصورة، خاص فقط بدار الإسلام. وكتاب ابن حوقل بكامله خصص لتلك الدار، وكأنها هي الأرض. لم يبذل هذا الجغرافي المشغول بالتفاصيل الكثيرة والمتنوعة بالعوالم الخارجة عن مجال العقيدة الإسلامية جهداً بديار الحرب المحصورة بين عالم هو المركز ومياه مظلمة. مدونته الضخمة لم تتطرق إلى غير العناصر المكونة لمملكة الإسلام. بدأها بديار العرب، ثم توسع إلى الغرب أولاً: المغرب، الأندلس، صقلية، مصر، ثم شمالاً: الشام، الجزيرة، العراق، واتجه شرقاً: خوزستان، فارس، كرمان، السند، أرمينية وأذربيجان، والران، الجبال، الديلم وطبرستان، مفازة خراسان، سجستان، خراسان، ما وراء النهر، ولم يهمل البحار التي تربط أطراف هذا العالم: بحر فارس، بحر الروم، بحر الخزر. ما عدا ذلك لا وجود له في تصوّر ابن حوقل. في الصفحة الأخيرة من كتابه يؤكد، لآخر مرة خطته الجغرافية، فما إن يصل إلى آخر المدن الصغيرة في منطقة ما وراء النهر،حتى يذكر مدينتين هما "شلاث" و "استياكند" ويقرر: هما ثغران، وإنما يذكران لمحلهما في الجهاد، وأنهما آخر الإسلام"(١٢).

هذا التصور سرعان مااتخذ طابعا ثقافيا، فليس ثمة مايرتجى منه خارج دار الإسلام. المقدسي في كتابه " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " يؤكد على أنه معني بدار الإسلام، وأهل هذه الدار غير معنيين بدار الكفر، وإنه لن يكلّف نفسه عناء البحث في ممالك الكفار، ولا يرى فائدة من ذكرها(١٣). حافظ كثير من الجغرافيين على هذا الميثاق الضمني، لكنّ الرحالة خرقوه، كما سنرى في تضاعيف أجزاء هذا الكتاب،وعلى الرغم من أنهم امتثلوا لشروطه ذهنيا،لكنهم تمردوا على قيوده الجغرافية، قلة قليلة جدا منهم ظهر لديهم تحفّظ على ذلك، لكنها تحفظات كادت تذوب في النسيج شبه المغلق للرؤية الثقافية العامة التي يتحركون في مجالها.

يُظهر ابن حوقل معلومات غزيرة فيما يخص أقاليم دار الإسلام، وفي الوقت نفسه يفاخر بجهل لا يُقبل فيما يخص الأقاليم الأخرى، وإذا كان معياره يقوم على أساس أن "انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة"(١٤) فإنه يرى أن هذه المكونات منعدمة إلا في دار الإسلام، ذلك يؤدي به إلى استبعاد كل ما يتصل بالعوالم: الرومية والصينية والهندية والإفريقية جنوب الصحراء الكبرى والأقوام الشمالية من إفرنجة وصقالبة وبلغار وأتراك وغيرهم. البصيرة العقائدية الضيقة، تسبب خطأ ثقافياً لا يغتفر، ينبغي طبقاً لمنظور ابن حوقل طمس الآخر واستبعاده. كل مَنْ لا يتنفس رحيق العقيدة الإسلامية، يعتبر مهملاً وفاقداً للخصال الأساسية التي تجعله مقبولاً في "أرض" ابن حوقل. تتأسس على هذا التصور نظرة مشوبة بالتبخيس إلى الآخر الذي يفتقر إلى مقومات دار الإسلام: الديانات، الآداب، الحكم، السياسة المستقيمة.

يكثّف ابن حوقل رؤية عرقية – دينية – ثقافية – جغرافية، يجعلها أساساً لقانون صارم، يرتب في ضوئه أهمية أقاليم الأرض، وينزّل "ديار العرب" في قلب الدائرة، إنها المركز المشع إلى الأطراف، يقول: "بدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليماً واحداً لأن الكعبة فيها، ومكة أم القرى، وهي واسطة هذه الأقاليم عندي، واتبعت ديار العرب بعد أن رسمت فيها جميع ما تشتمل عليه من الجبال والرمال والطرق وما يجاورها من الأنهار المنصبة إلى بحر فارس؛ لأنه يحفُّ بأكثر ديارها، ولأن بحر فارس يعطف من جزيرة مسقط مغرّباً إلى مكة وإلى القلزم عن خمسين فرسخاً من عمان، ويدعى ذلك رأس الجمجمة"(١٥) ثم يتوسع في أوصافه غرباً وشرقا، وبالنسبة إليه فالأقاليم المجاورة لديار العرب، إنما هي تخوم لها، أما ممالك الكفار فهي تخوم دار الإسلام. وتلازمه فكرة المركزية، فيعود لتأكيدها في تضاعيف كتابه، لكنه ليبرز هذه المرة، فضلاً عن الجانب الديني، الصفاء العرقي: "ابتدأت بديار العرب لأن القبلة بها، ومكة فيها، وهي أم القرى، وبلد العرب وأوطانهم التي لم يشركهم في سكناهم غيرهم" (١٦).

إن تخصيص ديار العرب بالأسباب المذكورة، دون غيرها من الأقاليم، إنما يضفي عليها

رفعة ذات مستويات متعددة ومتراكبة: التلازم الشديد بين مركزية دينية وعرقية وجغرافية وبين عوالم إن هي إلا امتداد لممارسة النفوذ المركزي بوجوهه المتنوعة تلك. إن الاتصال بين ديار العرب من جهة، والأقاليم الأخرى المكونة لدار الإسلام، من جهة، والانفصال بين دار الإسلام بأجمعها، ودار الكفر، تقوم على سلسلة معقدة من التبعية والاختزال والاستبعاد. فثمة مركز يضيء بأنواره عالماً محاذياً، يظل ممتداً إلى أن تضعف شدة النور في تخومه، فيسقط كل ما وراء ذلك في ظلام دامس. هنالك باستمرار تدفّق للقيم العليا من بؤرة ما إلى أطراف محيطة، اكتسبت قيمتها من تيار القيم النابع من ديار العرب. العالم الإسلامي يعيش دائماً تحت مديونية معنى للعرب، وكذلك العالم الآخر بالنسبة إلى المسلمين.

من المعلوم أن ابن حوقل نسخ الإصطخري في "المسالك الممالك" واحتذاه بألفاظه وتراكيبه، والتوسعات البسيطة التي تأتي كإضافات محدودة جداً في تضاعيف بعض الفصول، لا تؤكد إلا أن الكتابين كتاب واحد، ومَن يطّلع على مقدمة كتاب "صورة الأرض" يصاب بالعجب، لأنه تخطّى الإصطخري، وأغفله، ولم يأت على ذكر له، والحال، أن ابن حوقل، لا يستمد كتابه بكامله من كتاب الإصطخري، إنما يستعير الرؤية ذاتها التي ترتب شؤون الأقاليم لتحقيق فكرة التمركز حول الذات، فديار العرب هي "واسطة الأقاليم"، ومن سمائها انبثقت، أول مرة، الحقيقة الإلهية، وبالنسبة إلى المسلم آنذاك، فإن كل الأشياء تتوارى خلف هذه الحقيقة. كان الوعي، بأشكاله البسيطة الأولى، يتدفق عارماً في تيار ينطلق من المكان الذي لمست فيه كلمة الله وجه الأرض. الحجج التي يوردها ابن حوقل لتقديم العرب وديارهم، يأخذها بالحرف من الإصطخري (١٧). إنه يستأثر لنفسه بذخيرة المعلومات التي جهزها له الآخرون. فكرة الأقاليم بذاتها كانت شائعة من قبل، كما سنبيّن بعد قليل.

يمنح ابن خرداذبة، وهو من المؤسسين الأُول للجغرافيا الإسلامية في القرن الثالث الهجري (=التاسع الميلادي) أهمية استثنائية للبعد الديني، جاعلاً من مكة مركز الأرض، وإليها تتجه قلوب المؤمنين ووجوههم عدة مرات كل يوم، إنه لا يستخدم كلمة "مركز" أو "وسط"، ولكنه يركز فهماً مجازياً غايته الإعلاء من شأن التمركز. فالكعبة، قلب مكة،

وقلب ديار العرب، فدار الإسلام، تستقطب إليها اهتمام المسلمين، إنها "القبلة" التي تتكثف فيها، بوصفها مركزاً، كل أدعية الخلاص والتطهر والرغبة في نيل رضا الخالق. إنها مثل شمس تشد إليها الكواكب، وترسل أيضاً بأشعتها إلى العوالم المجاورة. يقول ابن خرداذبة :"فقبلة أهل أرمينية وأذربيجان وبغداد وواسط والكوفة والمدائن والبصرة وحلوان والدينور ونهاوند وهمذان وأصبهان والري وطبرستان وخراسان كلها، وبلاد الخزر وقشمير الهند إلى حائط الكعبة الذي فيه بابها وهو من القطب الشمالي عن يساره إلى وسط المشرق. وأما التبت وبلاد الترك والصين والمنصورة فخلف وسط المشرق بثمانية أجزاء لقرب قبلتهم من الحجر الأسود. وأما قبلة أهل اليمن فصلاتهم إلى الركن اليماني ووجوههم إلى وجوه أهل أرمينية إذا صلوا. وأما قبلة أهل المغرب وإفريقية ومصر والشام والجزيرة فوسط المغرب وصلاتهم إلى الركن الشامي، ووجوههم إذا صلّوا إلى وجوه أهل المنصورة (=مدينة كانت تقع في شمال غرب الهند أعلى مدينة الديبل) إذا صلوا. فهذه قِبل القوم والنحو الذي يصلون إليه"(١٨) . تتقاطع على أركان الكعبة تطلعات المؤمنين من المشرق والمغرب ومن الشمال والجنوب، هي مركز استقطاب وجذب ، ومركز إشعاع.

صاغت المدونات الجغرافية وعي المسلمين بعالمهم وعالم غيرهم، والواقع إنها مستندات على غاية من الأهمية في ترسيخ صورة(الأنا) وصورة (الآخر) لفترة طويلة جدا. ومع أن المدونات الجغرافية المباشرة ككتب البلدان والمسالك والممالك، وكتب الأقاليم بخاصة ،تقدم معلومات ثمينة عن دار الإسلام، وأحيانا تمرر معلومات عابرة وسريعة عن دار الحرب؛ فإن أكثر المعلومات أهمية عن العالمين قدمتها كتب الرحلات التي خصت العالم القديم بأجمعه تقريبا بملاحظات مباشرة ثمينة.ولهذا فقد كانت الكتب الجغرافية مثار نقد،تقدّم كتب الجغرافيا والرحلات مرويات عجائبية تكرّس تصورا ناقصا عن الآخر.

ينتقد أبو الفداء الموروث الجغرافي الذي تراكم إلى زمنه في القرن الثامن الهجري (=الرابع عشر الميلادي) بادئاً بابن حوقل الذي يسجّل عليه عدم ضبطه للأسماء والأطوال والعروض الأمر الذي قاد إلى جهل في مواقع الأقاليم، لكن من الواضح أنه لم يكتشف أن كتاب ابن

حوقل استنساخ لكتاب الإصطخري، لكنه يشير إلى أن الإدريسي وابن خرداذبة وغيرهما حذوا حذو ابن حوقل في عدم التعرض إلى تحقيق الأسماء، دون أن يلاحظ أن ابن خرداذبة متقدم على ابن حوقل بنحو قرن من الزمان، ثم يتجاوز هذه الملاحظة التي تكشف أن بعض الجغرافيين يستعيدون المعلومات ذاتها، وينتقل إلى نقطة جديرة بالملاحظة، وهي اقتصار أولئك الجغرافيين على وصف دار الإسلام "إن جميع الكتب المؤلفة في هذا الفن لا تشتمل إلا على القليل إلى الغاية، فإن إقليم الصين مع عظمته وكثرة مدنه لم يقع إلينا من أخباره إلا الشاذ النادر، وهو مع ذلك غير محقق. وكذلك إقليم الهند فإن الذي وصل إلينا من أخباره مضطرب، وهو غير محقق، وكذلك بلاد البلغار وبلاد الجركس وبلاد الروس وبلاد السرب وبلاد الأولق وبلاد الفرنج من الخليج القسطنطيني إلى المحيط الغربي، فإنها بلاد كثيرة وممالك عظيمة متسعة إلى الغاية، ومع ذلك فإن أسماء مدنها وأحوالها مجهولة عندنا، لم يذكر منها إلا القليل النادر، وكذلك بلاد السودان في جهة الجنوب، فإنها أيضاً بلاد كثيرة لجنوس مختلفة من الحبش والزنج والنوبة والتكرور والزيلع وغيرهم، فإنه لم يقع إلينا من أخبار بلادهم إلا القليل النادر، وغالب كتب المسالك والممالك، إنما حققوا بلاد الإسلام" (١٩).

يمهد هذا النقد إلى أن أبا الفداء سيتخطى عثرة أسلافه، بأن يسدّ ذلك النقص الذي أصبح ظاهرة ملفتة للنظر، خاصة وأن دار الإسلام قد تمزقت إلى أشلاء سياسية متناثرة في عصره، وفعلاً سوف يسعى إلى ذلك بدرجة ما، لكنه ما إن يفرغ من العموميات التقليدية الخاصة بأجزاء الأرض وأقاليمها ومقاساتها وبحارها وأنهارها وجبالها،حتى تقوده الحاجة المباشرة للوقوف على التفاصيل إلى حيرة واضحة في كيفية ترتيب الأماكن ولا يستطيع أن يعثر على حل لاختيار البداية المناسبة إلا باللجوء إلى ابن حوقل نفسه "أما ترتيب الأماكن وتقديم بعضها على بعض في الذكر فإنه لم يتهيأ لنا فيه ترتيب يرضينا، فتبعنا فيه ابن حوقل، وابتدأنا بجزيرة العرب لكون بيت الله الحرام، وقبر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام فيها(٢٠).

يتبنى أبو الفداء ترتيب ابن حوقل، القائم في الأصل على ترتيب الإصطخري، وهو الترتيب القائم على أسس دينية وعرقية وثقافية، لكنه في الوقت نفسه يوسع المجال في التفاصيل الداخلية للترتيب، فما إن يفرغ من ذكر جزيرة العرب، ويتجه غرباً للحديث عن مصر والمغرب والأندلس، كما فعل أسلافه، حتى يفرد صفحات قليلة لـ"الجانب الجنوبي من الأرض وهو بلاد السودان"، ثم مثلها لـ"جزائر بحر الروم والمحيط الغربي"، ثم يقف على "الجانب الشمالي من الأرض"، وذلك قبل أن يتابع ترتيب الأوائل، في المشرق فيتمكن من الوقوف على "الهند" و "الصين" و "جزائر بحر الشرق"، ثم "بلاد الروم". ولكن الملاحظ أنه يزيد في تفاصيل البلاد الإسلامية المشرقية، فيضيف إلى قائمته "زابلستان والغور" و "طخارستان وبذخشان" و "خوارزم". هذه التفاصيل تكشف عن التفكك السياسي لدار الإسلام. فالأقاليم الثلاثة الأخيرة كانت تدرج من قبل ضمن "خراسان". ولاتظهر في مدونات السابقين عليه.

بلاد ما وراء النهر، آخر الأقاليم الإسلامية المشرقية، انبثق فيها بلد هو "تركستان". وهكذا فإن أبا الفداء المتأخر بأكثر من أربعة قرون في الأقل عن اللحظة التي صيغت فيها مركزية دار الإسلام، وجد نفسه أمام واقع مختلف، فقد ذابت الأطراف السياسية الصلبة لدار الإسلام، تلك الثغور كان جهادها كافياً لإدراجها في تلك الدار، كما هو الأمر عند الإصطخري وابن حوقل، وثمة قوى أخرى فرضت حضورها خارج دار الإسلام. وعموماً لم تعد دار العقيدة الإسلامية عالماً مقفلاً محاطاً بأعداء فقط، فالعداء انتقل إلى الداخل أيضاً.

لم يمتلك أبو الفداء الجرأة الكافية والمطلوبة لنقض سنّة القدماء، فمضى يعمل على هديها، لكنه، في كل مرة كان يصطدم بحقائق جديدة لم تكن ظهرت من قبل. وعلى العموم فقد شذّ نسبياً عن الحدود الموروثة، وأضاف إلى قائمته معظم البلاد التي كان يُحذّر من قبل الخوض في تفاصيلها، باعتبارها دار حرب، لكنه اختزلها إلى مجرد أقاليم شبه خالية من الإنسان، إذ لم يلتفت إلى المكونات الثقافية الخاصة بهذه البلاد، إلا بصورة خاطفة، لا تغني، ولا تترك أثراً لدى المتلقّي، وفي كتابه الكبير الذي يربو على خمسمائة صفحة، لم

يستأثر الآخر، بشروح تفصيلية تزيد على نسبة ٥٪ من حجم الكتاب، وهي نسبة خصص معظمها لتقويم الأسماء والقياسات. سيتكفل الرحّالة بسد هذا النقص.

تحدثنا عن مركزية دار الإسلام كمجال للقيم الثقافية والعقائدية ، ولكن ليس من الصواب إهمال الموجهات السياسية، فحيثما يكون المركز السياسي لدار الإسلام تكون تكون البلاد هي المركز، وهكذا فإن الوجود العباسي في بغداد سرعان ما جعل من العراق أكثر البؤر أهمية داخل دار الإسلام، وقامت الأدبيات الجغرافية كما سنرى بتسويغ ذلك. العامل السياسي الذي هو أحد تجليات المنظومة القيمية يتدخل ولمدة طويلة ، في اعتبار والعراق قلب العالم بأجمعه، الأمر الذي يكشف أن الجغرافيين يدمجون بالمعطيات الدينية أخرى سياسية .سنرى فيمايلي كيف تتم إعادة تكييف المرويات والمعطيات من أجل تسويغ فكرة التمركز.فداخل المركزية الكبرى تتربع مركزية أخرى أكثر فاعلية.

٤ .مركزية العراق

نُظر إلى العراق، طوال العصر العباسي، على أنه مركز العالم، وأفضل الأقاليم، ولا تخفى الأسباب السياسية والثقافية الكامنة وراء موقف الجغرافيين والمؤرخين هذا. والواقع إن عوامل كثيرة توجّه عمل هؤلاء، وتؤثر في رؤاهم ومواقفهم،والقول بمركزية الإقليم الرابع هو في الأصل إيراني(٢١) ولم يكن موقفهم من مركزية العراق بمنأى عن التأثيرات النافذة في ذلك العصر، ولا يتردد ابن خرداذبة في جعل بغداد مركزاً سياسياً واقتصادياً للعالم القديم، لأنها عاصمة دار الإسلام في زمنه، وغالباً ما تمارس الجغرافيا إكراها مقصودا، فترتّب أقاليمها، ليكون العراق في أفضل تلك الأقاليم، وبغداد في أفضل الأقسام منها. وهذا الأمر هو الذي يدفع ابن خرداذبة للحديث عن سواد العراق، وذلك قبل أن ينتقل لتثبيت بغداد واسطة جغرافية للعالم القديم، فيبدأ بتقدير المسافات بينها وأقاليم المشرق إلى خراسان، بما في ذلك الوقوف على المدن المهمة الواقعة على الطريق الموصل إلى بغداد، وينصرف بعد ذلك إلى الحديث عن الطريق منها إلى المغرب، وهكذا الأمر بالنسبة إلى مكة وغيرها. بغداد هي

المركز الذي يستقطب اهتمام الجميع، إنها بالنسبة إلى ذلك العصر، البؤرة المشعة على الأطراف، وعليه فكتاب ابن خرداذبة "المسالك والممالك" يجعلها المكان الذي منه يتجه وإليه يصل كل ماله علاقة بدار الإسلام،إضافة إلى ذلك فهو دليل سفر بالمسافات بالنسبة إلى الرحالة والمسافرين والجند والتجار والحجاج، وكل من يرهن حياته بالأسفار والارتحال.من يبتغي المجد، ويستأثر بالاهتمام، عليه الاتجاه إلى دار السلام.

وليس من المصادفة أن يلحق بالكتاب المذكور، كتاب "الخراج وصنعة الكتابة" لـ"قدامة بن جعفر" . فهو مكمّل له، لأنه، فضلاً عن اهتمامه بالطرق والمسافات يعنى أساساً بـ"الخراج" أي خراج البلاد المكونة لدار الإسلام. ولكنه ينطلق أيضاً من اعتبار مركزية بغداد "نبدأ بالطريق المأخوذ فيه من مدينة السلام إلى مكة، وهو المنسك الأعظم وبيت الله الأقدم" ، فبالنسبة إليه، يحتل الأمر أهمية استثنائية "لأن قصبة مملكة الإسلام بلد العراق"(٢٢) . ولهذا فإن قدامة بن جعفر، ما إن ينتهي من الطرق والمسافات حتى يحرص أشد الحرص على ذكر كميات الخراج المتحصلة من كل إقليم ومدينة وقصبة، إنها إحصاءات دقيقة يوردها بالدينار والدرهم تبيّن الموارد المالية لدار الإسلام،وهي تصب في بغداد، وبعد ذلك تأتي "ثغور الإسلام والأمم والأجيال المطيفة بها"(٢٣) ويفرد لها مكاناً للحديث عن مواردها المالية، ومقدار ما تدفعه لدار الإسلام.

تظهر بغداد، ومن بعدها دار الإسلام لدى ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر بوصفها مركز الاتصال والتداول المالي في القرن الثالث. ويفرد ابن حوقل مكانة خاصة للعراق في كتابه "صورة الأرض" . ويركّب له صورة خاصة ، مؤكداً على موقعه الاستثنائي في ذهنية الكتّاب والمؤرخين والجغرافيين القدامى، فالعراق "أعظم أقاليم الأرض منزلة، وأجلّها صفة، وأغزرها جباية، وأكثرها دخلاً، وأجملها أهلاً، وأكثرها أموالاً، وأحسنها محاسن، وأفخرها صنائع، وأهله فأوفرهم عقولاً، وأوسعهم حلوماً، وأفسحهم فطنة في سالف الزمان والأمم الخالية، وبمثله تجري أمور أمة الآخرة، يقر بذلك لهم أهل الطاعة والفضائل، ولا يمتري فيه أهل الدراية والحصائل"(٢٤) . ويلاحظ أن الجغرافيين العرب في الوقت الذي يقدّمون فيه

تفصيلات كثيرة عن العراق ومدنه، فإنهم غالباً ما يعتذرون بأنهم لم يكونوا مبالغين فيما أوردوه من ناحية، وإن كل ما في العراق شائع ومعروف في زمنهم من ناحية ثانية. وكأنهم يريدون إبراز الفكرة القائلة بعدم ضرورة التعريف بالمعروف، وهو أمر يظهر بوضوح عند الإصطخري وابن حوقل(٢٥).

مدينة السلام، تحظى باهتمام بالغ في الجغرافيا القديمة، وهو أمر متصل باعتبارها عاصمة دار الإسلام. وما ينطبق على العراق، يكاد ينطبق على بغداد، فالإصطخري يشعر بحرج وهو يعرّف بها، لأنها المدينة المفتّحة والمعروفة للجميع "لم نُكثر من وصف بغداد لاشتهار وصفها عند الخواص والعوام، فاكتفينا من وصف بغداد بجملة يسيرة ذكرناها لئلا يطول به الكتاب"(٢٦) .

يمكن اعتبار محاولات ابن خرداذبة وقدامة، ثم الإصطخري وابن حوقل،ممهدات بلورت لوضع العراق في المركز ،لكن المسعودي المعاصر للأخيرَين، وقد عُرف بتوسعاته الثقافية، يعالج تلك المركزية من منظور أشمل؛ إنه يدرج أسبابا متعددة لها، ويعيد ترتيب المعطيات الشخصية والموضوعية بكل تنوعاتها ليجعل من العراق مركز استقطاب استثنائي في القرن الرابع الهجري ،ومدخله سيكون ذاتيا؛ إذ يعلن اعتزازه بالبلد "وأوسط الأقاليم الإقليم الذي ولدنا به" وما يختص به "كثرة مرافقه، واعتدال أرضه، وغضارة عيشه، ومادة الرافدين إليه، وهما دجلة والفرات، وعموم الأمن فيه، وبُعد الخوف عنه، وتوسطه الأقاليم السبعة، وقد كانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد؛ لأن أرضه من إقليم بابل الذي تشعّبت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما يقع ذلك عن القلب، وبذلك اعتدلت ألوان أهله، واقتدرت أجسامهم، فسلموا من شُقرة الروم والصقالبة، وسواد الحبشة، وغلظ البربر، ومن جفا من الأمم، واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار، وكما اعتدلوا في الجِبلة كذلك لطفوا في الفطنة، والتمسك بمحاسن الأمور، وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام"(٢٧).

كتب المسعودي هذا الكلام في مصر، وهو بعيد من العراق. ومن الواضح أن نبرة الحنين إلى مسقط رأسه، كانت تعمل خفية على ترتيب أفكاره وأحكامه، وشأنه شأن معظم

الجغرافيين القدامى، فإنه يمنح الموقع الجغرافي قيمة عليا في تحديد الطبائع البشرية وسلوك الأفراد وصفاتهم، وهي فكرة ظلت فاعلة في مسار الفكر الإنساني حتى العصر الحديث،وتعزى أصولها الأولى إلى اليونان ،لكن أرسطو طرحها كنظرية ضمن كتابه "السياسة"(٢٨) وقد اصطلح عليها نظرية "الكيوف الطبيعية" .وهي تربط بشكل مباشر بين المناخ والطبع،وتضفي تفوقا وقيمة على الأقوام بحسب اعتدال المناخ، كما سيأتي، وكنّا وقفنا من قبل بالتفصيل على نقد هذه النظرية وتجلياتها في الفكر الغربي الحديث(٢٩).

وكما نظر أرسطو إلى اليونان باعتبارها مركز العالم، نظر المسعودي إلى العراق باعتباره قلب العالم، إنه المكان الذي توافرت فيه كل الأسباب التي تؤهله لكل ذلك: الاعتدال، غضارة العيش، الماء، الأمن، الطمأنينة، توسط أقاليم الأرض، الحكمة، ولذلك اعتدل أهله في ألوانهم وأفكارهم وأجسامهم. باختصار بالنسبة إلى المسعودي، اجتمعت في أهله وفيه محاسن جميع الأقطار. ما ذكر المسعودي قط أية مساوئ ! ومن الصعب فصل العلاقة الوثيقة بين المسعودي والعراق، فهو لم يترك أية مسافة بينه وبين موضوعه للنظر المحايد وتقديم الأحكام النهائية. ومن الواضح أن غربته في مصر قد شحذت أفكاره بشفافية الحنين إلى الوطن وجعلته يغض الطرف عن أشياء كثيرة. أضف إلى ذلك فإن حالته النفسية قد حجبت عنه المساوئ، وكان يذعن لمؤثرات الثقافة السائدة. لم ينظر المسعودي إلى العراق إلا بوصفه نموذجاً مثالياً لكل شيء، على أن هذه الأحكام لم تكن منفصلة عمّا استقر لدى معظم الجغرافيين والمؤرخين من تصور بخصوص مركزية العراق قبل القرن الرابع كما أشرنا قبل قليل.

يلحّ المسعودي في إيراد البراهين على هذه المركزية؛ ويقدّم في كتابه " التنبيه والإشراف" براهين مضافة،ففي سياق حديثه عن الأقاليم السبعة يصل إلى العراق الذي هو أوسط تلك الأقاليم، ولذلك فهو" شرف الأرض وصفوتها" وموضعه، هو" الموضع الذي ينقسم فيه الزمان إلى أربعة أقسام، فلايخرج ساكنوه من شتاء إلى صيف حتى يمر بهم فصل الربيع، ولاصيف إلى شتاء حتى يمرّ بهم فصل الخريف. ولما ذكرنا توسطه، كانت ملوك سالف الأمم

تحلّه، إذ كان نسبة الملك إلى المملكة التي هو عليها نسبة القلب إلى البدن الذي هو فيه. فكما كان الله عزّ وجلّ بلطيف حكمته إذ خلق القلب أشرف الأعضاء، أحلّه من البدن أوسطه، كانت هذه سبيل الملك من مملكته. وكانت قدماء الملوك تقول الملك الأعظم مركز لدائرة ملكه، بعده من محيطها بعد واحد، وتدٌ مركوز، وعلم منشور، منه يُستمد التدبير، وإليه تردّ الأمور. لذلك يقال إن الملك الأعظم والمدبّر الأكبر ينبغي أن يكون منزله الواسطة من هذه الأقاليم" واستنادا إلى كل هذه الحجج،يعتبر" العراق أشرف المواضع التي اختارتها ملوك الأمم"(٣٠) .

مادمنا نتحرك في مجال خاص بالمسعودي، فمن المفيد الوقوف تفصيلياً على وثيقة غاية في الأهمية يوردها في "مروج الذهب"، ويؤكد أنها تعود إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ومع أن أفكارها وأحكامها شديدة الشبه بما كان شائعاً خلال عصر المسعودي، فإن تأكيد المسعودي على أنها متصلة بصدر الإسلام، وأنها مكتوبة خصيصاً من أحد "حكماء" ذلك العصر، جواباً عن سؤال وجهه إليه عمر بن الخطاب، يضفي عليها أهمية استثنائية لأنها تكشف أن النظر إلى العراق باعتباره مركزاً قد تشكّل في وقت مبكر جداً، وقد ركّبت عناصر الوثيقة طبقا لآيدلوجيا التمركز المتأخرة، ومتن الوثيقة يوافق مناخ التفكير السائد في العصر العباسي.

تكشف ما سوف نصطلح عليه بـ"وثيقة عمر" جملة من الأمور الأساسية، ولعل أهمها كلها أن الحكيم الذي كتبها وبعثها إلى عمر، كان ينظر إلى العالم على أنه ثلاثة عوالم، أولها: العالم العربي، وفيه: الشام ومصر والحجاز والمغرب والعراق والجزيرة، وثانيها: العالم الإيراني ،وفيه :الجبال وخراسان وفارس وخوزستان، وثالثها: الهند والصين وبلاد الروم، وهو التقسيم التقليدي الشائع آنذاك :دار العرب، ودار الإسلام ،ودار الحرب. لكن نظرته كانت ترتب هذه العوالم حسب أهميتها، وحسب أهمية البلدان فيها، وهذا يكشف أن هذه الوثيقة، تضع العراق في المركز ثم تنضّد البلاد الأخرى إلى جانبيه شرقاً وغرباً، فهو المركز بالنسبة إليها كما سيتضح.

يسند المسعودي الخبر الخاص بـ"وثيقة عمر" إلى "ذوي الدراية" الذين ذكروا أن الخليفة الراشدي الثاني حين تم له فتح العراق والشام ومصر، وبلاد أخرى، كتب إلى حكيم من حكماء العصر: إنّا أناس عرب، وقد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبوأ الأرض، ونسكن البلاد والأمصار، فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها، وما تؤثره التربة والأهوية في سكانها. فكتب إليه ذلك الحكيم: " بأن الله قسّم الأرض أقساماً: شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، فما تناهى في التشريق فهو مكروه لاحتراقه وناريته وحدته وإحراقه لمن دخل فيه، وما تناهى مغرباً أيضاً أضر سكانه؛ لموازاته ما أوغل في التشريق، وهكذا ما تناهى في الشمال أضرّ ببرودته وقرّه وثلوجه وآفاته الأجسام فأورثها الآلام، وما اتصل بالجنوب وأوغل فيه أحرق بناريته ما اتصل به من الحيوان؛ ولذلك صار المسكون من الأرض جزءاً يسيراً، ناسب الاعتدال، وأخذ بحظه من حسن القسمة" وبعد أن ينتهي الحكيم من مقدمته المنطقية هذه التي تستعيد في تضاعيفها أفكار بطليموس وجالينوس، ينتقل ليصف القطع المسكونة من الأرض، على الوجه الآتي: "أما الشام فسحب وآكام، وريح وغمام، وغدق وركام، ترطب الأجسام، وتبلّد الأحلام، أما أرض مصر فأرض قوراء غوراء، ديار الفراعنة، ومنازل الجبابرة، تحمد بفضل نيلها، وذمّها أكثر من حمدها، هواؤها راكد، وحرّها زائد، وشرها وارد، تكدّر الألوان، وتجنب الفطن .. وفي أهلها مكر ورياء، وخبث ودهاء وخديعة، إلا أنها بلد مكسب لا بلد مسكن، لترادف فتنها، واتصال شرورها. أما اليمن فيضعف الأجسام، ويذهب بالأحلام، أما الحجاز فهواؤه حرور، وليله بهور، ينحف الأجسام، ويجفف الأدمغة، ويشجع القلب، ويبسط الهمم، أما المغرب، فيقسّي القلب، ويوحش الطبع، ويطيش اللب، ويذهب بالرحمة، ويكسب الشجاعة، ويقشع الضراعة، وفي أهله غدر، ولهم خبث ومكر، ديارهم مختلفة، وهممهم غير مؤتلفة. أما العراق فمنار الشرق، وسرّة الأرض وقلبها، إليه تحادرت المياه، وبه اتصلت النضارة، وعنده وقف الاعتدال، فصفت أمزجة أهله، ولطفت أذهانهم، واحتدت خواطرهم، واتصلت مسراتهم، فظهر منهم الدهاء، وقويت عقولهم، وثبتت بصائرهم، وقلب الأرض العراق،وهو المجتبى من قديم الزمان، وهو

مفتاح الشرق، ومسلك النور، ومسرح العينين، ومدنه المدائن وما والاها، ولأهله أعدل الألوان، وأنقى الروائح، وأفضل الأمزجة، وأطوع القرائح، وفيهم جوامع الفضائل، وفوائد المبرات، وفضائله كثيرة؛ لصفاء جوهره، وطيب نسيمه، واعتدال تربته، وإغداق الماء عليه، ورفاهية العيش به" .

ما إن ينتهي حكيمنا من العالم العربي، حتى ينتقل إلى العالم الإيراني، ليستأنف أوصافه التبخيسية التي خصّ بها الشام ومصر واليمن والحجاز والمغرب، باستثناء العراق الذي ركّب له صورة تبجيلية شفافة، وهنا نلاحظ مرة أخرى ظهور أحكام القيمة السلبية؛ فـ"الجبال" تخشن الأجسام وتغلظها، وتبلد الأفهام وتقطّعها، وتفسد الأحلام، وتميت الهمم. وأما خراسان فتكبر الهمم، وتعظم الأجسام، وتلطف الأحلام، ولأهلها عقول وهمم طامحة، وفيهم غوص وتفكير، ورأي وتقدير، أما فارس فخصب الفضاء، رقيق الهواء، متراكم الماء، معتم بالأشجار، كثير الثمار، وفي أهله شح، ولهم خب، وغرائزهم سيئة، وهممهم دنيئة، وفيهم مكر وخداع، أما خوزستان فهي كدرة الأهواء، تفسد الأحلام، وتبلد الأفهام، وتخبث الهمم، وتستأصل الكرم، يساق أهله سوق الأنعام، وهم الهمج الطّغام، ثم يمر على "الجزيرة" ويتقدم بوصيته الثمينة للخليفة: واعلم: يا أمير المؤمنين - أن الله تبارك وتعالى قسم الأرض أقساماً، فضّل بعضها على بعض، فأفضل أقسامها العراق، فهو سيد الآفاق، وقد سكنه أجيال وأمم ذوو كمال. وأخيراً في سطر واحد يجمل كل ما يتصل بدار الحرب: وأما الهند والصين وبلاد الروم فلا حاجة بي إلى وصفها لك؛ لأنها منازل شاسعة، وبلدان نائية، كافرة وطاغية (٣١).

قبل أن ننتقل إلى تحليل هذه الوثيقة، يحسن أن نردفها بجواب كعب الأحبار عن سؤال تقدم به إليه أيضا عمر بن الخطاب عن العراق، فكان نص جوابه: يا أمير المؤمنين، إن الله لما خلق الأشياء ألحق كل شيء بشيء، فقال العقل: أنا لاحق بالعراق، فقال العلم: وأنا معك. فقال المال: وأنا لاحق بالشام، فقالت الفتن: وأنا معك. فقال الخصب: وأنا لاحق بمصر، فقال الذل، وأنا معك. فقال الفقر: وأنا لاحق بالحجاز، فقالت القناعة: وأنا معك. فقال

الشقاء وأنا لاحق بالبوادي، فقالت الصحة: وأنا معك[٣٢].

تكشف هذه الوثيقة مجموعة من الإكراهات التي تهدف إلى تثبيت فكرة يستبعد أنها كانت موجودة في العقد الثاني من القرن الهجري الأول، والحقيقة أن الشرعية الجغرافية والثقافية القائلة بمركزية العراق في العالم الإسلامي بدأت مع العباسيين،وإن كانت الفكرة موجودة في الفكر الإيراني القديم، لكنها نشطت وقوّيت حججها في القرنين الثالث والرابع، ولهذا فإن المسعودي من القرن الرابع كان مشبعاً بأسس تلك الشرعية إلى درجة لم يشكك بها، لكن النقد الداخلي لهذه الوثيقة سيضعف منطقها وحججها، وأول ما يلاحظ أن الوثيقة تتحدث عن بلاد المغرب بصفتها جزءاً من العالم الإسلامي ،والحقيقة أنها لم تُفتتح في خلافة عمر، ومحاولات عثمان بن عفان الأولية لم تفلح في فتحها إلى أن قام معاوية بن أبي سفيان، بعد انقضاء الخلافة الراشدية بعشر سنين، أي في عام ٥٠هجرية الموافق ٦٧٠ميلادية بتكليف عقبة بن نافع بأمر الفتح، وهو الذي بنى القيروان. ولكن لم يستتب الأمر للمسلمين في المغرب، أو ما كان يسمى آنذاك بإفريقية، فما إن عزل عقبة بن نافع حتى جرى تمرد واسع، فما كان من الأمويين إلا إعادة عقبة ثانية. والسيطرة النهائية على هذه البلاد لم تتم إلا قرب نهاية خلافة عبد الملك بن مروان (= حكم ٦٥–٨٦ = ٦٨٥–٧٠٥م) حينما تم القضاء على "الكاهنة" التي تلقب بـ"ملكة البربر" نحو سنة ٨٣= ٧٠٢م. ليس ذلك فحسب، بل إن المصادر تورد أن عمر بن الخطاب نفسه كان منع عمرو بن العاص من الإقدام على فتحها، فقد كتب إليه "لا تدخل إفريقية فإنها مفرّقة لأهلها غير مجمّعة، ماؤها قاسٍ ما شربه أحد من العالمين إلا قست قلوبهم"[٣٣].إضافة إلى ذلك فالمصادر كانت تصفها دائماً بأنها بلاد البربر. والأمر الثاني الذي له الدرجة نفسها من الأهمية هو الحديث عن خراسان وخوزستان وبلاد فارس والجبال، أو ما اصطلح عليه بـ"العالم الإيراني". فلا يمكن الادعاء أن هذه البلاد فتحت جميعها في خلافة عمر، ذلك أن الحدود الشرقية والشمالية لهذه البلاد تقع بعيداً في وسط آسيا. والصواب أن أجزاء منها فقط تم فتحها، وبعد مدة طويلة تم فتحها كلها. وهنا يظهر الأمر الثالث الخاص بتقسيم كل البلاد التي

أشار "الحكيم" إليها: دار الإسلام ودار الحرب، كما هو واضح من وصفه للصين والهند وبلاد الروم بأنها "كافرة طاغية".

يرجّح أن هذا التقسيم متأخر لأنه ظهر بعد ظهور التخوم الفاصلة بين الدارين المذكورتين. وعلى الرغم من أن هذه المطاعن تضعف من الأهمية التاريخية للوثيقة، لكنها لا تمس القيمة الآيديولوجية التي تتشبع بها، إنها تريد دمج جملة من المعطيات المتفرقة: الجغرافية،و التاريخية، والثقافية، والعرقية، للإعلاء من شأن قضية معينة، ومع أنه لا يستبعد أن التنافسات والسجالات السياسية بين العراق وبلاد الشام ومصر والمغرب–وقد بدأت تتشكّل في بعضها كيانات سياسية– وجهّت هذه الوثيقة وجهتها المذكورة، وهي سجالات كانت حامية كما هو معروف في الأدبيات التاريخية. فإن معظم مضامينها مشتقة من المعلومات الجغرافية التي كانت قد بدأت بالشيوع في القرن الثالث.

فكرة دار الإسلام ومركزها العراق تشكّلت بسبب من تثبّت المنظومة العقائدية الإسلامية، بعد أن توقف المسلمون عن التقدم، وقد كانت دارا شعورية تغذيها الثقافة الإسلامية، وتنشط فيها منظومة قيم متماسكة تقبل أحيانا تفسيرات متقاربة،ولكنها تنظر إلى الآخر بتوجّس ، والأمر الذي يستأثر بالاهتمام هو صورة الآخر خارج المجال المشبع بالعقيدة الإسلامية كما ظهرت في المدونات الجغرافية. فعن كل تمركز لابد أن تتادّى صورة مشوهة للآخر.

٥ .المركزية الإسلامية وصورة الآخر

إن الصورة الإكراهية التي ركبتها الأدبيات الجغرافية القديمة للآخر ما زالت فاعلة ومتحكمة في تصورات كثير من الجغرافيين، وبما أننا سنقف على تفاصيل تلك الصورة في أجزاء الكتاب الآتية بحسب القارات، فيحسن إثارة الموضوع هنا لكونه متصلا بالمركزية الإسلامية ونظرتها إلى الآخر.

أفرد أبو الفداء بابا في كتابه للحديث عن الزنوج في الجزء الجنوبي من الأرض، وهو ما

يعرف بـ"بلاد السودان" (=علما بأن الجغرافيين يتحدثون عن الزنج والسودان والأحباش والنوبيين،وهم موزعون في الجنوب الشرقي لأفريقية، والمناطق الوسطى والغربية منها ،ثم السواحل الشرقية العليا، وأخيرا ضفاف النيل العليا، وذلك على التوالي) ولكنه منذ اللحظة الأولى يتبنى الأحكام الشائعة، فاعتماداً على ابن سعيد(= الذي يروي عن ابن فاطمة) يرى بأن السودان عراة، وهم مهملون، وأنهم كالبهائم، وعادتهم أنهم يأكلون من وقع إليهم من الناس[٣٤]، وهم كفار، وحينما يواجه بضرورة ذكر التفاصيل، فإنه استناداً إلى ابن سعيد يجد على سبيل المثال، أن سكان أعالي النيل "مذمومون بين أجناس الحبشة، وقد اشتهر عنهم أنهم يخصون من يقع إلى أيديهم. ويدفعون ذكور الآدميين في صدقاتهم ويفتخرون بذلك"[٣٥] .

وتبدو المعلومات التاريخية والاجتماعية والدينية ضحلة جداً في كتاب أبي الفداء، فيما يخص الآخر، ففي أحاديثه المقتضبة عن جزائر المحيط وبلاد الروم والقسم الشمالي من الأرض والهند والصين، يتجنّب الخوض في المنظومات القيمية والثقافية، ويعنى فقط بالمسافات والأسماء، وكأنّ هذه البلاد خالية من الجنس البشري، ولو انتخبنا مثالاً على ذلك حديثه عن بريطانيا، لوجدناه يعرفها بالصورة الآتية: "من جزائر البحور المتفرعة عن البحر المحيط الغربي جزيرة بريطانية في بحر برديل ،وهو البحر الخارج في شمال الأندلس، وليس بهذه الجزيرة ماء إلا من الأمطار، وعلى ذلك يزرعون، وجزائر بريطانية إحدى عشرة جزيرة، ومن الجزائر المشهورة جزيرة إنكلطرة، ويقال إنكلترة .. وفي هذه الجزيرة مدينة ليندرس(=لندن) .. وفي هذه الجزيرة معدن الذهب والفضة والنحاس والقصدير، وليس فيها كروم لشدة الجمد، وأهلها يحملون جواهر هذه المعادن إلى بلاد إفرنسة، ويتعوضون به الخمر. فصاحب فرنسة إنما كثر الذهب والفضة عنده من ذلك .. وفي شمالي جزيرة إنكلترة وبعض شمالي بريطانية جزيرة إرلندة .. وهي مشهورة بكثرة الفتن، وكان أهلها مجوساً ثم تنصّروا اتباعاً لجيرانهم"[٣٦] .ما الذي سيرتسم في المخيال عن الإنجليز سوى :استبدال الخمرة الخسيسة بالمعادن النفيسة ،والفتن، والعقائد الوثنية التي بالكاد ثلمها التنصّر؟.

ولم يكن المسعودي بمنأى عن السقوط في هوة الحكم القيمي بحق الآخر، فأهل الشمال بسبب الأحوال المناخية الباردة "عظمت أجسامهم، وجفت طبائعهم، وتوعّرت أخلاقهم، وتبلدت أفهامهم، وثقلت ألسنتهم، ومَن أوغل إلى أقصى الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاوة والبهائمية .ومَن كان في الإقليم السادس فإنهم في عداد البهائم"[٣٧].

من المعروف أن الجغرافيا الإسلامية قد ورثت عن الإغريق والفرس والهنود فكرة الأقاليم، وفكرة الطبائع، والعلاقة بينهما [٣٨]،وهما في الجغرافية البشرية الإسلامية مترابطتان ، فالموقع الجغرافي هو الذي يحدد طبائع البشر وأخلاقهم وعقلياتهم وألوانهم،فالتلازم بينهما تلازم نتيجة بسبب .إذ الظروف المناخية للإقليم حسب اعتقاد القدماء تتدخل مباشرة في تشكيل الطبائع والعادات والأشكال وطرائق التفكير والرغبات .وقد أخذ الجغرافيون بهذه العلاقة وبنوا عليها تصوراتهم وتصنيفاتهم للأجناس البشرية .وقد نقد كراتشكوفسكي خضوعها للنظريات العلمية الموروثة عن الأوائل[٣٩] وكنّا أشرنا إلى أنها وظّفت معطيات نظرية الكيوف الأرسطية في مجال رؤية الآخر، وقد وجه نقد إلى جغرافيا الأقاليم وما ترتب عليها لأن التقسيم الذي تعتمد عليه تعسفي لايعطي اعتبارا للعوامل الجغرافية مثل التشابه في الظروف المناخية والثقافية والبشرية وغيرها وقد تضمنت تكرار بلاد مختلفة في أكثر من إقليم[٤٠] والواقع أن تلك النظرية كانت تتردد منسوبة إلى بطليموس وجالينوس وأبقراط . فالأول عُدّ المرجعية الأساسية لفكرة الأقاليم، أما جالينوس وأبقراط فهما الموجهان الأساسيان لفكرة الأعراق والطبائع، وربطت الجغرافية الإسلامية الفكرتين ربطا محكما،وكيّفتهما في نظرتها للذات والآخر،منذ دخول الفكر اليوناني إلى الثقافة العربية الإسلامية في القرن الثالث الهجري،وقد ظهرت لنا في مناقشة لـ" وثيقة عمر" تجليات واضحة للفكرتين المذكورتين"فما تناهى في التشريق فهو مكروه لاحتراقه وناريته وحدته وإحراقه لمن دخل فيه، وما تناهى مغرباً أيضاً أضر سكانه؛ لموازاته ما أوغل في التشريق، وهكذا ما تناهى في الشمال أضّر ببرودته وقرّه وثلوجه وآفاته الأجسام فاورثها الآلام، وما اتصل بالجنوب وأوغل فيه أحرق بناريته ما اتصل به من الحيوان؛ ولذلك صار المسكون من

الأرض جزءاً يسيراً، ناسب الاعتدال، وأخذ بحظه من حسن القسمة" ولكن الظاهرة تطورت فيما بعد وأصبحت محورا أساسيا في الفكر الجغرافي،ويعنينا الجانب المتصل بالآخر منه، بعد أن رأينا كيف استقامت مركزية دار الإسلام في جانب منها عليه.ومن المفيد الوقوف على أمثلة دالة على مدى تحكم هذه الفكرة في مجمل الصورة التي أنتجها المسلمون للأجناس البشرية.وعلى الرغم من الترابط الوثيق بين البيئة والطبائع فالملاحظ أن الجغرافيين المسلمين خصّوا البشر باهتمامهم الرئيس .وقد كان أندريه ميكيل مصيبا حينما أكد هذه الحقيقة ،فموضوع بحث الرحالة والجغرافيين كان البشر،ووظيفة الجغرافيا البشرية عند المسلمين هي كشف علاقات دار الإسلام بالبلدان المجاورة، وتصوّر المسلمين عن شعوبها،وتصورهم عن الأرض بأجمعها(٤١).

يربط المسعودي بين البيئة والطبائع البشرية،وينتهي إلى تثبيت نتائج وصفية غير محايدة تترتب عليها أحكام قيمة بالغة القسوة، ويحسن الوقوف على ذلك.فالأرض كما يقول أربعة أقسام عنده ، وهي:

١ . شرقي مذكّر، يتصف أهله بـ"طول الأعمار، وطول مدد الملك ،والتذكير، وعزة الأنفس ،وقلة كتمان السر،وإظهار الأمور والمباهاة بها،وما لحق بذلك؛وذلك لطباع الشمس، وعلمهم الأخبار ،والتواريخ ،والسير ،والسياسات ،والنجوم."

٢ . غربي مؤنّث يتصف أهله بـ"كتمان للسر، وتديّن وتألّه، وكثرة انقياد إلى الآراء والنِحل، وما لحق بهذه المعاني إذ كان من قسم القمر."

٣ . شمالي غبي ، تأثّر أهله بالبرد فـ"عظمت أجسامهم وجفّت طبائعهم وتوعّرت أخلاقهم وتبلّدت أفهامهم وثقلت ألسنتهم، وابيضّت ألوانهم حتى أفرطت... ولم يكن في مذاهبهم متانة وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة.ومَنْ كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية ،وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد إلى الشمال... وأما مَنْ كان خارجاً عن هذا العرض ...فإنهم في عداد البهائم ."

٤ . جنوبي متوحش، ضربت الحرارة أهله فـ"اسودّت ألوانهم، واحمرّت أعينهم ، وتوحّشت نفوسهم ؛وذلك لالتهاب هوائهم، وإفراط الأرحام في نضجهم حتى احترقت

ألوانهم، وتفلفلت شعورهم لغلبة البخار الحار اليابس "(٤٢) .

يقوم المسعودي بتنميط البشر حسب الأقاليم، وهو تنميط جنسي وأخلاقي وعقلي وشكلي يراد منه حبس الأجناس في طبائع ثابتة. إنها تقسيمات اختزالية تهدف إلى بسط سلسلة من الانطباعات الشائعة كأحكام نهائية يروم من خلالها إلغاء طرف وتبجيل آخر، وليس تقديم وصف،وهي ليست غريبة عن الأفق التاريخي الذي تترتب فيه، كما أنها ليست خاصة بالمسلمين وحدهم، فقبل ذلك بمدة طويلة كانت الشعوب تشكل الصور الإكراهية لبعضها، ولم ينج أحد تقريبا من ذلك؛ فأرسطو قبل المسعودي بأكثر من ألف عام كان – في مجال العلاقة بالآخر– قد دشن لذلك بتركيز الصفات الحميدة في اليونان وحدها استنادا إلى الحجة البيئية ، قال" الشعوب التي تقطن الأقطار الباردة حتى في أوربا هم على العموم ملؤهم الشجاعة لكنهم على التحقيق منحطون في الذكاء وفي الصناعة، من أجل ذلك هم يحتفظون بحريتهم لكنهم من الجهة السياسية غير قابلين للنظام ولم يستطيعوا أن يفتتحوا الأقطار المجاورة. وفي آسيا الأمر على ضد ذلك شعوبها أشد ذكاء وقابلية للفنون، لكن يعوزهم القلب ويبقون تحت نير استعباد مؤبّد . أما العنصر الإغريقي الذي هو بحكم الوضع الجغرافي وسط فإنه يجمع بين كيوف الفريقين،فيه الذكاء والشجاعة معا. إنه يعرف أن يحتفظ باستقلاله وفي الوقت نفسه يعرف أن يؤلّف حكومات حسنة جدا، وهو جدير إذا اجتمع في دولة واحدة بأن يفتح العالم"(٤٣) .كان هذا التصور شائعا ، وقد ظلّ لفترة طويلة بعد ذلك مهيمنا على أفكار الجغرافييّن في العالم ، وانتقل إلى كثير من العلوم الإنسانية، وبخاصة الاجتماع، وقسّمت الشعوب حسب مواقعها من الأقاليم.

يمايز المسعودي بين الشعوب على أسس تفترض التضاد المطلق فيما بينها، وهي : الذكورة والأنوثة من جهة، والبوهيمية والوحشية من جهة ثانية .ويلحق بالزوج الأول الشرقييّن والغربييّن، وبالزوج الثاني الشمالييّن والجنوبييّن،وتوزيعه يقتضي التنافر التام ، فالذكورة الحقة تضادّ الأنوثة حسب تصوره ، وتضاد بالطبع البوهيمية والوحشية ، إنها فحولة التميّز والقوة والتفكير، وعلى النقيض من ذلك تظهر الأنوثة كمنقصة لأنها سلوك معوج يقوم على الغموض والكتمان والتصديق العاطفي السريع، ثم التعلّق بشيء والتخلّي عنه،فتختلط

الآراء والمواقف، وتكثر النحل، وهو يرفع من شأن الذكورة إذ يجعلها معيارا للتفوق في الطبع، ويخفض من شان الأنوثة إذ يجعلها معيارا لنقص الطبع .أما نظرته إلى الشماليين والجنوبين،فلاتستحق معايير بشرية،ولهذا يستعير عناصرها من عالم الحيوان البوهيمي(= البهيمة) و المتوحش ، وينضّد سلسلة طويلة من الأحكام القاسية بحقهم.

إن المسعودي يضع أمامنا تقسيما بشريا وحيوانيا،فأفضل بني البشر،هم الشرقيون لأنهم ذكور في جملة طباعهم، والأسوأ هم الغربيون لأنهم مؤنثون في طباعهم،أما أهل الشمال والجنوب فهم خارج ذلك،إنهم مقيدون بقيود الحيوانات المتوحشة،والتراتب بينهم غائب إذ هم في الدرك الأخير من الحيوانية، لاتمايز عنده بين ذكور الحيوانات وإناثها، ولابين وحشيها وأليفها .مادام التصنيف يقوم على التفاضل فالمهم هو فقط منزلة الفاضل .

يسبب هذا التصنيف صدمة، وبخاصة إذ يصدر عن المسعودي الذي سلخ عمره في مخالطة الأغيار،ولكنه كان جزءا جوهريا من ثقافة القرون الوسطى،كما أشرنا، وظل مستبدّاً بالتفكير البشري إلى العصر الحديث، وقد وضع الفكر الغربي تمايزا لايقل قسوة عن تقسيم المسعودي بين الشعوب وإلى وقت قريب[٤٤] ولكن الفكر الغربي قلب أوصاف المسعودي،وعكس الأحكام تماما، الأقوام الشمالية هم نخبة بني البشر، وبعدهم يبدأ انحطاط الطباع بالتدريج إلى أن ينتهي بالزنوج والهنود الحمر. تفرض المركزيات قوانينها الصارمة والمغلقة على الجنس البشري،وتحجزه ضمن تصنيفات تستند إلى أسس ثقافية ، لكنها تتذرع بحجج العلم.

ومادمنا نبحث دون خداع أو غاية سيئة في الظروف الثقافية التي ترعرعت فيها صورة الآخر في أعين المسلمين ، فيلزمنا الوقوف على الأسانيد ا لوثيقة، قبل أن نعرض التفاصيل في أجزاء الكتاب اللاحقة ،ونرغب في رؤية ذلك عند ابن خلدون المتأخر الذي أعطاها بعداً اجتماعيا في نطاق فكرته عن العمران البشري.

أكد ابن خلدون في " المقدمة" على أهمية التدرج في ترتيب الأقاليم، فذهب إلى أن المغمور من الأرض إنما يوجد في الوسط لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال، ولما

كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلا؛ فالإقليم الرابع أعدل العمران، والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما. والثاني والسادس بعيدان من الاعتدال. والأول والسابع أبعد بكثير؛ فلهذا كانت العلوم ،والصنائع، والمباني، والملابس، والأقوات، والفواكه،بل والحيوانات ،وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا ،حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها. ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية؛ وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم ، قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ، وذلك ليتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله .

وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم، فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم ،وملابسهم، وأقواتهم، وصنائعهم ،يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة، ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين، ويذهبون في ذلك إلى الغاية، وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب ،والفضة، والحديد، والنحاس، والرصاص، والقصدير،ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين ،ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم،وهؤلاء أهل المغرب ،والشام ،والحجاز، واليمن، والعراقين ،والهند، والسند، والصين، وكذلك الأندلس ومَنْ قرُب منها من الفرنجة ،والجلالقة، والروم واليونانيين، ومَنْ كان مع هؤلاء أو قريبا منهم في هذه الأقاليم المعتدلة؛ ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات.

وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال، مثل: الأول والثاني والسادس والسابع؛ فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم، فبناؤهم بالطين والقصب ،وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود ،وأكثرهم عرايا من اللباس ،وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف، ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات، وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق

الحيوانات العجم ،حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ،ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا، وكذا الصقالبة؛ والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ،ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا، فلا يعرفون نبوءة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام، وما بعده لهذا العهد. ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد، يقال إنهم دانوا به في المائة السابعة .ومثل مَنْ دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والإفرنجة والترك من الشمال. ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي قريبة من أحوال البهائم. ويخلق ما لا تعلمون. ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والأحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما يليها من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثاني؛ فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث ..فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر" (٤٥) :

لقد أوردنا النص كاملا لأنه يحمل في طياته الحجج بوضوح .ويلاحظ أن صاحب " المقدمة" يصدر أحكاما مطلقة وسرعان ما يقيدها حينما تلحق ضررا بالعالم الذي ينتمي إليه : دار الإسلام. يتضح ذلك جليا في استثناء أهل اليمن وعُمان وجزء من بلاد الحجاز، وبعضهم ضمن الإقليمين الأول والثاني اللذين ينبغي أن يتصف ساكنوه على وفق التصنيف الذي يقول به، بأنهم" أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم" وأن" أخلاقهم .. قريبة من خلق الحيوانات العجم" لكنّ أهل هذه البلاد لايشملهم الحكم الذي شمل غيرهم لوجود الرطوبة في الهواء فنقص بسبب ذلك اليبس والانحراف،فالمناخ يصلح بحسب هذا التصور أن يكون دليلا على ذم جنس وإعلاء آخر. على أن ابن خلدون يدمج بوضوح لا يخفى بين المعطيات المناخية والربانية فقد اختار الله أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة المخصوصة بالاعتدال،

وسكانها من أعدل البشر أجساما وألوانا وأخلاقا ، فخصّهم بالأديان ،حتى النبوات فإنما هي فيهم .ويلاحظ ابن خلدون أنه لم يقف على خبر بعثة نبوية في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية؛ وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم ، وقد أعاد تكييف دلالة الآية القرآنية (كنتم خير أمة أخرجت للناس) لدعم حجته، وذلك ليتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله .

ربط ابن خلدون بين البيئة والطبع وإرادة الله ليسوغ موقفا يقوم في أساسه على خفض قيمة جماعة من البشر،ورفع قيمة جماعة أخرى. ولأننا نهدف إلى إبراز فكرة العلاقة بين الطبائع والبيئة فينبغي علينا مرافقة ابن خلدون في ترتيبه لضروب تلك العلاقة استنادا إلى المؤثر المناخي الذي يعتبر في ذلك الزمن العنصر الحاسم في تحديد الألوان والأشكال والطبائع .ومن الصعب إقامة براهين على هذه الدعوة التي تدفع بها منظومة ثقافية لها شروط مغايرة عن شروط الأقوام الموصوفة . لقد حذّر روسو من أنه عندما يجري البحث في أمور عامة كالأعراف وطرق معيشة شعب ما،ينبغي توخّي الحذر لئلاّ يصار إلى تقليص أمر الرؤية على أمثلة خاصة(٤٦) .

يحاول ابن خلدون أن ينقض الأسطورة الشائعة حول الألوان ، وبها يستبدل القول بالنظرية المناخية، فيذهب إلى أن بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات توهم أن السودان ،وهم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه، وفيما جعل الله من الرق في عقبه، وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد إخوته لا غير (٤٧).وبعد هذه المقدمة التي يظهر فيها ابن خلدون مبددا لخرافات القصّاص،سرعان ماينزلق إلى خرافة المناخ،فيقول: في القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء،وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب؛ فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامتة

عامة الفصول، فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لإفراط الحر. ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين أو ما قرب منها، ولا ترتفع إلى المسامتة ولا ما قرب منها، فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها ،وتنتهي إلى الزعورة، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور[٤٨]

المسعودي وابن خلدون –وكثير غيرهم سنمرّ عليهم في أجزاء هذا الكتاب المتتالية – يصدران في موقفهم من خضم الثقافة المتمركزة حول نفسها ، الثقافة التي تقول بقيم، وتؤمن بها ، وتدعو إليها، وتنفي كلّ منْ لاينصاع لها،فالاختلاف في منظومات القيم يقود إلى التراتب، والتراتب نوع من التفاضل القائم على ترجيح قيم وتبخيس أخرى، لم يبرأ مجتمع من هذا الداء، مهما ادّعى من تسامح، فالتسامح في القرون الوسطى كان رغبة دفينة بالامتثال وليس التعايش. ولا يخفى أن هذه الأحكام تقود إلى آيدلوجيا الإحساس بالتفرّد القائم على المفاضلة. يشعر البيروني بالافتخار،وهو الذي أمضى شطرا طويلا من حياته بين الهنود، لأنه" لم يَسُمنا التهنّد والانتقال إلى رسومهم" لأنهم" يباينوننا في الرسوم والعادات" و" يباينوننا بالديانة مباينة كلية لايقع منّا شيء من الإقرار بماعندهم ولا منهم بشيء مما عندنا"[٤٩] .

هذا السلوك الذي يبدو طبيعيا أول وهلة، بسبب الانحباس ضمن إطار الهوية الخاصة والثابتة، سيصبح مع الزمن عبئا، إذ لايمكن التقيّد الصارم بمنظومة أخلاقية خاصة وسط منظومة أخلاقية عامة مغايرة ومتغيّرة، وهذا النمط من التفكير هو اتصال دوغمائي بنوع من " الهويات القاتلة"[٥٠] إنه التمركز الذي يكثّف مجموعة من الرؤى في مجال شعوري محدد، يؤدي إلى تشكيل كتلة متجانسة من التصورات المتصلّبة التي تنتج الذات، ومعطياتها الثقافية، بما في ذلك الدينية والأخلاقية، باعتبارها الفضلى، استنادا إلى معنى محدد للهوية، قوامه الثبات، والديمومة، والتطابق، بحيث تكون الذات هي المرجعية الفاعلة

في أي فعل، سواء باستكشاف أبعاد نفسها أو بمعرفة الآخر،وذلك سيؤدي إلى تركيب صورة مشوهة للآخر، وإنتاج آيدلوجيا إقصائية استبعادية ضدة ، وأيدلوجيا طهارية مقدسة خاصة بالذات(٥١) .

لم تكن الصورة المتشكلة في أعين المسلمين للعالم الوسيط قد تمت بمنأى عن الوسيلة التي وقعت بها معرفة الشعوب في دار الحرب، فمصدر المعلومات وطرق تداولها وكيفية ترتيبها يلعب دورا مباشرا في صوغ تلك الصورة،وقد قامت تلك المعرفة إما على احتكاك خارجي مع أفراد ينتمون إلى تلك الشعوب في دار الإسلام أو على احتكاك داخلي، والأول مصدره الحروب والتجارة والارتحال،والداخلي مصدره الرقيق والكتب المنقولة عن لغات الشعوب الأخرى إلى العربية،ولم تكن معرفة المسلمين بالآخر معرفة بريئة، إنما كانت مزيجا من التوقّعات والتصوّرات الشائعة وهي ممزوجة بتخيلات ورغبات(٥٢) .

إن المرويات والأوصاف عن المختلف ثقافيا تؤدي لامحالة إلى رسم صور تطابق رغبة الذي يقوم بها ،أكثر مما تعبّر عن الأصل. ومن المؤكد بأن المنظومة الثقافية- العقائدية الإسلامية قد تدخّلت في إعادة رسم ملامح تلك المعرفة، فمن المعلوم أن صور الآخرين تتشكّل من تداخل المعلومات الحقيقة بالمزيفة،ومن المشاهدات المباشرة المفسّرة على وفق سلّم معين من القيم، ومن الأخبار التي هتكتها الخرافات والأساطير، واقتحمت صلبها، وأخيرا من الرغبة الثابتة في الذات لإنتاج صورة نمطية منقوصة الآخر، وفي حقبة يعتبر الموجّه العقائدي فيها محفّزا لتشويه الآخر الذي يئنّ تحت طائلة الضلال، فليس من المنتظر البحث عن نقاء في الصورة،فطالما أنتجت، ومازالت ، الأعراق والعقائد صورا استعلائية لنفسها وتخفيضية لغيرها، وفي الحالتين تقوم تلك الصور على تنضيد مرويات لايركّز الاهتمام فيها على الدقة والتقدير المطلوبين، إنما على إشباع الرغبات الثقافية، ففي مخيال المجموعات الثقافية – البشرية المعتصمة بذاتها ترتسم صورة مُرضية عن ذاتها ،ومَرضّية عن غيرها،ومادام الآخر كان موضوعا للتبخيس في مجتمعات القرون الوسطى، فلم يفلح أحد بصورة مطلقة في تعديل الصور المقلوبة.

هوامش المدخل

١ .هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرون (بيروت، دار العلم للملايين،١٩٧٧) ص٣

٢ . م.ن.ص٥–٦ وللتفصيل يمكن مراجعة : أندريه ميكيل،الإسلام وحضارته، ترجمة زينب عبدالعزيز (بيروت، المكتبة العصرية،١٩٨١) ص١٠–١٥

٣ .محمد أركون، الإسلام، أوربا، الغرب، ترجمة هاشم صالح (لندن، دار الساقي، ١٩٩٥) ص ٨٩

٤ .مجيد خدوري،القانون الإسلامي(بيروت الدار المتحدة للنشر ،١٩٧٥)ص٢٢

٥ . م.ن.ص٢٣

٦ . جوزيف شاخت ،الفكر السياسي عند المسلمين، انظر تراث الإسلام،تصنيف شاخت وبوزوت ، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي (الكويت، عالم المعرفة،١٩٧٨) ق٣ص٣٣

٧ . شاخت ، الشريعة الإسلامية، م.ن .ص٩

٨ . برنارد لويس، السياسة والحرب، انظر تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السمهوري (الكويت، عالم المعرفة،١٩٧٨) ق١ص٢٣٣و ٢٣٥

٩ . م.ن. ص٢٥٥

١٠ . محمد نور الدين أفاية، الغرب والمتخيّل (بيروت ، المركز الثقافي العربية،٢٠٠٠)ص٢٨٨–٢٨٩

١١ . جاك بيرك، حينما كنت أعيد قراءة القرآن، ترجمة وائل غالي، مجلة القاهرة (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع ١٥٤ لسنة ١٩٩٥) ص٢٩

١٢ . ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، (ليدن، مطبعة بريل، ١٩٣٩) ص ٥٢٥

١٣ . المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غويه (ليدن) ص٩

١٤ . صورة الأرض ،ص ١٥

١٥ . م . ن . ص ٦

١٦ . م . ن . ص١٨

١٧ . الإصطخري، مسالك الممالك، (ليدن، بريل، ١٩٢٧) انظر على سبيل المثال . ص٣، ١٢

١٨ . ابن خرداذبة، المسالك والممالك (ليدن، بريل، ١٨٨٩) ص ٥

١٩ . أبو الفداء، تقويم البلدان، (باريس، دار الطبعة السلطانية ١٨٨٠) ص٢

٢٠ . م . ن . ص٧٣

٢١ .شاكر خصباك ،في الجغرافية العربية(بيروت ،دار الحداثة،١٩٨٨)ص٢٨ وانظر أيضا :شاكر خصباك ، الجغرافيا عند العرب،ضمن "موسوعة الحضارة العربية الإسلامية" (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،١٩٩٥)ص٤٨٨

٢٢ . قدامة بن جعفر، نبذ من كتاب الخراج، وصنعة الكتابة، ملحق بكتاب المسالك والممالك، لابن خرداذبة، (ليدن، بريل، ١٨٨٩) ص١٨٥

٢٣ . م . ن . ص٢٣٤

٢٤ . صورة الأرض ،ص ٢٣٤

٢٥ . مسالك الممالك، ص ٨٨ وصورة الأرض،ص ٣٤٧

٢٦ . مسالك الممالك، ص ٨٩

٢٧ . المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٨٨) ٢ : ٦٥-٦٦

٢٨ .أرسطو، السياسة، ترجمة أحمد لطفي السيد (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩) ١ : ١١٦

٢٩ . عبدالله إبراهيم، المركزية الغربية، (بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧) ص ٢٢٩ - ٢٧٥

٣٠. المسعودي ، التنبيه والإشراف، تحقيق دي خويه(ليدن،بريل،١٨٩٤) ص٣٥-٣٦
٣١. مروج الذهب ٢ : ٦١ - ٦٤
٣٢. م. ن. ٢ : ٦٥
٣٣. ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت، دار صادر، ١٩٩٥) ١ : ٢٢٩
٣٤.تقويم البلدان ،ص١٥١
٣٥. م. ن. ص ١٥٤
٣٦. م.ن. ص ١٨٧ -١٨٨
٣٧. المسعودي، التنبيه والإشراف (بيروت، ١٩٦٥) ص ٢٣
٣٨. أندريه ميكيل ،جغرافية دار الإسلام البشرية ، ترجمة إبراهيم الخوري (دمشق، وزارة الثقافة ،١٩٨٥) ج١ق١ص١١ . و كرامرز وآخرون ،الجغرافيا عند المسلمين(سلسلة كتب دائرة المعارف الإسلامية) ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون (بيروت ، دار الكتاب اللبناني،١٩٨٢ص٩١-١٠٣) وشاكر خصباك "موسوعة الحضارة العربية الإسلامية" ص٤٨٨-٤٩٢
٣٩.كراتشكوفسكي،تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١ : ٢٣
٤٠. س.م. ضياء الدين علوي، الجغرافيا العربية، تعريب وتحقيق عبدالله يوسف الغنيم وطه محمد جاد(الكويت ، جامعة الكويت،١٩٨٠)ص١٦٦
٤١. جغرافية دار الإسلام البشرية ،ج٢ق١ص١٢٠وج١ق١ص١١
٤٢.، التنبيه والإشراف،ص ٢١
٤٣. السياسة ١ : ٢٥٤-٢٥٥
٤٤. المركزية الغربية ، ص٢٢٩-٢٧٢
٤٥. ابن خلدون ، المقدمة، تحقيق حجر عاصي، بيروت ، دار مكتبة الهلال، ١٩٨٦)ص٦٠-٦١

٤٦ . أورده، تودروف، نحن والآخرون ، ترجمة ربى حمود (دمشق ،دار المدى،١٩٩٨)ص٦١ .

٤٧ . المقدمة،ص٦٣

٤٨ . م.ن. ص٦٣

٤٩ . أبو الريحان البيروني، في تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة (حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٨)ص١٤-١٥

٥٠ . الإشارة إلى كتاب أمين معلوف، الهويات القاتلة ، ترجمة نهلة بيضون (دمشق ، دار الجندي، ١٩٩٩)

٥١ . المركزية الغربية ص١٠

٥٢ . عزيز العظمة، العرب والبرابرة (لندن ، رياض الريس للكتب والنشر،١٩٩١) ص٢١٨

ملحق

مصادر كتاب عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين

قام هذا الكتاب على مجموعة من النصوص المختارة من المصادر الجغرافية والتاريخية التي تهتم بدار الإسلام والعالم المجاور لها، هذا فضلا عن مجموعة كبيرة من المصادر والمراجع الأخرى التي تمت الإفادة منها في المقدمات والمداخل،ورغبة في تيسير معرفة المصادر الأصلية للنصوص رغبنا في إدراجها كملحق للجزء الأول من هذا الكتاب، وسنفرد في نهاية كل جزء مسردا بالمصادر الخاصة به.

الإصطخري ،أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي(٣٤٦=٩٥٧)

- المسالك والممالك، ليدن،مطبعة بريل،١٩٣٧

البتّاني ، أبو عبد الله محمد بن سنان بن جابر الحرّاني(٣١٧=٩٢٩)

- كتاب الزيج الصابئي، روما ،١٨٩٩

ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (٧٧٩=١٣٧٧)

- رحلة ابن بطوطة المسمّاة : تحفة النظّار في غرائب الأمصار، تحقيق عبد الهادي التازي، المغرب، أكاديمية المملكة المغربية،١٩٩٧، ورحلة ابن بطوطة ، تحقيق كرم البستاني،بيروت، دار صادر البكري .

-أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد (٤٨٧=١٠٩٤)

- المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن، أندري فيري ، تونس، الدار العربية للكتاب–بيت الحكمة، ١٩٩٢

البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل(٣٢٢=٩٣٢)

- المسالك والممالك،ليدن ، بريل، ١٩٣٧(ملحق بكتاب الإصطخري :المسالك والممالك

للبيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد(٤٤٠=١٠٤٨)
- في تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية،١٩٥٨
- كتاب القانون المسعودي، حيدر آباد ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٣

ابن جبير ،أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني (٦١٤=١٢١٧)
- رحلة ابن جبير، بيروت،دار صادر

أبو حامد الغرناطي ، محمد بن عبد الرحيم الأندلسي(٥٦٥=١١٧٠)
- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، دار الجيل-المغرب دار الآفاق الجديدة

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي (توفي بعد ٣٦٧ =بعد ٩٧٧)
- صورة الأرض، بيروت، دار صادر، ١٩٣٩

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله بن أحمد(توفي بين ٢٨٠ و٣٠٠= حوالي ٨٩٢-٩١٣)
- المسالك والممالك، بعناية م.ج.دي خويه، ليدن ، بريل ،١٨٨٩

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد(٨٠٨=١٤٠٦)
- مقدمة ابن خلدون، بيروت ،مؤسسة الأعلى للمطبوعات .

أبو دلف الينبوعي،مسعر بن مهلهل(٣٩٠=١٠٠١)
- الرسالة الثانية، نشر وتحقيق بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف ، ترجمة وتعليق محمد منير موسى، بيروت ، عالم الكتب

الرام هرمزي، بزرك بن شهريار(توفي بعد ٣٤٠=بعد ٩٥٠)
- كتاب عجائب الهند :برّه وبحره وجزايره ، تحقيق فان دي ليث، ليدن ، بريل، ١٨٨٣-١٨٨٦

ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر(توفي نحو ٣٠٠=نحو٩١٢)

- كتاب الأعلاق النفيسة، ليدن ، بريل، ١٨٩٣

ابن سعيد المغربي، علي بن موسى الأندلسي(٦٨٥=١٢٨٦)

- كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر.

السيرافي،أبو زيد (القرن ٤ الهجري =العاشر الميلادي)

- رحلة السيرافي، تحقيق عبدالله الحبشي،أبوظبي، المجمّع الثقافي،١٩٩٩

الإدريسي، محمد بن محمد الصقلّي (٥٦٠=١١٦٥)

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت ،عالم الكتب ، ١٩٨٩

الدمشقي (= شيخ الربوة) محمد بن أبي طالب الأنصاري (٧٢٧=١٣٢٧)

- نحبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، مكتبة المثنى .

أبو الفداء ، إسماعيل بن علي(٧٣٢=١٣٣١)

- تقويم البلدان ، اعتنى بتصحيحه جوزيف توسن رينود وماك كوكين ديسلان، باريس، دار الطباعة السلطانية ، ١٨٤٠

ابن فضلان ، أحمد بن العباس بن راشد بن حمّاد(القرن ٣ –٤ الهجري=٩–١٠ الميلادي)

- رحلة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان، دمشق ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٧ .

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود الأنصاري(٦٨٢=١٢٨٣)

- آثار البلاد وأخبار البلاد، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٩

- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، بيروت ، دار الآفاق الجديدة،١٩٨١

المسعودي، علي بن الحسين بن علي (٣٤٦=٩٥٧)

- التنبيه والإشراف ، بيروت ، دار تحقيق التراث، ١٩٦٨

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ،

المكتبة التجارية ، ١٩٦٤ .

المقريزي ، أحمد بن علي الحسيني (٨٤٥=١٤٤١)

- الخطط المقريزية :المسمّاة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت ، مكتبة إحياء العلوم، ١٩٥٩

ابن منقذ، أبو المظفّر محب الدين أسامة بن منقذ (٥٨٤=١١٨٨)

- من كتاب الاعتبار ، تحقيق عبد الكريم الأشتر ، دمشق ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٠ .

الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي (٦١١=١٢١٥)

- الإشارات الى معرفة الزيارات، تحقيق ونشر جانين سوريل-طومين، دمشق،١٩٥٣

الوزّان، الحسن بن محمد الفاسي (المعروف بـ"ليون الإفريقي") ، (٩٥٦=١٥٤٨)

- وصف إفريقية، ترجمة محمد حجّي ومحمد الأخضر ، الرباط، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، ١٩٨٠-١٩٨٢

ياقوت الحموي ،أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (٦٢٦=١٢٢٩)

- معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر

اليعقوبي ،أحمد بن إسحاق بن جعفر (بعد ٢٩٢=بعد ٩٠٥)

- تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، دار صادر

مدوّنة النصوص

نظر الجغرافيون والرحالة المسلمون إلى العالم باعتباره عالما مسكونا في جزئه الشمالي فقط. واستنادا إلى الفكرة القديمة فقد قسّم العالم المعمور الى سبعة أقاليم تبدأ من خط الاستواء صعودا إلى أقصى الشمال .وكان الأخذ بنظرية الإقليم شائعا . وفكرة كروية الأرض معروفة بين الرحّالة والجغرافيين ، وقد قدّموا براهين كثيرة على ذلك. وتحتشد الكتب الجغرافية –وأحيانا التاريخية –بسيل من الأدلة على ذلك، كما يلاحظ في النصوص التي انتخبناها للمسعودي وأبي الريحان البيروني والصابئي وابن خلدون وغيرهم.على أن الأمر الذي نهدف إليه في هذا الجزء من الكتاب ، هو إظهار الربط المحكم الذي حرص عليه الجميع بين معطيات الجغرافية الطبيعية والبشرية وتاريخ المجتمعات خلال القرون الوسطى . وكان الحرص على كشف أثر البيئة في البشر قد استأثر باهتمام لاغبار عليه ، وكما سيتضح في تضاعيف هذا الكتاب فإن ابن خلدون – على سبيل المثال– يقدم مادة غنية جدا في هذا المجال .وموضوع الربط بين الخصائص الجغرافية للأقاليم ،والطبائع البشرية يعدّ من أبرز المظاهر المميزة للكتابات التي تركها الجغرافيون والرحالة. ويحسن أن نترك لهذه النصوص الأصلية الثمينة أن تكشف عن نفسها مباشرة،مشيرين إلى غزارة المعلومات الأثنوغرافية التي تتدفق من ثناياها، وقد رتّبت بحيث يكمل كل نص الآخر،ويعزز الأفكار فيه.

(1)

ذكْر الأرض وشكلها وطبائع أهلها

المسعودي(توفي٣٤٦هجري=٩٥٧ميلادي) من كتاب (التنبيه والإشراف)

(قال المسعودي: قسّم الله تبارك وتعالى الأرض قسميْن: مشرقاً ومغرباً. فصار المشرق والتيمن وهو الجنوب جوهراً واحداً؛ لغلبة الحرارة عليهما وصارت جهة المغرب والجربي، وهو الشمال جوهراً واحداً لغلبة البرودة عليهما وشدتها فيهما، وذلك لبعد الشمس من ناحية الجربي، لأن المحور على تلك الناحية ،وهي أشدهما ارتفاعاً، فمن أجل ذلك صار الجربى بارداً رطباً، وصار المغرب أقل برداً من الجربى، وأكثر يبساً لانحطاط الفلك هناك؛ وهاتان الجهتان المشرق والتيمن بخلاف ذلك لدنو الشمس منهما.

والعالم أربعة أرباع :فالربع الشرقي وهو ما تسافل عن خط الجنوب ،والشمال إلى المشرق فهو ربع مذكر يدل على طول الأعمار، وطول مدد الملك ،والتذكير، وعزة الأنفس ،وقلة كتمان السر، وإظهار الأمور والمباهاة بها، وما لحق بذلك؛ وذلك لطباع الشمس ،وعلمهم الأخبار ،والتواريخ ،والسير ،والسياسات ،والنجوم.

وأما أهل الربع الغربي، فإن الغالب عليه التأنيث إلاّ ما استولت عليه الكواكب المذكّرة، كما يغلب التذكير على المشرق إلاّ ما غلبته عليه الكواكب المؤنّثة. وأهله أهل كتمان للسر، وتديّن وتألّه، وكثرة انقياد إلى الآراء والنِحل، وما لحق بهذه المعاني إذ كان من قسم القمر

وأما أهل الربع الشمالي، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والإفرنجة ومن جاورهم من الأمم، فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها، فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة وتواترت الثلوج عندهم والجليد؛ فقل مزاج

الحرارة فيهم؛ فعظمت أجسامهم وجفّت طبائعهم وتوعّرت أخلاقهم وتبلّدت أفهامهم وثقلت ألسنتهم، وابيضّت ألوانهم حتى أفرطت فخرجت من البياض إلى الزرقة ورقّت جلودهم وغلظت لحومهم، وازرقّت أعينهم أيضاً، فلم تخرج من طبع ألوانهم، وسبطت شعورهم، وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب. ولم يكن في مذاهبهم متانة وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة.

ومَنْ كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية ،وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد إلى الشمال، وكذلك مَنْ كان من الترك واغلاً في الشمال فلبعدهم من مدار الشمس في حال طلوعها وغروبها؛ كثرت الثلوج فيهم وغلبت البرودة والرطوبة على مساكنهم، فاسترخت أجسامهم ،وغلظت ولانت فقرات ظهورهم وخرز أعناقهم ؛ حتى تأتّى لهم الرمي بالنشاب في كرّهم وفرّهم .وغارت مفاصلهم لكثرة لحومهم ، فاستدارت وجوههم، وصغرت أعينهم لاجتماع الحرارة في الوجه حين تمكّنت البرودة من أجسادهم إذ كان المزاج البارد يولّد دماً كثيراً، واحمرّت ألوانهم إذ كان من شأن البرودة جمع الحرارة وإظهارها .

وأما مَنْ كان خارجاً عن هذا العرض إلى نيّف وستين ميلاً يأجوج ومأجوج، وهم في الإقليم السادس فإنهم في عداد البهائم.

وأما أهل الربع الجنوبي كالزنج وسائر الأحابش، والذين كانوا تحت خط الاستواء وتحت مسامتة الشمس؛ فإنهم بخلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة؛ فاسودّت ألوانهم، واحمرّت أعينهم ،وتوحّشت نفوسهم ؛وذلك لالتهاب هوائهم، وإفراط الأرحام في نضجهم حتى احترقت ألوانهم، وتفلفلت شعورهم لغلبة البخار الحار اليابس، وكذلك الشعور السبطة إذا قربت من حرارة النار دخلها الانقباض، ثم الانضمام ،ثم الانعقاد على قدْر قربها من الحرارة ،وبعدها عنها .

والأرض قسمان على ما قدّمنا :أحدهما مسكون، والآخر غير مسكون. والعامر المسكون منهما على أقسام: أحدها مفرط الحر، وهو ما كان من جهة الجنوب؛ لأن الشمس

تقرب منه فيلتهب هواؤه، والآخر الشمال، وهو مفرط البرد لبعد الشمس عنه .وأما المشرق والمغرب فمعتدلان، وإن كان فضل المشرق أظهر واعتداله أشهر .

وأما الذي ليس بمسكون فعلى قسميْن أيضاً: إما أن يفرط فيه البرد ببعد الشمس عنه أو يفرط فيه الحرّ لقربها منه ، فلا يتركّب هناك حيوان ولاينبت نبات. فالموضع الذي يكون بعده في الشمال عن خط معدل النهار ستاً وستين درجة لا يمكن أن يكون فيه نشوء لإفراط البرد عليه لبعد الشمس عنه، وإن ما كان عرضه ستة وستين جزءاً وتسع دقائق تكون السنة فيه يوماً وليلة، ستة أشهر نهاراً لا ليل فيه ، وستة أشهر ليلا لا نهار فيه. يطول نهاره في الشتاء وليله في الصيف. والموضع الذي بعده في الجنوب عن خط معدل النهار تسع عشرة درجة لا يمكن أيضاً أن يكون فيه نشوء لإفراط الحر عليه لقرب الشمس منه .

قال المسعودي: فأما بطليموس فإن أقصى ما وجد عنده من العمارة في جهة الشمال الجزيرة المعروفة بثولى (=مختلف بشأن تحديدها النهائي بين الجغرافيين، ويرجّح أنها آيسلندا)في أقصى بحر المغرب من الجهة الشمالية، وأن عرضها من معدل النهار في الشمال ثلاثة وستون جزءاً. وحكاه أيضاً عن مارينوس فيما ذهب إليه في حدود المعمور من الأرض. وذهب بطليموس إلى أن نهاية العمارة في جهة الجنوبي تحت الموازي الذي بعده من معدل النهار ستة عشر جزءاً وخمس وثلاثون دقيقة وربع وسدس. وذهب قوم إلى أن الموضع الذي لا يمكن أن يكون فيه عمارة عرضه في الجنوب أحد وعشرون جزءاً وخمس وثلاثون دقيقة. وإلى هذا ذهب يعقوب بن إسحاق الكندي في كتابه (في رسم المعمور من الأرض). وسواء قيل عرض الموضع ،أو قيل بُعده عن خط الاستواء ،أو قيل ارتفاع القطب عليه، فمقدار نهاية العمارة في الشمال إلى نهايتها في الجنوب ثمانون جزءا. يكون ذلك عند هؤلاء من الأميال خمسة آلاف ميل وأقل من أربعمائة ميل .

وأقصى العمران في المشرق أقصى حدود بلاد الصين والسِيلى(=كوريا) إلى أن ينتهي ذلك إلى ردم يأجوج ومأجوج ،الذي بناه الإسكندر دافعاً ليأجوج ومأجوج عن الفساد في الأرض. والجبل الذي وراءه ووقع في فجه الردم، ومنه كان مخرجهم. بدؤه خارج العمران

في الإقليم السابع، طرف مبدئه مستقبل المشرق ثم ينعطف إلى ناحية الجنوب ويستقيم ممره طولاً إلى أن ينتهي إلى بحر أوقيانس المظلم المحيط(=الأطلسي) فيتصل به. وأقصى عمران المغرب ينتهي إلى بحر أوقيانس المحيط أيضاً، وكذلك ينتهي أقصى عمران الشمال إلى هذا البحر أيضاً، وأقصى عمران الجنوب ينتهي إلى خط الاستواء الذي يكون الليل والنهار فيه سواء أبداً. وجزيرة سرنديب(=سيلان) من البحر الصيني على هذا الخط أيضاً .

قال المسعودي: وذكر من عُني بمساحة الأرض وشكلها أن تدويرها يكون بالتقريب أربعة وعشرين ألف ميل ،وذلك تدويرها مع المياه والبحار، فإن المياه مستديرة مع الأرض وحدُّهما واحد، فكلما نقص من استدارة الأرض وطولها وعرضها شيء تم باستدارة الماء وطوله وعرضه ؛وذلك أنهم نظروا إلى مدينتين في خط واحد، إحداهما أقل عرضاً من الأخرى، وهما: الكوفة ومدينة السلام(=بغداد)، فأخذوا عرضيهما فنقصوا الأقلّ من الأكثر، ثم قسّموا ما بقي على عدد الأميال التي بينهما، فكان نصيب الدرجة مما يحاذيهما من أجزاء الأرض المستديرة ستة وستين ميلاً وثلثي ميل على ما ذكر بطليموس. فإذا ضربوا ذلك في جميع درج الفلك التي هي ثلثمائة وستون درجة، كان ذلك أربعة وعشرين ألف ميل. وكان قطرها الذي هو طولها وعرضها وغلظها سبعة آلاف ميل وستمائة وسبعة وستين ميلاً، والميل أربعة آلاف ذراع بالسواء وهو الذراع الذي وضعه المأمون لذرع الثياب ومساحة البناء وقسمة المنازل. والذراع أربعة وعشرون أصبعاً والأصبع ست شعيرات مضموم بعضها إلى بعض، والفرسخ بهذا الميل ثلاثة أميال ومنهم مَنْ يجعل الميل ثلاثة آلاف ذراع ،والفرسخ أربعة أميال. وكلاهما يؤولان إلى شيء واحد .

وفيما ذكرناه من مقدار حصة الدرجة من الأميال تنازع؛ فمنهم مَن رأى أن ذلك سبعة وثمانون ميلاً، ومنهم مَن رأى أن ذلك ستة وخمسون ميلاً وثلثا ميل. والمعوّل في ذلك على ماحكيناه عن بطليموس .

والأرض من أربعة جواهر :من الرمل والطين والأحجار والأملاح .وجوفها أطباق يتخرّق فيها الهواء، ويجول فيها الماء مواصلاً لها كمواصلة الدم للجسد، فما غلب عليه الهواء من الماء

كان عذباً شروباً، وما امتنع الهواء من التمكّن منه، وغلبت عليه أملاح الأرض وسبخها صار ملحاً أجاجاً. وأن كوْن مياه العيون والأنهار في الأرضين كالعروق في البدن ،وأن الحكمة في كون الأرض كريّة الشكل؛ أنها لو كانت مسطوحة كلها لاغور فيها ولانشز يخرقها لم يكن النبات. وكانت مياه البحار سائحة على وجهها، فلم يكن الزرع ولم يكن لها غدران تفضي مياه السيول إليها، ولا كانت لها عيون تجري تنبع بالماء أبداً ؛لأن مياه العيون لو كانت منها تخرج دائماً لفنيت ولصار الماء أبداً غالباً على وجه الأرض ، فكان يهلك الحيوان ولا يكون زرع ولا نبات .فجعل عز وجل منها أنجاداً ، ومنها أغواراً، ومنها أنشازاً، ومنها مستوية، وأما أنشازها فمنها الجبال الشامخة، ومنافعها ظاهرة في قوة تحدّر السيول منها، فتنتهي إلى الأرضين البعيدة بقوة جريها ، ولتقبل الثلوج فتحفظها إلى أن تنقطع مياه الأمطار، وتذيبها الشمس ،فيقوم ما يتحلّب منها مقام الأمطار، ولتكون الآكام والجبال في الأرض حواشر للمياه لتجري من تحتها ومن شعوبها وأوديتها، فيكون منها العيون الغزيرة ليعتصم بها الحيوان ويتخذها مأوى ومسكنا، ولتكون مقاطع ومعاقل وحواجز بين الأرضين من غلبة مياه الأمطار عليها وما لا يحصيه إلاّ خالقها .

قال المسعودي: وقد تختلف قوى الأرضين وفعلُها في الأبدان لثلاثة أسباب: كمية المياه التي فيها ،وكمية الأشجار، ومقدار ارتفاعها وانخفاضها. فالأرض التي فيها مياه كثيرة ترطب الأبدان، والأرض العادمة للمياه تجففها. وأما اختلاف قوتها من قبل الأشجار فإن الأرض الكثيرة الأشجار؛ الأشجار التي فيها تقوم لها مقام السترة ،فبهذا السبب تسخن. والأرض المكشوفة من الأشجار العادمة لها حالها عكس حال الأرض الكثيرة الأشجار .

وأما اختلاف قواها من قبل مقدار علوّها وانخفاضها؛ فلأن الأرض العالية المشرفة فسيحة باردة، والأرض المنخفضة العميقة حارة ومدِّة. ومنهم مَن رأى أن أصناف اختلاف البلدان أربعة: أولها النواحي، والثاني الارتفاع والانخفاض، والثالث مجاورة الجبال والبحار لها، والرابع طبيعة تربة الأرض ؛وذلك أن ارتفاعها يجعلها أبرد وانخفاضها يجعلها أسخن على ما قدمنا.

وأما اختلافها من جهة مجاورة الجبال لها فمتى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعله أبرد لأنه يكون سبب امتناع الريح الجنوبية، وإنما تهب فيه الشمالية فقط، ومتى ما كان الجبل من البلد من ناحية الشمال جعله أسخن لامتناع هبوب الرياح الشمالية فيه.

وأما اختلافها لمجاورة البحار لها فمتى كان البحر من البلد في ناحية الجنوب كان ذلك البلد أسخن وأرطب، وإن كان من البلد في ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد وأيبس.

وأما اختلافها بحسب طبيعة تربتها فمتى كانت تربة الأرض صخرية جعلت ذلك البلد أبرد وأجف، وإن كانت تربة البلد جصيّة جعلته أسخن وأجف، وإن كانت طينيّة جعلته أبرد وأرطب .

وبقاع الأرض مختلفة بحسب اختلاف الطبائع، وما تؤثره فيها الأجسام السمائية من النيرين وغيرهما، فغلب طبع كل أرض على ساكنها، كما نشاهد الحرار السود والأغوار؛ وحشها إلى السواد ووحش الرمال البيض على ذلك اللون. فإن كانت الرمال حمراً فوحشها عفر، وهو لون التراب. وكذلك وحش الجبال من الأراوي وغيرها يكون على ألوان تلك الجبال إن حمراً وإن بيضاً وإن سوداً .وعلى هذا السبيل تكون القملة في الشعر الأسود سوداء ،وفي الشعر الأبيض بيضاء ،وفي المشيب شهباء ،وفي الأحمر حمراء .

ومن الفلكيين مَنْ يرى أن كل جزء من أجزاء الأرض يناسب جزءاً من أجزاء الفلك، ويغلب عليه طباعه لأن في أجزاء الفلك المضيء والمظلم والفصيح والأخرس وذا الأصوات والمجوف وغير ذلك من نعوت الدرج، فلذلك يكون كلام أهل الموضع الواحد مختلفاً على قدر ما تصلح فيه السعود وتفسد فيه النحوس ،ثم يختلف أهل اللسان الواحد في المنطق واللهجات .

قال المسعودي: وقد ذمّ بطليموس القلوذي آراء كثير ممّن تقدمه ممن عني بعلم معمور الأرض وغايات ذلك ونهاياته مثل مارينوس وأبرخس وطيمستانس وغيرهم في قبول أقاويل المخبرين من التجار وغيرهم من نهاية المعمور ، وإن ذلك قد يدخله الكذب والزيادة والنقصان فيما أخبروا به من وصولهم إلى هذه المواضع النائية ،والعمائر القاصية في البر

والبحر، ثم اضطر بطليموس لما أراد علم ذلك والوقوف عليه إلى أن يستعمل ما أنكره على مَن ذكرنا من جهة الخبر، فبعث بثقات من رسله في الآفاق ليعرف الغابات من عمران الأرض المسكونة فعمل على أخبارهم مقايساً بها ما وجده بالدلائل النجومية، وهذا دخول منه فيما أنكره. وقد ذكر في كتابه المترجم بـ(مسكون الأرض) بلداناً ومدائن كثيرة ووصف أطوالها وعروضها ورسم للناس صورة معمور الأرض على ما رسم فيها من مواضع الكور والبحار والأنهار في الطول والعرض. وقد قال أرسطاطاليس في المقالة الثانية من كتابه (في الآثار العلوية) : لقد أعجبُ من الذين يصورون أقطار الأرض وأبعادها ؛ فإنهم يصورون الأرض المعمورة مستديرة والقياس والعيان يشهدان على أنها على خلاف ذلك، وأنه لايمكن أن يكون ذلك. أما القياس فيثبت أن عرض الأرض محدود وأن طولها ليس بمحدود. أعني أن طول الأرض كلّه يمكن أن يسكن لحال مزاجه ، وذلك أن الحرّ والبرد لا يكونان مفرطين في طول الأرض لكن في عرضها، ولو لم يكن البحر يمنع لكان طول الأرض كله مسلوكاً. قال: والعيان يشهد أيضاً على أن طول الأرض يسلك في البر والبحر لأن الطول مخالف للعرض كثيراً).

يكشف لنا نصّ المسعودي السابق نوع الاهتمام المبذول من قبل الجغرافيين فيما يخص شكل الأرض،وهو اهتمام ينطوي على موقف يتصل بطبيعة النظرة إلى الآخر،وهي منبثقة من السياق الثقافي لعصرها، عصر التمركز حول الذات وإقصاء الآخر. إن المسعودي المتنوع الاهتمامات لم يفلح في انتزاع نفسه وفكره من طغيان الثقافة السائدة التي تترك بصمات لاتمحى في تشكيل المنظورات وصوغ الأحكام. والمماثلة واضحة بين الموروث اليوناني الخاص بعلاقة الطبائع بالأقاليم ونص المسعودي الذي يورد تلك الآراء بوضوح، ومادمنا في هذه المرحلة من الكتاب نهدف إلى تقديم صورة العالم الكلية في أعين المسلمين، فينبغي علينا الحذر من الانخراط في التفاصيل التي سيكون مكانها في الأجزاء اللاحقة ، وسيقدّم ابن رسته في النص الآتي نظرة شاملة تعزز ماأوردناه للمسعودي،فينصرف إلى جانب اهتمامه بموضوع كروية الأرض إلى الوقوف على أبعادها ومسالكها، ولكنه يبدأ بالكون

وأجرامه قبل أن يصل بالحديث إلى الأرض، وأبعاد الأجرام السماوية .والتدقيق بها في ذلك الوقت يكشف درجة ما من الاهتمام الفلكي بالعالم، ويصدر ابن رسته في نظرته إلى الكون من المعتقد الفلكي القديم الذي يرى أن الأرض هي مركز الكون.

(2)
كروية الأرض وأبعادها ومسالكها
ابن رسته(عاش في القرن ٤الهجري=١٠ الميلادي) من كتاب (الأعلاق النفيسة)

(إن الله جلّ وعزّ وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أجوف دواراً، والأرض مستديرة أيضاً كالكرة، مصمتة في جوف الفلك، قائمة في الهواء، يحيط بها الفلك من جميع نواحيها بمقدار واحد من أسفلها وأعلاها وجوانبها كلها. فهي في وسطها كالمح في البيضة، وهو يدير على قطبين: قطب في الشمال وقطب في الجنوب. بين القطبين مائة وثمانون درجة، لأن الفلك ثلاثمائة وستون درجة مستديرة تعود آخرها على أولها، وهو يدور في كل يوم وليلة على القطبين دورة واحدة ،يبدأ أوله من المشرق فيعود إليه في أربع وعشرين ساعة، يمر تحت الأرض ويسمى وسط السماء القبة، وهو موضع الاستواء من بينه وبين الجهات الأربع :المشرق والمغرب والشمال والجنوب. إلى كل جهة تسعون درجة.

ويدور على كل قطب من قطبيه نصفه، فمَن كان تحت القطب دار عليه الفلك كحجر الرحا، ومَن كان تحت القبة جرى عليه كجناح الرحا .والقبة وسط الأرض ،من قام فيه أبصر القطبين في الجانبين ليس بعدهما كوكب يراه ولا فلك، فإذا مال عن الوسط غاب عنه أحد القطبين وارتفع له الآخر بقدر انحرافه، حتى يرتفع القطب ويبدو الكوكب من أسفله. وحيث ما وقف واقف، فبينه وبين الفلك مقدار واحد، وإن رأس الحمل والميزان موضع الاستواء مجراهما في قبة الفلك بينه وبين رأس السرطان في الشمال أربع وعشرون درجة،

وهو الذي يسمى الميل وبينه وبين رأس الجدي في الجنوب أربع وعشرون درجة يسمى الميل ثم إلى مدار بنات نعش ثلاثون درجة ثم إلى القطب ست وثلاثون درجة.

وإن الناس نزلوا في النصف الشمالي ما بين القبة وبنات نعش من ناحية الشمال وذلك مقسوم على سبعة أقاليم ،وباقي ذلك غير مسكون وينزل النصف الجنوبي من شاء الله من الخلق، فمن نزل تحت القبة فالليل والنهار أبداً عليه مستويان؛ الليل اثنتا عشرة ساعة، والنهار اثنتا عشرة ساعة ،ثم ما تنحّى بدرجة طال عليه نهار الصيف وليل الشتاء فلا يزال في زيادة حتى إذا يتنحى عن القبة ستاً وستين درجة ينتهي النهار في الطول ما يكون أربعاً وعشرين ساعة ،ويذهب الليل في أول الصيف وفي أول الشتاء الليل إلى أربع وعشرين ساعة، ويذهب النهار وما زاد في النهار نقص من ساعات الليل وما زاد في الليل نقص من النهار حتى ينتهي إلى المكان الذي ذكرنا ثم يتغير العمل والحساب، وذلك الموضع لا يسكن ولا يدخل في القسمة.

وإن الرجل حيث ما وقف من الأرض أمامه تسعون درجة وخلفه تسعون درجة وعن يمينه مثلها وعن يساره مثلها، وهو مجال بصره وموضع نهاره وليله؛ لأن نصف الأرض أبداً نهار مضيء، ونصفها ليل مظلم يدورن عليها ،وكذلك كل مدورة يدور عليها ضوء مضيء ونور من منير.

قد أخرجنا في باب ذكر الأرض وهيئتها في الفصل الموسوم منه باختلاف أهل الملل في هيئة الأرض العلة في أن السماء على مثال الكرة ودورها بجميع ما فيها من الكواكب كدور الكرة .ونحن إلى ذكر ذلك في هذا الموضع أحوج ليقوم البرهان على ما حكيناه، فمن أجله بيّناه في هذا الباب وذكرنا العلة والعذر فيه.

قال أحمد بن محمد بن كثيّر الفرغاني في كتابه المترجم بكتاب "علل الأفلاك" إنه لا اختلاف بين العلماء في أن السماء على مثال الكرة ،وإنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين، أحدهما في ناحية الشمال والآخر في ناحية الجنوب. والدليل على ذلك أن الكواكب تبدو من المشرق فترتفع قليلاً قليلاً على

ترتيب واحد في حركاتها ومقادير أجرامها وأبعاد بعضها من بعض إلى أن تتوسط السماء، ثم تنحدر هابطة نحو المغرب على ذلك الترتيب والنظام، وترى حركاتها في استدارات متوازيات لا تختلف بسرعة ولا إبطاء كأنها ثابتة ملتحمة في بسيط كرة تديرها جميعاً دوراً واحداً. وأوضح ما استدلوا به وأثبت في أفكارهم أن هيئة السماء كهيئة الكرة، ما يرى من دور الكواكب التي هي ظاهرة أبداً فوق الأرض في الأقاليم الشمالية مثل الجدي والفرقديْن وبنات نعش، وما قرب من هذه الكواكب فإنها تدور في دوائر مواز بعضها لبعض، كأنها جميعاً تدور حول نقطة واحدة، ما كان منها أقرب إلى تلك النقطة فإنه يدور في دائرة صغيرة، وتُرى حركته بطيئة. وما كان منها أكثر بعداً من تلك النقطة، فإنه يدور في دائرة أكبر من دائرة الكواكب الأقرب، وتُرى حركته أسرع من حركته على قدر عظم دائرته وبعده من تلك النقطة إلى أن ينتهي البعد من تلك النقطة إلى الكواكب التي تغيب تحت الأرض. فما كان من الكواكب التي تغيب أقرب إلى تلك النقطة كان مكثه فوق الأرض إلى أن تغيب كثيراً ومكثه في الغيبوبة تحت الأرض إلى أن يطلع قليلاً. وما كان منها أكثر بعداً كان أقل لزمان ظهوره وأكثر لزمان غيبوبته. غير أن دورها جميعاً ما يغيب منها وما لا يغيب في زمان واحد على موازاة لا يغادر بعضها بعضاً ،كأن الذي يديرها كرة واحدة فباضطرار أن تكون تلك النقطة هي أحد قطبي الكرة. فهذا أوضح ما استُدل به على أن السماء على مثال الكرة ودورها تدور الكرة. وبعد ذلك فلو كانت السماء مسطحة على ما يقول بعض الناس لما كان يجب أن يكون بعد نواحي السماء منا على قدر واحد، بل كان يجب أن يكون أقرب مواضع السماء منا ما كان محاذياً لرؤوسنا، وأما ما جاز ذلك إلى نواحي الآفاق فكثير البعد، وكان يجب أن نرى الشمس والقمر وسائر الكواكب عند طلوعها في المشرق صغاراً خفية لبعدها من أبصارنا ثم لا تزال تعظم بحسب قربها إلى وسط السماء ؛لأنها تقرب من أبصارنا ثم كذلك أيضاً تصغر في انحدارها إلى الغروب فتنقص قليلاً قليلاً إلى تخفى عن العين فتضمحل.

ولسنا نرى شيئاً من ذلك؛ ولكنا نرى أقدارها عند طلوعها وعند توسطها السماء وعند

غروبها على أمر واحد ،بل نرى مقاديرها في المشرق والمغرب أعظم منها في وسط السماء، ونرى الشمس عند غروبها إذا صار أول جرمها مع الأفق تغيب قليلاً قليلاً كأن الأفق يقطعها حتى يغيب آخر جرمها وكذلك القمر. وليس الذي نرى من زيادة عظمها في المشرق والمغرب أنها هناك أقرب إلينا منها إذا كانت وسط السماء، ولكن البخار الذي يرتفع من الأرض دائماً أبداً يعرض بين أبصارنا وبين الآفاق فيريناها عظيمة، لا سيما إذا عرض في الهواء البخار الكثير الرطوبة الذي يكون في أيام الشتاء، ويعقب المطر فإن الشمس والقمر يُريان عند ذلك في وقت الطلوع والغروب عظيميْن جداً. ولو أن أحدا ألقى شيئاً في قعر ماء صاف لرآه أكبر من مقداره الذي له بالحقيقة، وكلما صفا الماء وكثر عمقه كان أعظم لما يرى في قعره، فهذا سبب عظم الكواكب عند الآفاق .

وكذلك أجمعت العلماء على أن الأرض أيضاً بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة؛ والدليل على ذلك أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من في نواحي الأرض في وقت واحد ،بل يرى طلوعها على المواضع المشرقية من الأرض قبل طلوعها على المواضع المغربية وغيبوبتها عن المشرقية أيضاً قبل غيبوبتها عن المغربية . ويتبين ذلك من الأحداث التي تعرض في العلو، فإنه يرى وقت الحادث الواحد مختلفاً في نواحي الأرض مثل كسوف القمر ،فإنه إذا رصد في بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب فوجد وقت كسوفه في البلد الشرقي منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلاً ،أقول وجد ذلك الوقت في البلد الغربي على أقل من ثلاث ساعات بقدر المسافة بين البلدين فتدل زيادة الساعات في البلد الشرقي على أن الشمس غابت عنه قبل غيبوبتها عن البلد الغربي .

وكذلك لو نظر في وقت انقضاض كوكب عظيم يعرف وقته في بلدين متباعدين على مثل ما وصفنا، وجد ساعات البلد الشرقي أكثر من ساعات البلد الغربي، ويوجد هذا الاختلاف في الأوقات في جميع ما يسكن من الأرض فيما بين المشرق والمغرب يكون على حسب مسافة ما بين المواضع لا يغادر شيئاً، وكذلك أيضاً يوجد فيما بين المواضع المتباعدة إلى الشمال والجنوب ،فإنه إن سار أحد في الأرض من ناحية الجنوب إلى الشمال رأى أنه يظهر

له من ناحية الشمال بعض الكواكب التي كان لها غروب، فيكون أبدي الظهور وبحسب ذلك يخفى عنه من ناحية الجنوب بعض الكواكب التي كان لها طلوع فيصير أبدي الخفاء على ترتيب واحد، فيدل جميع ما وصفنا على أن بسيط الأرض مستدير، وأن الأرض على مثال الكرة، وبعد فلو كانت الأرض مسطحة لم يعرض شيء مما وصفنا وكان طلوع الكواكب على جميع نواحي الأرض في وقت واحد ولم يكن من يسير في الأرض فيما بين الشمال والجنوب يخفى عنه شيء من الكواكب الأبدية الظهور، ولا يظهر له شيء من الكواكب الأبدية الخفاء .

إن الدليل على أن الأرض في وسط السماء؛ هو ما تقدم ذكره من أمر الكواكب وأن جرم كل واحد يُرى في جميع نواحي السماء على قدر واحد ،فيدل ذلك على أن بعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد، فباضطرار أن الأرض تكون في وسط السماء، وأن من أوضح ما استدل به على ذلك أن الأرض لو لم تكن في وسط السماء وكانت إلى موضع من السماء أقرب منها إلى موضع آخر لوجب أن يكون من يسكن بحيال ذلك الموضع القريب من السماء لا يرى من السماء إلا أقل من نصفها أبداً، وكذلك من يسكن بحيال الموضع البعيد من السماء يظهر له من السماء أكثر من نصفها أبدا ،وهذا خلاف ما ترى فيها لأن جميع الناس في جميع نواحي الأرض يظهر لهم من السماء أبداً ستة بروج ويغيب عنهم ستة بروج. وهذا هو الدليل على أن الأرض في صغرها عند السماء مثل النقطة ؛لأنه لو كان لها مقدار عظيم عند السماء لكان جميع من على الأرض لا يرون من السماء إلا أقل من نصفها أبداً، وأيضاً فإن الأرض لما كانت في وسط السماء كان السطح الذي يقسم السماء بنصفين هو يمر بمركز الأرض الذي هو مركز السماء، ولما كان الذي يظهر من السماء لجميع من على ظهر الأرض هو نصفها لا يغادر ذلك بشيء محسوس دل ذلك على أن السطح الذي يمر فيه البصر على ظهر الأرض إلى نواحي الأرض ليس بينه وبين السطح الذي يمر بمركز الأرض اختلاف يحس، فلذلك لا يكون مقدار ما بين مركز الأرض وبين ظهرها محسوساً عند قدر السماء فباضطرار أن يكون كرة الأرض كالنقطة عند كرة السماء.

وسنبين أيضاً فيما بعد هذا من القول عندما نصف من مقادير مساحة الكواكب أن أصغر كوكب يرى في السماء من الكواكب الثابتة البينة في المنظر هو أعظم من الأرض وأصغر كواكب السماء يرى كالنقطة في السماء بالحري أن يكون جرم الأرض الذي هو أصغر من أصغر الكواكب لا قدر له يحس عند قدر جرم السماء فقد تبين مما وصفنا أن الأرض في وسط العالم كالمركز والهواء محيط بها من جميع الجهات والسماء محيط بالهواء على مثال الكرة وقدر الأرض عند قدر السماء كقدر النقطة من الدائرة صغراً.

فإذا قدمنا وصف هيئة السماء والأرض فلنتبع ذلك بوصف ما يرى من أوائل حركات السماء فنقول :إن أول الحركات اللواتي ترى في السماء اثنتان، فالأولى منهما هي التي تحرك الكل وبها يكون الليل والنهار لأنها تدير الشمس والقمر وجميع الكواكب من المشرق إلى المغرب في كل يوم وليلة دورةً واحدةً بحال واحدة وأدوار متساوية السرعة على قطبين ثابتين يسميان قطبي الحركة الأولى، أحدهما مما يلي الشمال وقد ذكرناه فيما تقدم والآخر مقابلة مما يلي الجنوب ويجب أن تكون الكواكب بإدارة هذه الحركة لها تجري في دوائر متوازية، فتسمى الدائرة العظمى منها دائرة معدل النهار وهي منطقة الحركة الأولى لأنها تقسم كرة السماء بنصفين وبعدها من القطبين من كل الجهات بقدر واحد .وإنما سميت دائرة معدل النهار لأن الشمس إذا جازت عليها استوى الليل والنهار في جميع الأرض . والحركة الثانية هي التي ترى للشمس والكواكب من المغرب إلى المشرق في خلاف جهة الحركة الأولى، وعلى قطبين آخرين خارجين عن قطبي الحركة الأولى وتسمى الدائرة العظمى التي بعدها من هذين القطبين الخارجين بقدر واحد وهي منطقة الحركة الثانية دائرة وسط فلك البروج وهي التي ترسمها الشمس بسيرها الخاص لها من المغرب إلى المشرق ،وهي تنقسم باثني عشر قسماً متساويةً، وأسماؤها: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد ،والسنبلة، والميزان ،والعقرب، والقوس ،والجدي ،والدلو، والحوت. وكل برج ينقسم بثلاثين درجة فيكون جميع الدائرة ثلاثمائة وستين درجة، وكل درجة ستين دقيقة, فباضطرار أن تقطع دائرة فلك البروج دائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين وتميل عنها

في جهتي الشمال والجنوب بقدر واحد، فالنقطة التي تجوز عليها الشمس من ناحية الجنوب إلى الشمال عن معدل النهار تسمى نقطة الاعتدال الربيعي وهو أول برج الحمل والأخرى التي تجوز عليها من الشمال إلى الجنوب تسمى نقطة الاعتدال الخريفي، وهو أول الميزان فتصير ستة أبراج شمالية عن معدل النهار ,وهي من أول الحمل إلى آخر السنبلة وستة أبراج جنوبية وهي من أول الميزان إلى آخر الحوت.

ويتشكل في الفلك دائرة ثالثة معترضة من الشمال إلى الجنوب تمر على أقطاب هاتين الدائرتين، تسمى الدائرة المخطوطة على أقطاب الفلكين تقطع كل واحد من فلك معدل النهار وفلك البروج بنصفين ،فواجب أن يكون قطعها لفلك البروج على النقطتين اللتين هما في غاية البعد والميل عن معدل النهار في جهتي الشمال والجنوب، فتسمى النقطة الشمالية نقطة المنقلب الصيفي ،وهي أول برج السرطان، والجنوبية نقطة المنقلب الشتوي وهي أول الجدي والقوس التي من هذه الدائرة المخطوطة على الأقطاب فيما بين كل واحدة من نقطتي المنقلبين وبين معدل النهار هي مقدار أكثر ما يميل فلك البروج عن معدل النهار وهي على ما وجده بطليموس: ثلاثة وعشرون جزءاً وإحدى وخمسون دقيقة إذا كانت الدائرة ثلاثمائة وستين جزءاً، فأما بالقياس الممتحن الذي قاسه المأمون واجتمع عليه عدة من العلماء فهي ثلاثة وعشرون جزءاً وثلاث وثلاثون دقيقة.

فقد تبيّن مما وصفنا أن الكواكب الجارية تدور على قطبي فلك البروج من المغرب إلى المشرق بسيرها الخاص لها وتديرها جميعا وسائر الكواكب الحركة الأولى من المشرق إلى المغرب ، وأن قطبي فلك معدل النهار اللذين عليهما الدور الأول ثابتان غير متحركين وأن قطبي فلك البروج متحركان بالحركة الأولى حول قطبي معدل النهار ولا زمان لموضعيهما من الدائرة المخطوطة على أقطاب الفلكين.

القول في الأجرام والأبعاد

يقول أبو معشر: وجدنا كل ما يطلب الناس من علم النجوم أربعة أشياء: أولها حركاتها

ومسيرها في الطول والعرض ،والثاني معاريضها التي تعرض لها باختلاف حركاتها في البروج ومقامها ورجوعها مع كسوف الشمس والقمر وما يعرض لهما في ذلك، والثالث علم أجرامها، والرابع علم أبعادها من نقطة الأرض وبُعد بعضها من بعض. أما الوجهان الأولان اللذان هما أسباب اختلاف حركات الشمس والقمر والنجوم فقد بيّناها، وأوضحناها بأسبابها وعللها والحجج الواضحة عليها بحساب المساحة المفرد على ما ذكر من ذلك في " المجسطي " وما استنبطنا منه ووضعناه في كتاب الأفلاك وتركيب السماء. ونحن بادون بعون الله بعلم ما بقي من الوجوه الأربعة؛ وذلك في أبعادها وعظم أجرامها إن شاء الله.

إنّا لّما علمنا أن حركات النجوم بالأفلاك مستديرة في السماء ،وأن السماء مستديرة محيطة بهذا العالم، وأن ابتداء كل استدارة ومنتهاها على النقطة التي تكون في وسطها التي تسمى المركز، وأن الأرض وسط السماء ومركزها كالنقطة ،وأن النجوم والأفلاك والسماء تدور على الأرض ؛علمنا من قبل ذلك أنه ينبغي لنا أن نعلم عظم الأرض الذي به يقاس عظم الأجرام .

القول الأول على الأبعاد

الذي يحيط بالأرض، أعني الدائرة العظمى التي على كرتها أربعة وعشرون ألف ميل ،لأن كثيراً من القدماء ذكروا أن الذي وجدوا بين مدينتين على خط واحد من الخطوط التي تدور على أقطار معدل النهار إذا كان بينهما من العرض جزء واحد من ثلاثمائة وستين جزءاً من الدائرة العظمى التي على الأرض من الأميال ستة وستين ميلاً وثلثي ميل، وقطرها سبعة آلاف وستمائة وستة وثلاثون ميلاً بالتقريب مع الماء المحيط بها يكون نصف ذلك ثلاثة آلاف وثمانمائة وثمانية عشر ميلاً بالتقريب. وأما بُعد آخر نهاية الهواء والنار جميعاً اللذين آخر حدهما أقرب بُعد القمر من مركز الأرض فثلاثمائة وثلاثون جزءاً وثلاث وثلاثون دقيقة من جزء مساو لنصف قطر الأرض يكون ذلك مائة ألف ميل وعشرين ألف ميل وثمانية آلاف

ميل وثلثي ميل وستة عشر جزءاً من ستين جزءاً من ميل. وبُعد القمر من مركز الأرض في أقرب بُعده منها مثل هذه الأميال التي ذكرنا. فأما أبعد بعده من مركز الأرض فأربعة وستون مثلاً لنصف قطر الأرض وسدس مثل يكون ذلك من الأميال مائتي ألف ميل وأربعة وأربعين ألف ميل وتسعمائة وثمانية وثمانين ميلاً وثلث ميل. وأما بُعد نهاية ظل الأرض من مركز القمر إذا كان القمر في بُعده الأقرب من الأرض فمائتان وثمانية وستون وعشرون ألف ميل ومائتي ميل وأربعة وعشرون ميلاً إذا كانت الشمس في بعدها الأوسط من الأرض مثلاً لنصف قطر الأرض يكون ذلك من الأميال ألف ألف ميل وثلاثة، وأما بُعد نهاية ظل الأرض من مركز القمر إذا كان القمر في بُعده الأبعد فمائتا مثل وثلاثة أمثال وخمسة أسداس مثل لنصف قطر الأرض بالتقريب يكون ذلك من الأميال سبعمائة ألف وثمانية وسبعين ألف ميل ومائتا وخمسة وثلاثين ميلاً وثلثي ميل إذا كانت الشمس في بُعدها الأوسط من الأرض فأما عطارد فإن أدنى بُعده من مركز الأرض أربعة وستون مثلاً وسدس مثل لنصف قطر الأرض يكون ذلك من الأميال مائتي ألف ميل وأربعة وأربعين ألف ميل وتسعمائة وثمانية وثمانين ميلاً وثلث ميل وأما بُعده الأبعد من مركز الأرض فمائة وستة وستون مثلاً لنصف قطر الأرض بالتقريب يكون ذلك من الأميال ستمائة ألف ميل وثلاثة وثلاثين ألف ميل وسبعمائة وثمانية وثمانين ميلاً.

وأما بُعد الزهرة الأقرب من مركز الأرض فمساوٍ لبعد عطارد الأبعد من مركز الأرض وأما أبعد بُعدها من مركز الأرض فألف مثل وتسعة وسبعون مثلاً لنصف قطر الأرض بالتقريب يكون ذلك من الأميال أربعة آلاف ألف ميل ومائة ألف ميل وتسعة عشر ألف ميل وستمائة واثنين وعشرين ميلاً.

وأما بُعد الشمس الأقرب من مركز الأرض فألف ومائة وستون مثلاً لنصف قطر الأرض بالتقريب يكون ذلك من الأميال أربعة آلاف ألف ميل وأربعمائة ألف ميل وثمانية وعشرين ألف ميل وثمانمائة وثمانين ميلاً ،وأما بُعدها الأبعد من مركز الأرض فألف ومائتان وستون مثلاً لنصف قطر الأرض بالتقريب، يكون ذلك من الأميال أربعة آلاف ألف ميل وثمانمائة

ألف ميل وعشرة آلاف ميل وستمائة وثمانين ميلاً، وأما أقرب بُعد المريخ من مركز الأرض فمساوٍ لأبعد بُعد الشمس من مركز الأرض ،وأما أبعد بعده من مركز الأرض فثمانية آلاف مثل وثمانمائة وعشرون مثلاً لنصف قطر الأرض بالتقريب يكون ذلك من الأميال ثلاثة وثلاثين ألف ألف ميل وستمائة ألف ميل واثنين وثمانين ألف ميل وسبعمائة وستين ميلاً.

وأما بُعد المشتري الأقرب من مركز الأرض فمساوٍ لبُعد المريخ الأبعد من مركز الأرض، وأما أبعد بُعده من مركز الأرض فأربعة آلاف مثل ومائة وسبعة وثمانون مثلاً لنصف قطر الأرض بالتقريب يكون ذلك من الأميال أربعة وخمسين ألف ألف ميل ومائة وخمسة وستين ألف ميل وتسعمائة وستة وستين ميلاً، وأما أقرب بعد زحل من مركز الأرض فمساوٍ لأبعد بُعد المشتري من مركز الأرض، وأما أبعد بُعده من مركز الأرض فتسعة عشر ألف مثل وثمانمائة وثمانون مثلاً لنصف قطر الأرض بالتقريب يكون ذلك من الأميال خمسة وسبعين ألف ألف ميل وتسعمائة ميل وتسعمائة ألف ميل وألفاً وثمانمائة وأربعين ميلاً، فأما بُعد الكواكب الثابتة من مركز الأرض فعشرون ألف مثل لنصف قطر الأرض بالتقريب يكون ذلك من الأميال ستة وسبعين ألف ألف ميل وثلاثمائة وستين ألف ميل .

القول الثاني في الأجرام

أما أقدار أجرامها وأقطار بعضها من بعض ،فإن قطر القمر سبع عشرة دقيقة واثنتان وثلاثون ثانية إذا كان قطر الأرض جزءاً واحداً وقطر الأرض مثل قطر القمر ثلاثة أضعاف وخمس ضعف وشيء قليل. فإذا كان قطر الأرض كما قدمنا يكون قطر القمر من الأميال ألفين ومائتي ميل وخمسة وأربعين ميلاً وخمسة أسداس ميل بالتقريب. فأما جرم الأرض فمثل جرم القمر تسعاً وثلاثين مرة وربع بالتقريب، فأما قطر الشمس فمثل قطر الأرض خمس مرات ونصف. بالتقريب يكون ذلك من الأميال أحداً وأربعين ألف ميل وتسعمائة وثمانية وتسعين ميلاً، فأما قطر الشمس فمثل قطر القمر ثمان عشرة مرة وأربعة أخماس مرة بالتقريب. وأما عظم جرم الشمس فمثل عظم جرم الأرض مائة مرة وستاً وستين مرة وثلاثة

أثمان مرة، فأما جرم الشمس فمثل جرم القمر ستة آلاف وستمائة مرة وأربعاً وأربعين مرة ونصف بالتقريب، وأما قطر الأرض فمثل قطر عطارد ثمانية وعشرين مرة وشيء قليل يكون أميال قطر عطارد مائتي ميل وسبعة وثلاثين ميلاً.

وأما جرم عطارد فجزء من اثنين وعشرين جزءاً من جرم الأرض، وأما قطر الزهرة فسبع عشرة دقيقة من جزء من قطر الأرض. وقطر الأرض مثل قطر الزهرة ثلاث مرات وتسعة أجزاء من سبعة عشر جزءاً يكون ذلك قطر الزهرة من الأميال ألفين ومائة ميل وواحداً وتسعين ميلاً بالتقريب ،وأما جرم الزهرة فجزء من أربعة وأربعين جزءاً من جرم الأرض، وأما قطر المريخ فمرة وسُبع مرة وشيء قليل مثل قطر الأرض، بالتقريب يكون ذلك من الأميال ثمانية آلاف وسبعمائة ميل وستة وعشرين ميلاً وستة أسباع ميل بالتقريب ،وأما عظم جرمه فمثل الأرض مرة وخمسة عشر جزءاً من تسعة وأربعين وشيء قليل، وأما قطر المشتري فمثل قطر الأرض أربع مرات وربع وعشر مرة يكون ذلك من الأميال ثلاثة وثلاثين ألف ميل ومائتي ميل وستة عشر ميلاً وثلاثة أخماس ميل.

وأما جرم المشتري فمثل جرم الأرض إحدى وثمانين مرة ونصف وربع بالتقريب، .وأما قطر زحل فمثل قطر الأرض أربع مرات وربع وسدس يكون ذلك من الأميال اثنين وثلاثين ألف ميل وسبعمائة وستة وثمانين ميلاً .وأما عظم جرم زحل فمثل الأرض تسعاً وسبعين مرة ونصف بالتقريب.

وأما الكواكب الثابتة التي في الشرف الأول، وهي أعظم الكواكب الثابتة ,وهي خمسة عشر كوكباً فإن قطر كل واحد منها مثل قطر الأرض أربع مرات ونصف وجزء من اثنين وعشرين، يكون ذلك من الأميال أربعة وثلاثين ألف ميل وسبعمائة وثمانية أميال وأربعة أسباع ونصف سبع ميل. وأما عظم أجرامها فإن جرم الكوكب منها مثل عظم الأرض أربعاً وتسعين مرة ونصف بالتقريب.

وأما الكواكب الثابتة التي في القدر السادس ؛فإن الكوكب منها مثل الأرض ست عشرة مرة، فأعظم المخلوقات الشمس ،والثاني الخمسة عشر كوكباً الثابتة التي في الشرف الأول،

والثالث المشتري، والرابع زحل ،والخامس باقي الكواكب الثابتة ،والسادس المريخ ،والسابع الأرض ،والثامن القمر، والتاسع الزهرة، والعاشر عطارد. ومما بينّا وقدّمنا يتبين أبعاد كل واحد منها من الباقية ،ونسبة جرم كل واحد منها إلى أجرام الباقية، ونسبة قطر كل واحد منها إلى أقطار الباقية .

ذكر الأرض وهيئتها وبنيانها ومدنها المشهورة

يقال والله أعلم إن الأرض كرة، وإن المحيط بها أربعة وعشرون ألف ميل ،أعني الدائرة العظمى التي على كرتها وقطرها سبعة آلاف وستمائة وستة وثلاثون ميلاً بالتقريب. ويقال إن مدن الأرض إحدى وعشرون ألفاً وستمائة مدينة بعدد دقائق الفلك، وكل ثلاثة أميال فرسخ، وكل فرسخ اثنا عشر ألف ذراع بذراع الملك التي كل ذراع منها ثلاثة أشبار، والخطوة ذراع بذراع الملك ،والميل أربعة آلاف ذراع، والبريد اثنا عشر ميلاً، وهو أربعة فراسخ ،والمشرق ستة أميال،وهو فرسخان، والغلوة خمسمائة ذراع، والفرسخ أربع وعشرون غلوة. ويقال إن وسط الأرض ،وهو الموضع الذي يسمى القبة مدينة تسمى أذيْن وهو الموضع الذي لا تزيد ساعات نهاره على ساعات ليله ولا ليله على نهاره في شيء من الأزمنة، فيكون نهاره أبداً اثنتي عشرة ساعة، وليله كذلك، فإذا انحدرت عن هذا الموضع ،وهو الذي يسمى القبة فأخذت ناحية الشمال والجنوب، تغيرت ساعات الليل والنهار، وزيد فيها على حسب البعد عن القبة. واقتصرنا من الشرح في هذا الموضع على هذا الفكر لأنه يطول إن استقصيناه .

اختلاف أهل الملل في هيئة الأرض

قد ذكرنا في أول الباب هيئة الأرض ونعتها على إيجاز واختصار، ووجدنا أهل الملل قد اختلفوا في ذلك، فأحببنا أن نذكر جملاً من اختلافاتهم نختمها بالصحيح المأخوذ من الفلاسفة بالحجج الواضحة والبراهين النيرة الموجبة للقبول التي يصححها العيان ولا يخفى على ذوي الألباب .

قال بعض أهل الملل إن الأرض مبسوطة التسطيح في أربع جهات: شرق وغرب وجنوب وشمال، وإن الخلق عليها من جهة واحدة، وهو وجهها الأعلى، وإن الوجه الآخر المقابل لهذا الوجه الأعلى وأسفلها، وإن السماء فوق الأرض مما يلي وجه الأرض الأعلى وحده دون سائر نواحيها ووجهها الأسفل، وإن حول الأرض جبلاً محيطاً بالأرض وإن الشمس تطلع من حد ذلك الجبل في وقت واحد وساعة واحدة فتستتره وتستدير في مغيبها حول الجبل، وإن الجبل هو الساتر لها عن أهل الأرض من حيث تغرب إلى أن تطلع من المشرق من حد الجبل، وإن القمر وسائر النجوم في السماء في الطلوع والغروب والاستتارة والاستدارة بالجبل على مثال ما عليه الشمس من ذلك.

وقال صنف منهم إن الأرض لا نهاية لها من جهتها السفلى وإن السماء لا نهاية لها من جهتها العليا، وإن في ناحية الشمال جبلاً منيفاً محدقاً بمشارق الأرض ومغاربها. وقال صنف منهم إن الأرض مستطيلة كالعمود. وقال صنف منهم إن الأرض شبيهة بنصف كرة كهيئة القبة والسماء مركّبة على أطراف الأرض.

وقال صنف بل هي في جانب السماء ،من السماء إلا في الوسط. وقال صنف منهم إن الذي يرى من الدوران للكواكب إنما هو دوران الأرض لا الشمس والفلك، وقال صنف منهم إن الأرض تهوي إلى ما لا نهاية له ،والسماء يرتفع إلى ما لا نهاية له، وإن الكواكب تنشأ في المشرق، وتبلى وتهلك في المغرب، وكذلك الشمس والقمر.

وقال صنف منهم إن الأرض وسط الفلك مصنوعة من الطبائع الثلاث التي هي: الماء والنار والريح ،يغيرها الملائكة. وإن ناحية الشمال منها مشرفة مرتفعة وإنها في تركيبها مسطوحة طبق على طبق على قرار مكين، وعلى وجهها الأعلى جبل شامخ يعلو دوين الفلك أخذ شرقاً وغرباً وضع مع غيره من الجبال لتمييز الليل والنهار وتفاصيل العالم بأقسام أربعة من شرق وغرب وتيمن وجربي. وقد أكثر القول والاختلاف في ذلك، واحتج أصحاب المذاهب فيه بحجج ضعيفة لا تثبت ولا تصح ،وفي الإصغاء إليها تصدية للعقل ،وفساد للفهم، وضلال عن القصد والمعنى .فيما قالت الفلاسفة والحكماء في ذلك وأوردوا فيه مما يحققه العيان ولا يدفعه العقل .)

يلاحظ نوع الفروض التي يطرحها ابن رسته، والولع في تدقيق الأبعاد والأطوال والأحجام، وهي مستنبطة من مقاييس ذلك العصر ، وتكشف نوعا من التدقيق الذي يبدو لنا الآن مبالغا فيه، لكنه ضمن السياق الثقافي للقرون الوسطى كان مسوغا،ومع أنه يقدم حججا على كروية الأرض ، لكنه يستطرد في تفاصيل تخضع بعمومها للأفكار الشائعة آنذاك، بما في ذلك القول بأن الأرض تقع في مركز السماء، ومثل هذه المناقشات التي هي مزيج من الفروض المنطقية والعلمية والحدسية كانت مسيطرة على الوعي العام، ومادمنا نريد متابعة بدايات نظرة المسلمين إلى الكون والأرض وكيفية تشكلها، فمن المفيد المضي في إضاءة هذا الجانب، ولعلّ البيروني من أبرز المسعفين لنا في هذا الموضوع.

تعتبر مساهمة أبي الريحان البيروني أساسية ، كونها تستند إلى أرضية فلسفية مشبعة بالثقافات اليونانية والعربية والفارسية والهندية، وكما يلاحظ في هذا النص الذي يشكّل مدخلا لكتاب(ا لقانون المسعودي) فإن البيروني يقدّم مناقشة معمّقة لآراء بطليموس حول كروية الأرض . ومن الواضح أنها مناقشة تستفيد من الأفكار النظرية –المنطقية ، لكنها مدعمة أيضا بالفكرة التجريبية التي تستند إلى معطيات واقعية معروفة. ويصلح أن يكون البيروني أنموذجا ممتازا للمفكّر الإسلامي الشامل الذي تشكّلت لديه صورة موسّعة عن عالم القرون الوسطى بثقافاته ومجتمعاته. ويبرهن النص الذي سيأتي بعد قليل على سعة الاهتمام المبذول آنذاك في موضوع كروية الأرض، وعلاقتها بالأجرام الأخرى، وهي بداية (كوسمولوجية) ضرورية لكل من الفلسفة والفلك والجغرافيا

(3)

في الأخبار عن هيئة الموجودات الكلية في العالم أبو الريحان البيروني (توفي٤٤٠هجري=١٠٤٨ميلادي) من كتاب (القانون المسعودي)

(العالم بكليته جرم مستدير الشكل متناه في حواشيه، بعضه ساكن في جوفه. وإذا نقل جزء من نوع ساكن إلى نوع مكان آخر منه تحرك على استقامة نحو حيّزه حركة عرضية، وما حول هذه الساكنات في أطرافه فهو متحرك حركات مستديرة مكانية حول الوسط الذي هو حقيقة السفل ومركز الأرض – وجملة هذا الجرم الموجود يسمى عالماً بالإطلاق وربما فصّل فسمي المتحرك منه على استدارة عالماً أعلى، والمتحرك على استقامة عالماً أسفل، وربما جعلت العوالم ثلاثة بالوضع – وبسبب اتصال هذه الألقاب في بعض الأحوال بالمذاهب والاعتقادات نريد أن نقتصر من جملة المتحرك باستدارة على اسم الأثير فهو مشتهر بين الأوائل وقل ما نحتاج ها هنا إلى ذكر المتحرك باستقامة فإن اضطررنا إليه ذكرنا جملته بالعناصر الأربعة أعني الأرض والماء والهواء والنار. والذي احتجنا إليه من أحد هذه الأنواع المنضودة بعضها فوق بعض حول وسط العالم إلى تقعير الأثير الذي هو نهايته الأدنى إلينا يتحرك ثقيلها إلى المركز وخفيفها عن المركز.

والناس في الأرض منتصبو القامات على استقامة أقطار الكرة، وعليها أيضاً نزول الأثقال إلى السفل ، يرون السماء فوقهم كقبة لازوردية لا يحسون منها أينما كانوا إلا ما يقارب نصف الكرة بالقدر، وهم مختلفو الحالات في وجود النهار والليل ومقدار ولوج أحدهما في الآخر بالتكافؤ في المدارات المتساوية الميل المختلفة الجهة ،وفي أبعاد مرور الشمس والقمر والكواكب عن سمت رؤوسهم مقدار وجهة حتى تختلف لها ارتفاعات أنصاف النهار

وأظلاله وارتفاع القطب وانحطاطه واتساع ما بين المشارق الصيفية والشتوية ومغاربها وتضايقها وذلك بحسب الإمعان في جهتي الشمال والجنوب المسمى عرضاً، ومنه ومن المسير نحو المشرق والمغرب المسمى طولاً يختلف الطلوع والغروب بالزمان على حسب ما يوجبه الانفراد والازدواج في الطول والعرض .

ثم إن الأثير منقسم لكواكبه السبعة إلى أكر سبع طباق متماسة يحيط عاليها بسافلها فيختص كل كوكب بواحدة منها فيما إليه من حركاته في الطول إلى التوالي وإلى خلاف التوالي، وفي العرض إلى الشمال والجنوب وفي السمك بالصعود والهبوط، ثم تعلوها كرة ثامنة فيها جميع الكواكب الثابتة مركوزة وحركتها وحركة الأكر التي تحتها نحو المشرق موجودة، وبها تحصل أزمنة أدوارها وتسمى حركة شرقية وثانية لأن الغربية التي بها يحس النهار والليل المطلقان بالشمس والمضافان إلى غيرها من الأجرام والنقط تسمى أولى ولا تأثير لهذه الأولى في الأثير إلا بالإضافة إلى الأرض وسكانها كما لا تأثير لحركة الماء في المحمول عليه بالسواء إلا بالقياس إلى شيء غير متحرك معه كحركته أو إلى المحاذاة في الشطوط .

وأولى الأكر من جهة السفل هي التي للقمر ، والقمر شخص كريٌّ الشكل ،مستحصف الجِرم ،يُرى النور الواقع عليه من الشمس كما يُرى على الجدار وأبعاضه المقابلة للمنير، ويستر كل ما مر عليه من شمس أو كوكب عن أبصارنا ستر كثيف لا كما تُخفي الشمس الكواكب بغلبة الضياء المكتنف للأبصار وقوته الباهرة بالنهار وفي طرفي الليل، وكرة عطارد فوق كرة القمر، ثم كرة الزهرة فوقها، ولكل واحد من عطارد والزهرة عن الشمس بُعد معلوم لايتعداه ولكنه يرجع من عنده أو يستقيم فيعود إليها ثم الشمس فوقهما شمسة للكواكب واسطة في الترتيب موضوعة منها موضع الملك من الممالك؛ لأن أحوال جميع ما سواها وحركاتها منوطة بالشمس مقدّرة بحركاتها .

ولسفول الثلاثة عن موضعها سمّيت سفلية، والتثنية فيه واقعة على الزهرة وعطارد دون القمر، ثم الثلاثة الكواكب العلوية أكرها فوق كرة الشمس أقربها المريخ وأبعدها زحل وفيما بينهما المشتري. وهي وإن شاركت السفليين في التحير بالرجوع فإنها باينتهما في

استيفاء جميع الأبعاد الكريّة عن الشمس وشاركت القمر في ذلك ، وكل منها متحرك لشأن وجادّ لمستقر دائب على ما طبع عليه فلم يخلق عبثاً بل بحكمة ظاهرة وقدرة باهرة للعالم ناظمة وللخلق على المصالح حاملة .

وهذه جمل قدمتها للتوطئة ولتقرير ما يجيء في خلال الكلام من التسمية وسيجيء من تفاصيلها فيما بعد قدر الحاجة إليه إن شاء الله .

في ذكر الدلائل على مبادئ الصناعة

الآراء في المقاصد مختلفة والأقاويل بحسبها كثيرة . وليس هذا موضع اتساع في مناقضة الشُّبَه ، وتجريد الحق من وضر الشكوك . ومبادئ هذه الصناعة وإن كانت ضرورية لاستنادها إلى البراهين المساحية؛ فإنها لم تترتّب في الكتب المشهورة بحيث تستحكم الثقة بها فيمكن الإشارة إليها والإحالة عليها . وحتى في كتاب المجسطي الذي هو دستور الصناعة ، وصاحبه إمام أهلها خاصة فإن اسمه باليونانية (سونطاكسيس) ومعناه" الترتيب "وإذا كنا قصدنا فيما نحوناه أن نبين عن كيفيات أعمالنا في هذا الكتاب وأن نبرهنها فليس بحسن أن نعرض عن ترتيب المبادئ على نظامها الأصدق .

فلنخبر أولاً بأن المقالة الأولى من كتاب" المجسطي "اشتملت في أبوابها على ستة مباحث منها :

أولها في أن السماء كرية الشكل والحركة .

والثاني في أن الأرض كرية الشكل حساً .

والثالث في أن موضع الأرض من الكل هو وسط السماء .

والرابع في أن قدرها عند السماء غير محسوس به .

والخامس في أنه ليس للأرض حركة مكانية ولا حركة انتقال .

والسادس في أن الحركات الأولى في السماء صنفان .

وهذه أصول مهما صحّت عند المستدلّ صحّ البناء عليها فيما بعد .

الأصل الأول

فنقول في أولها إنّا نجد الشمس والقمر والكواكب حسّاً تبدو من مشارق الأفق، فتطلع من وجه الأرض جزءاً بعد جزء حتى تستكمل طلوع أجرامها، ثم تأخذ في الارتفاع والتعالي على تقويس مشاهَد إلى أن تنتهي من السمو إلى غاية مالها في خط واحد مارّ على سمت الرأس متوسط بين مشارقها ومغاربها، فسمّي خط نصف النهار فإذا جازته أخذت نحو المغارب منحدرة من غاية ارتفاعها عائدةً بالتراجع على ما تقدم من الحال حتى توافي أفق المغرب ،فتغيب أجرامها فيه جزءاً بعد جزء إلى أن تستخفي عن وجه الأرض، ثم تعود بالغد إلى مشارقها الأمسيّة .فمن لم يقتصر في مثل هذه المعالم الشريفة على ملاعب الصبيان السخيفة ويستنكف عن العناد والمكابرة، ينفي عن هذه الحركات الاستقامة بحسب النظر في الحال المقتنص من الحس لأمرين: أحدهما أن العوْد فيها إلى المبدأ ممتنع أصلاً فيما استقام منها إلا بالرجوع فقط وواجب بالضرورة فيما استدار، والثاني أن الاستقامة توجب اختلاف الإعظام لاختلاف الأبعاد بين البصر والمبصر حتى يكون على أعظم ما يكون مقاديرها في المنظر في أقرب المواضع منها إلينا،ويحصل لها قبله التزايد من أصغر مقاديرها في المنظر والتناقص بعده إلى ذلك المقدار ويكون التفاني وراءهما في الشرق والغرب .ولأن الأشخاص العلوية مختلفة المقادير فواجب فيها أن تختلف مواضع تفانيها التي هي باستقامة الحركة مواضع الطلوع والغروب وذلك خلاف الوجود من طلوع أجرام جميعها من وراء ساتر واحد غير مرتفع ومدارها على حال واحد وفي ذلك كفاية في نفي الاستقامة عن هذه الحركة، وكوْن الساتر غير مرتفع عن وجه الأرض كافٍ أيضاً، وهم من عسى رأى الطلوع والغروب من جبل كالمنانية وبراهمة الهند لأنه غير مدرك بالحس، وإذا غاب عنه كان موجبه وأثره أولى بالغيبة عنه.

وهذا هو الدليل الذي اعتمده بطليموس في استدارة الحركة السمائية، وإذ ليس للأبدية الظهور من الكواكب طلوع وغروب فإنه استدار بدوائرها الموازية المرتسمة بهذه الحركة على استدارتها أيضاً ، وإن النقطة التي تتوسطها هي قطب السماء. ولسنا نتعرّض لذكر الآراء

الركيكة التي ذكرها في اتّقاد الكواكب عند مسامتتها بعض مواضع الأرض وانطفائها عند بعضها؛ فإن أمثالها أكثر مما عرف من أهل زمانه ،ولم لا يكثر وليس ينحصر في سلك واحد غير الحق .

وأما ما انحرف عنه فمتشعّب إلى ما لا نهاية. ثم استدل بطليموس على كريّة شكل السماء بقياسات طبيعية، ومن الطرق الأولى مأخوذة، ولكل صناعة منهج وقانون لا يستحكم عليه ماهو خارج عنها ؛ولذلك كان ما أورده مما هو خارج عن هذه الصناعة إقناعياً غير ضروري. وما وجدنا إلى الصناعة سلّماً ثابتاً على مناهجه لم يتحرّف عنه إلى ما هو خارج من طرقه ومدارجه. فمما ذكر وجود السلاسة في حركة الكرة أكثر وهي لعمري كذلك في كل متحرك على محوره والكرة مع سائر الأشكال المجسمة في ذلك شرع واحد لأن هذه الحالة تلزم من جهة المحور دون الشكل. ومنها فضل الكرة على سائر الأشكال المضلّعة في العظم والسعة، ثم إحاطة السماء بما في ضمنها فهي لذلك كرة وهذا مطّرد في الأشكال التي تساوي محيطاتها محيطات الكرة بالمساحة وليس بمانع عن إحاطة شكل مستقيم السطوح بالكرة إذا فضّلت مساحة إحاطته وتكون حركتهما معا على محور واحد. ومنها تشابه الأجزاء ومهما عني به حال من الأحوال الطبيعية ساوت الكرة فيها المجسّم المستقيم السطوح إذا تقاسمت جميعها الكيفية الموجبة للتشابه بالسواء وسرت في كل واحد فهما على صورة واحدة، وإن عني به حال وضعي كالطرف من الوسط لم يوجب ذلك الاستدلال سوى أن الأثير كرة؛ لأنه كرة وذلك غير مفيد. ومنها إيجاب الشكل الكري للأشياء الدائمة لوجود الأشكال المختلفة للأشياء الدائرة، وذلك قريب من الإقناع لتناول الدثور ما تحت الكون والفساد من جهة حروفها وأركانها التي تختلف فيها قوة التماسك. ولكن استدلال بطليموس على نفي التسطيح والبساطة والصور الطبقية عن تلك الأجرام بثبات صورها في جميع النواحي من السماء غير صحيح ؛فإن القطعة المستديرة من تقعير الكرة لن يراها مَن في جوفها على المركز كان أو على غيره إلا مستديرة غير متغيرة عن صورتها باختلاف النواحي إلا أن تكون الحركة على استقامة وتلك القطعة لا على كرة ،وقد قدّم نفي الاستقامة عن حركة السماء. ومنها الاستدلال بالتحليل في اطّراد الآلات

والمقاييس عن النتيجة الصحيحة . ٥

وقد ابتنيت على قضية الاستدارة، وذلك صادق في الحركة بين المشرق والمغرب .فأما الاستدارة في العرض بين الشمال والجنوب فلا تتصل بقواعد أمر الآلات وهي تنتج الصواب بحسب ما يفرض للسماء من شكل فيما سوى الطول ونحن نرى أن شكل السماء لا يتّضح أمره بهذه الدلائل وحدها، ولذلك نقول إنه قد استبان من حركة الكواكب أنها على استدارات متوازية يتساوى زمان الدور في جميعها، وتتشابه أبعاضها في أبعاضه. ولو كانت هذه المدارات كلها على سطح مستقيم مركزها فيه قطب السماء لم يخْلُ ذلك السطح من أوضاع أربعة بالقياس إلى انتصاب القامة .

أ- فإما أن يكون الانتصاب عموداً عليه حتى يقوم مقام السقف ،ولو كان كذلك لما كان فيه طلوع أو غروب حاصلاً أصلاً، ولكان حال الكواكب في خلاف جهة سمت الرأس عن القطب كمثل ما تقدم من التصاغر والتفاني والخفاء عن البصر لا الغروب بالجرم .

ب- وإما أن يكون الانتصاب موازياً له فيقوم مقام الحائط من جانب القطب ولو كان كذلك لما جاوز كوكب سمت الرأس نحو الجنوب أبداً ولكان الأبدي الظهور منها في تسافله عن القطب أعظم في المنظر منه في تعاليه .

ج- وإما أن يكون مائلاً فيما بين الوضعين المتقدمين ؛فإن كان ميله سواء في جهتي الشرق والغرب لزم في الكواكب الجنوبية عن سمت الرأس التصاغر والخفاء بحسب التباعد حتى يحصل فيها التفاني أيضاً ،وإن كان ميله إلى إحدى جهتي الشرق والغرب أكثر لم يتساو بعد المطلع والمغرب في الأفق عن خط نصف النهار وفي المدار أيضاً والوجود بمعزل عن موجبات هذه الأوضاع، وإذا امتنع أن تكون مدارات الكواكب على سطح مستقيم وجب أن تكون على سطح مجسم غير مستقيم، وإذا حركته دورية فلا محالة أنها على محور والوجود بالفعل يوجب التناهي. ونهايتا المحور هما قطبا ذي المحور. فالسماء إذاً ذات قطبين قد انحط أحدهما في الجنوب بقدر ارتفاع الآخر في الشمال، وهذا الشكل يمكن أن يكون كرياً كما يمكن أن يكون بيضياً أو عدسياً أو أسطوانياً أو مخروطياً أو مضلّعاً .فليس استدلال بطليموس بثبات أقدار الكواكب في جميع نواحي السماء وجهاتها على حال

واحدة بناف للتضليع عن الشكل إنما هو نافٍ عن نفس الحركة والرسوم التي ترسمها الأجرام بها .

فأما نفي الأشكال المختلفة عن السماء ما خلا الكرية فنحن غير متمكنين منه إلا فيما بين الثاني من المباحث الستة وبين الثالث وذلك نؤخره إلى موضعه .

الأصل الثاني

فأما الأصل الثاني في إثبات الكرية للأرض فلْيعلم أن للأرض امتداداً في الطول بين المشرق والمغرب وامتداداً في العرض بين الشمال والجنوب، وقد اعتمد بطليموس في تعرّف طولها اختلاف أزمان الكسوفات، والقمرية منها خاصةً، وهو الوجه فيه. إلا أنا نرى أنه لا يتروج في المبادئ ما لم يقدم أمامه مقدمتان حتى يصير بهما الأمر ضرورياً، وإحداهما: أمر الكسوف حتى يعلم سبب التعويل عليه وسبب إيثار القمري منه، فنقول فيه إن النور في جرم القمر لو كان ذاتياً غير مستفاد لما انسلخ عن بعض جرمه وبقي في بعض من غير عارض يعرض، ومَنْ تأمله وجده دائما منه في الجانب الذي يلي الشمس، وأنه في ليالي الشهر يكون بقدر البعد عن الشمس، وأن القمر إذا اجتاز على شيء من الكواكب المتحيّرة أو الثابتة أو السحابية المجرية ستره عن أبصارنا وكسفه مقداراً من الزمان يحوم أكثره حول ساعة ثم كشفه ويكون لحوقه به من جانب المغرب حتى يُظن بالمستتر أنه دخل جوف القمر من شرقه ثم يخرج بعد انقضاء المدة من غربه؛ ولأن المهل بجليل الأمر دون دقيقة يكون على ثلث خمس ما يكون بين النيرين حين البدور والامتلاء ،أما بالعشيات فيكون أول ظهور القمر في غرة الشهر، وأما بالغدوات فيكون آخر ظهوره في سلخ الشهر، وظاهر أن القمر لم ينتقل من أحد جانبي الشمس إلى الآخر إلا بعد الاجتياز عليها وكسوف الشمس إذا اتفق فبالقرب من منتصف ما بين حدي رؤيتي القمر في المشرق والمغرب أعني مدة السرار. وليس هناك ساتر غير القمر وهو الذي يسترها عنا ويكسفها وخاصة إذا لم تنفصل الشمس عن الكواكب التي يستره أيضاً إلا بعِظَم الجرم. فأما في لحوق القمر من جهة المغرب وبدء كسوفها منه وانفصاله عنها من جانب المشرق وتمام الانجلاء منه وزمان المكث فإنهما فيهما

متشابهان وترى استدارة حرف القمر عيانا على وجهها وكسوف الشمس بالقمر إذا توسط بينهـا وبين البـصـر ويكون الجانب الذي يلي الشـمـس منه مـضـيـئاً والذي يلينا بحـال غـيـر مستنير.

ولا يزال ما يواجهها منه كذلك وعلى مقداره لكنه مختلف الوضع من جرمه بحسب البعد بين النيرين فإنه يتسافل دائماً إلى الجانب الذي يلينا من وقت الإهلال إلى وقت البدور في الاسـتـقـبـال، ومـقـدار المضيء نصف بسيط كرته بالتـقـريب لأنه في التـحـقـيق يرجح على النصف من جهة فضل عظم الشـمـس على عظم القـمـر لعلوها عليه مع تفانيهـمـا في المنظر وأيضاً فلم نشعر بمكث الكسوف الذي يستغرق كل جرم الشمس، فالنيران لذلك حينئذٍ مرئيان بزاوية واحدة وكل شيئين كذلك فإن أقربهـمـا لا محالة يكون أصغرهـمـا ونحن نرى من القـمـر نصفه أيضاً بالتقريب وإن نقص عنه قليلا في التحقيق لكون القمر قاعدة لمخروط الإبصار، لكن المرئي منه غير متغير بالمقدار والوضع معا . فأما عند اجتماع النيرين في المحاق فيكون النصف المستنير نحو العلو والنصف المرئي نحو السفل متباينين، وأما عند تقابلهما في الامـتـلاء فيكون كـلا النصـفين نـحـو السـفل مـتـحـدين وفـيـمـا بين هذه الوقـتـين مـخـتلفين يشترك منهـما طائفة تحيط بها نصفا دائرتين وهو النور في جرمه .

وأمـا كـسـوف القـمـر فـإنه يعـرض له عند تـوسط الأرض بينه وبين الشـمـس حـتـى يحـجـب بكمودتها الشعاع الواقع عليه لأن امتداد ظل الأرض في خلاف الجهة المواجهة منها للشمس ضروري والمستنير مهـمـا حـصـل في الظل زال عنه الضـيـاء ومـتى تنحّى القـمـر عن الظل أو الشـمـس باختلاف طرائقه بطل الكسوفات فقد حـصـل ما قلنا إن كسوف القمر حال عارض له في ذاته ومثل ذلك لا يخـتلف في مـقـداره وأوقـاته عند كل من تمكن من مـلاحظتـه وإن كـسـوف الشـمـس حـال عـارض للبصر دون ذاتهـا والسـاتر إذا اقـتـرب من الإبصـار واخـتلفت أمكنة الناظرين إليه خالف بين إدراكاتهم له في مقدار ما يستر وربما ستر عن بعض ولم يستر عن بعض وإذا كان مع ذلك متحركاً اختلف عندهم وقت الستر أيضاً وهذه حال القمر من الشـمس وكسوفهـا في البلاد ولذلك لم نعتمـد في الاعـتـبـار غير الكسوفات القـمـرية دون الشـمـسية .

والمقدمة الثانية أنّا متى وجدنا على وجه الأرض عدة مساكن يرتفع القطب فيها بمقدار واحد أو يمر على سمت الرأس في جميعها كوكب بعينه أو يوافي منها فلك نصف النهار على بعد واحد فيها من القمة وجهة واحدة عنها أو كان بعد مشرقه فيها عن خط نصف النهار واحداً فإنا نعلم ضرورة أنها على خط واحد من خطوط الامتداد الطولي وتحت مدار واحد من مدارات السماء المتوازية .

ثم إذا تقررت هاتان المقدمتان عُدنا حينئذٍ إلى استدلال بطليموس على الاستدارة في الطول وقلنا إن الخط فيه لا يخلو من أن يكون مستقيماً أو منحنياً، والمنحنى إما مقعراً وإما محدباً، فأما الاستقامة فإنها توجب بجميع من عليه لكون الطلوع عليهم والغروب عنهم في آن واحد من الزمان، والتقعير يوجب اختلافهما وسبْق الغربي منهم إلى الرؤية قبل الشرقي، ثم التحديب يوجبهما مختلفين على عكس حال التقعير من سبْق الشرقي إلى الرؤية قبل الغربي، فهذه موجبات الصور الثلاث. ونحن إذا تفقدنا الكسوف القمري الواحد بعينه وقد رصد وقته في بلاد هي على خط واحد من خطوط الطول من غير التفات فيه إلى غور أو نجد، وجدناه مختلف الوقت من الليل عندهم لكن وقت الكسوف فيها واحد فالاختلاف الذي فيها إذاً من جهة اختلاف أول الليل لأن الشمس غربت عن الشرقي قبل غروبها عن الغربي، فصار الماضي من الليل عند شرقيهم أكثر من عند غربيهم، وعلم من هذا أن الأرض مستديرة في طولها وليس ذلك بكاف في أمرها فإنه يمكن أن يكون مع ذلك مستقيمة في العرض كالحال في الأسطوانة و المخروط أو مقعرة على صورة السرج والأكاف. ونحن نذكر قبل استدلال بطليموس عليه أن السماء ليست هذه التي نراها ساكن كل بقعة فقط أما في الطول فقد أوجبت العودة في الحركة اتصال السماء على استدارة بقياس المنجمين فهي إذاً في هذه الجهة أكثر مما يرى .وأما في العرض فلا يخفى من زيادة القطب ارتفاعاً وانخفاضاً بل يضطر إلى القول بأنه ظهر منها ما كان خفياً وخفي ما كان ظاهراً، ويتحقق ذلك ببنات نعش وطلوعها وغروبها في البلاد الجنوبية وتأبد ظهورها في الشمالية وبكوكب سهيل الطالع الغارب في البلاد الجنوبية وتأبد خفيها في الشمالية .

وأما في الجهات التي بين الطول والعرض فيعرف من النهار الأطول في تلك البلاد المذكورة، ولنمثل ببلاد بلغار الموغل في الشمال وبمدينة عدن الجنوبية عنه إذ لا يزال مكة تجمع بين أهليهما في الحج نفراً فيتحول بخبرهم السماع من الثقة إلى ما يشاكل العيان وهذا النهار بحدود عدن لا يفضل على الاثنتي عشرة ساعة شيئاً كثيراً وفي حدود بلغار لا يقصر عن السبع عشرة ساعة إلا يسيراً، فبين طلوع الشمس أو غروبها فيهما ساعتان، فعند طلوعها على عدن يكون قد ارتفعت ببلغار بقدر حصة الساعتين، فالظاهر ببلغار من السماء في جهة المشرق الصيفي ومغربه ذلك المقدار الذي ليس بظاهر لعدن وتستدير تلك القطعة في أسفل القطب وكذلك الظاهر لعدن من جهة المشرق الشتوي ومغربه مثل ذلك المقدار وهو خفي عن بلغار، وإذا كان الأمر على هذا قلنا حينئذٍ إن خط العرض في الأرض لا يخلو من أحد الأوضاع المتقدمة ؛أعني المستقيم والمنحني بالتقعير أو التحديب. فأما الاستقامة فموجبها ثبات القطب في ارتفاعه على حاله بالمسير على ذلك الخط نحو الشمال أو الجنوب وبقاء أعظم الدوائر الأبدية الظهور المماسة للأرض على مقدارها. والكواكب التي في ضمنها على عددها لكن الوجود ينافيه وينفيه فليست الأرض في هذا الامتداد بمستقيمة .
وأما التقعير فموجبه أن ما حصل لسكان شفيره الجنوبي من حال القطب والكواكب الأبدية الظهور إذا أخذ منه نحو الشمال يأخذ في النقصان في المرئي ولا يزال يتناقص على الإمعان فيه لكن الأمر في الوجود على خلافه من تزايدها وهو موجب للتحديب والاستدارة فالأرض إذاً في هذا الامتداد مستديرة وإذا كانت كذلك في جهتي الطول والعرض معاً وجب لسطحها الكرية ،ثم ليس نُتُوء الجبال وإن شمخت بمخرجها عن ذلك لصغرها بالقياس إلى كلها فإنها لا يقوم منها إلا مقام الخشونة القادحة في استواء السطح دون استدارة الكل، فإن تخالجت الشكوك قلب متأمل فظن أن هذه الاستدارة تختص المعمور من الأرض دون باقي الجوانب كما ذهب إليه بعض أئمة المتكلمين عدلنا للتوثقة إلى دليل آخر من ظل الأرض.
فمعلوم أن شكل ظل المستنير من السراج يكون على الجدار بصورة الفصل المشترك بين ما أضاء من الشيء وبين ما أظلم منه إن استدار فمدوّرا وإن تثلث فمثلثا وإن تربع فمربعا وإن استطال فمستطيلاً، وعلى هذا سائر الأشكال.

ونحن إذا تأملنا كاسف القمر أحسسنا حروفه بالاستدارة خاصة إذا قسنا قطعة بين بدء الكسوف وتمامه وبين أول الانجلاء وآخره فاطلعنا على أكثر دوره ونظام محيطه وعلمنا أن الفصل المشترك بين ما يستضئ من الأرض وبينهما ينبعث الظل منه هو دائرة، ثم ليست الكسوفات مقصورة من الشمال والجنوب على جهة واحدة ومن الانحراف فيهما على مقدار واحد ومن الليل أيضاً على وقت واحد حتى يخص تلك الاستدارة موضع من الكاسف دون آخر فليكاثر تلك الفصول المشتركة واختلاف مواضعها من الأرض مع اتفاق أثرها في الظل عند القمر بالاستدارة تزول الشبهة في أمر الأرض وتثبت لها الاستدارة من جميع الجهات ،فهي إذاً في الحس كرية وإذا تقرر الأصل الثاني وضحت كرية الأرض نقول في عرض السماء بين الشمال والجنوب إنه كري الاستدارة، وذلك أنا متى قصدنا عدة مساكن على خط واحد في عرض الأرض وحصّلنا الكواكب المارة على سمت الرأس في كل واحد منها ثم اعتبرنا أبعاد ممرات تلك الكواكب في خط نصف النهار بعضها من بعض وجدناها على نسب المسافات الأرضية بين المساكن، وكذلك وجدنا ارتفاع القطب فيها متفاضلاً بمثل تلك النسب، وسطح الأرض مستدير فلا يناسبه الأمثلة فتحديب الأرض في العرض إذا مشابه لتحديب السماء فيه، ولكن هذا التشابه بالوجود لذلك في كل خط من خطوط طول الأرض فسطحها بأسره موازٍ لسطح السماء بأسره والأرض كرة، فالسماء إذا كُرِّيَّة الشكل، وهذا تمام الأصل الأول المتقدم .

الأصل الثالث

ولكن التشابه والتوازي لا يكون بين الدائرتين أو بين الكرتين إلا باتحاد مركزيهما، فمركز الأرض هو مركز السماء فموضع الأرض إذاً هو وسط السماء وهذا هو الأصل الثالث ، وقد قصد فيه بطلييوس بعد أن تسلم كرية السماء بما حكينا من دلائله تنويع خروج الأرض من الوسط إلى ثلاثة أنواع: أحدها أن التنحي عن المركز مع تساوي بعدها عن كلا القطبين، والثاني التنحي عنه على استقامة المحور نحو أحد القطبين، والثالث على خلاف النوعين

الأولين فيما بينهما .

واعتمد في ذلك على أربعة أصناف من الأدلة، أحدها : التنحي عن الوسط يقتضي خلاف ما عليه الوجود من تكافؤ فضل نهاري الصيف والشتاء وبطلان الفضل بين النهار والليل في الربيع والخريف في وسط ما بين مداري المنقلبين الصيفي والشتوي؛ لأن الأرض في النوع الأول من التنحي يكون إلى موضع من السماء أقرب وعما يقاطره منها أبعد، فالساكن منها في الوجه الذي نحو أقرب القرب يرى من السماء ما ينتهي إليه منها السطح المستقيم المار على مسكنه على التّماس بسبب الاستقامة في الإدراك البصري وذلك أقل من نصف السماء والساكن منها في الوجه الذي نحو أبعد البُعد منها يرى أكثر من نصفها إلا أن يكون التنحي بمقدار لا يفضل على نصف قطر الأرض وذلك خاص بأبعد هذا البعد دون سائر الأبعاد وإذا كان المرئي من السماء غير نصفها لم ينتصف الأفق المدار المتوسط لمداري المنقلبين فلم يتساو النهار والليل فيه ولا في غيره أيضا عند من سكن خط الاستواء أعني تحت المدار المتوسط حيث لا يرتفع فيه القطب شيئاً إما أصلاً هناك وإما في المدار المتوسط فيه وفي غيره من المساكن وإما فيما عدا هذين الموضعين أعني القرب الأقرب والبعد الأبعد من مساكن الأرض فتكون أبعاد الكواكب في ناحية المشرق بمقدار يخالف أبعادها في ناحية المغرب ويلزم منه اختلاف رؤيتها في هاتين الناحيتين وتفاوت ما بين نصفي النهار في الطول والقِصر والوجود يعاند ذلك ويكذبه. وفي النوع الثاني من التنحي يصح الحال في تأبد استواء الليل والنهار عند ساكني خط الاستواء، ولا يمكن ذلك عند غيرهم أن يكون في المدار المتوسط وذلك كله لاختلاف ما بين قطعتي السماء (فوق الأرض وتحتها)، ولو زاد في هذا النوع دليلاً من مسامتة الشمس سكان خط الاستواء أنها عندهم لا يكون حينئذٍ في المدار المتوسط ولكن في مدار آخر إن لم يمتنع كونها بكثرة التنحي لكان معيناً قوياً .

والصنف الثاني من دلائله :رؤية الناس قاطبة ستة بروج ظاهرة لهم وغيبة ستة منها عنهم ليصحح بذلك تساوي قطعتي السماء ،وإذا رام التطبيق فيه بين الوجود وبين المستدل عليه بذلك لم يمكنه إلا بنفي خروج الأرض عن الوسط .

والصنف الثالث من دلائله :ما يوجد من اتصال ظل المقياس وقتي الطلوع والغروب في

المدار المتوسط على استقامة .

والصنف الرابع من كسوفات القمر أنها مع خروج الأرض من الوسط لا يكون أبداً على مقاطرة الشمس. ونحن نقول إن هذا الأصل الثالث قد يكفي في الدلالة عليه تناسب الأبعاد الأرضية مع نظائرها من الأبعاد السمائية فإنه غير مطرد إلا باتحاد المركزين، ويكفي في الاستشهاد عليه الصنف الرابع من هذه الاستدلالات، وذلك أن كسوف القمر في المدار المتوسط لم يكن دائماً على المقاطرة إذا كان تنحي الأرض بالنوع الأول منه إلا إذا اتفق الكسوف على البعد الأبعد أو على البعد الأقرب، وفي سائر المدارات يمتنع كونه على المقاطرة، وما رؤي قط للقمر كسوف على الطلوع أو الغروب إلا وبعده فيه من إحدى نقطتي الشمال والجنوب مساو لبعد الشمس وهي حينئذ كذلك على الطلوع أو الغرب عن نظير تلك النقطة .

وأما الصنف الأول من استدلالات بطليموس فلن يطّرد إلا بعد صحة الأصل الرابع ولم يصححه بعد، وهذه صناعة لا يبنى فيها على التوالي دون المقدمات إلا عند الضرورة الصادقة، وإنما لا يطرد لأن الأفق إذا كان نهاية السطح المستقيم المماس للأرض على المسكن امتنع قطعة السماء بنصفين إلا في وضع واحد من التنحي يمر فيه هذا السطح على المركز، ويكون المسكن حينئذ على الوسط نفسه .

وأما الصنف الثاني فقد عوّل عليه "أراطس" في ظاهراته ولا نراه معتمداً، فليست البروج أعيانا ظاهرة للسالك في المبادئ من أوائلها ولا للموغل فيها أيضاً، فإن تحصيل ذلك ومعرفته تكون بمقتضى الحساب لا العيان، وليس يخفى أن أعلام البروج هي صورها من الكواكب الثوابت وليس تقتسمها على سواء حتى يكون في كل برج صورته فقط، فيصح هذا الاستدلال من جهة علامات البروج ، وإنما وجهه الصحيح أن يحصل كوكبان يطلع أولهما بغروب الثاني، ويكون بعد مطلعه عن إحدى نقطتي الجنوب والشمال مساوياً لبعد مغرب الآخر (عن نظير) تلك النقطة فإذا وجدا على هذه الهيئة رصد تبادلهما بالمشرق والمغرب، فإن غرب الأول بطلوع الثاني صح الاستدلال وعلم أن الأفق قد نصف دائرة عظمى

في الكرة والدائرة العظمى لا تنتصف إلا بمثلها . فالأفق في الحس إذاً دائرة عظمى وصح به الأصل الرابع متى كان ما ذكرنا عاماً لجميع الآفاق ونحترس بهذا الاستثناء والتأكيد عن الوضع المذكور من أنواع التنحي، وكان هذا الصنف بالأصل الرابع أليق منه بالثالث .

وأما الصنف الثالث وهو تركب ظل المقياس على الخط الواصل بين مطلع المدار المتوسط وبين مغربه فسببه أن هذا الخط إذا كان قطر أفق حصل فيه هذا التركب لانغراز المقياس كالمركز ومتى كان وتراً بطل ذلك فيه وامتنع لكن الأفق غير مار بالتحقيق على المركز فالخط المذكور إذاً بالتحقيق وتر أيضاً لا قطر ثم التركب في الوجود يقتضيه قطرا، فهو دليل على صحة الأصل الرابع وأليق به .

وأما الصنف الرابع من استدلاله فهو المعتمد بالحقيقة، ومتى علم ما يلزم كل واحد من نوعي الخروج عن الوسط من المحال والخلف، ثم كان النوع الثالث مركباً منهما التزم منه ما يلزمهما بانفراد وتركيب .

الأصل الرابع

فأما الأصل الرابع فقد استبان مما ذكرنا أنه داخل الأصل الثالث وفرغنا منه، وإنما عاد بطليموس فيه إلى ما ذكر في الأصل الثالث من قطع سطح الأفق السماء بنصفين وليس يقطعها غير السطح المار على المركز وأنه لم يمكن ذلك إذ لو كان للأرض قدر وعني بذلك ما فوق فلك القمر فإن للأرض عند كرته مقدارا محسوسا به لا ينصفها الأفق في الحس من أجله وذكر فيه أيضاً طريق العكس من صحة المقاييس والأعمال المبنية عليها كما ذكره في استدارة السماء .

الأصل الخامس

ولنعد الآن إلى الأصل الخامس، وهو ينقسم إلى قسمين: يقتضي أحدهما انتقال الأرض من الوسط إلى جهة ما، والجهة المقابلة لكل مسكن أولاها، لأن السفل في سمتها فيتصور هُوِيّ أجزاء الأرض إليها، فإن استقرت منتقلة كذلك في موضع اقتربت فيه إلى موضع من السماء وتباعدت عن نظيره، ولو كان ذلك لوجد لها في الموضع الذي انتقلت إليه حال من الأحوال التي عددناها في خروجها من الوسط وليس من ذلك شيء بموجود وإن امتدت في

الهوى ولم تستقر وجب منه وقت الحركة أن لا يحلق بها شيء ثقيل منفصل عنها لتحركهما معاً وإن كل الأرض لا محالة أشد حركة لفضل عظمها على ما هو أصغر منها من أجزائها، لكن الهيئة والصخرة العظيمة سيان في اللحوق بها وإن تفاوتت المدة فيه، ولزم أيضاً أن يبلغ الأرض السماء في جهة الهوي إلا أن تصير للسماء أيضاً حركة نحو تلك الجهة مساوية لحركة الأرض كما حكاها "محمد بن زكريا الرازي" عن الشمنية فتصير حركة الأرض وسكونها بمثابة واحدة للزومها في كليهما الوسط.

وهذا ما اعتمده بطليموس في هذا القسم إلا أن دفعه تعجب المتعجب من كون الأرض مع ثقلها في الهواء طافية غير راسبة بما أشار إليه من صغرها بالقياس إلى السماء غير دافع له ولا مغن شيئاً، فكل العالم إلى أقصى نهايته لو كان من أثقل الأشياء غير مخالف بعظمه حال الأرض في الطفو والسكون بل لو توهمت الأرض مرتفعة وفي وسط العالم هيئة واقفة لكان التعجب على حاله بقدر حصتها من الثقل، ولن يزول ما لم يتبين أنها وغيرها من الأثقال مضطر إلى الوقوف هناك وبقدر ما لها من الثقل تسرع إليه وتتسابق نحوه لتستقر في حقيقة السفل، ثم الأقاويل في سبب هذا الاضطرار كثيرة منها جذب السماء الأرض من كل النواحي بالسواء، وذلك يبطل بالجزء ومنها المنفصل عنها فإن ما يحلقه من الجذب من جهة الأرض أفتر وتجب أن تستلبه السماء إلى نفسها من غير تلك الجهة حتى يطير إليها ولم نشاهد ذلك قط لصخرة مثلاً أو مدرة ولم يشعر بقوة هذا الجذب إنسان ومنها جذب الأجسام لإمساكها مع شدة الاختلاف في نفس الخلاء هل هو موجود بالفعل وهل يخلو مكان من متمكن بالإطلاق، ومثبتوه لا يضيفون الجذب إليه إلا عند الخلو فإذا ملأ جسم لم يجذب إليه جسماً آخر ومكان الأرض مملوء بها ، فهبه للمسامحة موجوداً وفي جوف الأرض محصوراً حتى يجذب الأجسام إليه وإن انتقض ذلك بالمتحركات الخفية عن المركز إذ الخلاء غير مفرق في الجذب بين الثقيل والخفيف.

وإنما يفرق بين السائل المائع وبين الغليظ المتماسك الممتنع فلا محالة أن الخلاء الذي في بطن الأرض يمسك الناس حواليها، أليس أحد المتقاطرين من سكانها كالمستقر على القرار عارف

من نفسه حال والأخر كالمشدود كرها على السقف يعرف من نفسه الانتكاس والاضطرار، وليس أحدهما إذا انتقل إلى مكان الآخر بواجد فيه غير ما كان يجده ذاك لكن الناس في جميع مواضع الأرض على حالة واحدة ليس عندهم مما ذكرنا خبر، ومنها الدفع فبعض يقيده بسرعة الحركة حواليها وبعض يطلقه، وقد مال إليه بطليموس وأشار إلى الدعم ولو كان منه شيء لكان أثره في الأصغر من أجزاء الأرض أظهر منه في أعظمها لكنا لا نجد الأصغر بذلك الدعم أسرع اندفاعاً إلى الأرض وأشد حركة، والاتفاق فيما بين الناس واقع على تسمية ما فوق الرأس علواً وتسمية ما تحت الرجل سفلاً لكن القائس إذا تعرّف الحال في موضع واحد من الأرض تخيل إليه أن جهة العلو واحدة بعينها وجهة السفل كذلك ممتدة في خلاف جهة العلو بالغاً ما بلغ حتى يتمادى به سوء مأخذ النظر إلى الظن بأن الأرض إن توهمت مرتفعة مخلاً سبيلها عما يعتمد عله بثقلها أنها ستهوي دائماً على سمتها إلى أن تمانعها السماء فتمنعها ويضطر من ذلك في سبب قيام الأرض وسط السماء إلى إقامة أجزاء تحتها علوية الاعتماد تدعمها فترفع ثقلها حتى تكافئ قوة رفعها قوة سفولها أو إلى تسكين بقسر أو إلى إحداث سكون بعد سكون إذا كان السكون عنده عرضاً والأعراض غير باقية وسائر ما هو أبصر به من صناعته والعلو وإن كان ما فوق الرأس والسفل وتحت الأقدام، فإن الأمر فيها إذا عم جميع وجه الأرض ولم يخص ذلك موضعاً دون آخر حصل منه أن جهة السماء هي العلو بالإطلاق وأنها سقف أينما كانت وأن جهة الأرض هي السفل بالإطلاق وأنها قرار أينما كانت واستبان أن العلو هو التباعد عن المركز وأن السفل هو الدنو منه وإليه إقدام من على وجه الأرض لكن ما حكيناه أولاً هو أقرب إلى التصور العامي فلهذا يظن بما نذهب إليه في وسط العالم أنه السفل بالحقيقة أنا نأخذه بالأماني والهوى أو نتبعه اتباع مذهب ورأي معتقد، وإنما يضطرنا إليه الوجود عند قياس موجب بعض البقاع إلى بعض.

أما بطليموس فإنه قال إن الأثقال تنزل على سطح الأفق أعمدة، وكل عمود على سطح مماس الكرة عند التماس فمجتاز على المركز إذا أخرج على استقامته وإذا كان حال كل

موضع من الأرض مستوى هذا الحال لم يخف أن ملتقى أعمدة يكون المركز واستيقن أن الأثقال ترجحن إليه فمحال أن يتجاوزه ثقل في هويه لمجئ الثقل الآخر على استقامته من الجهة المقابلة له، فإن ذلك يقتضي وجود ثقلين يرتفع أحدهما ويسفل الآخر بحركتين في كليهما طبيعيتن والوجود يحظر كون هذا إلا بقسر في أحدهما وطبع في الآخر. هذا معنى أنه أوضح بعدة وجوه جاز بسبب بعده عن الأفهام غير المتدربة به.

وقد تقدم أن الطلوع والغروب يختلفان في كل مدار على تناسب المسافات فيه فيضطر إلى مثله في أنصاف النهار لأنها واسطة بين كل مطلع ومغرب نظيرين وسمت الرأس على خط نصف النهار، فأبعاد سموت الرؤوس في المدار السمائي مشابهة لنظائرها من أبعاد مساكنها على الطوق الأرضي لكن نزول الأثقال تكون على خط الانتصاب من سمت الرأس نحو سمت الرجل فهي إذا تنزل في المدار على خطوط تلتقي على المحور لكن ملتقاها لو كان في سطح المدار لأحاط نزولها مع المحور بزاوية قائمة وليس ذلك بمشاهد إلا في خط الاستواء وأما في سائر البلاد فإنه يحيط مع المحور بزاوية حادة فالملتقى إذاً على مركز المدار إلى خلاف جهة القطب ثم قد تقدم أن الأبعاد الأرضية في فلك نصف النهار مناسبة لنظائرها من الأبعاد السمائية وظاهر أن التناسب لا يكون إلا بالتشابه والتشابه نتيجة اتحاد المركزين، فخطوط الانتصاب في فلك نصف النهار إذاً ملتقية على مركز العالم، وما من مسكن في مدار إلاّ وله فلك نصف النهار فخطوط الانتصاب في المدار إذاً ملتقية على وسط المحور وهو مركز العالم، وأرصاد المعنيين للكسوفات القمرية نطقت في آفاق الارض بهذا التناسب وأن الكسوف الواحد منها بعينه إذا وجد عند الطلوع على أحد أهل المشرق والمغرب وجد عند الآخرين منهما على الغروب، والذي بين هذين الوقتين في المسكن الواحد يقارب من الزمان نصف اليوم بليلته ومن الفلك نصف الدور لكن وقت الكسوف واحد، فليس إلاّ أن مشرق أحد الموضعين بعينه مغرب الآخر، وما هذه صورته من البقاع فمملكة سِيلا وراء الصين في مشرق العمارة من الأرض والأندلس في مغربها، ويوجب فيهم تقابل الأقدام بالتقريب وإن لم يمكنه على التحقيق لكون كلا الموضعين في ناحيتي الشمال غير متبادلتي الجهتين، وإن رصد في بلاد السند والأندلس كسوف واحد شهد وقته فيهما بما ذكرنا، وعلم منه أن

نصف نهار السند مطلع الأندلس ونصف نهارهم مغرب السند.

وإذا تقرر هذا من أمر الأثقال والأرض أعظمها علم أن وقوفها في الوسط ضروري لحصولها في السفل، وأنّى يزائله الثقيل إلاّ إلى ما هو أسفل منه وليس أسفل من حقيقة الوسط سفل ثم ليس لكون الوسط سفلاً سبب خاص غير الإبداع كذلك كما ليس عند المخالف فيما يعتقده سفلاً عليه علة سوى الخلق كذلك، ومما ذكرنا يعرف سبب كرية الأرض لأن أبعاضها لو لم تتماسك مع نزوعها إلى المركز ونزوع ما هو أبعد عنه إلى الموضع الأقرب منه فإن خلاله لم يكن بد من اجتماعها حول الوسط اجتماعاً مستوياً للأبعاد تسوية الميزان، لكن أجزاءها متماسكة مخرجة عن وجهها عن الاستواء إلى التضريس بالجبال والأنجاد بقصد من التدبير الإلهي وإن لم يخرج لها جملة الأرض عن الشكل الكري لصغرها عندها، وإذ هذا التماسك في الأرض وليس منه في الماشي ومعنى يضمهما وإن كان يتفاضل، فإن سطح الماء مستدير وأصدق كرية من الأرض لأنه إن توهم مستوياً كان وسطه أقرب إلى المركز من حواشيه، فما فيها سائل لا محالة إلى وسطه وغير مستقر إلا بعد استواء الأبعاد وزوال الأعلى والأسفل من السطح بالانتقال من الاستواء إلى الاستدارة.

وهذا معنى قصده بطليموس في الأصل الثاني وحوله في الاستدلال من الأرض إلى الماء فإن السائر في براريها نحو الجبال يظهر له منها أعاليها كأنها تبرز من الأرض شيئاً بعد شيء حتى ينتهي إليها، وهذا ظاهر في الوجود يستقيم منه الدلالة على الأرض والماء معاً في الكرية ومتى كان بين السائر وبين الجبل الشامخ جبيلات وهضاب لم يدركها مع إدراك الشامخ الذي وراءها لأن المدرك منه هو أعاليه، فلو كانت الأرض مستقيمة السطح لكان إدراك الأقرب من تلك المتوسطات أولاً أولى من الأبعد بل سفوح الشامخ وأسافله، لأنها أقرب إلى البصر من أعاليه بحسب فضل ما بين القطر وبين الضلع من المثلث القائم الزاوية، فإن اعتبر الحال بتأمل نيران موججة في أعلى الجبل ووسطه وأسفله سبقت رؤية التي توقد في القلة التي في الوسط، والتي في الوسط التي في السفح، وعلى استمرار هذا الدليل في

الأرض والماء معاً يتفرد الماء بدليل مما يخصه وهو المراكب في البحار، فإن أدقالها تظهر للناظر إليها إذ نالتها من بعيد قبل جثتها، والجثة أعظم منها لولا أن حدبة الماء الكرية يمنعها وتخفيها مع انبطاحها بسبب اختلاف الانتصاب إلى أن يزول الستر بالاقتراب، فيظهر حينئذ ثم تعود إلى القسم الثاني من حركة الأرض وهي على نفسها نحو المشرق من غير انتقال من مكانها، وقد قال بها أصحاب أرجيهد من علماء الهند ونظن بالداعي إليها إلزام السماء ما يرى من حركات الكواكب فيها بالحركة الثانية الشرقية، وإلزام الأرض لوازم الحركة الأولى الغربية كيلا تجتمع على السماء حركتان مختلفتان معاً - وهذا وإن لم يكن قادحاً في مباني هذه الصناعة فقد قلنا أن لا أثر للحركة الأولى في الأثير لأنها تدير جملته إدارةً واحدةً فليس يحسن من مناهج التحصيل أن يتمسك به إن انتقض من جهات أخر أو أن يهمل البحث عن حقيقته ولم يخرج الأمر فيه من طريقته.

فأما بطليموس فإنه استجهل القائلين بها عن جهة حملهم سرعة الحركة على الأشياء الثقيلة الكثيفة وبطأها أو بطلانها على الأشياء الخفيفة اللطيفة، وهذا استدلال هو بالبحث الطبيعي أليَق منه بالتعليمي بل هو إقناعي فإن في اللطيف والكثيف إلى أن يحصل منهما على حقيقة معنى ما فيها.

وأرسطوطاليس وأصحابه وهم فحول الفلاسفة الطبيعيين يأبون حمل شيء من معنى الخفة والثقل على الأثير، وقد أجاب بعضهم عن سؤال سائل إياه عن قطعة من الأثير إن توهمت موضوعة على وجه الأرض بأنها تسكن ولا تتحرك على ضد حال المتحركات على استقامة وتحركها نحو أحيازها ومواضعها الطبيعية إذا أخرجت عنها إلى غيرها، فأوجب اللطيف الخفيف عند بطلميوس ما كان تعجب منه من عدم الحركة .

وأما النظر التعليمي في هذا المعنى فإن القول فيه راجع إلى أن الأرض لو كانت متحركة بهذه الحركة لتخلف عنها ما انحاز منها من طائر محلق أو شيء مرمي به نحو جو السماء أو سحاب واقف في الهواء فترى حركتها نحو المغرب دائماً وإن كانت لها أيضاً هذه الحركة كما للأرض وجب أن يرى ساكناً من أجل حركتهما على التحاذي، لكنا نراها متحركة في

جميع الجهات فليست ساكنة ولا هي بمتحركة هذه الحركة التي بها الليل والنهار .

وأما أنا فقد شاهدت أحد من مال إلى نصرة هذا الرأي من المبرزين في علم الهيئة لم يلتزم نزول الثقيل إلى الأرض على القطر عمودا على وجهها بل محرفاً على زوايا مختلفة لا نضبط فيه ولا نحفظ غير المسامتة لأن الرجل رأى للثقيل المنفصل عن الأرض حركتين: إحداهما دورية لما في طبيعة الجزء من ثقيل الكل في خواصه، والأخرى مستقيمة لانجذابه إلى معدنه، فالثقيل إذا انفصل عن الأرض تحرك بأولاهما حركة توجب في الهواء لزوم المسامتة الواجبة، وأما الثانية المستقيمة فتوجب لو تجردت وقوعه عن غرب المسامتة أبداً، لكن هُويه مركّب منهما فلذلك لا ينحرف عن المسامتة، والخط الذي ينزل عليه ليس بعمود على الأرض بالحقيقة بل مائل نحو المشرق وليس رسمه في الهواء محفوظاً وللحس مستبيناً ثابتاً حتى يعتبر قيامه أو ميله، وإنما يتخيل له القيام من أجل ما ثبت في الوهم من صورة مسامتة، ولهذا من اعتقاد قوم له وإيرادهم فيه الشبهة أرى تقديم معرفة مقدار دور الأرض عليه فأقول إن الأبعاد الأرضية إذا كانت كما قلنا مشابهة لنظائرها من الأبعاد السمائية واعتبرنا فيها المسير المستقيم ليكون على دائرة عظمى، وأظهرها خط نصف النهار مع سهولة الاستعمال حتى عرف لمسافة مفروضة عليه مقدار زاويتها على المركز كانت نسبة تلك الزاوية إلى الأربع الزوايا القائمة التي عند المركز كنسبة المسافة التي عليها إلى مسافة جميع دور الأرض، وذلك كتسع عشر الزوايا القائمة باعتبار أراطسثانس سبعمائة اسطاذيا كما في كتاب "البرهان" لجالينوس. وعلى ما ذكره بطليموس في كتاب صورة الأرض خمسمائة، لكن معنى هذا الاسم غير معلوم بما عندنا من المقادير، ولهذا جدد الامتحان في أيام المأمون فوجد لتلك الزاوية حصتها ستة وخمسين ميلاً وثلثي ميل، والميل أربعة آلاف ذراع سودا هي أربع وعشرون إصبعا، والهند يذهبون في هذه الأميال إلى قريب من ضعفها، والعيان أولى من الخبر وقد اعتبرتُ ذلك بأرضهم وحصلتُ مقدار انحطاط الأفق في قلة جبل صيّرتُه معلوم العمود واستخرجت منه قدر تلك الزاوية فحام حول السبعة والخمسين ميلاً، ولذلك اعتمدنا الامتحان الموصلي .

فليُعلم الآن أن الأرض لو كانت متحركة كما ذكر لكان ما ذكرناه من الأميال لمنطقة حركتها ثلاثمائة وستين ضعفاً في أربع وعشرين ساعة يختص الجزء من تسعمائة من الساعة، وهو الدقيقة من الفلك مائة ألف وسبعمائة وثماني وسبعين ذراعاً، ومقدار دوران هذه الدقيقة من الأزمان بتقدير الهند إياه نفَس واحد من أنفاس الإنسان، فإذا كانت الحركة فيه قريباً من ميل كانت ظاهرة للقياس، فإن كانت الأشياء المنفصلة عن الأرض حافظة للمسامتة بما لها مع الأرض من الحركة فمعلوم أنه إذا غشيها قوة زائدة قاسرة أنها يزيلها عن ذلك السكون المتخيل ويظهر فيها أثرها ما وجبت اختلافها في الجهات، لأن القاسرة في جهة المشرق مجتمعة مع الطبيعة وفي جهة المغرب معاندة لها دافعة، فتكون وثبة الواثب فيهما مختلفة، ومرور السهم المرمي إليهما والطائر القاطع نحوهما متبايناً، ويتفاوت كذلك في الشمال والجنوب للاتساع في أحدهما والتضايق في الآخر، وليس من ذلك شيء بموجود، فليس للأرض في مكانها حركة دورية حول مركزها .

الأصل السادس

فأما الأصل السادس في الحركتين الأوليين فالغربية منهما مستغنية بالحس عن كل دليل عليها فيها النهار والليل وطلوع القمر ومغيبه وشروق كل كوكب وأفوله على مدارات متوازية ترسمها هي وسائر النقط، أعظمها المدار المتوسط بين قطبي هذه الحركة. وإنما الشأن في الحركة الثانية منهم الشرقية، فإنها غير مدركة في أول وهلة دون بحث عنها ومقايسة، ومن تأمل من الكواكب الثابتة ثبات ما بينها من الأبعاد على مقدار واحد ومن السيارة بغير ذلك بينها وفيما بينها وبين الثوابت ثم جعل الثبات قانوناً وابتداء في التعرف عنه من القمر، وأول الشهر وُجد بُعده من الشمس وما غرب عنه من الكواكب متزايداً وبُعده مما شرق عنه متناقصاً فتحقق فيه الحركة الشرقية وخاصة عند لحوقه بما يكسف ويستر على سمت هذه الحركة، فإذا عاد إلى الشمس قائساً إياها إلى الثوابت والثلاثة العلوية عُلم أن الشمس يلحق بها بهذه الحركة فتخفيها بشعاعها في المغرب بالعشيات ثم تسبقها فتظهر في المشرق بالغدوات، ثم إذا قاس أحد العلوية بالآخر وبالثوابت علم فيها أيضاً أنها تتحرك

نحو المشرق على قطبين غير قطبي الحركة الأولى متباعدين عنها بقدر انحراف الحركة الثانية عن مواجهة الأولى، وعلم مع ذلك أنها تتركب بميول آخر فتنسب إلى حركات في الشمال والجنوب، وليس بعد مثل هذا النظر شبهة إلا خارجة من أسوء ركاكة مثل تشابهها بحليلها، والجواب عنها في الضعف، وتفسير المقالة الأولى من المجسطي أن أعان الله عزّ وجلّ عليه والنفس في المدة أولى بها، وهذا موضع لا يحتمل تبسطاً في الكلام. .

الدوائر السماوية وصفة ألقابها

إن من الدوائر السماوية ما يختص بها، ومنها ما يعمها والأرض، ثم منها ما هي موجودة فيها بالذات، ومنها ما وجودها بالإضافة إلى بعض أو بالوضع، والوهم دون الطبع، ثم منها ما هي ثابتة الوضع مع حركة الكرة، ومنها متغيرة بها، ثم منها ما يشترك فيقوم أحدهما مقام الأخرى في حالٍ ما، ومنها ما يتباين فيمتنع أن تنوب إحداهما عن الأخرى، وما من تحريك للكرة أو حركة فيها مكانية إلا ولها قطبان على طرفي محورها ومنطقة هي دائرة عظمى بينهما، وسميت منطقة بالتشبيه لأن موضعها هو الوسط، ثم ربما كانت حركة المتحرك عليها نفسها، وربما كانت على مدار موازٍ لها، وللحركة الأولى المسماة أيضاً حركة الكل قطبان منسوبان إليها معروفان بجهتي الشمال والجنوب ومنطقة بينهما تسمى في السماء دائرة معدل النهار، والدائرة والفلك اسمان يتعاقبان على موضع واحد فيتبادلان، وربما حمل الفلك على كل الكرة وخاصة إذا كانت متحركة فالفلك لا يقع على ساكن، وما سمّي فلكاً إلا على وجه التشبيه بفلكة المغزل الدائر، وإنما سمي معدل النهار بهذا الاسم لأن الشمس إذا وافته ودارت عليه اعتدل النهار وتساوى مع ليله، وإذا كان البعد بين الشيئين هو أقصر مسافة بينهما فإن كل نقطة تميل عن معدل النهار ويكون بعدها الكري من الدائرة التي تمر على قطبي الكل، وسمي هذا البعد ميلاً والدوائر التي تحده تسمى دوائر الميول.

ومعلوم أن كل نقطة في السماء فإنها ترسم بالحركة الأولى مداراً موازياً لمعدل النهار أصغر منه بحسب البعد عنه، وكل دائرة من دوائر الميول فإنها تنصّف جميع المدارات فإن كانت أكثر من واحدة قطعتها بقطع متشابهة ثم إن سطح معدل النهار يقطع كرة الأرض بنصفين

منسوبين إلى الجهتين، ويسمى الفصل المشترك بينه وبين سطح الأرض خط الاستواء بانفراد، وأما بالإضافة إلى الحركة فيسمى كرة منتصبة ومستقيمة وفلكاً مستقيماً وفارسيُّه (جوى راست)، وسبب تسميته بذلك أن المدارات تنتصب فيه ولا تميل، ويستوي الليل والنهار عند من سكنه دائماً لأن أفقه لمروره على القطبين يقطع كل مدار بينهما وعليهما مساكن الأرض باختلاف الوضع والبعد عن سمت الرأس لا يؤثر الحركة فيها حتى يغير وضعها، ودوائر الميول يتأثر فيها فتختلف بها أوضاعها بحسب دوران الأشخاص والنقط التي عليها وللحركة الثانية أيضاً قطبان آخران منسوبان إلى الجهتين ومنطقة بينهما والبُعد عنها يسمى عرضاً تحده الدائرة المارة على قطبيها ولذلك يسمى دائرة العرض.

والمدارات الموازية لهذه المنطقة مدارات العروض وما يقع بين منطقتي الحركتين يسمى ميل فلك البروج والميل الأول متى كان من دوائر الميول فإن كان من دوائر العرض سمي عرض معدل النهار والميل الثاني، وليعلم أن المنطقة الثانية معلومة مضبوطة إما بالتحقيق فمن الشمس لأنها طريقتها لا تزول عنها في سيرها، ومن الثوابت فإنها تدور على موازاتها بحسب عروضها وتباعدها عنها، وإما بالتقريب فمن القمر والكواكب الخمسة المتحيرة لأنها تحوم في السير حولها ولا تعدو فيه حدوداً لها والمنطقة نفسها وجميع ما تعلق أمره بها متغيرة الوضع في كل وقت من دور الحركة الأولى، ولذلك ليس لها في الأرض رسم كما لمعدل النهار فيها سوى مسامتة النقط حيناً بعد حين، ولأن منطقتي الحركتين عظماً وأنهما بالضرورة متقاطعتان في موضعين متقابلين يسميان نقطتي الاعتدال والاستواء لحال النهار فيهما مع ليله في جميع الأرض ويتميزان بالصفة، فمبدأ الميل منها إلى الشمال للاستواء الربيعي ومبدأ الميل إلى الجنوب الخريفي، ثم يتباعدان غاية البعد في آخرين متقاطرين يسميان نقطتي المنقلبين لانقلاب الشمس من عندهم مقبلة من جهة إلى أخرى وتلقب شماليتهما صيفيا و الجنوبية شتويا، ودائرة الميل المارة عليها تسمى المارة على الأقطاب الأربعة، وما يقع منها بين المنطقتين هو الميل الأعظم أو الميل كله ويساويه ما بين قطبيهما من هذه الدائرة، وظاهر أن المنطقة الثانية بهذين التقاطعين والتباعدين منقسمة أرباعا سواء،

فليعلم أن كل ربع منها مقسوم لا باضطرار على ثلاثة أقسام متساوية تسمى بروجا وكل برج قسم متساوية تسمى درجاً وكل درجة بستين دقيقة، وكل دقيقة بستين ثانية، وكل ثانية بستين ثالثة، معنى أسمائها راجعٌ إلى الدقائق لأنها أدق من الدرج، والثواني دقائق بقسمة ثانية أدق من الأولى، والثوالث دقائق ثالثة وكذلك بالغاً ما بلغ حيث أريدت القسمة .

ودوائر العرض المارة على مبادئ البروج تقسم الكرة بأقسام متساوية اثني عشر يحيط بكل واحد منهما نصفا دائرتين متلاقيتين على القطبين، وكل واحد من هذه القطع هو البرج، والقطع واحد من هذه، وكل ما يحويه فهو منسوب إليه، وقد جعل لها من الكواكب الثابتة الواقعة فيها صور للتسمية والأسماء فسمي البرج الذي مبدأه نقطة الاعتدال الربيعي نحو التالي الذي جهته جهة المشرق كبشاً للصورة الواقعة في وسطه، والثاني ثوراً، والثالث توأمين، والرابع سرطانا، والخامس أسداً، والسادس عذراء، والسابع ميزاناً، والثامن عقرباً، والتاسع رامياً، والعاشر جدياً، والحادي عشر ساكب الماء، والثاني عشر سمكتين. وهذه أسماؤها بالحقيقة وإن اشتهرت عند الناس بغيرها كالكبش بالحمل، والتوأمين بالجوزاء، والعذراء بالسنبلة، والرامي بالقوس، وساكب الماء بالدلو، والسمكتين بالحوت، والمنقطة نفسها تمر على وسط كل برج، ولذلك سميت فلك أوساط البروج ومنطقتها ونطاقها والكواكب والنقط المتنحية عنها تنسب إلى درجاتها وأجزائها بدوائر العروض المارة عليها، فإن مواضعها منها هي منتهى تلك الدوائر إليها وما بينها وبين مواضعها هي عروضها في جهتها عنها – ولتفهيم التقليب تقرر أن محيطات جميع الدوائر تليت بمنطقة البروج في القسمة بثلاثمائة وستين على تساوٍ، ثم فصلت فسميت أقسام معدل النهار أزماناً لأن طلوعها وغروبها في أزمنة متساوية، وكأنها تقدر الزمان بكيل أو عد وأقسام المدارات كذلك لما بينهما من التشابه .

وسميت أقسام منطقة البروج درجا لأن الشمس بالمسير فيها تتصاعد نصف النهار إلى سمت الرأس وتنحدر منه، وأقسام مدارات العروض كذلك بسبب التشابه ثم سميت أقسام

ما سوى ذلك من الدوائر عظمت أم صغرَت أجزاء بإطلاق، فأما فلك البروج فإنه اسم ولا مشاحة في الأسماء بعد تقديم التعريف للواضعة بوقعة بعض أهل الصناعة على منطقة الحركة الثانية في كرة الشمس وبوقعة بعضهم على كرة الكواكب الثانية، لأن تعريفها قد وقع من جهتها، وما من كرة كوكب في الأثير إلا وقد تشكل فيها دوائر البروج ومنطقتها وطباها، والأولى أن يوقع الاسم على علياها أذ هي الطرف الحاوي ثم يكون في سائرها ممثلة بها .

وكثير من قدماء الفلاسفة يسمي منطقة البروج فلكاً مائلاً بإطلاق لأنهم لم يشتغلوا بذكر دائرة غيرها وغير معدل النهار، والذي يسمى البعد عنه ميلاً، ولكن أصحاب الصناعة احتووا هذا الاسم لأنهم لما زاولوا دوائر أخر لقبوا أفلاك الكواكب السيارة لانحرافها عن منطقة البروج بهذا اللقب مضافاً إلى كوكبه، والمساكن في الأرض كثيرة وسمت الرأس في كل واحد منها مخالف الوضع عن معدل النهار لما ليس على مدار الآخر فبعده عنه يسمى عرضاً مضافاً إليه وإن كان اسم الميل أولى به لأن عرض البلد هو بعده عن خط الاستواء وهذا الخط نظير معدل النهار فالبعد عنه أيضاً ميل ولما أعير اسم العرض أوقع أيضاً على نظيره الذي هو بعد سمت الرأس عن معدل النهار، ولقب بعرض البلد وبقدره يكون ارتفاع القطب ولذلك يوضع أحدهما مكان الآخر فينوب عنه، وربما سميت البلاد ذوات العرض بالإضافة إلى السماء وحركتها أكراً مائلة قياساً على تسمية ما لا عرض له كرة مستقيمة ومنتصبة، وللعروض في مقاديرها حدود ستة :

أولها العدم في خط الاستواء والشمس تسامته في السنة مرتين يقسمان الدور والسنة بنصفين . والثاني القصور عن مقدار الميل الأعظم والمسامتتان فيه تأخذ في التقارب بحسب قلة العرض وكثرته فيقسمان كل واحد من الدور والسنة بقسمين مختلفين وفيها يكون ارتفاع نصف النهار وظله في كل واحد من جهتي الشمال والجنوب عن سمت الرأس ولذلك تسمى بلاد هذه العروض ذوات ظل. والثالث مساواة الميل الأعظم وقد اتحد فيه المسامتتان يتناهى تقاربهما فبطل الارتفاع والظل عن إحدى الجهتين وهي الشمال في

الارتفاع والجنوب في الظل . والرابع الفضل على الميل الأعظم مع التصور عن تمامه وبلاده ذوات ظل واحد شمالي. والخامس مساواة تمام الميل الأعظم ومنه ابتداء المواضع التي فيها يدور الظل حول المقياس طول يوم تام هو فيها قطعة من السنة أكثر من يومها. والسادس الفضل على هذا التمام – والسابع بلوغ الغاية وهي ربع الدائرة وفيه يدور الظل حول المقياس نصف سنة هو النهار ويبطل أصلاً نصف السنة، الباقي هو الليل وسمت الرأس والرجل هما قطبا الأفق الحسي الذي هو دائرة صغرى والحقيقي الذي هو عظمى والأفق هو الدائرة الفاصلة بين ما يرى في المساكن من السماء وبين ما لا يرى فيه منها والأفق منقسم بمعدل النهار وفلك نصف النهار أرباعاً وكل ربع منها بتسعين جزءاً، والدوائر الآتية إلى هذه الأجزاء من قطبي الأفق معاً يسمى دوائر الارتفاع، وينماز منها اثنتان حتى يختصان باسم مفرد أحدهما المارة على مطلع الاعتدال ومغربه فإنها تسمى دائرة أول السموت أو التي لا سمت لها، والأخرى المارة على نقطتي الشمال والجنوب وهي فلك نصف النهار فوق الأرض وفلك نصف الليل تحتها وما بين كل نقطة مفروضة على دائرة الارتفاع وبين الأفق منها هو الارتفاع فوق الأرض والانحطاط تحتها، وينقسم بقسمين أحدهما ما بين معدل النهار والأفق منه ويسمى ارتفاعاً أوسط والآخر باقيه بين النقطة المرتفعة أو المنحطة وبين معدل النهار ويسمى تعديل الارتفاع وبعد النقطة في الأفق عن قلب الجهة الذي على خط الاعتدال إن كان الكوكب أو النقطة عليه فهو سعة مشرقة في جانب المشرق ومغربه في جانب المغرب.

ثم في إحدى جهتي الشمال والجنوب وإن كان مرتفعاً، وكان ذلك البعد لدائرة ارتفاعه فإنه يسمى سمتاً على التخفيف وهو بالتحقيق بعد السمت، والمدارات المتوازية المارة على أجزاء دائرة الارتفاع موازية للأفق تسمى مقنطرات للارتفاع فوق الأرض أو الانحطاط تحتها، والدوائر المارة على تقاطعي الأفق وفلك نصف النهار تسمى دوائر التسيير الدوائر العظام بعضها مع بعض تقاطع يحصل منه زوايا مقاديرها هي القسي التي تؤثرها من الدائرة المخطوطة على رأس تلك الزاوية، ويبعد ضلع المربع فمقدار زاوية تقاطع معدل النهار والأفق هو تمام عرض البلد المسمى ارتفاع رأس الحمل والميزان، وتقاطع الأفق وفلك البروج بمقدار

تمام عرض إقليم الرؤية وهذا العرض هو قوس من دائرة عظيمة يخرج من سمت الرأس ويقوم على فلك البروج على زوايا قائمة نظير عرض الإقليم مع معدل النهار، وكذلك يساوي عرض إقليم الرؤية ارتفاع قطب فلك البروج في الوقت.

وكل ما أضيف إلى فلك البروج ألحق باسم الرؤية حتى يكون تمام عرض إقليم الرؤية ارتفاع نصف نهار الرؤية وليس بمستعمل، وبعد المطلع عن درجة الطالع سعة مشرق الرؤية والميل هناك ميل الرؤية وسائر الزوايا غير ملقبة إلا لما يراد منها وقت الحاجة إليها، والأفق في خط الاستواء يقطع المدارات بنصفين فلذلك يدوم استواء النهار والليل فيه وسائر الآفاق التي يرتفع فيها القطب يقطعها بانحراف ولا ينصف غير معدل النهار فيفضل في الشمالية منها القطعة النهارية على الليلية وتقصر عنها في الجنوبية وتسمى هاتان القطعتان قوسي النهار والليل، وفضل ما بين إحداهما وبين نصف الدور يسمى فضل النهار أو نقصانه ونصفه تعديل النهار سواء كان من المدار أو كان يشابه من معدل النهار، ولأن الشمس تقطع كل يوم درجة بالتقريب فإن مدارات الدرج تسمى مدارات ودوائر يومية ومدارات رؤوس البروج مدارات، ودوائر شهورية وما يطلع مع قوس مفروضة من فلك البروج من أزمان معدل النهار وهو مطالعها في ذلك الأفق إن كان في خط الاستواء فهي مطالع الفلك المستقيم، وإن كان في عرض فهي مطالع البلد وكذلك ما يغرب معها من الأزمان مع مغاربها فيه، وسيجيء في كل باب مستأنف ما يخصه من الألقاب بما هو أشد تحقيقا، ولما ذكرنا من الدوائر اشتراك وتباين فإذا اشتركت قامت إحداهما مقام الأخرى في بعض الأوضاع وإذا تباينت لم تقم إحداهما على النيابة عن الأخرى أصلاً فمعدل النهار يكون أفق العرض المتناهي إلى الربع والمدارات اليومية ومقنطراته ودوائر الميول دوائر ارتفاعه وفي خط لاستواء تكون الآفاق من دوائر الميول وفلك نصف النهار في كل مسكن أحدها، فله إذا قوة آفاق خط الاستواء ومنطقة البروج لا تقوم مقام دائرة أخرى إلا آناء من الزمان لانطباقها على الأفق وقت موافاة قطبها سمت الرأس، وذلك في العرض المساوي لتمام الميل الأعظم، وكذلك مدارات العروض ودوائرها تكون حينئذ هناك مقنطرات ودوائر ارتفاع ودوائر التسيير، والارتفاع والآفاق تتشارك فيقوم كل واحد منها مقام الأخرى .

في تحديد الأيام والليل منها والنهار

كما أن الحركة الأولى بالأشخاص النيرة محسوسة وأنورها الشمس، فإن تحديد الزمان بها وبحالاتها أولى وأسهل، وأولى حالات الشمس المتكررة هو الطلوع والغروب القائمين إزاء الكون والفساد، والأيام هي عدد تكرر أحدهما وعوده فيقتضي افتتاحها بالطلوع أو الغرب إلى مثله وهو الأصل الأظهر إلا أنه لا يمتنع بعد حصول مدة اليوم معلومة أن يبتدئ باليوم من أي وقت فرض فيه إلى مثله، فأما النهار بانفراده فهو مدة كون الشمس فوق الأرض، والليل مدة كونها تحتها وذلك بالطبع والإحساس دون العادات والأوضاع، فإن من الناس من يأخذ النهار من ظهور إماراته وتهيؤ الطباع للحركة والانتشار ويأخذ الليل من إقبال علاماته وميل الطباع إلى السكون وطلب المأوى وبذلك جعلوا الإصباح والإمساء متقدمين للطلوع والغروب، ومنهم من أخرج ما بين طلوعي الفجر والشمس وما بين مغيبي الشفق من جملة النهار والليل وجعلوهما فصلين مشتركين بينهما وهم براهمة الهند .

وأما في الشرع فإن فروع الفقه قد بنيت على تسمية مدة الصوم نهارا وهي بالحقيقة نهار تام مع بعض ليل قد يولغ في تحديده، ولم يكن خلافه من جهة النص ولكن من جهة الرجوع إلى العادات المتعارفة، واليوم من جهة اللغة يتناول النهار مفردا مرة ويتناول مجموع النهار مع ليلة أخرى، لذلك يؤكد أمر عند ذكر المجموع بذكر الليل مع اليوم ليخرج منه اليوم الذي هو بمعنى النهار المفرد، واختلاف ما بين النهار وبين ليله فيما سوى معدل النهار من المدارات الصغار عند تنحي مسكنه عن خط الاستواء معرض لإحساسه غير خفي عليه وخاصة في المدارات الأقرب من المنقلب الصيفي فالأقرب، فأما بين الأيام التي كل واحد منها مجموع نهار وليلته فمحوج في البحث عنه إلى استعمال النظر والقياس، ومعلوم أن الشمس لو تجددت بالوهم عن حركتها الشرقية وسكونها حتى لم يلحقها سوى إدارة الفلك إياها بالحركة الأولى ثم عادت بها من دائرة عظمى بعينها إلى موضع طلوعها منها عند استيفاء اليوم الواحد بليلته كان مقدار ذلك اليوم مع دورانها ثلاثمائة وستين زمانا لكن الشمس ليست في هذه المدة بساكنة ولا عن الحركة الشرقية بفاترة، فمرور الثلاثمائة والستين زمانا على تلك الدائرة يكون عند عود موضع الشمس الأمسي إلى ذلك المطلع،

وقد فارقته فاختلفت عنه وقد بقي إلى طلوع جرمها ما سارته، فاليوم إذا يفصل على دورة معدل النهار بحركة الشمس فيه إلا أن هذه الحركة في رأي الأعين غير مستوية في الأزمان المتساوية، فقد لحق الأيام اختلاف من جهة هذه الفضلة الحاصلة من الحركة الثانية المختلفة، وحركة الشمس ترى في فلك البروج مختلفة وأزمان مرور أبعاضه المتساوية على الدوائر العظام لا تكون متساوية، وإنما يكون المرور في مدد مختلفة وبسببه يختلف مطالعها ومغاربها كما هو مذكور في بابها، فمقدار اليوم الذي هو عود الشمس إلى نصف دائرة بعينها عظمى مفروضة لمبدئه يكون دوران معدل النهار كله مع مطالع ما سارته الشمس في مدة هذه العودة وكل الدوران لم يقع فيه تفاوت، ففوق ما فضل عليه اختلاف ولو كان مسير الشمس مستوياً لاختلفت الأيام من جهة مطالعه، وكيف وهو أيضاً مختلف وقد لحق الأيام اختلاف آخر من جهة المطالع وتركب تفاوتها من اختلافين اثنين وبهما تفاضلت الأيام وترددت فيما بين غاية لها في الطول وأخرى في القصر، واليوم الأوسط بينهما هو الذي يساوي فيه زيادة بهتها، وهو مسيرها المقوم في يوم بليلته على مسيرها الأوسك فيه نقصان مطالع ذلك البهت أو بالعكس في النقصان والزيادة وذلك موكول إلى استقراء موضعه في الزمان المفروض، فإن المطالع وإن ثبتت لدرج البروج على حال واحد فليس مقدار الإبهات فيها بثابت من أجل حركة الأوج، ثم إن المطالع تختلف على الأفق في كل عرض ويتفق على فلك نصف النهار في جميعها لأنه كما قلنا أحد آفاق خط الاستواء، فالعمل عليه إذا واحد كلي وعلى الآفاق مختلف المقدار جزئي، وهذا أحد الأسباب الداعية إلى الابتداء في اليوم بنصف النهار أو بنصف الليل .

وباقي أسبابه يتضح في أبوابها وقد استبان منه أن الأيام مختلفة لكن فضل ما بين اثنين منها يسير، فإذا اجتمع منه عدة فضول تبين أثره للحس، وأما التفاضل بين النهار وبين ليله أو ليل يوم آخر فإنه يعظم بقدر ميل الشمس وبحسب عرض البلد، ولا خلاف بين أهل الصناعة في مبدئهما أنه حصول مركز الشمس على الأفق إلا أن يود أبو الفضل الهروي أن يكون مبدأ النهار عند حصول كل جرم الشمس فوق الأرض، وأول الليل عند حصوله كله

تحتها، ومعرفة الرجل بتقويم الشمس والكواكب ومزاولته الآلات بالشعاع بعيدة إلى نفر منه، ولا يسلم أحد من زلة وهي للعلماء مغفورة، فأما وضع الليل من النهار فليس الأمر فيه بضروري، ولذلك ينسبه العرب في الجاهلية والإسلام واليهود والنصارى والمنانية إلى النهار الذي بعده وتنسبه الهند والحرانية إلى النهار الذي قبله .

وأما من عداهم فلم ينته إلينا من مذكوراتهم ما يعتمد من أحد هذين الرأيين، وفي المعاني الشرعية مدد يوقع عليها اسم اليوم إما بالتشبيه وإما بالوضع كأنواع الأيام عند الهند وهي كثيرة، وإما لمعان تحتها كاليوم بالمقدر بألف سنة مما يعد والمقدر بخمسين ألف سنة فإنهما مدتان مختلفتان، وسميتا لمعاني يومين لا كالأيامْ المرسومة بطلوع الشمس وغروبها).

كشفت لنا النصوص الثلاثة الفائتة نوع الاهتمام الشامل بموضوع الأرض وشكلها ومسالكها،والكون وأجرامه وأبعاده،وهي في رأينا كافية لتكون مدخلا مناسبا للانتقال إلى صلب الغاية التي نتوخاها من هذا الكتاب بجزئه الأول: بيان الطبيعة الأثنوغرافية للشعوب والمجتمعات خلال القرون الوسطى خارج دار الإسلام، مشفوعة بنظرة الرحالة والجغرافيين المسلمين لها. وبداية من نص البتّاني سيدور الحديث عن العالم المعمور، ويقصد به ذلك الجزء من الأرض المسكون بالبشر، وهو الجانب الشمالي منها، إذ إن بقية أجزاء العالم مازالت مجهولة في ذلك الوقت.

إنّ هذا النص المبكّر دشّن لضرب شامل من الاهتمام ظهر فيما بعد ، وبلغ ذروته لدى المسعودي والبكري والإدريسي وأبي الحسن الوزان وابن خلدون وابن سعيد المغربي وغيرهم. وستكون لأفكارهم أهمية كبيرة فيما يأتي من أجزاء الكتاب، كونها تؤشّر إلى الجانب الخصب من انشغالهم بالقضايا المثارة في عصورهم.

يقدّم البتّاني تفصيلات دقيقة عن العالم المعروف، بما فيه اليابسة والأنهار والخلجان والبحار، ومما يلفت الانتباه أنه يحدد القارات الثلاث(= أوربا، آسيا، إفريقية) بدقة ملحوظة، وهي التي تشكّل العالم القديم قبل الكشوفات الجغرافية ،ويرسم حدودها البحرية والنهرية استنادا إلى معلومات في معظمها صحيحة.الأمر الذي يبرهن على أن الحدود

الجغرافية للقارات عند المسلمين خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كانت معروفة،وهي عبارة عن تخوم طبيعية تفصل بين القارات ، ومازالت هذه التخوم هي الحدود الفاصلة بين القارات التي ذكرها البتّاني.

ولعلّ المثير الذي أورده البتّاني هو الإشارة الواضحة إلى وجود مناطق أخرى في الأرض غير مكتشفة، وغير مطروقة، لكنها طبقا للتفسير الذي يقدمه مسكونة،وهي مناطق شاسعة.ستمر عدة قرون قبل أن تُكتشف.

يضعنا النص الآتي في قلب الجغرافية الطبيعية والبشرية التي ستزداد ثراء شيئا فشيئا مع الزمن عند الجغرافيين اللاحقين كما سنرى،فالاهتمام بالبشر يأتي في مقدمة اهتمامات الجغرافيين المسلمين.

(4)
الأرض المعــمورة
البتّاني(توفي ٣١٧هجري=٩٢٩ميلادي)من كتاب (الزيج الصابئي)

قال البتّاني: وأما موضع الأرض المعلومة والبلدان المسكونة في الطول والعرض فقد أوضحنا بالقياس الذي ذكره بطليموس ووافقه عليه غيره من القدماء أن الأرض مستديرة ، وأن مركزها في وسط الفلك، والهواء محيط بها من كل الجهات ،وأنها عند فلك البروج مثل منزلة النقطة قِلّة.

وأما عمرانها فإنهم أخذوا حدوده من الجزائر العامرة التي تسمى الخالدات (= الكناري) التي في بحر أوقيانس الغربي(= المحيط الأطلسي)، وهي ست جزائر عامرة إلى أقصى عمران الصين. فوجدوا ذلك اثنتي عشرة ساعة، فعلموا أن الشمس إذا غابت في أقصى عمران الصين كان أول طلوعها على أول الجزائر العامرة المذكورة إنها في بحر أوقيانس الغربي، وإذا

غابت في هذه الجزائر صار أول طلوعها على أقصى عمران الصين. وذلك نصف دائرة الأرض، وهو طول العمران الذي وقف عليه ومقداره من الأميال ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة ميل من الأميال التي عملوا عليها مساحة الأرض. ثم نظروا في العرض فوجدوا العمران من موضع خط الاستواء إلى ناحية الشمال ينتهي إلى جزيرة ثولي(=ثوليه) في برطانية حيث يكون طول النهار الأطول عشرين ساعة. وذكروا أن خط الاستواء من الأرض يقطع من المشرق إلى المغرب فيما بين الهند والحبش في جزيرة هناك من ناحية الجنوب من معدل النهار، فتعترض هنالك وتحد مابين الشمال والجنوب .

والخط الذي يقطع هذا الخط من ناحية الشمال إلى ناحية الجنوب في النصف مما بين هذه الجزائر المذكورة أنها في بحر أوقيانس وأقصى عمران الصين وهو قبة الأرض المعروفة بما وصفنا وموضعها موضع التقاطع. والعرض من خط الاستواء إلى جزيرة ثولي يكون قريباً من ستين جزءاً، وذلك سدس دائرة الأرض. فإذا ضُرب هذا السدس الذي هو مقدار العرض في النصف الذي هو مقدار الطول كان ما يظن من العمران من ناحية الشمال مقدار نصف سدس الأرض وهو جزء من اثني عشر جزءاً.

وقدروا بحر الهند(= المحيط الهندي) وقالوا إن طوله يُعدُّ من المغرب إلى المشرق ،من أقصى الحبش إلى أقصى الهند ثمانية آلاف ميل، وعرضه ألفان وسبعمائة ميل، ويجاوز من جزيرة استواء الليل والنهار إلى ناحية الجنوب ألفاً وتسعمائة ميل، . وله خليج بأرض الحبش يمد إلى ناحية البربر(= مناطق القرن الشرقي لإفريقية) يسمى الخليج البربري (=الصومالي) وطوله خمسمائة ميل وعرض طريقه مائة ميل. وخليج آخر يخرج نحو أرض أيلة(=خليج العقبة،إيلات) وهو بحر القلزم(= البحر الأحمر) طوله ألف وأربعمائة ميل، وعرض طريقه الذي يسمى البحر الأخضر مائتا ميل وعرضه في الأصل سبعمائة ميل.

وخليج آخر يخرج نحو أرض فارس يسمى الخليج الفارسي(=الخليج العربي) وهو بحر البصرة طوله ألف وأربعمائة ميل وعرضه في الأصل خمسمائة ميل ،وعرض طريقه مائة وخمسون ميلاً. ويكون بين هذين الخليجين أعني خليج أيلة وخليج فارس أرض الحجاز

واليمن ويكون مابين هذين الخليجين ألفاً وخمسمائة ميل. ويخرج منه خليج آخر إلى أقصى أرض الهند عند تمامه يسمى الخليج الأخضر طوله ألف وخمسمائة ميل.

وفي هذا البحر كله، أعني بحر الهند والصين من الجزائر العامرة وغيرها ألف وسبعون جزيرة منها جزيرة في أقصاه عند بلد الصين تسمى طبران، وهي سرنديب ، يحيط بها ثلاثة آلاف ميل مقابل الهند من ناحية المشرق، وفيها جبال عظام وأنهار كثيرة ،منها يخرج الياقوت الأحمر ولون السماء وحولها تسع وخمسون جزيرة عامرة فيها مدن وقرى كثيرة. فأما بحر أوقيانس الغربي الذي يدعى المحيط فإنه لايعرف منه إلا ناحية المغرب والشمال من أقصى أرض الحبش إلى برطانية ،وهو بحر لا تجري فيه السفن والست الجزائر التي فيه مقابل أرض الحبش هي الجزائر العامرة، وتسمى أيضاً جزائر السعداء(=الكناري،الخالدات).

وجزيرة أخرى مقابل الأندلس تسمى غديرة عند الخليج، وهذا الخليج يخرج منه. وعرض موضعه الذي يخرج منه سبعة أميال، هو بين الأندلس وطنجة يسمى سبطا (=سبتة) يخرج إلى بحر الروم وفيه أيضاً من ناحية الشمال جزائر برطانية، وهي اثنتا عشرة جزيرة ثم يبعد عن العمران فلا يعرف أحد كيف هو ولا مافيه.

وأما بحر الروم ومصر(= المتوسط) فإنه يخرج من عند الخليج الذي يخرج من بحر أوقيانس الغربي عند الجزيرة التي تسمى غديرة مقابل الأندلس إلى صور وصيداء من ناحية المشرق، وطوله خمسة ألاف ميل وعرضه في مكان ستمائة ميل، وفي مكان سبعمائة ميل ،وفي مكان ثمانمائة ميل. وفيه خليج واحد يخرج إلى ناحية الشمال قريباً من رومية(= روما) طوله خمسمائة ميل يسمى بحر إدريس (=الأدرياتيكي) ،وخليج آخر يخرج نحو أرض نربونة طوله مائة ميل. وفي هذا البحر كله من الجزائر مائة واثنتان وستون جزيرة عامرة منها خمس عظام إحداها جزيرة قرنس (=كورسيكا) يحيط بها مائتا ميل، وسردانية يحيط بها ثلاثمائة ميل ،وقبرس يحيط بها ثلاثمائة وخمسون ميلاً، وصقلية يحيط بها خمسمائة ميل، واقريطش(= كريت) يحيط بها ثلاثمائة ميل.

وبحر بنطس (=الأسود) يمتد من لاذقة (=بلاد اللان) إلى القسطنطينية العظمى طوله

ألف وستون ميلاً وعرضه ثلاثمائة ميل. يدخل فيه النهر الذي يسمى طنايس (=الدون) ومجراه من ناحية الشمال من البحيرة التي تسمى مايطس (=بحر آزوف) وهو بحر ضخم وإن كان يسمى بحيرة، طوله من المشرق إلى المغرب ثلاثمائة ميل، وعرضه مائة ميل. وعند القسطنطينية ينفجر منه خليج يجري كأنه نهر ويصب في بحر مصر(=المتوسط) وعرضه عند القسطنطينية قدر ثلاثة أميال والقسطنطينية عليه.

وبحر جرجان (=بحر قزوين) وهو بحر الباب (=ممر دربند) طوله من المغرب إلى المشرق ثمانمائة ميل وعرضة ستمائة ميل. وفيه جزيرتان قبال جرجان كانتا فيما مضى عامرتين. وهذه المواضع العامرة من موضوع بحر الأرض المعروف(= البحار المعروفة) والله بذلك أعلم.

وقد قسمت الأرض بثلاثة أقسام:

الأول منها من البحر الأخضر من ناحية الشمال والخليج الذي يخرج من بنطس إلى البحر الأكبر، ومابين بحيرة مايطس إلى بنطس فصارت حدود هذه الناحية من المغرب والشمال البحر الغربي ،وهو أوقيانس. ومن ناحية الجنوب بحر مصر والروم. ومن ناحية المشرق طنايس وبحيرة مايطس. وصارت هذه الأرض شبه الجزيرة وسموها أوروف(= أوربا).

والقسم الثاني من ناحية الجنوب من بحر مصر إلى بحر الحبش، وحدود هذه الناحية من المغرب البحر الأخضر ومن الشمال بحر مصر والروم ،ومن المشرق العريش ومن الجنوب بحر الحبش. ويسمى هذا القسم لوبيا(= ليبيا،وهو الاسم القديم لإفريقية).

والقسم الثالث جمع ما بقي من عمران الأرض إلى أقصى ذلك، وحدوده من المغرب طنايس والنهر والخليج والعريش وأيلة، ومن الجنوب بحر اليمن والهند، ومن أقصى عمران الصين من ناحية المشرق والصين نفسها، ويسمى هذا القسم أشيا(= آسيا) الكبرى.

فهذه الثلاثة أقسام قد جمعت الأقاليم والكور وسائر البلدان العامرة. وأما ما لايعرف عمرانه ولا خرابه؛ فهو أحد عشر جزءاً من اثنتي عشر جزءاً. وأما الجزء الذي فيه العمران المعروف من موضع خط الاستواء ففيه البحور والمفاوز.

فإن قال قائل هل في هذه الأحد عشر جزءاً نبات وحيوان وعمران ؟كان القول فيه من جهة القياس والرأي، وأما ما كان من عمران الأرض قبلنا فإنه لايجوز الحد والإفراق التي ذكرنا .وأما الذي وراء ذلك فإنه لم يُجره أحد إلينا، ولكن الرأي والظن يقع على ما لا ينكره أحد من ذوي المعرفة على جهة القياس أن الشمس والقمر والكواكب تجري عندنا فيكون بحركتها وقربها وبعدها صيف وشتاء ونبات وحيوان وعمران. وما يعرفه كل أحد فإن الشمس تطلع على كل مكان من دائرة الأرض الباقية والكواكب مثل ما عندنا فيمكن أن يكون هنالك نبات وحيوان وبحور وجبال مثل ما عندنا، وينبغي أن يكون كذلك. وتكون حصة الدرجة الواحدة من هذه الأميال المذكورة قريباً من خمسة وستين ميلاً وهو مسيرة يومين بالتقريب والله أعلم.

فأما طول المدن وعرضها وعلى ما رسم في كتاب" صورة الأرض" فإن مواضعها من الطول الذي هو مسافة مابين المغرب والمشرق فإنهم ابتدأوا به من الجزائر العامرة التي في بحر أوقيانس الغربي من ناحية المشرق على حسب ماوجدوا أوقات كسوفات القمر خاصة بتقدم بعضها بعضاً في البلدان فعلموا بذلك أن انتصاف النهار في كل بلد يتقدم انتصاف النهار في غيره من ناحية المغرب بأجزاء من أزمان معدل النهار يكون مقدارها أزمان ما بين الكسوف في البلدين ومن ذلك ما أخذوه من الأخبار ممن يسلك الطرق بالتقريب.

وأما عروض المدن فإنهم أخذوها من قبل قياس الشمس في أوقات انتصاف النهار في البلدان فعرفوا بعدها وقربها من نقطة سمت الرؤوس فعلموا بُعد كل بلد عن خط الاستواء وهو مسافة مابين الجنوب والشمال، ورسموا تحت كل مدينة بعدها عن الجزائر الخالدات في الطول وعن خط الاستواء في العرض بالتقريب.)

إلى جانب الاهتمامات الكبيرة التي أبداها الجغرافيون المسلمون لمناقشة كروية الأرض والأجزاء التي يستوطنها الإنسان ،وحدود اليابسة ، فقد ربطوا بين المؤثرات البيئية والطبائع الإنسانية، وكما سيظهر لنا في النصوص الآتية فإن التلازم بين هذين الجانبين يكاد يكون مهيمنا في معظم المدونات الجغرافية .ولهذا الربط أهمية استثنائية في شيوع نظرية الطبائع

التي كانت ركنا أساسيا في التمايزات العرقية طوال القرون الوسطى .وتبدو الأحكام القاسية التي يصدرها الدمشقي في النص الآتي بحق الأقوام الزنجية والشمالية من نتاج ذلك التصور الذي ينطلق من تسليم مطلق بالطبائع الثابتة،وفي نص يستعين بأسلوب التأليف القديم الذي يقوم على جمع الآراء وترتيبها، تظهر بوضوح سلسلة من المصادرات بحق الآخر إذ تتركز القيم العليا والأوصاف في أقاليم معينة، وتسلب من أخرى .فـ(أخلاق البشر) تتمايز على نحو جذري بفعل المؤثرات البيئية ، كما يقرر ذلك الدمشقي .

(5)

أخلاق البشر

شمس الدين أبوعبدالله الدمشقي(توفي ٧٢٧هجري=١٣٢٧ميلادي)

من كتاب

(نخبة الدهر في عجائب البر والبحر)

(قيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنه قال لكعب الأحبار: صِف لي ماتعلم من أخلاق أهل البلاد المحمودة والمذمومة غالباً. فقال: يا أمير المؤمنين أربعة لا تُعرف في أربعة، السخاء في الروم، والوفاء في الترك ،والشجاعة في القبط، والغم في السودان.

وطلبت النجدة الشام ،فقالت الفتنة: وأنا معك. وطلب الإيمان اليمن، فقال الحياء :وأنا معك. وطلب الغنى والخصب مصر، فقال الذل: وأنا معكما. وطلب الشقاء والفقر البادية، فقالت الصحة :وأنا معكما. وطلب النفاق والكبر العراق، فقالت النعمة: وأنا معكما.

قال يا أمير المؤمنين وقُسِّمت القساوة عشرة أجزاء: تسعة منها في الترك وواحد في الناس. وقُسِّم الحذق عشرة أجزاء تسعة منها في العرب وواحد في الناس. وقُسِّم البخل عشرة أجزاء تسعة في الهنود وواحد في الناس. وقُسِّم الحقد عشرة أجزاء تسعة في العرب وواحد في الناس. وقُسِّم الكبر عشرة أجزاء تسعة في الروم وواحد في الناس. وقُسِّم الطرب عشرة

أجزاء تسعة في السودان وواحد في الناس. وقُسِّم الشبق عشرة أجزاء تسعة في الهنود وواحد في الناس.

وقيل حُكي عن الحجّاج أنه قال: أهل اليمن أهل سمع وطاعة، ولزوم جماعة ،عرب استنبطوا. وأهل البحرين نبط استعربوا. وأهل اليمامة أهل جفاء وخلاف آراء. وأهل فارس أهل بأس شديد وعزٍّ عتيد. وأهل العراق أبحث على صغيرة وأضيع لكبيرة. وأهل الجزيرة أشجع الناس .وأهل الشام أطوعهم لمخلوق. وأهل مصر عبيد لمن غلب، وأكيس الناس صغاراً وأجهلهم كبارا. وأهل الحجاز أحبهم للمعارف وأسرعهم إلى فتنة ،والله أعلم.

وسئل الجاحظ عن البقاع التي رآها وطباع أهلها وأخلاقهم العامة، فقال: الهند بحرها درٌّ وجبالها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر. ولأهل الهند الفكر والوهم والحدس والظن والتخيّل والحيلة والشعبذة. وكرمان ماؤها وشل، وثمرها دقل، وعدوها بطل، وأهلها غُفّل هُمّل. وخراسان ماؤها جامد، وعدوها جائد ,وأهلها مابين عالم وقائد ,وذي كبر ومعاند. وعُمان حرها شديد، وصيدها عتيد ،وأهلها مابين قائم وحصيد ،لاينفكون عن قتيل أو شريد. والبحرين كناسة بين المصرين، وأهلها زجاجة بين حجرين. والبصرة ماؤها سبخ، وحرسها صلح، مأوى كل تاجر، وطريق كل عابر ،وأهلها أهل شقاق ونفاق ومكر وسوء أخلاق. والكوفة ارتفعت عن حر البحرين، وسفلت عن برد الشام، وأهلها أهل وفاء وخفاء مع جفاء .وواسط جنة بين حماة وكنّة، وأهلها قرّاء قابضون على الأعنّة طاعنون بالألسن والأسنّة. والشام عروس بين نساء جلوس، وأهلها ذو عيشة راضية وقلوب صافية مع طباع جافية، ولايخفى منهم خافية. ومصر هواؤها راكد، وحرها متزايد، تطول بها الأعمار، وتسود بها الأبشار، وأهلها جهلة عزلة أذكياء ولاعقل وفطن أغبياء.

وحكوا أصحاب التواريخ أن عَمْراً بن عامر لمّا تحقّق كون سيل العرم ،قال لقومه: مَنْ كان ذا شياه وعبيد وجمل شديد فليلحق بشعب بوان، فلحقت به همذان .ومَنْ كان ذا سياسة وصبر على أزمات الدهر فليلحق ببطن مرّ، فلحقت به خزاعة. ومَنْ كان يريد الراسخات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل ، فلحقت به الأوس. ومَنْ كان يريد

الثياب الرقاق ،والخيل العتاق، والذهب والأوراق، فليلحق بالعراق، فلحقت به لخم .ومَنْ كان يريد البز والحرير والأمر والتأمير والخمر والنمير، فليلحق بالشام، فلحقت به غسان.

ومثله تميّز العرب: بالفصاحة ،والاستعارة في الألفاظ، والإيجاز، والاتساع ،والتصريف ، والسحر باللسان، والخطابة، والنجدة، والوفاء، والذمام، والجود، والقرى. وهذه الفضائل ليست لكل واحد من أفراد العرب بل الشائعة الغالبة على عموم أخلاقهم. كما للروم: الاستنباط، والغوص ،والكشف، والاستقصاء .وللهنود ماتقدم ذكره. وللفرس: الرويّة ، والأدب، والسياسة، والرسوم الملوكية، والترتيب، والمعبودية، والربوبية.

واعتبار الشرف والفضل معتبر على ما خص به قوم دون قوم في أول الخلق ومبدأ الفطرة، ومما يكتسبه قوم دون قوم في أيام النشأة بالاختيار الجيد والردي، والرأي الصائب وضده. ولكل أمة فضائل، ورذائل، ومحاسن، ومساوئ، وكمال، ونقص، إذ الخيرات والشرور والفضائل والنقائص مفاضة على جميع الخلائق. ولا تخلو كل فرقة وطائفة ممن وصفوا بالحلم والعقل وأوصاف الكمال من جاهل خال من الأدب ،داخل في الرعاع والهمج ولا الموصوفون بالشجاعة من جبان جاهل طيّاش بخيل غني .فالحكم للأغلب في كل أمة وكل طائفة والله أعلم.

وسنورد ما قيل في سكان الأقاليم السبعة من الخَلق والخُلق والسبب الموجب له:

فالأول: من خط الاستواء وإلى ما وراءه وما خلفه، وفيه من الأمم الزنج والسودان والحبشة والنوبة ومثلهم، وكل هؤلاء سود سوادهم من قبل الشمس، فإنه لما كان حرّها شديداً ، وطلوعها عليهم ومسامتة رؤوسهم لها في السنة مرتين ولا تزال قريبة منهم أسخنتهم إسخانا محرقا، وصارت شعورهم التي بالقصد من الطبيعة سوداء حالكة جعدة مفلفلة أشبه شيء بشعر أدني من النار حتى يشيط ،وأدلّ دليل على أنه متشيط ؛ لأنه لا ينمو ولا يطول. جلودهم زعرة ناعمة؛ لتنقية الشمس أوساخ أبدانهم وإجذابها إياها إلى خارج، وأدمغتهم قليلة الرطوبة لمثل ذلك. فلذلك كانت عقولهم خسيفة، وأفكارهم قصيرة ،وأذهانهم جامدة .ولايوجد منهم الشيء وضده كالأمانة والخيانة والوفاء والغدر. ولم يوجد فيهم

النواميس. ولم يُبعث فيهم رسول؛ لأنهم غير قادرين على الجمع بين الضدين. والشرعية إنما هي أمر ونهي، ورغبة ورهبة .فالخُلق الذي يوجد في غرائزهم قريب مما يوجد في أخلاق البهائم من سجاياها الموجودة فيها بالطبع من غير تعلم، أُخرج ذلك الأمر منها من القوة إلى الفعل ،كما توجد الشجاعة في الأسد، والحيل في الذئب، والخبث في الثعلب، والجزع في الأرنب، والملق في الكلب، والخيل في الفرس، وليس يوجد في هذه الحيوانات أضداد هذه الأفعال. وطاعتهم لملوكهم وأكابرهم إنما هو لإقامة الأحكام فيهم والسياسات كما ترى ذلك في الوحوش.

قال جالينوس: إن في الأسود عشر خصال لاتوجد في غيره من البيض: تفلفل الشعر، ودقة الحاجبين ،وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحدد الأسنان، ونتن الجلد، وسوء الخُلق، وتشقق الأطراف، وطول الذكر، وكثرة الطرب. والخصي متى خصى صلب عظمه، وعظمت رجلاه، وقصرت بشرته، وطالت فخذاه ،واعوجت أصابع كفيه، وأمن من السلع. وفي أي سنٍّ كان من أسنان عمره خُصي انحفظ عليه حال ذلك السن من الأفعال السياسية والحيوانية والطبيعية مع رقة صوته، وتأنيث شمائله ،وشدة اغتلامه. وسواء في ذلك الأسود والأبيض. ولكن الأبيض يسوء خلقه أكثر، ويظهر عليه التأنيث بسرعة. ولما كان الإنسان شبيهاً بنخلة مقلوبة جذوعه، وطلعه وحمله في الأسفل إلى جهة الأرض، وذلك أنثياه وذكره الذي هو شبيه برأسه وعنقه وفمه ومنافذ رأسه، كان أصله وعروقه التي يتغذى منها ويمتص بها الهواء والماء في السماء إلى جهة العلو وهو رأسه ويداه ومنافذ رأسه من الفم والأنف والأذنين والعينين، وذلك شبيه النخلة الراسخة في الأرض، وبه تمتص غذاءها ،وبها تعيش ، ومتى قطع هذا منها عدمت الحياة، وتعطل حملها، وأكلها .وكأن الإنسان كذلك إن قطع رأسه الذي في الهواء مات، وإن قطع ذكره الشبيه برأسه عدم النسل ،وكثير من الأخلاق الإنسانية والله أعلم .

الثاني: دون الأول في إفراط الحر ببلاد السند والهند ومن شاكلهم من الآدم دون السودان، وإنما سموا آدما لأن حر الشمس لم تبلغ بهم أن تشيط رؤوسهم وشعورهم ولا تسودّ

جلودهم ،بل تغيرهم تغييراً أقل من السواد، وهذا اللون سمي الدكونة. وهم أصحاب نشاط، ولا يكاد يوجد فيهم حب اللهو والشراب واتباع الملاذ؛ وذلك لحر قلوبهم ويبسها. وليسوا بأهل نواميس ؛لغلبة الإفراط. وكذلك الزنج أقل احتراقاً من النوبة؛ وسبب ذلك أن الزنج واغلون في شرق يضربهم هواء البحر الهندي والجامد، والنوبة واغلون في غرب لاتزال يهب عليهم الريح السوداء والسموم واليحموم ؛فاحترقت أبدانهم واسودت وتفلفلت شعورهم .وكذلك الحبشة متوسطون على جبال، ومجاورون المياه الحلوة؛ فكانوا خضرا وسمرا وسودا كذلك.

الثالث : دون الثاني في إفراط الحر، وهم أهل الحجاز وتهامة واليمامة والنجد ومن شاكلهم وسامتهم فيما بين المشرق والمغرب، ويسمون السمر؛ وإنما كانوا سمراً لأنهم كانوا في أطراف الحر ،طباعهم ممزوجة،وإذا رتبوا على ملة ونحلة صارت في طباعهم وغريزتهم كالخُلق. وفيهم : الأنفة، والحمية، وفيهم الوفاء والعفة. ومن عفّ لم تستعبده المطامع ،ومن لم تستعبده المطامع لم يحرص، ومن لم يحرص لم يذل، ولم يُستعبد؛ وذلك يرى كل واحد أنه كفؤ للآخر، ولا يجدون التعمق في العلوم العقلية ولا المعقولات دون المحسوسات والله أعلم .

والرابع : هو الوسط، وهو القريب إلى اعتدال المزاج واستواء البشارات والأخلاق الكاملة الجامعة للفضائل وأضدادها، وأهله بيض بحمرة، ولهم غالب الصناعات العلمية والعملية، وفيهم أساطين الحكمة، ومظهر كل فن من فنون العلوم العقلية والفعلية. ويكاد كل واحد من أهل هذا الإقليم أن يكون واحداً في غيره يشار إليه بالفضل والفضيلة مع السياسة والتدبير والشجاعة ، ووضع كل شيء في موضعه. وكان ثمار هذا الإقليم أعدل الثمار، وأشجاره أنضر الأشجار؛ وسيما ما كان منه بالوسط واعتبر بحد الشام ومصر وجنوب الأندلس وبخارى وسمرقند وما وراءها كذلك والله أعلم .

والخامس: في إفراط البرد ما أخرجه عن مزاج الرابع، وفيه : الروم، والأرمن، والروس، واللان، وفيه شمال الأندلس، وشمال خراسان، وما سامتهم من الشرق. ويسمون البيض

بشقرة وهؤلاء لإفراط البرد وبُعد الشمس ؛ساءت أخلاقهم وقست قلوبهم وإنما كانت أبدانهم كذلك لغلبة البرودة والرطوبة واستيلائها، وقلّ من يوجد فيهم له فطنة ،بل الحيوانية غالبة عليهم ،والشهوة ،والغضب، وحدة النفس. والله أعلم .

والسادس: أشد إفراطاً في البرد، واليبس ،والبعد عن الشمس مع غلبة الرطوبة أيضاً، وفي هذا الإقليم :الترك، والخزر، والفرنج، وإفرنسة، وكاشغرد، ومن سامتهم وهؤلاء يسمون الشقر. ونسبة هذه الأمة إلى الصقالبة كنسبة السند إلى السودان . وألوانهم بالطبع بيض، وهم كالوحوش ؛لايعتنون بغير الحروب، والقتال، والصيد. ولايعرفون عرفانا، ولا يفرقون فرقانا والله أعلم .

والسابع: فيه الصقالبة. وهم على خلق واحد، وطبيعة واحدة كما قلنا في سودان أهل الإقليم الأول، ولا يكادون يفقهون قولاً إلا أنهم كالأنعام، بل هم أضل سبيلا.)

في النصين الآتيين لابن خلدون تتجلى الأهمية الاستثنائية لقضية التلازم بين طبيعة البشر والأقاليم، ويترتب ذلك استنادا إلى فكرة ابن خلدون عن العمران التي وضع أسسها الكاملة في مقدمته الشهيرة. وقد حرصنا ، غاية الحرص، على أن ندرج نصيّن متعاقبين لابن خلدون في هذا السياق كونهما ، فيما نرى، أفضل مايمكن الاستعانة به في مجال الربط بين الأقاليم المسكونة، وخصائصها الطبيعية والمناخيّة من جهة، والطبائع البشرية للمجتمعات من أشكال وعادات وثقافات وعقائد من جهة ثانية. إنهما نصان غزيران بالأفكار، والحجج، ويكشفان بوضوح أمرين متلازمين ؛ الأول :فكرة ابن خلدون عن العمران البشري، والثاني :نظرته الى العلاقة بين البيئة والإنسان.

(6)

في المعمور من الأرض وما فيه من الأشجار والأنهار والأقاليم ابن خلدون (توفي ٨٠٨هجري=١٤٠٦ميلادي) من كتاب (المقدمة)

(اعلم أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أنّ شكل الأرض كروي، وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبة طافية عليه، فانحسر الماء عن بعض جوانبها؛ لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها، وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها. وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض وليس بصحيح، وإنما النحت الطبيعي قلب الأرض، ووسط كرتها الذي هو مركزها، والكل يطلبه بما فيه من الثقل وما عدا ذلك من جوانبها. وأما الماء المحيط بها فهو فوق الأرض، وإن قيل في شيء منها إنه تحت الأرض فبالإضافة إلى جهة أخرى منه. وأما الذي انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بحرا يسمى البحر المحيط، ويسمى أيضا البلايه بتفخيم اللام الثانية، ويسمى أوقيانوس أسماء أعجمية. ويقال له البحر الأخضر والأسود.

ثم إن هذا المنكشف من الأرض للعمران فيه القفار، والخلاء أكثر من عمرانه، والخالي من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال. وإنما المعمور منه أميل إلى الجانب الشمالي على شكل مسطح كروي ينتهي من جهة الجنوب إلى خط الاستواء ومن جهة الشمال إلى خط كروي. ووراء الجبال الفاصلة بينه وبين الماء العنصر الذي بينهما سد يأجوج ومأجوج، وهذه الجبال مائلة إلى جهة المشرق. وينتهي من المشرق والمغرب إلى عنصر الماء أيضا بقطعتين من الدائرة المحيطة. وهذا المنكشف من الأرض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل، والمعمور منه مقدار ربعه، وهو المنقسم بالأقاليم السبعة.

وخط الاستواء يقسم الأرض بنصفين من المغرب إلى المشرق، وهو طول الأرض، وأكبر خط

في كرتها. كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك. ومنطقة البروج منقسمة بثلثمائة وستين درجة، والدرجةمن مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخا، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع، والذراع أربعة وعشرون إصبعا، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها إلى بعض ظهرا لبطن. وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الأرض. وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة؛ لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة، والباقي منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود .كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر كما نبين ذلك كله إن شاء الله تعالى .

ثم إن المخبرين عن هذا المغمور وحدوده، وعمّا فيه من: الأمصار، والمدن ،والجبال، والبحار، والأنهار، والقفار، والرمال، مثل بطليموس في كتاب" الجغرافيا "وصاحب كتاب" زخار" (=رُجار،ويقصد به الإدريسي صاحب كتاب " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"،وقد أُهدي للملك روجار؛فسمّي باسمه) من بعده قسموا هذا المغمور بسبعة أقسام، يسمونها الأقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول.

فالإقليم الأول أطول مما بعده. وهكذا الثاني إلى آخرها. فيكون السابع أقصر لما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة عن انحسار الماء عن كرة الأرض. وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب إلى المشرق على التوالي .وفي كل جزء الخبر عن أحواله، وأحوال عمرانه .وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الإقليم الرابع البحر الرومي المعروف ،يبدأ في خليج متضايق في عرض اثني عشر ميلا أو نحوها ما بين طنجة وطريف يسمى الزقاق(= مضيق جبل طارق) ثم يذهب مشرقا وينفسح إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخره الجزء الرابع من الإقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخا من مبدئه. وعليه هنالك سواحل الشام ،وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب ، أولها: طنجة عند الخليج ثم إفريقية ثم برقة إلى الإسكندرية. ومن جهة الشمال: سواحل القسطنطينية عند الخليج ،ثم البنادقة ،ثم رومة، ثم الإفرنجة، ثم الأندلس إلى طريف عند

الزقاق قبالة طنجة. ويسمى هذا البحر الرومي والشامي. وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل: أقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية.

قالوا: ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين، أحدهما مسامت للقسطنطينية ،يبدأ من هذا البحر متضايقا في عرض رمية السهم، ويمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ،ثم ينفسح في عرض أربعة أميال، ويمر في جريه ستين ميلاً، ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطش(=نيطس،،الأسود) وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه إلى ناحية الشرق فيمر بأرض هرقلة، وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلثمائة ميل من فوهته ،وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس. والبحر الثاني من خليجَيْ هذا البحر الرومي، وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال، فإذا انتهى إلى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة .وينتهي إلى بلاد إنكلاية على ألف ومائة ميل من مبدئه. وعلى حافتيه من البنادقة والروم وغيرهم أمم ويسمى خليج البنادقة .

قالوا وينساح من هذا البحر المحيط أيضا من الشرق، وعلى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء، بحر عظيم متسع يمر في الجنوب قليلا حتى ينتهي إلى الإقليم الأول ،ثم يمر فيه مغربا إلى أن ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد الحبشة والزنج وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ من مبدئه ،ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي(= المحيط الهندي) وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد يوبر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره، وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب، ثم بلد مقديشو ثم بلد سفالة (=موزمبيق أو مدغشقر) وأرض الوقواق(=مختلف بشأنها، فمن قائل إنها اليابان،أو سومطرة، أو مدغشقر) وأمم أخر ليس بعدهم إلا القفار والخلاء .وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه، ثم الهند ،ثم السند ،ثم سواحل اليمن من الأحقاف وزبيد وغيرها، ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة .

قالوا: ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران أحدهما يخرج من نهايته عند باب

المندب ،فيبدأ متضايقا ثم يمر مستبحرا إلى ناحية الشمال ومغربا قليلا إلى أن ينتهي إلى القلزم في الجزء الخامس من الإقليم الثاني على ألف وأربعمائة ميل من مبدئه ،ويسمى بحر القلزم وبحر السويس. وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل. وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدّة ثم مدين وأيلة وفاران عند نهايته .ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش ،وبينهما نحو ست مراحل. وما زال الملوك في الإسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما، ولم يتم ذلك.

والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي ويسمى الخليج الأخضر(= العربي) يخرج ما بين بلاد السند والأحقاف من اليمن، ويمر إلى ناحية الشمال مغربا قليلا إلى أن ينتهي إلى الأيلة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الإقليم الثاني على أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخا من مبدئه ويسمى بحر فارس. وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والأبلة عند نهايته من جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر والأحقاف عند مبدئه. وفيما بين بحر فارس والقلزم جزيرة العرب ،كأنها داخلة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق، وتفضي إلى العراق بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما. وهنالك الكوفة والقادسية وبغداد وإيوان كسرى والحيرة .ووراء ذلك أمم الأعاجم من الترك والخزر وغيرهم. وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها ،وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها، وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحله على البحر الحبشي .

قالوا: وفي هذا المغمور بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية الشمال بأرض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان(=قزوين) طوله ألف ميل في عرض ستمائة ميل في غربيه أذربيجان والديلم وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم وفي جنوبيه طبرستان وفي شماليه أرض الخزر واللان. هذه جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا.

قالوا: وفي هذا الجزء المغمور أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار، وهي :النيل والفرات ودجلة

ونهر بلخ المسمى جيحون. فأما النيل فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الإقليم الأول ويسمى جبل القمر(= جبال شرق إفريقية) ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه ،تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة هناك، وبعضها في أخرى ،ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل .ويخرج من هذه البحيرة نهران ذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر فإذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجا وتصب كلها في البحر الرومي عند الإسكندرية، ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه. ويذهب الآخر منعطفا إلى المغرب ثم يمر على سمته إلى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان. وأممهم كلهم على ضفتيه .

وأما الفرات فمبدؤه من بلاد أرمينية في الجزء السادس من الإقليم الخامس، ويمر جنوبا في أرض الروم وملطية إلى منبج ،ثم يمر بصفين ثم بالرقة ثم بالكوفة إلى أن ينتهي إلى البطحاء التي بين البصرة وواسط .ومن هناك يصب في البحر الحبشي، وتنجلب إليه في طريقه أنهار كثيرة ،ويخرج منه أنهار أخرى تصب في دجلة.

وأما دجلة فمبدؤها عين ببلاد خلاط من أرمينية أيضا، وتمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد إلى واسط، فتتفرّق إلى خلجان كلها تصب في بحيرة البصرة، وتفضي إلى بحر فارس .وهو في الشرق على يمين الفرات وينجلب إليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب. وفيما بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوتي الفرات وقبالة أذربيجان من عدوة دجلة .

وأما نهر جيحون فمبدؤه من بلخ في الجزء الثامن من الإقليم الثالث من عيون هناك كثيرة، وتنجلب إليه أنهار عظام، ويذهب من الجنوب إلى الشمال فيمر ببلاد خراسان ،ثم يخرج منها إلى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الإقليم الخامس فيصب في بحيرة الجرجانية التي بأسفل مدينتها ،وهي مسيرة شهر في مثله.وإليها ينصب نهر فرغانة والشاش الآتي من بلاد

الترك، وعلى غربي نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم ،وعلى شرقيه بلاد بخارى وترمذ وسمرقند .ومن هنالك إلى ما وراءه بلاد الترك وفرغانة والخزلجية وأمم الأعاجم. وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه والشريف في كتاب" زخار" . وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المغمور من الجبال والبحار والأودية ،واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله؛ ولأن عنايتنا في الأكثر إنما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر، وبالأوطان التي للعرب من المشرق. والله الموفق .

إن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمرانا من الربع الجنوبي ، ونحن نرى بالمشاهدة والأخبار المتواترة أن الأول والثاني من الأقاليم المغمورة أقل عمرانا مما بعدهما، وما وجد من عمرانه فيتخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي الذي في الشرق منهما، وأمم هذين الإقليمين وأناسيهما ليست لهم الكثرة البالغة، وأمصاره ومدنه كذلك .والثالث والرابع ومابعدهما بخلاف ذلك، فالقفار فيها قليلة، والرمال كذلك أومعدومة ،وأممها وأناسيها تجوز الحد من الكثرة ، وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عددا،والعمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله.

وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لإفراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت الرؤوس.فلنوضّح ذلك ببرهانه، يتبيّن منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال إلى الخامس والسابع، فنقول :إن قطبي الفلك الجنوبي والشمالي إذا كانا على الأفق فهنالك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هي أعظم الدوائر المارة من المشرق إلى المغرب، وتسمى دائرة معدل النهار. وقد تبين في موضعه من الهيئة أن الفلك الأعلى متحرك من المشرق إلى المغرب حركة يومية يحرك بها سائر الأفلاك في جوفه قهرا، وهذه الحركة محسوسة. وكذلك تبين أن للكواكب في أفلاكها حركة مخالفة لهذه الحركة وهي من المغرب إلى المشرق ، وتختلف آمادها باختلاف حركة الكواكب في السرعة والبطء. وممرات هذه الكواكب في أفلاكها توازيها كلها دائرة عظيمة من الفلك الأعلى تقسمه بنصفين، وهي دائرة فلك البروج منقسمة باثني عشر برجا.وهي على ما تبين في موضعه

مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما أول الحمل وأول الميزان، فتقسمها دائرة معدل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل النهار إلى الشمال،وهو من أول الحمل إلى آخر السنبلة، ونصف مائل عنه إلى الجنوب وهو من أول الميزان إلى آخر الحوت. وإذا وقع القطبان على الأفق في جميع نواحي الأرض ؛كان على سطح الأرض خط واحد يسامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب إلى المشرق ويسمى خط الاستواء. ووقع هذا الخط بالرصد على ما زعموا في مبدأ الإقليم الأول من الأقاليم السبعة. والعمران كله في الجهة الشمالية يرتفع عن آفاق هذا المغمور بالتدريج إلى أن ينتهي ارتفاعه إلى أربع وستين درجة. وهنالك ينقطع العمران، وهو آخر الإقليم السابع. وإذا ارتفع على الأفق تسعين درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار على الأفق وبقيت ستة من البروج فوق الأفق وهي الشمالية وستة تحت الأفق وهي الجنوبية والعمارة فيما بين الأربعة والستين إلى التسعين ممتنعة لأن الحر والبرد حينئذ لا يحصلان ممتزجين لبعد الزمان بينهما فلا يحصل التكوين. فإذا الشمس تسامت الرؤوس على خط الاستواء في رأس الحمل والميزان ثم تميل عن المسامتة إلى رأس السرطان ورأس الجدي ويكون نهاية ميلها عن دائرة معدل النهار أربعا وعشرين درجة ثم إذا ارتفع القطب الشمالي عن الأفق مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤوس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبي كذلك بمقدار متساو في الثلاثة وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض البلد. وإذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤوس علت عليها البروج الشمالية مندرجة في مقدار علوهما إلى رأس السرطان وانخفضت البروج الجنوبية من الأفق كذلك إلى رأس الجدي لانحرافها إلى الجانبين في أفق الاستواء كما قلناه.

فلا يزال الأفق الشمالي يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية وهو رأس السرطان في سمت الرؤوس ؛وذلك حيث يكون عرض البلد أربعا وعشرين في الحجاز وما يليه. وهذا هو الميل الذي إذا مال رأس السرطان عن معدل النهار في أفق الاستواء ارتفع بارتفاع القطب الشمالي حتى صار مسامتا ،فإذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين نزلت الشمس عن المسامتة، ولا تزال في انخفاض إلى أن يكون ارتفاع القطب أربعا وستين ويكون انخفاض الشمس عن

المسامتة كذلك ،وانخفاض القطب الجنوبي عن الأفق مثلها فينقطع التكوين لإفراط البرد والجمد وطول زمانه غير ممتزج بالحر .ثم إن الشمس عند المسامتة وما يقاربها تبعث الأشعة قائمة وفيما دون المسامتة على زوايا منفرجة وحادة ،وإذا كانت زوايا الأشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في المنفرجة والحادة ؛فلهذا يكون الحر عند المسامتة وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد لأن الضوء سبب الحر والتسخين.

ثم إن المسامتة في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتي الحمل والميزان ،وإذا مالت فغير بعيد، ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدي إلا أن صعدت إلى المسامتة فتبقى الأشعة القائمة الزوايا تلح على ذلك الأفق ويطول مكثها أو يدوم فيشتعل الهواء حرارة ويفرط في شدتها. وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء إلى عرض أربع وعشرين فإن الأشعة ملحة على الأفق في ذلك بقريب من إلحاحها في خط الاستواء وإفراط الحر يفعل في الهواء تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين لأنه إذا أفرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات؛ إذ التكوين لا يكون إلا بالرطوبة، ثم إذا مال رأس السرطان عن سمت الرؤوس في عرض خمس وعشرين فما بعده نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحر إلى الاعتدال ،أو يميل عنه ميلا قليلا فيكون التكوين ويتزايد على التدريج إلى أن يفرط البرد في شدته لقلة الضوء وكون الأشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويفسد .بيد أن فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم منه من جهة شدة البرد؛ لأن الحر أسرع تأثيرا في التجفيف من تأثير البرد في الجمد، فلذلك كان العمران في الإقليم الأول والثاني قليلا وفي الثالث والرابع والخامس متوسطا لاعتدال الحر بنقصان الضوء ، وفي السادس والسابع كثيرا لنقصان الحر. وإن كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد التكوين كما يفعل الحر إذ لا تجفيف فيها إلا عند الإفراط بما يعرض لها حينئذ من اليبس كما بعد السابع ؛فلهذا كان العمران في الربع الشمالي أكثر وأوفر والله أعلم.

ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه، وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهدة

والأخبار المتواترة فكيف يتم البرهان على ذلك؟ والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران فيه بالكلية إنما أداهم البرهان إلى أن فساد التكوين فيه قوي بإفراط الحر ،والعمران فيه إما ممتنع أو ممكن أقل، وهو كذلك، فإن خط الاستواء والذي وراءه وإن كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جدا .

وقد زعم ابن رشد أن خط الاستواء معتدل، وأن ما وراءه في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال ،فيعمر منه ما عمر من هذا. والذي قاله غير ممتنع من جهة فساد التكوين وإنما امتنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن العنصر المائي غمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية قابلا للتكوين، ولما امتنع المعتدل لغيبة الماء تبعه ما سواه لأن العمران مندرج ويأخذ في التدريج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع. وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيرده النقل المتواتر، والله أعلم .

ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب "زخار" ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها إلى آخره .

اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب، يسمون كل قسم منها إقليما. فانقسم المعمور من الأرض كله على هذه السبعة الأقاليم، كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله. فالأول منها مار من المغرب إلى المشرق مع خط الاستواء يحده من جهة الجنوب ،وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال وبعض عمارة إن صحت فهي لا عمارة .ويليه من جهة شمالية الإقليم الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع ،وهو آخر العمران من جهة الشمال .وليس وراء السابع إلا الخلاء والقفار إلى أن ينتهي إلى البحر المحيط كالحال فيما وراء الإقليم الأول في جهة الجنوب، إلا أن الخلاء في جهة الشمال أقل بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب. ثم إن أزمنة الليل والنهار تتفاوت في هذه الأقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن آفاقها فيتفاوت قوس الليل والنهار لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الإقليم الأول ،وذلك عند حلول الشمس برأس الجدي للّيل وبرأس السرطان

للنهار، كل واحد منهما إلى ثلاث عشرة ساعة. وكذلك في آخر الإقليم الثاني مما يلي الشمال، فينتهي طول النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان، وهو منقلبها الصيفي إلى ثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة، ومثله أطول الليل عند منقلبها الشتوي برأس الجدي، ويبقى للأقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار، وهي دورة الفلك الكاملة .وكذلك في آخر الإقليم الثالث مما يلي الشمال أيضا ينتهيان إلى أربع عشرة ساعة ،وفي آخر الرابع إلى أربع عشرة ساعة ونصف ساعة، وفي آخر الخامس إلى خمس عشرة ساعة ،وفي آخر السادس إلى خمس عشرة ساعة ونصف ،وإلى آخر السابع إلى ست عشرة ساعة. وهنالك ينقطع العمران فيكون تفاوت هذه الأقاليم في الأطول من ليلها ونهارها بنصف ساعة لكل إقليم ،يتزايد من أوله في ناحية الجنوب إلى آخره في ناحية الشمال، موزعة على أجزاء هذا البعد .

وأما عرض البلدان في هذه الأقاليم وهو عبارة عن بعد ما بين سمت رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء وبمثله سواء ينخفض القطب الجنوبي عن أفق ذلك البلد ويرتفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل.

والمتكلمون على هذه الجغرافيا قسموا كل واحد من هذه الأقاليم السبعة في طوله من المغرب إلى المشرق بعشرة أجزاء متساوية ،ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والأمصار والجبال والأنهار والمسافات بينها في المسالك.

ونحن الآن نوجز القول في ذلك ونذكر مشاهير البلدان والأنهار والبحار في كل جزء منها ،ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب "نزهة المشتاق" الذي ألفه" العلوي الإدريسي الحمودي" لملك صقلية من الإفرنج وهو" زخار بن زخار(= رُجار) عند ما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج صقلية من إمارة مالقة .و تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة، وجمع له كتبا جمة للمسعودي وابن خرداذبه والحوقلي والقدري وابن إسحاق المنجم وبطليموس وغيرهم. ونبدأ منها بالإقليم الأول إلى آخرها.

الإقليم الأول وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد، وليست في بسيط الإقليم، وإنما هي في البحر المحيط جزر متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاث . ويقال إنها معمورة . وقد بلغنا أن سفائن من الإفرنج مرت بها في أواسط هذه المائة، وقاتلوهم، فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أسراهم بسواحل المغرب الأقصى، وصاروا إلى خدمة السلطان ،فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم، وأنهم يحتفرون الأرض للزراعة بالقرون، وأن الحديد مفقود بأرضيهم، وعيشهم من الشعير، وماشيتهم المعز، وقتالهم بالحجارة ويرمونها إلى خلف، وعبادتهم السجود للشمس إذا طلعت، ولا يعرفون دينا، ولم تبلغهم دعوة. ولايوقف على مكان هذه الجزائر إلا بالعثور لا بالقصد إليها؛ لأن سفر السفن في البحر إنما هو بالرياح ومعرفة جهات مهابها وإلى أين يوصل إذا مرت على الاستقامة من البلاد التي ممر ذلك المهب، وإذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذي به القلع محاذاة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر، والبلاد التي في حافات البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود، وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها" الكنباص" وعليها يعتمدون في أسفارهم. وهذا كله مفقود في البحر المحيط فلذلك لا تلج فيه السفن ؛لأنها إن غابت عن مرأى السواحل فقلّ أن تهتدي إلى الرجوع إليها، مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الأبخرة الممانعة للسفن في مسيرها ،وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحللها، فلذلك عسر الاهتداء إليها وصعب الوقوف على خبرها.

وأما الجزء الأول من هذا الإقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه ،ويسمى نيل السودان، ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة بهلك. وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانة، وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالي من أمم السودان. وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى ،وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة

وسائر طوائف الملثمين، ومفاوز يجولون فيها .وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لملم، وهم كفار ويكتوون في وجوههم وأصداغهم ،وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب. وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلا أناسي أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفيافي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة، وربما يأكل بعضهم بعضا وليسوا في عداد البشر. وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرارين ووركلان. فكان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح. وقال صاحب كتاب" زخار" إنه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن، وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي

وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من الإقليم بلد كوكو على نهر ينبع من بعض الجبال هنالك، ويمر مغربا فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائما بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي وأصبحت في مملكته ،وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك دولة مالي.. .وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كانم من أمم السودان. وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه، وفي شرقي بلاد ونغارة وكانم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الإقليم .وفيه يمر نيل مصر ذاهبا من مبدئه عند خط الاستواء إلى البحر الرومي في الشمال ،ومخرج هذا النيل من جبل القمرالذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة إلى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه.

وفي كتاب "المشترك" لـ"ياقوت" بضم القاف وسكون الميم نسبة إلى قوم من أهل الهند، وكذا ضبطه "ابن سعيد" فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة وبينهما ستة أميال، ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال ، وينقسم ماؤهما بقسمين فيمر الغربي منه إلى بلاد السودان مغربا حتى يصب في البحر المحيط، ويخرج

الشرقي منه ذاهبا إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما، وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الإسكندرية ورشيد ودمياط ، ويصب واحد في بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الإقليم الأول. وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان .وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة، وهي في غربي هذا النيل، وبعدها علوة وبلاق، وبعدهما جبل الجنادل على ست مراحل من بلاق في الشمال، وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة، فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صبا هائلا فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد إلى فوق الجنادل. وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة،والواحات في غربيها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة .

وفي وسط هذا الإقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد يأتي من وراء خط الاستواء ذاهبا إلى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط إلى مصر، وقد وَهَم فيه كثير من الناس ،وزعموا أنه من نيل القمر. وبطليموس ذكره في كتاب" الجغرافيا" وذكر أنه ليس من هذا النيل .وإلى وسط هذا الإقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر الهند الذي يدخل من ناحية الصين ، ويغمر عامة هذا الإقليم إلى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران إلا ما كان في الجزائر التي في داخله، وهي متعددة يقال تنتهي إلى ألف جزيرة، أو فيما على سواحله من جهة الشمال ،وليس منها في هذا الإقليم الأول إلا طرف من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن .

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي إلى جهة الشمال ،وهما: بحر قلزم وبحر فارس، وفيما بينهما جزيرة العرب ،وتشتمل على بلاد اليمن ،وبلاد الشحر في شرقيها على ساحل هذا البحر الهندي، وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما إليهما ،كما نذكره في الإقليم الثاني وما بعده. فأما الذي على ساحل هذا البحر من غربيه فبلد زالع من أطراف بلاد الحبشة، ومجالات البجة في شمالي الحبشة ما بين جبل

العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم الهابط من البحر الهندي وتحت بلاد زالع من جهة الشمال ،في هذا الجزء خليج باب المندب، يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي ممتدا مع ساحل اليمن من الجنوب إلى الشمال في طول اثني عشر ميلا فيضيق البحر بسبب ذلك إلى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها ويسمى باب المندب. وعليه تمر مراكب اليمن إلى ساحل السويس قريبا من مصر. وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك. وقبالته من غربيه مجالات البجة من أمم السودان كما ذكرناه. ومن شرقيه في هذا الجزء تهائم اليمن .ومنها على ساحله بلد علي بن يعقوب. وفي جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قرى بربر يتلو بعضها بعضا . وينعطف من جنوبيه إلى آخر الجزء السادس ، ويليها هنالك من جهة شرقيها بلاد الزنج ،ثم بلاد سفالة. من ساحله الجنوبي بلاد الوقواق متصلة إلى آخر الجزء العاشر من هذا الإقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط .

وأما جزائر هذا البحر فكثيرة من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل ،وبها الجبل المشهور. يقال ليس في أرض أعلى منه، وهي قبالة سفالة. ثم جزيرة القمر، وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة الأرض سفالة وتذهب إلى الشرق منحرفة بكثير إلى أن تقرب من سواحل أعالي الصين، ويحتف بها في هذا البحر من جنوبيها جزائر الوقواق ومن شرقيها جزائر السيلان إلى جزائر أخر في هذا البحركثيرة العدد، وفيها أنواع الطيب والأفاويه. وفيها يقال معادن الذهب والزمرد ،وعامة أهلها على دين المجوسية، وفيهم ملوك متعددون.

وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا، وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الإقليم بلاد اليمن كلها .فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمعجم وتهامة اليمن، وبعدها بلد صعدة مقر الإمامة الزيدية، وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي .وفيما بعد ذلك مدينة عدن، وفي شماليها صنعاء .وبعدهما إلى المشرق أرض الأحقاف وظفار ،وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس. وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشفت عنها البحر من

أجزاء هذا الإقليم الوسطى ،وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين .ومن مدنه الشهيرة خانكو، وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان.

الإقليم الثاني، وهو متصل بالأول من جهة الشمال، وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها، وفي الجزء الأول والثاني منه في الجانب الأعلى منهما أرض قنورية وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة ثم مجالات زغاوة من السودان. وفي الجانب الأسفل منهما صحراء نستر متصلة من الغرب إلى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة. وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولمتونة ومسراتة ولمطة ووريكة .وعلى سمت هذه المفاوز شرقا أرض فزان، ثم مجالات أركار من قبائل البربر ذاهبة إلى أعالي الجزء الثالث على سمتها في الشرق. وبعدها من هذا الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية أرض وذان، وعلى سمتها شرقا أرض سنترية ،وتسمى الواحات الداخلة. وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض الباحويين .ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حافات النيل الذاهب من مبدئه في الإقليم الأول إلى مصبه في البحر، فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما: جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم من شرقيه. وعليه من أعلاه بلد أسنا وأرمنت، ويتصل كذلك حافاته إلى أسيوط وقوص ثم إلى صول، ويفترق النيل هنالك على شعبين ينتهي الأيمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون والأيسر عند دلاص، وفيما بينهما أعالي ديار مصر. وفي الشرق من جبل المقطم صحارى عيذاب ذاهبة في الجزء الخامس إلى أن تنتهي إلى بحر السويس، وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب إلى جهة الشمال. وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يلملم إلى بلاد يثرب .في وسط الحجاز مكة شرفها الله. وفي ساحلها مدينة جدة تقابل بلد عيذاب في العدوة الغربية من هذا البحر .

وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في الجنوب وتبالة وجرش إلى عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذا الجزء بقية أرض الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر

،وتحتها أرض اليمامة. وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبأ ومأرب، ثم أرض الشحر .وينتهي إلى بحر فارس، وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي وإلى الشمال كما مر. ويذهب في هذا الجزء بانحراف إلى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة عليها من أعلاه مدينة قلهات وهي ساحل الشحر ثم تحتها على ساحله بلاد عمان ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء .

وفي الجزء السابع في الأعلى: من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الأخرى في السادس ،ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله، وعليه هنالك بلاد السند إلى بلاد مكران ويقابلها بلاد الطوبران، وهي من السند أيضا فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء، وتحول المفاوز بينه وبين أرض الهند .ويمر فيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندي في الجنوب .وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها شرقا بلاد بلهر وتحتهما في الجانب الأسفل أرض كابل، وبعدها شرقا إلى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الإقليم .وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه إلى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه إلى العاشر. وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون.ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله إلى البحر المحيط.

الإقليم الثالث، وهو متصل بالثاني من جهة الشمال. ففي الجزء الأول منه وعلى نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط إلى الشرق عند آخره، ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم إلا خالقهم ...وفي القطعة التي بين هذا الجبل والإقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط مماسة ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول، وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سجلماسة ثم قطعة من صحراء نستر المفازة التي ذكرناها في الإقليم الثاني. وهذا الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية إلى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه إلى أن ينتهي. وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتانة ثم تينملك ثم كدميوه ثم مشكورة،

وهم آخر المصامدة فيه ،ثم قبائل صنهاكة وهم صنهاجة .وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل زناتة. ويتصل به هنالك من جوفيه جبل أوراس ،وهو جبل كتامة. وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة.

ثم إن جبل درن هذا من جهة غربيه مطل على بلاد المغرب الأقصى، وهي في جوفيه ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش وأغمات وتادلا، وعلى البحر المحيط منها رباط أسفى ومدينة سلا، وفي الجوف عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة .وهذه هي التي تسمى المغرب الأقصى في عرف أهلها .وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان أصيلا والعرايش .وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد المغرب الأوسط ،وقاعدتها تلمسان. وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر ،لأن هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الإقليم الرابع ويذهب مشرقا فينتهي إلى بلاد الشام ، فإذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوبا وشمالا فدخل في الإقليم الثالث والخامس ،فلهذا كان على ساحله من هذا الإقليم الثالث الكثير من بلاده ،ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية في ساحل البحر، ثم قسطنطينية في الشرق منها .

وفي آخر الجزء الأول،وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوبي هذه البلاد ومرتفعا إلى جنوب المغرب الأوسط، بلد أشير ثم بلد المسيلة ثم الزاب ،وقاعدته بسكرة تحت جبل أوراس المتصل بدرن كما مر ،وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق. والجزء الثاني من هذا الإقليم على هيئة الجزء الأول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهبا فيه من غرب إلى شرق فيقسمه بقطعتين، ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله، فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كله مفاوز وفي الشرق منها بلد غدامس وفي سمتها شرقا أرض ودان التي بقيتها في الإقليم الثاني كما مر والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس وتبسة والأوبس. وعلى ساحل البحر بلد بونة ،ثم في سمت هذه البلاد شرقا بلاد إفريقية. فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم السوسة ثم المهدية. وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد :توزر وقفصة ونفزاوة. وفيما بينها وبين

السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيطلة. وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقا بلد طرابلس على البحر الرومي .وبإزائها في الجنوب جبل دمر ونقرة من قبائل هوارة متصلة بجبل درن. وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية.وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر. وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان .

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم يمر أيضا فيه جبل درن إلا أنه ينعطف عند آخره إلى الشمال، ويذهب على سمته إلى أن يدخل في البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أوثان. والبحر الرومي من شماليه يغمر طائفة منه إلى أن يضايق ما بينه وبين جبل درن، فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار إلى آخر الجزء في الشرق. وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب، ثم أجدابية ،ثم برقة عند منعطف الجبل، ثم طلمسة على البحر هنالك، ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب، ورواحة إلى آخر الجزء .

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم ،وفي الأعلى من غربيه ،صحارى برقيق. وأسفل منها بلاد هيب، ورواحة. ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء، فيغمر طائفة منه إلى الجنوب حتى يزاحم طرفه الأعلى ،ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار تجول فيها العرب. وعلى سمتها شرقا بلاد الفيوم وهي على مصب أحد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الإقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم .وعلى سمته شرقا أرض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني. ويفترق هذا الشعب افتراقه ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شطنوف وزفتي، وينقسم الأيمن منهما من قرمط بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي ، فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الإسكندرية، وعلى مصب الوسط بلد رشيد، وعلى مصب الشرقي بلد دمياط. وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية أسافل الديار المصرية، كلها محشوة عمرانا وفلجا .وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم بلاد الشام

وأكثرها على ما أصف، وذلك لأن بحر القلزم ينتهي من الجنوب، وفي الغرب منه عند السويس لأنه في ممره مبتدىء من البحر الهندي إلى الشمال ينعطف آخذا إلى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه.

في هذا الجزء طويلة فينتهي في الطرف الغربي منه إلى السويس، وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل الطور ثم أيلة مدين ثم الحوراء في آخرها.ومن هنالك ينعطف بساحله إلى الجنوب في أرض الحجاز كما مر في الإقليم الثاني في الجزء الخامس منه ،وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيرا من غربيه عليها الفرما والعريش وقارب طرفها بلد القلزم فيضايق ما بينهما من هنالك وبقي شبه الباب مفضيا إلى أرض الشام .وفي غربي هذا الباب فحص التيه أرض جرداء لا تنبت كانت مجالا لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم إلى الشام أربعين سنة ،كما قصه القرآن. وفي هذه القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الإقليم الرابع كما نذكره. وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتضايق لبحر السويس بلد العريش، وهو آخر الديار المصرية وعسقلان، وبينهما طرف هذا البحر ثم تنحط هذه القطعة في انعطافها من هنالك إلى الإقليم الرابع عند طرابلس وغزة، وهنالك ينتهي البحر الرومي في جهة الشرق. وعلى هذه القطعة أكثر سواحل الشام: ففي شرقه غزة ثم عسقلان وبانحراف يسير عنها إلى الشمال بلد قيسارية ،ثم كذلك بلد عكا ،ثم صور ،ثم صيداء، ثم ينعطف البحر إلى الشمال في الإقليم الرابع ،ويقابل هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة .

في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل أيلة من بحر القلزم ويذهب في ناحية الشمال منحرفا إلى الشرق إلى أن يجاوز هذا الجزء، ويسمى جبل اللكام، وكأنه حاجز بين أرض مصر والشام. ففي طرفه عند أيلة العقبة التي يمر عليها الحجاج من مصر إلى مكة، ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة والسلام عند جبل السراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ذاهبا على سمت الشرق ثم ينعطف قليلا ،وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيماء ودومة الجندل، وهي أسافل الحجاز وفوقها جبل رضوى

وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم صحراء تبوك .وفي شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللكام ،ثم الأردن ،ثم طبرية .وفي شرقيها بلاد الغور إلى أذرعات، وفي سمتها شرقا دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز.

وعند منعطف جبل اللكام إلى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية ،وجبل اللكام يعترض بينها وبينها وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بعلبك ثم مدينة حمص في الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللكام. وفي الشرق عن بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية إلى آخر الجزء.

وفي الجزء السادس من أعلاه مجالات الأعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصمان إلى البحرين وهجر على بحر فارس، وفي أسافل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة والقادسية ومغايض الفرات، وفيما بعدها شرقا مدينة البصرة. وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عبادان والأبلة من أسافل الجزء من شماله، ويصب فيه عند عبادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بجداول كثيرة، وتختلط به جداول أخرى من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس. وهذه القطعة من البحر متسعة في أعلاه متضايقة في آخره في شرقيه وضيقة عند منتهاه مضايقة للحد الشمالي منه وعلى عدوتها الغربية منه أسافل البحرين وهجر الأحساء، وفي غربها أخطب والصمان، وبقية أرض اليمامة، وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من أعلاها، وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتد من هذا البحر مشرقا ووراءه إلى الجنوب في هذا الجزء جبال القفص من كرمان،وتحت هرمز بلاد فارس مثل سابور ودارأبجرد ونسا وإصطخر والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها وتحت بلاد فارس إلى الشمال عند طرف البحر بلاد خوزستان ومنها: الأهواز وتستر وصدى وسابور والسوس ورام هرمز وغيرها، وأرجان وهي حد ما بين فارس وخوزستان جبال الأكراد متصلة إلى نواحي أصبهان، وبها مساكنهم ومجالاتهم وراءها في أرض فارس وتسمى الرسوم.

وفي الجزء السابع في الأعلى منه من المغرب بقية جبال القفص، ويليها من الجنوب

والشمال بلاد كرمان ومكران. ومن مدنها: الرودن والشيرحان وجيرفت ويزدشير والبهرج. وتحت أرض كرمان إلى الشمال بقية بلاد فارس إلى حدود أصبهان، ومدينة أصبهان في طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله ،ثم في المشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس أرض سجستان وكوهستان في الجنوب، وأرض كوهستان في الشمال غربا ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان، وفي وسط هذا الجزء المفاوز العظمى القليلة المسالك لصعوبتها. ومن مدن سجستان بست والطاق وأما كوهستان فهي من بلاد خراسان، ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء .

وفي الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات الجلح من أمم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وبأرض كابل الهند من جنوبها. وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فرضة الهند .وفي آخر الغور من الشمال بلاد أستراباذ، ثم في الشمال غربا إلى آخر الجزء بلاد هرات أوسط خراسان وبها أسفراين وقاشان وبوشنج ومرو الروذ والطالقان والجورجان. وتنتهي خراسان هنالك إلى نهر جيحون، وعلى هذا النهر من بلاد خراسان من غربيه مدينة بلخ،وفي شرقيه مدينة ترمذ، ومدينة بلخ كانت كرسي مملكة الترك، وهذا النهر نهر جيحون مخرجه من بلاد وجار في حدود بدخشان مما يلي الهند ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغربا إلى وسط الجزء ويسمى هنالك نهر خرناب،ثم ينعطف إلى الشمال حتى يمر بخراسان ويذهب على سمته إلى أن يصب في بحيرة خوارزم في الإقليم الخامس كما نذكره .ويمده عند انعطافه في وسط الجزء من الجنوب إلى الشمال خمسة أنهار عظيمة من بلاد الختل والوخش من شرقيه وأنهار أخرى من جبال البتم من شرقيه أيضا وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بما لا كناه له .ومن هذه الأنهار الخمسة الممدة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغربا بانحراف إلى الشمال إلى أن يخرج إلى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء يعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب، في هذا الجزء مشرقا بانحراف إلى الشمال إلى أن يخرج إلى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء فيجوز بلاد التبت إلى

القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء ويحول بين الترك وبين بلاد الختل وليس فيه إلا مسلك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سدا وبنى فيه بابا كسد يأجوج ومأجوج فإذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعيد إلى أن يمر في بلاد الوخش، ويصب في نهر جيحون عند حدود بلخ ،ثم يمر هابطا إلى الترمذ في الشمال إلى بلاد الجوزجان. وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد الناسان من خراسان وفي العدوة الشرقية هنالك من النهر بلاد الختل وأكثرها جبال وبلاد الوخش ،ويحدها من جهة الشمال جبال البتم تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقة إلى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت، ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه، فيتصل عند باب الفضل بن يحيى ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وأنهار أخرى تصب فيه منها نهر بلاد الوخش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ إلى جهة الشمال ونهر بلخ يخرج من جبال البتم مبدؤه عند الجوزجان ويصب فيه من غربيه وعلى هذا النهر من غربيه بلاد آمد من خراسان وفي شرقي النهر من هنالك أرض الصغد وأسر وشنة من بلاد الترك وفي شرقها أرض فرغانة أيضا إلى آخر الجزء شرقا وكل بلاد الترك تحوزها جبال البتم إلى شمالها.

وفي الجزء التاسع من غربه أرض التبت إلى وسط الجزء وفي جنوبيها بلاد الهند ،وفي شرقيها بلاد الصين إلى آخر الجزء ،وفي أسفل هذا الجزء شمالا عن بلاد التبت بلاد الخزلجية من بلاد الترك إلى آخر الجزء شرقا وشمالا ،ويتصل بها من غربيها أرض فرغانة أيضا إلى آخر الجزء شرقا، ومن شرقيها أرض التغرغر من الترك إلى الجزء شرقا وشمالا .

وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعا بقية الصين وأسافله وفي الشمال بقية بلاد التغرغر ثم شرقا عنهم بلاد خرخير من الترك أيضا إلى آخر الجزء شرقا. وفي الشمال من أرض خرخير بلاد كشمان من الترك وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه إليها ولا مسلك والصعود إلى أعلاه من خارجه صعب في الغاية، وفي الجزيرة حيات قتالة وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال أهل تلك الناحية بما يلهمهم الله إليه

وأهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها مجالات للترك أمم لا تحصى وهم ظواعن رحالة أهل إبل وشاه وبقر وخيل للنتاج والركوب والأكل ، وطوائفهم كثيرة لا يحصيهم إلا خالقهم ،وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيحون ، ويغزون الكفار منهم الدائنين بالمجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون إلى بلاد خراسان والهند والعراق .

الإقليم الرابع يتصل بالثالث من جهة الشمال والجزء الأول منه في غربيه قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوبا إلى آخره شمالا وعليها في الجنوب مدينة طنجة ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط إلى البحر الرومي في خليج متضايق بمقدار اثني عشر ميلا ما بين طريف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر المجاز وسبتة جنوبا ،ويذهب مشرقا إلى أن ينتهي إلى وسط الجزء الخامس من هذا الإقليم وينفسح في ذهابه بتدريج إلى أن يغمر الأربعة الأجزاء وأكثر الخامس من هذا الإقليم الثالث والخامس كما سنذكره .ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضا، وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم مايرقة (=مايوركا) ثم منرقة (=ماينوركا) ثم سردانية ثم صقلية، وهي أعظمها ،ثم بلونس ثم أقريطش ثم قبرص .كما نذكرها كلها في أجزائها التي وقعت فيها ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه .

وفي الجزء الثالث من الإقليم الخامس خليج البنادقة يذهب إلى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفه ويمر مغربا إلى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس، ويخرج منه أيضا في آخر الجزء الرابع شرقا من الإقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال متضايقا في عرض رمية السهم إلى آخر الإقليم ثم يفضي إلى الجزء الرابع من الإقليم السادس وينعطف إلى في بحر نيطش ذاهبا إلى الشرق في الجزء الخامس كله، ونصف السادس من الإقليم السادس كما نذكر ذلك في أماكنه، وعندما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح إلى الإقليم الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين، وبعدها مدينة سبتة على البحر الرومي

ثم قطاون ثم باديس، ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقا ويخرج إلى الثالث. وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه ،وهي كلها بلاد الأندلس الغربية منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي، أولها طريف عند مجمع البحرين، وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنقب ثم المرية ،وتحت هذه من لدن البحر المحيط غربا وعلى مقربة منه شريش ثم لبلة ،وقبالتها فيه جزيرة قادس، وفي الشرق عن شريش ولبلة إشبيلية ثم أستجة وقرطبة ومديلة ثم غرناطة وجيان وأبدة ثم وادي آش وبسطة،وتحت هذه شنتمرية وشلب على البحر المحيط غربا. وفي الشرق عنهما بطليوس وماردة ويابرة ثم غافق وبزجالة ثم قلعة رياح .وتحت هذه أشبونة على البحر المحيط غربا وعلى نهر باجة ،وفي الشرق عنها شنترين وموزية على النهر المذكور، ثم قنطرة السيف .ويسامت أشبونة من جهة الشرق جبل الشارات، يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقا مع آخر الجزء من شماليه فينتهي إلى مدينة سالم فيما بعد النصف منه وتحت هذا الجبل طلبيرة في الشرق من فورنة ثم طليطلة ثم وادي الحجارة ثم مدينة سالم ،وعند أول هذا الجبل فيما بينه وبين أشبونة بلد قلمرية وهذه غربي الأندلس وأما شرقي الأندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قرطاجنة ثم لقنة ثم دانية ثم بلنسية إلى طرطوشة آخر الجزء في الشرق وتحتها شمالا ليورقة وشقورة تتاخمان بسطة وقلعة رياح من غرب الأندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة تحت بلنسية شمالا ثم شقر ثم طرطوشة ثم طركونة آخر الجزء، ثم تحت هذه شمالا أرض منجالة وريدة متاخمان لشقورة وطليطلة من الغرب، ثم أفراغة شرقا تحت طرطوشة وشمالا عنها ،ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب، ثم سرقسطة ،ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا .

والجزء الثاني من هذا الإقليم غمر الماء جميعه إلا قطعة من غربيه في الشمال فيها بقية جبل البرنات ومعناه جبل الثنايا، والسالك يخرج إليه من آخر الجزء الأول من الإقليم الخامس يبدأ من الطرف المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويمر في الجنوب بانحراف إلى الشرق فيخرج في هذا الإقليم الرابع منحرفا عن الجزء الأول منه إلى هذا الجزء

الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثناياها إلى البر المتصل ،وتسمى أرض غشكونية ،وفيه مدينة خريدة وقرقشونة. وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برسلونة ثم أربونة. وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها ففي غربيه جزيرة سردانية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الأقطار يقال إن دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلرم وطرابغة ومازر ومسيني .وهذه الجزيرة تقابل أرض إفريقية وفيما بينهما جزيرة أعدوش ومالطة .

والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أيضا بالبحر إلا ثلاث قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قلورية والوسطى من أرض أبكيردة والشرقية من بلاد البنادقة .

والجزء الرابع من هذا الإقليم مغمور أيضا بالبحر كما مر، وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث،والمغمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية الشمالية، وجزيرة أقريطش مستطيلة من وسط الجزء إلى ما بين الجنوب والشرق منه .

والجزء الخامس من هذا الإقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها إلى آخر الجزء في الشمال،وينتهي الضلع الجنوبي منها إلى نحو الثلثين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها إلى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه .وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام ويمر في وسطها جبل اللكام إلى أن ينتهي إلى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهبا إلى القطرالشرقي الشمالي ،ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة ،ومن هنالك يخرج إلى الإقليم الخامس، ويجوز من عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة إلى جهة الشرق ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض إلى أن ينتهي إلى طرف خارج من البحر الرومي متأخر إلى آخر الجزء من الشمال وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضي إلى بلاد الأرمن، وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا أن فيها أسافل الشام وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب إلى الشمال فعلى ساحل البحر بلد أنطرطوس(طرطوس) في أول الجزء من الجنوب متاخمة

لغزة وطرابلس على ساحله من الإقليم الثالث وفي شمال أنطرطوس(طرطوس) جبلة ثم اللاذقية ثم إسكندرونة ثم سلوقية وبعدها شمالا بلاد الروم وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحافاته فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوبا من غربيه حصن الحواني وهو للحشيشة الإسماعيلية ،ويعرفون لهذا العهد بالفداوية ،ويسمى مصياف وهو قبالة أنطرطوس وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سَلمية في الشمال عن حمص، وفي الشمال وفي مصياف بين الجبل والبحر بلد أنطاكية ويقابلها في شرق الجبل المعرة وفي شرقها المراغة وفي شمال أنطاكية المصيصة، ثم أذنة ثم طرسوس آخر الشام، ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة وقبالة قنسرين في شرق الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام .

وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركمان، وسلطانها ابن عثمان. وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية والعلايا. وأما بلاد الأرمن التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة إلى آخر الجزء الشمالي. ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الأرمن نهر جيحان ونهر سيحان في شرقيه فيمر بها جيحان جنوبا حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينعطف هابطا إلى الشمال ومغربا حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية ،ويمر نهر سيحان موازيا لنهر جيحان فيحاذي المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب إلى أرض الشام ثم يمر بعين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف إلى الشمال مغربا فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة ومن غربها وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللكام إلى جبل السلسلة ففي جنوبها بلد الرافضة والرقة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وآمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضا آخر الجزء من شرقيه. ويمر في وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الإقليم الخامس ويمران في بلاد الأرمن جنوبا إلى أن يتجاوزا جبل السلسلة فيمر نهر الفرات من غربي سميساط وسروج وينحرف إلى الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقة ويخرج إلى الجزء السادس ويمر دجلة في شرق آمد وينعطف قريبا

إلى الشرق فيخرج قريبا إلى الجزء السادس .

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم من غربيه بلاد الجزيرة، وفي الشرق منها بلاد العراق متصلة بها تنتهي في الشرق إلى قرب آخر الجزء ،ويعترض من آخر العراق هنالك جبل أصبهان هابطا من جنوب الجزء منحرفا إلى الغرب فإذا انتهى إلى وسط الجزء من آخره في الشمال يذهب مغربا إلى أن يخرج من الجزء السادس ويتصل على سمته بجبل السلسلة في الجزء الخامس فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية، ففي الغربية من جنوبيها مخرج الفرات من الخامس وفي شماليها مخرج دجلة منه .أما الفرات فأول ما يخرج إلى السادس يمر بقرقيسيا ويخرج من هنالك جدول إلى الشمال ينساب في أرض الجزيرة ويغوص في نواحيها ويمر من قرقيسيا غير بعيد ثم ينعطف إلى الجنوب فيمر بقرب الخابور إلى غرب الرحبة ويخرج منه جداول من هنالك يمر جنوبا ويبقى صفين في غربيه ،ثم ينعطف شرقا وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هبيرة وبالجامعين وتخرج جميعا في جنوب الجزء إلى الإقليم الثالث فيغوص هنالك في شرق الحيرة والقادسية، ويخرج الفرات من الرحبة مشرقا على سمته إلى هيت من شمالها يمر إلى الزاب والأنبار من جنوبهما ثم يصب في دجلة عند بغداد، وأما نهر دجلة فإذا دخل من الجزء الخامس إلى هذا الجزء يمر بجزيرة ابن عمر على شمالها، ثم بالموصل كذلك وتكريت، وينتهي إلى الحديثة فينعطف جنوبا وتبقى الحديثة في شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك ويمر على سمته جنوبا وفي غرب القادسية إلى أن ينتهي إلى بغداد ،ويختلط بالفرات ثم يمر جنوبا على غرب جرجرايا إلى أن يخرج من الجزء إلى الإقليم الثالث، فتنتشر هنالك شعوبه وجداوله ثم يجتمع ويصب هنالك في بحر فارس عند عبادان. وفيما بين نهر الدجلة والفرات قبل مجمعهما ببغداد هي بلاد الجزيرة ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقته ببغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه وينتهي إلى بلاد النهروان قبالة بغداد شرقا ثم ينعطف جنوبا ويختلط بدجلة قبل خروجه إلى الإقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والأعاجم بلد جلولاء، وفي شرقها عند الجبل بلد حلوان وصيمرة.

وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ من جبل الأعاجم مشرقا إلى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور ويقسمها بقطعتين في الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خونجان من الغرب والشمال عن أصبهان ،وتسمى هذه القطعة بلد الهلوس وفي وسطها بلد نهاوند وفي شمالها بلد شهرزور غربا عند ملتقى الجبلين والدينور شرقا عند آخر الجزء، وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد أرمينية قاعدتها المراغة والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مساكن للأكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه. وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد أذربيجان ومنها تبريز والبيدقان. وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطش وهو بحر الخزر.

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس ،وفيها همذان وقزوين وبقيتها في الإقليم الثالث، وفيها هنالك أصبهان، ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالإقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس إلى الإقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك ،وإنه محيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية ويهبط هذا الجبل المحيط بأصبهان من الإقليم الثالث إلى جهة الشمال ويخرج إلى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها. وتحته هنالك قاشان ثم قم، وينعطف في قرب النصف من طريقه مغربا بعض الشيء ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقا ومنحرفا إلى الشمال حتى يخرج إلى الإقليم الخامس ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقيه ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غربا إلى آخر هذا الجزء ومن جنوبه من هنالك قزوين، ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهبا إلى الشرق والشمال إلى وسط الجزء ثم إلى الإقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان ويدخل من الإقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه إلى شرقه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه إلى الغرب جبل متصل يمر على سمته مشرقا وبانحراف قليل إلى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة

التي بين فارس وخراسان، وهي في شرقي قاشان. وفي آخرها عند هذا الجبل بلد أستراباذ وحافات هذا الجبل من شرقيه إلى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان. ففي جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ثم مرو الشاهجان آخر الجزء. وفي شماله وشرقي جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقا، وكل هذا تحت الجبل. وفي الشمال عنها بلاد نساو يحيط بها عند زاوية الجزئين الشمال والشرق مفاوز معطلة.

وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهبا من الجنوب إلى الشمال ففي عدوته الغربية رم وآمل من بلاد خراسان والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل أستراباذ المعترض في الجزء السابع قبله ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك. وفي شرقي نهر جيجون من هذا الجزء، وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ثم سردارا وأشنه ومنها خجندة آخر الجزء شرقا وفي الشمال عن سمر قند وسرداد وأشنه أرض إيلاق ثم في الشمال عن إيلاق أرض الشاش إلى آخر الجزء شرقا ويأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضا في الجزء الثامن إلى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله إلى الإقليم الخامس ،ويختلط معه في أرض إيلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الإقليم الثالث من تخوم بلاد التبت ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة. وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبدأ من الإقليم الخامس وينعطف شرقا ومنحرفا إلى الجنوب حتى يخرج إلى الجزء التاسع محيطا بأرض الشاش ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك إلى جنوبه فيدخل في الإقليم الثالث، وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط هذا الجزء بلاد فاراب وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خجندة وفيها بلد إسبيجاب وطراز.

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخزلجية في

الجنوب، وأرض الخليجة في الشمال، وفي شرق الجزء كله أرض الكيماكية ويتصل في الجزء العاشر كله إلى جبل قوقيا آخر الجزء شرقا وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك وهو جبل يأجوج ومأجوج ،وهذه الأمم كلها من شعوب الترك.

الإقليم الخامس الجزء الأول منه أكثره مغمور بالماء إلا قليلا من جنوبه وشرقه لأن البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الإقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالإقليم، فأما المتكشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث متصلة من هنالك بالأندلس وعليها بقيتها ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث ففيها من بقية غرب الأندلس سعيور على البحر عند أول الجزء من الجنوب والغرب وسلمنكة شرقا عنها ،وفي جوفها سمورة ،وفي الشرق عن سلمنكة أيلة آخر الجنوب وأرض قستالية شرقا عنها، وفيها مدينة شقونية. وفي شمالها أرض ليون وبرغشت ثم وراءها في الشمال أرض جليقية(=إقليم الباسك) إلى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلد شنتياقو ومعناه يعقوب، وفيها من شرق بلاد الأندلس مدينة شطلية عند آخر الجزء في الجنوب وشرقا عن قستالية، وفي شمالها وشرقها وشقة وبنبلونة على سمتها شرقا وشمالا وفي غرب بنبلونة قسطالة ثم ناجزة فيما بينها وبين برغشت ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذ للبحر وللضلع الشمالي الشرقي منه وعلى قرب ويتصل به وبطرف البحر عند بنبلونة في جهة الشرق الذي ذكرنا من قبل أنه يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الإقليم الرابع ويصير حجرا على بلاد الأندلس من جهة الشرق وثناياه لها أبواب تفضي إلى بلاد غشكونية من أمم الفرنج فمنها من الإقليم الرابع برشلونة وأربونة على ساحل البحر الرومي وخريدة وقرقشونة وراءهما في الشمال ومنها من الإقليم الخامس طلوشة شمالا عن خريدة ،وأما المنكشف في هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء البرنات شرقا وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل البرنات بلد نيونة وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء أرض بنطو من الفرنج إلى آخر الجزء .

وفي الجزء الثاني من الناحية الغربية منه أرض غشكونية وفي شمالها أرض بنطو وبرغشت وقد ذكرناهما ،وفي شرق بلاد غشكونية في شمالها قطعة أرض من البحر الرومي، دخلت في هذا الجزء كالضرس مائلة إلى الشرق قليلا وصارت بلاد غشكونية في غربها داخلة في جون من البحر، وعلى رأس هذه القطعة شمالا بلاد جنوة، وعلى سمتها في الشمال جبل نيت جون وفي شماله وعلى سمته أرض برغونة، وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف آخر خارج منه يبقى بينهما جون داخل من البر في البحر في غربيه نيش، وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسي ملك الإفرنجة ومسكن البابا بطركهم الأعظم ،وفيها من المباني الضخمة والهياكل الهائلة والكنائس العادية ما هو معروف الأخبار. ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من المشرق إلى المغرب مفروش قاعه ببلاط النحاس، وفيها كنيسة بطرس وبولس من الحواريين، وهما مدفونان بها وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد أقرنصيصة إلى آخر الجزء. وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد نابل في الجانب الشرقي منه متصلة ببلد قلورية(=كلاباريا) من بلاد الفرنج ،وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغربا ومحاذيا للشمال من هذا الجزء وانتهى إلى نحو الثلث منه وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين البحر المحيط ومن شماله بلاد إنكلاية في الإقليم السادس .

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي، يحيط بها من شرقيه يصل من برها في الإقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال إلى هذا الجزء في شرقي بلاد قلورية بلاد أنكبردة(=لومبارديا) في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي، ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الإقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهبا إلى سمت الشمال ثم ينعطف إلى الغرب محاذيا لآخر الجزء الشمالي، ويخرج على سمته من الإقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه إلى الشمال ثم يغرب معه في الإقليم السادس إلى أن ينتهي قبالة خليج في شماليه في بلاد إنكلاية من أمم

اللمانيين كما نذكر. وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما داما ذاهبين إلى الشمال بلاد البنادقة ،فإذا ذهبا إلى المغرب فبينهما بلاد حروايا ثم بلاد الألمانيين عند طرف الخليج .

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم قطعة من البحر الرومي خرجت إليه من الإقليم الرابع مضرسة كلها بقطع من البحر ويخرج منها إلى الشمال وبين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما ،وفي آخر الجزء شرقا قطع من البحر ويخرج منها إلى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي، ويذهب على سمت الشمال إلى أن يدخل في الإقليم السادس وينعطف من هنالك عن قرب مشرقا إلى بحر نيطش في الجزء الخامس، وبعض الرابع قبيله والسادس بعده من الإقليم السادس كما نذكر. وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال ،وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القياصرة، وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الأحاديث، والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين، ومنها ابتداء ملكهم. وفي شرقي هذا الخليج إلى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس ،وأظنها لهذا العهد مجالات للتركمان وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بها برصة، وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الأمم إلى أن صارت للتركمان .

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم من غربيه وجنوبيه أرض باطوس ،وفي الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد عمورية ،وفي شرقي عمورية نهر قباقب الذي يمد الفرات ويخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء إلى ممره في الإقليم الرابع، وهنالك في غربيه آخر الجزء في مبدأ نهر سيحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبين على سمته وقد مر ذكرهما. وفي شرقه هنالك مبدأ نهر دجلة الذاهب على سمته ، وفي مؤازرته حتى يخالطه عند بغداد .وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميافارقين ونهر قباقب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين إحداهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه ،وأسافلها إلى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قباقب أرض عمورية كما قلناه. والقطعة الثانية شرقية شمالية على

الثلث في الجنوب منها مبدأ دجلة والفرات .وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقب، وهي عريضة. وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد خرشنة .وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية .

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم في جنوبه وغربه بلاد أرمينية متصلة إلى أن يتجاوز وسط الجزء إلى جانب الشرق، وفيها بلدان أردن في الجنوب والغرب وفي شمالها تفليس ودبيل، وفي شرق أردن مدينة خلاط ثم بردعة في جنوبها بانحراف إلى الشرق مدينة أرمينية، ومن هنالك مخرج بلاد أرمينية إلى الإقليم الرابع ،وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الأكراد المسمى بأرمى وقد مر ذكره في الجزء السادس منه ويتاخم بلاد أرمينية. في هذا الجزء وفي الإقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان وآخرها في هذا الجزء شرقا بلاد أردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر طبرستان، وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان. ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب إلى الجزء الخامس فتمر فيه منعطفة ومحيطة ببلد ميافارقين ويخرج إلى الإقليم الرابع عند آمد ،ويتصل بجبل السلسلة في أسافل الشام ومن هنالك يتصل بجبل اللكام كما مر، وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثنايا كالأبواب تفضي من الجانبين ففي جنوبيها بلاد الأبواب متصلة في الشرق إلى بحر طبرستان، وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية جنوبيها ببلد أرمينية وبينهما في الشرق وبين بلاد أذربيجان الجنوبية بلاد الزاب متصلة إلى بحر طبرستان ،وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السرير، في الزاوية الغربية الشمالية منها وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضا من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية، وقد مر ذكره. ويحف بهذه القطعة من نيطش بلاد السرير وعليها منها بلد أطرابزيدة، وتتصل بلاد السرير بين جبل الأبواب والجهة الشمالية من الجزء إلى أن ينتهي شرقا إلى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر، وعند آخرها مدينة صول، ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر تنتهي

إلى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالا .

والجزء السابع من هذا الإقليم غربيه كله مغمور ببحر طبرستان، وخرج من جنوبه في الإقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم إلى قزوين، وفي غربي تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الإقليم الرابع، ويتصل بها من شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقه أيضا. وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر أثل(=الفولغا) في هذا البحر. ويبقى من هذا الجزء في ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هي مجالات للغزّ من أمم الترك يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب إلى ما دون وسطه فينعطف إلى الشمال إلى أن يلاقي بحر طبرستان فيحتف به ذاهبا معه إلى بقيته في الإقليم السادس ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياه ،ويذهب مغربا إلى الجزء السادس من الإقليم السادس ثم يرجع جنوبا إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس ،وهذا الطرف منه، وهو الذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السرير وأرض الخزر واتصلت بأرض الخزر في الجزء السادس والسابع حافات هذا الجبل المسمى جبل سياه ،كما سيأتي .

والجزء الثامن من هذا الإقليم الخامس كله مجالات للغزّ من أمم الترك ،وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون دورها ثلاثمائة ميل ويصب فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات، وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون دورها أربعمائة ميل وماؤها حلو .وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار، ومعناه جبل الثلج لأنه لا يذوب فيه وهو متصل بآخر الجزء. وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيئا يسمى عرعون، وبه سميت البحيرة، وينجلب منه ومن جبل مرغار شمالي البحيرة أنهار لا تنحصر عدتها فتصب فيها من الجانبين .

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم بلاد أركس من أمم الترك في غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيماكية، ويحف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج يعترض هنالك من الجنوب إلى الشمال حتى ينعطف أول دخوله من الجزء العاشر، وقد كان دخل

إليه من آخر الجزء العاشر من الإقليم الرابع قبله واحتف هنالك بالبحر المحيط إلى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف مغربا في الجزء العاشر من الإقليم الرابع إلى ما دون نصفه وأحاط من أوله إلى هنا ببلاد الكيماكية ثم خرج إلى الجزء العاشر من الإقليم الخامس فذهب فيه مغربا إلى آخره ،وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة إلى الغرب قبل آخر بلاد الكيماكية، ثم خرج إلى الجزء التاسع في شرقيه ،وفي الأعلى منه وانعطف قريبا إلى الشمال وذهب على سمته إلى الجزء التاسع من الإقليم السادس، وفيه السد هنالك كما نذكره، وبقيت منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقيا عند الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة إلى الجنوب، وهي من بلاد يأجوج ومأجوج .

وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم أرض يأجوج، متصلة فيه كله إلا قطعة من البحر غمرت طرفا في شرقيه من جنوبه إلى شماله إلا القطعة التي يفصلها إلى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مر فيه، نذكرهم في أماكنهم وما سوى ذلك فأرض يأجوج ومأجوج والله سبحانه وتعالى أعلم .

الإقليم السادس فالجزء الأول منه غمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقا مع الناحية الشمالية، ثم ذهب مع الناحية الشرقية إلى الجنوب وانتهى قريبا من الناحية الجنوبية فانكشف قطعة من هذه الأرض في هذا الجزء داخلة بين الطرفين ،وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولا وعرضا، وهي كلها أرض بريطانية(= إقليم بريتاني في فرنسا) وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صاقس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الأول والثاني من الإقليم الخامس.

والجزء الثاني من هذا الإقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه قطعة مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانية في الجزء الأول، واتصلت بها القطعة الأخرى في الشمال من غربه إلى شرقه وانفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء ،وفيه هنالك قطعة من جزيرة إنكلترا ، وهي جزيرة عظيمة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الإقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا

الجزء بلاد أرمندية(=نورماندي) وبلاد أفلادش متصلين بها ثم بلاد إفرنسية جنوبا وغربا من هذا الجزء، وبلاد برغونية شرقا عنها وكلها لأمم الإفرنجة وبلاد الليمانيين في النصف الشرقي من الجزء فجنوبه بلاد أنكلاية ثم بلاد برغونية شمالا ثم أرض لهويكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض أفريرة وكلها لأمم اللمانيين.

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في الناحية الغربية بلاد مراتية في الجنوب ،وبلاد شطونية في الشمال ،وفي الناحية الشرقية بلاد أنكوية في الجنوب وبلاد بلونية(=بولونيا) في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخلا من الجزء الرابع ،ويمر مغربا بانحراف إلى الشمال إلى أن يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي.

وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جثولية، وتحتها في الشمال بلاد الروسية، ويفصل بينهما جبل بلواط من أول الجزء غربا إلى أن يقف في النصف الشرقي .وفي شرق أرض جثولية بلاد جرمانية. وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطش فيقع قطيعة من بحر نيطش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء ويمدها الخليج وبينهما في الزاوية بلد مسيناه.

وفي الجزء الخامس من الإقليم السادس ،ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ويخرج من سمته مشرقا فيمر في هذا الجزء كله، وفي بعض السادس على طول ألف وثلاثمائة ميل من مبدئه في عرض ستمائة ميل ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها إلى شرقها بر مستطيل في غربه هرقلية على ساحل بحر نيطش متصلة بأرض البيلقان من الإقليم الخامس، وفي شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلي على بحر نيطش ،وفي شمال بحر نيطش في هذا الجزء غربا أرض ترخان، وشرقا بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر وبلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء ومن شمالها في الجزء الخامس من الإقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الإقليم.

وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطش، وينحرف قليلا إلى الشمال ،ويبقى بينه

هنالك وبين آخر الجزء شمالا بلاد قمانية وفي جنوبه منفسحا إلى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس ،وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر. وفي شرقها أرض برطاس .وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار، وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بلجر يجوزها هناك قطعة من جبل سياكوه المنعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده ،ويذهب بعد مفارقته مغربا فيجوز في هذه القطعة ويدخل إلى الجزء السادس من الإقليم الخامس فيتصل هنالك بجبل الأبواب ،وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر .

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم في الناحية الجنوبية ما جازه جبل سياه بعد مفارقته بحر طبرستان، وهو قطعة من أرض الخزر إلى آخر الجزء غربا، وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل سياه في الناحية الغربية الشمالية أرض برطاس وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض شحرب (=بشجرت،باشغرد) وبخناك (=البجناك، البوشناق) ،وهم أمم الترك .

وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الجولخ من الترك في الناحية الشمالية غربا والأرض المنتنة، وشرق الأرض التي يقال إن يأجوج ومأجوج خرباها قبل بناء السد ،وفي هذه الأرض المنتنة مبدأ نهر الأثل من أعظم أنهار العالم وممره في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان في الإقليم الخامس في الجزء السابع منه ,وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل من الأرض المنتنة من ثلاثة ينابيع تجتمع في نهر واحد ويمر على سمت الغرب إلى آخر السابع من هذا الإقليم فينعطف شمالا إلى الجزء السابع من الإقليم السابع فيمر في طرفه بين الجنوب والمغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ,ويذهب مغربا غير بعيد ,ثم ينعطف ثانية إلى الجنوب ,ويرجع إلى الجزء السادس من الإقليم السادس ,ويخرج منه جدول يذهب مغربا ويصب في بحر نيطش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة بين الشمال والشرق في بلاد بلغار فيخرج في الجزء السابع من الإقليم السادس ثم ينعطف ثالثة إلى الجنوب ,وينفذ في جبل سياه ويمر في بلاد الخزر ,ويخرج إلى الإقليم الخامس في الجزء السابع منه فيصب هنالك في

بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية .

والجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه بلاد من خنشاخ الترك وهم قفجاق وبلاد السركس منهم أيضا. وفي الشرق منه بلاد يأجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط وقد مر ذكره يبدأ من البحر المحيط في شرق الإقليم الرابع ،ويذهب معه إلى آخر الإقليم في الشمال ،ويفارقه مغربا وبانحراف إلى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الإقليم الخامس، فيرجع إلى سمته الأول حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من الإقليم من جنوبه إلى شماله بانحراف إلى المغرب ،وفي وسطه ههنا السد الذي بناه الإسكندر ثم يخرج على سمته إلى الإقليم السابع. وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه إلى الجنوب إلى أن يلقى البحر المحيط في شماله ثم ينعطف معه من هنالك مغربا إلى الإقليم السابع إلى الجزء الخامس منه فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربيه، وفي وسط هذا الجزء التاسع هو السد الذي بناه الإسكندر كما قلناه. والصحيح من خبره في القرآن. وقد ذكر عبد الله بن خرداذبة في كتابه" الجغرافيا "أن الواثق رأى في منامه كأن السد انفتح فانتبه فزعا، وبعث سلاما الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه في حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا هذا.

وفي الجزء العاشر من هذا الإقليم بلاد يأجوج ومأجوج متصلة فيه إلى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعريضة بعض الشيء في الشرق .

الإقليم السابع والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال إلى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج ،فالجزء الأول والثاني مغموران بالماء إلا ما انكشف من جزيرة إنكلترا التي معظمها في الثاني ،وفي الأول منها طرف انعطف بانحراف إلى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الإقليم السادس وهي مذكورة هناك والمجاز منها إلى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلاً، ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلاندة (= آيسلندا) مستطيلة من الغرب إلى الشرق.

والجزء الثالث من هذا الإقليم مغمور أكثره بالبحر إلا قطعة مستطيلة في جنوبه وتتسع في

شرقها، وفيها هنالك متصل أرض فلونية التي مر ذكرها في الثالث من الإقليم السادس، وأنها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي إلى بلاد فلونية وفي شمالها جزيرة برعاقبة وفي نسخة بوقاعة مستطيلة مع الشمال من المغرب إلى المشرق.

والجزء الرابع من هذا الإقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب إلى المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه أرض قيمازك(=كيماك) من الترك، وفي شرقها بلاد طست، ثم أرض رسلان إلى آخر الجزء شرقا. وهي دائمة الثلوج ،وعمرانها قليل، ويتصل ببلاد الروسية في الإقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه .

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية، وينتهي في الشمال إلى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا كما ذكرناه من قبل، وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانية التي على قطعة بحر نيطش من الجزء السادس من الإقليم السادس وينتهي إلى بحيرة طرمي من هذا الجزء وهي عذبة تنجلب إليها أنهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال، وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التتارية من الترك وفي نسخة التركمان إلى آخره.

وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانية ،وفي وسط الناحية بحيرة عثور عذبة تنجلب إليها الأنهار من الجبال في النواحي الشرقية، وهي جامدة دائما لشدة البرد إلا قليلا في زمن الصيف، وفي شرق بلاد القمانية بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الإقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه .وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغر التي كان مبدؤها في الإقليم السادس، وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه، وفي وسط هذه القطعة من أرض بلغر منعطف نهر أثل القطعة الأولى إلى الجنوب كما مر وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصل من غربه إلى شرقه .

وفي الجزء السابع من هذا الإقليم في غربه بقية أرض يخناك من أمم الترك، وكان مبدؤها من

الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله، وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء ويخرج إلى الإقليم السادس من فوقه ،وفي الناحية الشرقية بقية أرض سحرب ثم بقية الأرض المنتنة إلى آخر الجزء شرقا وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلا من غربه إلى شرقه .وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم في الجنوبية الغربية منه متصل الأرض المنتنة وفي شرقها الأرض المحفورة ،وهي من العجائب خرق عظيم في الأرض بعيد المهوى فسيح الإفطار ممتنع الوصول إلى قعره يستدل على عمرانه بالدخان في النهار والنيران في الليل تضيء وتخفى وربما رئي فيها نهر يشقها من الجنوب إلى الشمال، وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد، وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق إلى الغرب .

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ، وهم قفجق يجوزها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط، ويذهب في وسطه إلى الجنوب بانحراف إلى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الإقليم السادس ويمر معترضا فيه وفي وسطه هنالك سد يأجوج ومأجوج وقد ذكرناه . وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة أحاطت به من شرقه وشماله .

والجزء العاشر غمر البحر جميعه) .

أشرنا في تقديمنا للفقرة (٦) إلى ما تتضمّنه فكرة ابن خلدون عن العلاقة بين الخصائص الطبيعيّة للأقاليم ، والخصائص البشرية لسكانها .وندلف في هذه الفقرة إلى تضاعيف الفكرة من خلال هذا النص الذي يقدم فيه صاحب (المقدمة) تفسيرا للعلاقة بين الطبائع البشرية والمناخ، وهو يعمم الفكرة ويوسعها لتشمل المظاهر الجسمية والعقلية، فاعتدال المناخ يتبعه اعتدال في جسد الإنسان وبنيته الذهنية،ولونه وطاقاته الروحية .وكما سنلاحظ فابن خلدون طبقا لهذه النظرية، التي تتحدّر إليه من موروث يوناني وردت بعض تفاصيله في كتاب (السياسة) سينتهي إلى حصر القيم البشريةالأساسية في أهل الأقاليم الوسطى المعتدلة(= الثالث ،والرابع ،والخامس) .وهو ، شأنه في ذلك شأن نخبة من المشتغلين في

هذا المجال،ينتهي إلى أن أهل الإقليم الرابع هم المجموعة التي تتجسد فيها الفضائل الجسدية والعقلية والروحية،وصفوة هؤلاء أهل العراق والشام .وينكشف تحيّز هذه النظرية بالمقارنة،وهي تكفي هنا للإشارة فقط، فقد تبنّى أرسطو الفكرة ذاتها، لكنه انتهى إلى أن أهل الجزر اليونانية هم المجموعة التي تركزت فيها أفضل مزايا بني البشر،للأسباب نفسها التي ذكرها ابن خلدون .وتبنّى الفكرة الفرس القدامى ،ومهما كان الأمر فابن خلدون وغيره كانت كثير من أفكاره في موضوع العلاقة بين الإنسان والبيئة تترتّب في ضوء الأفكار التي كانت شائعة في عصره .وهذه الإشارات تسهل لنا الاقتراب بسهوله إلى النص الآتي .

(7)

في المعتدل من الأقاليم والمنحرف
وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم
ابن خلدون : من كتاب (المقدمة)

(قد بينّا أن المغمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال، ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلا، فالإقليم الرابع أعدل العمران، والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما. والثاني والسادس بعيدان من الاعتدال. والأول والسابع أبعد بكثير؛ فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها. ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية؛ وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ، وذلك ليتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله .

وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم، فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم ،يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة، ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين، ويذهبون في ذلك إلى الغاية، وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ، ويتصرفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم،وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين، وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين .

ومن كان مع هؤلاء أو قريبا منهم في هذه الأقاليم المعتدلة، ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات. وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم، فبناؤهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود ،وأكثرهم عرايا من اللباس .وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف، ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات؛ وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم ،حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ،ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذا الصقالبة؛ والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا، فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال وهو في الأقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام، وما بعده لهذا العهد. ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور المجاورين لأرض المغرب الدائنين بالإسلام لهذا العهد، يقال إنهم دانوا به في المائة السابعة .ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالبة والإفرنجة والترك من الشمال. ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود

بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي قريبة من أحوال البهائم. ويخلق ما لا تعلمون. ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضرموت والأحقاف وبلاد الحجاز واليمامة وما يليها من جزيرة العرب في الإقليم الأول والثاني؛ فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث ،كما ذكرنا، فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر .

وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه، وفيما جعل الله من الرق في عقبه، وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد إخوته لا غير. وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء،وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب؛ فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول، فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لإفراط الحر. ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين أو ما قرب منها، ولا ترتفع إلى المسامتة ولا ما قرب منها، فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها ،وتنتهي إلى الزعورة، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور. وتوسطت بينهما الأقاليم الثلاثة: الخامس والرابع والثالث فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر. والرابع أبلغها في الاعتدال غاية لنهايته في التوسط كما قدمناه ،فكان لأهله من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم وتبعه من جانبيه الثالث والخامس، وإن لم يبلغا غاية التوسط لميل هذا قليلا إلى الجنوب الحار وهذا

قليلا إلى الشمال البارد إلا أنهما لم ينتهيا إلى الانحراف.

وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم، فالأول والثاني للحر والسواد ،والسابع للبرد والبياض. ويسمى سكان الجنوب من الإقليمين الأول والثاني باسم الحبشةوالزنج والسودان أسماءمترادفة عليا للأمم المتغيرة بالسواد، وإن كان اسم الحبشة مختصا منهم بمن تجاه مكة واليمن، والزنج بمن تجاه بحر الهند. وليست هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم إلى آدمي أسود لا حام ولا غيره. وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض فتبيض ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب فتسود ألوان أعقابهم وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء .قال ابن سينا في أرجوزته في الطب :

بالزنج حر غير الأجسادا ... حتى كسا جلودها سوادا

والصقلب اكتسبت البياضا ... حتى غدت جلودها بياضا

وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لأن البياض كان لونا لأهل تلك اللغة الواضعة للأسماء فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطغرغر والخزر واللان والكثير من الإفرنجة ويأجوج ومأجوج أسماء متفرقة وأجيالا متعددة مسمين بأسماء متنوعة. وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرئاسات والملك، فكانت فيهم النبوآت والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصار والمباني والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الأحوال المعتدلة، وأهل هذه الأقاليم التي وقفنا على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبني إسرائيل واليونان وأهل السند والهند والصين.

ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارها؛ حسبوا ذلك لأجل الأنساب، فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام ،وارتابوا في ألوانهم، فتكلّفوا نقل تلك الحكاية الواهية. وجعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث. وأكثر الأمم المعتدلة،

وأهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع والملل والشرائع والسياسة والملك من ولد سام .وهذا الزعم ،وإن صادف الحق في انتساب هؤلاء، فليس ذلك بقياس مطرد إنما هو إخبار عن الواقع لا أن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحبشان من أجل انتسابهم إلى حام الأسود ،وما أداهم إلى هذا الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط وليس كذلك؛ فإن التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبني إسرائيل والفرس ، ويكون بالجهة والسمة كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان ،ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب، ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم. فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نحلة أو لون أو سمة وجدت لذلك الأب، إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان والجهات، وإن هذه كلها تتبدل في الأعقاب ولا يجب استمرارها سنة الله في عباده قد رأينا من خلق السودان على العموم: الخفة والطيش وكثرة الطرب. فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قطر. والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه، وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه، وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته ،ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح .وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشىء عن السرور.ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم ،كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حرا، فتكون أكثر تفشيا ،فتكون أسرع فرحا وسرورا ،وأكثر انبساطا. ويجيء الطيش على أثر هذه .وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية ؛لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من

أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة .وقد نجد يسيرا من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلول واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى إنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مأكلهم من أسواقهم. ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى إن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئا من مدخره .وتتبّعْ ذلك في الأقاليم والبلدان تجد في الأخلاق أثرا من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم .

وقد تعرض المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول تعليله، فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن إسحاق الكندي أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم. وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه .

اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب، ولا كل سكانها في رغد من العيش ؛بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران ،وفيها الأرض الحرة التي لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة فسكانها في شظف من العيش، مثل أهل الحجاز ،وجنوب اليمن، ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان؛ فإن هؤلاء يفقدون الحبوب والأدم جملة ،وإنما أغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم .ومثل العرب أيضا الجائلين في القفار فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب والأدم من التلول إلا أن ذلك في الأحايين وتحت ربقة من حاميتها وعلى الإقلال لقلة وجدهم فلا يتوصلون منه إلى سد الخلة أو دونها فضلا عن الرغد والخصب ،وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الألبان وتعوضهم من

الحنطة أحسن معاض ،وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالا في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش ،فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات. هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم، فكثير ما بين العرب والبربر فيما وصفناه وبين الملثمين وأهل التلول يعرف ذلك من خبره؛ والسبب في ذلك، والله أعلم، أن كثرة الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة تنشأ عنها بعد إقطارها في غير نسبة،ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم كما قلناه وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الردية فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة .

واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجدب من الغزال والنعام والمها والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بونا بعيدا في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب أعضائها وحدة مداركها، فالغزال أخو المعز ،والزرافة أخو البعير، والحمار والبقر أخو الحمار والبقر، والبون بينهما ما رأيت؛ وما ذاك إلا لأجل أن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الردية والأخلاط الفاسدة مما ظهر عليها أثره، والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ما شاء، واعتبر ذلك في الآدميين أيضا .

فإنا نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالبا بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم، وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس، فتجد هؤلاء أحسن حالا في عقولهم وجسومهم .وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسين في الأدم والبر مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملة ،وغالب عيشهم الذرة فتجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم ،وكذا أهل الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضر والأمصار . فإن

الأمصار وإن كانوا مكثرين مثلهم من الأدم ومخصبين في العيش إلا أن استعمالهم إياهما بعد العلاج بالطبخ والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرق قوامها وعامة مأكلهم لحوم الضأن والدجاج، ولا يغبطون السمن من بين الأدم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك في أغذيتهم ويخف ما تؤديه إلى أجسامهم من الفضلات الردية، فلذلك تجد جسوم أهل الأمصار ألطف من جسوم البادية المخشنين في العيش وكذلك تجد المعودين بالجوع من أهل البادية لا فضلات في جسومهم غليظة ولا لطيفة.

واعلم أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة؛ فتجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة ممن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن دينا وإقبالا على العبادة من أهل الترف والخصب، بل تجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصار لما يعمها من القساوة والغفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والأدم ولباب البر، ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي، وكذلك تجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طيباته من أهل البادية ومن أهل الحواضر والأمصار إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا لا مثل العرب أهل القفر والصحراء ولا مثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمر ولا مثل أهل إفريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت، وأهل الأندلس الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فإن هؤلاء وإن أخذتهم السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ,ولا يكثر فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر؛ والسبب في ذلك ,والله أعلم ,أن المنغمسين في الخصب المتعودين للأدم والسمن خصوصا تكتسب من ذلك أمعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الأصلية المزاجيةحتى تجاوز حدها ,فإذا خولف بها العادة بقلة الأقوات وفقدان الأدم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع إلى المعا اليبس والانكماش ،وهو ضعيف في الغاية فيسرع إليه المرض ويهلك صاحبه دفعة لأنه من المقاتل فالهالكون في المجاعات إنما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق .

وأما المتعودون لقلة الأدم والسمن فلا تزال رطوبتهم الأصلية واقفة عند حدها من غير زيادة ،وهي قابلة لجميع الأغذية الطبيعية فلا يقع في معاهم بتبدل الأغذية يبس ولا انحراف فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الأدم في المآكل، وأصل هذا كله أن تعلم أن الأغذية وائتلافها أو تركها إنما هو بالعادة، فمن عود نفسه غذاء ولاءمه تناوله كان له مألوفا وصار الخروج عنه والتبدل به داء ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسموم واليتوع وما أفرط في الانحراف فأما ما وجد فيه التغذي والملاءمة فيصير غذاء مألوفا بالعادة، فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللبن والبقل عوضا عن الحنطة حتى صار له ديدنا فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك ،وكذا من عوّد نفسه الصبر على الجوع والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضيات فإنا نسمع عنهم في ذلك أخبارا غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها ؛والسبب في ذلك العادة، فإن النفس إذا ألفت شيئا صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التلون فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية فإنه حينئذ ينحسم المعاء وينااله المرض الذي يخشى معه الهلاك، وأما إذا كان القدر تدريجا ورياضة بإقلال الغذاء شيئا فشيئا كما يفعله المتصوفة فهو بمعزل عن الهلاك ..وهذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فإنه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعة خيف عليه الهلاك، وإنما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج .

ولقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوما وصالا وأكثر، وحضر أشياخنا بمجلس السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورندة حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح شأنهما، واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتتا. ورأينا كثيرا من أصحابنا أيضا من يقتصر على حليب شاة من المعز يلتقم ثديها في بعض النهار أو عند الإفطار ويكون ذلك غذاءه، واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثير ولا يستنكر ذلك .

واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الإقلال منها، وإن له أثرا في الأجسام والعقول في صفائها وصلاحها كما قلناه، واعتبر ذلك بآثار الأغذية التي تحصل عنها في الجسوم. فقد رأينا المتغذين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة والجثمان تنشأ أجيالهم كذلك، وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة وكذا المتغذون بألبان الإبل ولحومها أيضا مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الأثقال الموجود ذلك للإبل وتنشأ أمعاؤهم أيضا على نسبة أمعاء الإبل في الصحة والغلظ فلا يطرقها الوهن ولا ينالها من مدار الأغذية ما ينال غيرهم فيشربون اليتوعات لاستطلاق بطونهم غيرمحجوبة كالحنظل قبل طبخه والدرياس والغربيون ولا ينال أمعاءهم منها ضرر، وهي لو تناولها أهل الحضر الرقيقة أمعاؤهم بما نشأت عليه من لطيف الأغذية لكان الهلاك أسرع إليهم من طرفة العين لما فيها من السمية.

ومن تأثير الأغذية في الأبدان ما ذكره أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الإبل واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون، وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضن فيجيء دجاجها في غاية العظم .وأمثال ذلك كثيرة فإذا رأينا هذه الآثار من الأغذية في الأبدان فلا شك أن للجوع أيضا آثارا في الأبدان؛ لأن الضدين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه فيكون تأثير الجوع في نقاء الأبدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المخلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثرا في وجود ذلك الجسم والله محيط بعلمه .)

رأينا غزارة المادة الجغرافية والبشرية التي خلّفها الأسلاف، والصور التي يركّبونا للمجتمعات، وهم يقلّبون صفحات الأقاليم والطبائع البشرية فيها، ولكن ليس هذا كل شيء، فقد انصرف جزء كبير من اهتمامهم إلى كشف البحار، والجزر، وكانوا ينظرون إلى البحار باعتبارها واسطة عقد بين المناطق المعمورة من الأرض، وإن كانت النظرة العجائبية لهذه العوالم شبه المجهولة تتخلل تضاعيف تلك الأوصاف .والنصوص التي ستمرّعلينا، مرتّبة بحيث تقدّم تصورا شاملا عن طبيعة المعلومات الجغرافية – البحرية ، و تندرج فيها

كثير من التصورات الشائعة في القرون الوسطى.

إن كلمة بحار غامضة ومثيرة،وهي، بالنسبة إلى المسلمين في ديارهم الواسعة خلال القرون الوسطى، تعبّر عن حقيقة لايمكن تخطّيها، فالبحار تحيط بدار الإسلام ، في ذلك الوقت، إحاطة السوار بالمعصم.فمن أقاصي الشرق إلى أقاصي الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب تحاذي البحار والمحيطات العالم الإسلامي، فضلا عن البحار الدا خليّة كالمتوسط والأحمر والعربي والخزر. باختصار كانت كثير من تخوم دار الإسلام بحرية، فلاغرابة أن يخصص لها وصف مفصّل في المدونات الجغرافية، وأحيانا التاريخية، لأنها وسائل ربط بين أطراف العالم الإسلامي والعوالم الأخرى، وعلى الرغم من كل ذلك فقد امتزجت في أوصاف الرحالة والجغرافيين نبذ من المعلومات الحقيقية بالغرائب، ذلك أن جانبا من الجغرافيا العربية اتسم بالطابع الأدبي التخيّلي،وهو أمر طالما أشار إليه كراتشوفسكي وأندريه ميكل وآخرون من العرب والمستشرقين.بيد أن هذه السمة بحد ذاتها تدعم الفكرة التي نسعى إليها، وهي طبيعة الصورة المركبّة في الذهنية الإسلامية للعالم ، بحره وبرّه.

(8)

بحـــــار

شمس الدين أبو عبدالله الدمشقي

من كتاب(نخبة الدهـر في عجائب الـبر والـبحر)

(قال أهل العلم: إن الماء المحيط بالأرض هو جرم بسيط مشفّ جرمه، طبعه أن يكون بارداً رطباً متحركاً إلى المكان الذي يكون تحت كرة الهواء وفوق الأرض ، وهو البحر المحيط الذي منه مدد سائر البحار ولا يعرف له ساحل، وله أسماء في الجهات، سماه بها اليونان ومن قبلهم فاسمه في الجهة المغربية أوقيانوس والبحر الأخضر ،وفي جهة جنوب الأرض والمشرق بحر الظلمات والبحر الزفتي والجامد ،وفي جهة محض الجنوب البحر الأحمر، وفي الشمال والغرب بحر الظلمة وبحر ورنك(=البلطيق)، والمحيط الشمالي، وفي شمال الأندلس اللبلابة

وبحر قادس. وذلك كله بحر واحد وماء متصل محيط بكرة الأرض مالح ،وسائر البحار التي بوجه الأرض غيره فإنها خلجان منه متصله به فائضة عنه ،والذي هو منها غير متصل به ففي اتصالها به وعدم اتصالها خلاف بين المعتنين بتحقيق ذلك والفحص عنه كبحر الخزر الذي هو وحده غير متصل ببحر آخر. يزعم بعض القدماء أنه متصل ببحر الروس المسمى بحر طرابزندة، وأن بحيرة خوارزم منه ،وأن بحيرة زغر من بحر القلزم ،وأن بحر هجر من بحر فارس. والصحيح خلاف ذلك ،وسائر مياه البحار المالحة والحلوة من المتصلة بالمحيط والمنفصلة عنه كلها مسجورة بحبسها في بقاعها ووهدات الأرض المغمورة بمياهها، ومعنى الانسجار منها أنها كريّة الشكل في دورانها وكرية مع الأرض في تحدبها الكري. فكل جزء منها مكفوف الأطراف كصورة نصف سدس دائرة وهذا في صورته الخاصة، وأما ما في صورته العامة فإنها أعني البحار مستديرة باستدارة كرة الأرض وكهيئتها في التدوير والانكفاف هو الانسجار؛ ولذلك الراكب في البحر إذا توغّل فيه غابت عنه الأرض وإذا ما استشرف على السواحل فأول مايظهر له رؤوس الجبال العالية ثم لا يزال يرى شيئاً بعد شيء إلى أن يقرب إلى الساحل فيرى الأرض في الساحل كما يراها ساكنها.

ومما يدل على أن الماء شكل كري في ذاته وفي صورته العامة أننا إذا أرسلناه بالهواء بالحذق تشكّل أشكالاً كريات بمقدار البيضة وأصغر وأكبر، وكذلك يكون عند كونه مطراً أو جمداً في الهواء خارجاً من خلال السحاب. وأما ما هي صورته العامة فالماء فلك مماسّ لمقعر فلك الهواء، ولذلك أن راكبه حيث كان من ظهره كان على ذروة محدّبة ،وكانت جهات البحر المحيط به من كل ناحية منحطّة عنه غائبة أطرافها لانحطاطها ،وكلما وصل الراكب له إلى نقطة واستوى عليها كانت هي الذروة كذلك، وكان حكمه في البحر كحكمه في البر من حيث العروض والأطوال وارتفاع القطب الشمالي وانحطاطه وظهور كواكب ما لم تكن تظهر له واختفاء كواكب كانت ظاهرة له، وإذا نظر الإنسان إلى كرة مخروطة من الخشب وفرض أن محيطها هو جهة العلوّ لها وأن مركزها هو جهة السفل منها فحيث وضع أصبعه منها كان أعلاها وكان ذلك الموضع ذروة لنصفها الأعلى المفروض.

وإنه أجاج لمصالح العالم جعله الله مفيضاً للأنهار ومعبراً للسيول والأمطار ومركباً لرفاق البحار ومضرباً لمصالح الأمصار ومنحاً للأقطار. يخرج عنه الدر والمرجان وينبع من الملح الأجاج عذباً فراتاً ويغدو للآكلين لحماً طرياً ويحمل للآبسين جواهر وحلياً،ولايوجد مصر جامع قريب من الاعتدال عامر بعيداً عن الماء ثلاثة أسابيع إلا نادراً.

وتكلم العلماء بعلمهم في الشيء الذي كان عنه الماء، فمنهم من زعم أن المياه من الاستحالة فطعم كل ماء على قدر تربته ومنهم مَن يزعم أن البحر بقية الرطوبة التي جففت أكثرها جوهر النار وبإحراقه لهذه البقية استحالت إلى الملوحة، ومنهم مَن زعم أن البحار عرق الأرض لما ينالها من إحراق الشمس باتصال دورانها ولهذا قالوا ليس ببلاد الصقالبة بحر مالح ،وذكروا أن العلة في ذلك بعد الشمس عن مسامتها. ويزعم قوم أن أصل الماء العذوبة واللطافة وإنما لطول مكثه جذبت الأرض مافيه من العذوبة لملوحتها وجذبت الشمس مافيه من اللطافة بحرارتها فاستحال إلى الغلظ والملوحة، ولهذا قال "أرسطو" المالح أثقل من الماء العذب لأن المالح كدر غليظ والعذب صافٍ رقيق. ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت طبخه بمخالطة الأرض المحرقة لأنْتَن وأجن وأفسد مايكون فيه من الحيوان ،بل إن الله سبحانه وتعالى خلق البحار ملحاً أجاجاً كما أخبر في كتابه العزيز" وهذا ملح أجاج" . على ماهي به من الوصف وصلاحاً لجوهر الهواء وحفظاً لنظام أبدان الحيوان وتعديلاً لأمزجتها، ولو كانت حلوة مع طول الزمان والدهر لفسدت وأسنّت وفسد بفسادها جوهر الهواء وأنواع المتولدات الثلاث، وكذلك أيضاً قلّ أن يكون في المعمور بحر مالح ببقعة الشمال أو الجنوب إلا وبالقرب من سواحله جبال محيطات كالحاجز والسياج الحاف به من حوله وغالبها مشجّرة كثيرة الأندية والأمطار وذلك من صلاح الأرض به وصلاح متولداتها ولأن جوهر الملح فيه قوة حافظة للأشياء الرطبة من التغير، وهذه الملوحة تلي الدهانة كأنها غطاء على مياه البحار تمنعها من الفساد والتحليل، ومن سرعة الانقلاب إلى الهواء كما ينقلب الماء العذب للطافته ولجذب الشمس به بحرارتها والله أعلم).

(9)

البحر المحيط بالشرق (المحيط الهادئ)

الدمشقي: من كتاب (نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر)

(قال أهل العلم : البحر المحيط الجنوبي والبرزة العظمى المسماة البحر الجامد وبحر الظلمات وبحر أصطيفون، وهو أعظم بحار الدنيا الثلاثة وأهولها وأسرعها هلاكاً للداخل فيه، ولم يُعرف من سواحله إلا ما تاخم أقصى المعمور، ومن سواحله المشرقية ساحل صين الصين حيث مصب نهر خمدان. . . ثم ساحله المحادّ جزيرة القمر الكبرى من جنوبها، وطول هذه الجزيرة أربعة أشهر ولا عمارة في جنوبها ولا فيما وراءها، ولا مسلك في هذا البحر إلا من جبال أصطيفون فيما هو داخلها منه ،وهذه الجبال كصورة جبل واحد داخل في البحر عن نحو من مائتي ميل،وهو جبل شاهق متصل ممتد سحابي من أقصى المشرق إلى أوائل جبال القمر وأرض دغوطة ثم إلى محاذاة وسط الأرض حيث فيه أرين.

ويقال أن هذا الجبل هو الذي دخله الخضر بجيش ذي القرنين. وفي هذا الجبل خليج عظيم الدفع لايستطيع مركب صغير أو كبير أن يدخله لشدة حركته وسرعة جريانه بالمد والموج والغليان دافع أبداً من الجنوب إلى الشمال وسعته نحو مائة ميل ،ومده وجزره هناك عظيم يرتفع هناك في الأماكن المحصورة عن ست قامات وينفرش في الأماكن المبسوطة نحو يوم، يفعل ذلك في اليوم والليلة أربع مرات فإذا خرج هذا الخليج انفرش في ملأ الأرض حتى ينتهي إلى جبال القمر وجبال دغوطة(= على السواحل الشرقية لإفريقية، قبالة جزر القمر) ويمتد منه لسان وهو بحر دغوطة ثم يخرج منه نهران عظيمان يحاذيان جزيرة القمر من جهتيْ مشرقها ومغربها وخليج بحدٍّ جزيرة أنفوجة، وسريرة بينهما وبين جزيرة القمر وهذه الخلجان الثلاثة تصب في بحر الهند المسمى بأسماء نواحيه وبأطراف هذا البحر من وراء خط الاستواء جزيرة الدجّال وجزيرة القشمير وجزائر السحاب والبرق والمطر وجزائر الواقواق من وراء جبل أصطيفون.

وجزيرة القامرون بالقرب من جزيرة سريرة، والقامرون اسم ملك الملوك كما يسمى ملك الصين بغبور، وملك الصنف مهراج ،وملك الهند قندهار، وملك الفرس كسرى، وملك اليمن تبّع، وملك الروم قيصر ،وملك مصر فرعون، وملك الحبشة نجاشي، وملك الشام هرقل، وملك الفرنج الباب، وملك الساحل البربر، وملك التتر الخان. فأما جزيرة القمر ففيها من الأنهار الجرّارة أربعة تسمّى الأغباب وفيها من المدن نحو عشرين مدينة ومدينتها العظمى دهمي ومدينة الملك لقمرانه والمصر الجامع أغني. وأما سريرة فيحيط بها ألف ومائتا ميل وفيها مدن كثيرة أجلّها سريرة ومنها يُجلب الكافور الجيد وجزيرة أنفوجة مستطيلة جداً يحيط بها نحو ألفي ميل وبها قفار وبراري وسكانها في طرفها الشمالي بين البحريْن على جبل هناك بحيث يرون هذا ويرون هذا.

وأما جزائر الواقواق الداخلة في المحيط فإنها خلف جبل أصطيفون بالقرب من ساحل البحر ويوصل إليها من بحر الصين، والواق شجر صيني شبيه بشجر الجوز وخيار الشنبر ويحمل حملاً كصورة الإنسان فإذا انتهت الثمرة منه سمع السامع منه واقواق مرات ثم يسقط. وأهل الجزائر وأهل الصين لهم من ذلك تفاؤل وزجر بتلك الأصوات. وأما جزيرة الدجّال فيزعم نَقَلَة الآثار أنه بها مسجون. وقد ورد في الخبر أن تميماً الداري اختطفه الجان ووصل إليه ورآه بها وسأله مسائل عن أشراط الساعة وخروجه والقصة مشهورة. وأما الجزائر الثلاث فيزعم من وصل إليهنّ من جزيرة القشمير هم طائفة من الترك هربوا في وقعة كانت بينهم وبين عدوهم، وركبوا البحر ومرّوا إليها، فسكنوها واستوطنوا بها ،فعرفت بهم. والأولى من الثلاثة لا تزال مطمورة ليلاً ونهاراً أبداً، وإن الثانية من جهة جنوبها لاتزال مغشاة بالسحاب والضباب، والثالثة بالقرب منها لايزال البرق يلوح عليها دائماً من غير مطر ولا سحاب. وبأطراف جبل أصطيفون بالقرب من الخليج الخارج من المحيط أطمة، من أعظم آطام النار يصعد لهبها في السماء فراسخ وترى من مسيرة أيام وتسمى سراج البحر في الظلمات، وأما جزيرة القمر فسيأتي وصفها فيما بعد. وإذا تجاوز الماء جزيرة القمر وانفرش سُمي بأسماء كثيرة بحسب نواحيه وجهاته وبقاعه بحراً بحراً والكل ماء واحد متصل طوله الأطول من

حدود مدينة مقدشو أو سفالة الزنج وبربر السودان غرباً إلى حدود سواحل صين الصين ومدينة الصنف(=مطلة على خليج آسام) ونواحي المهراج شرقاً وإلى غاية الطول فيما هو جنوب الصين صين حيث مصب نهر خمدان الأكبر ومسافة ذلك بالدرج مائة وأربع درج هي من طول ستة وسبعين وإلى تمام مائة وثمانين بأرض خمدان وصين الصين الواغلة فيه الداخلة خلف خط الاستواء ...جملة عرضه من الخلجان الخارجة منه كخليج فارس والقلزم وخليج المعبر وغير ذلك وهذا العرض مختلف متفاوت أعرضه ألفا ميل وسبعمائة وأنقصه عرضاً ألفا ميل والله أعلم.

وأما مروره بسواحل نواحيه وجهاته وأسمائه فنبتدئ به من أول طوله الجنوبي فيمر به من فوق خط الاستواء إلى أسفل جزيرة القامرون إلى أعلى جزيرة سرنديب وأسفل الراهون إلى أسفل أرض أرين وقبة أرين(=مركز العالم حسب التصور الهندي) ثم يمر بساحل أراضي دغوطة وبلاد زنج الزنج ثم إلى أرض مقدشو الحمراء ثم إلى أرض كلبة زنج المسلمين. وهناك آخر طوله الممتد بامتداد خط الاستواء ثم ينعطف عطفة وهي من حدود مقدشو فيمر قاصداً جهة الشمال مع الغرب ثم من جهة الشمال مع الشرق ثم جهة الشمال مع غرب ثم جهة الشمال مع شرق ثم جهة الشمال مع غرب ثم جهة الشمال، وذلك كصورة دائرتين ملتحمتين مع بيان فرقهما كذا التشكيل. وتسمى هذه بحيرة بربر أو البحر الأحمر لشدة هوله وقلة سلامة راكبه، وحده من الشمال جبل عظيم أسود داخل في البحر يسمونه أهل البحر جبل خافوني(=الرأس الأفريقي المواجه لباب المندب)، ونادر أن يمر بهذا الجبل مركب إلا ينكسر، وإذا قربوا من الجبل أنذروا النذور وتضرعوا لله عز وجل في الدعاء .وقلّ أن يسلموا إلا مَن شاء الله.

ثم يمر بساحله بعد تجاوز جبل خافوني بأرض الهاوية وسميت الهاوية تشبيهاً بجهنم في حرها ونارها ثم بأرض بربرا وبعض بلاد دمدم والحبش السفلي ثم بأرض جبرة ثم بأرض باضع ثم بساحل زنجبار وأرض الزيْلع ثم بأرض أوتل، وهناك يخرج منه رِجْل تسمى شعبة القلزم، وبحر قلزم وبحر موسى وبحر المندم وبحر عدن ،ومخرجه فيما بين أوتل وعدن بين

جبلين فيمر بساحل هذا الرّجْل المسمى خليج القلزم شمالاً ببر العجم لأن البر الشرقي منه هو بر العرب، ومرور ساحل بر العجم على بلاد خاسة ثم على بلاد ناكة السفلي ثم بلاد خاسة السفلي ثم بلاد البجة وهناك جزيرة به تسمى جزيرة دهلك منسوبة إلى مدينة بها ملك البجه ثم إلى جزيرة سواكن مدينة لها ملك ثانٍ وهي قريبة من البر ثم يمر إلى عيذاب مدينة فرضة لمصر اليمن، ثم يمر بأرض الوَضَح والمريس إلى القصير إلى السويس إلى أيلة والقلزم ومَدْيَن. وهناك ينعطف هذا الرجل عطفةً بأرض الشام فتمر بسواحل أهل العرب إلى الينبع إلى الجار إلى رابض إلى جدة إلى سرَّين إلى المهجم إلى زبيد إلى عدن .وهناك تنتهي عدوة هذا الرجل التي هي بحر القلزم ،ثم يمر بساحل البحر الذي خرجت منه من عدن إلى أبْيَن إلى الشحر إلى ظفار إلى حضرموت إلى الأحقاف إلى قلهات وأرض مَهْرة إلى أرض هجر والبحرين إلى عمان وهناك جبل أسود شاهق ممدود يسمى الجُمْحة هو حد بحر فارس فيمر بأوله مع اتصاله بالبحر وكونه بحراً واحداً إلى البصرة إلى سلماباذان إلى خوزستان إلى بلد فارس إلى كرمان إلى مكران وطوران، وهناك آخر حدود بحر فارس ثم يمر السواحل من طوران إلى سيراف إلى المند إلى بلاد السند ومهران إلى المنيبار إلى كنباية إلى صومنات إلى المعبر إلى سندان إلى صندابولات إلى الصوليان إلى بلوص إلى الجزرات،ثم يتجاوز إلى جبال أبواب الصين إلى أرض تاجه إلى أرض خانقو ثم إلى أرض خالفور ثم ينعطف من هناك طالباً بلاد الصنف مبارياً أرض صين الصين ونهر خمدان ثم يصل إلى الموضع الذي ابتدأنا منه تحديده.

وقد قسّم القدماء السالكون لهذا البحر قطعاً قسمات عرفوها بأسماء نواحيها ليقرب عليهم بعيده ويقصر متطاوله، فالذي يمر منه بأرض الصين يسمى بحر الهركند(= خليج البنغال) وبحر الغيض وبحر الصنف نسبة إلى مدينة على ساحله من بلاد الصين وهو بحر كثير الموج خبيث شديد الهول، ويلي هذه القطعة من البحر قطعة تسمى بحر الصنجي (= بحر الصين)وفيه مملكة المهراج وتدخل المراكب إليها من ستة طرق بين جبال سبعة تسمى جبال الكافور ،وأكثر شجر الكافور بها ولابد للمراكب من العبور بها وهي شديدة الأهوال.

وصنجي مدينة تنسب نسبةً إليها هذه القطعة والمدينة بجزيرة صنجي. ثم يليها قطعة تسمى بحر كَله منسوبة إلى جزيرة كله، وكله مدينتها الكبرى إذ بها أربع مدن، ثم يلي هذه القطعة قطعة رابعة تسمى بحر صندابولات، وصندابولات أوائل بحر الصين وهذا البحر لايُدرك قعره.

ثم يليها قطعة تسمى بحر الهند وهو أسلم هذه القطع وأصغرها موجاً وهولاً. ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر لاروي وقطعة تليها من شمال البحر تسمى بحر الرانج، وبها جزائر الرانج و هو النارجيل المسمى جوز الهند، ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر المعبر وسيلان، وسيلان مدينة بحرية بها تعرف، ويلي هذه القطعة قطعة من جنوب البحر الهندي تسمى بحر سرنديب وبحر الراهون وهو الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام من الجنة، وبهذه الجزيرة التي هي سرنديب مدينة أغني ومدينة بلجرا. ويلي هذه القطعة من شرقها قطعة تسمى بحر القمر وبحر القمار وبحر لقمرانه، ويلي ذلك بشمال البحر قطعة تسمى بحر كنباية منسوبة إلى مدينة بساحل البحر الشمالي .ويليها قطعة أخرى تسمى بحر المنيبار، وسواحل الخيزران والفلفل. وهذه القطعة ساحلية شمالية ثم يليها قطعة تسمى بحر السند وبحر السندمند وبحر مند، وهي أيضاً ساحلية شمالية من بحر الهند فيه، ثم تلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر فارس وهذه القطعة متصلة بالبحر من ناحية ومحاطة بالأرض من ثلاث نواحي. ويليها قطعة تسمى بحر اليمن وأوّلها من رأس الجُمحة من بلاد مهرة إلى عدن. ويلي هذه القطعة قطعة من جنوب البحر تسمى بحر الزنج وبحر بربرا ويسمى ساحلها الزنجبار، وجميع هذه بحر واحد وماء واحد بالاتصال ومختلف بالرياح والحرارة والغزارة والحيوان والعجائب، والجزائر بارزة فيه ثابتة في وجهه من أوله إلى آخره، ويقال أن فيه مايزيد على أربعة آلاف جزيرة معمورة مشهورة والله أعلم بخلقه).

(10)

البحر المحيط بالغرب (المحيط الأطلسي)

الدمشقي: من كتاب (نخبة الدهرفي عجائب البرّ والبحر)

(قال أهل العلم بذلك :إن البحر المحيط محيط بجملة جهات الأرض ،ويسمى البحر المغربي منه بشمال بحر الظلمة، والبحر الأسود الشمالي. وسمي أسود ومظلماً لأن ما تصاعد عنه من الأبخرة لا يحللها الشمس ؛ لأنها لا تطلع عليه فيغلظ ماؤه، ويتكاثف بخاره فلا يدرك البصر ماهية مائه .ولعظم أمواجه وتكاثف ظلمته وعصوف رياحه وكثرة أهواله لم يعلم العالم إلا بعض سواحله وجزائره القريبة من المعمور، وامتداد سواحله المغربية فإنها من حدود برزة منه من خلف خط الاستواء تسمى بحر سفاقس وتميم السودان. طول هذه البرزة نحو شهر وعرضها نحو عشرة أيام ،وبها ثلاث جزائر كبار يأتي وصفها، وتمتد بسواحل المحيط المغربية من هذه البرزة إلى برزة دونها في المقدار تسمى بحر كوغة وورهم ، وفيها تصب بحيرة غانة والأحابيش السودان. وطول هذه البرزة نحو خمسة عشر يوماً وعرضها نحو عشرة أيام ،وبها جزيرتان ثم تمتد إلى برزة عظمى تقال بحر اللبلابة –باللام المفخمة بلغة أهل الأندلس– ومن هذه البرزة مخرج زقاق البحر الرومي ،وطولها من حدود السوس الأقصى إلى حدود طرسوس بالأندلس ،ولا عرض لها يُعرف سوى بالجزائر الخالدات الست ...ثم تمتد إلى برزة منه صغيرة تسمى بحر قادس بجوار الأندلس من الشمال طولها نحو شهر وعرضها الأعرض نحو ستة أيام وإلى أربعة أيام، وبها جزيرة كان عليها صنم من النحاس الأحمر المطلي بالذهب تسمى قادس.

ثم تمتد سواحله من حدود بحر قادس إلى حد برزة منه دقيقة طويلة كصورة الدائرة وأعرض. عرضها ثلاثة أيام، وأما طولها فلم يعلم من أهل العلم به. تسمى هذه البرزة بحر انكلطرة ثم تمتد بسواحل المحيط من حدود هذه البرزة وإلى أن تعطف في جهة الشمال بغرب وهناك البرزة الكبرى التي تسمى بحر الورنك.(= البلطيق)

وورنك اسم طائفة غتم لايكادون يفقهون قولاً يسمّون ورنك وهم صقلب الصقالبة. وهذه البرزة هي بحر الظلمة الشمالي، وبالقرب من سواحله خمس جزائر ... ثم تمتد سواحله في الشمال والغرب حتى تدخل إقليم الظلمة ،ولا علم بما هناك. ولهذا المحيط مد وجزر كما للمحيط المشرقي ،ويقذف ساحله العنبر الخام من غالب جهاته ولا سيما من خلجانه، والعنبر ينبع من عيون من جبال بقعر البحر المالح الفارسي والحبشي والهندي والمغربي والصيني والموسوي، فيركب بعضه بعضاً وهو في حين خروجه شديد الفوران والحرارة، فإذا لاقى برد الماء جمد على أحجار وصار جماجم صغاراً وكباراً فيكون جموده كجمود الشمع إذا أصابه بعد ذوبه الماء البارد فيبقى لاصقاً بتلك الصخور إلى أن يهيج البحر في زمن الشتاء فيقتلعه قطعاً قطعاً ويخرجه إلى سطحه فترمي به الأمواج إلى الساحل، وأجوده الذي يقع إلى ساحل الشحر من بلاد المهرة، فيلتقطه الجلاّبون وربما ابتلعه سمك يسمى أوال، فإذا ابتلعه مات من شدة حرارته فترميه الأمواج أيضاً فيشق عنه جوفه ويستخرج منه ،وله رائحة زهمي ويسمى المبلوع .والآخر الخام والعنبر إذا ألقاه الموج إلى الساحل لا يأكله منه حيوان إلا مات، ولاينقر منه طائر إلا انفصل منقاره ،وإذا وضع عليه رجليه نصلت أظفاره فإن أكل منه شيئاً مات.

قال أهل العلم بذلك: إن أعظم بحار الدنيا ثلاثة: الأول أوقيانوس المحيط، ثم بحر نيطس، ثم بحر الخزر. وأما أوقيانوس فهو محيط بجميع جهات الأرض،والذي علم منه من الجزائر ستة في جهة الغرب تسمى جزائر السعادات والخالدات.

قال أبوعبيد البكري في كتاب " المسالك والممالك " بإزاء طنجة جزائر السعادات وتسمى باليونانية" قرطيانس" غمرها الماء إلا واحدة وهي تسمى السعيدة ،وسميت بذلك لأن في شعرتها وغياضها كلها أصناف الفواكه الطيبة دون غراسة ودون فلاحة، وكذلك أصناف الرياحين تنبت فيها بدلاً من الشوك، وما لا نفع لبني آدم فيه. وبواقي الجزائر الست منها غربي بلاد البربر متفرقة متقاربة .وإن بعض المراكب عصفت عليه الريح فعجز من فيه عن تلاقيه، فسار به إلى أن ألقاه في الجزيرة الواحدة، فنزل من فيه من الركاب إليها وأقاموا بها ،

وعلموا حال الجزائر البواقي منها، وحملوا ما فيها من الغرائب والرغائب وسقهم، وتعجّب أهل الجزيرة منهم. وقالوا لم نر أحداً قبلكم جاءنا من الجهة المشرقية غيركم، وكما نظن أن ليس بها غير الماء المحيط ،ولما وصل المركب بعد إشرافه على الغرق مرات، ودخل بلاد الأندلس، سأل أهل ملكها من أين جئتم؟ ومن أين لكم ما معكم؟ فأخبروه بأمرهم. فجهز مراكب وسيّرها فلم يقعوا على جزيرة منها، وهلك أكثر تلك المراكب بعظم البحر وشدة عصف الريح، وأخذ أولئك مقياس ما بين الجزيرة وبين أول ساحل الأندلس فكان عشر درج.

وفي هذا البحر مما يلي بلاد الصقالبة جزيرتان كبيرتان،إحداهما جزيرة أرميانوس الرجال والأخرى جزيرة أرميانوس النساء ،لايسكن الأولى غير الرجال فقط ،والأخرى لايسكنها غير النساء فقط. وهم كل زمان في أيام الربيع يجتمعون شهرين يتناكحون ثم يفترقون. وهاتان الجزيرتان لايكاد من يروم الدخول إليها يقع طرفه عليهما لكثرة الغمام وظلمة البحر وعظم الأمواج. وهذه العجائب المبثوثة في الآفاق قلّ ما ترى إلا في الاتفاق.

وفي جهة الغرب من هاتين الجزيرتين جزيرتان عاليتا الشجر والجبال مغلقتان بالأشجار والأثمار وغالب طيرها السناقر البيض والشهب. وحكى "السمرقندي" في كتابه أن الإسكندر لما فُتحت البلاد والأنهار والجبال والبحيرات والجهات وعرضت لديه أمثلتها، أراد أن يعلم ساحل المحيط الأقصى، فجهز عدة مراكب مقببة لاتكاد تعرف، وحمّلها الماء والزاد، وأمرهم أن يسيروا سنةً كاملة على مجرى واحد ليأتوه بخبر، فساروا متفرقين في بحار متفرقة على نوء واحد متقارب المجرى حتى أكملوا السنة، فلم يروا إلا سطح الماء ،ومايخرج منه من حيوان عظيم الخلقة كالمنارة المشهورة والستان المعروف والتن، وما يشابهما من دواب البحر الكبار ،ثم رجعوا على أعقابهم إلا مركب واحد فإن أهله قال بعضهم لبعض نسير شهراً آخراً فعسى نطّلع على شيء نبيّض به وجوهنا عند الملك، ونقلّل أكلنا وشربنا في الرجوع، فساروا دون الشهر فإذا هم بمركب فيه أناس، فالتقى المركبان ولم يفهم أحد منهم كلام الآخر فدفع قوم الإسكندر إليهم امرأة وأخذوا منهم رجلاً ،رجعوا به إلى الإسكندر وأزوجوه بامرأة في المركب ممّن معهم ،فأتت بولد يفهم كلام أبويه. فقالوا لها وقد تكلّمت

الإمرأة بكلام الرجل وتكلم الرجل ببعض كلامها، سلي زوجك من أين جاء؟ قال :من ذلك الجانب . فقالوا: لأي شيء؟ فقال: بعثنا ملكنا لنعلم بحال هذا الجانب .: فقالوا له: وهل هناك ممالك وملوك ؟قال: نعم ،أوسع من هذه، وأعظم ملكاً. قالوا: وماكنا نعلم أن هاهنا إلا الماء. والله أعلم بصحة ذلك .

(11)

بحر الروم (البحر المتوسط)

ابن حوقل(توفي بعد ٣٦٧هجري= بعد ٩٧٧ميلادي) من كتاب (صورة الأرض)

(قال ابن حوقل واصفاً بحر الروم وتصويره: إذ هو خليج من البحر المحيط، عليه أكثر هذه الديار، وقد أتيت به على التقريب لا على الحقيقة إذ بعضه أشبه شيء بالدائرة المحددة، ومخرجه بين أرض الأندلس وأرض طنجة وسبتة. وهذه الناحية محاذية من الأندلس لجزيرة جبل طارق وأشبيلية. وعرض هذا المخرج بهذا المكان المعروف باشبرتال، وهو جبل عال ويمتد جنوبياً إلى سله، ويحاذيه من العدوة الأندلسية جبل الأغر ،ويمتد إلى لبلة بناحية الشمال من الأندلس، فيكون نحو اثني عشر ميلاً، ثم لايزال يتسع ويعرض ويمتد على سواحل المغرب ومما يلي شرقي هذا البحر حتى ينتهي إلى أقاصي أرض مصر، ممتداً على أرضها إلى الشام، متصلاً عليها إلى الثغر الذي يُعرف بطرسوس، ويعطف إلى بلدان الروم من جبال إقليمية إلى أنطاكية، ثم يصير إلى خليج القسطنطينية ويمضي على سواحل أثيناس ، وسواحل قلورية(= كالاباريا) والانكبردة (= لومباردیا) إلى إفرنجة وورومية، ويصير البحر حينئذٍ جنوبيا لأرض جليقية ويكون على ساحله الإفرنجة، إلى أن يتصل بطرطوشة من بلاد الأندلس ويمتد على النواحي التي تقدم ذكرها في صفة الأندلس، ويجاوز المرية وأعمال الجزيرة وأشبيلية ويمضي على البحر المحيط إلى شنترين، وهي آخر بلاد الإسلام من ناحية الأندلس وجانب بلد الروم .

ولو أن امرءاً سار من سبتة وطنجة على ساحل هذا البحر المغربي مؤمّلاً أن يعود إلى مايحاذيه من أرض الأندلس لدار على جميع بحر الروم، من حيث لايمنعه مانع إلا نهر يلقى إليه أو يفرع فيه أو خليج القسطنطينية، فإنه يفضي إليه من البحر المحيط أيضاً وذلك أنه انفصل به من الأرض فاصلةً حازت شطر بلد الصقالبة وبعض بلد الروم، فسميت الأرض الصغيرة والذي تحوز من البلاد مهما ذكرته أرض قلورية وجليقية وإفرنجة والأندلس، فجعل ذلك جزيرةً ليست مع الأرض الكبيرة ولا متصلة بشيء منها، لأنها قائمة بنفسها ولم يحتج إلى أن يدلّه دليل إن أمكنه ذلك .

وسمعت أبا الحسين محمد بن عبدالوهاب التل موزني، وكان رجلاً قد أناف على مائة سنة، ثابت العقل صالح الأدب يقول: سُيّرتُ من كمخ وهي مدينة الروم صالحة القدر عامرة على بريد الملك إلى القسطنطينية مائةً وستة وثمانين بريداً، فلما عدت من القسطنطينية حين خروجي عنها عدت على أنقرة، وهي مدينة كبيرة خراب إلى مَلطية مائة وثمانية وعشرين بريداً. فكان من كمخ إلى صارخة يومان وإلى مدينة خرشنة يومان. وسُيّرتُ على مدنٍ لا أعرف أسماءها عامرةً إلى صاغرة. وهي على نهر الس فعبرناه بمركب وسرنا في المركب بالبحيرة ستة فراسخ، وسرنا يوماً آخر على الظهر إلى مدينة تُعرف بنقموذية، وركبنا منها في البحر يومين وصرنا إلى مدينة تعرف بخلقذونية فبتنا بها وسُيرنا في السحر، فركبنا في الخليج وصبّحنا القسطنطينية والبريد عندهم فرسخ؛ قال: وكنت أسمع أن للملك أربعة حبوسٍ دون دار البلاط التي يحبس بها أسراء الملك في رساتيق لهم. فأحدها يعرف بالطرقسيس، والآخر بالأبسيق، والآخر بالبلقلار، والآخر بالنومرة، قال: والطرقسيس والأبسيق أرفهها لأنهما لاقيود فيهما، والبلقلار والنومرة ضيقان ومن حبس في دار البلاط فبالنومرة ابتداء حبسه، ثم ينقل وهو حبس ضيق مؤلم مظلم. قال: وكانوا يسيرون بنا في كل يوم من عشرين بريداً إلى خمسة عشر بريداً فصرنا إلى القسطنطينية في نحو عشرة أيام من كمخ. والذي أعرفه أنا أن بين كمخ وملطية عشر مراحل، وبين ملطية وأنقرة عشرون مرحلة، ومنها إلى القسطنطينية عشر مراحل فيصير جميع الطريق أربعين مرحلة. قال:

وألفيْتُهم وإن الملك يتبعه في المنزلة اللغشيط وهو الوزير والفرخ من بعده، وللفرخ من المنزلة أنه يلبس خفّيْن أحدهما أحمر والآخر أسود، ولا يتزيّى غيره بهذا الزي بوجه، وذلك أن الحكم والقطع والضرب والقَود والأدب من مؤامرة للملك إليه، ثم الدّمُستق من بعده ثم البطارقة وهم اثنا عشر رجلاً لاينقصون ولا يزيدون بوجه، وإذا هلك أحدهم قام مقامه من يصلح له، ثم الزراورة وهم كثرة لايُحصَون كالقواد اللاحقين بالأمراء، ثم الطرامخة وهم التُناء وأرباب النعم من أهل القسطينطينية. ومنهم يكون الارتفاع إلى الزرورة والبطرقة.

وكل مولود يولد بالقسطنطينية للطرامخة فللملك عليه جراية من وقت يولد إلى آخر عمره، يدرّج في أسباب الزيادة والنقصان في أعطيته وأرزاقه عند درج بلوغه وتكهّله، وبقدر استحقاقه للزيادة عند تعلقه بأسباب الرياسة من علم سياسة أو صعلكة، وتقدم في أسباب شجاعة، أو ترسّم بالرأي والفهم، إلا أن يترهّب فيستعفى من العطاء فيُعفيه الملك منه.

ومما أعلمه أنا في حين غزونا من ميافارقين أنا نزلنا على حصن الهتاخ، فكانت إليه مرحلة ستة فراسخ ومنه إلى حصن ذي القرنين وهو حصن منيع مرحلة خفيفة، ومنه إلى مدينة الإرديس وكانت إذ ذاك للمسلمين سبعة فراسخ، ومنها إلى ضيعة القس ثلاثة فراسخ، ومنها إلى هباب مدينة خمسة فراسخ، ومن هباب إلى قرية أنكليس ستة فراسخ، ومن أنكليس إلى الكلكس قرية ثلاثة فراسخ، ومنها إلى حصن زياد أربعة فراسخ، ومن حصن زياد إلى تل أرسناس ثلاثة فراسخ. وعبرنا الفرات إلى قرية تعرف بالحمّام أربعة فراسخ، ومنها إلى مَلَطية أربعة فراسخ. وعبر القوم قباقب إلى عرقا مدينة كانت عامرة أربعة فراسخ، ومنها إلى ضيعة في وادي الحجارة ووادي البقر، وكان آخر عمل الإسلام ستة فراسخ. ومنها إلى الرمانة قرية وحصن ستة فراسخ، ومن الرمانة إلى سمندوا عشرة فراسخ.

ولم أترك الاستخبار في خلال ذلك وقبله وبعده من صعاليك ديار ربيعة ومن أسر ببلد الروم، وخرج سارقاً لجماعةٍ من المسلمين والروم لعلمه بالبلد، ومعرفته بمخائضه ،وممن فوديَ به عن ارتفاع بلد الروم وما فيه، من المرافق لملوكهم واللوازم بقوانينهم الموضوعة قديماً لهم

في كل سنة، فألفيت ذلك أقل من نصف جبايات المغرب بكثير، وألفيت الهدايا والضرائب على النواحي تزيد وتنقص على قلة محل المتّلين لها .

ومن أعظم جباياتهم وأكثر وجوه أموالهم ضريبة بلد اطرابزندة وأنطاكيا المرسومة من أخْذ مايرد من بلد الإسلام، لما يؤخذ من سواحل الشام ومراكبهم، ويغنم بالشلنْديات والمراكب الحربيات والشينيات، ومايحصل من أثمان المسلمين، ويقام من أثمان مراكبهم والأمتعة التي فيها ضريبة الملك، ويستأثر القيّم على ذلك بما يزيد على مال الملك من أثمان الأمتعة والمراكب والمسلمين .

وأخبرني غير ثقة من العارفين العالمين حال بلد الروم ممن أقام به مواطئ لحديث عيسى بن حبيب النجار : أن ضريبة أنطاكية على صاحب المراكب بها المجعول إليه قصد بلد الإسلام سقطت، وكانت قبل ذلك بسنين عند ما دار لهم الظفر بهم من بعد سنة عشرين وثلاثمائة ثلاثة قناطير ذهباً وتكون مع اللوازم التي تلحقها والهدايا ثلاثين ألف دينار ومائة أسير في كل سنة . تم تأكد خذلان الثغور وفشا نحسها وانهتك بالمعاصي وجور السلطان أستار أربابها فصارت بالأمانة، وتحرّى فيها متّلوها إقامة الناموس والديانة والحرص على الجهاد والنفاذ في مقاومة المسلمين بالعناد، وأنفذوا مراكبهم بالتجارة إلى بلد الإسلام ورجالها يجوسونه ويتفقدونه ويستبطنون أخباره، ثم يرجعون وقد علموا حاله إليهم بالخبرة فيتحكمون في مضاره، ويصلون بذلك إلى دواخله وسهله وأوعاره بمرأىً من سلاطين الإسلام ومنظرٍ، ومساعدة من أكثرهم على ما يحبونه وتقوية للعدو بفاخر السلاح ونفيس المتاع، ورغبة في يسير من الحطام يعود عليهم من تجارة يعملونها إلى بلد الروم، فتعود بخسيس من الأرباح والنار تحت ذلك تضرم عليهم والبلاء يفتل فيما يأخذونه، والشؤم يبرم عليهم فيما يأتونه ومتمثلهم يجهر بقوله ويضحك من غفلتهم عن فعله حتى ليسمع من فصحائهم دائماً متمثلون :

أرى تحت الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام

وكان مايصل إليهم من العشور على المتاع الواصل إلى اطرابزندة الداخل إليها والخارج

عنها، ويصل إلى متلي ذلك لقيامه بها من الهدايا المرسومة على تجارها ماسمعت الأكثر يقول: إنها مذ عرفت هذه الضرائب لم يبلغ من حين أخذ ملطية وشمشاط وحصن زياد عشرة قناطير ذهباً. وسبيلهم فيما يقيمونه من غزو المسلمين في البحر بالمراكب الحربية والشلندية والشينية أن يأتوا إلى كل ضيعة تقارب البحر، فيأخذوا من كل دخان أي من كل بيت دينارين، ويُجمع ذلك ويُدفع إلى النافذين في البحر اثنا عشر ديناراً لكل إنسان، ويأكل مما يلقاه فيما يغنمه ولاشيء له في الغنيمة من ثمن مسلم أو متاع يغنم، وكل ذلك متوفر على الملك.

قال: فإذا قبض رجال البحر أرزاقهم أصلحوا ما أحبوا استحداثه من مركب وآلة له أو مَرَمّةٍ لمركب قديم في صناعتهم، وما يبقى من المال المجموع من تلك الجهة صرفه المتليّ للبحر حيث يراه بعد حمله معه إلى بلد الإسلام وفراغه مما قصد له. وأما غزوهم في البر فإن ملكهم نقفور أخذ من كل دخان يسكنه رئيس منهم يملك خدماً وبقراً وغنماً وأرضاً ومزدرعاً في حال متوسطة عشرة دنانير عيناً ذهباً، ومن فوق هذه الطبقة في القوة جعل عليه رجلاً بسلاحه ودوابه وقوّامه ومؤنة ونفقة له ثلاثين ديناراً. وبهذا اتجه لنقفور ما اتجه في المسلمين لا أنه فرّق مالاً من خزائنه أو تصرف في ملك نفسه أو لزمه درهم فما فوقه من حاصله، بل ربح في خلال جمعه هذه الأموال وعند صرفها في النفقات أمراً ذكروه خرج به إلى بلد الإسلام، وعاد معه فاحتجنه وكانت جبايته لهذه الأموال على هذه الجهة السبب في مقت النصرانية له وبغضها لأيامه وتسخطها لبقائه، وخوفهم من وقوع معاودة لما ضريي عليه إلى بلد الإسلام فجعلوا ذلك سبباً لقتله وطريقاً للحجة عليه .

وأما حد بلد الروم فإن مشارق بلدانهم المضمومة إليهم والمضافة على مر الأوقات إلى متملكيهم ما واجه من ناحية الثغور الشامية والجزرية إلى آخر حدوذ أرمينية وشمالها من نواحي البجناكية وبشجرت (=الباشغرد)، وبعض بلاد الصقالبة،ومغربها بعض البحر المحيط وما حاذّ جليقية وإفرنجة من جزيرة الأندلس وبعض بحر المغرب، وجنوبيّهم بقية بحر المغرب وبعض ساحل الشام ومصر .

والمدن النفيسة قليلة في مملكتهم وبلادهم مع سعة رقعتها واتصال أيامها وحالها، وذلك أن جلها جبال وقلاع وحصون ومطامير وقرى في الجبال ،منحوتة وتحت الأرض منقوبة. وقد استولى الخليج الآخذ من القسطنطينية إلى اطرابزندة على أكثرها، وليس هناك مدينة مشهورة إلا ماوصفته وحددته. ومياههم كثيرة غزيرة وليس تمر على وجه الأرض مراً مستقيما، وإنما تتغلغل بين الجبال على غير قصد ولا استقامة سير.

وبلد الروم عند كثير من خاصة أهل الإسلام ومؤلفي الكتب بخلاف ماهو عليه بالحقيقة من صغر المحل وتفه الخطر، ونزور الدخل وضعة الرجال وعزة الأموال وخسيس الأعمال والأحوال، وهو عند من عنده وقبله أدنى ميزة ومعرفة وبحث عن حقائق الأمور، واهتم بمعارف أقطار الأرض والممالك وسكانها والجبايات فيها لايقارب أسباب المغرب وحده، ولا يدانيه ولا يشاكله في وجه من الوجوه لأني قد ذكرت من قبائل البربر المتبددين في صحاري المغرب مايستولي على ضعف عدد من تحوزه نواحي الروم، وماعندهم من القوة والجلد ومحلهم في البأس والشدة، فإنهم بحيث إذا دخل لهم جيش من المغرب إلى بلد الروم أباده وأباره وأهلكه وأتى عليه، وتتسرب العدة اليسيرة في أقطاره فتنشفها حتى إن لأهل المغرب على أهل قلورية في كل سنة جزية آلاف دنانير كثيرة تقبض منهم، وكانت ضعفها فأسقط النصف عنهم عبيدالله صاحب المغرب لحرم اجتازت ببلد الروم على القسطنطينية إلى ناحيته، ووصلوا الملك الذي كان في أيامهم شاكرين وكان خائفاً عليهم من صاحب مصر، غير أن للإسلام فيما عليه نفوس أهله وقلوبهم شأناً في انتشار الكلمة وفساد الحال، وكثرة العناد والخلاف والاشتغال بطلبه بعضهم لبعض ما خلا به للروم سربهم، فطالت أيديهم إلى ماكانت مغلولة عنه وأطماعهم محسومة منه.

وقد ذكرت هذا البحر وماعليه من المدن والبقاع من حد طنجة ونواحيها إلى أرض مصر وإلى آخر الشام من الثغور إلى أولاس، مما كان في أيدي المسلمين ولهم وشكّلت ذلك إلى أطراف بلد الروم وما دون الخليج وبعده من الأرض الصغيرة، وأثبت فيه أكثر ما بعد الخليج من أرض القسطنطينية ونواحي بلبونس وجون البنادقين، وأرض قلورية والإنكبردة وإفرنجة

وروميّة وجليقية وما يحادّ من نواحي الأندلس .

وعلى هذا البحر وفي بلد الروم جبال لا تحد لكثرتها ومنها جبال إقليمية، وإقليمية مدينة كانت للروم قديماً أتى عليها المسلمون وكان بعض أبواب طرسوس يدعى بباب إقليمية وينسب إليها، وهذه الجبال آخذة ببلد الروم يميناً وشمالاً. وإذا جزت إقليمية وكانت بعيدة من شط البحر بنحو مرحلة نزلت المكان المعروف باللامس قرية على شط البحر، كان الفداء يقع فيها بين المسلمين والروم، فيكون الروم في مراكبهم والمسلمون في البر يفادون. وتتصل هذه الناحية بإقليم أجيا معدن الميعة التي تجلب إلى جميع الأرض في البر والبحر من هذا الرستاق والناحية، ويمتد البحر إلى أنطاكية وبينهما أربعة أيام في البحر بطاروس جيد ومثلها في البر. وأنطاكية حصن منيع ورستاق عظيم مضاف إلى حصن أنطاكية وليس للملك عليه دخان ولا كلفة من صغير ولا كبير، وبه مرتبون للخرائط والبريد بالبغال والبراذين في البر ومرتبون في البحر، لنقل الحوائج والمتاع المختص بالملك. ومن آجيا المذكورة إذا أقلع في البحر ملجّج إلى مصر أربعة أيام، وبين أنطاكية والقسطنطينية ثمانية أيام في البر على البريد، وفي البحر على الطاروس خمسة عشر يوماً، والأرض التي بينهما عامرة مأهولة مسكونة لا تنقطع سابلتها من نواحي أنطاكية ورستاقها، وهو رستاق كثير الخير والمير إلى خليج القسطنطينية، وعلى الخليج سلسلة ممتدة لا تعبر عنها سفن البحر إلا بإذن وعلامة وعليها مرصد، ويقع هذا الخليج في بحر الروم من البحر المحيط على ما قدمت ذكره من نفس الشمال على طرف البرية التي لا تسلك برداً، فيمضي بقتر من أقتار ياجوج وماجوج ثم يخترق بلاد الصقالبة ويقطعها قطعتين ويتوسط بلد الروم .

ومن ورائه إلى المغرب بلاد أثيناس وروميّة، وكلاهما ذوات أعمال ورساتيق وبلدان ومدن مضافة إليها وبرسمها، وقرى ومزارع وقصور وحصون وملوك على قدر صالح. وروميّة وأثيناس مدينتان بهما مجمع النصارى وتقربان من البحر. فأما أثيناس فهي دار حكمة اليونانيين وبها تحفظ علومهم وحكمهم، وروميّة ركن من أركان ملك النصارى وبها كرسي النصارى ككرسي أنطاكية وكرسي الإسكندرية. والكرسي الذي ببيت المقدس محدث لم

يك في أيام الحواريين، واتخذوه بعدهم لتعظيم بيت المقدس، ثم تتصل أرض قلورية بأرض الإنكبرذة، وأول ذلك أرض شلوري ثم نواحي ملف. ومدينة ملف أخصب بلدان الإنكبرذة وأنظفها وأجلها أحوالاً وأكثرها يساراً وأموالاً، وتتصل أرض ملف بأرض نابل، وهي مدينة صالحة الحال دون ملف في أكثر أحوالها. وأكثر أموال أهل نابل من الكتان وثياب الكتان وبها منه ثياب ليس بسائر الأرض مثلها ولا ما يشاكلها ولا يستطاع. ولهم ثوب يعمل طوله مائة ذراع في عشر أذرع، ويباع الثوب منها بالدون فمن مائة وخمسين رباعي الثوب إلى ما فوق ذلك بقليل وأنقص بكثير. وتتصل أرض نابل بأرض غيطة ثم تتصل ديارهم بالإفرنجة على ساحل البحر إلى أن تحاذي صقلية وتجاوزها إلى أن تتصل بطرطوشة من أرض الأندلس.

وفي هذا البحر جزائر صغار وكبار وجبال غامرة وعامرة للروم والمسلمين. فأما المعمور بالإسلام والناس فصقلية، وهي أكبرها وأكثرها عدةً وأشدها بأساً بمن حوته من ناقلة المغرب، وهي ناحية قريبة من الإفرنجة وقد قدمت كثيراً من ذكرها. وكان للمسلمين في هذا البحر غير جزيرة جليلة وناحية مشهورة نبيلة، فاستولى العدو عليها كقبرس وأقريطش وكانتا جزيرتين كثيرتي الخير والمير والتجارة، والوارد منها والصادر إليها رائج. وكان أخذهما أحد الأسباب الزائدة في أطماع الروم لأنهما بما كان فيهما من الرجال والعدة والعتاد كالنار، لهيبها لا يفتر وأوارها لا يقصر، ينكون في بلد النصرانية صباح مساء نكايةً بينة ظاهرة يوجبها لهم قربهم من مطالبهم ومجاورتهم للروم في مساكنهم، فصمدت النصرانية صمدهما ووكدت وكدهما إلى أن فتحتا جميعا وملكتا. وكانت قبرس على غير ما كانت أقريطش عليه من مواقفه كانت بين أهلها فيها، وذلك أنها لم تزل قسمين، نصف للروم ونصف للمسلمين بها لهم أمير وحاكم، وأيدي المسلمين مبسوطة على من جاورهم من النصارى والنصارى بهم شقّين. وجزيرة أقريطش حرة مذ كانت وفتحت في أيدي المسلمين، ولم يكن للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج، وأهلها في غاية الجهاد، وفي حين الهدنة والمسالمة مصونة في شرائط بينهم غزيرة مقرونة بالقهر والاستظهار. وميرقة جزيرة خطيرة لصاحب الأندلس، وكذلك جبل الفلال مضاف إلى ذلك العمل، وليس ميرقة

بالمدانية لصقلية في حال من الأحوال وإن كانت ذات خصب ورخص وسائمة ونتاج وخير؛ فإنها تقصر عن صقلية في العدة والعتاد والقوة على الجهاد وكثرة التجارة ووفور العمارة.

ومن الجزائر المشهورة غير العامرة جزيرة مالطة، وهي بين صقلية وأقريطش، وبها إلى هذه الغاية من الحمير التي قد توحّشت والغنم الكثير الغزير، وبها من العسل أيضاً ما يقصدها قوم بالزاد لاشتياره ولصيد الغنم والحمير، فأما الغنم فتكسد والحمير فيمكن الورود بها إلى النواحي فتباع وتعتمل. والذي سبب هلاك الجزيرتين بعد قصد العدو لهما ما صار إليه أهلها من البغي والحسد والنكد، حسب ما خامر أهل الثغور من ذلك إلى استباحة الفساد والفسوق والغدر والغيلة والتضاد والعناد، فجُعلوا عبرةً للمعتبرين وموعظة للسامعين الناظرين. " ولن يصلح الله عمل المفسدين ولا يضيع أجر المحسنين." وقد ذكرت أن من جبلة إلى قبرس يومين ومنها إلى جانب بلد الروم مثله، وبقبرس المصطكي الجيد والميعة الكثيرة والحرير والكتان، وبها من القمح والشعير والحبوب والخصب مالا يوصف كثرة. والجبل الفلال الذي بنواحي إفرنجة بأيدي المجاهدين عمارة وحرث ومياه وأراض تقوت من لجأ إليهم، فلما وقع إليه المسلمون عمروه وصاروا في وجوه الإفرنجة والوصول إليهم ممتنع، لأنهم يسكنون في وجه الجبل فلا طريق إليهم ولا متسلق عليهم إلا من جهة هم منها آمنون ومقداره في الطول نحو يومين.

وليس في البحار أعمر حاشية من هذا البحر، لأن العمارات من جنبتيه ممتدة غير منقطعة ولا ممتنعة، وسائر البحار تعترض في شطوطها المفاوز والمقاطع. وقد ألح الروم في هذا الوقت على سواحل الشام بالغارة ونواحي مصر، فهم يختطفون مراكبهم من كل أوب ويأخذونها من كل جهة ولا غياث ولا ناصر، ومن للمسلمين بناظر، والملك فيهم هامل شاغر، والملك جماع مناع، والعالم يسرق ولا يشبع، ويفتي بالباطل على ما يبلع، ولا يخاف معاداً ولا مرجعاً، والفقيه ذئب أدرع، في كل بلية يشرع، وبكل ريح يسري ويقلع، والتاجر فاجر مسقع، لا يعاف حراما ولا مطمعاً، والديار والأعشار بيد الأعداء متسلمة، والأملاك مغتصبة مصطلمة، والأرض من أربابها إلى الله تعالى متظلمة؛ وهذه جمل صفة بحر الروم وجزائره وما عليه مما يحتاج إلى علمه).

(12)

بحر الروم (البحر المتوسط)

الدمشقي : من كتاب (نخبة الدهرفي عجائب البر والبحر)

(قال الدمشقي :زعم المؤرخون أن الإسكندر حفر الزقاق(= مضيق جبل طارق) وأجراه من المحيط غضباً على أهل البلاد والأقاليم التي أغرقها به . وزعم قوم منهم أنه حفره ليكون فارزاً بين أهل الأندلس والبربر وأهل بر العدوة والأشبان، يمنعهم من الغارات التي يغادرونها بعضاً على بعض وذلك بعد شكوى منهم إليه . وزعم آخرون أنه لم يحفره ولكنه أراد أن يعمّر عليه جسراً على قناطر ففعل ذلك ثم إن البحر طما وزاد وغطاها واتسع واستمر وإنه إلى الآن ينظر الراكب فيه إلى القناطر تحت الأرض عند سكون الريح وهدوء الموج ونقص مدّه وجزره . وطول عرض الزقاق ثمانية عشر ميلاً الآن،والجسر الذي بناه الإسكندر في أضيق مكان أمكنه البناء وهو أربعة آلاف خطوة وذلك طول ميل واحد وقسّمه سبعين قنطرة باثنين وسبعين برجاً قاعدة ،مابين كل حنيّة منها مع برج خمسون ذراعاً .وابتدأ العمل من الساحليْن حتى ختم بالوسط .

قال أهل الهندسة وكيفية بناء ذلك أنه بنى في الطرفيْن ما أمكنه ارتكاكاً ردماً حتى وصل إلى الماء العميق المتحرك بالموج فاتخذ عليه مراكب كالجسر وأوصل بعضها ببعض بالحبال حتى اتصلت ولزمت بعضها ببعض بالحبال والإيثاق ،ثم أوصل كعاب سلاسل الحديد المحكمة كعباً إلى كعب، وعلقها في المراكب شيئاً بعد شيء حتى أوصلها سلسلةً واحدة من البر إلى البر، ثم أوثق أطرافها من الناحيتيْن ،ثم إنه مد ثلاث سلاسل أخرى كذلك ،وجعل بين كل سلسلتيْن مراكب منظومة جسراً محكماً ،وجعل بين هذين الجسرتين فضاء في البحر نحو أربعين ذراعا .

ثم فرش في الفضاء على وجه البحر طوال الخشب المحكم التداخل بعضها ببعض بالدسر والقلفاط حتى صار الفرش كمثل الحصير المفروش على وجه الماء ،وهو ملأ ذلك الفضاء بين

تلك السلاسل وجعل مثل الواحد المفروش مفارش بعدد الأبرجة التي بين الحنايا، فلما كمل أقام على كل مفرش منها حائطاً من الخشب المحكم والتصفيح بالحديد نحو قامة ثم بنى في وجه كل مفرش مدماكاً بالحجارة والكلس ثم رفع الحوائط بالخشب كذلك، ثم بنى مدماكاً فوق مدماك حتى وصل المفرش إلى أرض البحر ،وهو برج من حجارة محكم البناء له غلاف كالصندوق من الخشب المدسر المحكم التصفيح بالقلفاط، فلما استقر كل مفرش وصار برجاً قائماً في الماء ممسوكا بين السلاسل، بنى عليه مداميك ارتفع بها عن ضرب الموج وعن زيادة المد ،ثم ترك ذلك سنة على تلك الحالة ،ثم تفقده بإصلاح .

ثم بنيت أوائل القناطر على رؤوس تلك الأبرجة ثم جعلت لها القوالب وعقدت عليها فكملت ،ثم تركت سنة ثانية، ثم ركب بالعمارة جسراً طوله أربعة آلاف ذراع وزيادة مئتي ذراع، واستمر حتى طغى البحر فركب الجسر وفاض عليه وعم ما حوله حتى وصل إلى ما وصل إليه من البلاد، وتحيّر بعض أهل البحر المسافرين فيه أنهم بعض الأحيان يتوقف الريح ويسكن البحر فيرون في قرار البحر أسواراً وعمارات قائمة فيه تحت الماء. وهذا الزقاق صعب شديد تلاطم الموج يجد السالكون فيه مشقة من هوله وصعوبته لمجاورته من البحر المحيط ومبدأ جري هذا الزقاق من ارتفاع ست وثلاثين درجة عرضاً من الإقليم الرابع.

قال أهل العلم بذلك إن بحر طنجة وسبتة والروم المسمى بحر مانيطس المذكور إذا خرج من الزقاق انفرش فيما بين جبلين، واندفع إلى جهة المشرق في نحو طول ثمان وخمسين درجة وهي بالفراسخ ألف فرسخ وستة وعشرون فرسخاً وهي بالأميال ثلاثة آلاف ميل وستة وسبعون ميلاً وعرضه الأعرض وهو من عرض ثلاثين إلى ثلاث وأربعين درجة وهي بالفراسخ مائتا فرسخ وسبعة وثلاثون فرسخاً وهي بالأميال سبعمائة ميل وأحد عشر ميلاً ،وهو بين العلايا وإسكندرية .ومسافته بالمراحل سبع وثلاثون مرحلة، وطبيعة هذا البحر حارة رطبة بالنسبة إلى بحر الجنوب الحار اليابس وإلى البحر الشمالي البارد الرطب، ويبس بحر الجنوب لغلبة ملحيته وحرارته. وأعمق عمقه ثلاثمائة باع إلى ما دون ذلك.

وأول انفراشه من الزقاق بأرض البربر على سفلي سبة وقصر الجواز، ويسمى قصر

عبدالكريم وإلى المزمة. وهناك ينفرش بحراً كصورة الخرطوم المعقّف يسمى بحر المزمة، ثم يمتد منفرشاً في أرض إفريقية إلى برقة إلى إسكندرية. وهناك يكون عند انعطافه كصورة الدائرتين متلاصقتين، ثم ينعطف إلى شمال أرض التيه، ثم يأخذ بحر الشام صدره ماراً بأرض فلسطين وسواحل الشام إلى أن يتصل بذيل لبنان الغربي، فيمر بطرابلس الشام إلى اللاذقية وإلى أنطاكية وذيل جبل الأقرع إلى السويدية وأذنة، ثم ينعطف في آخر بلاد سبس إلى جهة المغرب ويمر ببلاد الروم إلى العلايا وأنطالية وإلى الأشكري إلى بلاد الجلالقة إلى بلاد الخرياط إلى أرض المصطكي إلى الساعد المسمى خليج قسطنطينية، ثم يمر بها مغرباً إلى بلاد جنوة إلى بندقية إلى بيزان إلى بلاد سردانية إلى بلاد برسلونة إلى جزيرة بلنسية إلى بلاد الأندلس .فيمر بجبال ميرقة ثم بالجزيرة الخضراء إلى الزقاق الذي ابتدأ انفراشه منه.

ولهذا البحر الرومي مد وجزر مع امتلاء القمر بالنور ونقصانه منه ،وله مد وجزر في كل يوم وليلة، كما للبحر المحيط منه. اختلفوا في الساعد الخارج منه عند قسطنطينية فزعم قوم أنه داخل إليه من بحر نيطس الذي هو البحر الأسود، يسمى بحر الروس متصل ببحر ورنك والصقالبة. وزعم قوم أن هذا البحر الرومي هو الذي يصب من الساعد في بحر الروس وأن بحر الروس غير متصل ببحر ورنك لاتصال الأرض الكبيرة من الأندلس إلى ما وراء النهر وإلى صحارى القبجق لا يقطع السير منها إلا نهر الحلوة فقط. وقيل إن طوله الأطول من الزقاق إلى صقلية إلى رودس إلى شمال قبرس إلى أنطاكية خمسة آلاف ميل .وإن فيه مايزيد على مئة وسبعين جزيرة عامرة بطوائف الفرنج، فأخرب المسلمون أكثرها بالمغار في صدر الإسلام فبقي بعضها خرابا وبعضها استرجعوه بنو الأصفر والله أعلم .

فمن جزائر البحر الرومي جزيرة صقلية وهي حيال إفريقية ؛فلما كانت في أيدي المسلمين كانت كثيرة العلماء والأدباء والفضلاء مضاهية الأندلس وشكلها مثلث يحيط بها خمسمائة ميل كثيرة الجبال والأشجار والثمار والأنهار والمدن والحصون على السواحل منها ومن مدنها المشهورة بلرموه، وبها يكون الملك ولها ربض وكانت قصبة الجزيرة بعد أن فتحها المسلمون ثم انتقل الرأس منها إلى الخالصة، وهي محدّثة بنيت في أيام القائم أبي

القاسم المهدي سنة خمس وعشرين وثلاثمائة. ومدينة قطانية وكانت عظيمة فأحرقها البرقان الذي في الجزيرة فبنى الأنبرور مدينةً عوضها وسماها غسطارة.

ومدينة مسينة هي على أحد أركان الجزيرة، ومدينة سرقوسة وهي على الركن الآخر، والبحر يحدق بها من ثلاث جهاتها ولها قنطرة يجاز عليها إليها. ومن بلاد الجزيرة البرية الشاقة ومازر وكركنت ونوطس وشكله وطبرمين وقصريانة ورغوش وغنطة ورمطة وأميش ويرتيه ،وغيرها مما لافائدة في ذكرها. وهذه الجزيرة أربعة عشر رستاقاً كباراً. وبالقرب من الجزيرة جزيرة أخرى ملاصقة لها وهي أطمة البركان ترمي من نارها حذفاً إلى السماء بأجسام كأجسام الناس بلا رؤوس فتعلوا بالهواء ثم تسقط في البحر على وجه الماء،وفيها حجارة حك الرجل وقبالة هذه الأطمة جبل بالجزيرة ويسمى بجبل اللكام وهو شامخ مطل على البحر وفي ذيله أشجار البندق والأرز والقصطل وفي أعلاه منفس للنار مثل منفس الأطمة يخرج منه النار ترى ليلاً من بعد بعيد في البحر وترى دخاناً في النهار، وكذلك حولها رماد عظيم نعيم قد أحاط بها لايطاق خوضه لأحد لنعومته وحرارة أعاليه القريبة من وقع النار ويخرج من هذا المنفس أيضاً حجارة أصغر من حجارة الأطمة ،وربما مالت وسالت منه إلى بعض جهاته فتحرقها وتحرق ما تمر عليه وتجعله كخبث الحديد.

وركاب البحر يزعمون أن النار التي بين هذين الجبلين قتال وحرب بينهما، وأنه لا ينفك الحرب عنهما. وكان اليونان يسمون هذا الجبل جبل الذهب لما فيه من معادن الذهب ومعادن الكبريت والزيبق وغير ذلك. جزيرة يابسة وهي جبال جزيرة الأندلس وطولها وعرضها يومان في يوم وبها مدينة صغيرة مسورة، وجزيرة بلنسية ثلاث أيام في يومين وبها مدينتان عامرتان، وجزيرة ميرقة عامرة وهي يومان في مثلها، وجزيرة مانورقة وطولها وعرضها يومان في نصف يوم وبها مدينة عامرة، وهاتان الجزيرتان للكاطلان.

وجزيرة رودس حيال بلاد إفرنجة يحيط بها ثلاثمائة ميل وفيها حصنان. وجزيرة سردانية طولها مئتا ميل وثمانون ميلاًو عرضها مائة وثمانون ميلاً وبها ثلاث مدن وبها معدن الفضة وسكانها روم متوحشون أولو أبدان صبورة على الشقاء والكد يخالفون الفرنج في المذهب .

وجزيرة بلبونس دورها ألف ميل ولها مجاز إلى البر الطويل عرضه ستة أميال، وفيها ما يزيد على خمسين مدينة القواعد منها خمس عشرة مدينة أشهرتها عند الإفرنج. وجزيرة مالطة طولها سبعون ميلاً وعرضها ثلاثون ميلاً وبها مدينة مسماة باسمها. وجزيرة قوصرة جزيرة كبيرة وبها مواضع متوحشة غير مسكونة ،ويزعم أهلها أن بها جانا ظاهرون للناس وأن كل واحد منهم يسمى شيطانا. وجزيرة جالطة وتعرف بجزيرة الغنم وبها غنم كثير سائبة يرعون ويتوالدون ولا أحد يذبح منها شيئاً إلا نادرا، وهذه الأغنام كالوحش نفورا. وبهذه الجزيرة دير الغنم كذلك.

وجزيرة أقريطش وهي حيال برقة طولها ثلاثمائة ميل وثلاثون ميلاً، وفيها مدينتان إحداهما تسمى الخندق والأخرى ربض الجبن ،وفيها معدن الذهب .والبنج الأقريطشي منها .وكذلك الأفتيمون الجيد منه يجلب. وجزيرة قبرس، وقبرس اسم النحاس لأن بها معدنه ويحيط بها ألف وخمسمائة ميل، وفيها من المدن الجليلة النمسون ومدينة الفاف والماغوصة والأفقسية، وهي مستقر الملك، وهي في وسط الجزيرة، والبواقي في السواحل. وسهولها شبيهة بأرض مصر وطينها إبليز وجبالها شبيهة بجبال الشام والروم،وبها جبل فيه صنم منحوت ودير عظيم عنده وصليب يسمونه صليب الصلبوت خشب مغلف الأطراف بالحديد المطلي بالذهب محمول الأطراف بالمغناطيس في الهواء بين قواعد كبار من حجارة مغناطيس صنعه شياطين النصارى لجهلهم . وجزيرة أرواد بالقرب من ثغر أنطرسوس وهي ستة أميال طولاً وعرضاً، وبها حصن فتحه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أول غزوة لبحر الروم وبنى ثغر أنطرسوس على أثر بناء قديم قبل بنائه له.

وجزيرة النخلة بحيال طرابلس الشام صغيرة متصلة بها ثلاث جزائر صغار فيما بينها وبين الساحل، وجزيرة الموت جزيرة صغيرة لايسكنها أحد؛ لأنّ بها نباتاً وأشجاراً تقتل بشم ريحها وبطلّها وبأكل شيء منها، وورق هذا الشجر يشبه ورق الحمص والسذاب. وجزيرة الغراب بالقرب من ساحل سردانية بها كنيسة على رأس جبل بها قبة عالية على رأس القبة غراب يرى ليلاً ونهاراً يطير ويحط فيها ويدور حولها، وإذا صعد الإنسان إليه لا يراه ويكون

رفيقه من أسفل يراه. وفي القبة بأعلاها كوة تسع الغراب، وكلما قصد الكنيسة زائر أو زوار صاح الغراب بعددهم إعلاماً لأهلها بالزائرين. وجزيرة دير وهي ببحر قسطنطينية بشعاب بحرها ووعره طولها ميلان في نصف ميل، والدير الذي سميت به الجزيرة لايزال مغموراً بالماء طول السنة إلا يوماً واحداً وهو رابع عشرون حزيران فإنه ينكشف الماء عن الدير والناس يقصدونه للزيارة ووفاء النذر فإذا كان يوم ظهوره انحسر الماء عنه وبقي مكشوفاً إلى بعد العصر ثم يشرع الماء يغمره قليلاً قليلاً إلى وقت المغرب فيتوارى مغموراً بالماء إلى مثل ذلك اليوم من السنة المقبلة. وجزيرة لزقة جزيرة صغيرة وبها مدينة تعرف بها .

قال أهل العلم بذلك يخرج من بحر الروم خليجان: أحدهما يسمى خليج البنادقة والآخر يسمى قسطنطينية. فأما خليج البنادقة فخليج متسع ليس له فوهة وإنما هو جون له ركنان سعة مابينهما سبعون ميلاً ويحيط بهذا الجون مدن جليلة لطائفة من الفرنج البنادقة وهي ذوات حط وإقلاع وحصون وفيه ست جزائر ثلاث في صف وثلاث في صف. بها مدن عامرة وثلاث معرضة من ركنية مهملة. وأما الخليج الثاني فساعد ممدود عند إصطنبول، التي هي قسطنطينية تسمى باليونانية مانيطس، وفوهته مقابلة لجزيرة قبرس من الشمال وسعته رمية سهم. ويقال أنه كان عليه سلسلة طرفاه من برجين تمنع الراكب من الدخول إلا بإذن الموكلين بها، ويمر هذا الخليج نمو مائتي ميل وخمسين ميلاً إلى البحر المسمى الأسود وبحر طرابزندة والروس .وتكون إصطنبول من غربيّه يحيط بها من جانبيه ومن شرقيها أرض المصطكي، وهي شعراء وجبال مستحرمة. وعرض الخليج عندها ثلاثة أميال ثم يمر إلى ثلاثين فرسخاً حتى يصب في بحر مانيطس، وعرض فوهته هناك ستة أميال.

وذكر ابن حوقل أنه يخرج من المحيط خليج ثالث في شمال الصقالب، ويمتد إلى قريب من بلغار المسلمين، وينحرف نحو الشرق. وبين ساحلة وبين أقصى بلاد الترك أراضي وجبال مجهولة خراب . . .

قال المعتنون بتدوين العجائب إن في بحر الروم من الحيوان العجيب سمكة كصورة رجل أحمر اللون كبير الجثة، رأسه مثل رأس القرعة أبيض كأنه رأس إنسان محلوق وجهه طويل،

وفمه مكون كتكوين فم القرد، وله ودجان من لحيته إلى أصول رقبته كالزرّيْن بارزين ، وليس له رجلان وله يدان صغيرتان وبدنه من نصفه الأسفل بدن سمكة بذنب مفروش يظهر بوجه الماء نصفه الأعلى، ويلتفت برأسه يميناً وشمالاً وعيناه كبيرتان كعين البقر مستديرتان في وجهه ثم يغطس على رأسه في الماء كالمتقلب سفلاً في العلو وكثيرا ما يرى هذا الحيوان بالقرب من السواحل بأذيال الجبال ذوات المغائر والمداخل، ومنها موضع وجه الحجر بالقرب من طرابلس الشام وسمكة لها وجه آدمي بلحية بيضاء ولون جسده كلون الضفدع، وهي في قدر العجل ويسمى الشيخ اليهودي، يخرج من البحر ليلة السبت قبل غروب الشمس إلى البر ولايزال إلى غروب الشمس ليلة الأحد فيدخل البحر.

وسمكة أيضاً كصورة رجل محارب بيده سيف قصير وبالأخرى ترس مدوّر، وعلى رأسه بيضة برفرف، وذلك كله قطعة واحدة، حيوان واحد، جسم حي واحد، السيف عضو والترس عضو، والخوذة عضو، يسمى :سيّاف البحر .وأكثرها يوجد ببحر سردانية وبرشلونة والله أعلم. وحيوان كهيئة الرجل والمرأة بالوجوه، وأبدانها أبدان السمك. وهذا النوع يوجد كثيراً قريب زقاق سبتة ،وفيه وفي البحر المحيط منه بكثرة، وربما حمله البحر إذا مدّ فيلقيه في الساحل عند جزره يتخبط فيصاد بسرعة قبل عود المد إليه. وسمكة طولها نحو شبرين أو أقل مكتوب على ظهرها بالعربية : لا إله إلا الله ومكتوب بين أذنيها من خلف: محمد رسول الله. وهذه السمكة توجد حول مياه قسطنطينية حيث يوجد السمك الذي يسمونه سقنقورا، وهو نوع من القرش وفي الساعد ويتبارك بها الصيادون ويردونها إلى البحر إذا صادوها. وسمكة تسمى البغل وهي بحرية برية صوتها كشهيق البغال إذا خافت أو حدث لها حال. وسمكة تعرف بحوت موسى طولها أكثر من ذراع وهي جانب ملآن لحم وجانب فارغ من اللحم، الجلد على العظم، والصيادون أيضاً يتباركون بها ولا يأكلونها ،ويقولون هذا من نسل حوت موسى ويوشع عليهما الصلاة والسلام. وسمكة كصورة القلنسوة، شفافة الجسم كشفوف الزجاج شبيهة بالبيضة يعنى الخوذة ،ولها أربعة أجرام من وسطها ترى في الليل مضيئة كالقمر إذا حجب بالسحاب الرقيق، ولها ضوء يشرق على ماحولها في البحر ولونها أزرق سماوي يقال لها قنديل البحر، وإذا أحست بالإنسان يعوم حولها أو أراد

مسكها، خرج لها رشاش لذاع يحرق الجسد مثل شرار النار من سميته، وهو يلقيه البحر بساحله كثيراً. وسمكة تعرف بالمنارة تخرج من الماء كصورة المنارة الرفيعة تلقي نفسها حيث اتفق فربما صادفت سفينة فتغرقها إذا أصابتها لعظم جثتها.

وبالبحر طائر أبيض لايكاد يرى في البر، ومن شأن هذا الطائر إنذار المراكب من العدو متى رأوه علموا أنهم ملاقون عدواً. وسمكة لها أجنحة تطير بها على وجه البحر ومنقار طويل نصف شبر. وسمكة يقال لها السيفياص، ظهرها الذي يأخذونه الصاغة يقلبون فيه الخواتم وأعمدة الحوائص يسمونه زبد البحر. وهذه الأسماك تأتي إليها الأسماك ليأكلوها فتذرق عليهم في الماء حبراً أسود يحول بينهم وبينها فتذهب لسبيلها. فسبحان الخلاق العليم القادر على كل شيء).

(13)

البحر الحبشي (المحيط الهندي)

المسعودي : من كتاب (مروج الذهب)

(قال المسعودي: قدروا بحر الهند، وهو الحبشي، وأنه يمتد طوله من المغرب إلى المشرق من أقصى الحبش إلى أقصى الهند والصين، ثمانية آلاف ميل، وعرضه ألفان وسبعمائة ميل، وعرضه في موضع آخر ألف وتسعمائة ميل، وقد يتقارب في قلة العرض في موضع دون موضع، ويكثر كذلك، وقد قيل في طوله وعرضه غير ما وصفنا من الكثرة، وأعرضنا عن ذكره لعدم قيام الدلالة على صحته عند أهل هذه الصناعة. وليس في المعمور أعظم من هذا البحر، وله خليج متصل بأرض الحبشة يمتد إلى ناحية بربرى من بلاد الزنج والحبشة، ويسمى الخليج البربري، طوله خمسمائة ميل، وعرض طرفيه مائة ميل، وليست هذه بربرى التي ينسب إليها البرابرة الذين ببلاد المغرب من أرض إفريقية؛ لأن هذا موضع آخر يدعى بهذا الاسم، وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج ، وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب

يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري – وهم يعرفونه ببحر بربري، وبلاد جفوني – أكثر مسافة مما ذكرنا، وموجه عظيم كالجبال الشواهق؛ فإنه موج أعمى، يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية، لاينكسر موجه، ولايظهر من ذلك زبَد، كتكسر أمواج سائر البحار، ويزعمون أنه موج مجنون. وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد، فإذا توسطوا هذا البحر، ودخلوا بين ما ذكرناه من الأمواج ترفعهم وتخفضهم، فيرتجزون ويقولون:

بربرى وجفوني ... وموجك المجنون

جفوني وبربرى ... وموجها كما ترى

وينتهي هؤلاء في بحر الزنج إلى جزيرة قنبلو، وإلى بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج، والأسافل من بحرهم، ويقطع هذا البحر السيرافيون، وقد ركبتُ أنا هذا البحر من مدينة سنجار، من بلاد عمان (وسنجار قصبة بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين، وهم أرباب المراكب، مثل محمد بن الريدوم السيرافي، وجوهر بن أحمد، وهو المعروف بابن سيرة، وفي هذا البحر تلف ومَنْ كان معه في مركبه، وآخر مرة ركبتُ فيه في سنة أربع وثلاثمائة من جزيرة قنبلو إلى مدينة عمان، وذلك في مركب أحمد و عبدالصمد أخوي عبدالرحيم بن جعفر السيرافي، بميكان، وهي محلة من سيراف، وفيه غرقا في مركبهما وجميع من كان معهما، وكان ركوبي فيه أخيراً والأمير على عمان أحمد بن هلال بن أخت القيتال، وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن، وأصابني فيها من الأهوال مالا أحصيه كثرة، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج الذي قدمنا ذكره. وفيه السمك المعروف بأفال، طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع إلى خمسمائة ذراع بالذراع العمرية، وهي ذراع ذلك البحر، والأغلب من هذا السمك طوله مائة ذراع، وربما يهز البحر فيظهر شيئاً من جناحه، فيكون كالقلع العظيم، وهو الشراع، وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجو أكثر من ممر السهم، والمراكب تفزع منه في الليل والنهار، وتضرب له بالدبادب والخشب لينفر من ذلك، ويحشر بأجنحته وذنبه السمك إلى فمه، وقد فَغَر فاه، وذلك السمك يهوي إلى جوفه جرياً، فإذا بغت هذه

السمكة بعث الله عليها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك فتلصق بأصل أذنها فلا يكون لها منها خلاص، فتطلب قعر البحر، وتضرب بنفسها حتى تموت، فتطفو فوق الماء، فتكون كالجبل العظيم، .وربما تلتصق هذه السمكة المعروفة باللشك بالمركب فلا يدنو الأفال مع عظمتها من المركب، ويهرب إذا رأى السمكة الصغيرة، إذ كانت آفة له وقاتلته .

وكذلك التمساح يموت من دويبة تكون في ساحل النيل وجزائره، وذلك أن التمساح لا دبر له، وما يأكله يتكون في بطنه دوداً، وإذا آذاه ذلك الدود خرج إلى البر فاستلقى على قفاه فاغراً فاه، فيقيّض الله إليه طير الماء كالطيطوي والحصافي وغير ذلك من أنواع الطيور وقد اعتادوا ذلك منه، فيأكل ماظهر في جوفه من ذلك الدود، وتكون تلك الدويبة قد كمنت في الرمل تراعيه، فتدب إلى حلقه، وتصير في جوفه، فيخبط بنفسه في الأرض فيطلب قعر النيل حتى تأتي الدويبة على حشوة جوفه ثم تخرق جوفه وتخرج، وربما يقتل نفسه قبل أن تخرج فتخرج بعد موته، وهذه الدويبة تكون نحوا من ذراع على صورة ابن عرس، ولها قوائم شتى ومخالب .

وفي بحر الزنج أنواع من السمك بصور شتى، ولولا أن النفوس تنكر مالم تعرفه وتدفع مالم تألفه، لأخبرنا عن عجائب هذه البحار، ومافيها من الحيتان والدواب، وغير ذلك من عجائب المياه والجماد .

فلنرجع الآن إلى ذكر تشعب مياه هذا البحر وخلجانه، ودخوله في البر ودخول البر فيه، فنقول: إن خليجاً آخر يمتد من هذا البحر الحبشي فينتهي إلى مدينة القلزم من أعمال مصر، وبينها بين فسطاط مصر ثلاثة أيام، وعليه مدينة أيلة والحجاز وجدة واليمن، وطوله ألف وأربعمائة ميل، وعرض طرفيه مائتا ميل، وهو أقرب المواضع من عرضه، وعرضه في الوسط سبعمائة ميل، وهو أكثر العرض فيه، ويلاقي ماذكرناه من الحجاز وبلاد أيلة من غربيه من الساحل الآخر من هذا الخليج بلاد العلاقي وبلاد العيذاب من أرض مصر وأرض البجة، ثم أرض الحبشة والأحابش والسودان إلى أن يتصل ذلك بأقاصي أرض الزنج وأسافلها، فيتصل إلى بلاد سفالة من أرض الزنج، ويتشعب من هذا البحر خليج آخر، وهو بحر فارس، وينتهي

إلى بلاد الأبلة والخشبات وعبادان من أرض البصرة، وعرضه في الأصل خمسمائة ميل، وطول هذا الخليج ألف وأربعمائة ميل، وربما يصير عرض طرفيه مائة وخمسين ميل. وهذا الخليج مثلث الشكل ينتهي أحد زواياه إلى بلاد الأبلة، وعليه مما يلي المشرق ساحل فارس من بلاد دورق الفرس وماهر بان ومدينة حسان، وإليها تضاف الثياب الحسانية، ومدينة نجيرم ببلاد سيراف، ثم بلاد ابن عمارة، ثم ساحل كرمان، وهي بلاد هرموز، وهرموز مقابلة لمدينة سنجار من بلاد عمان، ثم يلي ساحل كرمان ويتصل به على ساحل هذا البحر بلاد مكران، وهي أرض الخوارج الشراة، وهذه كلها أرض نخل، ثم ساحل السند، وفيه مصب نهر مهران.

وهناك مدينة الديبل، ثم يكون ماراً متصلاً بساحل الهند إلى بلاد بروض، وإليها يضاف القنا البروضي، براً متصلاً إلى أرض الصين ساحلاً واحداً، ويقابل ماذكرنا من مبدأ ساحل فارس ومكران والسند :بلاد البحرين، وجزائر قطر، وشط بني جذيمة، وبلاد عمان، وأرض مهرة إلى رأس الجمجمة إلى أرض الشحر والأحقاف، وفيه جزائر كثيرة مثل جزيرة خارك، وهي بلاد جنابة، لأن خارك مضافة إلى جنابة، وبينها وبين البر فراسخ ،وفيها مغاص اللؤلؤ المعروف بالخاركي، وجزيرة أوال فيها بنو مَعْن وبنو مسمار وخلائق كثيرة من العرب بينها وبين مدن ساحل البحرين نحو يوم، بل أقل من ذلك. وفي ذلك الساحل مدينة الزارة والعقل والقطيف من ساحل هجر، ثم بعد جزيرة أوال جزائر كثيرة، منها جزيرة لافت، وتدعى جزيرة بنى كاوان، وقد كان افتتحها عمرو بن العاص وفيها مسجده إلى هذه الغاية، وفيها خلق من الناس وقرى وعمارة متصلة، وتقرب هذه الجزيرة إلى جزيرة هنجام، ومنها يستسقي أرباب المراكب الماء، ثم الجبال المعروفة بكسير وعوير وثالث ليس فيه خير، ثم الدردور المعروف بدردور مسندم، ويكنيه البحريون بأبي جهرة، وهذه مواضع من البحر، وجبال سود ذاهبة في الهواء لا نبات عليها ولاحيوان يحيط بها مياه من البحر عظم قعرها وأمواج متلاطمة تجزع منها النفوس إذا أشرفت عليها، وهذه المواضع من بلاد عمان وسيراف لا بد للمراكب من الجواز عليها والدخول في وسطها، فتخطئ وتصيب. وهذا البحر هو

خليج فارس ،ويعرف بالبحر الفارسي عليه ماوصفنا من البحرين وفارس والبصرة وكرمان وعمان إلى رأس الجمجمة، وبين هذا الخليج وخليج القلزم أيلة والحجاز واليمن. ويكون بين الخليجين من المسافة ألف وخمسمائة ميل، وهي داخلة من البر في البحر، والبحر يطيف بها من أكثر جهاتها على ماوصفنا .

فهذا بحر الصين والهند وفارس وعمان والبصرة والبحرين واليمن والحبشة والحجاز والقلزم والزنج والسند ومَن في جزائره ومن قد أحاط به من الأمم الكثيرة التي لا يعلم وصفهم ولا عددهم إلا من خلقهم سبحانه وتعالى، ولكل قطعة منه اسم يفردها من غيرها، والماء واحد متصل غير منفصل .

وفي هذا البحر مغاصات الدر واللؤلؤ، وفيه العقيق والبادبيج، وهو نوع من البجادي، وأنواع الياقوت والماس والسنباذج، وفيه معادن ذهب وفضة نحو بلاد كلة وسريرة، وحوله معادن حديد مما يلي بلاد كرمان، ونحاس بأرض عمان، وفيه أنواع الطيب والأفاويه والعنبر وأنواع الأدوية والعقاقير والساج والخشب المعروف بالدارزنجي والقنا والخيزران، وكل ما ذكرنا من الجواهر والطيب والنبات ففيه وحوله، وسائر ماذكرنا من هذا البحر يدعى بالبحر الحبشي، ورياح ما وصفنا من قطعة التي تدعى كل واحدة منها بحراً – كقولنا: بحر فارس، وبحر اليمن، وبحر القلزم، وبحر الحبش، وبحر الزنج، وبحر السند، وبحر الهند، وبحر كلة، وبحر الزابج، وبحر الصين – فمختلفة، فمنها ما ريحه من قعر البحر يظهر فتغليه ويعظم موجه كالقدر تفور مما يلحقها من مواد حرارة النار، ومنها ما ريحه والآفة فيه من قعره والنسيم، ومنها ما يكون مهبه من النسيم دون ما يظهر من قعره، وما وصفناه مما يظهر من قعره من الرياح فذلك تنفسات من الأرض تظهر في سطحه. والله عز وجل أعلم بكيفية ذلك. ولكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفونها في أوقات تكون منها مهابها قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً، ولهم فيها دلائل وعلامات، يعملون بها إبان هيجانه، وأحوال ركوده وثورانه .)

(14)

جزائر المحيط الهندي

الدمشقي: من كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر)

في وصف الجزائر المخصوصة ببحر الهند المتصل ببحر الصين، ووصف ما فيه من العجيب والغريب

(فمن أول جزائر بحر الهند بالجنوب وراء خط الاستواء جزيرة أصرار يحيط بها نحو ألف ميل وبها مدينة سميت الجزيرة باسم المدينة، وفي طرفها جبل شاهق مطل على البحر فيه نوع من القرود كبار الجثة وأحدهم كالبقرة أو الحمار ولهم شعور من رقابهم إلى أكتافهم طوال ناعمة سبطة شبيهة وبر السرسينا، وهي ملونة ألواناً طاؤوسية وليس لهم أذناب ومقاعدهم حمر شديدة الحمرة وخصيانهم زرق ولايطاقون شراً وفساداً لمن ظفروا به، ويعومون في البحر كعوم الناس يصيدون السمك منه. وبهذه الجزيرة وادي الهول به معدن الياقوت الأحمر البهرماني جليل جداً، وهذا الوادي به حيوان أشبه الناس بالأبدان ورؤوسهم رؤوس سباع يراهم الإنسان من بُعد وإذا قرب منهم لم يرهم، ولايؤذون ولايمنعون الداخل إلى ذلك المعدن، ويقال إنهم جان.

وببحر هذه الجزيرة طائر النور، وهو طائر بحري بري وسيَّما إن طار على المركب أو قاربه، وبهذه الجزيرة وبغيرها طائران أحدهما تابع والآخر متبوع يسمى التابع كركر والمتبوع خرشنة، وليس للتابع غذاء إلا ما يسقط من ذرق المتبوع حال طيرانه. وبهذا البحر وبالقرب بنواحي سرنديب ولقمرانه وبجنوب هذه الجزيرة دابة من دواب البحر برية بحرية عظيمة الهامة لها أنياب معقفة وجناحان وأربع رؤوس في عنق واحد يسمى باسم معناه، دابة الهلاك، تقتات بما وجدته من حيوان بحري أو بري وبأي رأس افترست أكلت. ولهذا البحر أيضاً سمكة يقال لها اللطم لها وجه خنزير وبدن إنسان وفرج إمرأة وبدنها مشعّر كثير يزعم أهل الصين والهند أن شحمها إذا دهن بها إنسان بدنه حمله الماء كما يحمل الخشب، وهذه الدابة لا تزال طائفة على وجه الماء.

قال صاحب "تحفة الغرائب" وبجنوب بحر الصين والهند سمكة تسمى شيلان تصاد وتبقى ستة أيام أو سبعة أيام ملقاة على وجه الأرض لا تموت، وإذا جعلت في القدر طرية وطبخته فما لم تثقل القدر بما يمنع قطعها من الهروب طفرت منها قطعة قطعة إلى خارج القدر، ويزعم البحريون أن لحمها طيب وفيه منافع. ولهذا البحر سرطان يكون مقداره شبراً أو أكثر يخرج من الماء بسرعة ويسير إلى البرية فيجمد حجراً وتزول حيوانيته، وهو معروف عند الناس يعمل في الأكحال يقال له السرطان البحري.

فهذه عجائب بحر الصين وأول بحر الصين المشترك. ولبحر الهند هيجان وسكون ، وابتداء هيجانه من حين نزول الشمس الحوت وإلى نزوله السنبلة ولايزال في تموج واضطراب. وأسكن ما يكون إذا كانت الشمس في القوس.

ومن جزائره جزيرة برطائيل متاخمة لجزيرة الرانج، بها قوم أشبه بالأتراك لهم شعور كأذناب الخيل طوال وبها جبل يسمع منه في الليل أصوات طبول ومعازف وصنوج وضجات منكرة. والتجار يزعمون أن ذلك رهج الدجال، وقوم يزعمون أن ذلك رهج إبليس اللعين، ويزعمون أن الدجال يخرج من جزيرة إلى هذا الجبل ثم يعود. وجزيرة القصر لها قصر من البلور وإنه يرى في البحر عن بعد كالكوكب، ويسمى قصر النوم وأهل جزيرته الهنود براهمة. تزعم التجار أنه من استظل بظله من الغرباء غشيه النوم فلا يكاد يفيق أبداً ولا يصيب أهل الجزيرة مثل ذلك. ويقال إنه مطلسم لحراسة أهل الجزيرة يأوون إليه في المخاوف فمن دنا منه غشيه النوم فأخذوه أهلها وتمكنوا منه. وجزيرة كندولاي طولها ستة فراسخ في أربعة فراسخ بها بركان عظيم اللهب شديد الإموات، بها أنواع الطيب، وأنواع الصنف .وأهلها كفار يعبدون النار ويقع بسواحلها من العنبر الأشهب كثير.

وجزيرة سيلان طولها ستمائة ميل وعرضها مائتا ميل وبها البنفش والماذنبي والبلخش ، وأنواع أحجاره ثمينة كالبجادي وغيرها، وإليها ينسب العود السيلاني. وجزيرة ملى منسوبة إلى المدينة بالساحل، وبها من الفلفل ما يوسق مراكب التجار إذا اجتمعت في يوم واحد ،وبها أنواع البهار والصنف. وجزيرة كرموه يحيط بها ثلاثمائة ميل، وبها ثلاث مدن

كبار وبها سكر العشر ينزل على شجرة كبيرة هناك ويتخذ من حملها شبيه بالحرير الأبيض برّاق يغزل وينسج. وجزيرة صندابولات طولها ثلاثمائة ميل، وبها من شجر الساج والعنبا مالا بغيرها. والعنبا ثمر كبار له نوى كبار لفاف الطعم مثلث الشكل ذو ثلاث نوايات من داخل الثمرة، وشجرة تشبه شجر الأراك في الطول لا في اللون، وشجر الفوفل كثير شبيه بشجر النخل أو الموز يحمل أفنانها الفوفل ،ولم يكن بغير أرض الهند .ومن دقاق أغصانه الزبطانة التي ينفخ فيها الصيادون ببندق الطير على قدر الحمص فيصرعون بها العصافير وبها طير القاوند. وجزيرة أنداميان وجزائرها ويقال إن عدتها سبعمائة جزيرة متقاربات صغار وكبار معمورات بقوم من الهنود والزنج قباح الوجوه صغار الجثث لا مراكب لهم وإذا وقع إلى أطرافهم غريق أكلوه. وجزيرة المند يحيط بها سبعمائة ميل، وبها ثلاث مدن، وخيرات حسان .وجزيرة التنين عامرة متسعة ،بها جبال معدنية، وأشجار مثمرة بأنواع البهار والطيب، وبها قطاط الزباد كما بالحبشة. وزباد الحبشة خير من الهندي، ولهذه الجزيرة حصون منيعة، ومدينة تعرف بالتنين يزعم أهلها أن الإسكندر ملكها، وأنها من بنائه، وأن سبب بنائها تنين كان بها عظيم الخلقة والفساد، وعلم به الملك فأرسل من وضع للتنين سلوخ غنم ومعز دموية ملطوخة بالدماء مملوءة كلساً حياً بلا طفئ وكبريتاً فوضعت في مدرجة التنين ليلاً فخرج التنين سحراً على عادته فالتقف بعضها وأكله فسخنت في معدته فعطش وورد الماء فطفئ النورة فأحرقت أحشاءه وجسده فهلك وبنيت المدينة بعده. والله أعلم.

وجزائر الديبا وهن جملة جزائر متقاربات وأهلها قبائل من العرب بها والكبيرة منهن تسمى جزيرة الديبي والدياب أيضاً، ويحيط بها أربعمائة ميل ،وبها الموز وقصب السكر، وبها النارجيل والكاذي، وهو مقصد التجار في ممرهم إلى كيش والهرمز وإلى الهند وإلى اليمن وإلى مقدشو الزنج وإلى الحبش. وجزيرة سرنديب بجنوب البحر يحيط بها ألف ومائة ميل يشقها جبل الراهون وهو الذي أهبط عليه آدم عليه السلام ،وهو متصل في البحر بجزيرة بلجرام وفيه أودية الياقوت والماس والسنباذج، وطول الجبل مائتا ميل وستون ميلاً.

ومدينة سرنديب العظمى يسكنها مسلمون ونصارى ويهود ومجوس وكفرة لا ينقادون لملّة ولكل طائفة حاكم لا يبغي بعضهم على بعض وكلهم راجعون إلى ملك المسلمين يسوسهم ويجمع كلمتهم. ولهذه الجزيرة بحيرة حلوة نحو سبعين ميلاً، وتصب فيها أربعة أودية تسمى الأغباب، وقيل الأغباب ،بأسماء أنهر القمر وبها الزرافة خلقها عجيب، لها عنق الجمل وجلد النمر والأيل وقرن الظبي وأسنان البقر ورأس الجمل وظهر الديك، وهي طويلة اليدين والعنق جدا حتى يكون في مجموعها عشرة أذرع وأكثر، قصيرة الرجلين جداً وليس لها ركب وإنما الركب ليديها كسائر البهائم، وإذا أكلت مما على الأرض يقصر عنقه عن يديها. ومن عادتها أنها تقدم عند المشي اليد اليمنى والرجل اليسرى بخلاف ذوات الأربع ،وفي طبعها التألف والتودد والتأنس بأهلها وهي تجتر وتبعر. والزرافة الجماعة لغة والله أعلم.

وبالجزيرة شجر القرنفل، وهو كشجر الياسمين وزهره غليظ أسود، وهو كباش القرنفل. ومنه ذكر ومنه أنثى، والذكر منه ثمراته كنواة الزيتون وأطول نوله علك كعلك البطم وقرفة القرنفل قشر شجرته، وبها أيضا قصب الذريرة وفي مضغه حراقة وقبض، والله أعلم .)

(15)

بحر الصين

الدمشقي: من كتاب (نخبة الدهر وعجائب والبر والبحر)

في وصف البرزة الخارجة من البحر الجامد المسمى البحر الزفتي وبحر الظلمات

(وهذه البرزة بأقصى مشرق الصين، قال أهل العلم بذلك إن في جهة أقصى المشرق ساحل البحر المحيط المشرقي، ويسمى البحر الزفتي لشدة ظلمته وسواده ولايعرف له طرف غير هذا الساحل ،ومبدؤه من المشرق برزة زائدة على حدوده المحيطة. حد هذه البرزة من

أرض تبرى وبحيرتها العظمى الحلوة وجبال بلهرا وانتهاؤها حيث اتصالها بالبحر الجنوبي الهندي الصيني المعمور المسمى بأسماء جهاتها ونواحيه ،وذلك فوق خط الاستواء ووراءه في الجنوب بنحو من ثلاث عشر درجة، كل درجة مسافتها ستة وخمسون ميلاً وثلثا ميل. وهذه الجهة هي آخر بلاد خمدان وصين الصين داخل خط الاستواء وبها مصب نهر خمدان الأكبر في عرض ثمانية وعشرين ميلاً يدخل في البحر المحيط نحو يومين لا يغلب عليه ماء البحر بغزارته ولا يوافقه المد منه والجزر كما يوافق غيره من الأنهار.

وطول ساحل هذه البرزة من الشمال إلى الجنوب وعلى هذا الساحل عشرة أجبال بعشرة أودية ينجر فيها الماء الحلو والمالح ويسمى أخوار الصين، وجبال النشادر يكون النشادر المعدني فيها كثيراً، وكذلك الكبريت الأحمر. وبجبال النشادر شجر الكافور وشجر البقم والأبنوس كثير، وهو شجر السلم الحجازي ولكنه هناك أسود متلزز بخلاف الحجازي وهو أيضاً السنط أو يشبهه. ومراكب الصين لا تدخل إلى البحر الزفتي إلا من هذه الأخوار، ولايجدون مشقة أعظم مما يجدونها فيها من كثرة الشعاب والأهوال واضطرام الأهوال وطول هذا الساحل لهذه البرزة من بحيرة تبرى وإلى أقصى العطفة في الجنوب نحو سبعمائة فرسخ وخمسين فرسخا.

قال بطليموس وغيره إن في هذا البحر ست جزائر تسمى جزائر السيلى وسيلانها أنواع الياقوت والجوهر، وهي عامرة مأهولة .وقل أن يدخلها أحد فيختار الخروج منها لما يرى من صحة الهواء وحلاوة الماء وجمال الصورة وكثرة الخيرات ،وإن بساحل هذا البحر في شماله ثلاثة أصنام من الحجارة هائلات الصور منحوتات في بقاعهن نابتات من جبالهن ويد كل واحد منهم مشيرة إلى جهة البحر بأنه ليس فيه مسلك ،كالذي بجزائر قادس، وكالذي بجزائر السعادات داخل بحر اللبلابة من الأصنام الثلاثة المشيرة بأيديها كذلك إلى داخل المحيط الأخضر المغربي هناك .وإذا اعتبر المعتبر هذه البرزة وجدها ممتدة الساحل في الشمال إلى حدود جبل بلهرا، ثم من هناك تمتد ساحلاً أبداً ممتداً محيطاً متصلاً ببلاد القرقز في أقصى المشرق الشمالي وتبرز هناك منه أخرى طولها شهر ونصف في عرض عشرين يوما بها

جزائر مسكونة بطوائف من الناس تقدم وصفهم كأهل جزيرة تولى وجزيرة رفاعة ثم ينصب داخله ويمتد شمالا من وراء جبل ياجوج وماجوج، وتلتحق جبالهم من الجنوب والشمال والشرق به ،ثم تبرز منه برزة في شمال ياجوج وماجوج وتسمى بهم ثم تمتد به سواحله حتى إذا تجاوز جبل قافونيا عند بحيرة هناك حلوة يملح ماؤها ويحلو وهي متصلة به ،وهناك تدخل سواحله في إقليم الظلمة الذي لا مسلك فيه للناس ؛وذلك تحت مسامتة القطب الشمالي. والمد من هذا البحر المحيط المشرقي عظيم عالٍ إذا مدّ تبلغ زيادته نحواً من أربع قامات مع سعة هذا الفرس العظيم، ويطّرد في الأرض ماشاء الله ثم يجزر حتى تبلغ حدوده الأولى كذلك في اليوم والليلة أربع مرات، وهذا دأبه على طول الزمان. والله أعلم .

وصف جزائر البحر الزفتي وأعاجيبها وذكر حيوانه وأصنافه

قال أهل العلم بذلك إن في البحر الزفتي المشرقي مما هو وراء جبال النشادر والأخوار قريب من سواحله ست جزائر كبار تسمى بالسيلى لما فيه من الياقوت والجواهر بالمعادن والمغاصات وفي جر السيول .دخلها قوم من العلويين ودفعوا فيها لما فروا من بني أمية فاستوطنوا وملكوا وماتوا بها. وهذه الجزائر لم يدخلها أحد من الغرباء فطاوعته نفسه إلى الخروج منها، وإن كان منها في عيش قشف،وهي في جهة الشمال من هذا البحر.

وبجبال بحيرة تيرى جزيرة القلعة المضيئة ،وأهلها حسان الصور حسان الصناعة لما يصنعونه ويصورونه، وقلعة هذه الجزيرة بيضاء من حجارة البلور أو حجر أشف وأشد بريقاً ولمعانا منه حتى يقال إنها فضة وليس كذلك. ويقال إنها من بناء الجان وهي على خط الاستواء من حدود الجزائر الخالدات التي إحداهن جزيرة السعادة وبها جابرقا وهو قصر الذهب، فكان جزيرة القلعة المضيئة المشرقية، وجزيرة السعادة المغربية من الأرض بجملتها كموضع غرابي الخراط في نصبه للخرط بكرة خشب يحملانها من ههنا وههنا على مثل هذا المثال بخط نصف الكرة الأعلى. ومن وراء هذه الجزيرة بنحو مائة ميل جزيرة صبح المعروفة بالعلوية وفيه معدن للياقوت ليس مثله. ومن ورائها بنحو من عشرين ميلاً على

جبالها أرض أصطيفون، وهي مسكونة بأناس من أرض الصين كفار يعبدون الشمس ومعادن الذهب والياقوت عندهم كثيرة وأرضهم متصلة بجبال أصطيفون الواغلة الفاصلة الحاجزة بين هذه البرزة وبين البحر المحيط الجنوبي المشرقي وبحر الظلمات وبها من الشجر أنواع ما في الصين والهند، وهذا أقصى قوس الطول من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق وذروته وسط الكرة حيث الطول تسعون. وهناك موضع فيه أرين والله أعلم. وهذا مثال قطر الكرة قاطع لعمقها وهو الخط المار من المحيط إلى المركز إلى المحيط النطير. قال أهل العلم بذلك. ومن جزائر السيلى ثلاث جزائر تسمى جزائر سلا يعني من دخلها سلا وطنه وطابت له سكنى وسلا ماعداها من البلاد. والله أعلم.)

(16)

جزائر بحر الصين

الدمشقي: من كتاب (نخبة الدهرفي عجائب البر والبحر)

في وصف الجزائر المخصوصة ببحر الصين ووصف ما بها وبه من عجائب غريبة

(فمن ذلك جزيرة سريرة يحيط بها ألف ميل ومائتا ميل ،وفيها مدائن كثيرة ؛وأجلّها التي تنسب الجزيرة إليها ومنها يجلب الكافور الجيد. وجزيرة أنفوجة يحيط بها ألفان ومائتا ميل ،وعمارتها غير متصلة بها وبجنوبها براري موحشة وقفار مهلكة.

وجزيرة الصنف طولها ألف ميل وستمائة ميل وعرضها قريب منه وبها العود الرطب المعروف بالجودة وأصناف الطيب وبها شجر الكاذي والجوز الهندي ودارصيني. والكاذي ثمر شجرة تشبه النخل ولكن لا يطول طول النخل وإذا أطلعت الشجرة منه طلعها قطعت الطلعة قبل أن ينشق ثم تلقى في الدهن وتترك حتى يأخذ الدهن رائحتها فتطيب وتسمى دهن الكاذي وإن تركت حتى تنشق صار الكبش بلحاً وتتناثر وذهبت رائحته ورائحة الكاذي لايشبهها رائحة في اللذة وخاصيتها التبريد والتسكين لحرارة الدم وشراب الكاذي معروف. وجزيرة سلامط محيط بها ثلاثمائة ميل كثيرة الجبال والأشجار وبها النارجيل

كثير ويسكنها حيوان أشباه الناس لا يفقه أحد كلامهم، على أبدانهم شعور تجللهم وتستر سؤاقهم يسكنون الشجر كالطير ويأكلون الثمار طول الواحد منهم أربعة أشبار إلى ثلاثة أشبار وشعورهم حمر وأرجلهم كأرجل الطير وإذا أحسوا بالناس هربوا وارتفعوا إلى أعلى الأشجار ومثل هذا الحيوان موجود في غالب جزائر الصين.

وجزيرة رامني يحيط بها خمسمائة ميل وغالب شجرها البقم وهو شبيه بشجر الخروب الشامي ويحمل مثل حمله ولكنه مر شديد المرارة وبها شجر الكافور والفلفل والقرنفل والدارصيني وبها الببغات الحمر والخضر والبيض الغبر. والببغا طائر هندي حبشي نوبي غاني صيني، ومن ألوانه الأغبر الفاختي والأسود والأصفر والأبيض وذو ذوابة فستقية على رأسه، أسود المنقار والرجلين يتناول طعامه بكفه كما يتناوله الإنسان، وله فهم ثاقب يحاكي الأصوات ويقبل التلقين ومنقاره معقف يكسر به الصلب وينقب به ما تعسر عليه وله عفة مأكله ومشربه ومنكحه وهو بمثابة الإنسان الظريف الشريف.

وبهذه الجزيرة أيضاً حيوان كالجاموس أبلق كبير الجثة لا ذنب له. وجزيرة الصنحى أحد جزائر المهراج مملكة متسعة وهي جزائر متقاربات كبار وصغار ،وبهذه الجزيرة منهن أنواع الطيب والبهار وبها الكافور والنارجيل العجيب الكبار الزايد في الكبر. ومن صفته أنه شجر كالنخل ولكنه أغلظ جذوعاً من النخل وأكثر طلعا وحملا وحمل الشجرة لا ينقطع بل في كل وقت يجد الإنسان على الشجر ثمراً منها وهو النارجيل، فأوله ماء حلو زلال وماء لبني حلو ولبن خالص شديد البياض لذيذ الطعم مسكر لمن شربه، خاثر وليس حامضاً كالقارص من الألبان والجوز الدسم الرطب ودهن الجوز ودبسه وسكره والخل الجيد. وبهذه الجزائر البسباسة وجوزبوا وجوز الطيب وكباش القرنفل والدارصيني والشاه صيني وورقها هو التنبل وصمغها هو اللبان الجاوي وبهذه الجزيرة العود والصندل. والداخل إلى جزائر المهراج لا يمكنه أن يدورها في سنة. وجزيرة المهراج هي أم الجزائر المهراجية وطولها اثنا عشر يوما وعرضها خمسة أيام، ولها أطمة عظيمة ترمي بشرر كالحجارة ويسمع لها باللهب أصوات كالرعود وهذه الأطمة بجبل في طرف الجزيرة وقد حمى حوله السكنى والمرور حماية بالنار نحو فرسخ وهذا البركان من أعظم نار في الدنيا وليس كمثله نار، ويسمى بقعته جزيرة

البركان وشكلها من باقي الجزيرة كشكل القدم من الساق.

وإذا دخلت إليها المراكب وكان ذلك الوقت أول هياج البحر ظهر لهم منها أشخاص سود طول الواحد نحو خمسة أشبار وأقل من ذلك كأنهم أولاد الحبوش فيصعدون المركب ولا يضرون أحداً، فإذا رآهم السفار أيقنوا بالهلاك والدمار، وإذا أراد الله لهم النجاح والنجاة من تلك الشدة أراهم على رأس الدقل طائراً أبيض كأنه مخلوق من النور فيتباشرون به، فإذا ذهب عنهم الروع فلا يرونه. وجزيرة قمار وإليها ينسب العود القماري دورها شهر وبها مدن كثيرة وهي جزيرة عباد أهل الصين والهنود وعلمائهم وبها الملك المسمى قامرون وبها بدود وأصنام لم ير أبلغ تحريراً من تخطيطها حتى إن المصورين لها يفرقون بين نظرة الراحم بنظره والناظر شزراً أو الباكي والضاحك والمختلس كما تقدم القول عن طائفة تبرى. وبها معدن الذهب وبها الأبنوس والطاووس وبها الفيلة منقولة والكرك.. وجزيرة لنكاوس كبيرة متسعة ألوان أهلها إلى البياض وهي قريبة من خط الاستواء،وبها معدن الحديد الشبيه بالفضة في لونها وبها أشجار الكافور كأنما ساق الشجرة رق مملوء إذا نقرت من أعلاها سال منها ماء الكافور ثم يؤخذ منها في الجرار ثم ينقر وسطها وسفلها فتسيل بقطع الكافور فإذا خرج منها ماتت ويبست كموت شجرة الموز إذا قطع منها عرقها. وبالجانب الشرقي من جزيرة قمار قصر المملكة يدخله نهر فيه مركب مطلسم وهو من معادن مصنوع موثوق بسلسلة من خارج القصر فمن نهشته حية أو أصابه عارض من صرع أو غيره، حمله أهله ووضعوه في المركب وأطلقوا المركب به، فإن دخل المركب بالعليل القصر وخرج من الناحية الأخرى يبرأ العليل، وإن لم يدخل به القصر مات فلم يبرأ من علته.

وجزيرة زايلي وجزائرها المتقاربة ويقال إنها نحو من تسعمائة جزيرة صغار وكبار وهي أم الجزائر ومعدن الذهب بكثرة ظاهرة ،ومع كثرة الذهب عندهم فإن بيوت أموالهم الودع المعروف والحديد والذهب عندهم في القيمة سواء. وجزيرة كله وإليها ينسب البحر وهي جزيرة خطرة طولها ثمانمائة ميل وعرضها ثلاثمائة وخمسون ميلاً وبها من المدن فنصور والجاوة وهلابر ولاوزى وكلا وبها الفيلة منقولة من البر المتصل تتوالد وتتربى عند ملوكها والفيل ضربان، فيل زند، والزند صغير وفيل كبير كما يقال فار وجرذ وبقر وجاموس ونمل

وذر وفرس وبرذون ،وإذا حملت أنثى الفيل لا يقربها إلى ثلاث سنين وحملها سنتين وله غيرة شديدة على أنثاه، والضعيف منه يخضع للقوي ويذل له كفعل الإنسان.

وإذا أرادت الفيلة الحاملة أن تضع الولد دخلت الماء الغزير ووضعته لئلا يقع إلى الأرض الصلبة فيهلك لأنها لا تنام على جنبها لكون قوائمها مصمته من غير ركب ولا مفاصل وخصيتا الفيل داخل بدنه قريبتان من كليتيه ولذلك يسفد سريعا كالطير لكونهما داخلة وقريبة من القلب فينضج المني بسرعة. والفيل حقود كالجمل ويحفظ الذي يكرهه من سيّاسه ثم يختله ويقتله إذا تمكن منه. ويقال في كيفية صيده إن القاصدين صيده يحفرون في الأرض خندقاً واسعاً ويجعلونه منحدرا من وجه الأرض في نزول أبداً إلى أن يكون أزيد من قامة في العمق ويكون اتساعه بمقدار ما يدخل الفيل فيه لم يمكنه الخروج منه ولا الرجوع ولا الالتفات ثم يبذرون له الرز وغيره مما يأكله الفيل حول ذلك الحفير ويكثرونه بالقرب من بابه ثم يزيدون قليلاً قليلاً إلى نهاية الحفير ثم يتركونه ويذهبون عنه فيأتي الفيل الصغير فيأكل ما وجده هناك ثم يتبعه شيئاً فشيئاً حتى يدخل الحفير فيرعاه بنهم وتمكن لكثرته، ثم لايزال حتى ينتهي إلى نهايته فيقف حيران فيأتي إليه واحد من أولئك الصيادين وعليه لباس أحمر وأزرق وأصفر فيضربه بخشبة معه ضرباً مبرحاً والفيل يتخبط لايستطيع حراكا ثم يأتون رفاقه بعده لابسين لباسه فيضربون الفيل أشد ضرب ،وهم على ذلك إذ يأتي بعدهم آخر وعليه البياض ومعه الطعام والماء فيطردهم ويهزمهم عن الفيل، ثم إذا راحوا رمى له العلف وقرّب منه الماء وجلس بالقرب منه يؤانسه ولا يزال كذلك إلى قرب أوان علفه مرة ثانية فيذهب عنه، وحين يغيب يأتون أولئك فيضربون الفيل حتى يكاد يموت فيأتي ذلك فيطردهم ويضربهم ثم يطعم الفيل ويسقيه ويؤانسه ولا يزال هذا دأبه ودأب رفاقه حتى يصل إلى الفيل بيده ويحبسه ويركبه ويأنس الفيل إليه فيفتح له أمامه حفرة أخرى إلى وجه الأرض ،ويخرج الفيل مذللا منقاداً وقد جعل الله للفيل عدواً مسلطاً عليه محباً لقتله، وهو حيوان أكبر من الجاموس وأدور وأغلظ قوائم وأكبر رأساً وأخشن بشرة وأحد نفساً وله قرنان في جبهته أحدهما سلاح كالسنان في الرمح والآخر نابت من

أصل قصبة أنفه كالدعامة للقرن الأعلى، يطعن به الفيل في جنبه يخسفه، وربما إذا قتله حمله إلى أرض غير أرضه على قرنه حتى يموت من نتن جثة الفيل ومن سيلان صديد الفيل وسيما إذا كان الفيل صغيرا. وجزيرة بلغرام من خلف جزيرة سرنديب نحو أربعين فرسخاً، وهذه الجزيرة طولها ستون فرسخاً وعرضها قريب من طولها ،وبها من أصناف الياقوت بكثرة وبها قدم آدم عليه السلام لما نزل من الجنة. وذكر من وصل إليه أن طوله نحو من اثني عشر شبراً وعرضه ثلاثة أشبار وعمقه شبر، وأنه لم يزل مضّمخاً بالطيب ملآن من أنواع الحجارة الثمينة صدقة مبذولة لمن يزوره والله أعلم. وجزيرة ملاي شرقي جزيرة القمر يحيط بها سبعمائة ميل، وأهلها طائفة يتحرمون في البحر، ويعصون على ملكهم يسمون الآن بهارية، وبها خشب الساج يغلظ ويطول ويعملون منه مراكب قطعة واحدة نقيراً طوله أربعون ذراعا وعرضه سبعة أذرع .)

(17)
بحر الخزر (= بحر قزوين)
ابن حوقل: من كتاب (صورة الأرض)

(وبحر الخزر فإن شرقيّه بعض الديلم وطبرستان وجرجان وبعض المفازة التي بين جرجان وخوارزم، وغربيّه الران وحدود السرير وبلاد الخزر وبعض مفازه الغزية، وشماليّه مفازة الغزية بناحية سياه كويه، وجنوبيّه الجيل والديلم وما دانى ذلك .

وهذا البحر ليس له اتصال بشيء من البحار التي على وجه الأرض بطريق المادة والاختلاط إلا ما يدخل إليه من نهر الروس المعروف بآتل، وهو متصل بشعبة تفضي منه إلى الخليج الخارج من أرض القسطنطينية إلى البحر المحيط. ولو أن رجلاً طاف بهذا البحر لرجع إلى مكانه الذي ابتدأ به لا يمنعه مانع ولا يقطعه قاطع إلا نهر يجذب إليه ويقع فيه، وهو بحر مالح ولا مدّ له ولا جزر، مظلم قعره بخلاف بحر القلزم وغيره؛ لأن قعره طين آجن آسن،

وبحر فارس يتبين في كثير من بقاعه أرضه لصفو ما تحته من الحجارة البيض، ولا يرتفع من هذا البحر شيء سوى السموك، ويُركب فيه للتجارة من أراضي المسلمين إلى أرض الخزر، وهو فيما بين الران والجيل وطبرستان وجرجان.

وليس فيه جزيرة مسكونة فيها عمارة كما في غيره جزائر فيها سكان ومياه ومدن، والذي فيه من الجزائر فيها مياه وأشجار ولم يسكنها في الإسلام أحد؛ منها جزيرة سياه كويه، وهي كبيرة بها عيون وأشجار وغياض ودوابٌ وَحْشٍ، وإليها جزيرة تجاه الكُرّ وبالقرب من الباب، وهي كبيرة أيضاً فيها غياض وأشجار ومياه، ويرتفع منها الفُوَّه، ويخرج إليها من نواحي برذعة منتجعة لإثارة الفوه، والعمل فيها الأيام الطويلة الكثيرة، ويحملونها إلى ورثان وبرذعة فينالون منها خيراً، ويحمل إلى جزيرة الباب الدواب من نواحي برذعة وورثان وكثير من المواضع فتسرح فيها وتسمن لكثرة كلئها ومرعاها.

وليس من أبسكون إلى الخزر عن اليمين على شط البحر قرية ولا مدينة سوى موضع من أبسكون على خمسين فرسخاً منها يسمى دهستان كالقرية، فيها قوم قلة وفي مائهم غور، وماء البحر بهذه الناحية قصير القعر، وهي كالدخلة في البحر فترسو فيها السفن في هيجان الريح والبحر. ويقصد هذا الموضع خلق كثير من النواحي، فيقيمون به للصيد ولا أعرف غيره مكاناً يقيم به أحد إلا سياه كويه فإن به طائفةً من الأتراك الغُزية، وهم قريبو العهد بالمقام به لاختلاف وقع بين الغزية وبينهم فانقطعوا عنهم واتخذوه داراً ومأوىً، وفيه مراع واسعة ولديهم عيون. وهذا المكان عن يمين هذا البحر من أبسكون. ومن أبسكون على اليسار إلى الخزر عمارة متصلة إلا شيئاً يسيراً بين باب الأبواب والخزر، وذلك أنك إذا أخذت من أبسكون على حدود جرجان وطبرستان والديلم والجيل تدخل في حدود الران إذ جزت على موقان إلى ناحية باب الأبواب على مسيرة يومين من بلاد شروان شاه، وعمله إلى نواحي سمندر أربعة أيام عمارة أيضاً، ومن سمندر إلى أتل سبعة أيام مفاوز. ولهذا البحر زنقة بناحية سياه كويه يخاف على السفن إذا أخذتها الريح هناك أن تنكسر، وإذا انكسرت السفن هناك لم يتهيأ جمع شيء منها من غلبة الأتراك عليها فإنهم يستولون على ما فيها.

وأما الخزر فاسم الإقليم وقصبته تسمى أتل، وأتل اسم النهر الذي يجري إليهم من الروس وبلغار ويفيض في بحر الخزر .وقيل منبع هذا النهر من الظلمات لا يعرف أحد أوله ولا وصل إلى منبعه. والبلد قطعتان: إحداهما من غربي النهر المسمى أتل، وهي أكبرهما، والأخرى من شرقيه. والملك يسكن في الغربية منهما وتسمى خزران، والشرقية تسمى أتل، ويسمى الملك بلسانهم باك. وتكون القطعتان في الطول نحو فرسخ ويحيط بهما سور غير أنها مفترشة البناء وأبنيتهم كالخركاهات من خشب وقد غشيت بلبود إلا شيئاً يسيراً بني من طين، ولهم أسواق وحمامات وفيهم خلق من المسلمين، ويقال إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم وبها نحو ثلاثين مسجداً، وقصر ملكهم بعيد من النهر وهو من آجر وليس لأحد بناء من آجر غيره ولا يسوغ الملك ذلك لغيره. ولسور البلد أبواب أربعة منها باب يلي النهر وآخر إلى ما يلي الصحراء على ظهر المدينة.

والملك يهودي ويقال إن له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل. وبهاتيْن الناحيتيْن مسلمون ونصارى وعبدة الأوثان، وأقل الفرَق فيهم اليهود، وأكثرهم المسلمون إلا أن الملك وخاصته يهود.

والغالب على أخلاق أهل الأوثان من سجود بعضهم لبعض عند التقائهم وأحكام يمضونها على رسوم قديمة تخالف دين الإسلام واليهود والنصارى. ويقال إن جميع جيش خزران اثنا عشر ألفاً مثبتين بالراتب إذا مات منهم رجل أقيم مكانه غيره، وليس لهم جراية دارة ولا أرزاق معلومة في شهر معلوم بل يوصل إليهم اليسير في المدة الطويلة والأوقات المتراخية، إذا حزبهم خوف أو لزمهم حرب اجتمعوا له. وأبواب مال هذا الملك من الأرصاد وعشور التجارات على رسوم لهم من كل طريق سابل إليهم، وله وظائف على أهل المحال والنواحي من كل صنف ما يحتاج إليه من طعام وشراب وغير ذلك .

وللملك سبعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين وعبدة الأوثان. وإذا عرض للخاصة والعامة أمر حكم فيه هؤلاء الحكام ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه، وإنما يصل إلى هؤلاء فيخاطبون في الحوائج وفيما يعرض؛ وبين هؤلاء النفر وبين الملك سفير

يراسلونه فيما يجري ويشجر بينهم ويطلعونه على ما يكون منهم، فيرد عليهم أمره عند ذلك بما يعملون عليه. وربما جرى في أحكامه أشياء كالخرافة؛ ومنها ما حكاه المعتضد وقد ذكر بين يديه فازدراه ذاكره، فقال المعتضد: كلا إنه لمروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله جل اسمه لم يُوَلّ رجلاً قوماً إلا وأيّده بضرب من التسديد وإن كان كافراً. ومن ظريف ذلك أن رجلاً من أهل خزران كان له ولد قد تصرف في التجارة ومهر في الأخذ والعطاء، فأخرجه إلى بلغار الداخل ولم يزل يجهز عليه التجارة. وتبنّى بعد إخراج ابنه عنه عبداً كان له، فخرّجه وبصّره فحسُنت بصيرته فيما ندبه له من التجارة حتى دعاه بالبنوّة لقربه من طاعته وقلبه، وطالت غيبة الابن ومقام الغلام في خدمة الأب إلى أن هلَك الرجل وأقبل الابن على الجهاز ولم يُعلم بموت أبيه، والغلام يحصل ما يرد عليه ولا يجهز عوضاً مما يرد إليه. وكاتَب الابن الغلام لينفذ إليه الجهاز على رسمه، فرد عليه الأمر بالقدوم عليه ليحاسبه عما بيده ويقبض منه ما لأبيه عنده، فورَد على الابن ما أسرع به إلى مستقر أبيه من خزران وتنازعا الخصومة في ذلك والحجاج بالبيّنات، فكان إذا قام لأحدهما ما قد ظنه كافياً من الحجة جاء الآخر من الشبهة بما وقف حاله، وأكثر أحكامهم مبني على مثل ذلك. وطال بهما التنازع حولاً كاملاً، وإذ طالت الخصومة وصارت الأمر في التشاجر والمنازعة إلى حال الوقوف أتلى الملك الحكم بين الخصمين، فجلس لهم وأحضر جميع الحكام وأهل البلد وأعادا دعواهما منذ ابتداء الخصومة، فلم ير الملك لأحدهما على الآخر سبيلاً لتكافؤ البيّنات عنده فقال الملك للابن: أتعرف قبر أبيك على الحقيقة؟ فقال: عرفته ولم أشهد دفنه فأحقه. فقال للغلام المدعي: أنت تعرف قبر أبيك؟ فقال: نعم، أنا تولّيت دفنه. فقال: عليْ منه برمةٍ إن وجدتموها؛ فأتى الغلام القبر فانتزع منه بعض عظامه البالية وجيئ بها إليه، فقال للغلام المدعي بنوّة التاجر: أفصد نفسك! ففصد ثم أمر فألقى دمه على العظم فتسرب الدم عنه ولم يعلق بشئ منه، وفصد الابن وطرح دمه على ذلك العظم فنشقه وعلق به، فأدب الغلام وعزّره ودفعه وماله إلى الابن.

وليس لهذه المدينة كثير قرى غير أن مزارعهم مفترشة يخرجون في الصيف بأجمعهم إلى

ما يرومون زرعه فيحرثونه ويفلحونه، ويكون بالقرب وبالبعد إلى نحو عشرين فرسخاً فإذا حصدوا زرعهم ضموه بالعجل إلى النهر وإلى مواضع تقرب منه، وينقلون ما اجتمع إلى النهر في السفن وما قرب من البلد نقل بالعجل إلى البلد. والغالب على قوتهم الأرز والسمك، والذي يحمل من عندهم من العسل والشمع والوبر إنما يحمل إليهم من ناحية الروس وبلغار، وكذلك جلود الخز التي تحمل إلى الآفاق ولا تكون إلا في تلك الأنهار الشمالية التي بناحية بلغار والروس وكويابة. والذي بالأندلس من جلود الخز شيء من الأنهار التي بنواحي الصقالبة وتشرع إلى الخليج الذي بلد الصقالبة عليه، وقد مرّ وصف هذا الخليج. وأكثر هذه الجلود وجُلها يوجد في بلد الروس وينزل إليهم وإلى ناحيتهم من ناحية ياجوج وماجوج، وقد يصعد إلى بلغار ولم يزل كذلك سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فإن الروس أخربوا بلغار وخزران. وقد يخرج الخز والأوبار النفيسة إلى خوارزم لكثرة دخول الخوارزمية البلغار والصقالبة وغزوهم إياها والغارات عليهم وسبيهم.

ومصب تجارة الروسية على دائم الأوقات إلى خزران، وكان عليهم فيما يوردونه نحو العشر من أموالهم. وقد مر أن الملك يسكن في النصف الغربي من الجانبين وحاشيته وجنده الخزر الخلّص معه، ولسان الخزر غير لسان الترك ولسان الفارسية ولا يشاركهم في لغتهم لسان من ألسنة الأمم.

ونهر أتل له شعبة من جانبه الشرقي فتخرج من ناحية خرخيز وتجري فيما بين الكيماكية والغزية، وهي حد ما بين الكيماكية والغزية ثم يذهب مغرباً على ظهر بلغار، ويعود راجعاً إلى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس ثم على بلغار ثم على برطاس حتى يقع في بحر الخزر.

ويقال إنه يتشعب من هذا النهر نيف وسبعون نهراً ويبقى عمود النهر جارياً إلى خزران حتى يقع في البحر. ويقال إن هذه المياه إذا كانت مجتمعة بأعلاه في نهر واحد، زاد على جيحون كثرةً وغزر ماء وفسحة على وجه الأرض. ويبلغ من كثرة هذه المياه وغزارتها أنها تنتهي إلى البحر عن أماكن تتساقط إليه يقرب بعضها من بعض، ويجري في البحر داخل

مائه مسيرة يومين، ويغلب على ماء البحر حتى يجمد في الشتاء في وسطه لعذوبتها وحلاوتها، ويتبين في البحر لونه من لون ماء البحر .

وللخزر ناحية ولها مدينة تسمى سمندر، وهي فيما بينها وبين باب الأبواب . وكانت بها بساتين كثيرة يقال إنها كانت تشتمل على نحو أربعين ألف كرم، وسألت عنها بجرجان سنة ثمان وخمسين لقريب عهد بها فقال : وهناك كرم أو بستان ماله على المساكين صدقة وإن كان بقي هناك ورقة على ساق، وقد أتى عليها الروسية ولم يبق بالبلد عنبة ولا زبيبة .
وكان يسكن هذا البلد المسلمون وطبقات أهل الملل والوثنيون فجلوا ولفضل أرضهم وحسن ريعهم فلم تمض ثلاث سنين إلا وقد عاد كما كان . وكان بسمندر مساجد وبيع وكنائس فأتوا في خرجتهم هذه على جميع ما كان على نهر أتل من خزر وبلغار وبرطاس، واستولوا عليهم فلجأ أهل أتل إلى جزيرة باب الأبواب وتحصنوا بها وبعضهم في جزيرة سياه كويه وهم مقيمون خائفون . وكانت منازل سمندر خركاهات وأبنيتهم من خشب قد نسج وسنمت سطوحهم، وملكهم قرابة لملك الخزر وبينهم وبين حد السرير فرسخان، وبين صاحب السرير وملك سمندر هدنة . وأهل السرير نصارى ويقال إن هذا السرير كان لبعض ملوك الفرس، وهو من ذهب ولما زال ملكهم حمل إلى هذا الموضع مع ذخائر تشاكله، وكان حامله من ولد بهرام والملك إلى يومنا هذا باسم هذا السرير فيهم . ويقال أنه سرير عمل لبعض الأكاسرة في سنين كثيرة وبين أهل السرير والمسلمين هدنة . وليس بجميع بلاد الخزر مجتمع للناس غير سمندر .

وبرطاس أمم متاخمة للخزر ليس بينهم وبين الخزر لسان غيرهم، وهم قوم مفترشون على وادي أتل وبرطاس اسم الناحية، وكذلك الروس والخزر، والسرير اسم للمملكة والناحية لا للناس والقبيل .

وليس يشبه الخزر الترك إذ الخزر بأجمعهم سود الشعور وهم صنفان : فصنف يسمون قراخزر وهم سمر يضربون لشدة السمرة إلى السواد كأنهم صنف من الهند، وصنف بيض ظاهرو الحسن والجمال . والذي يقع من رقيق الخزر فهم أهل الأوثان الذين يستجيزون بيع

أولادهم واسترقاق بعضهم لبعض. فأما اليهود منهم والنصارى فإنهم يتدينون بتحريم استرقاق بعضهم لبعض. وليس يرتفع من بلد الخزر نفسه شيء يحمل إلى القرب أو البعد غير غرى السمك، فأما الرقيق والعسل والشمع والخز والأوبار فمجلوبة إليهم. ولباس الخزر ومن داناهم القراطق والأقبية وليس عندهم شيء من الملبوس يزيد على كفايتهم، وإنما يحمل إليهم من نواحي جرجان وطبرستان وأذربيجان والروم وما يصاقبهم من الأعمال الملبوس.

فأما سياستهم وأمر المملكة فيهم فإنها تنتهي إلى عظيمهم المسمى خاقان خزر، وهو أجل من ملك الخزر لأن ملك الخزر به ينعقد وهو الذي يقيّمه ويثقّفه، وإذا أرادوا أن يقيموا ملكا بعد هلاك ملكهم جاء هذا الخاقان به فذكّره الله ووعظه وعرّفه ما عليه وله من حقوق الملك وأثقاله، وما ينوبه من الإثم والوزر فيما يتكلّفه إن قصّر فيه أو عمل بغير الواجب منه وأتى غير الصواب والحق في أحكامه، فربما لم يجبهم من عملوا على ولايته إذا سمع ذلك القول ورعاً وزهداً ورغبة عما يسمعه مما يناله، فيما يزعم أن الله يجعله له بتركه الولاية وضعفه عن القيام بها ويقبلها غيره بما يحسن في نفسه وعقله فإذا جاؤوا به ليقعدوه في المملكة ويسلموا عليه بها خنقه خاقان الخزر بحريرة، فإذا قارب أن ينقطع نفسه قالوا له: كم تحب أن تكون مدة ملكك؟ فيقول كذا وكذا. فإن مات دون تلك المدة فبقضاء الله مات، وإن بقي بعد ما ذكره بلسانه قتل بعد بلوغه الأجل. ولا تصلح الخاقانية إلا في أهل بيت معروفين وليس لخاقان من الأمر والنهي في الخزر شيء غير أنه يعظم ويسجد له الجميع حتى الملك إذا دخل إليه، ولا يصل إليه أحد إلا لحاجة وإذا دخل عليه المرء تمرغ له في التراب وسجد وقام من بعد حتى يأذن له بالقعود. وإذا حزبهم أمر عظيم أو حرب أخرج فيه الخاقان فلا يراه أحد من الأتراك وغيرهم ممن يصاقبهم من أصناف الكفر إلا انصرف له ولم يقاتله تعظيما له، وإذا مات خاقان ودفن لم يمر بقبره أحد إلا ترجل له وسجد ولا يركب ما لم يغب عن قبره.

ويبلغ من طاعتهم لملكهم أن أحدهم ربما وجب عليه القتل ويكون من أكرمهم عليه وأوجبهم حقاً وحرمة، وهو من أكبرهم منزلة لديه ولا يحب الملك قتله ظاهراً فيأمر الملك أن

يقتل نفسه فينصرف إلى منزله ويقتل نفسه. وقد ذكرت أن الخاقانية في أهل بيت وقوم معروفين لا تتعداهم، وفيه الموسر والمعسر المقتر فإذا بلغته الخاقانية عقد له ولا ينظر إلى ما حاله عليه. ولقد أخبرني من أثق به أنه رأى في بعض أسواقهم شاباً يبيع الخبز فإنهم كانوا يقولون إن هلك خاقانهم فليس أحد أحق بالخاقانية منه، وكان مع ذلك مسلما ولن تنعقد الخاقانية إلا لليهود. ولهم سرير في قبة ذهب ولا يضرب إلا لخاقان عند بروزه ومضاربه إذا برزوا لحرب أو أمر يدهمهم فوق مضارب الملك. ومسكنه في البلد أرفع من مسكنه، وله جرايات وقوانين تصل إليه من رسوم على جميعهم.

وبرطاس اسم الناحية وهم أصحاب بيوت خشب وهم مفترشون في نواحيهم لكثرتهم وقوّتهم. وبشجرت اسم الناحية أيضاً، وهم صنفان: فصنف في آخر الغزية على ظهر بلغار ومبلغهم نحو ألفي رجل ممتنعون في مشاجر لا يقدر عليهم وهم في طاعة بلغار، ولبشرت ديار متاخمة لبجناك وهم وبجناك أتراك في جوار الروم. ولسان البلغار كلسان الخزر ولبرطاس لسان آخر وكذلك لسان الروس غير لسان الخزر وبرطاس.

وبلغار اسم للناحية وللمدينة وهم مسلمون، وفي البلد مسجد جامع وبقربهم مدينة أخرى تسمى سوار وفيها مسجد جامع. وأخبرني من كان يخطب بها أن مقدار عدد الناس بهاتيْن المدينتيْن نحو عشرة آلاف رجل وأبنيتهم من خشب يأوونها في الشتاء وفي الصيف يفترشون الأرض في الخركاهات. وأخبرني الخطيب بها أن النهار بها في وقت الشتاء لا يتهيّأ للإنسان أن يسير فيه فرسخين، وفي الصيف يطول النهار ويقصر الليل حتى يكون ليل الصيف مثل ليل الشتاء. وشاهدت ما يدل على ذلك عند قربي من ديارهم أن النهار بقدر ما صلينا الأربع صلوات، وكل صلاة في عقب الأخرى مع ركعات بين الآذان والإقامة ليست بالكسرة.

والروس ثلاثة أصناف: فصنف هم أقرب إلى بلغار وملكهم بمدينة تسمى كويابة وهي أكبر من بلغار، وصنف أعلى منهم يسمون الصلاوية وملكهم بِصلا مدينة لهم، وصنف منهم يسمون الأرثانية وملكهم مقيم بأرثا مدينة لهم. ويبلغ الناس في التجارة معهم إلى

كويابة ونواحيها، فأما أرثا فلم أسمع أحداً يذكر أنه دخلها من الغرباء لأنهم يقتلون كل مَن وطئ أرضهم من الغرباء، وإنما ينحدرون في الماء يتجرون ولا يخبرون بشيء من أمرهم ومتاجرهم، ولا يتركون أحداً يصحبهم ولا يدخل بلادهم. ويحمل من أرثا السمور الأسود والثعالب السود والرصاص وبعض زيبق. والروس قوم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا ويحترق مع مياسيرهم الجواري منهم بطيبة أنفسهن كما يفعل الهند وأهل غانة وكوغة وغيرهم. وبعض الروس يحلق لحيته وبعضهم يفتلها كمثل أعراف الدواب أو يضفرها ولباسهم القراطق الصغار، ولباس الخزر وبلغار وبجناك القراطق التامة. ولم تزل الروس يتجرون إلى الخزر وإلى الروم. وبلغار الأعظم متاخمون للروم في الشمال وهم عدد كثير وقد ضربوا قديما على ما يليهم من بلد الروم الأخرجة والضرائب. وببلغار الداخل نصارى ومسلمون، ولم يبق في وقتنا هذا للبلغار ولا لبرطاس ولا للخزر أهل الروس بقية إلا شعثة ناقصة قد جاسوها، وذلك بقصدهم الجميع وبلوغهم في سائر مجاوريهم فوق آمالهم.

وقد بلغني أن كثيراً منهم رجعوا إلى أتل وخزران بإعزاز محمد بن أحمد الأزدي صاحب شروان شاه لهم، وتأييدهم برجاله وقومه ،وهم راجون مؤملون أن يعاهدوهم ويكونوا تحت طاعتهم بشيء من البر يقيمونه لهم .

ذِكْر المسافات بين الخزر ونواحيه

فمن أبسكون إلى بلاد الخزر عن اليمين نحو ثلاثمائة فرسخ، ومن أبسكون عن اليسار لقاصد الخزر نحو ثلاثمائة فرسخ أيضاً. ومن أبسكون إلى دهستان متياسراً نحو ست مراحل، ويقطع هذه البحر إذا طابت الريح عرضاً من طبرستان إلى باب الأبواب في أسبوع. وأما من أبسكون إلى بلاد الخزر فإنه زائد على العرض لأنه مزوي. ومن أتل إلى سمندر ثمانية أيام ،ومن سمندر إلى باب الأبواب أربعة أيام. وبين مملكة السرير وباب الأبواب ثلاثة أيام، ومن أتل إلى أول حد من برطاس عشرون يوماً ومن أول برطاس إلى آخره نحو خمسة عشر يوماً. ومن برطاس إلى بجناك عشرة أيام ومن أتل إلى بجناك مسيرة شهر. ومن أتل إلى

بلغار على طريق المفازة نحو شهر وفي الماء شهران في الصعود والحدور نحو عشرين يوماً، ومن بلغار إلى أول حدود الروم نحو عشرة أيام، ومن بلغار إلى إلى كويابة نحو عشرين مرحلة ومن بشجناك إلى بشجرت الداخل عشرة أيام، ومن بشجرت الداخل إلى بلغار خمس وعشرون مرحلة).

(18)
بحر الخزر
أبو حامد الغرناطي (توفي ٥٦٥ هجري=١١٧٠ ميلادي) من كتاب (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب)

(وأما بحر الخزر الذي عليه طبرستان ويمتد إلى ناحية جرجان، وإلى بلاد الترك إلى الخزر، ويمتد إلى باب الأبواب، فإنه بحر صغير يقال إنه دوره ثلاثمائة فرسخ أو نحوها، ومادته من الأنهار العظام. وفيه جزائر جماعة منها جزيرة تعمرها الجن يسمع الناس فيها أصواتهم ولا يسكنها شيء من الحيوان، وجزيرة أيضاً يسكنها الجن مملوءة من أنواع الحيات والطير يفرخ بين الحيات ولا يضر فراخ الطير، وكنا نعبر عندها بالسفن فيخرج أهل السفينة ويأخذون بيض ذلك الطير وفراخه من بين الحيات والثعابين ولا تؤذي أحداً.

وهناك جزيرة سوداء كالقير، يخرج منها ماء مر مالح منتن، ويخرج مع ذلك الماء حجارة مربعة كأنها الصفر الأصفر الجيد، يأخذها الناس مثاقيل للموازين. وفي مقابلة هذه الجزيرة على جانب البحر أرض سوداء كالقير ينبت فيها الحشيش، وفيها أنواع من الوحوش، ويخرج من تلك الأرض السوداء القير والنفط الأسود والأبيض. وهي قريبة من باكو، من عمل شروان، ويظهر في الليل في تلك الأرض، والجزيرة نار مثل نار الكبريت زرقاء تشعل ولا تحرق الحشيش، ولا حرارة لها. وإذا نزل عليها المطر زادت واشتعلت وعلت، يراها الناس

من بعيد، وليس لها في النهار أثر .يُصطاد الغزلان في تلك الأرض فيقطعون لحم الصيد ويجعلونه في جلده ويشدون الجلد عليه على أنبوبة قصب مثقوبة ويدفنون الجلد باللحم في ذلك التراب الأسود، فيغلي ويخرج الزبد من تلك الأنبوبة، كما يخرج من القدر. وإذا نفد الزبد نضج اللحم، فيُخرجون ذلك الجلد صحيحاً، واللحم نضجاً حاراً كما يكون في القدر ولا حرارة في تلك الأرض. وهذه من عجائب الدنيا، وتلك النار تشبه نار المعدة .

ويوجد على ساحل البحر وجزائره حجارة محك الذهب أنواعاً. وكان لي صديق من أهل استراباذ يقال له أبو الحسن علي بن عبيدان ،وهو رجل معروف. دخل غلامه إلى جزيرة من تلك الجزائر التي فيها محك الذهب فأخرج منها حجارة كثيرة وكان منها حجر واحد مكتوب فيه محمد و علي بخط أبيض من أحسن الخطوط وبذلت له فيه وزنه من ذهب فلم يفعل .

وينصبُّ في ذلك البحر نهر عظيم يسمى إِتِلْ، يجئ من فوق بلغار من ناحية الظلمات، يكون مثل الدجلة مائة مرة أو أكثر، يخرج منه إلى البحر سبعون فرعاً، كل فرع كالدجلة ويبقى منه عند سخسين نهر عظيم مشيت عليه في زمان الشتاء وقد جمد حتى صار كالأرض تمشي الخيل والعجل وسائر الدواب عليه، وكان عرضه ألف وثمانمائة ونيف وأربعين خطوة، وفيه أنواع من السمك، كل نوع لا يشبعه الآخر، السمكة فيها مائة مَنٍّ وأكثر وأقل، وهو طويل له خرطوم فيه فمه صغير يسع الأصبع، ليس فيه شوك وليس له سن ولا له عظم، يخرج من معدته الفراء يحمل إلى جميع الآفاق ويشوى ويطرحون تحت الأرز، كما يكون تحت اللحم الأرز، كما يكون تحت الحمام، فيكون أطيب من كل لحم يؤكل في جميع الدنيا ،وكذلك الأرز الذي يكون تحته أعذب من جميع الأرز الذي يكون تحت الدجاج المسمّن، ودهنه ولحمه لا زفر فيه ولا رائحة البتة، وهو من عجائب الدنيا .

ولما دخلت سخسين سنة خمس وعشرين وخمسمائة، اجتمع إلي الناس من أهل العلم وغيرهم، وفي جملتهم شيخ ضعيف له ثياب خلقة، فألقى عندي سوار ذهب وزنه أربعون مثقالاً، وقال: ما أصنع بهذا السوار؟ فقلت لا أدري ما تصنع به لست بصائغ حتى أعلم ما

تعلم به .

فقال: اشتريت سمكة بطسوج فوجدت هذا السوار في بطنها. فقلت: عرّفه، فقال: قد عرّفته ثلاث سنين أشده على عكازي وأدور به في المساجد والأسواق والبيوت والطرقات وفي دور الأمراء فلا أجد له من يدعيه. فقلت: خذه أنت، فإنه مال حلال وأنفقه على نفسك .

فغضب من كلامي وقال: والله لا تراني آكله. فقلت لماذا تقول هذا الكلام؟

قال: لأنني رجل صانع أعمل الخفاف وآخذ ما يكفيني، فقلت له: افتد به الأسرى من أيدي الترك. ففرح، فقال: بارك الله عليك، فرّجت عني كربة. فقلت: وليس هنا من أهل العلم من يأمرك بمثل هذا؟

فقال: ها هنا من أهل العلم من يقول أعنّا إياه ،ونحن نعرف ما نصنع به، وإنما يريدون أكله .

وسمعت ببلغار، وهي مدينة في آخر بلاد الإسلام في الشمال، وهي فوق سخسين بأربعين يوماً، يكون النهار في الصيف عشرين ساعة، والليل أربع ساعات، ويكون الليل في الشتاء عشرين ساعة، والنهار أربع ساعات. ويشتد البرد فيها حتى إذا مات لأحد ميت، لا يقدر أن يدفنه ستة أشهر لأن الأرض تصير كالحديد، ولا يمكن أن يحفر فيها قبره .

ولقد مات لي بها ولد، وكان في آخر الشتاء، فلم أقدر على دفنه فبقي في البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه، ويبقى الميت كالحجر .

ويخرج التجار من بلغار إلى ولاية من الكفار يقال لهم إيسوى منه يجئ القندر الجيد، ويحملون إليهم السيوف التي تتخذ في أذربيجان نصالاً غير مجلية تشترى في أذربيجان أربعة سيوف بدينار ويسقونها سقياً كثيراً حتى إذا علقوا النصل بخيط ونُقر، طنَّ كثيراً. فذلك الذي يصلح لهم فيشترون بها القندر. ويذهب أهل إيسوى بتلك السيوف إلى ولاية قريبة من الظلمات مشرفة على البحر الأسود، فيبيعون تلك السيوف منهم بجلود السمور، ويأخذون تلك النصول فيلقونها في البحر الأسود، فيخرج الله تعالى سهم سمكة كالجبل تتبعها سمكة أكبر منها أضعافاً تريد أكلها فتلقي نفسها قريباً من البر بحيث لا يمكنها

الرجوع، فيدخلون إليها بالسفن ويقطعون من لحمها شهوراً حتى يملئوا بيوتهم ويدخرون من لحمها، ويقددون ما لا نهاية له من ودهنها، وربما يكبر البحر فترجع تلك السمكة إلى البحر وقد ملأت مائة ألف بيت أو أكثر من لحمها .

وإذا كانت السمكة صغيرة يخافون أن تصيح إذا وصلوا في موضع القطع من لحمها إلى عظامها، يخرجون أولادهم ونساءهم إلى موضع بعيد من البحر حتى لا يسمعوا صوتها .

وقد حدثني بعض التجار أنهم خرجت إليهم سنة من السنين سمكة عظيمة فثقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وجروها فانفتحت أذنها وخرج من داخلها جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، حمراء الخدين عجزاء، من أحسن ما يكون النساء ومن سرتها إلى نصف ساقها جلد أبيض كالثوب خلقه يتصل بجسدها يستر حياءها وجسدها كالإزار دائر عليها، فأخذها الرجال إلى البر، وهي تلطم وجهها وتنتف شعرها وتعض ذراعها وثديها، وتصيح، وتفعل كما تفعل النساء في الدنيا حتى ماتت في أيديهم . فتبارك الله، ما أكثر عجائبه وخلقه، وما لم نشاهد أكثر، وما لم نسمع به أكثر .

وعلى بلغار ذهب ذو القرنين إلى يأجوج، فيما يقال، والله عز وجل أعلم .)

(19)
بحر نيطس (البحر الأسود)
الدمشقي: من كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر)

(قال المعتنون بعلم ذلك إن بحر الروس وسرداق بحر مظلم، كثير الاضطراب، كبير الموج مهول سريع تغريق المراكب فيه لشدة غليانه واضطرابه واختلاف الرياح العواصف فيه، وليس فيه كثير ينفع الناس غير السمور ووبر القندس وما يجلب من بلاد الترك من الرقيق . وبه سبع جزائر للروس والحرامنة لايزالون يتحرمون بأطرافه المغربية .

وهذا البحر ينفرش من مصب الساعد فيه ويمتد مشرقاً حتى يبلغ إلى طول سبعين درجة ونصف درجة من طول أربعين درجة وذلك ثلاثون درجة هي بالفراسخ خمسمائة فرسخ وثمانون فرسخا، هي بالأميال ألف وسبعمائة وأربعون ميلاً، وهي بالمراحل سبعون مرحلة. وعرض هذا البحر على تفاوت فيه من أربع وأربعين درجة وإلى سبع وأربعين درجة ونصف درجة وهي ثلاث درج ونصف بخمس وستين فرسخاً ونصف فرسخ وهي بالأميال نحو مئتي ميل. وبجزائره أمة تسمى الروسية نصارى. وجزائره عامرة بالمدن والقرى والكروم والمواشي، وهي كثيرة الأخوار والجبال والحروث والبروش وكذلك سواحله، وقيل إنه بحر مستقل بنفسه يخرج منه خليج قسطنطينية ويصب في بحر الروم.

وقوم يقولون إنه خليج يخرج من المحيط على ظهر بلاد الصقالبة وظهر بلاد البلطمية وبلاد العامانية وبلاد الأزكشية وبلاد التركشية وأرض برجان واللان، وكلهم يدينون بالنصرانية، وعليه للمسلمين فرضتان يدخل منهما إلى بلاد الروم إحداهما طرابزون المسماة قبل طرابزندة، وكانت في صدر الإسلام عامرة كثيرة المتاجر لاجتماع الروم والمسلمين فيها للتجارة ثم خربت. وخلف عنها صنوب وهي الفرضة الثانية وبها سمسون مينا مستجد وليمونه كذلك، وكثيراً ما يظهر بهذا البحر التنين الذي يزعم من لا علم عنده أنه حيوان حي، وأنه ينقله الملائكة من البحر إلى جهنم عند عتوه وطغيانه على دواب البحر وأنه يكون في جهنم من جملة حياتها وأنواع العذاب فيها.

وزعم آخرون أن التنانين دواب تكون في قعر البحر فتعظم وتؤذي ما فيه من دابة، فيبعث الله السحاب والملائكة فتخرجها من البحر وتلقيها في أرض يأجوج ومأجوج فيأكلونها. والتنين يوجد في البحر الرومي وببحر الخزر وببحر ورنك بكثرة وكذلك في سواحل المحيط بالأندلس، ويخرج من هذا البحر من شماله جون عرضه نحو من عشرة أميال وطوله نحو ثلاثين ميلاً كالخليج فيصب في بحر سرداق وسقسين والقبجق وهو بحر مستدير طوله وعرضه نحو مئتي ميل في مثلها وعليه مدينة سرداق ومدينة كفا ومدينة قرم.

وبسواحله طوائف من الترك كالأزكش واللان وبرطاس والكلابية. وذكر صاحب "تحفة

الغرائب "أن بأرض اللان شمالي هذا البحر معدنا للفضة ليس على وجه الأرض مثله وذلك أن أرضه مخصوصة نحو من مئة ذراع في مثلها زرقاء ندية برازة ويثيرونها أهلها بالحرث والنكاش ثم يجمعون ترابها ويجففونه ثم يجعلونها كثيباً ثم يلقون عليه الحطب الجزل بكثرة ثم يتخذون فيه من تحته مجاري أخاديد في الأرض ويوقدون النار فإذا سبكت النار ذلك التراب المجموع سال منه فضة سيلاً في تلك المجاري مختلطة بإقليميّاها فيصفّونها كالعادة فتبقى فضة خالصة .)

(20)

بحر فارس (= الخليج العربي)

الدمشقي: من كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر)

(قال أهل العلم بذلك :بحر فارس مبارك مأمون كثير الخير لم يزل مركوباً، وهياجه واضطرابه أقل من سائر البحار، وهو شعبة من بحر الهند، ومن أعظم شعبه وأنه كان متصلاً به مخالف له في الهيج والسكون فإن فيه من الماء سبعين باعاً إلى ثمانين باعاً، وفيه مغاص اللؤلؤ الصافي والدر الجيد، وفيه معادن العقيق والبجادي والماذنبي والذهب والفضة والحديد وفيه أنواع الطيب والبهار، ومده وجزره مع طلوع القمر ومع توسطه بوتد الأرض وطوله أربعمائة فرسخ وستون فرسخاً وعرضه مائة وثمانون فرسخاً، وهو مثلث الشكل على هيئة القلع أحد أضلاعه من البصرة إلى رأس الجمحة من بلاد مهرة، والآخر من البصرة إلى تيز مكران، والثالث يأخذ من رأس الجمحة ويمتد على سطح البحر طوله خمسمائة ميل وطول الضلعين الآخرين حيث يبتدي من تيز مكران وإلى أن ينتهي إلى الحسا والقطيف بالبصرة ثم ينعطف إلى رأس الجمحة تسعمائة ميل ودردور فيه مما يلي عبادان.

وفي هذا البحر من الجزائر المشهورة على ألسنة التجار، تسعة، منها أربعة عامرة، وهي جزيرة خارك يحيط بها عشرون ميلاً، وبها مدينة لها جامع حسن. وجزيرة كاس تسمى

جزيرة قيس يحيط بها اثنا عشر ميلاً، وهي عامرة مأهولة بها بساتين كثيرة وهي لصاحب عمان وله فيها مراكب تغزو جزائر الهند وبها وبجزيرة خارك مغاص اللؤلؤ. وجزيرة أوال وهي تجاه البحر بساحل بلاد البحرين وبينهما يوم، وبها مدينة لها جامع أيضاً. وجزيرة يافت تعرف بجزيرة بني كافان طولها اثنا عشر ميلا وعرضها تسعة أميال وهي آهلة عامرة. وأوال اسم دابة من دواب البحر يكون طولها مائة ذراع وأكثر وأقل، وهذا كثير الوجود بناحيتها.

وجزيرة فارس واغلة فيه بإزاء خوزستان مسكونة لقوم من السراق لهم جلادة على العوم وعلى القتال في الماء. يزعم أهل جزيرة قيس أن هؤلاء من نسل الجان، وذلك أن بعض ملوك الهند أرسل تحفاً إلى ملك فارس وجواري حساناً وأن المركب أرسى بساحل الجزيرة ولم تكن مسكونة وباتوا بسواحلها، وأن الجواري بتن بها عند ما نزلن من المراكب، فاختطفوهن الجان وأسروهن ووطئوهن حتى حملن وولدن، وأولاد هؤلاء من نسلهن هم وذرياتهم أبداً. وبهذه الجزيرة من النخل مالا بغيرها فإنه ينبت بنفسه، ومن المعبر الكبير يسار إلى جزائر الوقواق، وأهلها يتعاملون بالحديد كما يتعامل الناس بالذهب حتى إن أطواق كلابهم من الذهب وسلاسل دوابهم لكثرة الذهب. والحديد عندهم أعز منه وأغلى، كما أن أهل غانة يحبون القصدير ويستخيرونه على الذهب وكذلك أهل الحبشة العليا يختارون الصفر على الفضة ويتحلون به دونه ودون الذهب).

(21)

بحر اليمن وبحر القلزم(=البحر العربي والبحر الأحمر)

الدمشقي: من كتاب(نخبة الدهرفي عجائب البر والبحر)

(قال المعتنون بتدوين مثل ذلك في الكتب :أول بحر اليمن من جهة المشرق رأس الجمحة، وهو جبل معترض في البحر ببلاد مهرة، وهو حدود بحر فارس أيضاً ...وجزائر دبيجات، جزائر صغار وكبار متقاربات ولهن جزيرة وسطها هي الديبجات، وهي أعجب

جزائر هذا البحر كله، أهلها سود شديد سوادهم وكل ما عندهم أسود من تراب وحجارة ودواب حتى إن قصب السكر عندهم أسود، وغالب النبات عندهم خضرته إلى السواد وكذلك الذرة سوداء والكافور.

وببحر اليمن القرش ويسمى سبع البحر أخضر اللون بزرقة خشن البشرة حتى إن رقبته وظهره شبيه بالمبرد، يتخذون منه الناس جلوداً لقبضات السيوف، وله خرطوم عظيم أقصر من ذراع وبدنه أطول ما يطول أربعة أذرع وخرطومه شبيه المنشار وخدان يضرب بهما يمنة ويسرة. وحيوان مستدير الشكل كهيئة البطيخة الخضراء في التدوير ولونه أصفر منقّط بسواد وخضرته كلون الضفدع الترابي ولا يبين لهذا الحيوان رأس ولا ذنب، فإذا وقع في شبكة الصياد وألقاه إلى الأرض انتفخ بما في أقطاره حتى يكون أضعاف ما كان من المقدار ثم يضمر ثم ينتفخ ثم يضمر ثم ينتفخ ثم يضمر إلى أن يموت أو يرجع إلى الماء ولا يؤكل لحم هذا الحيوان لسميّة فيه.

وحيوان كصورة طبق أو ترس وهذا شكله كأنما هو جردقة أو سفرة أديم مفتوحة ولونه أزرق إلى الخضرة منقط بأحمر وله ذنب طويل شبر فما دونه إلى شبرين وذلك الذنب أبيض وأسود وفي رأس ذنبه حمة يلدغ بها من لدغه نسر عليه وغفبر لحمه ولا يزال حتى يموت، وليس لهذا الحيوان ريش كريش السمك ولا يدان ولا رجلان بل سفرة مبسوطة وذنب يخفق بطرفيه فيمشي سريعا وبطيئاً وله فم من تحت بطنه في وسطه ومخرج بالقرب من فمه، وبطنه مقدار شبر في شبر، ووسع جمجمته كله من ذراع إلى ذراعين مثل في مثل، والله أعلم .

وحيوان طوله نحو ذراع ،ومنه خارج أحساك كصورة ريش القنفذ عظيمات التحديد تنضم إلى بدنه وتقوم في رباطات بدنه، وبدنه بدن سمكة ووجهه وجه بوم، يقتل من يمسه بتلك الأحساك نخساً وهذا شكله ولونه أزرق إلى الخضرة، وريش ذنبه أبيض وأسود، والله أعلم. وحيوان يسمى البسة طوله نحو عشرين ذراعاً، وظهره عظيم أسود موشى بأصفر حسن التوشية رقيق وهو سطح جلده وهو الذبل الذي يصنعون(يصنع) منه الناس أمشاطاً

ونصب السكاكين والخواتيم وغيرها. ولحم هذا الحيوان طيب سمين دهن شهي لذيذ الأكل ليس فيه زفارة، وتزعم الصيادون أن البسة تلد ولادة، والقاعدة أن كل حيوان ليس له أذن ناتيه يبيض بيضاً ويفقس فراخاً، وكل حيوان له أذن ناتية يلد ولادة والله أعلم، وحيوان طويل دقيق يسمى قطن البحر يصاد ويجفف فيصير لحمه مثل القطن يغزل غزلاً ويتخذ من نسجه ثياب تسمى سمكين لونها أغبر، والله أعلم .

في وصف بحر القلزم المسمى بحر موسى عليه السلام وبحر الزيلع

وهو خليج دقيق يشبه في امتداده باللسان، خارج من بحر اليمن، ومخرجه من المندم جبل طوله اثنا عشر ميلاً من المشرق إلى المغرب وسعة فوهة الخليج عنده مقدار مايرى الإنسان البر الآخر منه، فإذا فارق المندم -ويقال المندب أيضاً بالباء- يكون سعته عند مدينة عوان من بر الحبش والعجم نحو ستين ميلاً، وأهل عوان حبوش سكان بها، ثم يمتد إلى جهة الشمال بغرب يسير يدق ويعرض حتى ينتهي إلى مدينة أيلة والقلزم وهما خراب الآن، وطوله ألف وخمسمائة ميل وعرضه من مئتي ميل إلى أربعمائة ميل، وفي هذا البحر أغرق الله فرعون وجنوده، وهو بحر صعب قليل الخير شقي الساكن قليلة. وإذا ركبه الراكب رأى أهوالاً ووجد شدائد لا يجدها في غيره ،وبه شجرة المرجان أبيض ظاهره وباطنه، وفيه السلحفاة مقدار الكبيرة منهن عشرة أشبار في ستة أشبار فما دون ذلك، وبه السرنباق وحلزون طويل كبير نحو شبر وأكثر. والحيوان الذي فيه الطيب، ويجمع من هذا البحر دم الأخوين وبه أعاجيب، أعرضنا عن ذكرها ليست كباقي أعاجيب البحر، والله أعلم..)

ينتهي كتاب (أقاليم وبحار وبشر) بعد أن ارتحلنا في موضوعاته المتشعّبة التي كنّا نشدّد خلالها على تقديم المعلومة المرفقة بالتصور الذهني الذي يكمن خلفها . لم تأت المعلومات مجردة عن سياقها التاريخي والاجتماعي والديني، فنظرة المسلمين إلى العالم كمجموعة هويتها الإسلام بوصفه ثقافة شاملة ، كانت تترتّب دائما في ضوء الأطر العامة التي يحدّد معالمها الإسلام. ومعلوم أن عوالم القرون الوسطى كانت تنقسم بناء على القيم العقائدية والثقافية والشعورية، وتكاد الحدود الواضحة بينها شبه غائبة سوى التخوم الطبيعية من صحارى وجبال وبحار وغابات.ولهذا قسّمه المسلمون إلى ثلاثة أقسام: دار الإسلام، ودار الحرب، ودار العهد .

لقد كشفت لنا النصوص التي شكّلت متن الكتاب هذا الأمر ،لكنها وردت في سياق يهدف إلى التعريف بالخلفيات الثقافية التي تنظّم منظور المسلمين للعالم خلال القرون الوسطى ،وعليه انطلقنا من العام إلى الخاص ؛ من الأرض وشكلها إلى أقاليمها ومسالكها، وصولا الى محيطاتها وبحارها وجزرها، وفي كل ذلك كان الإنسان حاضرا بشكله وحياته وعقائده . ومن كل ذلك نهدف إلى قضية أكبر بكثير من كل ماورد، إنها التعرّف المباشر والتفصيلي إلى التجمعات البشرية الضخمة في الشمال (أوربا) والشرق(الهند والصين والبلاد والجزر المجاورة لهما) والجنوب (إفريقيةالسوداء)وذلك سوف يكون المادة الأساسية للأجزاء الآتية من هذا الكتاب .

مصادر كتاب أقاليم وبحار وبشر

البتّاني ، أبو عبد الله محمد بن سنان بن جابر الحرّاني(٣١٧=٩٢٩)

- كتاب الزيج الصابئي، روما ،١٨٩٩

البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد(٤٤٠=١٠٤٨)

- كتاب القانون المسعودي، حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٣

أبو حامد الغرناطي ، محمد بن عبد الرحيم الأندلسي(٥٦٥=١١٧٠)

- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، دار الجيل–المغرب دار الآفاق الجديدة

ابن حوقل،أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي(توفي بعد ٣٦٧ =بعد ٩٧٧)

- صورة الأرض، بيروت، دار صادر، ١٩٣٩

ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد(٨٠٨=١٤٠٦)

- مقدمة ابن خلدون، بيروت ،مؤسسة الأعلى للمطبوعات .
ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر(توفي نحو ٣٠٠=نحو٩١٢)
- كتاب الأعلاق النفيسة، ليدن ، بريل، ١٨٩٣
الدمشقي (= شيخ الربوة) محمد بن أبي طالب الأنصاري (٧٢٧=١٣٢٧)
- نحبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، مكتبة المثنى .
باريس، دار الطباعة السلطانية ، ١٨٤٠
المسعودي، علي بن الحسين بن علي (٣٤٦=٩٥٧)
- التنبيه والإشراف ، بيروت ، دار تحقيق التراث، ١٩٦٨
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٦٤

للمؤلّف

١ . المركزية الغربية :إشكالية التكوّن والتمركز حول الذات(بيروت، المركز الثقافي العربي،١٩٩٧)

٢. الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة: تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة (بيروت، المركز الثقافي العربي، بيروت ،١٩٩٩)

٣ . السردية العربية : بحث في الموروث الحكائي العربي(بيروت ، المركزالثقافي العربي،١٩٩٢) وطبعة ثانية(بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠)

٤ . التلقّي والسياقات الثقافية : بحث في تأويل الظاهرة الأدبية (بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ٢٠٠٠)

٥ . المتخيّل السردي: مقاربات في التناص والرؤى والدلالة(بيروت، المركز الثقافي

العربي،١٩٩٠)

٦ . معرفة الآخر(بيروت المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠) وطبعة ثانية ١٩٩٦

٧ . تحليل النصوص الأدبية (بيروت ، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٠)

٨ . التفكيك: الأصول والمقولات(الدار البيضاء، دار عيون، ١٩٩٠)

مدخل

صورة أهل الشمال في أعين المسلمين

يبدو الشمال غامضاً ومخيفاً في أعين المسلمين في القرون الوسطى، ولم تكن قد توافرت لهم معلومات متكاملة عنه ، ولهذا فقد قاموا بأنفسهم بتشكيل صورته في أذهانهم بناء على مصادر كثيرة ، منها جهود الجغرافييّن والرحالة،والعلاقات المباشرة بسبب الجوار والتجارة وغير ذلك، وتشكّلت ملامح تلك الصورة الغامضة، والمشوبة أحيانا بنوع من الخوف بسبب الصراع العقائدي الذي كان ناشبا بين دار الإسلام وكثير من الممالك الشمالية، وفي مقدمتها بلاد الروم وبلاد الفرنجة،وممالك وسط أوربا، ثم الممالك التي نشأت على التعاقب شمال بحر قزوين ،وحول البحر الأسود ،وحوض نهر الفولغا كالصقالبة والخزر والبلغار والباشغرد، وكثير من الأمم التي كانت تعرف طوال القرون الوسطى بالأمم التركية، ويقصد بها تلك القبائل التي اندفعت من شمال ووسط آسيا صوب الغرب،وتوغلت في أوربا ، فضلا عن الجرمان والأقوام الإسكندنافية–النورمانية وغيرهم، ومن المعلوم أن التوتّر العقائدي ظل موجها أساسيا في طريقة تركيب الصور المتبادلة للشعوب فيما بينها، وكلما شحنت الأجواء بكراهيات الصراع والحروب التي ينتصر فيها هذا الطرف أو ذاك ،تتأجج أحقاد في النفوس تجد طريقها في توجيه طريقة النظر إلى الآخر،ومن ذلك فأن الحروب الصليبية لعبت دورا بالغ الخطورة في إعادة تعبئة النفوس بالضغائن .

كانت الفتوحات الإسلامية في الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، وفتح الأندلس في الجنوب الغربي من أوربا، فضلا عن تقدم المسلمين شمال بحر قزوين، قد جعلت الأقوام المتجاورة تتوجس خيفة من بعضها .ومن المؤكد بأن كل ذلك ترك أثرا مباشرا في رسم صورة الآخر.وقد قدّر المسلمون كثيرا شجاعة أهل الشمال في الحروب،ويندر أن نجد بينهم مَنْ يهمل ذلك، وعلى الرغم من الجراح التي أحدثتها الحروب الصليبية بين المسلمين والممالك الصليبية،وهي حروب دينية طويلة ومعقدة وذات طابع لاهوتي في بعض مفاصلها

الاّ أن التقدير المتبادل للشجاعة الشمالية والتسامح الإسلامي انبثق من وسط أجواء مشرّبة بدم الضحايا ،تثبت ذلك الملاحظات المعمقة التي تركها أسامة بن منقذ حول المقاتلين الصليبيين، وهي التي سنختتم بها هذا الجزء من الكتاب ، وتثبتها أيضا المرويات الشعبية الشمالية التي ظهرت في أوربا حول صلاح الدين الأيوبي، وهذا مجرد مثل يكشف أن التقدير العام للقيم والسلوك قد يجد طريقة للظهور على الرغم من أجواء التوتر العامة .وعلى العموم فان الشعوب المتساكنة حول البحر الأبيض المتوسط كانت تتوفر لديها درجة من المعرفة ببعضها لكون البحر كان حلقة اتصال بينها منذ القدم.وكان التنازع، ومازال قائما بين قوى صاعدة وأخرى متراجعة تحيط بهذا البحر.إلى ذلك لعبت العوامل السياسية والتجارية، وتداخل التخوم أحيانا في إبراز الصور المتشكّلة لتلك الشعوب فيما بينها، ولكن كلما توغلنا في وسط القارة الأوربية، واتجهنا شمالا تضاءلت المعلومات وحلّت الأساطير محلّها؛بحيث تبدو الأصقاع الشمالية من أوربا شبه مجهولة، ،و لم يجسر أحد على تقديم براهين مؤكدة حول الأنظمة الثقافية والدينية والأخلاقية والاقتصادية السائدة فيه.

باستثناء حفنة من الرحالة كالطرطوشي، وابن فضلان مبعوث المقتدر، وسلام الترجمان مبعوث الواثق، فإن الجغرافيين العرب الذين جمعوا مدونات الرحالة مثل ابن خرداذبة والبكري وياقوت لم يتعاملوا بجد تام مع المعلومات التي جهزها لهم رحالة شبه مغامرين، وشديدي الملاحظة إلى درجة نلمس فيها حذرا منهم،بصورة أو بأخرى، فلقد تشكك ياقوت في أخبار ابن فضلان بخصوص الصقالبة، وكان يجتزيء معلومات منها دون أن يجرؤ على تقديرها، فينسبها لصاحبها،وكأنه بذلك يريد التخلص من مسؤليتها، فكيف بالأقوام الساكنة إلى الشمال منهم![١] .أما ابن خرداذبة الذي يذكر خبر ذهاب سلام الترجمان إلى بلاد "يأجوج ومأجوج" ، فإنه، وهو يورد عجائب الرحلة على لسان صاحبها، يومئ من طرف خفي إلى أنه غير مسؤول عمّا ورد فيها "فحدثني سلام الترجمان بجملة

هذا الخبر ثم أملاه عليّ من كتاب كان كتبه للواثق بالله[٢]. والبكرى في " المسالك والممالك" يستفيد من رحلة الطرطوشي في قلب أوربا لكنه ينثرها نثرا في تضاعيف كتابه. على الرغم من ذلك فأخبار أهل الشمال المشوبة بمبالغات الجهل، وأقصد بالتحديد تلك المناطق النائية والمنعزلة، قد غزت كتب الجغرافيّين، وتحولت مع الزمن إلى جملة من الحقائق الذهنية التي يأخذها الخلف عن السلف دون تغيير يذكر، فملاحظات سلام الترجمان استعيدت فيما بعد عند كثير من الجغرافيين. فابن سعيد المغربي المتأخر يكرر المعلومات التي تشكلت قبل عدة قرون حول الشمال. ومثال ذلك فإن سلام الترجمان يتحدث عن الأرض الواقعة وراء بلاد الخزر، ويقول إنها " أرض سوداء منتنة الرائحة، وكنّا قد تزودنا قبل دخولها خلاً نشمه من الرائحة المنكرة[٣] .وعلى غراره يذهب ابن سعيد واصفاً تلك البلاد، بأنها "الأرض المنتنة، لا يقدر أحد على سلوكها إلا بالروائح الطيبة، وهي خالية[٤] .وبينهما طائفة الجغرافيين المشهورين الذين يوردون المعلومات ذاتها، الأمر الذي يكشف سكون بعض المعلومات ، وعدم تجددها ،وقدمها، واعتمادها في الغالب على المرويات الشفهيّة التي تختلط فيها الحقائق بالأكاذيب .ولكن هذا لايقلل بأي شكل من الأشكال من قيمة المشاهدات المباشرة التي تركها الرحالة ، فكثير منها اعتبر من أهم الوثائق عن الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية لكثير من البلاد الشمالية، وسنجد في كثير منها عمقا وحيوية كبيرين.

يرتسم الشمال في أذهان القدماء باعتباره "بلاد الظلام" ، كما يقول ابن بطوطة[٥]. وهذا الوصف القائم على حكم اختزالي واضح ،يخفض من أهمية هذه المناطق، ويجعل الشمال ملتبساً بسبب شحة المعلومات حوله، ويحسن أن نستعين مرة ثانية بابن سعيد الذي يجمع من موارد سابقة. فما أن يصل بحديثه إلى الجزء السادس من الإقليم الشمالي الذي يكون نهر "أتل" (= الفولغا) في جزئه الجنوبي، إلا تحلّ الأحكام محل الأوصاف، فسكان الأجزاء العليا "هم من أجناس الأتراك، ولهم اعتناء بالنجوم، واشتغال بأحكامها، وهم يعبدونها" وكل المدن الواقعة هناك" خاملة الأسماء" وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم حيث جبل

"البجناك" توجد "أمة من الترك يحرقون أنفسهم، ويحرقون من وقع إليهم" وإلى الشرق تظهر الأرض المنتنة التي يسكنها "كفّار لا يدل إليهم أحد إلا قتلوه" ثم يأتي الجزء التاسع، وهو "الأرض المحفورة" وهي "مسكونة بقوم لا يقدرون على الصعود، ولا يستطيع أحد النزول إليهم لبعد عمقها" وينتهي شمال الأرض، بالجزء العاشر و "جميعه داخل في بلاد يأجوج ومأجوج وآخره المحيط بالشرق[٦] . وهنا حيث تغيب المعلومة ينشط التخيّل. ويجمع الجغرافيين العرب، فيما يخص الشمال، أمر واحد، هو الحديث عن بلاد "يأجوج ومأجوج"، وباستثناء سلام الترجمان، فلا أحد ادّعى الوصول إليها[٧] ،حتى أن ابن بطوطة حينما يصل في الصين إلى مدينة الزيتون (= شوان شوفو) ثم يعبرها شمالاً إلى مدينة "صين كلان" التي هي آخر مدينة يصل إليها في رحلته، يتوقف قبل أن يعود أدراجه "ليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين، وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوماً، فيما ذكر لي، يسكنها كفّار رحّالة ياكلون بني آدم إذا ظفروا به، ولذلك لا تسلك بلادهم، ولا يسافر إليها، ولم أر بتلك البلاد من رأى السد المذكور، ولا من رأى من رآه[٨].

يحسن بنا أن نرى كيف تترتّب المعلومات حول أقوام الشمال، وذلك لايتم الا من خلال تنضيد المعلومات التي ترسم لنا مسارا متصاعدا يبدأ بأقرب البلاد المتاخمة لدار الإسلام ثم ينتهي بنا في فيافي الثلج؛ إذ تنال الشعوب القريبة نوعا من الاهتمام، من ذلك بلاد الروم، إذ يقول المسعودي عن أهلها :ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين، وبرهة من مملكة الروم، تعظّم العلماء، وتشرّف الحكماء، وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنفس، والتعاليم الأربعة – أعني : الإرتماطيقي، وهو علم الأعداد و الجومطريقي، وعلم المساحة والهندسة، والاسترنوميا، وهو علم النجوم، والموسيقى وهو علم تاليف اللحون – ولم تزل العلوم قائمة السوق، مشرقة الأقطار قوية المعالم، شديدة المقاوم، سامية البناء، إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم، فعفوا معالم الحكمة، وأزالوا رسمها، ومحوا سبلها، وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته، وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته. أما حديثه عن الأقوام الأخرى كالإفرنجة والصقالبة والنوكبرد والأشبان ويأجوج ومأجوج والترك والخزر

وبرجان واللان والجلالقة فيؤكد أنه لا خلاف بين أهل البحث والنظر من الشرعيين أن جميع هؤلاء الأمم من ولد يافث بن نوح، وهو الأصغر من ولد نوح؛ثم يقدم وصفا لبعض الأقوام: فالإفرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأساً، وأمنعهم هيبة، وأكثرهم عدَّة، وأوسعهم ملكا، وأكثرهم مدناً، وأحسنهم نظاماً وانقياداً لملوكهم، وأكثرهم طاعة ؛ إلا أن الجلالقة أشد من الإفرنجة بأساً، وأعظم منهم نكاية، والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الإفرنجة، وكلمة الإفرنجة، متفقة على ملك واحد، لا تنازع بينهم في ذلك،(٩)

يستطرد القزويني في وصف بلاد الافرنج ، فيقول بأنها مملكة عريضة في بلاد النصارى، بردها شديد جداً ،وهواؤها غليظ لفرط البرد،وهي كثيرة الخيرات والفواكه والغلات، غزيرة الأنهار كثيرة الثمار، ذات زرع وضرع وشجر وعسل، صيودها كثيرة الأنواع. بها معادن الفضة، وتضرب بها سيوف قطاعة جداً، وسيوف افرنجة أمضى من سيوف الهند. وأهلها نصارى. ولهم ملك ذو بأس وعدد كثير وقوة ملك له مدينتان أو ثلاث على ساحل البحر من هذا الجانب في وسط بلاد الإسلام، وهو يحميها من ذلك الجانب، كلما بعث المسلمون إليها من يفتحها يبعث هو من ذلك الجانب من يحميها. وعساكره ذوو بأس شديد لا يرون الفرار أصلاً عند اللقاء، ويرون الموت دون ذلك. لا ترى أقذر منهم وهم أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ لبسوها إلى أن تتقطع. ويحلقون لحاهم ،وإنما تنبت بعد الحلق خشنة مستكرهة. سُئل واحد عن الحلق اللحى فقال: الشعر فضلة أنتم تزيلونها عن سوءاتكم، فكيف نتركها نحن على وجوهنا؟(١٠)

وهذا النمط من الوصف يقدمه ابن جبير وهو يصف مدينة مسينة من جزيرة صقلية، فهي :

موسم تجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان، تغص بقاطنيها، وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها،مملوءة نتنا ورجسا، موحشة لا تُوجِد لغريب أنسا،

أسواقها نافقة حفيلة، وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة، لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان، وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان [١١].

ويصف الطرطوشي بلد الجلالقة(=إقليم الباسك) بأنه سهل جميعه، والغالب على أرضهم الرمل، وأكثر قوتهم الدخن والذُّرة ومعوّلهم في الأشربة على شراب التفاح والبشكة، وهو شراب يتّخذ من الدقيق. وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظّفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تنعم به أجسامهم وتصح أبدانهم. وثيابهم أضيق الثياب وهي منفرجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم. ولهم بأس شديد، لا يرون الفرار عند اللقاء في الحرب ويرون الموت دونه. أما البرتونيين (=أهل مقاطعة بريتاني الفرنسية) فلهم لغة تمجّها الأسماع ومناظر قبيحة وأخلاق سيئة. ولهم لصوص يقطعون على الافرنج ويسرقونهم. والإفرنج يصلبونهم إذا ظفروا منهم بأحد. ومن البرتونيين والجلّقيّين والبشاكسة كان حشد طيطش الى الشام حين خرج يريد بيت المقدس [١٢].

يذهب الدمشقي المتأثّر بنظرية الكيوف الطبيعية إلى أن الروم، والأرمن، والروس، واللان يُسمون البيض بشقرة لإفراط البرد وبُعد الشمس، وبسبب ذلك ساءت أخلاقهم، وقست قلوبهم، وإنما كانت أبدانهم كذلك لغلبة البرودة والرطوبة واستيلائها، وقلّ من يوجد فيهم له فطنة، بل الحيوانية غالبة عليهم، والشهوة، والغضب، وحدة النفس. أما أهل المناطق الواقعة إلى الشمال منهم، وهي أكثر بردا، وهم: الترك، والخزر، والفرنج، وإفرنسة، وكاشغرد(= باشغرد)، ومَنْ سامتهم فيسمون الشقر، وألوانهم بيض، وهم كالوحوش؛ لايعتنون بغير الحروب، والقتال، والصيد. ولايعرفون عرفانا، ولا يفرقون فرقانا. وإلى الشمال من هؤلاء فيه الصقالبة. وهم على خلق واحد، وطبيعة واحدة، ولا يكادون يفقهون قولاً إلا أنهم كالأنعام، بل هم أضل سبيلا [١٣].

تأخذ المعلومات طابع الغرابة لمن هم أبعد من ذلك، إذ يتحدث ابن سعيد المغربي عن

بلاد البرغار (=يرجّح أنها النرويج)،وهي على البحر المحيط. وآخر ما ينتهي إليه ظهور البحر المحيط، هو آخر هذا الجزء بالمشرق، وذلك في نهاية المعمور في الشمال، ، وهم أمة عاتية أجهل من الروس، والروس في شرقيهم وفي جنوبيهم. ووجوههم كالكلاب، وذلك دليل على الشجاعة. ويقال إن الواحد منهم، يخرج إلى العسكر، ويقاتل وحده، حتى يُقتل تهوّرا وإقداماً على الموت(١٤)،والروس الذين أشير إليهم أكثر من مرة، يصفهم ابن بطوطة بأنهم: نصارى شقر الشعور، زرق العيون قباح الصور أهل غدر(١٥) .

ويتحدث الجغرافيون عن المناطق الواقعة ماوراء المعمور من شمال الأرض، ومن ذلك جبال البجناك التي تقع بين نهري الدانوب والدون حيث تستوطن أمة من الترك يحرقون أنفسهم ويحرقون من وقع إليهم، وإلى الشرق توجد الأرض المنتنة،التي يكتفي الجغرافيون بالقول إنه لا يقدر أحد على سلوكها إلا بالروائح الطيبة وهي خالية. وفي شماليها بلاد سحرت، وهم كفار، لا يدخل إليهم أحد إلا قتلوه.(١٦)

يقدّم المسعودي بعض التفاصيل عن أقوام أخرى تستوطن بين شمال البحر المتوسط وجبل القبخ(= القبق)، الذي يقع بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى الشمال من أرمينيا، وهي أوربا الشرقية، حيث توجد أمة مطيعة منقادة إلى دين المجوسية،ويقول بأنه ليس بين الأمم في هذا الصقع أنقى أبشاراً ، ولا أصفى ألواناً ولا أحسن رجالاً ولا أصبح نساء، ولا أقوم قدوداً، ولا أدق أخصاراً، ولا أظهر أكفالاً وأردافاً، ولا أحسن شكلا من هذه الأمة، ونساؤهم موصوفات بلذة الخلوات، ولباسهم البياض والديباج الرومي والسقلاطوني وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب، وبأرضهم أنواع من الثياب يصنع من القنب، فيها نوع يقال له الطلى أرق من الدبيقي وأبقى على الكَدِّ، يبلغ الثوب عشرة دنانير، ويحمل إلى ما يليهم من الإسلام، وقد تحمل هذه الثياب ممن جاورهم من الأمم إلا أن الموصوف منها ما يحمل من قبل هؤلاء(١٧) .

ويستطر المسعودي في تقديم معلومات عن أمم أخرى، منها : السبع بلدان، وهي أمة كبيرة ممتنعة بعيدة الدار لا أعلم ملّتها، ولا نمى إلى خبرها في دينها. وتليها أمة عظيمة

يقال لها إرم ذات العماد ، وهم ذوو خلق عجيب، وآراؤها جاهلية، ولهذا البلد على هذا البحر خبر ظريف وذاك أن سمكة عظيمة تأتيهم في كل سنة فيتناولون منها، ثم تعود ثانية فتتوجه نحوهم من الشق الاخر فيتناولون منها، وقد عاد اللحم على الموضع الذي أخذ منه أولا، وخبر هذه الأمة مستفيض في تلك الديار من الكفار ،ويلي هذه الأمة أمة بين جبال أربعة كل جبل منها ممتنع ذاهب في الهواء، وبين هذه الجبال الأربعة من المسافة نحو من مائة ميل صحراء، في وسط تلك الصحراء دارة مقورة كأنها قد خطت ببيكار، وشكل دائرتها خسفة مجوفة في حَجَر صَلْد منخسف كما تدور الدائرة، استدارة تلك الخسفة نحو خمسين ميلا قطع قائم يهوى سفلا كحائط مبنى من سفل إلى علو يكون قعره على نحو من ميلين، لا سبيل إلى الوصول إلى مستوى تلك الدارة، ويرى فيها بالليل نيران كثيرة في مواضع مختلفة، وبالنهار يرى قرى وعمائر وأنهار تجري بين تلك القرى وناس وبهائم، إلا أنهم يرون لطاف الأجسام لبعد قعر الموضع، لا يدري من أي الأمم هم، ولا سبيل لهم إلى الصعود إلى جهة من الجهات، ولا سبيل لمن فوق إلى النزول إليهم بوجه من الوجوه، ووراء تلك الجبال الأربعة على ساحل البحر خسفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وغياض فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه والأغلب عليها صور الناس وأشكالهم، إلا أنهم ذوو شعر، وربما وقع في النادر القرد منها إذا احتيل في اصطياده ؛ فيكون في نهاية الفهم والدراية، إلا انه لا لسان له فيعبر بالنطق ؛ ويفهم كل ما يخاطب به بالإشارة، وربما حمل الواحد منها إلى ملوك الأمم من هناك فتعلمه القيام على رؤسها بالمذابٌ على موائدها لما في القرد من الخاصة بمعرفة السموم من المأكل والمشرب ويلقى الملك له من طعامه : فإن أكله أكل الملك منه، وإن اجتنبه علم أنه مسموم فحذر منه، وكذلك فعل الأكثر من ملوك السند والهند في القردة.[١٨] وكما يلاحظ فان لهجة الوصف تتردد بين الذم والتقريظ، وهو أمر نجده في الأدبيات الجغرافية.

أما القبائل التركية الأخرى، فيتكفّل الدمشقي بتقديم الوصف الآتي لها، وهي : الخرلخية والخرجزية والكيماكية والغزية والبجناكية والطغزغزية والخلخلية والقلجية والغورية،فهم

أصحاب قلوب قاسية ،وطباع جافية، ونفوس عانية. ومنهم من يسكن المدن، ومنهم من يسكن الجبال والبراري، يتقلبون مع الزمان في طلب الكلاء والعشب بالخيل والبقر والغنم ،ينزلون في بيوت الشعر والخركاوات، وليس لهم عمل غير الصيد ،ويأكلون كل طائر وكل وحش ،وليس لهم ملة ولا نحلة وإنما يرجعون إلى رسوم وضعتها ملوكهم (١٩).

ومن المفيد أن نقدم ملاحظات شاهد عيان رحل مبكرا في تلك المناطق ، وهو أبو دلف الذي يخترق هذه المناطق في طريقه إلى الصين، فيقدم صورة شاملة للأقوام التي يمر بها، فيقول: ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبجناك طوال اللحى أُولو أسبلة همجٌ، يغير بعضهم على بعض ويفترش الواحد المرأة على ظهر الطريق، يأكلون الدخن فقط، فسرنا فيهم اثني عشر يوما، وأُخبرنا أن بلدهم عظيم مما يلي الشمال وبلد الصقالبة ولا يؤدون الخراج إلى أحد ، ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بالجكل يأكلون الشعير والجلبان ولحوم الغنم فقط ،ولا يذبحون الإبل ،ولا يقتنون البقر، ولا تكون في بلدهم، ولباسهم الصوف والفراء لا يلبسون غيرهما. وفيهم نصارى قليل، وهم صباح الوجوه يتزوج الرجل منهم بابنته وأخته وسائر محارمه، وليسوا مجوسا ولكن هذا مذهبهم في النكاح، يعبدون سهيلا وزحل والجوزاء وبنات نعش والجدي، ويسمون الشعرى اليمانية رب الأرباب، وفيهم دعة ولا يرون الشر، وجميع من حولهم من قبائل الترك يتخطفهم ويطمع فيهم، وعندهم نبات يعرف بالكلكان طيب الطعام يطبخ مع اللحم، وعندهم معادن البازهر وحياة الحبق،ويعملون من الدم والذاذي البري نبيذا يسكر سكرا شديدا، وبيوتهم من الخشب والعظام، ولا ملك لهم، فقطعنا بلدهم في أربعين يوما في أمن وخفض ودعة... ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبغراج لهم أسبلة بغير لحى يعملون بالسلاح عملا حسنا فرسانا ورجالة، ولهم ملك عظيم الشأن يذكر أنه علوي وأنه من ولد يحيى بن زيد وعنده مصحف مذهب على ظهره أبيات شعر رثي بها زيد، وهم يعبدون ذلك المصحف، وزيد عندهم ملك العرب وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عندهم إله العرب لا يملكون عليهم أحدا إلا من ولد ذلك العلوي، وإذا استقبلوا السماء فتحوا أفواههم وشخصوا أبصارهم إليها، يقولون: إن إله العرب ينزل منها

ويصعد إليها، ومعجزة هؤلاء الذين يملكونهم عليهم من ولد زيد أنهم ذوو لحى وأنهم قيام الأنوف عيونهم واسعة وغذاؤهم الدخن ولحوم الذكران من الضأن، وليس في بلدهم بقر ولا معز، ولباسهم اللبود لا يلبسون غيرها، فسرنا بينهم شهرا على خوف ووجل، أدينا إليهم العشر من كل شيء كان معنا..ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لها الخرلخ، يأكلون الحمص والعدس ويعملون الشراب من الدخن ولا يأكلون اللحم إلا مغموسا بالملح، ويلبسون الصوف، ولهم بيت عبادة في حيطانه صورة متقدمي ملوكهم، والبيت من خشب لا تأكله النار، وهذا الخشب كثير في بلادهم، والبغي والجور بينهم ظاهر ويغير بعضهم على بعض، والزنا بينهم كثير غير محظور، وهم أصحاب قمار، يقامر أحدهم غيره بزوجته وابنه وابنته وأمه ،فما دام في مجلس القمار فللمقمور أن يفادى ويفك فإذا انصرف القامر فقد حصل له ما قمر به يبيعه من التجار كما يريد، والجمال والفساد في نسائهم ظاهر، وهم قليلو الغيرة، فتجيء ابنة الرئيس فمن دونه أو امرأته أو أخته إلى القوافل إذا وافت البلد فتعرض للوجوه فإن أعجبها إنسان أخذته إلى منزلها، وأنزلته عندها، وأحسنت إليه، وتصرف زوجها وأخاها وولدها في حوائجه، ولم يقربها زوجها ما دام من تريده عندها إلا لحاجة يقضيها ثم تتصرف هي ومن تختاره في أكل وشرب وغير ذلك بعين زوجها لا يغيره ولا ينكره، ولهم عيد يلبسون الديباج ومن لا يمكنه رقع ثوبه برقعة منه، ولهم معدن فضة تستخرج بالزيبق، وعندهم شجر يقوم مقام الإهليلج قائم الساق وإذا طلي عصارته على الأورام الحارة أبرأها لوقتها، ولهم حجر عظيم يعظمونه ويحتكمون عنده ويذبحون له الذبائح، والحجر أخضر سلقيّ، فسرنا بينهم خمسة وعشرين يوما في أمن ودعة...ثم انتيهنا إلى قبيلة يقال لهم الخطلخ، فسرنا بين أهلها عشرة أيام، وهم يأكلون البر وحده ويأكلون سائر اللحوم غير مذكاة، ولم أر في جميع قبائل الترك أشد شوكة منهم، يتخطفون من حولهم ويتزوجون الأخوات، ولا تتزوج المرأة أكثر من زوج واحد، فإذا مات لم تتزوج بعده، ولهم رأي وتدبير، ومن زنى في بلدهم أحرق هو والتي يزني بها، وليس لهم طلاق، والمهر جميع ما ملك الرجل، وخدمة الولي سنة، وللقتل بينهم قصاص وللجراح غرمٌ، فإن

تلف المجروح بعد أن يأخذ الغرم بطل دمه، وملكهم ينكر الشر ولا يتزوج فإن تزوج قتل[٢٠]

وتزداد النبرة الغرائبية كلما نأت الأقوام عن دار الإسلام. يروي الدمشقي عن أبي عمر بن عبد البر في كتاب "القصد والامم الى معرفة أنساب الامم" أن وراء صين الصين أمماً منهم إذا طلعت الشمس يأوون الى مغارات فلا يخرجون منها حتى تغرب ،وأمة يلتحفون بشعورهم. وأمة لا شعور لهم ،وأكثر ما يأكلون سمك البحر وحشاش الارض. ويحاذيهم من ناحية الشمال أمة شقر عُراة يتناكحون كمال تتناكح البهائم تجتمع الجماعة على المرأة الواحدة. وبمشرق الارض عند مطلع الشمس أمة متولدة بين السباع والناس ذوو عيون مدورة، وأنياب بارزة ممدة ،وأذناب وأظفار معقفة بأصابع قصار ،يسكنون الجبال طعامهم الحوت ودواب البحر ،ولهم زروع ودواب يركبونها ،والله أعلم [٢١] .

يلاحظ التدرج في طبيعة الصورة التي شكّلها الجغرافييون عن أهل الشمال، وهي تعنى بالجوانب البشرية أكثر من غيرها،وتقدم أوصافا شبه ثابتة للشعوب،ويصار التركيز فيها على طرز الحياة الاقتصاديةوالدينية، ويهتم الجغرافيون المسلمون بالحياة الاجتماعية،وتعتبر كثير من مدوناتهم مصادر أثنوغرافية أساسية في هذا المجال.وسنجد في التحليل الخاص لرحلة ابن فضلان إلى بلاد الشمال بعد قليل مزيدا من التركيز على كل هذه الجوانب، وعلى الرغم من أهمية نصوص أخرى تعنى ببلاد الشمال لكننا حرصنا على تقديم تحليل مفصل لرحلة ابن فضلان باعتبارها وثيقة بالغة الأهمية من القرن العاشر الميلادي تعنى بالصور السائدة بين المجتمعات خلال القرون الوسطى ، وتأثرها بالشعور العقائدي ، وذلك من خلال كشف رؤية ابن فضلان للعوالم الثقافية المتداخلة والمتجاورة في عصره . إلى ذلك فهو يريد إضاءة جانب من العلاقات بين الأنا والآخر ، بما يسهم في تفسير التوتر القائم الآن بين الثقافات والمجتمعات .

هوامش المدخل

١ . ياقوت الحموي، معجم البلدان(بيروت، دار صادر، ١٩٩٥) ١ : ٨٨ .

٢ .ابن خرداذبة، المسالك والممالك (ليدن، بريل، ١٨٨٩) ص ١٧٠

٣ .م. ن. ص ١٦٣

٤ .ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت، المكتب التجاري، ١٩٧٠) ص ٢٠٧ .

٥ .ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، شرح طلال حرب (بيروت، دار الكتب العالمية، ١٩٩٢) ص ٣٥٠

٦ .كتاب الجغرافيا ص ٢٠٧ – ٢٠٨

٧ .فيما يخص الحديث عن يأجوج ومأجوج. انظر على سبيل المثال: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٦٣ – ١٧٠ . والإدريسي، نزهة المشتاق ص ٨٤٦ وما بعدها، ورسالة ابن فضلان ص ٧٠ وياقوت الحموي، معجم البلدان ١ : ٨٧ – ٨٨ وابن حوقل: صورة الأرض ١ : ١٥ . والاصطرخي، مسالك الممالك، ص ٩ وابن سعيد، كتاب الجغرافيا ص ٢٠٨ .

٨ .رحلة ابن بطوطة ص ٦٣٥ – ٦٣٦

٩ .المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد مخيي الدين عبد الحميد(بيروت،دار الفكر،١٩٧٣) ١ : ٣٢١

١٠ . القزويني ،آثار البلاد واخبار العباد(بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٩) ص٤٩٨

١١ . ابن جبير ، رحلة بن جبير(بيروت،دار صادر)ص٢٦٦

١٢ . البكري، المسالكوالممالك،نقلاعن (عبد الرحمن الحجي،جغرافية الأندلس وأوربا،بيروت،دار الارشاد،١٩٦٨) ص٨٠–٨١

١٣ . الدمشقي، نحبة الدهر في عجائب البر والبحر(بغداد، مكتبة المثنى)ص٢٧٥

١٤ .كتاب الجغرافيا،ص٢٠٢

١٥ .ابن بطوطة، ص٣٥٠

١٦ .كتاب الجغرافيا،ص٢٠٧

١٧ . مروج الذهب ١: ١٧٧

١٨ .م.ن.ص١٨٧

١٩ .نخبة الدهر ص٢٦١

٢٠ .معجم البلدان٤٤١-٤٤٣

٢١ .نخبة الدهر ،ص٢٦٥-٢٦٦

رحلة ابن فضلان إلى بلاد الشمال

- صورة الشمال في المخيال الإسلامي-

١- مدخل

تندرج بعثة الخليفة العباسي المقتدر إلى بلاد الصقالبة ضمن سلسلة من البعثات والسفارات بين العرب المسلمين والأمم المجاورة لأغراض متعددة : سياسية، ودينية ، واقتصادية، وقد سبقت وتليت بكثير من الوفود والبعوث التي توزعت في أركان العالم المجاور لدار الإسلام 0 فقد بعث هارون الرشيد بعوثاً إلى الصين وبلاد الإفرنج ، وتبادل معهم الآراء حول العلاقات بينهم آنذاك . وفي هذا السياق ترد سفارة الشاعر الأندلسي الغزال إلى بلاد الشمال، ورحلة الطرطوشي إلى بلاد الإفرنج أيضاً ، ثم سفارة الأهواني إلى بلاد النوبة مبعوثاً من مصر في عهد جوهر الصقلي ٠ ومن السفارات المثمرة ثقافياً : إرسال البيروني إلى بلاد الهند من قبل محمود الغزنوي ، وقد أثمرت عن معرفة شاملة ومباشرة بأحوال الهند الثقافية والبشرية والدينية ، كما ظهرت في كتابه " تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " ٠وإرسال ابن خلدون في بعثة إلى المغول القادمين لاحتلال بلاد الشام، ومحاولة التوسط لإيقاف تقدمهم إلى مصر ، كما عرض لها ابن خلدون نفسه في سيرته الذاتية " التعريف بابن خلدون " . هذا إلى جانب قيام بعض الرحالة ، كابن بطوطة ، في القيام بأدوار مماثلة في بعض الأحيان .وعلى العموم فالثقافة العربية القديمة لا تعدم الاهتمام بهذا الجانب المتصل بالعلاقة مع الآخر ، دون إغفال الموقف المسبق في النظر إلى الآخر خارج حدود دار الإسلام باعتباره كافراً وضالاً ٠ وهو أمر يلمس وجوده بوضوح في النصوص المعنية بوصف السفارات والبعثات والرحلات، ابتداء من ابن فضلان في وصفه لأهل الشمال، ومروراً بالمسعودي، ثم وصولاً إلى ابن بطوطة . فالمسلم ، مهما كان مغامراً وجريئاً، فإنه يتوجس من الآخر بسبب الاختلافات اللسانية والإجتماعية والعقائدية، وينطوي على فكرة إصلاحية يريد بها إدخال الآخر إلى عالم الحق ، وهذا ماسنلمسه في رحلة ابن فضلان .

في نهاية العقد الأول من القرن الرابع الهجري ، الذي يوافق بداية العقد الثالث من القرن العاشر الميلادي ، انطلق ابن فضلان من بغداد ، قلب دار الإسلام آنذاك ، مبعوثاً من الخليفة المقتدر إلى يلطور ملك الصقالبة، وطبقاً للمعايير العقائدية والسياسية الإسلامية في ذلك الوقت ، فإن مملكة الصقالبة ، وعاصمتها بلغار على نهر الفولغا ، في البلاد الروسية الحالية ، تندرج ضمن ما يصطلح عليه بـ" دار العهد " أو " دار الصلح " ،وهي البلاد الفاصلة بين دار الإسلام ودار الكفر ، إنها بلاد مزدوجة العلاقة ، يتنازعها عالمان متناقضان ، ولاؤها هش ، وموقفها متقلّب . وبعبارة أخرى فإن "دار العهد " أو "دار الصلح " ، إنما هي مجال حيوي يتمدد فيه على التعاقب نفوذ دار الإسلام مرة ، ودار الكفر مرة أخرى .تبدو بشكل من الأشكال مخترقة ، بلا هوية ، أسيرة قوى متنافرة دينياً وثقافياً وسياسياً .

لم يكن ابن فضلان الشخصية المركزية في البعثة ، إنه مرشد ديني ، لكنه بسبب كونه مدون تلك الرحلة ، سيكون هو الشخص الأول . في الواقع، يجري تهميش متقصد ، وطمس واضح للآخرين . إن أفراد البعثة القلائل هم من نخبة البلاط العباسي ، أولئك الذين تتردد أسماؤهم في المصادر طوال خلافة المقتدر، وبعضهم أسهم مباشرة في تثبيت بيعته ، وحامى عنه . وهم ممن رافق الخليفة منذ اللحظة الأولى : نذير الحرمي ، سوسن الرّسي ، بارس الصقلابي، و تكين التركي ، ومعهم سفير الصقالبة في بغداد : عبد الله بن باشتو الخزري . الوحيد الذي تُخمل المصادر ذكره بين هؤلاء هو ابن فضلان ، الذي سرعان ما انتزع دوراً أساسيا في البعثة . كانت هذه الرحلة مناسبة ملائمة ليعيد ابن فضلان الاعتبار لنفسه . سيتوارى الآخرون خلف حضوره الكثيف ، وسيُبتر وجودهم في اللحظة الحاسمة : لحظة الدخول إلى بلاد الشمال الحقيقية . ولن يعود إلى ذكرهم بعد ذلك . لا نعرف عن مصائرهم شيئا ، بل لن نعرف مصير بطلنا ابن فضلان نفسه . فكأن البعثة المقدّر لها أن تصل فقط إلى دار الصلح ، قد تبعثرت تماما ، حينما شرع مُرشدها الديني اختراق دار الكفر ، التي هي باستمرار دار حرب حسب المعتقد الديني في القرون الوسطى .آخر عهد ابن فضلان بجماعته ، حينما يجبر على الصعود شمالاً إلى ما وراء بلاد الصقالبة .

٢- انتهاكُ عوالم وخرمُ نص

لم يأخذ ابن فضلان في الاعتبار التحذير الذي اتفق عليه الجغرافيون المسلمون القُدامى ، والذي سنّهُ بوضوح فيما بعد المقدسي في كتابه " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " ومؤدّاه : إن أهل الإسلام غير معنيين بدار الكفر ، وإنه لن يكلّف نفسه عناء البحث في ممالك الكفار ، ولا يرى فائدة من ذكرها (١) . ومع أن ابن فضلان لم يكن جغرافياً بالمعنى المعروف ، ولم يدخل تلك الدار برغبته ، إلاّ أن وضعيته تكشف طبيعة ذلك التحذير التراجيدي ؛ فعالم " الآخر " غير عالم " الأنا " . ثمة اختلافات جوهرية كانت قائمة في صلب البنية الذهنية لمجتمع تلك الحقبة من الزمن ، وفاعلة في صميم النموذج الفكري اللاهوتي السائد وقتذاك . كان الاتصال مع الآخر- المختلف عقائدياً- محظوراً أو شبه محرم،لايجرؤ على ذلك الا المغامرون من الرحالة والسفراء. الآخر كان دائماً ثمرة محرّمة ، وفي أقل الأحوال فهي عسيرة الهضم . العُرف الشائع في عصر ابن فضلان ، والعصور اللاحقة ، هو : ينبغي الحذر من الآخر .

نادراً ما يذكر ابن فضلان بغداد باسمها ، إنه يستخدم " دار السلام " . دار السلام بالنسبة له معقل العالم القديم ، ومركزه ، في الوسط من الفضاء الثقافي الواسع المسمى بدار الإسلام . إنها منهل المرجعية الإسلامية الكلية بالنسبة له ، وهو من ينتدبه الخليفة ليفقّه أهل دار العهد في الدين ، ويعرِّفهم بشرائع الإسلام (٢). يحرص ابن فضلان على تدوين رحلته ، يظهر في تضاعيفها حرص واضح على ذكر المدن والمسافات والأنهار ، وبالدرجة الثانية تستأثر باهتمامه أحوال الناس المختلفة . الكتابة تلعب دوراً هاماً في تثبيت رؤاه وتصوراته وأحكامه ، ما دام يتحرك في مجاله الثقافي ، داخل دار الإسلام . وما أن ينزلق إلى عالم الكفّار إلاّ وتتوقف الكتابة . يضيع من المخطوط ذلك الجزء الرئيس الخاص بالآخر . كأن ثمة قوة سحرية انتزعت كل ما يتصل بالآخر. لن يُعثر إلى الآن على الأصل العربي. كل ما يتصل بالآخر ، تم ترميمه وتجميعه ، وترجمته إلى اللغة العربية استناداً إلى شذرات متناثرة باللغات اللاتينية والألمانية والفرنسية والدنماركية والسويدية والانجليزية وغيرها(=سنعتمد

هنا على النص الذي أعده كريكتون، وإن كان من الواضح إنه مزيج من الوقائع والمتخيلات السردية،ولكن هذه الميزة بحد ذاتها قد تكون مفيدة في استنطاق صورة الآخر،وقد ركز كريكتون بعمق على هذه الناحية في النص المرمّم، وقد أوردنا في متن الكتاب النص العربي فقط) .

لغات الآخر هي التي أعادت إلينا وجهة نظر ابن فضلان بالآخر ، والحال انه ليس كتابته هي وحدها التي ستُفقد، بل لغته وعقيدته ، هو نفسه قد ذاب في التضاريس الغريبة لعالم الشمال ، تحللت مقاومته تدريجياً ، ودفع عنوة ليخوض أكثر مغامرات السرد القديم غرابة . ضعفت احتجاجاته ، وتطابقت مواقفه مع الآخر ، وآل به الأمر لأن يكون موضوعاً لاستكشاف الآخر ، عوض أن يكون الآخر موضوعاً لاستكشافاته ، لم يفلح أبداً في تغيير الأنساق الثقافية للآخر ، على العكس ، هو منْ تغيرت أنساقُه الثقافية ، سقط في الشرك الذي كان يحذّر الجميع منه : معايشة عالم الكفر ، داهمه نوع من النسيان، فعلى مرمى حجر من القطب الشمالي ، أُصيبت ذاكرتُه بعطب عقائدي ، لكي يندرج ضمن الآخر عليه أن ينسى ، أن يوقف عمل الذاكرة .

في البداية كان نتوءاً زائداً ، مجرد فضلة ، الرقم الزائد المكمّل للمقاتلين البواسل الاثني عشر . إنه الرقم الأخير ،الرقم الثالث عشر كان مجرد وسيلة لسد نقص ، ففي المهمة التي دُفع إليها ، لا بد أن يكون ثمة أجنبي يقوم بدور تكميلي ، ابن فضلان ، أصبح فضلة ، هو المسلم المختون كان مجرد قلفة للتغطية ، ومع الوقت يتخفف من ملاحظاته الانتقادية ، بسبب الجهل التام بالأسباب وذلك ما يفضي به إلى خطأ التفسير أو سوء التأويل. وفي النهاية، كما سنرى ، حينما يندمج ، يستعيد وضعيته كعنصر فاعل ، بعد مرحلة الخمول الأولى ، يُقبل كمقاتل باسل ، يُسهم في إحراز نصر محقق على "الوندول " . يصبح سابع الأبطال ، يتخلص من شؤم الدور الثالث عشر ، فيسعد بالدور السابع ؛ الرقم المقدس في عالم الإسلام . ما أن يعود من دار الكفر إلى دار العهد ، إلاّ وتظهر الكتابة العربية مرة ثانية ، لتذكّر بالثغرة الشفاهية المدمرة التي لم يتمكن أحد من تخطيها إلاّ بوساطة الآخر . ولم

يُشر ياقوت الحموي إلى تفاصيل الرحلة ، بعد أن أخذ عنها الشيء الكثير ، شكك في المرويات الخاصة بالصقالبة ، وأعلن براءته منها ، وعدم ضمان صحتها [٣] . وإذا صحت تلك المرويات التي عبرت إلينا خلال لغات الآخر ، وأُخذت بالاعتبار فرادة المغامرة ، ومداها الواسع ، وأحداثها ، وأثرها في شخصية ابن فضلان ، يصبح من الممكن ألاّ يُسمح بعرضها على العموم كاملة . إذ ينبغي أن تركّب صورة مشوهة للآخر ٠ يحتمل أن ياقوت الحموي نفسه ، بعد مضي ثلاثة قرون لم يكن قادراً على تصديق أحد مصادره عن بلاد الصقالبة .

يفتح غياب المتن الرئيس من رحلة ابن فضلان –بالنسبة لنا– باب الأسئلة الكبيرة ، وجميعها متصلة بالحدود الصارمة التي تنظّم العلاقة بالآخر ٠ فنحن والآخر نحرص على تركيب صور سوية لأنفسنا في ذهن الآخر. وإذا كان القدماء ، قد قصدوا إتلاف الجانب المهم من رحلة ابن فضلان ، بهدف محو صورة الآخر ، التي انتهى رحالتنا الفقيه إلى قبولها، والتعايش معها ، فإنهم بذلك العمل الشنيع الأخرق ، قد شرعوا نوافذ التخيل ٠ فمنذ وقت طويل سيُبذل جهد جبار ، لا هوادة فيه ، لإعادة وصل الأجزاء المفقودة ، وربطها، والبحث عمّا طُمس منها، إلى جانب ذلك ، وكما هو متوقّع ، سيتراكم طوال ألف سنة تراث من التضخيم للرحلة وصاحبها ، وسيمنح ابن فضلان دوراً استثنائياً ورائداً لكل ما يتصل بعلاقة العالم الإسلامي بالبلاد الشمالية الوثنية في القرن العاشر الميلادي، سيكون عالم اجتماع ، وانثربولوجياً ، ومحللاً نفسياً ، ومؤرخاً ، وجغرافياً ، ومحارباً، وغريباً وشاهداً. باختصار ، ستُضفى عليه شمولية تحيط به إحاطة السوار بالمعصم . لكن الشك أيضا سيظل يحوم حول المدى الذي بلغه ابن فضلان ٠ يبدو مصير كتابته حول الآخر معلّقاً في مكان ما من هذا العالم ، فالآخر كالترياق السام الذي طالما جرى التحذير منه ٠ وفي ضوء تلك الفكرة جرى تقسيم العالم القديم .وعلى الرغم من انه في كل " أنا " يكمن "آخر" . فلا يبدو أن كل ما يتصل بـ"الأنا " مقبول . إذ أن ثقافة البعد الواحد ، تحول دون السماح بالتبصّر العميق والجدّي لا بالآخر ولا بالأنا على حد سواء . لنلاحظ فقط أن أبا حكيمة (=راشد بن إسحاق الكاتب) ، وهو معاصر لابن فضلان ، قد ترك ديواناً شعرياً

في رثاء ذكره . القصيدة الأولى ، فاتحة الديوان ، التي يصف فيها خرم الأحداث لبدنه وعضوه ، هي بالذات التي تخرّمت في أكثر المقاطع أهمية .فما يعتبره الشاعر شيئاً حميمياً، هو بالضبط الذي تعرض للخرم[٤] . ثمة يد خفية ، قاسية ، باطشة ، مهيأة للإمحاء ،طالت لبّ الآثار الأدبية والفكرية .لم تكن رحلة ابن فضلان ، بمنأى عن احتمال مثل هذا .

إن الضرر الذي لحق بالنص الذي تركه ابن فضلان عن رحلته إلى بلاد الصقالبة والشمال يماثل الضرر الذي لحق بالنصوص التي ظهرت في عصره . والواقع ان ظروف تدوين تلك الرحلة ما زالت غامضة ، ولا نكاد نعرف شيئاً محققاً عن مصائر أبطالها الرئيسيّين ، بما فيهم ابن فضلان نفسه .أما الأضرار فهي جسيمة ، وفي مقدمتها ضياع المتن الأصلي ، وطمس أكثر الأجزاء أهمية فيما تبقى ، وهي المتعلقة بوجود ابن فضلان خارج دار الإسلام . وبالنسبة لنا تعتبر هذه الأجزاء المفقودة أهم أقسام النص ، لأنها تشكّل التصورات الأولى حول الشعوب الشمالية ، فطمسها يعني طمس تلك التصورات . وما يلاحظ أن النص يحافظ على نفسه ما دامت الرحلة داخل دار الإسلام ،ودار العهد، لكنه يتحلّل ويضيع مع دخول ابن فضلان دار الكفر . وربما يكون التوتر الثقافي والعقائدي قد تدخل في تخريب المخطوط الأصلي ، واقتطع منه الأجزاء المتصلة بـ" الآخر " . وإذا صح هذا ، فيكون ذلك قد وقع بعد عدة قرون من زمن الرحلة ، فالشاهد الوحيد بالنسبة لنا ، على وجود النص المدون المعروف ، هو ياقوت الحموي (٥٧٥-٦٢٥ = ١١٧٩-١٢٢٩) فيما بدأت الرحلة في الحادي عشر من صفر عام ٣٠٩ هجرية، الموافق للحادي والعشرين من حزيران سنة ٩٢١ ميلادية . قال ياقوت " وقصة ابن فضلان وإنفّاذ المقتدر له إلى بُلغار مدونة معروفة مشهورة بأيدي الناس ، رأيتُ منها عدة نسخ "[٥]. ومع أن النص الذي وصلنا لا يصور سوى رحلة الذهاب ، فإن ياقوت الحموي يؤكد أن الرسالة تصور خروجه من بغداد إلى بلاد الصقالبة وعودته إلى بغداد[٦]. ويلاحظ ، وهو أمر له أهمية قصوى ،أن ياقوت الحموي يصف النص بأنه "قصة " ، وأنها شائعة بين الناس ، وأنه رآها ، وأنها تصور ذهاب

ابن فضلان وإيابه ، وأن وظيفة ابن فضلان ضمن بعثة المقتدر هي تعليم الصقالبة " الصلوات والشرائع" . ويقوم بدمج مقاطع من النص في معجمه ، باعتبارها من المصادر الجغرافية والبشرية عن تلك البلاد ، لكنه لا يضمن صحتها ، ويتشكك في بعضها ، ويعلن براءته منها. ومع أن الجغرافيين القدامى كانوا يدرجون غرائب كثيرة ، معظمها أوهام ، في مدوناتهم عن البشر في دار الكفر ، إلاّ أن ياقوت الحموي لم يستطع هضم ملاحظات ابن فضلان ، ذلك أن النص يتضمن جملة من الأخبار والمغامرات والتقاليد التي يصعب تصورها ، الأمر الذي دعاه إلى التحذير من الاعتماد عليها .

لم ينفرد ياقوت في كونه الشاهد الوحيد على اكتمال نص ضاعت أصوله فيما بعد ، ولم تنجح أية محاولة إلى الآن في العثور عليه ، فابن النديم المفهرس الثقة كان أيضاً شاهداً على وجود أصل كامل لكتاب " ألف ليلة وليلة " ، رآه ، كما يقول " بتمامه دفعات، وهو في الحقيقة كتاب غث بارد الحديث(٧). ولكن ذلك الأصل الذي اطلع عليه ابن النديم أجزاء فقد إلى الأبد ، كما هو الأمر بالنسبة لنص ابن فضلان . وكلاهما : ياقوت وابن النديم يقفان الموقف نفسه ويصدران الحكم ذاته ؛ يطلعان على الكتابين ، يعتبران أول شاهدين عليهما، يصدران حكماً سلبياً بحقهما . وكتاب "ألف ليلة وليلة " ورسالة ابن فضلان ، المشفوعان بشاهدي عيان من وزن ابن النديم وياقوت الحموي ، يقدمان دليلاً على أن بعض الكتب ، في ثقافتنا القديمة ، تظهر كاملة ، لكنها سرعان ما تتعرض لسوء فهم يفضي بها إلى الضياع ، ليس من المصادفة أن يلحق ضرر بهذين الكتابين – وكثير من الكتب المماثلة – فهما يصوران الارتحال العجيب في عوالم الآخر، بما يطعن المتخيّل الذاتي المنضبط عقائديا وثقافياً عنها. تأتي اليد "الآثمة" لقطع "الإثم" الدخيل على الثقافة ،

لم يقتصر الأمر على الكتب وحدها ، فكثير من الصور التي اخترقت حاجز المنع والتحريم في ثقافتنا القديمة ، والتي تصور الإنسان والحيوان ، إما أُتلفت ، أو أن يداً كارهة للصور قامت بمحو الرؤوس بمهارة بالغة من كل صورة ، ومثال ذلك مخطوط عربي في " سان بطرسبورج " مزين بالصور ، لم تستطع اليد الآثمة من قطع الرؤوس تماماً ، إنما فصلتها عن

الأجساد بخط مميز من الحبر ، وكما يقول عبد الفتاح كيليطو ، فإن الشخصيات الممثلة في المخطوط ، أناساً وحيوانات ، قد احتفظت برأسها على كتفيها ، لكن أعناقها جميعاً مقطوعة بخط من الحبر . خط واضح يرسم حداً بين الرأس وسائر الجسد ، وفي تعجّله، فإن كاره الصور قد قطع أحياناً لا الرأس ، بل الصدر أو بطن الشخصيات . هذا الخط يشير إلى المحرّم الذي أُنتهك ، وفي الوقت نفسه يقدم نفسه كسيف عقاب (٨) . وهكذا فكل ما لا يتوافق مع السُنن الثقافية والعقائدية ينبغي أن يُبتر أو يُطمس ، سواء أكان سرداً تخيلياً أم أدباً ارتحالياً أم صوراً توضيحية .

يقول " كريكتون " الذي أعاد تركيب الأصول المفقودة لرسالة ابن فضلان (= على سبيل التخيّل في بعض الفصول) بالانجليزية اعتماداً على مقاطع تم العثور عليها بلغات كثيرة " يمثل مخطوط ابن فضلان أقدم وصف معروف لشاهد عيان عن حياة الفايكنغ ومجتمعهم ، ويُعتبر وثيقة بارزة ، في وصفه لحوادث وقعت منذ ما ينوف عن ألف سنة ، بتفصيل مميز ، مفعم بالحياة . ومن الطبيعي ألاّ ينجو المخطوط من عاديات الزمن ، خلال الحقبة الطويلة التي مرت عليه . وفي الحقيقة ، للمخطوط تاريخه الذاتي ، الذي لا يقل تميزاً عن النص نفسه(٩) . الجملة الأخيرة هي التي تعنينا هنا . أجل إن للمخطوطات القديمة تواريخها التي لا تقل عنها تميّزاً . فتاريخ " ألف ليلة وليلة " و " كليلة ودمنة " و " السير الشعبية العربية " ، على سبيل المثال ، يضارع في أهميته أهمية النصوص .وهو أمر له أكثر من دلالة ، فيما يتصل برسالة ابن فضلان ، فبعد عصر ياقوت تمزق المخطوط . ياقوت نفسه أسهم بذلك حينما انتزع منه نبذاً وشذرات وأجزاء . ولست معنياً هنا بإعادة البحث في موضوع استأثر باهتمام المتخصصين الذين بذلوا جهوداً شاقة وشائقة في تتبع مصير المخطوط ، ولمّ شتاته ، وتركيب أجزائه(١٠) إنما أود التأكيد على أن النص الذي كان موحّداً في بداية القرن السابع الهجري / بداية القرن الثالث عشر الميلادي، قد تفرّق الآن في لغات كثيرة جداً منها : اللاتينية والألمانية والفرنسية والدنماركية والسويدية والانجليزية ، وأن الجزء العربي المنشور لا يشكل سوى أقل من ربع النص المتداول في اللغات الأخرى . والملاحظ أن ما جاء

في اللغات الأخرى ، وغاب في العربية هو القسم الخاص برحلة ابن فضلان إلى " بلاد الكفر" ، فالأصل العربي ينتهي في بلاد الصقالبة التي كانت آنذاك ضمن "دار الصلح " ولا يتعرض بشيء إلى ما سواها . وبعبارة أخرى فإن كل ما يتصل بـ " الآخر " ، قد عاد إلينا بلغات " الآخر " بعد أن فُقد في لغتنا . فما زلنا أسرى الحالة المزمنة والمتوترة ، وهي أنه لمعرفة الآخر ينبغي انتظار من يمنحنا تلك المعرفة . وهكذا فإن ملاحظات ابن فضلان وارتحالاته في عالم الشمال التي ينبغي أن يكون كتبها بالعربية ، لا يتم الوصول إليها ، بالنسبة لنا الآن، إلا عبر لغات أخر وسيطة ، ليس من بينها العربية . نُفي ابن فضلان من لغته وثقافته ، وعاد الآن عبر كلام " الآخر " . غزا ابن فضلان الآخر بلغته ، فأنتج الآخر عن لغته أدباً بليغاً مثيراً للإعجاب .

٣ . عوالم الرحلة

٣-١ . دار الإسلام : النور ، الشفافية ، الألفة ،

يرتحل ابن فضلان في سلسلة متعاقبة من العوالم المتمايزة دينياً وعرقياً وثقافياً : العالم العربي ، العالم الإيراني ، العالم التركي ، العالم الصقالبي ، العالم الخزري ، والعالم الاسكندنافي (= ثمة خلاف في الرحلة بالنسبة لترتيب العالمين الأخيرين) ، لكن علاقته بهذه العوالم تنتظم في ثلاثة فضاءات عقائدية : فضاء مؤمن بالنسبة للعالمين الأولين، وفضاء نصف مؤمن ونصف وثني بالنسبة للعوالم الثلاثة الموالية ، وأخيراً فضاء كامل الوثنية فيما يخص العالم الاسكندنافي. ستتضح المطابقة بين هذه العوالم والحدود التقليدية لعوالم العصور الوسطى في الفكر الإسلامي : دار الإسلام ، دار الصلح (= أو العهد) ، دار الحرب. وهكذا فمسار ابن فضلان سيأخذه من المعلوم إلى المجهول، ومن المألوف إلى الغريب ، بعبارة أخرى سينقله من حاضنة الذات إلى حاضنة الآخر ، سيندفع كسهم لاختراق هذه المجالات الثقافية المعقدة والمتناصبة العداء ، أخيراً سيرتطم بصخرة الوثنية المطلقة ، فينكفئ عائداً إلى نقطة الانطلاق ، عودته لن تماثل ذهابه ، سيصبح ابن فضلان آخر ، أقل تشدداً ،

أقل حذراً ، أقل إيماناً . وفي تلك الأصقاع الشمالية النائية سيتوارى إسلامه ، وتتجلى عرقيّته ، فلا يُعرف هناك إلا بوصفه عربياً . في الواقع لم يكن ابن فضلان عربياً ، لكنه ، شأنه شأن الجميع ، لن يعرف بغير دم وأصل عربيين في عالم ما زال بعيداً في القرن العاشر الميلادي عن ملامسة الحقيقة الإلهية . إذ أن التنصّر النهائي لأوربا الغربية تم بعد ذلك ، وتأخر كثيراً قبل أن يتغلغل في الأقاصي الشمالية النائية .

في اعتقاد ابن فضلان ، كمبعوث لخليفة المسلمين ، أنه يحمل الحقيقة المطلقة والنهائية : التوحيد الكامل ، الفكرة الأكثر سمواً وحضوراً في ذهنه ، الفكرة التي تثار دائماً حتى في سياق الأحاديث المرحة . إنها فكرة مصقولة وصلبة وشفافة وجاهزة وبسيطة لمن يؤمن بها ، لكنها مع مضي الارتحال إلى الشمال ستصبح خشنة وهشة وكثيفة ومعقدة . إلى حد ما سيعيد ابن فضلان نفسه النظر في تلك الفكرة . فالانتقال بين تلك العوالم سيجعله متأرجحاً بين اليقين والشك . إنه بصعوده المنضبط إيقاعياً إلى الشمال ، يتناغم والحدود الشعورية لعالم القرون الوسطى وتقسيماته العقائدية . فدار الإسلام تتكون من رعيّة واحدة ، وتحكمها دولة واحدة ، وترأسها سلطة واحدة ، وعليها تقع حماية الرعية بأعراقهم ودياناتهم ومذاهبهم ، فقد وقعت تحت حمايتها بالفتح . أما دار الكفر فتتكون من بقية العالم . وبينهما دار الصلح ، ذلك المجال الذي تحكمه دولة غير مسلمة ، لكنها مرتبطة بعلاقة تعاقدية مع دولة الإسلام ، ومن خلالها أذعنت لسيطرة المسلمين ، وقامت بدفع الجزية ، لكنها تحافظ على شكلها الخاص بالحكم[١١]. ولمعرفة المخاطر المحدقة بابن فضلان ، ينبغي معرفة أنه بسبب العداء الديني المستحكم بين دار الإسلام ودار الحرب ، فإن الاتصال مع أهالي الدار الأخيرة ممنوع ومحرم . وعلى العكس ، يسمح لمن يريد من أهالي دار الحرب زيارة دار الإسلام بتصريح يطلق عليه " أمان " ويسمّى حامله "المستأمن" ، وهذا التصريح يمكن أن يمنحه أي "رجل مسلم بالغ حر" ، وبالمقابل ، فإن هذا الأمان لا يمنح للمسلمين في دار الكفر[١٢]. وعلى هذا فلا ضامن لمن ينزلق من الدار الأولى إلى الثانية ، فابن فضلان سيعدم كل وسائل الأمان والاتصال ، لأنه يغادر فضاءً ثقافياً خاصاً به إلى آخر خاص بأعدائه

. إنه لا يعرف لسان الآخر ، ترجمانه سيختفي عند تخوم عالم الإسلام ، لغته هو سوف تتعطل ، ولسانه العربي سيظل حبيساً إلى النهاية . ليس ثمة وظيفة حقيقية لمرشد ديني بلا لسان . وحسب برنارد لويس ، فإن مسلمي العصور الوسطى ، كانوا يعتبرون أن تعلم لغة أجنبية ينطوي على نوع من الزندقة والنجاسة(١٣) . ذلك أن الحقيقة القرآنية عربية اللسان .

لم يستطع ابن فضلان أن يجيد بصورة كافية تماما لغة الأقوام الشمالية ، والألفاظ المبعثرة في ذاكرته لم تشفع له بأن يستوعب كل شيء الا في وقت متاخر جدا . يحاول ، بجهد مضاعف ، أن يلم شتات ألفاظ وعبارات، سينجح بدرجة ما في النهاية، إنه عكس ابن بطوطة الذي يثير العجب بقدرته على تعلم اللغات . يظل معلقاً خلف لسانه الحبيس وطلاسم الآخر ، وفي موقف أو موقفين يظهر كطفل يحبو في غابة اللغة المتشابكة ، ولحل هذه المعضلة ينُطقه "كريكتون" باللاتينية التي لم ترد إلينا أبداً أية إشارة عربية إلى أنه كان يعرفها ، ولهذا سوف يحتاج إلى لسان. سيكون المقاتل " هرجر " ملازمه ومترجمه ، وستكون اللاتينية هي الوسيط في عالم لا علاقة له بها .لا يقتصر دور " هرجر " على الترجمة ، سيقوم بدور الشارح والمفسر والمؤوّل والرفيق . وما دام ابن فضلان حياً ، ينبغي ألا يختفي ترجمانه . يمثل "هرجر " الوسيط" بين ابن فضلان ودار الكفر ، فيما يمثل ابن فضلان الوسيط بين دار الإسلام ودار الكفر.

يشوش اسم ابن فضلان على أدواره . ففي دار السلام سيتعمّق في الاسم معنى الفضل ، فهو قادم من قلب تلك الدار . بشكل ما يحمل النبض الحار الكامن في المركز . إنه ، بعبارة أخرى، خارج لتوّه من مجال مشبع بالحقيقة الإلهية ، وجوده في عالم بعيد عن ذلك المجال بدرجة ما ، يعتبر نوعا من الفضل . هذه الدلالة الخاصة بالاسم ستنقلب في دار الكفر ، سيصبح مجرد رقم مكمل ، حاشية شبه زائدة ، فضلة . وهكذا كلما مضى مرتحلا الى الشمال جري تحول جذري في اسمه ودوره.

ينطلق ابن فضلان ، كما هو معلوم من بغداد ، المركز الاعتباري الأساسي للعالم العربي

والأسلامي آنذاك ، لن يتحدث عن عالم يغادره ، بالمقابل ينتظر الجميع أن يتكلم عن عالم ذهب إليه . أول عالم يمر به : العالم الإيراني . إنه في ذلك الوقت عالم متنوّع ومترامي الأطراف ،لكن المدهش أن ابن فضلان يخترقه دون أن يبدي أية تطلعات استكشافية ، لا يستوقفه منه شيء إلى أن يبلغ تخومه الشمالية الشرقية في بخارى . النسق الآتي هو المهيمن في أثناء اختراقه العالم الإيراني " رحلنا من مدينة السلام يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت من صفر سنة تسع وثلاثمائة ، فأقمنا بالنهروان يوما واحدا ، ورحلنا مجدّين حتى وافينا الدسكرة ، فأقمنا فيها ثلاثة أيام ، ثم رحلنا قاصدين لا نلوي على شيء حتى صرنا إلى حلوان ، فأقمنا بها يومين (١٤) . وطبقاً لهذا النسق الذي يخلو من هاجس الاكتشاف يمضي مخترقاً العالم الإيراني : وسرنا ، فأقمنا ، ثم رحلنا ، ثم قطعنا ، وعبرنا ، وهذا الارتحال المتعجّل الذي يحول دون الوقوف على التفاصيل ، له صلة مباشرة بإحساس ابن فضلان الداخلي إنه يتحرك في مجال مستكشف بالنسبة لمعاصريه ، فلا حاجة له لإعادة الوصف ، كأنه سهم في فراغ . حتى الأزمنة والأمكنة تنضّد للدلالة فقط على مروره . قرابة عشرين مدينة ، يمر بها قبل أن يصل بخارى، يوردها على التعاقب ، ولا يستغرق منه ذلك إلا أقل من صفحة واحدة . يفاجأ القارئ تماماً بأن رحالتنا قد وصل بخارى ، في وسط آسيا ، لكي يلتقط هناك ، ولأول مرة، أنفاسه . بالنسبة له يبدو العالم الإيراني خاملاً ، لا يستثير لديه أي فضول ، ولا يمكن تفسير ذلك إلا بسبب الغطاء العقائدي السميك الذي يتدثّر به ، الغطاء الذي يحجب تحته الاختلافات الثقافية والعرقية بين العالمين العربي والإيراني . ولفهم ذلك الاختلاف يلزمنا وضع الفقيه بإزاء الشاعر لكشف طبيعة التباين الثقافي والجغرافي والعرقي بين العالمين .

كان المتنبي (٣٠٣-٣٥٤=٩١٥-٩٦٥) وهو معاصر لابن فضلان ، قد نقض ضمناً ألفة الأخير للعالم الإيراني ، ففي قصيدته " شِعب بوان " ، وهي آخر قصائده الكبيرة ، عبّر عن ذهول كامل ومترابط بالطبيعة والبشر المختلفين تماماً عمّا ألفه في العالم العربي . ومجازياً عرّف المتنبي نفسه ، بأنه " الفتى العربي " الذي فضح الاختلاف غربة وجهه ويده ولسانه .

وقد كفّ التماثل عن ممارسة فعله ، وتوارى خلف بروز مفاجئ لاختلاف ثقافي وعرقي ، إلى ذلك فإن الشِعب ، باعتباره البؤرة المصغّرة لفارس ، مكان خلاّب ، مضاد للصحراء التي تُعد إحدى مرجعيات المتنبي وشعره ، فكأنه سقط فجأة في أسر عالم غريب ، لكنه جميل ورائع . جمال الغريب يعمّق لديه إحساسا عميقا بالتباين ، فالشِعب " ملاعب جنّة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان " هنا ، تتعطل المعرفة اللسانية ، سليمان القادر على حل رموز لغة البشر أجمعهم والطيور ، يحتاج إلى وسيط فارسي يفك له لغة الطبيعة والبشر . وفي هذا فالمتنبي مختلف عن ابن فضلان ، فإحساسه كشاعر دنيوي بالاختلاف يحول دون المعرفة ، فيكتفي بالتعجب . المجاز المنتج للخيال الخلاق في قصيدته لا يمكّنه أيضاً من ذلك ، وهو على أية حال غير قادر على تخطّي التباين الثقافي والعرقي ، أما ابن فضلان ، فإنه يريد بالعقيدة تجاوز تلك الاختلافات ذاتها ، وصهرها في فضاء واحد ، باعتبارها تماثلات لا ترتقي إلى رتبة التناقض ، كما ظهرت عند المتنبي . إنه يفكر بالفضاء الإسلامي الموحد : دار الإسلام . وكأنه ينطق بلسان الاصطخري الذي يقول: " إن في مملكة الإسلام ألسنة مختلفة والملك واحد "(١٥) . في هذه القضية ، قضية العقيدة ، يظهر المتنبي أكثر حذراً ، وأقل تطلّعاً ، فهو لم يسمح لنفسه بمد شمول ابن فضلان إلى أقصاه ، اكتفى فقط بإبراز حالة الذهول .

من الواضح أن ما يشغل ابن فضلان هو المماثلة العقائدية، أما شاعرنا فمسكون بالاختلاف ،ولهذا لم يمض إلى ما وراء شيراز ، قفل راجعاً إلى الفضاء العربي ، ليلقى في أطرافه الشرقية حتفه ، أما ابن فضلان فقد مضى كسهم لا يلوي على شيء ، كأنه مشدود إلى هدف غامض ، يقع بعيداً جداً ، إلى ما وراء العالم التركي الذي يقع على تخوم العالم الإيراني . لم تثره أبداً بلاد فارس ، وما شُغل قطّ باختلاف العوالم داخل دار الإسلام ، وفارس التي حسب بلاشير، طالما " أدهشت ، بمشاهدها الطبيعية المتعرّجة، والتباين العنيف في بنيتها ، الرحالةَ في جميع الأزمنة(١٦) ،، لم تُلفت انتباهه ، وإذا قورنت رؤيتا الشاعر والرحالة ، فيمكن القول : إن المبالغة الشعرية القائمة على التخيّل الأخّاذ، وهي الوسيلة

الناضجة عند المتنبي ، قد وسّعت فضاء الارتحال الخيالي بالنسبة له ، فهو بالتخيّل يمارس ارتحالاً دائماً . أما تقرير ابن فضلان المقتضب ، ومروره المتعجّل ، فلا يراد منه إلاّ رسم خط الرحلة ، فكأنه يدّخر تخيّله للحظة أخرى ، لحظة صدمة التباين الحقيقي في دار الكفر . وبازاء غربة حقيقية ينجزها ابن فضلان ، تبدو غربة الشعراء العرب من مالك بن الريب إلى احمد شوقي ، غربة مجازية . فأبو تمام الذي لم يطوّف كثيرا في العالمين العربي والإيراني ، يقول :

فغرّبتُ حتى لم أجدْ ذكرَ مشرقٍ　　　وشرّقتُ حتى قد نسيتُ المغاربا

والمتنبي ، الذي احتذى خطا سلفه ، ولم يجازف بالتوغل في العالم الإيراني، كان وهو ما زال شبه أسير لدى كافور الأخشيدي ، قد قال :

شرّق حتى ليس للشرق مشرق　　　وغرّب حتى ليس للغرب مغرب

وهنا ، ينبغي الأخذ بالاعتبار ، أن إحساس المتنبي العميق بالغربة حتى في قلب العالم العربي ، سرعان ما يتفاقم إذا تخطاه إلى عالم آخر ، وكان الآخر سمّ يلزم الحذر منه ، حتى أن رحلته الخاطفة والوحيدة انتهت بها حياته . وإذا عدنا إلى التباين العرقي ، فيبدو اندماج ابن فضلان ، بالمقارنة مع عناد المتنبي ونشوزه ، واضحاً . فهو ذو رؤية شمولية تتجاوز الانتماءات العرقية والثقافية في دار الإسلام . ولم يكن، ابن فضلان، حسب دائرة المعارف الإسلامية " عربي الأصل[١٧] . وليس ذلك بمستغرب في الفضاء الاندماجي السائد آنذاك . فابن العميد ، قد أذهل المتنبي بفصاحته ، فقال فيه :

عربي لسانه ، فلسفي　　　رأيه ، فارسية أعياده

لم تعد الفصاحة ميزة عرقية ، ومن العبث الذهاب إلى أنها حكر لأحد . وتجربة المتنبي البسيطة في معرفة هذه القضية ، جعلته يقف عاجزاً عن تفسير فصاحة ابن العميد ، كما أن الصحراء لم تجهزه بامتصاص العجب ، وهو يتجوّل في شِعب بوان . لقد وجد نفسه ينزلق إلى حيرة شعرية عميقة، غربة بيانية .

كان محمد أركون ، قد استنتج طبيعة استنكار المتنبي : كيف يمكن للمرء أن يتكلّم

العربية دون أن يكون عربياً ؟ ، ومع أنه يمكن أول وهلة تفسير ذلك بالاندماج ، لكن الواقع يكشف كما ينتهي أركون إلى ذلك أن التطورات الثقافية والاجتماعية التي طرأت منذ فتح إيران قد عكست حالة تاريخية جديدة ، وهي بداية اضمحلال دور العرب لصالح أقوام آخرين ، ذلك أنه ، حتى وهم الخلافة، على الرغم من قداسته وهيبته في أعين الناس ، قد اختفى ، في هذه الفترة ، وراحت السيطرة الفارسية (= الديلمية) تفتح آفاقاً جديدة للنفوس (١٨) . هل يبدو المتنبي مصيباً في تفخيم التباين ، أم أنه من طبيعة القول الشعري؟ وهل يبدو مبعوث الخليفة متعالياً على إدراك الاختلافات ، ومضحياً بها من أجل صوغ عالم مثالي موحّد ؟ . فغياب العالم الإيراني أمر يصعب تفسيره في رحلة ابن فضلان إلا إذا تم إدراجه في مضمار القائلين بوحدة دار الإسلام إلى درجة تحول دون رؤية مكونات تلك الدار وتفاصيلها ، فابن بطوطة في اختراقه المتمهّل لتلك الدار من التخوم الغربية إلى الشرقية ومن الشمالية إلى الجنوبية ، كان معنياً ، أكثر من أي شيء آخر ، بالخصوصيات الثقافية واللغوية والاجتماعية ، وبالمقابل فإن ابن فضلان لا يلتقط أنفاسه ليتبصّر في موقع قدميه ، إلا بعد أن يخترق العالم الإيراني ، ذلك العالم الذي يصفه "لومبار" بأنه عالم مختلف عن العالم العربي " يسكنه خلق آخرون يتحدثون لغة أخرى ، ويعيشون في إطار حضارة تختلف تماماً عن الحضارة الإسلامية السائدة في العالم العربي (١٩) .

في بخارى سينتبه ابن فضلان إلى العالم المحيط به ، وذلك حينما يوقف مساره السريع ، ومع أنه يقيم هنا ثمانية وعشرين يوماً ، فلا تترسّب في ذاكرته غير صور الدراهم. إنه يستخدم ضمير الجمع في السرد ، لكنه لا يأتي على ذكر من يرافقهم ، ولكن هنا ، في بخارى ، ستظهر أولى علائم عدم الانسجام والخلاف في المجموعة : فئة تريد مواصلة التقدّم إلى خوارزم قبل حلول الشتاء ، وفئة ترغب المكوث وقضاء الوقت في بخارى . ثمة تغيّر آخر ، فيما كانت البعثة متجهة إلى الشرق تقريباً ، ستنعطف فجأة إلى الشمال الغربي ، إلى خوارزم : بوابة الدخول إلى الشمال حيث : العالم التركي والعالم الخزري والعالم الصقالبي . أمير خوارزم محمد بن عراق لا يأذن لهم بالدخول إلى بلاد الترك خوفاً عليهم " لا يحلّ إليّ

تركِكُم تغررون بدمائكم " ، سيرتسم شبح الخوف ، وبالنسبة لأمير خوارزم فإن العالم الصقالبي هو " بلد الكفار " ، وللوصول إليه ينبغي اختراق العالم التركي و" ثمة ألف قبيلة من الكفار " بين العالمين .

يفلح ابن فضلان في إقناع الأمير ، فتغادر البعثة إلى " الجرجانية " ، آخر مدن العالم الإيراني ، وهي مدخل إلى العالم التركي . هنا، حيث يجبر الثلج البعثة على البقاء طوال الشتاء ، سيجد ابن فضلان أنه وصل إلى عالم مختلف ، لا يمكن اخفاؤه عقائدياً . ذلك سيبعث في نفسه ترقباً لما سيأتي . الجرجانية ستفصم علاقة ابن فضلان بجزء كبير من ماضيه وأفكاره وعلاقاته ، أنه سيلجأ إلى الأحكام السريعة والجاهزة ، فهنا يظهر أمامه "الآخر " بشكل ما .إن الخمسين فرسخاً بين الجرجانية وخوارزم ، سيكون تأثيرها مضاعفاً عن كل فراسخ الرحلة الطويلة من بغداد إلى بخارى . أول الأحكام الاختزالية التي يطلقها على أهل الجرجانية، أنهم " أوحش الناس كلاماً وطبعاً ، كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير، وبها قرية على يوم يقال لها أردكو، أهلها يقال لهم الكردلية ، كلامهم أشبه شيء بنقيق الضفادع ، وهم يتبرؤون من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ــرضي الله عنه ــفي دبر كل صلاة (٢٠) .

يظهر الاختلاف في اللغة والسلوك والإيمان ، هذا الاختلاف سيضرب ابن فضلان في الصميم ، إنه بتوجيه من التفاضل الثقافي القديم والمتأصّل في النفوس بين العوالم ، سيركّب الصورة الإكراهية الملفتة للنظر : أوحش الناس كلاماً وطبعاً ، كلامهم أشبه بصياح الزرازير ونقيق الضفادع ، وما زالوا أسرى الأفكار التي أشاعتها الفتنة منذ ما يقارب ثلاثة قرون : الصراع بين علي ومعاوية ، لقد نفذت فيهم الأيديولوجية الأموية ، هم بالنسبة لابن فضلان مجتمع راكد ، تسيطر عليه السجالات الأولى حول الأحقيّة في الحكم ، ولا تنحبس ملاحظاته في العادات واللغات ، إنما هنا تصدمه الطبيعة بمغايرتها الكلية ، فقد تكشفت له أشياء ما كان قط قادراً على تصورها من قبل : نهر جيحون الهادر المخيف يتحول في الشتاء إلى طريق جليدي سمكه سبعة عشر شبراً ، والقوافل بدل أن تخترق الجبال والغابات

تتخذه طريقاً لها طوال فصل البرد ، وهو ثابت لا يتخلخل ، وقد لاحظ ذلك فيما بعد ابن بطوطة وأشار إلى أن النهر المذكور يتجمد لخمسة أشهر، وربما يتغافل الناس في نهاية أوان البرد عنه ، فيذوب الثلج تحتهم فيهلكون (٢١) . أما النار ، رمز العقاب الإلهي الصارم في الآخرة ، والعلامة المخيفة بالنسبة للمسلم ، فستُصبح في هذه الديار رمزاً للكرم والبرّ ، فإذا أتحف المرء صاحبه ، وقرّبه إليه ، ورغب في إكرامه ، قال له "تعال إلي نتحدث، فإن عندي ناراً طيبة " . سوف تنقلب دلالة النار هنا ، إنها مرغوبة ومطلوبة . كما أن أول كلمة أعجمية في قاموس ابن فضلان ستظهر في هذا المكان :" بكند" وتعني " الخبز " . من الواضح أنه لم يدرك وهم الهوية والتطابق المزعوم إلاّ في الجرجانية .

ليست الثقافات والقيم هي المختلفة وحدها ، إنما الطبيعة التي ستترك في ذاكرته بصمات لا تمحى : يخرج من الحمام فتجمد لحيته في الحال ، وتتحول إلى قطعة من الثلج ، ينام في بيت جوف بيت ، وسط لبود تركية ، مدثر بالأكسية والفرى ، فربما التصق خده بالمخدة من شدة البرد . وبسبب الثلج تتشقق الأرض إلى أودية عظام ، الشجرة العظيمة تنفلق إلى نصفين ، راكب الجمل لا يقدر على التحرك لما عليه من الثياب(٢٢) . ولا مبالغة في الوصف، فابن بطوطة أيضاً قدّم وصفاً مطابقاً حينما كان يطوف بأرجاء المنطقة : كنت ألبس ثلاث فروات ، وسروالين ، أحدهما مبطن ، وفي رجلي خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان من الرغالي، وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب ، وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار ، فما تقطر من الماء قطرة إلاّ جمدت لحينها، وإذا غسلت وجهي بالماء إلى لحيتي فيجمد ، فأحركها فيسقط منه شبه ثلج ، والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب ، وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما علي من ثياب حتى يركبني أصحابي (٢٣).

كل الإشارات تؤكد أن ابن فضلان وقف على تخوم عالم انتهى وعالم بدأ ، تجربته الجرجانية دفعت به فعلاً إلى إعادة النظر بفكرة التطابق الذهنية الموجودة لديه . إنها بمقدار ما كانت تجربة مملوءة بالعجائب ، فإنها وضعت أمامه بصورة لا تقبل اللبس حالة الاختلاف الكلية للعالم الذي سيصل إليه عما قليل : العالم التركي . سينتهي العالم الإيراني عند

جبل عظيم . إنه الحد الطبيعي بين نسقين ثقافيين وطبيعيين ، وكما هو معروف ، ففي العالم القديم تمارس التخوم دور الحدود في العالم الحديث.

٣-٢ . دار العهد/ الصلح : الهجنة والاختراق .

يغادر ابن فضلان الجرجانية ، ليجد نفسه في عالم أشد اختلافاً . والأيام العشرة الأُول من رحلته ستضعه في عالم غير متوقع ، أو في الأقل يفوق كل تصوراته . يبدأ لديه منذ هذه اللحظة داء النسيان " لقينا من الضرِّ والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف ، ونسينا كل ما مرّ بنا ، وأشرفنا على تلف الأنفس [٢٤] . سيكون تفسيره للبرد ، بأنه عقاب إلهي للأتراك ، فلو وحّد هؤلاء القوم الله ، لكفاهم ذلك. هنا ، يغيب التفسير المنطقي المناسب ، لأنه يتحرك في مجال غامض ، أسبابه خفية ، فكل ما يبدو قاسياً ، لا تفسير له إلاّ غضب الله .

سوف تتدخّل الرؤية العقائدية في ترتيب منظوره لمكوّنات العالم التركي ، عالم ما وراء الجبل، وهو الآخر شأنه شأن العالم الإيراني متنوع في كل شيء ، وستكون اللهجة الانتقادية عالية ورنانة ومكفهرّة . فهنا سيجتاز تخوم دار الإسلام إلى دار العهد ، ولهذا فإن أول قبيلة يواجهها ، يجد أنها من البدو ، لكنهم " كالحمير الضّالة لا يدينون لله بدين ، ولا يرجعون إلى عقل ،ولا يعبدون شيئا ، بل يسمون كبراهم أرباباً . فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له " يا رب إيش أعمل في كذا وكذا [٢٥]، ولذلك فهم في " شقاء " ، وبما أنهم في دار العهد ، فأهل العالم التركي مهجنون عقائدياً، منقسمون على أنفسهم ، مزدوجون في انتمائهم وهويتهم ، يظهرون في عيني ابن فضلان مجموعة منافقة ، ضمن عالم متقلب الولاءات . يقول الأتراك "لا إله إلا الله محمد رسول الله " تقرباً إلى المسلمين الذين يجتازون عالمهم ، لا اعتقاداً بوحدانية الله ، وتأكيداً لنبوة محمد ، انهم لأغراض دنيوية يتمتمون بألفاظ متناثرة ، وأكثر ما بلغوه الوصول إلى تشكيل عبارة "بير تنكري" ، التي تعني " الله الواحد " . وهذه أول عبارة في معجم ابن فضلان ، بعد لفظة " بكند " التي

أشرنا إليها . ومنذ هذه اللحظة ، لحظة التوغّل في دار العهد ، سيجد نفسه في مهمة اصلاحية كبيرة، إنه يريد ترميم عالم ممزّق، ولأنه لايستطيع فانه يمضي في إصدار سلسلة طويلة من الأحكام الاختزالية المترابطة ، فيسقط على الآخرين أحكاماً قاسية ، إنهم " لا يستنجون من غائط ولا بول ، ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك ، وليس بينهم وبين الماء عمل خاصة في الشتاء، ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم ، كذلك لا تستر المرأة شيئا من بدنها عن أحد من الناس[٢٦] . الملاحظ أنه مشغول بالمبادئ الأولى التي يُشغل فيها الفقهاء : الطهارة والاحتجاب . ولتعميق خروجهم على هذه المبادئ التي يراها ابن فضلان أساسية ، يورد أمثلة، ثمة حكاية ستنطبع في ذاكرته إلى الأبد :ينزل في يوم ما ضيفاً على رجل وامرأته ، فبينما هي جالسة تحدثهم إذا كشفت فرجها وحكّته ، وفي الحال يستر ابن فضلان وجهه مستغفراً ربه ، الأمر الذي يثير ضحك الزوج ، فيطلب من المترجم أن يخبر ابن فضلان وجماعته بالحكمة من وراء ذلك " قل لهم تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه فلا يوصل إليه خير من أن تغطيه وتمكّن منه " . تكشف الواقعة نسقين ثقافيين ، فالعالم التركي آنذاك ما زال طبيعياً ، لم تغزه ثقافة الاحتجاب . الفرج ينكشف والوجه يحتجب .

ابن فضلان والمرأة التركية يمارسان دورين لا يُفهمان إلاّ في ثقافتين مختلفتين . وتكون المفاجأة الأخرى هي النظر إليه كعربي دون الإشارة إلى أنه مسلم . وابتداءً من هذه المرحلة ، سينظر إليه ، هو غير العربي ، على أنه عربي ، وممثل لملك العرب . لا يبدو أنه سيكون لإسلامه شأن كبير في تقدير الآخرين له ، الأمر الذي يرجح أن كلمة "عربي" آنذاك، وفي هذه الأقاصي ، كانت محددة الدلالة أكثر من كلمة "مسلم" . يسأله أحد الأتراك ، بوساطة الترجمان سؤالاً محيّراً ، فيه عدة طعون متوالية ضده وضد الله ، فيستعظم السؤال، ويطلب المغفرة " قل لهذا العربي : ألربنا عزّ وجلّ امرأة !؟ " . المرجّح أن وصف الله بالعزة والجلال من إضافات ابن فضلان ، فلو عرف الأتراك الإطار العام لصفات الله ، لما تقدّم أحد بسؤاله .وفي مكان آخر عند " الباشغرد " يلاحظ ما هو أكثر خروجاً على الدين الذي جاء

ابن فضلان مشبّعا بقيمه : فكل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الإحليل ويعلّقها عليه، فإذا أراد سفراً أو لقاء عدو قبّلها وسجد لها ، وقال : " يا رب افعل بي كذا وكذا" . ولما يستفسر ابن فضلان عبر ترجمانه عن السبب، ولماذا يوصف الذكر بالرب، كان الجواب صريحاً "لأني خرجت من مثله فلست أعرف لنفسي خالقاً غيره(٢٧) .إلى ذلك فبعضهم يزعم أن له اثني عشر ربّاً : للشتاء ربٌّ ، وللصيف ربٌّ ، وللمطر ربٌّ ، وللريح ربٌّ ، وللشجر ربٌّ ،بعضهم يعبد الحيّات والثعابين ، وبعضهم يعبد الأسماك ، وبعضهم يعبد الكراكي . وبمواجهة هذه الديانات الطبيعية، لا يفعل ابن فضلان شيئاً ، سوى القول " تعالى الله عما يقول الظالمون" .

هذه الملاحظات تمكّنه من تنمية مهاراته الاستكشافية ، وتُظهر له يوماً بعد يوم أنه في عالم مختلف، وسوف تستأثر العادات الاجتماعية باهتمامه : علاقات الزواج والحقوق والضيافة والجنس المحرّم واللواط وشؤون الميراث وقضية الطهارة . يحاول أن يفهم كل ذلك ، لكنه يكتشف أن هذا العالم البكر ، عالم هشّ ، يخُترق بالهدايا والرشاوي والخوف . إنه عالم متعاهد مع دار الإسلام لكنه شبه جاهل بحقيقته : المسلم فيه عربي ، والخليفة مجرد ملك العرب . هنا في قلب هذا العالم ، ينبثق شك واضح حول بعثة ابن فضلان . فيحتجزون ، إذ لم يسبق أن وصل عبر بلادهم رسول متوجه إلى الشمال . يُشكّ في أنهم ربما يقومون بعمل لصالح ملك الخزر اليهودي للهجوم عليهم ، ينقسم القوم بشأنهم : قسم يقترح تقطيعهم إلى نصفين ، وقسم يقترح سلبهم وتعريتهم وإعادتهم إلى بغداد، وقسم يقترح أن يفادوا بأسراهم لدى الخزر . يغيب عن بال البعثة تحذير أمير خوارزم محمد بن عراق . ولكن ابن فضلان يفككك قوة الخصوم بالهدايا ، كما أن انقسام الآراء وتعارضها يفعل فعله ، فلا يُتخذ قرار نهائي بشأنهم ، فيعجّلون شبه هاربين لا يلوون على شيء . الخوف سيجعل ابن فضلان يكفّ عن توسيع ملاحظاته : فضوله قوبل بسوء فهم ، كاد يقوده هو وجماعته إلى التهلكة .

يقطع ما تبقى من العالم التركي مذعوراً ، وقد تفاقم سوء ظنه ، فيعود إلى نسق التتابع في

الوصف السريع الخاطف الذي لاحظناه عند خروجه من بغداد ، : رحلنا ثم وصلنا إلى نهر يغندي ، ثم عبرنا جام ، ثم نهر جاخش ، ثم أذل ، ثم أردن ، ثم وارش ، ثم أختي ، ثم تبا ، وكلها أنهار كبار ، ثم صرنا إلى البجناك(= البشناق ،شمال البحر الأسود) ، ثم ارتحلنا ، ثم سرنا ، ثم عبرنا.. .إلخ . عدد كبير من الأنهار يقارب عدد المدن الإيرانية قبل بخارى ، لن نعرف عنها سوى أسمائها ، فإذا كانت المعرفة تمنع التفاصيل في الحالة الأولى ، فالخوف والذعر والتعجل يمنع التفاصيل في الحالة الثانية . يبدو بعد هذه المرحلة وكأنه فقد الإرادة ، وترك الأحداث تقوده ، ولكنه سيدخر حكما قاسياً يصف به آخر تخوم الأتراك ، حيث يستوطن " الباشغرد " (= غرب جبال الأورال) . فهم " شرّ الأتراك وأقذرهم ، وأشدّهم إقداماً على القتل ، يلقى الرجل الرجل فيفزر هامته ، ويأخذها ويتركه ، وهم يحلقون لحاهم ، ويأكلون القمل [٢٨] . يضيق ابن فضلان بالترك ، دينياً وثقافياً ، وسيعبر ثمانية أنهر أخرى على عجل ، قبل أن يصل أرض الصقالبة على شاطئ نهر الفولغا ، حيث الهدف الأخير لبعثه ، كما يعتقد .

أخيراً يصل ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة ، البلاد التي قصدها من بغداد بأمر المقتدر ، لا نعرف الآن كيف اخترق بلاد الخزر التي تفصل بلاد الترك عن بلاد الصقالبة . والقطعة الخاصة بالخزر، وهي ليست من أصل النص ، إنما منتزعة من " معجم البلدان " لـ"ياقوت" لا تدل بأية حال من الأحوال على أنه دخل بلاد الخزر علناً ، إذ يختفي الحديث بصيغة السرد المباشر ، ويخلو النص من الملاحظات العيانية ، وترد في تضاعيفه معلومات كانت شائعة قبل القرن الرابع ، ومنها ما يورده الاصطخري على سبيل المثال[٢٩] .وهنا يظهر الطابع الجُزافي للرحلة ، فابن فضلان جاء من بغداد استجابة لنجدة ملك الصقالبة ، لحمايته من ملك الخزر ، وليس أمامه إلا المرور عبر بلاد معادية للوصول إلى هدفه . ولا ترد إشارة إلى ذلك ، ففجأة يظهر في أرض الصقالبة مع ثلاثة من جماعته : تكين وبارس وسوسن. وطوال وجودهم هنا، لا يظهر نذير الحرمي ، ولا عبد الله بن باشتو . ستكون مهمة ابن فضلان قراءة كتاب الخليفة وكتاب الوزير وكتاب السفير (= نذير الحرمي)ويُستقبل باحتفاء ظاهر يوم الأحد

لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشر وثلاثمئة[٣٠]. ويحرص على مراعاة الطابع الاحتفالي للقاء ؛ فيجلل دابته بالسواد رمز العباسيين ، ويطلب إلى الملك الوقوف في أثناء قراءة رسالة الخليفة ، ثم ينخرط فورا إثر ذلك في تصحيح الممارسات الدينية الخاطئة، بادئاً بملك الصقالبة نفسه، فيكتشف للحال أن الملك ليس خائفاً من قوة العسكرية للخليفة المقتدر ، ولا هو بحاجة إلى أمواله لبناء الحصون ضد الخزر ، إنما هو يخشى البُعد الديني ، فبدعاء واحد قد يهلكه ، وقد طلب منه المال للتبرك وليس للحاجة . وبعد أيام من تسليم كتابي الخليفة والوزير يُستدعى ، ويواجَه بالحقيقة المرّة : أين الأموال التي أرسلها الخليفة ؟ تتلبّد الأجواء بغيوم الشك ، ويتعرّض ابن فضلان لمأزق كبير . يعترف لملك الصقالبة أن المقتدر أمرهم بجمع عطاء إحدى القرى وإيصاله إلى الملك. لكنهم لا يفلحون في ذلك بسبب الخلافات التي دبّت بينهم في بخارى والجرجانية. وعلى هذا يصل الوفد دون الأموال. يشير كتاب الخليفة بوضوح إلى تلك الأموال، لكنها غير موجودة مع الوفد. هنا ، في هذه اللحظة ، تُضرَب مهمة ابن فضلان في الصميم ، فقد جاء من أجل تصحيح الأخطاء ، فإذا به يرافق بعثة فاسدة، يحاول أن يوضّح الأمر ، لكن من المؤكد ان الثقة به لن تستعاد . حتى الأخطاء الدينية التي قام بتصحيحها يأمر الملك " يلطوار" بإعادتها إلى ما كانت عليه من قبل. ينجح الملك في وضعهم موضع الشك ، وخيانة الأمانة .ولهذا يرفض وعظهم ، ولا يقبل منهم النصح الديني. عند هذا الحد سيجد ابن فضلان نفسه بلا دور. لقد سقطت الهيبة التي كانت تحيطه . الادّعاء وحده لا يكفي ، فعدم الوفاء كان دليلا حاسماً ضده . ولم تُقبل أبداً أعذاره . والحال أنه باستثناء الفترة الأولى ، فإن الملك نفسه لن يعبأ بهم ، ولهذا ينصرف ابن فضلان إلى الاستزادة من ملاحظاته الاستكشافية : يتفحص التركيب الداخلي لعالم الصقالبة ، والطقوس الدينية ، موائد الطعام، المناخ ، الوقت ، التقاليد الاجتماعية ، العلاقة بين الرجل والمرأة . أهم ما سوف يرتسم في ذاكرته الأساطير الروسية التي تغزو أرض الصقالبة من كل أطرافها . لم يدر في خُلده أنه سوف يكون بعد وقت قليل جزءاً من عالم تلك الأساطير الغامضة.

لا يعرف أحد عاقبة تلك البعثة ، فعند هذه اللحظة الحاسمة ، يتشظّى النص الأصلي، وتضيع الغاية الأساسية، وكل المحاولات فيما بعد ، مبنية على جمع نصوص ، وإعادة تركيبها أو ترجمة نصوص أصلية لا معرفة لنا بها . إننا، كما أسلفنا ، بإزاء شك في نزاهة بعثة المقتدر ، وهذا الشك يفضي إلى عدم الاهتمام والتجاهل . فملك الصقالبة ينصرف إلى شؤونه ، وابن فضلان يُشغل بملاحظاته وجولاته . ويتحلل وجود البعثة في أرض الصقالبة، دون أن نعرف مكان توجههم. إن الأمر المنطقي هو العودة إلى بغداد ، وكشف الأمر للخليفة ، ولكننا نفاجأ ، على العكس، بأن ابن فضلان وجماعته، قد ظهروا في البلاد الروسية . التي تقع إلى الأعلى ، فوق بلاد الصقالبة . إنهم أصبحوا الآن تماماً في دار الكفر. ولكن طبقاً لما أورده "كريكتون" ، وليس ثمة ما يخالفه الآن ، فمن المحتمل أن يكون ظهور الروس هنا ، باعتبارهم مستوطنين بشكل مؤقّت لأغراض التجارة وغيرها ، قد أدّى الى إجبار ابن فضلان الالتحاق بالمجموعة الروسية القتالية المتوجهة شمالاً . مع ملاحظة أن هذا سيتعارض مع ما يورده "كريكتون " نفسه من إشارات لا تقبل الالتباس وعلى لسان ابن فضلان من أنه لم يُكمل مهمته في بلاد الصقالبة ، فضلاً عن أنهم ، حينما يتوجهون شمالاً ، يمرون بـ"بلغار " عاصمة الصقالبة ، إذ يحاول ابن فضلان النزول عبثاً ، متذرعاً بإكمال مهمته . وذلك كله متصل بسوء ترتيب النص ، وتقطّع أجزاؤه ، الأمر الذي يُظهر فيه تناقضات لا تخفى .

٣-٣ دار الكفر : الظُلمة ، الكثافة ، الاختلاف .

ظل الشمال القصي ، وهو المنطقة الواقعة وراء بلاد الصقالبة ، مكاناً غامضاً ومجهولاً بالنسبة للجغرافيين والرحالة القدامى ، فآخر ما يمكن الاطمئنان إليه نسبياً من حديث هو ما يتعلق بالصقالبة ،وحسب أبو الفداء فإنه إلى الشمال من ذلك " مفاوز لا عمارة فيها إلى البحر المحيط ، ولا يسكن لشدة البرد الذي فيها [٣١] . وخلف بلاد الروس إلى آخر الشمال يتوهم أولئك الجغرافيون والرحالة وجود بلاد يأجوج ومأجوج[٣٢] . وفي هذه البلاد يظهر

عنف الطبيعة بجلاء ، من ثلج واختلاف في أطوال الليل والنهار . ومن الصعب تصور أن أحداً زار هذه البلاد قبل ابن فضلان إنْ صح وصوله إليها . فابن بطوطة ، الرحالة البارع والصبور عجز عن ذلك " لعظم المؤونة " و "قلة الجدوى " ولأن " السفر إليها لا يكون إلاّ في عجلات صغار تجرها كلاب كبار " ، واكتفى بأن اصطلح عليها "بلاد الظلام (٣٣). وكما يقرر ابن سعيد المغربي ، فإن مدن تلك البلاد " خاملة الأسماء " وهي في إقليم " ليس فيه بلد مذكور ولا معلم مشهور (٣٤) . ويلاحظ الجغرافيون ، إلى جانب غرابة الطبيعة غرابة التقاليد الاجتماعية ،وفي مقدمة ذلك الحرق. فالروس قوم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا مع الجواري بطيبة من أنفسهن(٣٥) . وسيُشغل ابن فضلان بملاحظة هذه العادة ، ويحضر طقوسها مباشر، وهو أمر سيكون مثار اهتمام الرحالة إلى الشرق، وبخاصة إلى الهند والصين :سليمان التاجر، البيروني، ابن بطوطة.

لم يكن في حسبان ابن فضلان أنه سيصل إلى دار الكفر ، كل توقّعاته وقفت دون تلك الدار ، الهاجس الذي يطوف في مخيّلته اقتصر على اصلاح أخطاء دار العهد ، ثم العودة إلى دار الإسلام . وحتى مهمته هذه لم يُكتب لها أي نجاح يُذكر ، فالقوم غارقون في عاداتهم "ما زلت أجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك(٣٦). وينبغي التذكير بأنه انطلق في بعثة الخليفة كمصلح ديني، لكنه قوّى دوره ، واستحوذ على أدوار الآخرين ، وكلما مضى في مساره يجري تضخيم له ، إلى درجة تضاءلت معها أدوار الآخرين ، وهذا جعله يظهر منافحاً عنيداً عن الحقيقة الإلهية . إنه مُشبَع بأوامر الشريعة ، وفي ضوئها يتحدد مجال فعله ودوره ، ولا يسمح لأحد العبث بهذا المجال الرمزي الحساس، وكل ما يراه زوغاناً يسعى لتصحيحه ، ولكنه لا ينجح دائماً في ذلك ، إلاّ إذا اتصل الأمر بأفراد مخصوصين .

لم يفلح على الاطلاق في تغيير القناعات الجماعية مهما كان خطؤها جسيماً من وجهة نظره الدينية . من الصحيح القول إنه انخرط كفاعل ديني في مجتمع يتصف بالهشاشة الدينية ، لكنه ، كلما دفعته مهمته إلى مواجهة ذلك المجتمع كان ينتهي إلى الفشل. وكان

أكثر ما يثيره ملاحظته أن التقاليد الاجتماعية لا توافق سُنن الشريعة ، ولكنها على أية حال تقاليد راسخة ، ليس باستطاعته تغييرها . إن الاعتراف بالعجز عن التغيير له معنى واحد لا غير ، هو : إن مهمته لا معنى لها ، وقد كفّت عن أن تكون ذات قيمة . إلى ذلك فإن مهمة البعثة كلها قد فشلت، فصار هو المرشد الروحي لها بين شك ملك الصقالبة وغضب الخليفة المقتدر ، وهذا سيفتح الاحتمال على إحساس عميق بالإخفاق على المستوى العقائدي والسياسي .

لقد نُظر إليهم ، هو المصلح الديني وفريقه، باعتبارهم مجموعة لا يوثق بها ، خانت الأمانة. يقول له ملك الصقالبة إثر مساجلة لإيقاعهم وكشف أخطائهم " والله إني لَبِمَكاني البعيد الذي تراني فيه ، وإني لخائف من مولاي أمير المؤمنين ، وذلك اني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه فيدعو علي فأهلك بمكاني ، وهو في مملكته ، وبيني وبينه البلدان الشاسعة ، وأنتم (=يقصد البعثة) تأكلون خبزه وتلبسون ثيابه وترونه في كل وقت ، خنتموه في مقدار رسالة بعثكم بها إلى قوم ضعفى، وخنتم المسلمين ، لا أقبل منكم أمر ديني حتى يجيئني من ينصح لي فيما يقول ، فإذا جاءني إنسان بهذه الصورة قبلت منه " ، يعقّب ابن فضلان على ذلك " فألجَمْنا ، وما أحرنا جواباً ، وانصرفنا من عنده [٣٧] .

إن النتيجة المحتملة التي تترتّب على هذا الفشل المزدوج هي استحالة البقاء في بلاد الصقالبة بعد مناظرة الملك ، وصعوبة العودة إلى بغداد حاملاً معه فشلاً ينطوي على التباس عميق بمصداقيته في بلاط يمور بالتنافس وصراع القوى . ويحُتمل أنه أسلم أمره لقدر غامض ، فبدل إصلاح الأمر ، حاول تخطي الفشل بالهرب منه إلى الأمام ، أي إلى الشمال ، إلى دار الكفر ، إلى بلاد الروس . لأن دوره ، وعلى كل المستويات ، سيكفّ عن أن يكون ذا قيمة بعد مناظرة ملك الصقالبة . سيطعن في الصميم . حتى الممارسات الدينية الخاطئة التي يراها كأنصال جارحة في بدن الإسلام ، لم تعد تُؤلمه كثيراً . نبرته الانتقادية تخفّفت من ثقلها الدوغمائي . وهنا لا ينبغي إهمال العنصر الأكثر أهمية : التواطؤ مع الآخر وتقبّل الاختلاف . فالأغيار كثر ، لكنهم ضالون . تغلب الكثرة الحق . وما أن يطأ أرض الروس إلاّ

ويجد نفسه كائناً أكثر شفافية ، وأقل تعلقاً بالدوغمائية الاصلاحية . ففي حفل ماجن حيث الجنس والخمر والدم ، يُدفع ــدون أن يُبدي مقاومة مقنعة ــلممارسة خرق غير متوقع للسياج العقائدي الذي يحتمي به ؛ يتغنّى بآيات من القرآن في مكان غاص بالسكارى حتى فقدان الوعي . المترجم الذي نهض بترجمة الآيات إلى الروسية كان يترنح سكراً .

وبعد أن انتهى ابن فضلان ، وقد قوبل بعدم استحسان من المحتفلين المخمورين ، انتبه إلى أنه وظّف كلمات الله في غير سياقها " سألت الله غفرانه على هذه المعاملة لكلماته المقدسة ، وعلى الترجمة التي أحسست أنها خالية من المعنى ، لأن الترجمان في الحقيقة كان سكراناً"[٣٨] . وخزة الضمير لم تكن مؤلمة بدرجة كافية ، فابن فضلان يتأسّف فقط على فعلته ، ويرى أن المترجم المخمور لم يوفّق في نقل المعنى الحقيقي لكلام الله . ومن الواضح أنه بدل أن يمتنع عن ذلك ، أو يقدم تعليلاً مقنعاً ، يفتح باباً معروفاً يخص قراءة القرآن وكتابته بغير العربية . وهو موضوع كان مثار خلاف، قبل أن يُغلق باب الاجتهاد فيه خلال القرون المتأخرة. فقد قيل عن أبي حنيفة : تجوز قراءته بالفارسية مطلقاً . وعن أبي يوسف : إنْ لم يحسن العربية . لكن الزركشي يؤكد أنه صحّ عن أبي حنيفة الرجوع عن ذلك. وقد استقر الإجماع على أنه تجب قراءته على هيئته التي يتعلّق بها الإعجاز لنقص الترجمة عنه ، ولنقص غيره من الألسنة عن البيان الذي اختص به دون سائر الألسنة . ويضيف الزركشي : رأيت في كلام بعض الأئمّة المتأخرين أن المنع من الترجمة مخصوص بالتلاوة ، فأما ترجمته للعمل به فإن ذلك جائز للضرورة . ويحشد الزركشي الأدلة النصية : إذ تحرم قراءة القرآن بغير لسان العرب ، لأن الله قال " بلسان عربي مبين " ولا تجوز قراءته بالعجمية سواء أحسن العربية أم لا ، في الصلاة وخارجها ، ولقوله تعالى " إنّا أنزلناه قرآناً عربياً"[٣٩] . لم يلتفت ابن فضلان بما فيه الكفاية إلى السياق الذي تُليت فيه الآيات الكريمة. والبرود الذي قوبل به ينبغي أن يكون متوقعاً ، فكل كلام ــناهيك عن كلام الله ــيُساء تلقّيه إذا أُقحم في سياق لا يوافقه ، ولا يستجيب لأغراضه الأساسية . وقد يصعب تفسير هذا الموقف الخاص مهما كانت الأسباب ، فهل ثمة رغبة دفينة ، يريد ابن فضلان بها الرد الضمني على المجون

والإباحية بكلام ألهي ؟ ومهما كان الأمر ، فينبغي مراقبة النتيجة : لقد أقحم القرآن في مجال تتعالى فيه شقهات المتعة ، فقطع جزءاً كبيراً من الصلة مع الماضي الثقيل ، حينما يكون الحاضر ممتعاً ومسليًّاً تنحبس كلمات الله في تاريخها الخاص ، وتفقد نفوذها الدائم ، وهكذا كلما مضى ابن فضلان إلى الشمال بهتت النواة العقائدية في داخله ، وتحللت ، واضمحلت ،وتوارت، في النهاية ستذوب كجمرة في حقل جليد .

ينطبق على ابن فضلان ما قاله " جون ميسفيلد " في تقديمه لرحلات ماركو بولو : " فقدنا كل عجب حين ضاع إيماننا (٤٠). ففي الوقت الذي يحتدّ فيه بصره ، فيرى كل شيء في دار الكفر ، يصاب بنوع من عمى البصيرة ، إذ يفقد قدرته التحليلية ، فينزلق إما إلى جهل تام أو إلى خطأ في التفسير ، وفي كل خطوة يحتاج إلى مفسر ، تكرار ذلك والإلحاح عليه ، يدفع المترجم " هرجر " إلى نَهره والسخرية منه ، لأنه ملّ أسئلة ابن فضلان "أنتم العرب ترغبون معرفة أسباب كل شيء . إن قلوبكم عبارة عن كيس كبير يطفح بالأسباب(٤١). لا تسعفه تجاربه السابقة بالمقارنة ، فيقع غالباً ضحية فهم قاصر . كل الأشياء بالنسبة له غامضة ، غير معللة ، لقد أُلقي في عالم مظلم ، فكشف جهلَه ،ونقصَ حيلته ، وعجزَه ، حتى المدن ، والأنهار ، والغابات ، تمر بلا أسماء ، فلا نعرف نحن بأية مدينة مرّ ، وفي أي غابة أقام ، وأي نهر عبر . أسماء لا دلالة لها لأن عين ابن فضلان تراها لأول مرة ، والعادات والقيم والطقوس لا تُفهم ، لأن مرجعيتها غائبة ، وظائفها غير واضحة . مكونات دار الكفر بلا أسماء ولا تواريخ ولا دلالة، تمر عليها العين ، أما الذاكرة فلا تختزّن شيئاً ، وكلما مضى شمالاً ، غالبه النسيان المشفوع بسوء التفسير ،والوقوع في الخطأ الذي يفتّت مكوناته العقائدية تدرجياً : يعاشق جارية ، يتذوق خمرة . بعبارة أخرى يمارس الكبائر التي خرج من بغداد لمحوها .

يخرب الشمال، فجأة مخططات ابن فضلان،يفارق مجموعته على ضفاف نهر الفولغا (=أتل)، ويحبر على الالتحاق بمجموعة مختلفة تماماً ، مجموعته تنظِّم أفكارها وعقائدها في أفق مألوف بالنسبة له ، إنها بعثة سياسية ودينية ، أما البعثة الأخرى المتألفة من اثني

عشر مقاتلاً ، فإنها غريبة عليه ، يجد نفسه حالاً في وسط مختلف تماماً . إمام بعثة المقتدر يُلحق كجزء مكمِّل لمقاتلين بواسل . وكما أشرنا من قبل ، فإن صاحب الفضل يصبح فضلة . ، وكان "عاجزاً عن الحديث بلغتهم ، أو فهم عاداتهم " فيصاب بالاكتئاب ، ويعتبر حاله حال " الشخص الميت " الأمر الذي لم يفهمه إلاّ فيما بعد وهو أن البعثة يجب أن تتألف من ثلاثة عشر شخصاً ، وأن واحداً منهم يجب ألاّ يكون شمالياً " . القرار الحاسم بالضمّ الإجباري إلى البعثة الذاهبة لإنقاذ مملكة "روثغار " يلجم ابن فضلان . يشعر أن أعذاره لاتُفهم بل يجري تجاهل تام لها . يُدفع في مهمة لا دور له فيها غير سدّ نقص تقتضيه تقاليد الحرب في بلاد الشمال . اعتباراً من لحظة السفر تُقصى العربية وتُستبعد ، وتغيب العقيدة الإسلامية . تصبحان جزءاً من الماضي . يفقد ابن فضلان لسانه الأول : لسان الله . ستكون اللاتينية التي يعرفها فقط المقاتل " هرجر " هي الوسيط بينه والآخرين إلى نهاية المطاف .

في طريقهم إلى البلاد الاسكندنافية ، حيث المملكة المهددة ، يخترقون البلاد الروسية ، وأمام الاختلاف في كل شيء ، يستسلم إلى عجز واضح . المفاجأة تشلّ قوته فيتحول إلى ملاحظ تتوقف الأشياء عند آفاق بصره ، ولا تنفذ إلى عقله . فالزمن يتغير ،والليل من القصر بحيث لا يمكن خلاله طهي وجبة طعام . ما أن يغفو إلاّ ويوقظ لمواصلة رحلة لا يعرف هدفها ومصيرها . الأضواء الملونة المتخاطفة في السماء تثير عجبه . يظن أنه سيغرق لأن الهواء منزع بالماء تماماً . يأكل لحماً نيّئاً دون ذبح حلال ، فيتمتم في سره " بسم الله " . سيتكرر تناول اللحم النيئ ، لكن التمتمة السرية ستختفي . الطبيعة وعنف المقاتلين وغموض الهدف والجهل ستدفعه إلى الاندماج . يتشكّى مرة من برودة المطر ، فيسخر منه "هرجر" قائلاً " أنت بارد وكئيب ، أما المطر فليس بارداً ولا تعيساً " . يتقاطع ظنان : ابن فضلان يظن أن هرجر أحمق ، فيما يظن الأخير بأن الأول هو الأحمق .

لسانه العربي وكتابته يصبحان موضع شبهة ، ولقد رأينا من قبل كيف أنه شبه كلام الترك بصياح الزرازير ونقيق الضفادع ، سينقلب الأمر هنا ، يخبره القائد "بوليويف"بأن" أهل

الشمال يسمّون كلام العرب ضجيجاً " ، ويطلب إليه أن يُحدث صوتاً عربياً ، وأن يكتبه على الأرض بأحد الأغصان ، فيكتب " الحمد لله " ويتلفظ العبارة ، كاختبار، ولمّا يُسأل " أي رب تحمد ؟" . يجيب انه الله الواحد ، فيكون ذلك مثار تعجّب " لا يمكن أن يكفي رب واحد (٤٢). معرفته الكتابة ستجعله مثار شك ، فكتابة اسم ما ، تعني القدرة على القضاء على صاحبه ، يضعه هذا الموقف الصعب في حال لا يريدها ، فهو لا يقصد الشر بأحد ، ويتعهد ألاّ يكتب اسم أي منهم مستقبلاً ، تصبح الكتابة وسيلة تهديد مضمرة : يُرعى من القائد ، يُعطى طعاماً أكثر ، يُسمح له في أثناء الارتحال بالنوم تحت شجرة ضخمة وقت الاستراحات الخاطفة ،تجنباً لمزيد من البلل . لونه الأسمر وشعره الفاحم سيظلان دائماً عنصري تمييز، ويحولان دون الاندماج النهائي، الآخر لا يتقبّل عِرقاً مختلفاً بلونه . هو الأسمر يظهر نشازاً بين الشماليّين شاحبي الوجوه كالكتان ، ذوي الشعور الشقر ، كلما مرّ بقرية ، يتقرّب إليه الأهالي ، ويحاولون لمس جلده ، بعضهم يحاول مسح اللون المُميّز عن جسده معتقداً بأنه طلاء ، ويكون تعليقه على ذلك " هنالك في الحقيقة أناس جهلاء ، لا يعرفون شيئاً عن اتساع العالم ، وكثيراً ما كانوا يخافونني فلا يقتربون مني ، وفي مكان لا أعرف اسمه صرخ طفل من الرعب حين رآني ، وركض ليتشبّث بأمه (٤٣). وهذا أمر يلاحظه كل غريب ، حينما ينفصل عن الفضاء الثقافي والعرقي والديني الذي يعيش فيه ، وبهذا الصدد يقول أبو الريحان البيروني : إن الهنود " يباينوننا في الرسوم والعادات حتى كادوا أن يخوّفوا ولدانهم بنا وبزيّنا وهيأتنا وينسبوننا إلى الشّيطنة " ، ويطابق ابن فضلان في تعليله ، ويعزو ذلك إلى الجهل " إنهم لا يظنون إن في الأرض غير بلدانهم ، وفي الناس غير سكانها ، وإن للخلق غيرهم علماً حتى أنهم إن حُدِّثوا بعِلم أو عَالِم في خراسان وفارس استجهلوا المُخبر، ولم يصدِّقوه للآفة المذكورة ، ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم لرجعوا عن غيِّهم (٤٤).

لن يفلح في إجادة لغة " الوثنيّين " . ينتهي به الأمر أخيراً إلى محاولة بطيئة لجمع الألفاظ ونطقها،يتعلمها حينما ينتهي دوره ورسالته، الضباب الذي يخيف الجميع سيكون أحد

الأسرار الغامضة عليه ، وعلى تخوم الدنمارك ، وبعد رحلة طويلة ومضنية ، سيعرف سر الرقم الثالث عشر ، الرقم الذي حسبه رقما مكملا " علمتُ ان عدد الثلاثة عشر عدد مهم بالنسبة للشماليّين ، لأن القمر بتقديرهم ينمو ويضمحل ثلاث عشرة مرة خلال عام واحد، ولهذا السبب يجب أن تتضمن كل الحسابات الهامة عدد الثلاثة عشر " . إنه مقطع سحري أو أجنبي ، وكل سلسلة من الأشياء المألوفة ينبغي أن تنتهي بشيء غريب ليس من جنسها ، وحين يعرف ذلك يعلّق : إنهم قوم مؤمنون بالخرافات ، ولا يلجؤون إلى حسن الفهم والعقل . وفي أرض "الفايكنغ" سيفطن ابن فضلان إلى أنه انقطع عن الصلاة منذ مدة طويلة. يعيده التذكر المؤقت إلى عالم الله المشبع بالتذكر والطاعة ، لكنه لن يعود إلى الصلاة . وهنا ، حيث يشارفون على الوصول إلى المملكة المنكوبة بغزوات " الوندول " يتضح تماماً قصوره وعجزه عن تفسير المظاهر الطقوسية والطبيعية للشماليّين ، فلا يفهم شيئاً عن : الحيتان ، الضباب المخيف ، رمي الدجاج المذبوح في البحر، رأس الثور المقطوع والمعلّق على عصا ، آثار الأقدام الغريبة ، نحت المرأة الحامل بلا رأس ولا أطراف ، ويصاب بالغثيان والدوار وفقدان الوعي لدى رؤيته الأجساد المقطّعة في بيت المزرعة الملحق بقصر "روثغار" . ليس ثمة أحد يفسر له هذه الأشياء .

وكما وقع في خطأ التغني بالقرآن من قبل ، فإنه يغني في قصر الملك، وسط طقوس مماثلة للحالة الأولى، وبدل أن يقترف الخطأ نفسه يروي حكاية عن أحذية أبي القاسم ، لكن النتيجة تكون نفسها ، يتعلق الأمر بسوء تقدير السياق العام، فكل المحتفلين بقدوم المجموعة المقاتلة يوجمون ويعبسون ، ويعم صمت رهيب ، فالحكاية تؤدي مفعولاً عكسياً . إنها قد تكون مسلية وطريفة في دار الإسلام ، لكنها لن تكون كذلك في دار الكفر . ابن فضلان لم يعتبر بكل التجارب ، فمرة ثالثة سيروي حكاية الخطيب وسيقابل ، كما هو متوقع ، بالصمت والوجوم . سيظل يقترف أخطاء ثقافية متتالية . وأخيراً سيتوصل إلى إدراك أن الخوف الذي يلاحقه متصل بالجهل " تالله لا يوجد خوف أعظم من خوف الإنسان الذي لا يعرف السبب " . سيحاول أن يتخطّى ذلك بمواجهة الوندول مباشرة ، وفعلاً ستكون

النتيجة إيجابية ، يظهر بعد المعركة ، ساحراً ومختالاً ، لكنه يُتَّهم بأنه عربي وأبله ، وأنه لا يفهم عادات الحرب عند "الوندول" ، ولكنه لا يُستثار من الإهانة ، بل يتوجّه حالاً لإشباع رغبته من جارية . وهذه أول رغبة يعلن عنها دونما تأنيب ، يأخذها على طريقة أهل الشمال ، دون توجّس وتحوّط ، ويظهر بتصرفه أنه تجاوز الإنحباس في مفاهيمه الثقافية الأولى " اكتشفت أنه إذا كان كل من يحيطون بك يعتقدون بشيء خاص ، فإنه سرعان ما يغريك أن تشارك في ذلك الاعتقاد ، وهكذا كان الأمر معي[٤٥]. في البدء تثير الممارسات شبه الإباحية استغرابه ، يعتقد أن الشماليات لسن عفيفات ، لأن لهن علاقات خارج إطار الحياة الزوجية ، لكنه لن يهتم بذلك فيما بعد . وسرعان ما يبدي اهتماماً بالنساء ، هن بالمقابل سيُعجَبن به كونه عربياً ، سينظرن إليه كحصان ، يثيرهنّ ذكره الأجرد المختون . وسيغرق هو بالمقابل في استيهامات جنسية طويلة ، فيها مباهاة ونفاج . سيفتخر بما يثيره من شهوة في الشماليات" اكتشفت أنهن كن مذهولات بي شخصياً بفضل جراحتي (=ختانه) غير المعروفة عند الشماليين لكونهم من الوثنيين غير المطهّرين . ويبدون عند اللقاء صاخبات ونشيطات وبرائحة تزكم الأنف إلى حد أكرهني على إيقاف تنفسي لأمد ؛ وكذلك أسلمن أنفسهن لعادة الدفع واللي والخمش والعض ، مما يعرّض الرجل إلى السقوط من فرسه ، حسبما يقول أهل الشمال ، وقد وجدت هذا التعامل بكامله مصدر ألم أكثر منه مصدر متعة [٤٦]. عرف الحب ، لكنه لم يفهم طقوسه عند الشماليات . وجد نفسه يتألم ، لأنه لا يعرف غير وجه واحد من صور الحياة المتنوعة . ولن يمر وقت طويل حتى يتذوق ابن فضلان الكأس الأولى من خمر " الميد " . في أول الأمر يتحجّج بمقاومة البرد ، ولكنه سرعان ما يسرّ بذلك ، وفي الليل سيعيد الكَرَّة ، ولكنه سيحاول أن يعثر على حكم ديني بالتحليل ، فاعتبار أن " الميد " نبيذ ، ليس من العنب ، يحل شربه ، كما ترى بعض المذاهب . ولهذا يناوله " هرجر " جرعة من هذا النبيذ ، فيشربها ، ويقول " شربتها ، وشكرت الله وحمدته على أنها غير محرّمة ولا حتى مكروهة . وفي الحقيقة ، أصبح لساني يستسيغ نفس المادة التي كنت اعتبرها كريهة فيما مضى . وهكذا ، لأن الأشياء التي كنا نعتبرها غريبة تصبح بالتكرار عادية[٤٧].

تلعب المشاركة والتجربة والمصير الواحد والمعايشة دوراً حاسماً في تبديل قناعات ابن فضلان وعقائده وأفكاره . تخوّفاته من الجنس والخمر والقتال سيتكفل بها الزمن ، وتذوب تماماً، وسوف تتبدل إلى ما يناقضها ،بعد المواجهات الدامية مع "الوندول" . سيحسم أمره ، ويعلن قراره ، فهو جزء من عالم الشمال ، وقد سر بذلك " كما لو كنت شخصياً من الشمال، وهكذا استقرّت أفكاري في النهاية (٤٨)، وبعد هذه المرحلة سيحاول تعلم "الكلام النرويجي، دون أن يظهر ذلك في كتابه ، وفي الاحتفال الأخير ، قبل المعركة الحاسمة ، يؤكد " أمضيت زمناً طويلاً بصحبتهم ، أحسست كأنني واحد منهم ، بل بالفعل ، شعرت في تلك الليلة كما لو كنت مولوداً بين أهل الشمال "سيعمل القائد "بوليوف " إلى تقديم النصيحة الأخيرة له ، إنها نصيحة ثمينة تكشف غير ما يصرح به ابن فضلان مباشرة ، فهي تفصح عن رأي الآخر " ابحث لنفسك عن الأمان ، ولا تكن شجاعاً حد التهور ، إنك ترتدي ما يرتديه رجل الشمال ، وتتكلم كما يتكلم ، لا كما يتكلم رجل أجنبي، حافظ على حياتك " . يرفض ابن فضلان النصيحة ، ويربت على كتف القائد للتعبير عن قراره بخوض المعركة الأخيرة ، خلال وجوده في الشمال لا يُعرف إلا بوصفه عربياً . ولكنه يصبح عنصراً أساسياً في مجموعة المقاتلين .

يؤدي الانتصار على " الوندول" والاحتفال الذي يعقب الظفر ، ووفاة "بوليوف " إلى إنهاء مهمة المقاتلين الذي تقلّص عددهم إلى سبعة بسبب الحروب، وهنا تنبثق فكرة العودة إلى الوطن ، لم يعد ثمة ما يقوم به ، لكن الملك يريد منه البقاء لأنه أحد الأبطال الذين أسهموا بحماية المملكة ، يحاول ابن فضلان العودة ،يتردد الملك ،وأخيراً تتم الموافقة . وفي غضون التفكير في العودة ، يُشغل ابن فضلان في التفكير بالاختلاف . صحيح أنه دُمج في النشاط الحياتي . بما في ذلك المشاركة بحرق جثة القائد والسفينة التي تحمله ، لكن موضوع تعدد الآلهة وعبادتها يظل يثير فزعه العقائدي ، لأنه يتهدّد معتقده الديني الأصلي ، ورغم ذلك، فابن فضلان ، على خلاف كثير من الرحالة المسلمين يستبدل بالتسفيه وإصدار الأحكام القاطعة التعايش والتسامح والمشاركة ، وبذلك يتخطّى كل أحكامه الجاهزة التي وقفنا على جانب منها ، حينما كان في دار العهد . فالدرس الثمين الذي تعلّمه هو : إن

سعة العالم وتنوّع الأعراق واختلاف الثقافات والعقائد تقتضي مشاركة وليس تقاطعاً . فما دام قد اندرج في نسق مباين للنسق الثقافي الذي عاش فيه ، فينبغي ، لكي يكون فاعلاً ، أن يُجري تكييفاً يمكنه من الاتصال بهذا النسق والاندماج فيه ، بدل الانفصال عنه ، فلا يمكن إصلاح العالم بعقيدة واحدة .

المقطع الطويل الآتي ـ وهو خاتمة الكتاب ـ يكشف مرة أخرى ظهور الاختلاف وضرورته . إنه حوار بين ابن فضلان و " هرجر " ، ومن المعلوم أنه يتوج فكرة الاندماج ، ولم يأت إلاّ إثر تجربة قاسية من القتال والمعايشة ، وهو يؤكد أن الاختلاف ، لا يمكن إذا تم في ظروف مناسبة ، أن يكون تناقضاً ، بل إنه ثمرة لتلاقي الرؤى والمنظورات والأفكار والعقائد ، ويفضح في الوقت نفسه أمر الاعتصام وراء عقائد نصيّة جامدة ، تؤوّل بحيث تحول دون تواصل بني البشر وتفاعلهم : " وقفنا يوماً فوق المنحدرات ننظر إلى السفينة على الشاطئ حيث تم إعدادها وتجهيزها بالمؤن . قال لي هرجر: " سوف تباشر رحلة طويلة . سنصلّي من أجل سلامتك " . سألته لمن سيصلّي ، فأجاب " إلى أويدين ، وفري ، وثور ،وإيرد ، وعلى عدة آلهة آخرين ممّن يمكن أن يكون لهم تأثير على سلامة رحلتك " . وكانت تلك أسماء آلهة أهل الشمال . أجبته :" إنني أؤمن بإله واحد هو رب العالمين ، الرحمن الرحيم" فقال هرجر :" إنني أفهم هذا . ربما يكون إله واحد كافياً في بلادك . أما هنا ، فليس كذلك ، توجد آلهة كثيرة ، ولكل منها أهميته ، ولهذا، فإننا نصلي لهم جميعاً لمصلحتك " . شكرتُه على صلواته ، لأن صلوات غير المؤمن هي صلوات صالحة بقدر ما هي مخلصة، وإنني لا اشك في إخلاص هرجر . لقد كان هرجر يعرف منذ زمن طويل أن عقيدتي تختلف عن عقيدته ، ولكنه ، مع اقتراب رحيلي، كان يسأل مرة تلو المرة عن معتقداتي ، ظناً منه أنه يمكن أن يلتقطني على هفوة تخرج في غيبة من الرقابة الذهنية ، فيقف بذلك على الحقيقة . كنت اشعر بأن أسئلته الكثيرة كانت نوعاً من الامتحان، كما فعل بوليويف مرة عندما امتحن معرفتي بالكتابة . ولكنني أجبته بنفس الطريقة والمضمون ، مما كان يزيد في ارتباكه. في يوم من الأيام ، ودون أن يتظاهر بأنه سأل نفس السؤال في مرة سابقة ، قال لي هرجر : " ماهي طبيعة ربك الله ؟ " . قلت له " إن الله هو الإله الواحد الذي يحكم

الكون ، ويرى كل الأشياء ويتصرف بها " . ولقد سبق أن قلت له هذه الكلمات . وبعد مضي بعض الوقت ، قال لي هرجر :" ألا تُغضب الله هذا أبداً ؟" . قلت له: " إنني أفعل ، ولكنه غفور رحيم " . قال هرجر : " هل هو غفور عندما يشاء ووفقاً لما يشاء؟ " . قلت إن الأمر كذلك حقاً . وبعد أن فكر في جوابي ، هزّ رأسه قائلاً " إنها مجازفة أعظم مما يمكن احتماله ، لا يمكن للمرء أن يضع ثقته كلها في شيء واحد، سواء أكان امرأة ، أو حصاناً أو سلاحاً أو أي شيء فريد " . قلت : " ومع ذلك، فإنني أفعل" . أجاب هرجر " الرأي رأيك . ولكن هناك أكثر من الكثير مما لا يعرفه الإنسان ، وما لا يعرفه يدخل في دائرة اختصاص الآلهة " .وجدت أنه بهذه الطريقة ، لا يمكن إقناعه بمعتقداتي كما لا يمكن أن أقتنع بمعتقداته ، فافترقنا (٤٩).

تعيد هذه المحاورة ، روح السجال الديني في العصور الوسطى ، حول صفات الله ، وصحة المعتقد، لكنها تتم في جو من الحوار والتواصل ، وتترفع عن التكفير ، ومع أنها تكشف ثبات العقائد وتباينها ، لكنها لا تجعل منها عقائد متقاطعة ، ولا تتورط في المفاضلة قصد الاختزال والإقصاء، بل على العكس، إنها تعرض انساقاً من العقائد المُدعمة بثقافات مختلفة ، لا تسعى أي منها إلى إبطال الآخرى وإلغائها ، فابن فضلان وهرجر المختلفان عقائدياً التقيا في نقطة مشتركة ، وعاشا تجربة واحدة ، جعلت المعتقد مجرد ركيزة لهوية قابلة للتحول والاستمرار وتجاوز الخطوط الوهمية المصطنعة بين العقائد ، بهدف الوصول إلى القاسم المشترك الذي يجمع بينهما ولا يفرّق .

الآخر هو المرآة الصقيلة التي مع الزمن تكشف بجلاء عن الذات . من الصعب اكتشاف الذات على حقيقتها قبل الانخراط في تفاعل خصب مع الآخر ، فالاعتصام بالذات يحول دون كشفها ، وهو يماثل خطورة التماهي الأعمى بالآخر ونسيان الذات . فالتواصل يضفي خصوصية وتمايزاً على الذات والآخر ، بما يجعل الذات والآخر على حد سواء حالة تاريخية متحولة بشكل دائم .

٤ .خاتمة : مماثلات في الأدوار الثقافية

تبدو المماثلة واضحة بين وابن فضلان والطهطاوي ، والقرون العشرة الفاصلة بينهما لا تكاد تمارس فعلاً حقيقياً في مجال التباين ، وكأن الزمن كفّ عن فعله الطبيعي. يُرسل ابن فضلان مرافقاً دينياً لبعثة المقتدر إلى ملك البلغار ، باعتباره " فقيهاً وحجة في شؤون الدين[٥٠] في نهاية الربع الأول من القرن العاشر الميلادي ، ويُرسل الطهطاوي مرافقاً لبعثة محمد علي إلى فرنسا في نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، كلاهما في الواقع ذو دور ملتبس ، ولن يوليا اهتماماً كافياً بما كُلّفا به ، وكأنهما يبحثان عن أدوار خاصة بهما ، في الحالتين سيغيب الأبطال الحقيقيون ، وسيتفاقم شيئاً فشيئاً دور المرافقين ، سيطوي التاريخ المبعوثين الأصليين ، وسيظهر إلى العلن المرافقون فقط . لا نكاد نعرف أو نتذكر شيئاً ذا بال خاصاً بمبعوثي المقتدر ومحمد علي ، وحدهما ابن فضلان والطهطاوي سوف يستأثران بالاهتمام ، ذلك انهما يخرقان التعاقد الضمني الذي من أجله بعثا كموجّهين دينيّين ، ووسّعا من طبيعة دوريهما ، وعاد كل منهما إلى بلاده ، ومعه أول تقرير واف عن " الآخر " ، تقرير تحليلي ، استكشافي ، حفريّ ، يحمل في طيّاته تركيب أول صورة مباشرة وحيّة وقائمة على الخبرة والمعايشة عن الآخر . فكما أن "تخليص الإبريز في تلخيص باريس " يعتبر أول كتاب حديث في الثقافة العربية يعرض لطبيعة التجربة الغربية ممثلة بفرنسا ، في مجال الحقوق والواجبات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها .فكذلك تعتبر رحلة ابن فضلان أول ملامسة لعالم الشمال بما فيه من أتراك وصقالبة وبلغار وخزر واسكندنافيين ، بالنسبة للعرب في المرحلة الأولى من تكوين دولتهم وحضارتهم . وكلا المصدرين عُدّا مرجعين رائدين في مجالهما ، لا يمكن تجاوزهما بأي شكل من الأشكال ، وعليهما تشكّلت ، وفي عصرين مختلفين ، الصور الأولى للآخر ، ونوع الأنساق الثقافية والاجتماعية والعقائدية السائدة . إلى ذلك ، فإن كلا من ابن فضلان والطهطاوي يغادر فضاءه الثقافي ، لكي يكون مؤثّراً ، فإذا به يعود متأثّراً . إن استيعابهما لتجربة الآخر جعلهما يتأثران به ، تذوب المقاومة الداخلية الجاهزة ، ويحلّ بدلها نوع من

التفهّم ثم الحوار ، فالتفاعل ، وينتهي الأمر بالتأثر . في البدء يحتاطان لكل شيء ، وتبدو النبرة النقدية الغاضبة واضحة ، لكن المناقشة تمتص الغلواء العقائدي ، فيعودان بغير ما ذهبا به . كلاهما كان يخترق عالماً بكراً ،يصيبه بالإعجاب والذهول . وكلاهما ينتهي إلى تثبيت صورة موضوعية للآخر . يواجه ابن فضلان عالماً وثنياً مشبعاً بالضلال ، ويندب نفسه لتغيير كل شيء ، في النهاية يقتنع بأن مهمته مستحيلة . هو من سيتغيّر ، وهو أمر له ما يماثله في التجربة الفكرية الكلية للطهطاوي الذي يستخلص من الآخر الحكمة الآتية : "مخالطة الأغراب ، لا سيما إذا كانوا من أولي الألباب ، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب"(٥١) .

لا يُلغي التماثل بعض التمايز بين الاثنين ، فابن فضلان متعجّل ، غاصّ بالروح العقائدية الإصلاحية للنسق الثقافي الشائع في القرون الوسطى ، يتحرك وسط سياج عقائدي صارم يقوم على منظومة متكاملة وجاهزة من المسلّمات ، يريد ، بشكل من الأشكال ، توسيع دائرة الإسلام ، وتضييق دار الكفر . ولكنه ما أن يفقد إرادته ، إلاّ ويفقد معها منظومته العقائدية التي تتناثر في عالم وثني شديد الاختلاف عن عالمه . أما الطهطاوي الذي تطوف في ذهنه الفكرة ذاتها ، فهو أقل طموحاً إلى تغيير الآخر ، إنه ، في واقع الحال ، لا يختلف عن سلفه بنوع المنظومة العقائدية ، ولكن يختلف بدرجتها ، على أن تطلّعه أقل ، وتفهّمه أكثر ، وحواره أعمق . لقد سعى إلى "تخليص" ذهب التجربة الغربية الحديثة بصعوبة بالغة . وأهمل الشوائب ، ووضع بين أيدينا وجهة نظر عملية . لكن ابن فضلان شُدَّ إلى سحر القطب الشمالي وغموضه ، فلا نعرف نحن المعاصرون كيف عاد إلى بغداد ، وكيف قوبل تقريره . وليس لأحد الادّعاء الآن بأنه على معرفة بكامل تقرير ابن فضلان . آخر الشهود الموثوقين هو ياقوت الحموي من القرن الثالث عشر الميلادي الذي قرأه بنفسه ، وأقرّ بشهرته وشيوعه بين الناس واقتطف منه أجزاء وافية في معجم البلدان(٥٢) . منذ ذلك التاريخ اختفت النسخة الأم ، وتمزّق الأصل ، بتمزق دار الإسلام . كل المحاولات التي بُذلت في هذا المجال ، انما هي محاولات لترميم تقرير ابن فضلان ، وترميم العالم الذي انبثق فيه .

المصادر والمراجع

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غويه (ليدن) ص٩

(٢) ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، جمع وترجمة وتقديم حيدر محمد غيبة (بيروت، الشركة العالمية للكتاب ، ١٩٩٤) ٣٤

(٣) شهاب الدين أبي عبد الله بن ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البلدان (بيروت، دار صادر ، ١٩٩٥) ١ :٨٨

(٤) راشد بن إسحاق الكاتب ، ديوان أبي حكيمة ، تحقيق محمد حسين الأعرجي ، (ألمانيا ، كولونيا ، دار الجمل ، ١٩٩٧) ص ٢٥-٢٦

(٥) معجم البلدان ١ :٨٨

(٦) م . ن . ١ : ٤٨٤

(٧) ابن النديم ، الفهرست ، تحقيق رضا تجدد (طهران ، ١٩٧١) ص ٣٦٣

(٨) عبد الفتاح كيليطو ، لسان آدم ، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي (الدار البيضاء ، دار توبقال ، ١٩٩٥) ص ٧٩

(٩) رسالة ابن فضلان ص ٢٣

(١٠) ينبغي الإشارة بكثير من التقدير إلى جهود كل من : كريكتون ، فراوس دولوس ، سامي الدهان ، وحيدر محمد غيبة الذي عرض تفصيلاً لهذه الجهود ، انظر الرسالة : ص ٧ – ٣٠

(١١) برنارد لويس ، اكتشاف المسلمين لأوربا – ترجمة ماهر عبد القادر . ص ٧١-٧٣

(١٢) م . ن . ص ٧٤، وأنظر:برنارد لويس،السياسة والحرب، ضمن كتاب" تراث الإسلام" تحرير شاخت وبوزوث، ترجمة
محمد السمهوري (الكويت،عالم المعرفة ، ١٩٧٨) ١ : ٢٥٧

(١٣) اكتشاف المسلمين لأوربا ص ٨٥

(١٤) رسالة ابن فضلان ص ٧٣

(١٥) أبو الإسحاق الاصطرخي ، مسالك الممالك (ليدن ، بريل ، ١٩٢٧) ص ٩

(١٦) ريجيس بلاشير ، أبو الطيب المتنبي ، ترجمة إبراهيم الكيلاني (دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٥) ص ٣٤٥

(١٧) دائرة المعرف الإسلامية (القاهرة ، دار الشعب) ١ :٣٦٤

(١٨) محمد أركون ، نزعة الأنسنة في الفكر العربي ، ترجمة هاشم صالح (لندن ، دار الساقي ، ١٩٩٧) ص ١٥٥

(١٩) موريس لومبار ، الإسلام في مجده الأول ، ترجمة إسماعيل العربي (المغرب ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٩٠) ص ٤٧

(٢٠) رسالة ابن فضلان ص ٤١

(٢١) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة (المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار) شرح طلال حرب (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢) ص ٣٧٥

(٢٢) رسالة ابن فضلان ص ٤٣

(٢٣) رحلة ابن بطوطة ص ٣٦٧

(٢٤) رسالة ابن فضلان ص ٤٥

(٢٥) م . ن . ص ٤٧

(٢٦) م . ن . ص ٤٨

(٢٧) م . ن . ص ٥٦

(٢٨) م . ن . ص ٥٦

(٢٩) المسالك والممالك ص ٢١٧ – ٢٢٧

(٣٠) رسالة ابن فضلان ص ٥٩

(٣١) أبو الفداء ، تقويم البلدان (باريس ، دار الطباعة السلطانية ، ١٨٤٠) ص ٢

(٣٢) بخصوص مكان يأجوج ومأجوج ، انظر : ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ص ١٩٢ – ١٩٨ وابن حوقل ، صورة الأرض ٢ : ٥٣٧ ، والاصطرخي ، مسالك الممالك ص٩،

ورحلات ماركو بولو ١ : ١٥، وابن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا ص ٢٠٨ ، ورسالة ابن فضلان ص ٧٠ ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ١ : ٨٧ – ٨٨ ، ورحلة ابن بطوطة ٦٣٥ – ٣٣٦ . وغير ذلك من مصادر الجغرافيا القديمة ،وقد أشرنا إلى ذلك في المقدمة .

(٣٣) رحلة ابن بطوطة ص ٣٥٠

(٣٤) أبو الحسن بن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت ، المكتب التجاري ، ١٩٧٠) ص ٢٠٦ – ٢٠٧

(٣٥) الاصطرخي ، المسالك والممالك ص ٢٢٦ ، وللتفصيل انظر : المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٩٨٨) ٢ : ٦٥ – ٦٦ و رحلات ماركو وبولو ١ : ١١٨ – ١٢٠

(٣٦) رسالة ابن فضلان ص ٦٩

(٣٧) م . ن . ص ٦٣

(٣٨) م . ن . ص ٧٨ – ٧٩

(٣٩) بدر الدين بن عبد الله الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم (القاهرة ، مكتبة دار التراث) ١ : ٤٦٤ – ٤٦٦

(٤٠) ماركو بولو، رحلات ماركو بولو ،ترجمة عبد العزيز جاويد (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥) ص ٢٢ .

(٤١) رسالة ابن فضلان ص ١٠٣

(٤٢) م . ن . ص ١٠١

(٤٣) م . ن . ص ١٠٤

(٤٤) أبو الريحان البيروني ، في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، تحقيق إدوارد سخاو (ليبزك ، ١٩٢٥) ص ١٠، ١١

(٤٥) رسالة ابن فضلان ص ١٤٨

(٤٦) رسالة ابن فضلان : ص ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٧٨ ، ١٦٧ ، ٢١٤ – ٢١٦

(٤٧) المرجع السابق

(٤٨) المرجع السابق

(٤٩) المرجع السابق

(٥٠) دائرة المعرف الإسلامية ١ : ٣٦٤

(٥١) رفاعة رافع الطهطاوي،الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣- ١٩٧٤) مج ١

(٥٢) معجم البلدان ١ : ٨٨

مدوّنة النصوص

إن النصوص التي تشكّل متن هذا الكتاب، رتّبت بحيث تقدم تصورا متكاملا عمّا يسمى حاليا (أوربا) فكانت البداية بالأوصاف الجغرافية التي تمثّل القاعدة الأساسية للمعلومات اللاحقة، ثم المعلومات التاريخية التي تضيء الخلفيات الخاصة بالشعوب،وصولا الى التفاصيل الدقيقة التي تكشفها الرحلات المباشرة، وهي رحلات تعرض معلومات وتصورات مهمة من النواحي الإقتصادية والبشرية والجغرافية، كما يتجلى ذلك عند الطرطوشي وابن فضلان وابي دلف وابن بطوطة والغرناطي وغيرهم.

ومن الواضح أن شرق أوربا وجنوبها، حيث يجاور الشمال دار الإسلام استأثر باهتمام واضح،فالأجزاء الغربية من بلاد الترك، وبلادالخزر والصقالبة والروم، يتردد ذكرها في معظم المصنفات الجغرافية والتاريخية الخاصة بهذه الناطق، وبدرجة أقل يتردد ذكر الروس والباشغرد والجلالقة، ثم تتضاءل الأخبار كلما اتجهنا إلى أقصى الشمال كالجزر البريطانية وايرلندة والبلاد الإسكندنافية حيث لايصل الاّ صدى الأساطير أحيانا، على أن هذه الحقيقة لا تحجب، بأي شكل من الأشكال أمرا على غاية من الأهمية، وهو أن المصنفات العربية في مجالي الجغرافيا والتاريخ تعتبر في كثير من تلك الأصقاع أول المدونات الموثوقة عن المظاهر الطبيعية والبشرية والثقافية والدينية فيها.

ويحسن أن نبدأ بابن ابن سعيد المغربي في كتابه المعروف بـ(الجغرافيا) الذي خصص لأقاليم العالم المعمور، وفيما يأتي القسم الخاص ببلاد الشمال، الذي يبدأ بالإقليم الخامس، والسادس ثم السابع، وأخيرا المجال الجغرافي الواقع ماوراء الأقليم الأخير الذي اصطلح عليه بـ (المعمور في شمالي الأقاليم السبعة) .وتلاحظ غزارة المعلومات وتشعّبها،وقد تم الاستغناء عن مقايس الطول والعرض الجغرافية التي تستخدم الدرجة والدقيقة، لعدم جدواها في سياق نص يعنى بالأبعاد الأثنوغرافية لبلاد الشمال.

(١)

الأقاليم الشمالية وشعوبها

ابن سعيد المغربي(٦٧٣هجرية=١٢٧٤ميلادية)

من كتاب (الجغرافيا)

الإقليم الخامس:

(بياض أهله ممتزج بالحمرة، وفيهم شقرة وزرقة في غالب الحال، ولا سيما فيا يلي الإقليم السادس.

الجزء الأول: أول ما يلقاك منه في البحر ثلاث جزائر من جزائر السعادات... وجزيرة قادوس، وهي صغيرة، وبينها وبين البر مجاز عرضه قليل. ومن ذلك المكان يأخذ البحر المحيط في الانحطاط إلى الغرب مع الشمال، فيكون مصب نهر اشبيلية وقرطبة قاعدة الأندلس في مدة بني أمية. وهي على غربي النهر الكبير الذي عليه اشبيلية. وهذا النهر إنما حسن جانباه عند اشبيلية، ويصعد المد فيه من البحر المحيط اثنين وسبعين ميلاً. وتصعد مراكب الفرنج إلى اشبيلية.. وفي جنوبيها جبل شلير الذي لا يفارقه الثلج.

وحكى ابن اليشع أنه نزل منه نيف على عشرين نهراً، منها نهر الذهب الذي يشق غرناطة ونهر مسيل الذي يمر مع سورها، وكلاهما عليه الأرجاء والبساتين. وهذه المدينة في عصرنا هي قاعدة ابن الأحمر(= دولة بني الأحمر) ملك من بقي من المسلمين في الأندلس. وطول مدينة جيان كطول غرناطة، ومدينة مرسية. وهي على شمالي نهر مليح عليه النواعير والبساتين، وهو آخر نهر اشبيلية الذي منبعه من جبل شقورة،، يخرج من عين واحدة فيشرق عن مرسيه وينصب في بحر الرمان، ويغرب نهر اشبيلية وينصب في البحر المحيط.

الجزء الثاني: أول مايلقاك منه، على بحر الرمان، مدينة دانية وفي شرقيها بلنسية المشهورة بالحسن، والتي تسمى بستان الأندلس. وهي على بحيرة ينصب فيها نهر على

شمالي المدينة، وفي شرقيها مدينة طرطوشة شرقي النهر الكبير الذي يمر على سرقسطة ومصبه في بحر الرمان على نحو عشرين ميلاً من طرطوشة. وفي شرقيها في بحر الرمان جزيرة مايرقة(=مايوركا) المشهورة بالخصب. ومسافة الجزيرة ستون ميلاً، وهي آخذة من الشمال إلى الجنوب. وبينها وبين بريونة مجرى وثلث، وفي شرقيها جزيرة منرقة(=ماينوركا).

ولم يبق في تلك الجزر للمسلمين غيرها، يديرها سعيد بن المحكم، المشهور بحسن السيرة. ومسافتها أربعون ميلاً من الشمال إلى الجنوب، بانحراف إلى الشرق، ومنها إلى الساحل ثلاث مجار. وفي غربي مايرقة جزيرة يابسة،، وهي آخذة من الغرب إلى الشرق، ومسافتها واحد وثلاثون ميلاً. وبينها وبين بلنسية مجرى، وفي شرقي منرقة جزيرة سردينيا،. وفي غربيها يخرج المرجان، والضيق بجهة مرسى الخزر مائة ميل وقليل. وفي شماليها جزيرة قرسقة(=كورسيكا) المقابلة لجنوة والمجاز الذي بينها وبين سردينيا نحو عشرة أميال. وفي شرقيها جزيرة صقلية المشهورة، ذات المدن والجبال والأنهار، وكانت قد صفت للمسلمين ثم صفت للفرنج،. وتقع قاعدة بلرم ، وهي على البحر. وتقع مسينة التي تقابل بر الإفرنج عند المجاز .وبها البركان المشهور في جزيرة صغيرة في جهة مسينة. وبينها وبين طرابلس ثلاث مجار، وبين ذنبها الغربي وحضرة تونس مجرى وستون دقيقة. وصقلية إلى الشرق، من الجنوب إلى الشمال عشرون ميلاً. وعند مسينة ميناء يقال إن الاسكندر قد صنعه نقراً في الحجر.

وفي شمالي صقلية بلاد قلورية (=كلاباريا) في آخر الجزء الثاني من الإقليم الخامس. وتقع مدينة نابل المشهورة بذلك الساحل، وبالقرب منها سلرن التي يجلب منها البندق الكبير.

وفي غربي نابل مدينة روما قاعدة البابا، وهي على جانبي نهر الطبر، وكان قد دعمت جوانبه لأنه ينهار، والمراكب تدخل إليه من البحر إلى ما بين الدكاكين، فيبتاع الناس ما يحتاجون إليه. وهو يأتي من جبل في شماليها، وهي كبيرة جداً، وفي وسطها حصن منيع في ربوة منقطعة. هكذا قال ابن فاطمة وهو المحقق.

وقال الخوارزمي: هي داخلة في الإقليم السادس. وفي غربيها بيس المشهورة، من فرض الإفرنج المترددين إلى بلاد الإسلام، وبينها وبين البحر أميال يشقها نهر موصوف بالحسن.

وفي غربيها مدينة جنوا المشهورة، وهي على غربي جون كبير. والبحر بينها وبين الأندلس، يدخل إلى الشمال فيضيق ما عليه من الإقليم السادس. وعلى جنوا جبل الانكبردية(=لومبارديا) وفيها يعمل الشرب ويصهر الذهب، ولها ميناء صنعه أهلها بالحجارة، وهو مستدير يرسي فيه الإنسان مركبه عند داره.

الجزء الثالث: أول ما يلقاك منه في بحر الزقاق، بلاد بولية التي يجلب منها الإفرنج الزيت إلى الاسكندرية وغيرها. ومن هنالك، البحر إلى جزيرة اقريطش(=كريت) المشهورة، التي فتحها المسلمون، أهل رياض قرطبة في مدة المأمون، وملكوها مدة. ثم استرجعها الخرايطة، فهي الآن في أيديهم، وطولها ثلاثمائة وخمسون ميلاً من الغرب إلى الشرق، ويجلب منها إلى الاسكندرية الجبن والعسل. وفي شرقيها جزيرة رودس التي كان معاوية قد فتحها، وجعل فيها رابطة يغزو منها خليج القسطنطينية ثم عَقَّل عنهم بريد العطاء، فهربوا إلى الشام، وجلوا عنها فملكها الروم. وهي الآن من جزائر الخرايطة. وطول هذه الجزيرة بانحراف من الشمال إلى الجنوب، نحو خمسين ميلاً، والعرض نصفها. وبينها وبين بر الخرايطة من جهة مدينتها، نحو خمسة عشر ميلاً. وبينها وبين ذنب اقريطش مجرى، واقريطش في الغرب بجنوب. وبين رودس وأنطاكيا ثلاث مجار.

وفي شرقها جزيرة قبرص التي فتحها المسلمون في مدة معاوية، ومدينتها في وسطها. وطول هذه الجزيرة من غرب إلى شرق مائتا ميل، ولها ذنب دقيق ينظر إلى الشرق إلى ساحل الشام، وعرضها الواسع مائة ميل والضيق أميال. وبين الجزيرة وبر الكرك من بلاد سيس نصف مجرى، ومنها يجلب اللاك وهو صمغ. وذكر البكري أن فيها معدن النحاس.(= لم تذكر الأجزاء الأخرى من الأقليم الخامس لأنها غير ذات صلة ببلاد الشمال)

الإقليم السادس:

أهلهم يشتد بياضهم حتى يسري ذلك في شعورهم، وتعمهم الزرقة والشقرة، وكثيراً ما

يكون بينهم النمش، ولا تتمشى لهم حال في الشتاء إلا بالبخارات التي يوقدون فيها النار في بيوتهم، وذلك أزْيَد فيما بعده إلى الشمال.

الجزء الأول: أول ما يلقاك منه على البحر المحيط كنيسة الغراب المشهورة عند أهل البحر(= كنيسة الرأس المقدّس). وبينها وبين طرف العرف ...سبعة أميال، والطول هنالك من سمت الجزائر الخالدات ست درجات. ومنها إلى حيث نهر أبو دانس، أربعون ميلاً. وعليه القصر المنسوب إليه، كان لعباد الصليب عليه في عصرنا مع المسلمين حرب مشهورة، وكان آخر ثغور الإسلام بتلك الجهة، ومنه إلى مصب نهر لشبونة الكبير أربعون ميلاً، ومن البحر إلى لشبونة ثلاثون ميلاً، وهي على جانب النهر الجنوبي، وأمامها في الشمال بحيرة مالحة، وفي غربيها أخرى.

وذكر المسافرون أن عرض مصب النهر يتسع إلى أن يصير عشرة أميال. وفي شمالي هذا المصب على ثلاثين ميلاً، مدينة سنتره التي يوجد العشب كثيراً في ساحلها، وهي كانت قاصية ثغور الإسلام على الساحل قبل الفتنة العمياء. وفي شماليها طرف جبل الشارة الكبير الذي يقسم الأندلس صفيْن. وفي شماليه مدينة منتمنون من بلاد غليسية التي يخرج منها البركان، وهي على شمالي نهر ينصب من الجبل المذكور في المحيط. وفي شمالي ذلك مصب نهر قلمرية، وعلى شماليه مدينة سملنكه المشهورة بأرض بورتقال، وهي آخر عرض الإقليم السادس. وبينها وبين مدينة قلمرية قاعدة غليسية مرحلتان، وهي في شرقيها. وعلى شمالي النهر، وعلى جبل الشارة الممتد من شرق الأندلس إلى غربيها، حصون كثيرة معجمة، منها في هذا الجزء حصن المائدة الذي يقال ان مائدة سليمان عليه السلام كانت محفوظة فيه. ومنه أخذها طارق بن زياد حين فتح طليطلة، وبينهما مرحلتان، والحصن في الشمال. وعلى جنوبي جبل الشارة مدينة قورية، وهي كانت ثغر المسلمين في مدة ملوك الطوائف.. وفي جنوبيها وجنوب نهر طليطلة، مدينة شونترين. وفي سمتها في الشرق على جنوبي النهر، حصن قنطرة السيف، بينهما ثمانون ميلاً. وفي شرقي ذلك على شمالي النهر مدينة وليد، وهي من المدن الملاح التي يحل بها الفنش في

أكثر أوقاته، وهي كثيرة البساتين، ولها ثلاثة أنهار غير النهر الكبير. وفي شرقيها قاعدة الأندلس طليطلة، وهي من أمنع البلاد على جبل عال، والنهر يمر بأكثرها، ونهرها ينزل من جبل الشارة عند حصن يقال له تاجة وبها يسمى.

ودخل المسلمون جزيرة الأندلس وسلطانها من القوط يقال له رودريق وقاعدته طليطلة، واسترجعها النصارى بعد ذهاب الدول المروانية. وفي شرقي نهر تاجة، منبع نهر يانه، الذي يمر على بطلميوس. وهو كبير يصعد فيه المد نحو ستين ميلاً في آخر عرض الإقليم السادس. وعلى نهر سنترة مدينة أبلة، وهي مشهورة في الغزوات. وفي شرقي طليطلة مدينة الفرح، ويقال لنهرها وادي الحجارة. وفي شرقيها مدينة سالم، قاعدة الثغر الأوسط.

الجزء الثاني: أول ما يلقاك منه منبع نهر شوكر، من جبل الشارة. وهو الذي يمر على جزيرة سومر المشهورة بالحسن، وينصب في البحر بين بالونيه ودانية. وعن قرب منه، منبع نهر سرقسطة الكبير، الذي يمر أولاً على جبل مطله ثم جنوبي سرقسطة، ثم على غربي طرطوشة، وينصب في البحر تحتها. وتقع مدينة تطيلة في جنوبي جبل الشارة.وتقع سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى،. وفي شرقيها مدينة لاردة قاصية ثغور الأندلس. وهي على شرقي نهر ينزل في نهر سرقسطة.

وفي شرقيها جبل ألبرت(=البيرانس) الفاصل بين جزيرة الأندلس وبين الأرض الكبيرة. ولما أحاطت البحار بالأندلس، ولم يبق إلا هذا المدخل ومسافته أربعة مراحل، سميت جزيرة. وفي هذا الجبل الأبواب التي حفرتها ملكة اليونان ليسهل دخولها إلى الأندلس. وفي وسط الجبل هيكل الزهرة الذي كان يعبده أهل تلك الجبال قبل النصرانية. وفي طرف هذا الجبل مع بحر الزقاق، طرقونة، وهي آخر مدن الأندلس الساحلية بشرقيها وجنوبيها.وفي الطرف الشمالي من أقصى الأندلس، المقابل لطرف طرقونة على البحر المحيط، مدينة بيونية، وهي فرضة مملكة النبري ومنها تخرج القراقر. وفي غربيها خلف جبل الشارة، قاعدة النبري، وهي ينبلون. وفي غربيها، في سمت العرض كستالية، وهي مدينة برغش، وهي دار صناعة السلاح المعمول في بلاد الفنش. وخارج بلاد الأندلس، مدينة

برشلونة قاعدة البرشلوني ملك الكطالين، وهو منتسب إلى جبلة بن الأيهم، ملك غسان المنتصر في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهي على بحر الزقاق ولها مياه وبساتين، وكانت من فتوح المسلمين فاسترجعها المليون. وفي شرقيها قستليون وهي معقل القراصنة. وفي شمالي برشلونة، مدينة بردال(=بورديو)، التي تنسب إليها السيوف البردالية، وهي على شرقي بحيرة حلوة ينصب فيها نهر وتنصب هي في البحر. وفي شرقي بردال مدينة طلوزة(=تولوز). ويقال ان لصاحبها الفرنجي، في الجبال التي في شماليه وشرقيه، نيف على ألف حصن، وهو قريب من صاحب فرنسة. والنهر في جنوبيها تصعد منه المراكب في البحر المحيط بالقزدير والنحاس اللذان يجلبان من جزيرة انكلترة وجزيرة ايرلندة، ويحملان على الظهر إلى نربونة، ومنها يحملان في مراكب إلى الاسكندرية. وتقع مدينة نربونة. وفي جنوبيها بحيرة تتصل ببحر الزقاق وإليها انتهى موسى بن نصير في فتوح الأندلس ووجد الصنم في شرقيها، وفيه: يا بني اسماعيل، ارجعوا. وقيل إن ذلك وقع بحيلة من الجند ليرجع، فرجع، وبقيت نربونة أقصى ثغور المسلمين في شرق الأندلس حتى استرجعها الفرنج بالفتن. وفي شرقيها على أميال من جون، مدينة منبلير(=مونتبيليه) وهي مشهورة بالتجار الأغنياء. وإلى الجنوب مدينة مرسيلية، وهي من فرض الفرنج المترددين على بلاد الإسلام.. وفي شرقيها الانكبردية(=لومبارديا) والجبال تحدق بها إلى حد جنوة. وهي مدن وعماير تخترقها أنهار تسير فيها المراكب بالقلوع. وقاعدتها مدينة مِلان(=ميلانو) .وفي شرقيها مدينة البندقية على آخر خليج البنادقة. وهي في جزيرة، ومبانيها بالخشب والزوارق تتردد فيها من دار إلى دار، ومركب الإنسان يرسو عند داره. وليس لهم مكان يمشون فيه إلا البساط الذي فيه سوق الصرف، صنعوه لراحتهم إذا احتاجوا للمشي. وملكهم من أنفسهم يقال له الدُّج (=الدوق). وفي نهر من أنهار أرضه، الذهب المائل للخضرة. وعنده الأخشاب الكثيرة العظيمة. وعلى شط بحر البندقية جبل اشكفونية(=اسكلفونيا) فيه الأخشاب والسناقر والرجال الشجعان الذين يغلب بهم في البحر أهل جنوة. ولهم جزائر كثيرة صغار في هذا الجزء وفي الذي يليه. وعلى شط بحرها عماير كثيرة لعباد الصليب.

وفي جنوبي هذا البحر مدينة روما؛ قاعدة البابا؛ على مذهب الخوارزمي .وتقع في الجزء مدينة لوشيرة، التي أسكن الأنبرور فيها المسلمين الذين أخرجهم من صقلية.

الجزء الثالث : أول ما يلقاك منه، على شمالي خليج البنادق، مدينة سبينقو، وهي للهنكر، وهم ترك على دين النصرانية. وإليها انتهى التتر، فأجمع عليهم بها الهنكر والباشقر والألمانيون، وكسروهم كسرة أيأستهم من العودة إلى تلك البلاد. وفي غربي هذه المدينة على الخليج، جبل اشكفونية،. وفي أول الخليج من الجهة الجنوبية برنديس، وهي من الجانب الغربي على فم الخليج، وهو ضيق هنالك ثم يتسع بعد هذه المدينة إلى نحو مجرى ونصف، ولا يزال إلى آخره دائراً على ذلك. وبرنديس مشهورة عند أهل البحر.

وعلى شمالي الخليج مدينة أثينة، وهي مدينة أرسطو الحكيم وإليها يبلغ سلطان الأشكري صاحب القسطنطينية. وفي شماليها وغربيها مدينة برشان(= برجان،على البحر الأسود،قرب مصب نهر الدنيبر) كانت قاعدة لأمة استولى عليهم الألمانيون ولم يبقوا لهم ذكراً. ومن هذه المدينة إلى القسطنطينية، من البلاد التي يسكنها الخرايطة، وهم بقايا الإغريقيين، عدد كبير، وهي معجمة خاملة عند المسلمين. وفي هذا الجزء تقع جزيرة لمريا وتعرف بالكتب بجزيرة بيلوبنس. وفيها مدن وعمائر، وهي أكبر الجزائر الرومانية. ودورها على التحقيق سبعمائة ميل، وفيها أجوان وتعريجات وفم إلى البر عرضه أميال عليه من جهة الغرب والجنوب مدينة كوريت(=كورينثا)، وفي وسطها مدينة لمريا وبها يكون صاحب الجزيرة. وبين هذه الجزيرة وجزيرة اقريطش، المجاز الذي يدخل منه إلى الجزائر الرومانية الكثيرة، وقدره ستون ميلاً ولا بد منه للدخول إليها.

وفي شمال هذه الجزيرة، بجزيرة النغريب، وهي من أكبر الجزائر الرومانية. طولها من الغرب إلى الشرق بانحراف إلى الجنوب، مائة وخمسون ميلاً، وعرضها من عشرين ميلاً إلى نحو ذلك، وهي مشهورة بخروج السفن والقطائع منها. وفي شرقيها من الجزائر الرومانية جزيرة المصطكي، ومنها يجلب إلى الأقطار وهو صمغ شجر، وطولها من شمال إلى جنوب نحو ستين ميلاً. وبينها وبين النغريب نحو ثلاثين ميلاً، وفي شماليها خليج القسطنطينية.

وعلى شرقيه مدينة أبزو، وبها يعرف فم ابزو، وهي للخرايطة، وهم النصارى الذين لا يحلقون لحاهم. وعرض هذا الخليج رمية سهم، وطوله كذلك من بحر الزقاق إلى مدينة أبزو نحو خمسين ميلاً، ثم يأخذ في الاتساع إلى أن يكون بعد ثلاثين ميلاً منها بحيث يقارب ستين ميلاً، فيمر كذلك نحو مجرى، وعليه مدن الخرايطة التي في طاعة صاحب القسطنطينية، التي بناها قسطنطين واضع دين النصارى. وكان مكانها مروج في أرض ملك البرشان، فطلب منه أن يرفع خيله. ثم انه لما انقطعت أخباره بالأمطار والأوحال، بنى هذه المدينة وصيّرها قاعدة القياصرة، فلم يقدر ملك البرشان عليه، ثم فنى البرشان.

والقسطنطينية آخر الإقليم السادس، والبحر من جوانبها الثلاثة، وإنما البر من الجهة الغربية. ويمر عنوة الخليج الضيق، فيمتد نحو ثمانين ميلاً يكون في آخره مدينة نيقومديّة، وهي كانت قاعدة الإغريقيين. وفي جنوبيها من البلاد المشهورة عند أهل تلك البلاد، مدينة أسمرة على دخلة من البحر. وفي جنوبيها على دخلة من البحر مدينة الالية، وهي من مدن الحكماء المذكورة في كتبهم. وفي شرقي هذه البلاد جبال التركمان وبلادهم. وهم خلق كثير من نسل الترك الذين فتحوا بلاد الروم في مدة السلجوقيين، وقد مرنوا على الغارة على سكان الساحل من الخرايطة وأخذ أولادهم وبيعهم إلى المسلمين، وما يصدهم عنهم إلا عضد الهدنة وقهر السلطان. وعندهم تعمل البسط التركمانية المجلوبة إلى البلاد. وبساحلهم جون يقال له جون مقري، وهو مشهور عند المسافرين، يجلب منه الخشب إلى الاسكندرية وغيرها. وينصب فيه نهر البطال(=نسبة للبطل الشعبي الذي تصوره سيرة الأميرة ذات الهمة)، وهو عميق وعليه جسر، إذا كانت الهدنة نصب وإذا وقعت الحرب رفع، وهو حد بين المسلمين والنصارى. والبطال الذي ينسب إليه، هو الذي كان يكثر من غزو الروم في دولة بني أمية، والمذكور إسمه في كتب السمر، وهنالك قبرة. وفي شمالي أنطاكية المتقدمة الذكر جبال طغورله، يقال ان فيها وفي جهاتها، نحو مائتي ألف بيت للتركمان، وهم الذين يقال لهم الأوج. وهنالك مدينة طغورله، وبينها وبين قلعة خياص التي تعمل فيها القسي الملاح فرسخان. وجبال التركمان متصلة من باب طغورله، بملك

الأشكري صاحب القسطنطينية. وبين طغورله وبين الجسر في غربيها، ثلاثون ميلاً. وفي شرقي ذلك نهر هرقلة ينزل من جبل العلايا إلى آخر سنوب، وعليه هرقلة قرب البحر، وهي التي خربها الرشيد. وفي شرقيها جبل الكهف عند الروم، ويقال أن فيه الكهف هنالك، وذلك مذكور في تاريخ الواقق، حين أرسل من يقف على الأمر من صاحب القسطنطينية. ومن شرقي ذلك، المروج المشهورة التي كان المعتصم حريصاً على أن يرتع خيله فيها من العراق. وهنالك عيون كبيرة، وتسمي الروم ذلك المكان قرنبك.

وفي تلك الجهة مدينة أنكورية (= أنقرة)، ويقال انها عمورية التي فتحها المعتصم، وهي الآن للمسلمين. وهي على نهر كبير يمر من غربيها. وفي جهاتها جبال، فيها نحو ثلاثين ألف بين للتركمان. وفي غربي أنكورية على ثمانية فراسخ، مدينة سلطان بولي، والطريق بينهما مزارع وعيون. وفي هذه المدينة حمامين ماؤهما كمياه الحامة لا تحتاج إلى تسخين، وهو جار على الدوام، شديد الحرارة. ومن أنكورية إلى قاعدة البلاد مدينة قونية أربعة أيام، ولها نهر ينزل من الجبل الذي في جنوبيها، ويسقيها من جهة غربيها، فتكون عليه بحيرة ومروج. والجبال دائرة بها من كل جهة، وتبعد عنها من جهة الشمال. وعلى بابها الناظر إلى الشمال صورة الحكيم الذي أمر بوضعها هنالك، تشير إلى جهة الشمال، كأنها تقول: الجبال هنا بعيدة، فما عليكم منها ضرر. ومبانيها بالطين وتبيض دور الرؤساء والأغنياء. وفي ديار الملوك والأكابر ألواح الرخام الأبيض، والليمون والأعناب والفواكه فيها وفي غيرها من بلاد الروم كثيرة. ويجلب الفستق الكبير الطيب من بعض جهاتها. وهناك المشمش الكبير المعروف بقمر الدين، وهو لوزي مفضل على مشمش دمشق.

وسلطانها من نسل السلجوقية، وهم ترك آمنوا وملكوا من بلاد تركستان إلى بحر الشام، وفتحوا هذه البلاد المعروفة الآن ببلاد الروم. ويقال لهذا السلطان صاحب القبة والطير، وهو اليوم مدار للتتر بالأموال وبلاده داخلة في بلادهم. ويقال ان سلطنته تحتوي على أربع وعشرين مدينة من المدن الكبار، وفيها الولاة والقضاة فأصحاب الأعمال والجوامع والبزازون والحمامات. وأما الضياع فيقال انها أربعمائة ألف ضيعة، منها ست وثلاثون ألفاً قد

خربت. وبها معادن الفضة لا يزال عمالها، وفيها معادن الحديد. وفي شرقي قونية، أقشار، وهي أطول من قونية بدرجة ونصف. وقونية أعرض بربع درجة. وهذه المدينة من المدن الملاح الكثيرة السكان والمياه. وأكثر ما فيها التفاح المخضب المليح، والكمثرى الكبيرة، والسفرجل المفضل والخوخ العالي.

وفي شرقيها مدينة أقصرا، التي تعمل فيها البسط الملاح، وهي في عرض أقشار وأطول منها بدرجة، وهي كثيرة الفواكه أيضاً تحمل على العجل إلى قونية في بسيط كله مزارع وأودية. ويقول أهل تلك البلاد أن مسافة هذه الطريق ثمانية وأربعون فرسخاً، وكذلك من أقصرا إلى مدينة قيصرية. وهي منسوبة إلى قيصر وتسمى في عصرنا قيسارية، وهي مدينة جليلة يحلها سلطان البلاد، ويتنقل منها إلى قونية ومن قونية إليها. والطريق الذي بينها وبين أقصرا كله مزارع وأودية في بسيط تسير فيه العجل بالبقر.

وفي شرقي قيصرية مدينة سيواس، وهي من أمهات مدن البلاد مشهورة عند التجار. وهي في بسيط. ويقول المسافرون بتلك البلاد المنقطعون على هذه الطريق، أنهم يجدون فيها أربعة وعشرين خاناً فيها كل ما يحتاجون إليه، ولا سيما في أيام الثلوج. وفي شرقيها مدينة أرز الروم، وهي آخر بلاد الدروب من جهة الشرق. وفي شرقيها وشماليها منبع الفرات من عيون ومروج وغياض وبنفسج. ويقول أهل تلك البلاد إن أرز الروم من أعالي الأرض. وغالى بعضهم حتى قال إنها أعلى من جميع الأرض بأربعين ذراعاً. وفيها عين عظيمة يخرج منها قسمان، فقسم هو الفرات، وقسم يمر إلى المشرق وهو النهر الكبير الذي ينصب في بحر الباب. وحول تلك العين الكبيرة، عيون كثيرة، وهي ينبت فيما بينها البنفسج.

وذكر ابن فاطمة أن الفرات يأتيه نهر يمده من جبل، ومن هنا جعل بطليموس منبع الفرات. ومن الجبل المذكور منبع نهر أراس، الذي يشق بلاد أذربيجان وينصب نحو الباب. ويقول أهل الروم إن بين سيواس وأرز الروم مدينة أرزنكان المشهورة، وبينها وبين كل واحدة منهما ستون فرسخا .والطريق التي بين أرز الروم وأرزنكان، كلها عيون ومزارع وأودية

وبسائط. قالوا: والمسافرين يحملون بضائعهم من توريز (=تبريز) في العجل، وتجرها البقر إلى قونية، في تلك المسافة الطويلة وهي نحو أربعين يوماً. وفي جنوب النهر الذي يمد الفرات من المشرق تقع مدينة شروان وهي قاعدة لبلادها، وجبالها المضافة إلى سلطنة أذربيجان.

قال ابن فاطمة: وفي هذا الجزء يقع نهر الكر الكبير، الذي يشق بلاد أران وينصب في بحر طبرستان. وأصله من عين. وعليه قاعدة الكرخ مدينة تفليس، وهي من جانبه. وكان المسلمون قد فتحوها وسكنوها مدة طويلة، وخرج منها علماء، ثم استرجعها الكرخ وهم نصارى يعرفهم أهل ملتهم، ويقال لبلادهم الأبخاز. وقبل الأبخاز، قلعة لملكهم في الجبل الطويل الذي لا يرام. وفي شرقيها على جنوبي النهر من مدن أران المذكورة في الكتب، شمكور. وفي شرقيها من مدن أران المذكورة بالنسبة إليها، مدينة خنزة، وهلي على حنوبي نهر الكر، عبث فيها التتر شر العبث.

الجزء الخامس: أول ما يلقاك منه مدينة برذعة قاعدة سلطنة أران، وهي في جزيرة بين نهرين يخرجان من نهر الكر.. وهي بين نهر أراس ونهر الكر. وبين النهرين بطول، أرض الجزيرة وفيها التوت الكثير. وأهلها مشغوفون بالجميز، فيحمل منها إلى الأقطار. وفي شمالي نهر الكر مدينة نقجوان وهي من المدن المذكورة في شرقي أران، فخربها التتر، وقتلوا جميع أهلها. وفي شرقيها وشماليها مدينة الباب، قاعدة سلطنة الباب، وهي ثلاث قطع على نهر أتِل الكبير(=الفولغا) عند مصبه في بحر طبرستان(=قزوين). فالقطعة الجنوبية كانت للمسلمين، والقطعة الشمالية كانت لليهود والنصارى والمجوس، والقطعة التي في الجزيرة كانت لخاقان الخزر، وكان يهودياً، ثم خربها الروس، وأزالوا سلطنة الخزر منها. وعمرت بعد ذلك بالمسلمين، فخربها التتر. وفي شرقيها في بحر طبرستان جزيرة الباب، وهي كثيرة المروج يرعى فيها أهل الباب مواشيهم. وفي شرقيها جزيرة البركان، فيها جبل لا تبرح النار تتقد فيه بالليل والنهار، ويصعد منه الدخان مثل بركان صقلية وبركان الهند. ويقال أن نفط الطيار الذي عند الملوك يوجد في هذه الجزيرة. وفي شماليها جزيرة شياكو،

وهي التي دخل إليها، لما فرّ قدام التتر، خوارزم شاه علاء الدين، فعلت في المركب قبل الوصول إليها.

وفي شرقي بحر طبرستان جبل شياكو، وهو يستغرق عرض الإقليم السادس، وعرض الإقليم السابع، ثم يدور مع البحر إلى شمال مدينة الباب، وهو لا خير فيه ولا شر. وفي شرقيه مجالات العربة من أجناس الترك إلى جوانب بحيرة خوارزم. وهذه البحيرة ينصب فيها نهر جيحون في هذا الجزء، وينصب فيها نهر سيحون في الإقليم السابع. وبعد هذا لا يطيب ماؤها ولا ينفذ إليها التجار، وقيل أن دورها ستمائة ميل. وقال ابن فاطمة، وهو التحقيق، وطرفها المشرقي مع آخر الجزء السابع.

الجزء السادس: أول ما يلقاك منه، مدينة خوارزم، هكذا يعرفها عامة العجم، وهو اسمها في الكتب الجرجانية. وهي على جانبي جيحون، ولها بين جيحون وسيحون مدن وعماير معجمة. ويستغرق هذا الجزء، ويمر فيه نهر سيحون. وفي شرقيه نهر الشاش، ينزل من جبل في أول عرض الإقليم السابع، ويستغرق عرض هذا الجزء ويمر من سمته في الإقليم الخامس، حتى ينصب في نهر سيحون. وعليه عمائر الشاش الكثيرة ذات البساتين والمياه، وهي معجمة خاملة، وليس في شرقي ذلك كله مدينة مشهورة، ومعظم تلك الأراضي مجالات للتركمان. وفي آخر الجزء من الركن الشمالي، يلتوي نهر سيحون إلى الجنوب، وإلى الغرب.

الجزء السابع: كله خالٍ من مدينة مشهورة. وفي آخر عرضه يمر سيحون، وعليه مجالات التركمان، وفي شرقيه بلاد التبت.

الجزء الثامن: أول ما يلقاك منه، جبال السهروجية، وهم قوم توالدوا بين القشمير والترك. ومدينة سهروج قاعدتهم، تحدق بها بحيرة حلوة من عيون تفور في داخلها. وفي شرقي هذه البحيرة، بحيرة خرمان، يتربع حولها طوائف من الترك ووسطها، ويمتد من شرقها جبل فرغان، وهو عال طويل من المغرب إلى المشرق وهو مشهور عند الترك.

الجزء التاسع: يمتد فيه الجبل المذكور ثم يمتد باستدارة حول بحيرة البليعة، التي تبتلع كل

ما وقع فيها. وفي شرقيها الجبل الأحمر، ويقال له جبل الجرذان، لأنه يخرج من أثقابه جرذان يتنافس في لباس جلودها ملوك تلك الجهات. وفي شرقي ذلك مدنية بغبورية، من مدن أذْكش، من أجناس التركة. وهي كبيرة. ويمر في شرقيها نهر، وفي شرقيه وجنوبيه أذكشية، وهي قاعدة أذكش المقاربين لسد يأجوج ومأجوج.

الجزء العاشر: أول ما يلقاك منه سد يأجوج ومأجوج، الذي بناه ذو القرنين، بين الجبلين. وفي شرقيه بلادهم، ومعظمها على نهر يأجوج الكبير. وعند قرب مصبه في البحر المحيط على جنوبيه مدينة يأجوج. وفي شرقيها وجنوبيها مع مدينة مأجوج، على شمالي نهرهم. وفي شرقي المدينتين البحر المحيط، الذي لا معمور فيه.

الإقليم السابع:

الجزء الأول: أول ما يلقاك منه على البحر المحيط(=المحيط الطلسي) مصب نهر سموره الكبير. وتقع سمورة قاعدة غليسية وأكبر مدائن الفنش، في جزيرة بين فرعين من هذا النهر، ولها ذكر في غزوات الناصر المرواني والمنصور بن أبي عامر. وكان المسلمون قد ملكوها، ثم استرجعها النصارى بالفتنة. وفي شماليها بانحراف للشرق مدينة ليون المنيعة، التي خرب سورها العظيم المنصور بن أبي عامر، وهي على نهر ينصب في سمورة.

وفي الشمال والغرب شنت ياقو(=سانت ياغو)، فيها ياقو الحواريُّ، ولها شأن عظيم عند النصارى، وهي على البحر المحيط، وحولها أنهار تنزل من جبل الفخيرة في شرقيها. ويقع في هذا الجزء على بحر بريطانيا(إقليم برتاني الفرنسي) الداخلة إلى المشرق من البحر المحيط، مدينة شنترين. وهي من قرى غليسية المشهورة التي تخرج منها القراقر. وفي شرقيها لرمد، وهي من فرض قنسالة التي تخرج منها المراكب القراقر. وفي شرقيها من فرض قنسالة، أُردالس، وفي شرقيها على مرحلة منها منتهى خليج بريطانيا. وتبقى بينه وبين البحر المحيط قدر مرحلة.

الجزء الثاني: أول ما يلقاك منه مدينة سنسبين(=سانت سيبستيان)، وهي كثيرة القراقر في دخلة على البحر المحيط، وفي شرقيها ساحل، ثم يدخل البحر المحيط إلى الإقليم

السادس. ويرجع الإقليم السابع، فتكون على ساحله بلاد بيطو، وسكانها أحرار الفرنج، ومنها تُختار الملوك لفرنسة إذا عدموا في فرنسة. وهي عادة متوالية. وفي شمالي بيطو، مصب نهر سِن(=السين). وفي وسط هذا النهر وجانبه، مدينة بريس(=باريس) قاعدة فرنسة. وهي ثلاث قطع فالوسط الذي في الجزيرة لفرنسيس، سلطان الفرنج. والجنوبية للجند، والشمالية لسائر تجارهم ورعيتهم. وهذا النهر ينزل من جبل دنبوس الكبير، ويقال له في الشمال جبل مليحة. ومن شرقيه منبع نهر دنبوس، الذي يقال إنه أكبر من النيل ومن جيحون، وهو مشهور بنهر دنوبا(= الدانوب)، ويسميه الترك طنا. وعلى جانبيه في جزيرة إلى مصبه في بحر القسطنطينية(=البحرالأسود) كثير من المدن والعمائر إلا أنها معجمة الأسماء خاملة الذكر عندنا.

وفي جنوبي هذا النهر وشماليه، بلاد ألمانية الطويلة التي يقال ان فيها أربعين ملكاً، وسلطانها هو المعروف بالامبراطور، ومعناه ملك الملوك، والعامة تقول الأنبرور. وقاعدتها القديمة المذكورة في الكتب بيصة، . وفي شماليها جبل الخرواسيا الكبير(= كرواتيا)، وهو يتصل بجبال لومبرديه وجبال اسكفونية، وعليه كثير من المعامل والحصون، وينصب منه كثير من الأنهار التي أسماؤها خاملة عندنا.

وفي شمالي هذا الجبل مدينة سيقلو، تصنع فيها السيوف الألمانية المشهورة، ولها معدن حديد يجلب منها. ويقال انه في مكان فيه، معدن حديد مسموم تصنع منه سيوف وخناجر، لا يُبيح الملوك اكتشافها لغيرهم. وفي شرقيها وسمت عرضها مدينة بقصين وهي مخصوصة بعلمائها وحكمائها.

الجزء الثالث: أول ما يلقاك منه بلاد الباشقرد. وهم ترك، جاوروا الألمانيين على عهد متوارث. وهم مسلمون من جهة فقيه تركماني بصّرهم بشرائع الإسلام. وأكثر عمائرهم على نهر دنوبا الكبير، وعلى جنوبيه قاعدتهم. وهي مما دخله التتر وخربوه وأهلكوا أهله. وفي شرقيها، بلاد الهنقر(= المجر)، وهم ترك أخوة الباشقرد، تنصروا بمجاورة الألمانيين، ولهم مدائن وعمائر على النهر الكبير مستعجمة. وقاعدتهم مدينة ترنبو، وهذه أيضاً مما

دخله التتر. وفي شرقيهم مدائن وعمائر كثيرة داخلة في مملكة الأشكري، صاحب القسطنطينية معجمة الأسماء إلى حد بحرها. وعلى البحر إلى آخر الجزء الثالث ساحل الدروب، وهو للنصارى، وأشهر ما هنالك زاغن وهو حصن على البحر، وعلى مصب نهر البطال، وتسميه الروم الآن نهر زاغن.

الجزء الرابع: أول ما يلقاك منه مدينة هرقلة القديمة، التي خربها الرشيد. وعلى شرقي النهر الذي ينزل من جبل العلايا، نهر الحور، لما عليه من شجره. وفي شرقيها من فرض الروم المشهورة مدينة كستيمونية وهي للمسلمين. ويقال ان في جهاتها مائة ألف بيت للتركمان، والخيل والأكاديش والبغال والممالك تجلب من عندهم. وبينها وبين سنوب الفرضة المشهورة في شرقيها، التي في بحرها أسطول سلطان قونية،وفي شرقيها بميلة إلى الجنوب، مدينة أماسيا من مدن الحكماء، وهي مشهورة بالحسن، وبكثرة المياه والكروم والبساتين، وبينها وبين سنوب ستة أيام. والطريق إليها في جبال الصنوبر، كلها أخشاب ومياه تنحدر من هذه الجبال بقطع أخشاب الإنشاء لدار صناعة سنوب. ونهر أماسيا يمر على مدينة أماسيا، وينصب في بحر سنوب. وفي شرقيه سيمسون من فرض الروم المشهورة، يشقها نهر عليه أرجاء كثيرة.. وفي شرقيها تمتد من غرب إلى شرق، ومع ساحل البحر جبال جاتيك، فيها قوم عصاة حفاة، يدينون بالنصرانية. وفي جنوبي هذه الجبال، أرز الروم، التي تقدم ذكرها في الإقليم السادس.

ومن أماسيا التي تقدم ذكرها، إلى مدينة نيكسار في الجنوب والشرق، ثمانية فراسخ، كلها جبال ذات أخشاب، وعيون جارية وأودية. ومن نيكسار إلى كمنة ثمان فراسخ. ومن كمنة إلى تُقات، وهي من بلاد سلطان الدروب المشهورة، خمس فراسخ. ومن هذه القلعة إلى سيواس التي تقدم ذكرها، ست فراسخ. وفي شرقي جبال جاتيك على نهر سينوب مدينة أطرابزند، وهي فرضة مشهورة يقصدها طوائف العجم لأسواقها من الأقطار، وأكثر سكانها من الكبكز. وفي جنوبيها ممتد إلى الشرق جبل الكبكز الكبير، ويقال له جبل الألسن لكثرة ما فيه من اللغات، وهو جبل متصل بجبل الباب. ومعظم الكبكز(=القوقاز)

مسلمون يحجون، وفيهم نصارى. وموضوع مدينتهم أطرابزند، على البحر. وفي شرقيها مدينة الكسا، وهم جنس من الترك تنصروا وتمدنوا. وموضوعها على البحر، وفي شرقيها مدينة أذكشية، يسكنها قوم من الأذكش، وهم من أجناس الترك تبصّروا بالمجاورة. وهي على البحر. وفي شرقيها على البحر(=الأسود) الأبخاز، وهي فرضة الكرج(=الجورجيون) وهم نصارى. وفي شرقيها على البحر علانية، وهي مدينة يسكنها قوم من العلان(=الّلان)، وهم ترك تنصروا. والعلان خلق كثير في تلك الجهة، وخلف باب الأبواب. ويجاورهم قوم من الترك، يقال لهم الأس وعلى منزعهم وعلى دينهم. وفي شرقي علانية على جون في آخر منتهى بحر سينوب مدينة خزرية، وهي منسوبة إلى الذين أفناهم الروس. وقد يسمى هذا البحر ببحر الخزر(=قزوين) نسبة لها،، وهي على نهر ينصب في البحر من جهة شماليها.

الجزء الخامس: أول ما يلقاك منه جبل القبق(=جبال القوقاز) وفيه، حيث يمكن التولج منه إلى الشمال، السور الذي بناه أنو شروان ملك الفرس، بين بحر طبرستان وبحر سينوب. وفي هذا السور، بنى الأبواب التي قيل انها كانت سبعة لكل أمة من الأمم التي في شمالي هذا السور، وعليه حصن فيه حفظ، كانوا يمنعون تلك الأمة التي تلي ذلك الباب من الدخول إلى بلاد الأكاسرة. وأعظم هذه الأبواب باب الحديد، وهو يعرف إلى الآن كذلك. وعلى دور الجبل إلى جانبه قلعة العلان التي هي إحدى قلاع العالم؛ وهي ملثمة بالسحاب. ويقال ان التتر قاسوا عليها شدة، ولم يأخذوها إلا بالحيل بعد مدة. وما في شمالي هذا السور اليوم، فهو في حيز ابن بركة من التتر المسلمين. وما في جنوبيه لابن هلاون، سلطان التتر الكفار. وقاعدة هذه الأبواب وسلطنتها هي مدينة الباب. ويستغرق عرض هذا الإقليم السابع نهر أتِل الذي يشق مدينة الباب. وفي شرقيه بحر طبرستان. وفي شرقي هذا البحر مجالات العربة من الترك، وفي شرقيهم من هذا الجزء نصف بحيرة خوارزم التي تقدم ذكرها. ويقع مصب سيحون فيها في ثلث عرض الإقليم.

الجزء السادس: أول ما يلقاك منه، جبل أصغرون، الطويل العالي، الذي لا يبرح الثلج

منه. وهو ممتد حتى يستغرق طول هذا الجزء، وتنحدر منه أنهار إلى نهر أتل الكبير، وهو جار في شماليه، مع آخر عرض الإقليم السابع وخارجا منه. وفي جنوبيه السور الذي بناه المسلمون في وجه الكفار الترك الذين بالشمال. وهو ممتد من عطفة سيحون إلى جبل باب الفضل بن يحيى، نحو سبعة وعشرين يوماً، وعليه ثلاثة حصون في طرفه ووسطه.

الجزء السابع: ليس فيه مدينة مذكورة، وإنما هو مجالات، لأصناف من الترك على نهر سيحون من جنوبيه، ونهر أتل من شماليه.

الجزء الثامن: أول ما يلقاك منه، منبع سيحون وهو خارج من بحيرة بعضها خارج الإقليم السابع إلى ما خلفه في الشمال والمنبع عن شرقي البحيرة. والبحيرة مدورة طولها مثل عرضها نحو درجة، وفي شرقيها منبع أتل من جبال الشهروجية، والعرض مع آخر الإقليم السابع. ثم يتقوس إلى ما خلفه، ثم يستقيم ماراً فيه، وله دخلات وخرجات حتى ينصب في بحر طبرستان. وفي شرقه جبال الشهروجية، المتصلة بجبل القشمير، ويميل منها إلى الجبل الكبير الذي يقال له سلسلة الأرض، حتى يستغرق طول هذا الجزء معرجاً فيه من الركن الجنوبي إلى الركن الشمالي، حتى يتصل بجبل قوقايا.

الجزء التاسع: ليس فيه عمارة، بل يستغرق جميعه البلاد التي خربتها يأجوج ومأجوج قبل بنيان السد. وفي آخره الجبل المحيط بهم.

الجزء العاشر: جميعه خلف الجبل في بلاد يأجوج ومأجوج. وفي آخره الشرقي ينصب نهر يأجوج الكبير في المحيط، بالمشرق.

المعمور في شمالي الأقاليم السبعة:

والعرض عند آخره من أول العمارة في الجنوب، ثمانون درجة، ومن خط الاستواء أربع وستون درجة، ووسعه ست عشرة درجة، ولا يمكن العمارة بعده في الشمال، لأن الشمس لا تطلع على تلك الجهة.

الجزء الأول من المعمور خلف الأقاليم:

أول ما يلقاك منه في البحر المحيط، بالمغرب، جزيرة بريطانية. وأولها من جهة الجنوب

والمغرب،، من سمت الجزائر الخالدات، والعرض مع آخر الإقليم السابع، ثم يدخل البحر فيها نحو درجة وثلث، ثم يرجع إلى خط الإقليم السابع. ويقال لهذا البحر، الخارج من البحر المحيط، بحر بريطانية. وهو مكتنف لهذه الجزيرة من جنوبيها، والبحر المحيط من سائر جوانبها، وبقي لها مدخل إلى بلاد الأندلس من الجهة الشرقية الجنوبية في آخر هذا الجزء. ومسافة هذه الجزيرة في الطول، ثمانية عشر يوماً من الجانب الجنوبي، واتساعها نحو أحد عشر يوماً في الوسط، ولا مياه فيها، إلا من المطر، ولها ملك منفرد قاعدته مدينة بريستل(=بريست).

الجزء الثاني من المعمور خلف الأقاليم:

أول ما يلقاك منه جزيرة بلله وهي صغيرة معمورة تقع الحرب عليها بين صاحب انكلترة وبريطانية، لأنها بين الحدين، وطولها من شمال إلى جنوب، بانحراف إلى المشرق، نحو مائة ميل. ويقال ان فيها شجراً تخرج منه طيور كالدجاج، وهذا مستفيض عند الفرنج، كاستفاضة الخرفان التي تخرج من القرع عند الترك. وفي شرقي هذه الجزيرة، جزيرة انكلترة، وصاحبها الانكتار المذكور في تاريخ صلاح الدين في حروب عكا، وقاعدته مدينة لندرس(=لندن). وبعض الجزيرة داخل في الإقليم السابع، وفيها مدن كبيرة وعمائر معجمة خاملة الذكر عندنا. وطول هذه الجزيرة من الجنوب إلى الشمال، بانحراف إلى المغرب والمشرق، نحو أربعمائة وثلاثين ميلاً، واتساعها في الوسط نحو مائتي ميل.

وفي هذه الجزيرة الذهب والفضة والنحاس والقصدير، وليس فيها كروم لشدة الجمد، فأهلها يحملون جواهر هذه المعادن في البحر، ويدخلون بها فرنسا، ويتعوضون بذلك بالخمر. وصاحب فرنسا إنما كثرة الذهب والفضة عنده من ذلك. وعندهم يصنع الاسكرلاط العالي. وفي هذه الجزيرة غنم لها صوف ناعم كالحرير فيجعلون عليها جلالاً يقيها من الأمطار والغبار. ومع غناء الانكتار ووسع مملكته، فإنه يقر بالسلطنة للفرنسيس، وإذا كان مجتمع حفل، خدمه بأن يحط قدامه زبدية طعام، وهي عادة متوارثة. وفي شمالي انكلترة وبعض شمالي بريطانية، جزيرة ارلندة، وهي داخلة في الجزء الأول وفي الثاني. ومسافة

طولها نحو اثني عشر يوماً، وعرضها في الوسط نحو أربعة أيام، وهي مشهورة بكثرة الفتن، وكان أهلها مجوساً، ثم تنصروا اتباعاً لجيرانهم. ويجلب منها أيضاً النحاس والقصدير الكثير. وفي الشمال من هذا الجزء الثاني جزيرة جرمونية طولها اثنا عشر يوماً، وعرضها في الوسط نحو أربعة أيام، ومنها تجلب السناقر الجياد. وفي غربيها جزيرة السناقر البيض. طولها من غرب إلى شرق نحو سبعة أيام، وعرضها نحو أربعة أيام.

ومنها ومن الجزائر الصغار الشمالية، تجلب السناقر التي تحمل من هنالك إلى سلطان مصر. ورسم الخارج منها في خزانته ألف دينار، وإن أتوا به ميتاً دفع لهم خمسمائة دينار. وعندهم الدب الأبيض يدخل البحر ويصيد السمك ويخطف ما فضل أو ما غفلت عنه هذه السناقر، ومن ذلك عيشها، إذ لا تطير هناك من شدة الجمد. وجلود هذه الدببة ناعمة.

وعلى البحر المحيط في هذا الجزء الثاني، غراز، وهي قاعدة أحد ملوك الصقلب إلى جهة الغرب. وقد استولى جميع بلاد الصقالبة، الألمانوين والهنقر والباشقرد. وهذه المدينة مشهورة، وهي متحصنة في وسط بحيرة مالحة كبيرة، ولا يدخل إليها الا على جسر مصنوع. وفي شرقيها من القواعد التي كانت للصقلب، فاستولى عليها المذكورون كوياتية. ويقال أنها كانت لأعظم ملوك الصقالبة الموصوفون بالكبر. ومرساها في البحر المحيط، مقصود، تتجمع فيه المراكب الكبيرة، وهو أحسن مراسي تلك الجهة. وقيل أن لها اثني عشر باباً. وفي شرقيها من قواعد ملكهم، صاصين، وهي على البحر المحيط.

الجزء الثالث من المعمور خلف الأقاليم:

وعلى عشرة أيام من صاصين للمشرق، مدينة مشقة(=موسكو) وكان صاحبها من الصقلب، واسع الملك، ضخم العسكر. ويقع في هذا الجزء، مدينة النساء، والصحارى محدقة بها، ولا ملك عليهن إلا امرأة. ولهن في تلك الصحارى مماليك، إذا كان الليل طرق كل مملوك باب سيدته وبات معها ليلة، فاذا كان السَّحَر، انصرف إلى مكانه، فإن ولدت المرأة ولداً قتلته، وإن ولدت بنتاً أحيتها، ولا يظهر رجل في بلدهن البتة.

وفي البحر المحيط الذي في هذه الجهة الشمالية، جزيرة النساء. طولها من شرق إلى غرب، بانحراف إلى الجنوب، نحو مائتين وخمسين ميلاًوعرضها في الوسط نحو مائة وعشرين ميلاً. وفي شرقيها، جزيرة الرجال، من غرب إلى شرق نحو مائتين وسبعين ميلاً، وعرضها في الوسط، نحو مائة وسبعين ميلاً. ولا تجتمع الرجال بها، ولا النساء المذكورات، إلا شهراً واحداً في السنة، وهو وقت الاعتدال عندهم، تركب الرجال في الزوارق إلى جزيرة النساء، ويعرف كل رجل امرأته، فيحيا معها مدة الشهر، ثم يرجع إلى جزيرة الرجال، فإن ولدت المرأة ذكراً، ربته حتى يصير في حد الرجال، فترسله إلى جزيرتهم، وإن ولدت أنثى، أسكنتها مع النساء. وفي شرقي هاتين الجزيرتين، جزيرة الصقلب الكبيرة، التي لا معمور في البحر المحيط خلف شرقيها، ولا شماليها. وطولها نحو سبعمائة ميل، واتساعها في المحيط الوسط نحو ثلاثمائة ميل وثلاثين ميلاً .وفيها جبال وأنهار، ومدن وعمائر، وخلق كثير. ويقال أنهم باقون على التمجس، وعبادة النار، ولا يرون أعظم منها منفعة، ولا سيما حين ينزل الجمد عندهم. والزروع في هذه الجزيرة وشبهها، لا تبلغها الشمس، وإنما تنبت بالدخان، وقرب النيران. وذكر صاحب جغرافية أجار، أن فيها قوماً قد التصقت رؤوسهم بأكتافهم، وأكثر ما يسكنون في الشجر، يحفرونها ويدخلون فيها.

وقاعدة هذه الجزيرة، مدينة برغادنا التي يسمى بها البرغار(=يرجّح انها النرويج)، ويقال أن أصلهم من هذه المدينة. وهي على البحر المحيط. وآخر ما ينتهي إليه ظهور البحر المحيط، هو آخر هذا الجزء بالمشرق، وذلك في نهاية المعمور، في الشمال، وبذلك مدينة البروس، وهم أمة عاتية أجهل من الروس، والروس في شرقيهم وفي جنوبيهم. وفي الكتب، إن وجوههم كالكلاب، وذلك دليل على الشجاعة. ويقال أن الواحد منهم، يخرج إلى العسكر، ويقاتل وحده، حتى يُقتل تهوُّراً وإقداماً على الموت. وفي هذا الجزء، بلاد كثيرة معجمة على شط نهر دنست، وهو أحد أنهار العالم الكبار، ومنبعه من جبل الصقلب الكبير الملتوي مع البحر المحيط، حتى يتصل بالجبل الأعظم، المعروف بقوقايا. وأول جزيرة في هذا النهر، ويمر مغرباً نحو شهر، ثم يلتوي مشرقاً، فيبقى بين الذراعين، جزيرة طويلة

عريضة، فيها من العمائر والمدن شئ كثير، ولا يزال مشرقاً حتى ينصب في بحر سوداق، وقد بقي بينه وبين تمام هذا الجزء نحو مائة ميل. وأما نهر دنبوس، الذي تسميه الترك طنا، فإنه ينقسم حين يقارب بحر سوداق على ستة فروع، وتنصب جميعها في أماكن متقاربة، وآخرها ينصب إلى الشمال. ودنست يصب في شمالي البحر المذكور، وبعدها يغرب، ثم يشرق.

الجزء الرابع من المعمور خلف الأقاليم:

أول ما يلقاك منه من الفرض المشهورة مدينة سوداق. وأهلها أخلاط من الأمم والأديان، والأمر فيها راجع إلى النصرانية. وهي على بحر نيطش، الذي يسافر فيه التجار منها إلى خليج القسطنطينية. وفي سمتها من الجانب الجنوبي، مدينة سينوب، الفرضة المشهورة. وفي شرقيها مدخل بحر مانيطش، من بحر نيطش المتقدم الذكر. وعرضه نحو ثلاثين ميلاً، وامتداده من الجنوب إلى الشمال، نحو ستين ميلاً، ثم يتسع البحر، فيصير عرضه من غرب إلى شرق، نحو مجراوين وثلث، ويصير عرضه من جنوب إلى شمال، نحو مائة وستين ميلاً. وفيه جزائر تسكنها الروس، وكذلك يقال له بحر الروس، وهم الآن على دين النصرانية.

وينصب في شمالي هذا البحر نهر يخرج من بحيرة طنا الكبيرة. وعلى جانب هذا النهر، من الضفة الغربية روسيا، وهي قاعدة الروس، وهم خلق كثير وفي وجوههم طول، ولها على بحر نيطش ومانيطش مدن كثيرة معجمة. وفي شرقيها بحيرة طوما الكبيرة، طولها من المغرب إلى المشرق، نحو ستمائة ميل وثلاثين ميلاً، وعرضها في البر المشرقي نحو ثلاثمائة ميل. وفي وسطها جزيرة أليس، طولها نحو مائة وخمسين ميلاً، وعرضها نحو سبعين ميلاً. وفيها قلعة مانعة على جبل تكون فيه خزائن سلطان بلاد الطومانيين. وفيها اليوم أموال ولد بركة. وينزل إلى هذه البحيرة أنهار كثيرة، ذكر البيهقي أنها نيف على مائة نهر، وأكبرها نهر طنابرس الطويل الكبير المد، الذي عليه كثير من عمائر البلغار والترك. وعلى هذه البحيرة مدن كثيرة وعمائر غزيرة. وأكثر سكانها البلغاريون ومعظمهم مسلمون، وفيهم نصارى.

والقاعدة المشهورة في هذا الصقع طوما، التي تنسب إليها البحيرة، . وفي جنوبيها إلى بحر نيطش شَعْراء البقس منها تجلب إلى سائر أقطار الدنيا . والعجب أنها قليلة المسافة عرضاً وطولاً . وتعم بلاد الشرق والغرب لما جعل الله تعالى فيها من النمو وسرعة الخلف . وفي شرقي هذه الشعراء على البحر، مدينة مطرخا، لها بلاد وملك منفرد بنفسه، وهي على ركن البحر الشرقي في الشمال، . ويقع في شمالي هذا الجزء الرابع، مدينة سقسين المشهورة، . وفي شرقيها مدينة سوه، وهي أيضاً مشهورة مضافة إليها . وفي شرقي سقسين مدينة قراغت، . وفي شرقيها بلغار، وهي مدينة من أخشاب .

الجزء الخامس من المعمور خلف الأقاليم:

أول ما يلقاك في جنوبيه، مدينة السرير، وهي قاعدة بلاد السرير(=داغستان) . وكان بعض الأكاسرة قد وضع هنالك سريراً لبعض أقاربه، واستنابه بتلك الجهة، فعرفت ببلاد السرير. وأهلها أخلاط من العرب والترك . وهي على جبل يتصل بجبل الألسن الذي فيه الأبواب .

ومن هذا الجبل ينزل نهر الغنم الذي ينصب في بحر خزريه، وفي شرقي مدينة مطرخا، وهو كبير يحمل في الشتاء، وتعبر الدواب عليه . وفي جنوبيه، ينصب نهر أتل الصغير، يأتي من نحو أتل الكبير، ويمر في جنوبي نهر الغنم، فيبقى بينهما جزيرة عرضها نحو ثلاث مراحل . وكان عسكر هلاون قد عبر هذين النهرين إلى قتال عسكر بركة، فكسرهم عسكر بركة، وغرقوا في رجوعهم في نهر الغنم الأول، ثم غرق الذي خلصوا، في النهر الآخر، وكانوا قد جازوا عليه في الثلج فانخسف بهم . ويقال أن الدروع والجواسق تخرج من هذه النهرين إلى الآن . وفي شرقي مدينة السرير، مدينة برطاس قاعدة هذا الجنس من الأتراك . وهي على طرف جبل قرمانيا الكبير(=أرمينيا)، الدائر من شماليها نحو ثمانية وثلاثين يوماً إلى جانب نهر طنابرس، ومنه تنزل أنهار كثيرة إلى بحيرة طوما . ولبرطاس مجالات كثيرة على نهر أتل الذي في شرقهم وجنوبيهم . وفي شرقي برطاس دخلة من بحر طبرستان كبيرة . وفي شرقيها بحيرة مازغا، دورها نحو ثمانية أيام، وتنزل إليها أنهار كثيرة من جبل

أصغرون الكبير، المنعطف من الإقليم السابع عليها. ومنه يخرج مازغا الكبير وينصب فيها، ويخرج منها نهر ينصب في نهر أتل الطويل.

وعلى هذا الجبل في هذا الجزء، قلعة دندرة، وفيها يجعل ملك برطاس ذخائره، ومنه يغير على العربة، ومن يتربع حول هذه البحيرة من أجناس الترك .،وعلى هذا الجبل أيضاً، قلعة درمو، فيها يجعل ملك العربة ذخائره، ومنها يغير على البرطاس وغيرهم. وفي شمالي هذا الجزء مجرى نهر طنابرس الكبير، وعليه مدينة سقسين التي تقدم ذكرها وبها الآن ولد بركة ملك التتر المسلمين، وفيها مدارس ومساجد.

الجزء السادس من المعمور خلف الأقاليم:

ليس فيه بلد مذكور ولا معلم مشهور. وفي جنوبيه نهر أتل الطويل، وفي شماليه يمر نهر طنابرس. وفي شرقيه منبع طنابرس الذي ينصب في بحيرة طوما من الجبل الأحدب العالي المتصل بالجبل الكبير الممتد مع آخر العمارة بالشمال،. وفي جنوبي هذا الجبل، جبل أرستانا، الممتد من الشرق إلى الغرب، وينزل منه نهران كبيران إلى نهر أتل.

الجزء السابع من المعمور خلف الأقاليم:

أول ما يلقاك منه جبل أسقاسيا، الممتد من الشمال إلى الجنوب، وينزل منه ثلاثة أنهار إلى نهر أتل الطويل. وفي جهات هذا الجبل بلاد القمانية، وهم من أجناس الترك، ولهم اعتناء بالنجوم واشتغال بأحكامها، وهم يعبدونها. ولهم في هذا الجزء بحيرة عنقور، طولها من المشرق إلى المغرب بانحراف للجنوب، أحد عشر يوماً، وعرضها أربعة أيام. ويدور بها من جهة المغرب جبل طغورا قاعدة القمانية، وبها مدن، على الأنهار النازلة من هذا الجبل وعلى البحيرة، خاملة الأسماء.

الجزء الثامن من المعمور خلف الأقاليم:

أول ما يلقاك منه جبل البجناك(=بلاد تقع بين نهري الدانوب والدون)، وهو معترض من الشمال إلى الجنوب، يخرج منه نهران، والشمالي يغرب ويكون عنه بحيرة دورها نحو مائة

ميل، وعلى جانبها الغربي، بجناكية، وهي قاعدة خاقان البجناك. وهم أمة من الترك يحرقون أنفسهم ويحرقون من وقع إليهم. وهي واقعة في آخر الجزء السابق. وللبجناك جبل ثان ينعطف من الإقليم السابع، ويمر متصلاً بجبل الشهروجية، وينحدر منه نهر إلى بحيرة، يكون عرضها مائة ميل، وكذلك طولها. وعليها وعلى النهر المذكور، مدن للبجناك خاملة الأسماء. ويخرج من هذه البحيرة، نهر يمر مغرباً إلى بحيرة أخرى على مدينة طيغوا، وهي لملك من البجناك، يحاربه صاحب بجناكية، مع أن الخاقانية عندهم متوارثة في عقبه.، وشرقي البجناك الأرض المنتنة، لا يقدر أحد على سلوكها إلا بالروائح الطيبة وهي خالية. وفي شماليها بلاد سحرت، وهم كفار، لا يدخل إليهم أحد إلا قتلوه.

الجزء التاسع من المعمور خلف الأقاليم:

أول ما يلقاك في جنوبيه الأرض المحفورة، وهي مدورة، عرضها أربعة أيام وكذلك طولها، وزعموا أنها مسكونة بقوم لا يقدرون على الصعود، ولا يستطيع أحد النزول إليهم لبعد عمقها. ويشقها الجبل الكبير، المعروف بسلة الأرض. وحدها الجنوبي؛ في آخر عرض الإقليم السابع. وفي شماليها بلاد الخفشاق.

ذكر البيهقي أنهم الذين صاروا يعرفون بالنقجار وعرجوا إلى بلاد القسطنطينية. وكان لهم ملوك كثيرة في المغرب، ففرق التتر شملهم ورأوا شجاعتهم فصيّروهم يركبون معهم. وفي آخر هذا الجزء انعطاف الجبل المحيط بيأجوج ومأجوج، واتصاله بالجبل المعروف بسلسلة الأرض.

الجزء العاشر من المعمور خلف الأقاليم:

جميعه داخل في بلاد يأجوج ومأجوج وآخره المحيط بالمشرق.

فيما رأينا ابن سعيد المغربي يتتبّع وصف بلاد الشمال صعودا من الإقيم الخامس وصولا إلى المعمور من الأرض خلف الإقليم السابع، فإنّ أبا الفداء الذي يحتذي أحيانا حذوه، ينجح في أمرين :إضافة معلومات جديدة، وتهذيب الاستقصاءات المطولة احيانا عند ابن سعيد، وهو لايتردد في الإشارة الى الجغرافيين الذين تقدّموا عليه كالإدريسي وابن سعيد نفسه.

(١)

ذكر الجانب الشمالي من الأرض، ويشتمل على بلاد الافرنج و الأتراك وغيرها.

أبو الفداء(توفي٧٣٢هجري= ١٣٣١ميلادي) من كتاب(تقويم البلدان)

(ومن بلاد تلك الجهات مملكة بولية وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادقة من غربيه، وهي تقابل مملكة الباسليسة التي من البر الآخر. وملك بولية في زماننا يقال له الريدشار. ويقال لبولية انبولية أيضاً. وغربي بلاد بولية بلاد قلّفرية. ويقال لها قلّورية،وهي داخلة في مملكة الريدشار صاحب بولية. وأهل قلفرية يونان وهي بلاد على ساحل بحر الروم.

ومن تلك الممالك مملكة الباسليسة، وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادقة تقابل مملكة بولية التي من البر الآخر. وبلاد الباسليسة هي من فم جون البنادقة الى جهة قسطنطينية ،والباسليسة امرأةٌ هي صاحبة هذه البلاد في زماننا.

ومن تلك البلاد بلاد المرا، وهي مملكة تبتدىء من فم الخليج القسطنطيني على ساحل بحر الروم وتمتد مغرباً ,وتشتمل على قطعة من ساحل بحر الروم وعلى بلاد وجبال خارجة عن البحر .وهذه المملكة مناصفةً بين صاحب قسطنطينية وبين جنس من الفرنج يقال لهم القيتلان ويجاور هذه المملكة من غربيها بلاد الملفجوط ،وبلاد الملفجوط غربي بلاد المرا على ساحل بحر الروم ،وهي من أعمال قسطنطينية. والملفجوط جنس من الروم لهم لسان يتفردون به، وغربي بلاد الملفجوط بلاد اقلرنس ،وهي بلاد أهلها يونان تحت حكم الباسليسة، وهي على ساحل بحر الروم غربي بلاد الملفجوط وهي واقعة بين الملفجوط وبين الباسليسة.

قال الشريف الادريسي: امتداد كنيسة روميّة ستماية ذراع في مثله وهي مسقّفة بالرصاص ،ومفروشة بالرخام ،وفيها أعمدة كثيرة عظيمة. وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها

حوض رخام عظيم للمعمودية ،وفيه ماء جارٍ أبداً. وفي صدر الكنيسة كرسي من ذهب يجلس عليه الباب(=البابا) وتحته باب مصفح بالفضة يدخل منه الى أربعة أبواب واحد بعد آخر يفضي اليسرداب فيه مدفون بطرس حوارى عيسى عليه السلام. ولهذه المدينة كنيسة أخرى مدفون فيها بولص.وبحذاء قبر بطرس حوض رخام منقوش عظيم فيه فرش الكنيسة وستورها التي تزين بها في أعيادهم. وفي خارج الكنيسة عند ركن من أركانها عمود عظيم على أربع قواعد من نحاس مربعة ،كل وجه منها اثنا عشر ذراعاً، وكلما صعد العمود يدق ،وفي أعلاه عمود نحاس في أعلاه كرة مذهبة يكون قطرها نحو باع، ولها بريق ولمعان، وتظهر من اثنى عشر ميلاً فيعلم بها موضع الكنيسة.

وغربي بلاد روميه على الساحل بلاد التسقان، وهم جنس من الفرنج ليس لهم ملك بعينه يحكم عليهم، وانما لهم أكابر يحكمون بينهم. وبلاد التسقان هي معدن الزعفران. وعن بعض من رأى تلك البلاد قال: وقبالة روميه في البحر جبلان شامخان لا يزال يظهر منهما الدخان نهاراً والنار ليلاً،واسم أحد الجبلين بركان والاسم الآخر استنبرى ومعنى بركان واستنبرى الرعد والبرق.

وأما الشريف الادريسي فقال بركان اسم لجبلين أحدهما في جزيرة منقطعة في الشمال عن صقلية ولا يعلم في العالم أشنع منظراً منه. والبركان الثاني في جزيرة صقلية في أرض خفيفة التربة كثيرة الكهوف. قال ولا يزال يصعد من ذلك الجبل لهب النار تارةً والدخان أخرى.قال وكلما هاجت الرياح اجتمع بتلك الكهوف تلال من الرمل كأنها مادة لتلك النار. قال وفي تلك الكهوف مواضع للتنفس يسمع لها دوي مثل نباح الكلاب.

القِرم اسم للإقليم وهو يشتمل على نحو أربعين بلداً منها صلغات و صوداق والكفا المشهورات. وقد يطلق القرم على صلغات خاصة وصلغات والكفا وصوداق كالأثافي فصلغات عن الكفا شمال بغرب وعن صوداق بشمال بشرق والكفا عن صوداق في سمت الشرق. وبين كل واحدة من هذه المدن الثلاث وبين الأخرى مسيرة يوم، وصارى كرمان عن هذه الثلاث في سمت الغرب وبين صارى كرمان وصوداق نحو خمسة أيام.

قال في" العزيزي" وخليج قسطنطينية إذا جاوزها الى الجنوب ضاق حتى يصير عرضه رمية سهم عند موضع يقال له أندس، ومن هذه الموضع عبر مسلمة بن عبد الملك الى القسطنطينية والموضع المذكور قريب من مصب الخليج القسطنطيني في بحر الروم. وأظنُ أندس الذي ذكره في "العزيزي" هو المسمى في الكتب برنديس. قالوا :وبرنديس في أول الخليج القسطنطيني من الجهة الجنوبية الغربية، .قال في "العزيزي" والخليج يطوف بقسطنطينية من شرقيها وشماليها وأما جانباها الغربي والجنوبي ففي البر ولها في هذين الجانبين نحو مائة باب. قال ولقسطنطينية أربعة عشر أعمالاً في غربي الخليج وشرقيه. أقول وكان يقال لمن يتولى عملها الذي في شرقي الخليج الدمستق، وله ذكر في حروب الإسلام مع الروم في أيام سيف الدولة بن حمدان وغيره.

ومن تلك البلاد كوماجر وهي مدينة في مملكة تتربركة قريبة من الوسط بين باب الحديد، والأزق فهي شرقي الأزق وغربي باب الحديد بميلة عنهما الى الجنوب، وبالقرب من تلك البلاد الكزى وهم جنس يسكنون في الجبل الفاصل بين التتر الشماليين (أعني تتر بركة) وبين التتر الجنوبيين (أعني تتر هلاوو) ومدينتهم تسمى لكز، وفي شمال الكز القيتق. والقيتق جنس أيضاً يسكنون في الجبل المتصل باللكز من شماليهم وهم قطّاع طريق وجبلهم متحكم على باب الحديد، ومما يقع في شمالي العمارة بلاد الروس وهم في شمالي مدينة بلار ،وشمالي الروس القوم الذين يبايعون مغايبة.

قال بعض من سافر الى تلك البلاد إنهم يتصلون بساحل البحر الشمالي. قال فإذا وصل القفل الى تخومهم أقاموا حتى يعلموا به ثم يتقدمون الى المكان المعروف بالبيع والشراء ويحط كل تاجر بضاعته معلّمة ويرجعون الى منازلهم فيحضر أولئك القوم ويضعون قبالة تلك البضاعة السمّور والثعلب والوشق وما شاكل ذلك يدعونه ويمضون ،ثم يحضر التجار فمن أعجبه ذلك أخذه وإلا تركه حتى يتفاصلوا على الرضى...

قال في" العزيزي "إن على يمين بلاد البلغار في نحو الجنوب مملكة الكاساق امّة بين الابخاز وبين اللان، ثم يصير على يمين بلاد البلغار، وفي الجنوب مملكة اللان الى آخر حدّ البلغار ثم

يتصل بعد ذلك من نحو الجنوب بمملكة الخزر وهو آخر حدّ البلغار لافضائه الى امّة يقال لها المروسية، جيل من البلغار شداد عظائم الخلق، لا يقوم للرجل منهم عشرة من أشد غيرهم جاهلية يعبدون الشمس .وفي شرقي المروسية الى بلاد الروسية. وفي شمالي الصقالبة مفاوز لا عمارة فيها الى البحر المحيط ولا يسكن لشدة البرد الذي بها الى نحو الروسية، وهم امة من الاتراك يتصلون بالشرق بالغزية من الاتراك.)

تشكّلت لدينا صورة بانورامية للأبعاد الجغرافية والبشرية لبلاد الشمال، بداية من الجنوب المحاذي للبحر المتوسط ، وصولا إلى المناطق المجاورة للقطب الشمالي، إنها صورة تصلح لأن نقيم عليها المعلومات اللاحقة، بحيث تتاح لنا معرفة مواقع خطانا الآتية،ونحن نتوغّل في هذه البلاد الغامضة بمناخاتها الطبيعية والبشرية الصعبة والمختلفة عن ديار الإسلام في أشياء كثيرة، مانحتاج إليه هو كشف الأعماق التاريخية لشعوب الشمال.

ومن الجدير بالذكر أن كثيرا من المدونات العربية تعتبر الركيزة الأساسية للتواريخ الأصليةلبعض بلاد الشمال.وفيما يخص التعريف الجغرافي المباشر الخاص بأسماء المدن والممالك، فيمكن أن يكون الأدريسي مفيدا ، لكن الأحوال الاجتماعية والدينية والثقافية لاتلفت انتباهه، ويتحول القسم الخاص ببلاد الشمال من كتابه"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" إلى قائمة خاصة بأسماء المدن والمسافات الفاصلة فيما بينها.

إن النصوص التي سيتوالى ظهورها في هذا الكتاب بعد قليل لها أهمية كبيرة من ناحية القدم التاريخي والمعلومات التي تخصّ معظم شعوب الجزء الشمالي من الأرض . ونورد نصين متتالين للمسعودي المولع بالاستقصاءات المعمّقة والمتشعّبة التي تدمج بين الأبعاد التاريخية والدينية والانثربولوجية للمجتمعات التي يكتب عنها.

(٣)

أخبار أمم الشمال من اللّان والخزر والترك والروس وغير ذلك المسعودي

(توفي ٣٤٦هجرية =٩٥٧ميلادية) من كتاب (مروج الذهب)

(أما جبل القبخ فهو جبل عظيم، وصقعه صقع جليل، قد اشتمل على كثير من الممالك والأمم. وفي هذا الجبل اثنتان وسبعون أمة، كل أمة لها ملك ولسان بخلاف لغة غيرها. وهذا الجبل ذو شعاب وأودية، ومدينة الباب والأبواب على شعب من شعابه، بناها كسرى أنوشروان وجعلها بينه وبين بحر الخزر، وجعل هذا السور من جوف البحر على مقدار ميل منه ماداً الى البحر، ثم على جبل القبخ ماداً في أعاليه ومنخفضاته وشعابه نحواً من أربعين فرسخا، إلى أن ينتهي ذلك إلى قلعة يقال لها طبرستان، وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا السور أو أقل أو أكثر على حسب الطريق الذي جعل الباب من أجله باباً من حديد، وأسكن فيه على كل باب من داخله أمة تراعي ذلك الباب وما يليه من السور، كل ذلك ليدفع أذى الأمم المتصلة بذلك الجبل من الخزر، واللاّن، وأنواع الترك،والسرير وغيرهم من أنواع الكفار.

وجبل القبخ يكون في المسافة علواً وطولاً وعرضاً نحواً من شهرين، بل وأكثر، وحوله أمم لا يحصيهم إلا الخالق عز وجل، أحد شعابه على بحر الخزر مما يلي الباب والأبواب، ومن شعابه مما يلي بحر مايطس الذي ينتهي إليه خليج القسطنطينية.

وعلى هذا البحر طرابزندة، وهي مدينة على شاطيء هذا البحر لها أسواق في السنة يأتي إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم من بلاد كشك .ولما بنى أنوشروان هذه المدينة المعروفة بالباب والأبواب والسور في البر والبحر والجبل أسكن هناك أمماً من الناس وملوكاً، وجعل لهم مراتب رَتَّبهم عليها ووسم كل أمة منهم بسمة معلومة، وحدَّ له حداً معلوماً على حسب فعل أردشير بن بابك حين رتب ملوك خراسان؛ فممن رتب

منهم أنوشروان من الملوك في بعض هذه البقاع والمواضع مما يلي الإسلام من بلاد بردعة ملك يقال له شروان، ومملكته مضافة إلى اسمه فيقال له شروان شاه، وكل ملك يلي هذا الصقع يقال له شروان.

وتكون مملكته في هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – نحواً من شهر ؛ لأنه كان تغلّب على مواضع لم يكن رسمها له أنو شروان فانضافت إلى ملكه، والملك في هذا الوقت المؤرخ والله أعلم مسلم يقال له محمد بن يزيد، وهو من ولد بهرام جور، لا خلاف في نسبه، وكذلك ملك السرير من ولد بهرام جور، وكذلك صاحب خراسان في هذا الوقت المؤرخ من ولد إسماعيل بن أحمد، وإسماعيل من ولد بهرام جور، لا خلاف فيما ذكرنا من شهرة أنساب من ذكرنا، وقد تملك محمد بن يزيد هذا وهو شروان على مدينة الباب والأبواب، وذلك بعد موت صهر له يقال له عبدالملك بن هشام، وكان رجلا من الأنصار، وكان فيه إمرة الباب والأبواب، وقد كانوا قطنوا تلك الديار منذ دخلها مسلمة بن عبدالملك وغيره من أمراء الإسلام في صدر الزمان.

وتلي مملكة شروان مملكة أخرى من جبل القبخ يقال لها الإيران، وملكها يدعى الإيران شاه، وقد غلب على هذه المملكة في هذا الوقت شروان أيضاً، وعلى مملكة أخرى يقال لها مملكة الموقانية، والمعوّل في مملكته على مملكة اللكز، وهي أمة لا تحصى كثرة، ساكنة في أعالي هذا الجبل، ومنهم كفار لا ينقادون إلى ملك شروان يقال لهم الدودانية جاهلية لا يرجعون إلى ملك، ولهم أخبار طريفة في المناكح والمعاملات، وهذا الجبل ذو أودية وشعاب وفجاج، فيه أمم لا يعرف بعضهم بعضاً لخشونة هذا الجبل وامتناعه وذهابه في الجو وكثرة غياضه وأشجاره وتسلسل المياه من أعلاه وعظم صخوره وأحجاره، وغلب هذا الرجل المعروف بشروان على ممالك كثيرة من هذا الجبل كان رسمها كسرى أنوشروان لغيره ممن رتب هناك، فأضافها محمد بن يزيد إلى ملكه: منها خراسان شاه وزادان شاه. وتلي مملكة شروان في جبل القبخ مملكة طبرستان، وملكها في هذا الوقت مسلم، وهو ابن أخت عبدالملك الذي كان أمير الباب والأبواب، وهي أول الأمم المتصلة بالباب والأبواب.

وببوادى أهل الباب والأبواب مملكة يقال لها جيدان، وهذه الأمة داخلة في جملة ملوك الخزر، وقد كانت دار مملكتها مدينة على ثمانية أيام من مدينة الباب يقال لها سمندر، وهي اليوم يسكنها خلق من الخزر، وذلك أنها افتتحت في بدء الزمان، افتتحها سليمان بن ربيعة الباهلي رضي الله تعالى عنه، فانتقل الملك عنها إلى مدينة آمل، وبينها وبين الأولى سبعة أيام، وآمل التي يسكنها ملك الخزر في هذا الوقت ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البرغز وتصب في بحر مايطس، وهذه المدينة جانبان، وفي وسط هذا النهر جزيرة فيها دار الملك، وقصر الملك في وسط هذه الجزيرة، وبها جسر إلى أحد الجانبين من سفن، وفي هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية.

فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه، وكان تهوَّد ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد، وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم، وذلك أن ملك الروم ،في وقتنا هذا، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وهو أرمنو، نقل من كان في ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم في ملكه في هذا الوقت المؤرخ، فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرضه على ما وصفنا، وكان لليهود مع ملك الخزر خبر ليس هذا موضع ذكره، وأما من في بلاده من الجاهلية فأجناس:منهم الصقالبة، والروس، وهم في أحد جانبي هذه المدينة، ويحرقون موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلي، وإذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهي في الحياة، وإن ماتت المرأة لم يحرق الرجل، وإن مات منهم أعزب زوج بعد وفاته، والنساء يرغبن في تحريق أنفسهن لدخولهن عند أنفسهن الجنة.

وهذا فعل من أفعال الهند إلا أن الهند ليس من شأنها أن تحرق المرأة مع زوجها، إلا أن ترى ذلك المرأة، والغالب في هذا البلد المسلمون ؛ لأنهم جند الملك، وهم يعرفون هذا البلد باللارسية، وهم ناقلة من نحو بلاد خوارزم، وكان في قديم الزمان بعد ظهور الإسلام وقع في بلادهم جدب ووباء، فانتقلوا إلى ملك الخزر، وهم ذوو بأس وشدة، وعليهم يعول ملك

الخزر في حروبه، وأقاموا في بلده على شروط بينهم: أحدها إظهار الدين والمساجد والأذان، و ثانيها أن تكون وزارة الملك فيهم، والوزير في وقتنا هذا منهم هو أحمد بن كويه، وثالثها أنه متى كان لملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا في عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملتهم، ويحاربون معه سائر الناس من الكفار، ويركب منهم مع الملك في هذا الوقت شخوص منهم سبعة آلاف ناشب بالجواشن والدروع والخوذ ومنهم رامحة أيضاً على حسب ما في المسلمين من آلات السلاح، ولهم قضاة مسلمون.

ورَسْمُ دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة: اثنان منهم للمسلمين، واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم النصرانية، وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية وهي قضايا عقلية؛ فإذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا إلى قضاة المسلمين فتحاكموا إليهم وانقادوا إلى ما توجبه شريعة الإسلام.

وليس في ملوك الشرق في هذا الصقع من له جند مرتزقة غير ملك الخزر، وكل مسلم من تلك الديار يعرف بأسماء هؤلاء القوم اللارسية، والروس والصقالبة الذين ذكرنا أنهم جاهلية هم جند الملك وعبيده، وفي بلاده خلق من المسلمين تجار وصناع غير اللارسية فروا إلى بلاده لعدله وأمنه، ولهم مسجد جامع، والمنارة تشرف على قصر الملك، ولهم مساجد أخرى فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن، فإذا اتفق المسلمون ومن بها من النصارى لم يكن للملك بهم طاقة.

قال المسعودي: وليس إخبارنا عن ملك الخزر نريد به خاقان، وذلك أن للخزر ملكاً يقال له خاقان، ورسمه أن يكون في يدي ملك آخر وهو وغيره، فخاقان في جوف قصر لا يعرف الركوب ولا الظهور للخاصة ولا للعامة، ولا الخروج من مسكنه، معه حرمه، لا يأمر ولا ينهى، ولا يدبر من أمر المملكة شيئاً، ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم إلا بخاقان يكون عنده في دار مملكته، ومعه في حيزه، فإذا أجدبت أرض الخزر أو نابت بلدهم نائبة، أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم، أو فاجأهم أمر من الأمور، نفرت الخاصة والعامة إلى

ملك الخزر، فقالوا له: قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه، وقد تشاءمنا به، فاقتله أو سلمه إلينا نقتله، فربما سلمه إليهم فقتلوه، وربما تولى هو قتله، وربما رقّ له فدافع عنه ؛ لأن قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاه . . .فلست أدري أفي قديم الزمان كان ذلك أم حدث؟ وإنما منصب خاقان هذا من أهل بيتٍ بأعيانهم أرى أن الملك كان فيهم قديماً، والله أعلم.

وللخزر زوارق يركب فيها الركاب التجار في نهر فوق المدينة يصب إلى نهرها من أعاليها، يقال له برطاس، عليه أمم من الترك حاضرة داخلة في جملة ممالك الخزر، وعمائرهم متصلة بين مملكة الخزر والبرغز، يرد هذا النهر من نحو بلاد البرغز، والسفن تختلف فيه من البرغز والخزر.

وبرطاس أمة من الترك على هذا النهر المعروف بهم، ومن بلادهم تحمل جلود الثعالب السود والحمر التي تعرف بالبرطاسية، يبلغ الجلد منها مائة دينار، وأكثر من ذلك، وذلك من السود، والحمر أخفض ثمناً منها، وتلبس السود منها ملوك العرب والعجم، وتتنافس في لبسه، وهو أغلى عندهم من السمور والفنك وما شاكل ذلك، وتتخذ الملوك منه القلانس والخفاف والدواويج ويتعذر في الملوك من ليس له خفان ودواج مبطن من هذه الثعالب البرطاسية السود.

وفي أعالي نهر الخزر مصب متصل بخليج من بحر نيطس، وهو بحر "الروس" لا يسلكه غيرهم، وهم على ساحل من سواحله، وهي أمة عظيمة جاهلية لا تنقاد إلى ملك ولا إلى شريعة، وفيهم تجار يختلفون إلى ملك البرغز وللروس في أرضهم معدن الفضة كثير نحو معدن الفضة الذي بجبل بنجهير من أرض خراسان.

ومدينة البرغز على ساحل بحر مايطس، وأرى أنهم في الإقليم السابع، وهم نوع من الترك، والقوافل متصلة بهم من بلاد خوارزم من أرض خراسان، ومن خوارزم إليهم، إلا أن ذلك بين بوادي غيرهم من الترك، والقوافل مخفرة منهم.

وملك البرغز في وقتنا هذا -وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - مسلم، أسلم في أيام المقتدر بالله، وذلك بعد العشر والثلثمائة، وذلك لرؤيا رآها، وقد كان له ولد حجّ، وورد

مدينة السلام، وحمل معه للمقتدر لواء وبنوداً ومالا ولهم جامع، وهذا الملك غزا بلاد القسطنطينية في نحو خمسين ألف فارس فصاعداً ويشن الغارات حولها إلى بلاد رومية والأندلس وأرض برجان والجلالقة والإفرنجة.

ومنهم إلى القسطنطينية نحو من شهرين متصلين عمائر ومفاوز، وقد كان المسلمون -حين غزوا من بلاد طرسوس من الثغر الشامي مع أمير الثغور ثمل الخادم المعروف بالزلفى ومن كان معه من مراكب الشاميين والبصريين سنة اثنتي عشرة وثلثمائة - قطعوا فم خليج القسطنطينية وفم خليج آخر من البحر الرومي لا منفذ له، وانتهوا إلى بلاد فندية، وأتاهم في البحر جماعة من البرغز ينجدونهم، وأخبروهم أن ملكهم بالقرب، وهذا يدل على ما وصفنا أن البرغز تتصل سراياها إلى ساحل بحر الروم، وكان نفر منهم ركبوا في مراكب الطرسوسيين، فأتوا بهم إلى بلاد طرسوس. والبرغز أمة عظيمة منيعة شديدة البأس، ينقاد إليها من جاورها من الأمم، والفارس ممن أسلم مع ذلك الملك يقاتل المائة من الفرسان والمائتين من الكفار، ولا يمتنع أهل القسطنطينية منهم في هذا الوقت إلا بسورها، وكذلك كل من كان في هذا الصقع لا يعتصم منهم إلا بالحصون والجدران، والليل في بلاد البرغز في نهاية من القصر في بعض السنة ومنهم من زعم أن أحدهم لا يستطيع ان يفرغ من طبخ قدرة حتى يأتي الصباح، وعلة الموضع الذي يكون الليل فيه ستة أشهر متصلة لا نهار فيه، والنهار ستة أشهر متصلة لا ليل فيه وذلك نحو الجدى، وقد ذكر أصحاب النجوم في الزيجات علة ذلك من الوجه الفلكي.

والروس: أمم كثيرة وأنواع شتى، ومنهم من يقال لهم اللوذعانة، وهم الأكثرون، يختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية وقسطنطينية والخزر، وقد كان بعد الثلاثمائة ورد عليهم نحو من خمسمائة مركب، في كل مركب مائة نفس، فدخلوا خليج نيطس المتصل ببحر الخزر، و هنالك رجال ملك الخزر مرتبين بالعدد القوية يصدّون من يرد من ذلك البحر، ومن يرد من ذلك الوجه من البر الذي شعبه من بحر الخزر تتصل ببحر نيطس، وذلك أن بوادي الترك الغز ترد إلى ذلك البر وتُشتّي هنالك، فربما يجمد هذا الماء المتصل من نهر الخزر إلى

خليج نيطس، فتعبر الغز عليه بخيولها، وهو ماء عظيم، فلا ينخسف من تحتهم لشدة استحجاره، فتغير على بلاد الخزر، وربما يخرج إليهم ملك الخزر إذا عجز من هنالك من رجاله المرتبين عن دفعهم ومنعهم العبور على ذلك الجمد، وأما في الصيف فلا سبيل للترك إلى العبور، فلما وردت مراكب الروس إلى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج راسلوا ملك الخزر في أن يجتازوا البلاد وينحدرو في نهره فيدخلوا نهر الخزر ويتصلوا ببحر الخزر الذي هو بحر جرجان وطبرستان وغيرهما من بلاد الأعاجم على ما ذكرنا، .ويجعلوا لملك الخزر النصف مما يغنمون ممن هناك من الأمم على ذلك البحر، فأباحهم ذلك، فدخلوا الخليج واتصلوا بمصب النهر فيه، وساروا مصعدين في تلك الشعبة من الماء، حتى وصلوا إلى نهر الخزر، وانحدروا فيه إلى مدينة آمل واجتازوا بها وانتهوا إلى فم النهر ومصبه إلى البحر الخزري، ومن مصب النهر إلى مدينة آمل وهو نهر عظيم، وماء كثير فانتشرت مراكب الروس في هذا البحر، وطرحت سراياها إلى الجيل والديلم وبلاد طبرستان وآبسكون، وهي بلاد على ساحل جرجان وبلاد النفاطة، ونحو بلاد أذربيجان وذلك أن من بلاد أردبيل من بلاد أذربيجان إلى هذا البحر نحو من ثلاثة أيام، فسفكت الروس الدماء، واستباحت النسوان والولدان، وغنمت الأموال، وشنت الغارات، وأخربت، وأحرقت، فضج من حول هذا البحر من الأمم، لأنهم لم يكونوا يعهدون في قديم الزمان عدوا يطرقهم فيه، وإنما تختلف فيه مراكب التجار والصيد.

وكانت لهم حروب كثيرة مع الجيل والديلم مع قائد لابن أبي الساج، فانتهوا إلى ساحل النفاطة من مملكة شروان المعروفة بباكة، وكانت الروس تأوى عند رجوعها من غاراتها إلى جزائر تقرب من النفاطة على أميال منها، وكان ملك شروان يومئذ علي بن الهيثم، فاستعد الناس، وركبوا في القوارب، ومراكب التجار، وساروا نحو تلك الجزائر، فمالت عليهم الروس، فقتل من المسلمين وغرق ألوف، وأقام الروس شهوراً كثيرة في هذا البحر على ما وصفنا لا سبيل لأحد ممن جاور هذا البحر من الأمم إليهم، والناس مهتابون لهم، حذرون منهم لأنه بحر غامر لمن حوله من الأمم، فلما غنموا و سئموا ماهم فيه ساروا إلى فم نهر الخزر

ومصبه، فراسلوا ملك الخزر وحملوا إليه الأموال والغنائم على ما اشترط عليهم .

وملك الخزر لا مراكب له، وليس لرجاله بها عادة، ولولا ذلك لكان على المسلمين منهم آفة عظيمة، وعلم بشأنهم اللارسية ومن في البلاد الخزر من المسلمين، فقالوا لملك الخزر: خلنا وهؤلاء القوم فقد أغاروا على بلاد إخواننا المسلمين، وسكفوا الدماء، وسبوا النساء والذراري، فلم يمكن الملك منعهم، وبعث إلى الروس فأعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم، وعسكروا، وخرجوا يطلبونهم منحدرين مع الماء فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها،وصافُّوا المسلمين، وكان مع المسلمين خلق من النصارى من المقيمين بمدينة آمل،وكان المسلمون في نحو خمسة عشر ألفاً بالخيل والعدد، فأقام الحرب بينهم ثلاثة أيام، ونصر الله المسلمين عليهم، وأخذهم السيف :فمن قتيل، وغريق، ونجا منهم نحو خمسة آلاف، وركبوا في المراكب إلى ذلك الجانب مما يلي بلاد برطاس، وتركوا مراكبهم وتعلقوا بالبر ؛ فمنهم من قتله أهل برطاس، ومنهم من وقع إلى بلاد البرغز إلى المسلمين فقتلوهم، وكان من وقع عليه الاحصاء ممن قتله المسلمون على شاطىء نهر الخزر نحواً من ثلاثين ألفاً، ولم يكن للروس من تلك السنة عودة إلى ما ذكرنا .

قال المسعودي: وإنما ذكرنا هذه القصة دفعاً لقول من زعم أن بحر الخزر متصل ببحر مايطس وخليج القسطنطينية، من جهة بحر مايطس ونيطس ، ولما كان لهذا البحر اتصال بخليج القسطنطينية من جهة بحر مايطس أونيطس لكانت الروس قد خرجت فيه، إذ كان ذلك بحرها على ما ذكرنا، ولا خلاف بين من ذكرنا ممن تجاوز هذا البحر من الأمم في أن بحر الأعاجم لا خليج له متصل بغيره من البحار ؛ لأنه بحر صغير يحاط بعلمه، وما ذكرنا من مراكب الروس فمستفيض في تلك البلاد عند سائر الأمم، والسنة معروفة، وكانت بعد الثلاثمائة. وقد غاب عني تاريخها، ولعل من ذكر أن بحر الخزر متصل بخليج القسطنطينية يريد أن بحر الخزر هو بحر مايطس ونيطس الذي هو بحر البرغز والروس، والله أعلم بكيفية ذلك .

وساحل طبرستان على هذا البحر، وهنالك مدينة يقال لها الهم، وهي فرضة قريبة من

الساحل، وبينها وبين مدينة آمل ساعة من النهار، وعلى ساحل جرجان، مما يلي هذا البحر، مدينة يقال لها آبسكون، على نحو من ثلاثة أيام من جرجان، وعلى هذا البحر الجيل والديلم، وتختلف المراكب بالتجارات فيه إلى مدينة آمل؛ فيدخل في نهر الخزر إليها، وتختلف المراكب فيه بالتجارات من المواضع التي سمينا من ساحله إلى باكة، وهي معدن النفط الأبيض وغيره، وليس في الدنيا - والله أعلم - نفط أبيض إلا في هذا الموضع، وهي على ساحل مملكة شروان وفي هذه النفاطة أطمة، وهي عين من عيون النار لا تهدأ على سائر الأوقات تتضرَّم الصعداء.

ويقابل هذا الساحل في البحر جزائر: منها جزيرة على نحو ثلاثة أيام من الساحل فيها أطمة عظيمة تزفر في أوقات من فصول السنة فتظهر منها نار عظيمة تذهب في الهواء كأشمخ ما يكون من الجبال العالية فتضيء الأكثر من هذا البحر، ويرى ذلك من نحو مائة فرسخ من البر، وهذه الأطمة تشبه أطمة جبل البركان من بلاد صقلية من أرض الإفرنجة ومن بلاد إفريقية من أرض المغرب. وليس في آطام الأرض أشد صوتاً ولا أسود دخاناً ولا أكثر تلهباً من الأطمة التي في أعمال المهراج، وبعدها أطمة وادي برهوت، وهي نحو بلاد سبأ و حضرموت من بلاد الشِّحر، وذلك بين بلاد اليمن وبلاد عُمان، وصوتها يسمع كالرعد من أميال كثيرة تقذف من قعرها بجمر كالجبال وقطع من الصخور سود حتى يرتفع ذلك في الهواء ويدرك حساً من أميال كثيرة ثم ينعكس سفلا فيهوى إلى قعرها وحولها، والجمر الذي يظهر منها حجارة قد احمرت مما قد أحالها من مواد حرارة النار.

وفي هذا البحر جزائر أخرى مقابلة لساحل جرجان، يصاد منها نوع من البُزاة البيض، وهذا النوع من البزاة أسرع الضوارى إجابة، وأقلها معاشرة، إلا أن في هذا النوع من البزاة شيئاً من الضعف، لأن الصائد يصطادها من هذه الجزائر فيغذيها بالسمك، فإذا اختلف عليها الغذاء عرض لها الضعف.

وقد قال الجمهور من أهل المعرفة بالضوارى وأنواع الجوارح من الفرس والترك والروم والهند والعرب: إن البازي إذا كان إلى البياض في اللون فإنه أسرع البُزَاة وأحسنها، وأنبلها أجساماً،

وأجرؤها قلوباً، وأسهلها رياضة ؛ وإنه أقوى جميع البزاة على السمو في الجو، وأذهبها الصعداء، وأبعدها غاية في الهواء ؛ لأن فيها من حرف الحرارة وجراءة القلب ما ليس في غيرها من جميع أنواع البُزاة، وإن اختلاف ألوانها لاختلاف مواضعها، وإن من أجل ذلك خلصت البيض لكثرة الثلج في أرمينية وأرض الخزر وجرجان وما والاها من بلاد الترك.

وقد حكى عن حكيم من خواقين الترك –وهم الملوك المنقادة إلى ملكهم جميع ملوك الترك – أنه قال: إن بُزاة أرضنا إذا أسقطت أنفس فراخها من الوعاء إلى الفضاء سمت في آخر الجو إلى الهواء البارد الكثيف فأنزلت دواب تسكن هناك فتغذيها بها ؛ فلا تلبث أن تقوى وتنهض لإسراع الغذاء فيها، وأنهم ربما وجدوا في أوكارها من تلك الدواب أشلاء.

ومن يلي السور من الأمم وجبل القبخ، وقد قلنا أن شر الملوك ممن جاورها من الأمم مملكة جيدان، وملكهم رجل مسلم يزعم أنه من العرب من قحطان ويعرف بسلفان في هذا الوقت، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وليس في مملكته مسلم غيره وولده وأهله، وأرى أن هذه السمة يسمى بها كل ملك لهذا الصقع. وبين مملكة جيدان وبين الباب والأبواب أناس من المسلمين عرب لا يحسنون شيئاً من اللغات غير العربية في آجام هناك وغياض وأودية وأنهار كبار من قرى قد سكنوها، وقطنوا ذلك الصقع منذ الوقت الي افتتحت فيه تلك الديار ممن طرأ من بوادي العرب إليها، فهم مجاورون لمملكة جيدان، إلا أنهم ممتنعون بتلك الأشجار والأنهار، وهم على نحو ثلاثة أميال من مدينة الباب والأبواب، وأهل الباب يحذرونهم.

ويلي مملكة جيدان مما يلي جبل القبخ والسرير ملك يقال له برزبان مسلم ويعرف بلده بالكرج، وهم أصحاب الأعمدة وكل ملك يلي هذه المملكة يدعى برزبان.

ثم يلي مملكة برزبان مملكة يقال غميق، وأهلها أناس نصارى لا ينقادون إلى ملك، ولهم رؤساء، وهم مهادنون لمملكة اللان.

ثم يليهم مما يلي السرير والجبل مملكة يقال لها زريكران، وتفسير ذلك عمال الزرد، لأن أكثرهم يعمل الزرد واليَلَبَ واللجم والسيوف وغير ذلك من أنواع الحديد، وهم ذوو ديانات

مختلفة: مسلمون، ويهود، ونصارى، وبلدهم بلد خشن، قد امتنعوا بخشونته على من جاورهم من الأمم.

ثم يلي هؤلاء مملكة السرير وملكها يدعى فيلان شاه، يدين بدين النصرانية.. .إنه من ولد بهرام جور، وسمى صاحب السرير لأن يزدجرد - وهو الآخر من ملوك ساسان - حين ولى منهزم أقدم سريره الذهب وخزائنه وأمواله مع رجل من ولد بَهْرام جور ليسير بها إلى هذه المملكة فيحرزها هناك إلى وقت موافاته، ومضى يزدجرد إلى خراسان فقتل هناك وذلك في خلافة عمر رضي الله عنه،فقطن ذلك الرجل في هذه المملكة، واستولى عليها، وصار الملك في عقبه؛ فسمى صاحب السرير، ودار مملكته تعرف بحمرج، وله اثنا عشر ألف قرية يستعبد منهم من شاء، وبلده بلد خشن منيع لخشونته، وهو شعب من جبل القبخ، وهو يغير على الخزر مستظهراً عليهم؛ لأنهم في سهل وهو في جبل.

ثم تلي هذه المملكة مملكة اللان وملكها يقال له كركنداج، هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم، وكذلك فيلان شاه، فهو الاسم الأعم لسائر ملوك السرير. ودار مملكة ملك اللان يقال لها معص، وتفسير ذلك الديانة، وله قصور ومنتزهات في غير هذه المدينة ينتقل في السكنى إليها، وبينه وبين صاحب السرير مصاهرة في هذا الوقت، وقد تزوج كل واحد منهما بأخت الآخر، وقد كانت ملوك اللان بعد ظهور الإسلام في الدولة العباسية اعتقدوا دين النصرانية. وكانوا قبل ذلك جاهلية، فلما كان بعد العشرين والثلثمائة رجعوا عما كانوا عليه من النصرانية وطردوا من كان قبلهم من الأساقفة والقسيسين، وقد كان أنفذهم إليهم ملك الروم.

وبين مملكة اللان وجبل القبخ قلعة وقنطرة على واد عظيم يقال لهذه القلعة قلعة باب اللان، بنى هذه القلعة ملك في قديم الزمان من الفرس الأوائل يقال له اسبنديار ابن يستاسف بن بهراسب ورتب في هذه القلعة رجالا يمنعون اللان عن الوصول إلى جبل القبخ، ولا طريق لهم إلا على هذه القنطرة من تحت هذه القلعة والقلعة على صخرة صماء لا سبيل إلى فتحها والوصول إليها إلا بإذن من فيها؛ ولهذه القلعة المبنية على أعلى هذه

الصخرة عين من الماء عذبة تظهر في وسطها من أعلى هذه الصخرة، وهذه القلعة إحدى قلاع العالم الموصوفة بالمناعة، وقد ذكرتها الفرس في أشعارها، وما كان لإسبنديار بن يستاسف في بنائها، ولإسبنديار في الشرق حروب كثيرة مع أصناف من الأمم، وهو السائر إلى بلاد الترك، فخرب مدينة الصفر، وكانت من المنعة بالموضع العظيم الذي لا يرام، وبها تضرب الفرس الأمثال، وما كان من أفعال إسبنديار وما وصفنا فمذكور في الكتاب المعروف بكتاب البنكش، نقله ابن المقفع إلى لسان العرب.

وقد كان مسلمة بن عبد الملك بن مروان حين وصل إلى هذا الصقع ووطئ اهله أسكن في هذه القلعة أناساً من العرب إلى هذه الغاية يحرسون هذا الموضع، وربما يحمل اليهم الرزق وأقوات من البر من ثغر تفليس، وبين تفليس وهذه القلعة مسيرة خمسة أيام، ولو كان رجل واحد في هذه القلعة لمنع سائر الملوك الكفار أن يجتازوا بهذا الموضع ؛ لتعلقها بالجو وإشرافها على الطريق والقنطرة والوادي. وصاحب اللان يركب في ثلاثين ألف فارس، وهو ذو منعة وبأس شديد وذو سياسة بين الملوك، ومملكته عمائرها متصلة غير منفصلة، إذا تصايحت الديوك تجاوبت في سائر مملكته لاشتباك العمائر واتصالها.

ثم يلي مملكة اللان أمة يقال لها كشك، وهم بين جبل القبخ وبحر الروم، وهي أمة مطيعة منقادة إلى دين المجوسية، وليس فيمن ذكرنا من الأمم في هذا الصقع أنقى أبشاراً ، ولا أصفى ألواناً ولا أحسن رجالاً ولا أصبح نساء، ولا أقوم قدوداً، ولا أدق أخصاراً، ولا أظهر أكفالاً وأردافاً، ولا أحسن شكلا من هذه الأمة، ونساؤهم موصوفات بلذة الخلوات، ولباسهم البياض والديباج الرومي والسقلاطوني وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب، وبأرضهم أنواع من الثياب يصنع من القنب، فيها نوع يقال له الطلى أرق من الدبيقي وأبقى على الكَدِّ، يبلغ الثوب عشرة دنانير، ويحمل إلى ما يليهم من الإسلام، وقد تحمل هذه الثياب ممن جاورهم من الأمم إلا أن الموصوف منها ما يحمل من قبل هؤلاء.

واللاّن مستظهرة على هذه الأمة، لا تنتصف هذه الأمة من اللان، إلا أنها تمتنع من اللان بقلاع لها على ساحل البحر، وقد تُنوزع في البحر الذي هم عليه: فمن الناس من يرى أنه

بحـر الروم، ومنهـم من يرى أنه بحـر نيطس، إلا أنهـم يقـربون في البـحـر من بلاد طرابزندة، والتـجـارة تتـصل بـهـم منهـا في المراكـب، وتتـجـهـز من قـبلهـم أيضـاً، والعلة في ضـعـفـهـم عن اللان تركهـم أن يملكوا عليهـم ملكا يجمع كلمتهـم، ولو اجتمعت كلمتهم لم يُطِقهم اللان ولا غيرها من الأمم، وتفسير هذا الاسم وهو فارسي إلى العربية التِّيـه و الصَّلَفُ، وذلك أن الفرس إذا كان الإنسان تائهاً صلفاً قالوا: كشك.

وتلي هذه الأمة التي على هذا البحر أمة أخرى يقال لبلادهم: السبع بلدان، وهي أمة كبيرة ممتنعة بعيدة الدار لا أعلم ملتها، ولا نمى إلى خبرها في دينها.

وتليها أمة عظيمة بينها وبين بلاد كشك نهر عظيم كالفرات يصب إلى بحر الروم، وقيل: إلى بحـر نيطس، ويقـال لدار مملكة هذه الأمـة إرم ذات العـمـاد ، وهم ذوو خلق عـجـيب، وآراؤها جاهلية، ولهذا البلد على هذا البحر خبر ظريف وذاك أن سمكة عظيمة تأتيهم في كل سنة فيتناولون منها، ثم تعود ثانية فتتوجه نحوهم من الشق الاخر فيتناولون منها، وقد عاد اللحم على الموضع الذي أخذ منه أولا، وخبر هذه الأمة مستفيض في تلك الديار من الكفار.

ويلي هذه الأمة أمة بين جبال أربعة كل جبل منها ممتنع ذاهب في الهواء وبين هذه الجبال الأربعة من المسافة نحو من مائة ميل صحراء، في وسط تلك الصحراء دارة مقورة كأنها قد خطت ببيكار، وشكل دائرتها خسفة مجوفة في حَجَر صَلْد منخسف كما تدور الدائرة، استدارة تلك الخسفة نحو خمسين ميلا قطع قائم يهوى سفلا كحائط مبنى من سفل إلى علو يكون قعره على نحو من ميلين، لا سبيل إلى الوصول إلى مستوى تلك الدارة، ويرى فيها بالليل نيران كثيرة في مواضع مختلفة، وبالنهار يرى قرى وعمائر وأنهار تجري بين تلك القرى وناس وبهائم، إلا أنهم يرون لطاف الأجسام لبعد قعر الموضع، لا يدري من أي الأمم هم، ولا سبيل لهم إلى الصعود إلى جهة من الجهات، ولا سبيل لمن فوق إلى النزول إليهم بوجه من الوجوه، ووراء تلك الجبال الأربعة على ساحل البحر خسفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وغياض فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه والأغلب عليها صور

الناس وأشكالهم، إلا أنهم ذوو شعر، وربما وقع في النادر القرد منها إذا احتيل في اصطياده ؛ فيكون في نهاية الفهم والدراية، إلا انه لا لسان له فيعبر بالنطق ؛ ويفهم كل ما يخاطب به بالإشارة، وربما حمل الواحد منها إلى ملوك الأمم من هناك فتعلمه القيام على رؤسها بالمذابّ على موائدها لما في القرد من الخاصة بمعرفة السموم من المأكل والمشرب ويلقى الملك له من طعامه : فإن أكله أكل الملك منه، وإن اجتنبه علم أنه مسموم فحذر منه، وكذلك فعل الأكثر من ملوك السند والهند في القردة.

إنه يلي بلاد الخزر واللان فيما بينهم وبين المغرب أمم أربع : ترك ترجع إلى أب واحد في بدء أنسابهم، حضر وبدو، وذوو منعة وباس شديد، لكل أمة منها ملك، مسافة مملكته أيام متصلة ممالكهم بعضها ببحر نيطس، وتتصل عماراتها بمدينة رومية، وما يلي بلاد الأندلس، مستظهرة على سائر ما هنالك من الأمم، وبينهم وبين ملك الخزر مهادنة، وكذلك مع صاحب اللان، وديارهم تتصل ببلاد الخزر، فالجيل الأول منهم يقال لها يجنى، ثم تليها أمة ثانية يقال لها بجغرد، ثم تليها أمة يقال لها بجناك، وهي أشد هذه الأمم الأربعة بأساً، ثم تليها أمة ثانية يقال لها نوكرده وملوكهم بدو، وكان لهم حروب مع الروم بعد العشرين والثلاثمائة، أو فيها.

وقد كان للروم في تخوم أرضهم فيما يلي من ذكرنا من هذه الأجناس الأربعة مدينة عظيمة يونانية يقال لها ولندر، فيها خلق من الناس ومنعة بين الجبال والبحر، فكل من فيها مانع لمن ذكرنا من الأمم، ولم يكن لهؤلاء الترك سبيل إلى أرض الروم لمنع الجبال والبحر إياهم، ومن في هذه المدينة، وكان بين هؤلاء الأجناس حروب لخلاف وقع بينهم على رأس رجل مسلم تاجر من أرض أردبيل : كان نازلا على أرض بعضهم، فاستضافه ناس من الجبل الاخر، فاختلفت الكلمة، وأغار من في ولندر من الروم على ديارهم وهم عنها خُلُوف، فسبوا كثيراً من الذرية، وساقوا كثيراً من الأموال، ونمى ذلك إليهم وهم مشاغيل في حربهم، فاجتمعت كلمتهم، وتواهبوا ما كان بينهم من الدماء، وعمد القوم جميعاً نحو مدينة ولندر، فساروا إليها في نحو من ستين ألف فارس، وذلك على غير احتفال منهم ولا تجمُّع،

ولو كان ذلك لكانوا في نحو من مائة ألف فارس، فلما نمى خبرهم إلى أرمنوس ملك الروم في هذا الوقت –وهوسنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة –سير إليهم اثني عشر ألف فارس من المتنصرة على الخيول بالرماح في زي العرب، وأضاف إليهم خمسين ألفاً من الروم، فوصلوا إلى مدينة ولندر في ثمانية أيام، وعسكروا وراءها، ونازلوا القوم، وقد كانت الترك قتلت من أهل ولندر خلقاً كثيراً من الناس، وامتنع أهلها بسورهم إلى أن أتاهم هذا المدد، ولما صح عند الملوك الأربعة من سار إليهم من المتنصرة والروم بعثوا إلى بلادهم فجمعوا من كان قبلهم من تجار المسلمين ممن يطرأ إلى بلادهم من نحو بلاد الخزر والباب واللان وغيرهم، وفي هؤلاء الأجناس الأربعة من قد أسلم، وهم غير مخالطين لهم إلا عند حروب الكفار.

فلما تصافَّ القوم وبرزت المتنصرة أمام الروم خرج إليهم من كان قِبَلَ الترك من التجار المسلمين فدعوهم إلى ملة الإسلام، وأنهم إن دخلوا في أمان الترك أخرجوهم من بلادهم إلى أرض الإسلام، فأبوا ذلك، وتواقَفَ الفريقان في ذلك الوقت، فكانت للمتنصرة والروم على الترك ؛ لإنهم كانوا في الكثرة أضعاف الترك، وباتوا على مَصَافِّهم، وتشاور ملوك الترك الأربعة فقال لهم ملك بجناك : قلدوني التدبير في غداة غد، فأنعموا له بذلك، فلما أصبح جعل في جناح الميمنة كراديس كثيرة كل كردوس منها ألف، وكذلك في جناح الميسرة، فلما تصافَّ القوم خرجت الكراديس من ناحية الميمنة فرشقت في قلب الروم فصارت إلى الميسرة، وخرجت كراديس الميسرة فرشقت في قلب الروم فصارت إلى موضع من خرج من جناح الميمنة، واتصل الرمي، واتصلت الكراديس كالرحى، والقلب والميمنة والميسرة للترك ثابتة، والكراديس تعمل عليها في اللفيق، وذلك أن من خرج من كراديس الترك من جناح ميمنتهم كان يبتدىء فيرمى في جناح ميسرة الروم ويمر بميمنتهم فيرمى وينتهي إلى القلب، وما يخرج من كراديسهم من جناح الميسرة يرمى في جناح ميمنة الروم، وينتهي إلى الميسرة فيرمى، وينتهي إلى القلب فيرمى، فيكون ملتقى الكراديس في القلب دائراً على ما وصفنا، فلما نظرت المتنصرة والروم إلى ما لحقهم من تَشَوُّش صفوفهم وتواتر الرمي عليهم حملوا على القوم مشوشين في مصافهم فصادفوا صفوف الترك ثابتة فأخرجت لهم

الكراديس، فرشقتهم الترك كلها رشقاً واحداً، فكان ذلك الرشق سبب هزيمة الروم، وعقبهم الترك بعد الرشق بالحملة على صفوفهم وهم غير متشوشين عما كانوا عليه من التعبئة، وركضت الكراديس من اليمين والشمال، وأخذ القوم السيف، وأسود الأفق، وكثر صياح الخيل، فقتل من الروم والمتنصرة نحو من ستين ألفاً حتى كان يصعد إلى سور المدينة على جثثهم، فافتتحت المدينة، وأقام السيف يعمل فيها أياماً، وسبي أهلها، وخرج عنها الترك بعد ثلاثة أيام يؤمون القسطنطينية، ثم توسطوا العمائر والمروج والضياع قتلا وأسرا و سبيا، حتى نزلوا على سور القسطنطينية، فأقاموا عليها نحواً من أربعين يوماً يبيعون المرأة والصبي منهم بالخرقة والثوب من الديباج والحرير، وبذلوا السيف في الرجال فلم يبقوا على أحد منهم، وربما قتلوا النساء والولدان، وشنُّوا الغارات في تلك الديار، فاتصلت غاراتهم بأرض الصقالبة وورومية، ثم اتصلت غاراتهم في هذا الوقت إلى نحو بلاد الأندلس والإفرنجة والجلالقة، فغارات من ذكرنا من الترك متصلة إلى أرض القسطنطينية وما ذكرنا من الممالك إلى هذه الغاية.

فلنرجع الآن إلى ذكر جبل القبخ والسور والباب والأبواب ؛ إذ كنا قد ذكرنا جملا من أخبار الأمم القاطنة في هذا الصقع، فمن ذلك أن أمة تلي بلاد اللان يقال لها الأبخاز منقادة إلى دين النصرانية، ولها ملك في هذا الوقت ،وملك اللان مستظهر عليهم، وهم متصلون بجبل القبخ، ثم يلي ملك الأبخاز ملك الجورية، وهي أمة عظيمة منقادة إلى دين النصرانية تدعى خزران، ولها ملك في هذا الوقت، يقال له الطبيعي، وفي مملكة هذا الطبيعي موضع يعرف بمسجد ذي القرنين، وكانت الأبخاز والخزرية تؤدي الجزية إلى صاحب ثغر تفليس منذ فتحت تفليس وسكنها المسلمون إلى أيام المتوكل ؛ فإنه كان بها رجل يقال له إسحاق بن إسماعيل، وكان مستظهراً بمن معه من المسلمين على من حوله من الأمم، وهم منقادون إلى طاعته وأداء الجزية إليه، وعلا أمر من هناك من الأمم حتى بعث المتوكل بعثاً فنزل على ثغر تفليس، وأقام عليها محارباً حتى افتتحها بالسيف، وقتل إسحاق بن إسماعيل ؛ لأن إسحاق بن إسماعيل كان متغلباً على الناحية، وكانت له أخبار يطول ذكرها، وهي مشهورة

في أهل ذلك الصقع وغيرهم ممن عنى بأخبار العالم، وأراه رجلا من قريش من بني أمية أو مولى لاحقاً، فانخرقت هيبة المسلمين من ثغر تفليس من ذلك الوقت إلى هذه الغاية، فامتنع من جاورهم من الممالك من الإذعان لهم بالطاعة، واقتطعوا الأكثر من ضياع تفليس، وانقطع الوصول من بلاد الإسلام إلى ثغر تفليس بين هؤلاء الأمم من الكفار ؛ إذ كانت محيطة بذلك الثغر، وأهلها ذوو قوة وبأس شديد، وإن كان ما ذكرنا من الممالك محيطاً بهم.

ثم تلي مملكة خزران مملكة يقال لها الصمخى، نصارى وفيهم جاهلية لا ملك لهم، ثم تلي مملكة هؤلاء الصممصخية بين ثغر تفليس وقلعة باب اللان المقدم ذكرها مملكة يقال لها الصنارية، وملكهم يقال له كرسكوس، هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم، وينقادون إلى دين النصرانية، وهؤلاء النصرانية يزعمون أنهم من العرب من نزار بن معد، من مضر، وأنهم فخذ من عقيل، سكنوا هنالك من قديم الزمان، وهم هناك مستظهرون على كثير من الأمم، ورأيت ببلاد مأرب من أرض اليمن أناساً من عقيل محالفة لمذحج، لا فرق بينهم وبين أحلافهم ؛ لاستقامة كلمتهم، فيهم خيل كثيرة ومنعة، وليس في اليمن كلها قوم من نزار بن معد غير هذا الفخذ من عقيل، إلا ما ذكر من ولد أنمار بن نزار بن معد، ودخولهم في اليمن حسب ما ورد به الخبر، وهو ما كان من خبر جرير بن عبدالله البجلي مع النبي صلى الله عليه وسلم، وما كان من خبر بجيلة، والصنارية يزعمون أنهم افترقوا في قديم الزمان هم ومن سمينا من عقيل ببلاد مأرب في خبر طويل.

ثم تلي مملكة الصنارية مملكة شكين، وهم نصارى وفيهم خلق من المسلمين من التجار وغيرهم من ذوي المهن، ويقال لملكهم في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا آزر بن نبيه بن مهاجر.

ثم تليهم مملكة قيلة وما حوت المدينة منها مسلمون، وما حولها من العمائر والضياع نصارى، ويقال لملكهم في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا هذا عنبسة الأعور، وهو مأوى اللصوص والصعاليك والدُّعّار.

ثم تلي هذه المملكة مملكة الموقان، وهي التي قدمنا ذكرها، وأنها متغلبٌ عليها، وأنها مضافة إلى مملكة شروان شاه، وليس هذا البلد المعروف بالموقانية هو الملك الذي على ساحل بحر الخزر، وقد كان محمد بن يزيد المعروف بشروان شاه في هذا الوقت ملك الإيران شاه هو ومن سلف من آبائه، وكان ملك شروان شاه علي بن الهيثم، فلما هلك علي تغلّب محمد على شروان شاه على حسب ما ذكرنا آنفاً، بعد أن قتل عمومة له واحتوى على ما ذكرنا من الممالك، وله قلعة لا يذكر في قلاع العالم أحسن منها في جبل القبخ.

وللباب أخبار كثيرة من أخبار الأبنية العجيبة التي بناها كسرى بن قباذ بن فيروز –وهو أبو كسرى أنوشروان –في الموضع المعروف بالمسقط من المدينة بالحجارة والحيطان التي بناها ببلاد شروان المعروف بسور الطين وسور الحجارة المعروف بالبرمكي وما يتصل ببلاد برذعة.

وأما نهر الكر فيبتدىء من بلاد خزران من مملكة جرجين، ويمر ببلاد أبخاز حتى يأتي ثغر تفليس، ويشق في وسطه، ويجري في بلاد السياوردية حتى ينتهي على ثمانية أميال من برذعة، ويجري إلى برداج من أعمال برذعة ثم يصب فيه مما يلي الصنارة نهر الرس، ويظهر من أقاصي بلاد الروم من نحو مدينة طرابزندة حتى يجيء إلى الكر، وقد صار فيه نهر الرس، فيصب في بحر الخزر، ويجري الرس بين بلاد البدين – وهي بلاد بابك الخرمي – من أرض أذربيجان وجبل أبي موسى من بلاد الران، ويمر ببلاد ورثان، وينتهي إلى حيث وصفنا، وقد أتينا على وصف هذه الأنهار أيضاً، والنهر المعروف بأسبيذروج،وتفسير ذلك النهر الأبيض على التقديم والتأخير بين اللغتين وهي الفارسية والعربية، ومره وجريانه في أرض الديلم نحو قلعة سلار، وهو ابن أسوار الديلمي بعض ملوك الديلم،وقد ظهر في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا تغلب بلاد أذربيجان، ثم يمر هذا النهر من الديلم إلى الجيل، ويصب فيه نهر آخر في بلاد الديلم، يقال له: شاهان روذ، فينتهي مصب الجميع إلى بحر الجيل، وهو بحر الديلم والخزر وغيرهم ممن ذكرنا من الأمم المحيطة بهذا البحر، وعلى هذه الأنهار أكثر هؤلاء الديلم والجيل الذين قد ظهروا وتغلبوا على كثير من الأرض.)

يستخدم المسعودي كلمة (أخبار) ، شانه شأن معظم المؤرّخين والجغرافين المسلمين

الأوائل ، بمعنى (تواريخ) . وكما لاحظنا فقد عرض جانبا من تواريخ بعض شعوب الشمال ، وبخاصة منها تلك التي استوطنت اقاصي الشمال، لكنه في النص الآتي يلتفت إلى قضية أخرى متصلة بمنطقة أخرى من مناطق الشمال، إنها بلاد الروم ومايجاورها ، ليكشف لنا هذه المره أمرا على غاية من الأهمية، وهو انتشار المسيحية في الحدود الجنوبية لبلاد الشمال، قبل أن يعمّ انتشارها في تلك المناطق فيما بعد كاملة في القرن العاشر الميلادي .

(٤)

دخول النصرانية إلى بلاد الروم، وأخبار ملوك القسطنطينية المسعودي: من كتاب(مروج الذهب)

(مَلك قسطنطين بعد أن هلك قليطانس برومية، وهو يعبد الأوثان، وكان أول ملك انتقل من ملوك الروم عن رومية إلى بوزنطيا، وهي مدينة القسطنطينية، فبناهاوسماها باسمه إلى وقتنا هذا، وكان له في بنائها خبر ظريف مع بعض ملوك برجان ؛ لخوف داخله من بعض ملوك ساسان، وكان خروجه من رومية، ودخوله في دين النصرانية، لسنة خلت من ملكه ؛ ولتسع سنين خلت من ملكه خرجت أمه (هلاني) إلى أرض الشام، فبنت الكنائس، وسارت إلى بيت المقدس، وطلبت الخشبة التي صلب عليها المسيح عندهم، فلما صارت إليها حلّتها بالذهب والفضة، واتخذت لوجودها عيداً، وهو عيد الصليب، وهو لأربع عشرة تخلو من أيلول، وفيه تفتح الترع والخلجانات ببلاد مصر، وهي التي بنت كنيسة حمص على أربعة أركان، وذلك من عجائب بنيان العالم، واستخرجت الكنوز والدفائن بمصر والشام، وصرفت ذلك إلى بناء الكنائس، وتشييد دين النصرانية .

وكل كنيسة بالشام ومصر وبلاد الروم ؛ فإنها بنتها هذه الملكة (هلاني) أم قسطنطين، وجعل اسمها مع الصليب في كل كنيسة لها، وليس للروم في أحرفهم هاء، وأحرف (هلاني) خمسة أحرف، فالأول إمالة، وهو بحساب الجمل خمسة، والثاني –وهو اللام–

ثلاثون، والثالث إمالة أيضاً، وهي خمسة أيضاً، والرابع النون وهي خمسون، والخامس ياء، وهو في حساب الجمل عشرة؛ فذلك مائة اختصاراً على ما ذكرنا... ولتسع عشرة سنة خلت من ملك قسطنطين بن هلاني اجتمع ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً بمدينة نيقية بأرض الروم، فأقاموا دين النصرانية، وهذا الاجتماع أول الاجتماعات الستة التي يذكرها الروم في صلواتهم ويسمونها القوانين، ومعنى هذه الاجتماعات الستة بالرومية السنودسات، واحدها سنودس .فالأول بنيقية على ما ذكرنا من العدد، وكان الاجتماع فيه على أريوس ،وهذا اتفاق من سائر أهل دين النصرانية من الملكية والمشارقة، وهم العباد الذين تسميهم الملكية وعامة الناس النسطورية، واتفاق من اليعاقبة على هذا السنودس أيضاً . والسنودس الثاني بالقسطنطينية على مقدونس، وعدة المجتمعين فيه من الأساقفة مائة وخمسون رجلا. والسنودس الثالث بأفسوس وعددهم مائتا رجل . والسنودس الرابع بخلقدونية، وعددهم ستمائة وستون رجلا. والسنودس الخامس بقسطنطينية، وعددهم مائة وستة وأربعون رجلا. والسنودس السادس كان في مملكة المدائن، وعددهم مائتان وتسعة وثمانون رجلا. وسنذكر بعد هذا الموضع في ترتيب ملوك الروم هذه السنودسات، وغلبة دين النصرانية، وزوال عبادة التماثيل والصور.

وكان السبب في دخول قسطنطين بن هلاني في دين النصرانية والرغبة فيه أن قسطنطين خرج في بعض حروب برجان، أو غيرهم من الأمم، وكانت الحرب بينهم سجالا نحواً من سنة، ثم كانت عليه في بعض الأيام، فقتل من أصحابه خلق كثير، فخاف البوار، فرأى في النوم كأن رماحاً نزلت من السماء، فيها عذاب، وأعلاماً على رؤوسها صلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس، وأنواع الجواهر والخشب وقيل له: خذ هذه الرماح، وقاتل بها عدوك تنصر فجعل يحارب بها في النوم، فرأى عدوه منهزماً، وقد نصر عليه، وولاه الدبر. فاستيقظ من رقدته، ودعا بالرماح فركب عليها ما ذكرنا، ورفعها في عسكره، وزحف إلى عدوه، فولوا و أخذهم السيف. فرجع إلى مدينة نيقية، وسأل عن أهل الخبرة عن تلك الصلبان، وهل يعرفون ذلك في شيء من الآراء والنحل؟ فقيل له: إن بيت المقدس من أرض

الشام مجمع لهذا المذهب، وأخبر بما فعل من قبله من الملوك من قتل النصرانية. فبعث إلى الشام، وإلى بيت المقدس، فحشد له ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً، فأتوه وهو بنيقية، فقصّ عليهم أمره، فشرعوا له دين النصرانية. فهذا هو السنودس الأول، وهو الاجتماع على ما ذكرنا، وقد قيل: إن أم قسطنطين هلاني كانت قد تنصرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا.

وكان ملك قسطنطين إلى أن هلك إحدى وثلاثين سنة، وفي وجه آخر من التاريخ أنه ملك خمساً وعشرين سنة، وقد أتينا على أخباره وحروبه وخروجه مرتاداً لموضع القسطنطينية، ووروده إلى هذا الخليج الآخذ من بحر مايطس ونيطس، وإن خليج القسطنطينية يأخذ من هذا البحر، ويجري فيه الماء جريا، ويصب إلى بحر الشام، ومسافة هذا الخليج ثلثمائة وخمسون ميلا، وقيل: أقل من ذلك، وعرضه في الموضع الذي يأخذ من بحر مايطس نحو من عشرة أميال، وهناك عمائر، ومدينة للروم تدعى سباه، تمنع من يرد في هذا البحر من مراكب الروس، وغيرها، ثم يضيق هذا الخليج عند القسطنطينية، فيصير عرضه – وهو موضع العبور من الجانب الشرقي إلى الموضع الغربي الذي فيه القسطنطينية – نحواً من أربعة أميال، وعليه العمائر، وينتهي في ضيقه إلى الموضع المعروف بالأندلس. وهناك جبال وعين ماء كثير، ماؤها موصوف، تعرف بعين مسلمة بن عبدالملك وكان نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية، وأتته مراكب المسلمين، وفم هذا الخليج مما يلي بحر الشام، ومنتهى مصبه مضيق هناك برج يمنع من فيه من يرد من مراكب المسلمين في الوقت الذي كانت للمسلمين فيه المراكب تغزو الروم، وأما الآن فمراكب الروم تغزو بلاد الاسلام، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وأخبرني أبو عمير عدى بن أحمد بن عبدالباقي الأزدي –وهو شيخ الثغور الشامية قديماً وحديثاً إلى وقتنا هذا، وهو من أهل التحصيل – أنه لما عبر إلى القسطنطينية في هذا الخليج حين دخل لإقامة الهدنة والفداء كان يتبين جرية هذا الماء وتردده مما يلي بحر مايطس، وربما يتبين في الماء الذي يلي بحر الشام فيجده فاتراً، وهذا يدل على اتصال ماء هذين البحرين،

وأنه قد دخل في بحر الروم إلى هذا الخليج أيضاً، وسمعت غير واحد من أهل التحصيل ممن غزا غزاة سلوقية مع غلام زرافة – وقد كانوا قد دخلوا إلى خليج القسطنطينية، وساروا فيه مسافة بعيدة– أنهم وجدوا الماء في هذا الخليج يقل في أوقات من الليل والنهار ويكثر كالمد والجزر، وعليه العمائر والمدن، فلما أحسوا بنقص الماء بادروا بالخروج منه إلى البحر الرومي، وأن في مدخله من بحر الروم مدينة تقرب من فم الخليج، والخليج بطيف بالقسطنطينية من جهتين مما يلي الشرق ومما يلي الشمال، وفي الجانب الجنوبي البر، وفيه باب الذهب مطلي على صفائح النحاس، وهو عدة أسوار مما يلي الغرب، وفيه قصر وأعلى أسوارها الغربية نحو من ثلاثين ذراعاً، وقد ذكر أنه أقل من ذلك، وأن أقصر موضع فيه عشرة أذرع، وأعلى موضع من سورها ما كان مما يلي الجنوب، فأما ما كان مما يلي الخليج فسور واحد، وفيه قصر وبواشير و أبراج كثيرة ، ولها أبواب كثيرة مما يلي البر والبحر، وحولها كنائس كثيرة، وقد قيل: إن لها ثلاثين باباً، ومنهم من زعم أن عليها مائة باب صغاراً وكباراً، وهو بلد عفن مختلف المهابِّ مرْطب للأبدان لكونه بين ما وصفنا من هذه البحار.

قال المسعودي: ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين، وبرهة من مملكة الروم، تعظم العلماء، وتشرف الحكماء، وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنفس، والتعاليم الأربعة – أعني: الإرتماطيقي، وهو علم الأعداد و الجومطريقي، وعلم المساحة والهندسة، والاسترنوميا، وهو علم النجوم، والموسيقى وهو علم تأليف اللحون – ولم تزل العلوم قائمة السوق، مشرقة الأقطار قوية المعالم، شديدة المقاوم، سامية البناء، إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم، فعفوا معالم الحكمة، وأزالوا رسمها، ومحوا سبلها، وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته، وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته.

وكان من شريف ما تركته المعرفة بعلم الموسيقى ؛ لأنه غذاء للنفس، ومطرب لها، وملهيها، تبتهج عند سماعه، وتحنُّ إلى تأليف أوضاعه، وقد نطقت الحكماء بشرفه، ونبهت على نفاسة محله، فقال الإسكندر: من فهم الألحان استغنى عن سائر اللذات، وقد قالت الفلاسفة: إن النغم والأغاني فضيلة شريفة كانت تعذرت عن المنطق ليست في

قدرته، فلم يقدر على إخراجها، فأخرجتها النفس ألحاناً، فلما أظهرتها سُرَّت بها وعشقتها وطربت إليها، ورتبت الحكماء الأوتار الأربعة بإزاء الطبائع الأربع، فجعلوا الزير بإزاء المرة الصفراء، والمثنى بإزاد الدم، والمثلث بإزاء البلغم، والبمّ بإزاء المرة السوداء ...

ثم ملك الروم بعد قسطنطين بن هلاني الملك المتنصّر (قسطنطين بن قسطنطين) وهو ابن ملك الماضي، وكان ملكه أربعاً وعشرين سنة، وبنى كنائس كثيرة، وشيد دين النصرانية.
ثم تملك ابن أخي قسطنطين الأول (لليانس) فرفض دين النصرانية، ورجع إلى عبادة الأوثان، وهو لليانس المعروف بالحنيفي. وأهل دين النصرانية لبغضهم فيه لرجوعه عن النصرانية وتغييره لرسومها يسمونه (لليانس) البزطاط. وغزا العراق في ملك سابور بن أردشير بن بابك، فأتاه سهْمٌ غرب فذبحه. وقد كان سار إلى العراق في جنود لا تحصىٰ، ولم يكن لسابور حيلة في دفعه ولقائه لمفاجأته إياه، فانصرف سابور عن اللقاء إلى الحيلة في دفعه. وكان من أمره ما وصفنا من سهم الغرب. وكان ملكه إلى أن هلك سنة، وقيل أكثر من ذلك، وهو الملك الثالث من بعد ظهور دين النصرانية.

ولما هلك لليانس جزع من كان معه من الملوك، والبطارقة، والجيوش، ففزعوا إلى بطريق كان معظما فيهم، يقال له يونياس، وقيل: إنه كان كاتب الماضي، فأبى عليهم أن يتملك إلا أن يرجعوا إلى دين النصرانية، فأجابوه إلى ذلك و ضايق سابور القوم، وأحاط بعساكرهم؛ فكان ليونياس مع سابور مراسلات ومهادنة واجتماع ومحادثة ومعاشرة، ثم افترقا، وانصرف بجيوش النصرانية موادعا لسابور، وأخلف عليه ما أتلف من أرضه بأموال حملها إليه، وهدايا من لطائف الروم، وشيد هياكل في دين النصرانية، وردها إلى ما كانت عليه، ومنع من الأصنام والتماثيل، وقتل على عبادتها، وكان ملكه سنة.

ثم ملك بعده (أوالس) وهو على دين النصرانية، ثم رجع عنها، وهلك في بعض حروبه، وكان ملكه إلى أن هلك أربع عشرة سنة. وقيل: إن في أيامه استيقظ أصحاب الكهف من رقدتهم على حسب ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة، وهذا الموضع من أرض الروم في الشمال، وللناس ممن عنى بعلم الفلك في ازورار الشمس

عن كهفهم في حال طلوعها وغروبها لموضعهم من الشمال كلام كثير، وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن ذلك فقال (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم -الآية) وكانوا من أهل مدينة أفسيس من أرض الروم.

ثم ملك بعد أوالس (غراطياس) خمس عشرة سنة، ولسنة من ملكه كان اجتماع النصرانية، وهو أحد الاجتماعات فأتموا القول في روح القدس عندهم وأحرقوا مقدونس بطريق القسطنطينية، وهو السنودس الثاني.

ثم ملك بعده (تدوسيس) الأكبر، وتفسير هذا الاسم عندهم عطية الله وقام بدين النصرانية، وعظّم منها، وبنى كنائس، ولم يكن من أهل بيت الملك ولا من الروم، وإنما كان أصله من الأشبان، وهم بعض الأمم السالفة، وقد كانت ممن ملك الشام ومصر والمغرب والأندلس. وقد تنازع الناس فيهم ؛ فذكر الواقدي في كتابه "فتوح الأمصار" أن بدأهم من أهل أصبهان، وأنهم ناقلة من هنالك، وهذا يوجب أنهم من قبل ملوك فارس الأولى. وذكر عبيدالله بن خرداذبة نحو ذلك ,وساعدهما على ذلك جماعة من أهل السير والأخبار. والأشهر من أمرهم أنهم من ولد يافث بن نوح، وهم ملوك الأندلس من اللّذارقة، واحدهم لذريق، وقد تنوزع في دياناتهم: فمنهم من رأى أنهم كانوا على دين المجوس، ومنهم من رأى أنهم كانوا على مذهب الصابئة وغيرهم من عبدة الأصنام، وقد قلنا: إن الأشهر من أنسابهم أنهم من ولد يافث بن نوح، فكان مدة ملك تدوسيس إلى أن هلك عشر سنين.

ثم ملك بعده (أرقاديس) أربع عشرة سنة، وكان على دين النصرانية. ثم ملك بعده ابنه (تدوسيس الأصغر)، وذلك بمدينة أفسيس، وجمع مائتي أسقف، وهذا الاجتماع الثالث الذي قدمنا ذكره آنفاً ؛ ولعن فيه نسطورس البطرك ؛ وقد ذكرنا في كتابنا (أخبار الزمان) الحيلة التي وقعت على نسطورس بطرك القسطنطينية من صاحب الكرسي بالإسكندرية، وما كان من نسطورس، ونفيه ليوحنا المعروف بالراهب، وما كان من يدوقيا زوجة الملك إلى أن نفى نسطورس من القسطنطينية إلى أنطاكية ثم منها إلى صعيد مصر، والمشارقة من النصارى أضيفوا إلى نسطورس. لأنهم اتبعوه وقالوا بقوله، وإنما وسمتهم الملكية بهذا الاسم

لتعيِّرهم وتعييبهم بذلك. وقد كانت المشارقة بالحيرة وغيرها من الشرق تدعى بالعباد، وسائر نصارى المشرق يأبون هذه الاضافة إلى نسطورس، ويكرهون أن يقال لهم نسطورية، وقد أيد برصوما مطران نصيبين رأي المشارقة في الثالوث، وهو الكلام في الأقانيم الثلاثة والجوهر الواحد ،وكيفية اتحاد اللاهوت القديم بالناسوت المحدث، وكان ملك تدوسيس الأصغر إلى أن هلك اثنتين وأربعين سنة.

ثم ملك بعده (مرقيانوس) ثم ملك الروم (بلخاريا) زوجة مرقيانوس وكانت ملكة معه، وفي أيامها كان خبر اليعاقبة من النصارى، ووقوع الخلاف. بينهم في الثالوث ؛ فكان ملكها سبع سنين. وأكثر اليعاقبة بالعراق وبلاد تكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها إلا اليسير فإنهم ملكية، والنوبة والأرمن يعاقبة، ومطران اليعاقبة بتكريت بين الموصل وبغداد، وقد كان لهم بالقرب من رأس العين واحد فمات، وصاحبهم اليوم بناحية حلب ببلاد قنسرين والعواصم، وكرسي اليعاقبة رسمه أن يكون بمدينة أنطاكية، وكذلك لهم كرسي بمصر، ولا أعلم لهم غير هذين الكرسيين، وهما مصر و أنطاكية.

ثم ملك بعدهما (اليون) الأصغر بن اليون، وكان ملكه ست عشرة سنة، وفي أيامه أحرم مسعرة اليعقوبي بطرك الإسكندرية، واجتمع له من الأساقفة ستمائة وثلاثون أسقفاً. وفي تاريخ الروم أن عدة المجتمعين ستمائة وستون رجلا، وذلك بخلقدونية، وهذا الاجتماع هو السنودس الرابع عند الملكية. واليعاقبة لا تعتد بهذا السنودس. ولهم خبر ظريف في قصة سوارى البطرك، وما كان من أمره، وخبر تلميذه يعقوب البراذعي، ودعوته إلى مذهب سوارى، واليعاقبة أضيفت إلى مذهب يعقوب البراذعي هذا، وبه عرفت وكان من أهل أنطاكية يعمل البراذع. ثم ملك بعده اليون الأصغر ابن إليون، سنة على دين الملكية.

ثم ملك بعده (زينو) وهو من بلاد الأرمينيان، وكان يذهب إلى رأى اليعقوبية، وكان ملكه سبع عشرة سنة، وكانت له حروب مع خوارج خرجوا عليه في دار الملك، فظفر بهم .ثم ملك بعده (نسطاس) وكان يذهب إلى مذهب اليعقوبية، وبنى مدينة عمورية، وأصاب كنوزاً ودفائن عظيمة، وكان ملكه إلى أن هلك تسعاً وعشرين سنة. ثم ملك بعده

(يوسطاناس) تسع سنين.

ثم ملك بعده (يوسطاناس) تسعاً وثلاثين سنة، وقيل: أربعين، وبنى كنائس كثيرة، وشيد دين النصرانية، وأظهر مذهب الملكية، وبنى كنيسة الرها، وهي إحدى عجائب العالم، والهياكل المذكورة، وقد كان في هذه الكنيسة منديل يعظمه النصارى، وذلك أن يسوع الناصرى – حين أخرج من ماء المعمودية – تنشف به ؛ فلم يزل هذا المنديل يتداول إلى أن قرر بكنيسة الرها، فلما اشتد أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرها في هذه السنة – وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – أعطى هذا المنديل للروم، فجنحوا إلى الهدنة، وكان للروم عند تسلمهم هذا المنديل فرح عظيم .ثم ملك بعده ابن أخيه "نوسطيس" ثلاث عشرة سنة، على راي الملكية. ثم ملك بعده (طباريس) أربع سنين، وأظهر في ملكه أنواعاً من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك.

ثم ملك بعده (موريقش) عشرين سنة، ونصر كسرى أبرويز على بهرام جوبين، فقتل غيلة، وبعث أبرويز غضباً له بجيوش إلى الروم، وكانت لهم حروب على حسب ما قدمنا. ثم ملك بعده (فوقاس) ثمان سنين إلى أن قتل أيضاً. ثم ملك بعده (هرقل) وكان بطريقاً في بعض الجزائر قبل ذلك، فعمر بيت المقدس، وذلك بعد انكشاف الفرس عن الشام، وبنى الكنائس، ولسبع سنين من ملكه كانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة شرفها الله تعالى.)

لاحظنا كيف أن المسعودي يقدّم تسلسلا لتاريخ الروم استنادا إلى عهود الملوك، ولكن الملاحظ عليه الاهتمام بالحوادث الدينية، وبخاصة أنه يسلط الضوء على المجمعات الدينية التي بلورت النصرانية، وصاغت قوانينها الكنسية عبر لقاءات كثيرة، تمكنت خلالها من صهر التباينات المذهبية المتعارضة، وإن كانت لم تفلح تماما في توحيدها بصورة نهائية، وهو يشير بوضوح إلى موقع الكنيسة الشرقية التي لها منظور مختلف نسبيا عن الكنيسة الغربية، أقصد المذاهب الكنسية التي نشأت في الغرب، وتأثرت بالسياقات الثقافية والاجتماعية الخاصة بها ،الأمر الذي جعل اللاهوت الكنسي الغربي مختلفا عن نظيره

الشرقي. وليس من المبالغة القول بأن المسعودي يقدم تاريخا مبكرا لهذة القضية، تاريخا يعود إلى القرن العاشر الميلادي،ذلك القرن الذي بالكاد استكمل فيه تنصير أوربا. ومع أن المسعودي يتبنّى منهج التاريخ الشائع آنذاك، وهو الذي يعتمد العهود السياسية المتعاقبة للملوك ، فإنه لايغفل الإشارة إلى حوادث لها قيمة كبيرة في سياق التاريخ الروماني، ومنها الدينية التي أشرنا إليها. والواقع فإن المسعودي الذي يتميز بموسوعية نادرة في زمنه، لايلتزم هذا المنهج دائما، فهو كثيرا ما يعنى بما هوأهم من ذلك بكثير، قصدتُ وصف المجتمعات بخصائصها الدينية والثقافية والسياسية، كما ظهر ذلك في النصوص التي تظهر في هذا الكتاب . وفي النص الآتي يقدّم هذه المرّة تحديا جغرافيا لأجزاء بلاد الروم،تلك البلاد التي تابعنا معه في النصين السابقين أوضاعها التاريخية والدينية.

(٥)

ذكر أجزاء بلاد الروم

وحدودها ومقاديرها، وما يتصل منها بالخليج، وبحر الروم والخزر

المسعودي: من كتاب (التنبيه والاشراف)

(أرض الروم أرض واسعة في الطول والعرض آخذة في الشمال بين المشرق والمغرب، مقسومة في قديم الزمان على أربعة عشر قسماً: أعمال مفردة، تسمي البنود كما يقال: أجناد الشام؛ كجند فلسطين، وجند الاردن، وجند دمشق، وجند حمص، وجند قنسرين. غير أن بنود الروم أوسع من هذه الاجناد وأطول.

والروم يسمون بلادهم أرمانيا، ويسمون البلاد التي سكانها المسلمون في هذا الوقت من الشآم والعراق سوريا. والفرس إلى هذا الوقت تقارب الروم في هذه التسمية، فيسمون العراق والجزيرة والشآم (سورستان)إضافة إلى السريانيين الذين هم الكلدانيون، ويسمون سريان ولغتهم سورية، وتسميهم العرب النبط.

فالبند الأول يسمى (الافتي ماتى)تفسير ذلك الأذن والعين وهو (بند الناطليق) أعظم

بنود الروم فيه عمورية، أوله مما يلي بلاد الاسلام من الثغور الشامية حصن هرقلة، وأول عمل الناطليق رسناق يعرف بغصطوبلى، وفيه يقوم سوق البخور، وهو سوق يقوم في السنة مرة.

البند الثاني (بند الابسيق) فيه مدينة نيقية، وأول عمل هذا البند غصطوبلى، وآخره خليج القسطنطينية. فهذان البندان من دار الاسلام إلى خليج القسطنطينية في الطول يكون أميالا أربعمائة ميل وأربعة وثلاثين ميلا.

البند الثالث (يسرة الناطليق) ويعرف (بترقسين) وهو بند أفسيس مدينة أصحاب الكهف ومدينة زمرنى، أخرج هذا البند عدة من الحكماء في سالف الزمان: فلاسفة وأطباء، فمن الأطباء روفس الافسيسي له مصنفات كثيرة في الطب، وجالينوس يمدحه في كثير من كتبه ،ويذم روفس الحينيطى، وهذا البند متصل ببحر الروم والشام.

البند الرابع (بند بنطيليا) وهي (دقابلى) يتصل بالبحر الرومي أيضا وفي آخر هذا البند عمل سلوقية ،وحصن بوقية واللامس الذي يكون فيه الفداء بين المسلمين والروم ،ومنه إلى طرسوس خمسة وثلاثين ميلا ،وهو بند ضيق، وحروب المسلمين عليه براً وبحراً .فهذان البندان متصلان من دار الاسلام على البحر الرومي إلى خليج القسطنطينية أيضاً يكون طولهما ثلاثمائة ميل وخمسة وستين ميلا.

البند الخامس (بند القباذق) وهو يمنة عمورية فيه قرة وحصن يدقسي وحصن سلندو وذو الكلاع –واسمه بالرومية كربسطرة– وقونية ووادي سالمون ووادي طامسة، وأول عمل هذا البند مما يلي الثغور الشامية مطمورة تعرف بماجدة من قلعة لؤلؤة على نحو عشرين ميلا وآخره نهر آلس ،وتفسير (آلس) بالعربية نهر الملح ،وهو نهر مقلوب يجري مما يلي الجنوب مستقبلا للشمال كنيل مصر ومهران السند ونهر أنطاكية المعروف بالارنط .وما عدا ذلك من الأنهار الكبار فمصبها كلها من الشمال الى ناحية الجنوب لارتفاع الشمال على الجنوب وكثرة مياهه.

البند السادس (بند البقلاّر) وهو بند عمل أنقرة وأول عمل أنقرة نهر آلس ،وهو آخر

عمل القباذق ،وآخر عمل البقلار بحر الخزر الذي هو بحر مايطس. فهذان البندان متصلان من دار الاسلام إلى بحر الخزر في الطول يكون أميالا أربعمائة ميل وخمسة وأربعين ميلا، وليس للروم طول من بند البقلار هذا، ولا أكثر رجالة منه.

البند السابع (بند الافطماط) وهو عمل نقمودية، وهو بند مربع بين البقلار والابسيق ،وآخر عمل هذا البند خليج القسطنطينية، وعرض الخليج هناك ميل ويسمي ذلك الموضع إلى هذا الوقت أقروبلى....

البند الثامن (بند الارمنياق) يمنة البقلار ؛ وهو عمل ماسية، وفي طرف هذا البند عمل خرشنة، وآخره بحر مايطس الذي يسميه كثير من الناس بحر الخزر، وانما هو متصل به لأن بحر الخزر هو الذي عليه دور الاعاجم كالباب والأبواب وموقان والجبل والديلم، وآبسكون ساحل جرجان، والبهم ساحل آمل قصبة طبرستان ...

البند التاسع (بند فلاغونية) وهو يمنة الارمنياق وفي طرفه عمل قلونية. فهذه تسعة بنود دون الخليج مما يلي الثغور الشأمية والجزرية وغيرها من بلاد الاسلام، والخمسة الباقية من البنود وراء الخليج متصلة بالقسطنطينية ،وهي: (بند طابلا) ومنه القسطنطينية حده من جهة المشرق الخليج الآخذ من بحر الخزر إلى بحر الشأم ومن القبلة بحر الشأم، ومن المغرب سور ممدود من بحر الشأم إلى بحر الخزر يسمى (مقرون تيخس) تفسيره السور الطويل، طوله مسيرة أربعة أيام وبينه وبين القسطنطينية يومان وأكثر هذا البلد ضياع الملك والبطارقة، ومروج المواشي. (بند تراقية).(بند مقدونية).(بند بلبونيسة) تفسير ذلك الجزائر الكثيرة، وقيل البلدان الكثيرة وهو غربي القسطنطينية فيه خرقيذية ومثونية وقرنتو واثينس ،وهي مدينة ارسطاطاليس بن نيقوماخس وثاوفرسطس، ودار ارسطاطاليس فيها بينة إلى هذا الوقت معروفة معظمة. (بند سالونيكة) التي افتتحها لاون غلام زرافة في البحر في خلافة المكتفي ،وهي مدينة عظيمة بنيت قبل القسطنطينية بناها الاسكندر بن فيلبس الملك.

وقد غلبت البرغز وأجناس من الترك بدو يسمون (الوَلندرية) إضافة إلى مدينة في أقاصي ثغور الروم مما يلي المشرق تعرف بولندر وهم بجناك ويجنى وبجغرد ونوكبردة على أكثر

هذه البنود الخمسة وذلك بعد العشرين والثلاثمائة، وخيموا هناك ومنعوا الطريق من القسطنطينية إلى رومية وهو مسافة نحو أربعين يوما، وأخربوا أكثر ما هناك من العمائر، واتصلت غاراتهم بالقسطنطينية فلا وصول لمن في القسطنطينية إلى رومية في هذا الوقت إلا في البحر، وإنما العمارة بينهما مما يلي القسطنطينية مسيرة أيام كثيرة...

وكان صاحب رومية منقادا إلى صاحب القسطنطينية مطيعا له ممتثلا لأمره لا يلبس تاجا ولا يتسمّى بالملك ،على ذلك جرت رسومهم قديما قبل ظهور الاسلام إلى نحو سنة ٣٤٠ للهجرة فإن صاحب رومية قوى أمره وكثرت جموعه، فلبس التاج والثياب الفرفير والخفاف الحمر وغير ذلك مما يختص به ملك الروم وتسمى ملكا. فلما بلغ قسطنطين بن أليون الملك على الروم في هذا الوقت ذلك أنفذ اليه الجيوش فعادت اليه منكوبة مهزومة فكاتبه حينئذ ورضى منه بالمسالمة.

وقد كان جرى بينهما مصاهرة قبل هذه المنابذة ؛ زوّج ملك رومية ابنته بأرمانوس بن قسطنطين، وحملها إليه، وجهزها بأفخر ما تجهز به بنات الملوك وأعظمه قدرا ،فهلكت عنده .وسائر أجناس الإفرنجية من الجلالقة والجاسقس والوشكنس وارمانجس، واكثر الصقالبة والبرغز وغيرهم من الأمم دائنون بالنصرانية منقادون إلى صاحب رومية، ورومية دار مملكة الافرنجة العظمى قديما وحديثا.

وقد ذكر ذلك ارسطاطاليس في رسالته إلى الاسكندر التي يحرضه فيها على المسير لحرب دارا بن دارا ملك فارس فقال (إنك أيها الملك قد رأيت أمارات الظفر عند مسيرك أولا إلى الافرنجة، فإن مشايخهم الذين كانوا على تخوم بلادهم ؛ لما دنوت منهم أسلموا أطراف بلادهم والتجئوا إلى مدينتهم العظمى رومية) .

قال المسعودي: وكانت مساكن الروم واليونانيين متجاورة كمجاورة سكان العراق، وهم النبط للفرس سكان فارس والاهواز وأرض الجبال من الماهات وغيرها قبل تجيّل الأجيال وتحزّب الأمم، إلى أن غلبت الروم على ديار اليونانيين، وصار الجميع روما كغلبة الفرس على مملكة النبط غير أن كل فريق منهم يحفظون أنسابهم ويرجعون إلى شعوبهم. وقد ذكرنا في أخبار اليونانيين، أن هذه البنود التسعة التي تلي أرض الاسلام في هذا الوقت كانت ديار

اليونانيين فإلى وراء الخليج بأيام، وكانت ديار الروم ما وراء ذلك إلى وراء بلاد رومية وأرض الافرنجة برا وبحرا، وذلك نحو من خمسمائة فرسخ إلى أن تتصل ببحر أوقيانس المحيط وبلاد الأندلس، وأتينا على أخبار هذه البنود ومقاديرها وما يتصل منها بالبحر وما لا يتصل، وما فيها من الحصون العظام والموانى والبحيرات والأنهار والهوتات والحمات. وما وطىء منها المسلمون في أيام مغازيهم، وبماذا التنازع في أسمائها، وإلى ماذا أضيفت وولاتها ومراتبها ومواضعهم وسماتهم ومقادير جيوشهم، ومن يحاربهم من الأمم في البر والبحر، وما استرجعوه مما كان المسلمون غلبوا عليه من بلادهم ؛ كملطية وشمشاط وحصن منصور وقلعة إبريق التي كانت مدينة البيالقة.

وكان بها عدة من بطارقتهم منهم قربياس مولى آل طاهر بن الحسين وخرسخارس وغيرهما ومدينة سيحان التي يخرج منها العيون التي هي أصل نهر سيحان، وهو نهر أذنة من الثغر الشآمي وغير ذلك من الثغور الجزرية فالى بلاد قاليقلا، وما يتصل بذلك من المشرق والشمال كأرمينية وغيرها والحصون التي عمرت مما كان المسلمون أخربوه في أول الاسلام مما يلي الثغور الشآمية وما غلبت عليه البرغز وبجناك من الترك وغيرهم من الولندرية من ثغور الروم في هذا الوقت، وخبر السور المسمى بالرومية (مقرون تيخس) تفسير ذلك السور الطويل الحاجز بين بلاد برجان وبين البنود الخمسة التي وراء القسطنطينية المبني في سالف الدهر بين جبلين عظيمين ،وهو دون النهر العظيم المسمى بالصقلبية (دنابي) وعرضه نحو من ثلاثة أميال ...وعليه كثير من البرغز والصقالبة وغيرهم من الأمم الواغلين في الشمال ...)

كنا رأينا في النصوص التي مرّت ، كيف أن المسعودي قد ارتحل بنا في فيافي الشمال مؤرخا وجغرافيا يعنى بكل النسيج الإجتماعي الذي يكتب عنه، لكنه هنا يظهر كعالم متخصص في الأعراق، فهو يقدم لائحة بأجناس الصقالبة والإفرنج والجلالقة من سكان شمالي بلاد الأندلس، فيما يعرف الآن بـ(الباسك) .يبدو أنه من المهم أن نتعرّف عبر المسعودي على أمم الشمال.

(٦)

ذكر الصقالبة والإفرنجة والجلالقة ومساكنها، وأخبار ملوكها، وتفرّق أجناسها

المسعودي: من كتاب (مروج الذهب)

(الصقالبة: من ولد مار بن يافث بن نوح، وإليه يرجع سائر أجناس الصقالبة، وبه يلحقون في أنسابهم. هذا قول كثير من أهل الدراية ممن عنى بهذا الشأن، ومساكنهم بالجدى إلى أن يتصلوا بالمغرب، وهم أجناس مختلفة وبينهم حروب، ولهم ملوك، ومنهم من ينقاد إلى دين النصرانية إلى رأى اليعقوبية، ومنهم من لا كتاب له ولا ينقاد إلى شريعة، وهم جاهلية لا يعرفون شيئاً من الشرائع، وهؤلاء أجناس: فمنهم جنس كان الملك فيهم قديماً في صدر الزمان، وكان ملكهم يدعى ماجك، وهذا الجنس يدعى وليناانا، وكان يتلو هذا الجنس في القديم سائر أجناس الصقالبة ؛ لكون الملك فيهم، وانقياد سائر ملوكهم اليه، ثم يتلو هذا الجنس من أجناس الصقالبة اصطبرانة، وملكهم في هذا الوقت يدعى بصقلائح. وجنس يقال له دلاونة، وملكهم يدعى وانج علاف ،وجنس يقال لهم نامجين، وملكهم يدعى عزانة ، وهذا الجنس أشجع أجناس الصقالبة وأفرس، وجنس يدعى منابن، وملكهم يدعى زنبيبر، ثم جنس يقال له سرتين، وهو جنس عند الصقالبة مهيب لعلل يطول ذكرها وأوصاف يكثر شرحها، ونفرتهم من ملة ينقادون إليها، ثم جنس يقال له صاصين، ثم جنس يقال له جروانيق، ثم جنس يقال له خشانين، ثم جنس يقال له برانجابين. وما سميناه من أسماء بعض ملوك هذه الأجناس فسمةٌ معروفة لملوكهم، والجنس الذي سميناه المعروف بسرتين يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات فيهم الملك و الرئيس، ويحرقون دوابه، ولهم أفعال مثل أفعال الهند . . . وإن في بلاد الخزر مع الخزر خلقاً من الصقالبة والروس، وإنهم يحرقون انفسهم بالنيران، وهذا الجنس من الصقالبة وغيرهم متصلون بالمشرق، ويعبرون من المغرب.

فالأول من ملوك الصقالبة ملك الدير، وله مدن واسعة، وعمائر كثيرة، وتجار المسلمين يقصدون دار ملكه بأنواع التجارات،ثم يلي هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الأوانج، وله مدن وعمائر واسعة، وجيوش كثيرة، وعدد كثير، ويحارب الروم والإفرنج والنوكبرد، وغير هؤلاء من الأمم، والحرب بينهم سجال،ثم يلي هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الترك، وهذا الجنس أحسن الصقالبة صوراً، وأكثرهم عدداً، وأشدهم بأساً. والصقالبة أجناس كثيرة، وأنواع واسعة.

ذكر الإفرنجة، والجلالقة، وملوكها:

الإفرنجة والصقالبة والنوكبرد والأشبان ويأجوج ومأجوج والترك والخزر وبرجان واللان والجلالقة وغير ذلك ممن ذكرنا ممن حل الجدى، وهو الشمال، لا خلاف بين أهل البحث والنظر من الشرعيين أن جميع من ذكرنا من هؤلاء الأمم من ولد يافث بن نوح، وهو الأصغر من ولد نوح؛ فالإفرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأساً، وأمنعهم هيبة، وأكثرهم عدَّة، وأوسعهم ملكا، وأكثرهم مدناً، وأحسنهم نظاماً وانقياداً لملوكهم، وأكثرهم طاعة ؛ إلا أن الجلالقة أشد من الإفرنجة بأساً، وأعظم منهم نكاية، والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الإفرنجة، وكلمة الإفرنجة، متفقة على ملك واحد، لا تنازع بينهم في ذلك، ولا تحزب، واسم دار مملكتهم في وقتنا هذا بويرة، وهي مدينة عظيمة، ولهم من المدن نحو من خمسين ومائة مدينة غير العمائر والكور.

وكان أوائل بلاد الإفرنجة قبل ظهور الإسلام في البحر جزيرة رودس، وهي الجزيرة التي ذكرنا أنها مقابلة للإسكندرية، وأن فيها دار صناعة المراكب في وقتنا هذا للروم، ثم جزيرة إقريطش، وقد كانت للإفرنجة أيضاً ففتحها المسلمون ونزلوها إلى هذه الغاية، وكانت بلاد إفريقية وجزيرة صقلية للإفرنجة أيضاً، وقد أتينا على أخبار هذه الجزائر وخبر الجزيرة المعروفة بالبركان، وهي الأطمة التي يخرج منها أجسام من النار كأجساد الناس بلا رؤوس فتعلو في الهواء بالليل، ثم تسقط في البحر فتطفوا على الماء ، وهي الحجارة التي يحك بها الكتابة من الدفاتر، وهي خفاف بيض على هيئة الشهد وأكوار الزنابير الصغار، وهي الأطمَة المعروفة

بأطمة صقلية، وفيها قبر فرفوريس الحكيم الذي صنف كتاب" ايساغوجي" وهو" المدخل إلى علم المنطق" وهذا الكتاب بهذا الرجل يعرف، وكذلك أتينا على ذكر آطام الأرض، كأطمة وادي برهوت من بلاد حضرموت وبلاد الشِّحْر، وأطمة بلاد الزابج من بحر الصين، وأطمة بلاد أسك، وهي ما بين بلاد فارس وبلاد الأهواز من أعمال مدينة أرجان من بلاد فارس. وهذه النار ترى بالليل من نحو عشرين فرسخاً، وهي مشهورة بأرض الإسلام، وتفسير أطمة هي عين النار التي تنبع من الأرض.

قال المسعودي: ووجدت في كتاب وقع إليّ بفسطاط مصر سنة ست وثلاثين وثلثمائة أهداه عرماز الأسقف بمدينة جربدة من مدن الإفرنجة في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة إلى الحكم بن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان بن الحكم ولي عهد أبيه عبدالرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت في عهده: ياأمير المؤمنين، إن أول ملوك إفرنجة قلودية، وكان مجوسياً فنصرته امرأته وكان اسمها غرطلة، ثم ملك بعده ابنه لذريق، ثم ولي بعد لذريق ابنه دقشرت، ثم ولي بعده ابنه) لذريق)، ثم ولي بعده (قرطان) ابن دقشرت، ثم ولي بعده ابنه (قارله) ثم ولي بعده ابنه (تبين) ثم ولي بعده (قارلة بن تبين) وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة، وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس، وقد تدافع أولاده بعده ووقع الاختلاف بينهم، حتى تفانت الإفرنجة بسببهم، وصار لذريق بن قارلة صاحب ملكهم ؛ فملك ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر، وهو الذي أقبل إلى طرطوشة فحاصرها، ثم ولي بعده ابنه (قارلة بن لذريق) وهو الذي تهادن مع محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان، وكان محمد يخاطب بالإمام، وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة، وستة أشهر، ثم ولي بعده ابنه (لذريق) ستة أعوام، ثم وثب عليه قائد الإفرنجة المسمى نوسة، وملك إفرنجة، وأقام في ملكه ثمان سنين، وهو الذي صالح المجوس على بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الإفرنجة إليهم، ثم ولى بعده (قارلة بن تقويرة) أربع سنين، ثم ملك بعده قارلة

آخر، ومكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر، ثم ولي بعده (لذريق بن قارلة) وهو ملك إفرنجة إلى هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة – وقد استوفى في مملكته عشر سنين إلى هذا التاريخ على حسب ما نمى إلينا من خبره.

قال المسعودي: وأشد ما على الأندلس من الأمم المحاربة لهم الجلالقة، كما أن الإفرنجة حرب لهم، غير أن الجلالقة أشد بأساً، وقد كان لعبدالرحمن بن محمد صاحب الأندلس في هذا الوقت وزير من ولد أمية يقال له أحمد بن اسحاق فقبض عليه عبدالرحمن لأمر كان منه استحق عليه في الشريعة العقوبة، فقتله عبدالرحمن، وكان للوزير أخ يقال له أمية في مدينة من ثغور الأندلس، يقال لها شنترين، فلما نمى إليه ما فعل بأخيه عصى على عبدالرحمن؛ فصار في حيز رذمير ملك الجلالقة، فأعانه على المسلمين، ودلّه على عوراتهم، ثم خرج أمية في بعض الأيام من المدينة يتصيد في بعض منتزهاتها، فغلب على المدينة بعض غلمانه ومنعوه من الدخول إليها، وكتبوا إلى عبدالرحمن، ومضى أمية بن إسحاق أخو الوزير المقتول إلى رذمير، فاصطفاه، واستوزره، وصيره في جملته، وغزا عبدالرحمن صاحب الأندلس سمورة مملكة الجلالقة ...في مائة ألف أو يزيدون، فكانت الواقعة بينه وبين رذمير ملك الجلالقة في شوال سنة سبع وعشرين وثلثمائة بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر بثلاثة أيام، وكانت للمسلمين عليهم، ثم أنابوا بعد أن حوصروا وأولجوا إلى المدينة فقتلوا من المسلمين –بعد عبورهم الخندق– خمسين ألفاً، وقيل: إن الذي منع رذمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن اسحاق، وخوّفه الكمين، ورغبه فيما كان في معسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين، ثم إن أمية بعد ذلك استأمن إلى عبدالرحمن، وتخلص من رذمير، فقبله عبدالرحمن أحسن قبول، وقد كان عبدالرحمن صاحب الأندلس بعد هذه الواقعة جهز عساكر مع عدة من قواده إلى الجلالقة، وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة الأولى، وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية، ورذمير ملك الجلالقة إلى هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة –وكان قبله على

الملك أردون ، وكان قبل أردون أذبوشن، والجلالقة والإفرنجة تدين بدين النصرانية على رأى الملكية .)

يستفيد شمس الدين أبو عبدالله الدمشقي من الصورة التي تشكّلت للأمم الشمالية قبله، ومنها ماأوردناه في النصوص التي مرّت، لكنّ الملاحظ عليه أنه أكثر ميلا لإضفاء الغرابة على مايكتب، لقد عاش في غير عصر المسعودي، ومن ثمّ فالموجهات الفكرية التي يصدر عنا كانت أقل اشعاعا من سابقيه، ولكنه يقدّم معلومة على غاية من الأهمية ،لو تم التثبّت منها، ومفادها أن الصقالبة في الشمال كانوا فيما يخص الجانب العقائدي على قسمين، فمنهم(مَنْ يدين بدين النصرانية، وهم ما قرب من الافرنج) ، ومنهم ، وهم الأقوام في أقصى الشمال (لا ينقاد الى ملة ولا يرجع الى نحلة)وهؤلاء (هم ما توغل في الشمال ودنا من البحر المحيط) ومن طقوسهم الشائعة بينهم انهم (يحرقون ملوكهم إذا ماتوا، ويحرقون معهم عبيدهم وأماءهم ونسائهم ومن كان خاصاً بهم كالكاتب والوزير والمديم والطبيب) . والأمر هذا بحد ذاته كان معروفا في القرن العاشر، إذ لم تتنصر أوربا بالكامل، كما هو شائع، لكن الدمشقي الذي عاش في القرن الثالث عشر وشطر من الرابع عشر الميلادي يقدم معلومة مهمة لو صحت تكون أقاصي الشمال قد ظلت وثنية إلى وقت متأخر.

(٧)
وصف الترك والصقالبة والبلغار ويأجوج ومأجوج والتتر
الدمشقي(توفي ٧٢٧هجري=١٣٢٧ميلادي)من كتاب
(نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر)

(فأما الصقالبة فذهب قومٌ الى أنهم ولد صقلب بن ليطى بن يونان بن يافث .وقال قوم هو صقلب بن ماراى بن يافث، وسكناهم في الشمال. وكانوا قبل أن تغلب عليهم الروم منبسطين ما بين بحر الروم والبحر المحيط طولاً وما بين المغرب والمشرق عرضاً، ولهذا كان

يوجد سبيهم بالاندلس وخرسان، ولما كان بينهم وبين الترك والروم من الحروب ثم تغلبت الروم على كثير من بلادهم التي كانت على ساحل بحر الروم، ولهم ببلادهم مدن وحصون. ومن هؤلاء من يدين بدين النصرانية، وهم ما قرب من الافرنج .ومنهم من لا ينقاد الى ملة ولا يرجع الى نحلة، وهم ما توغل في الشمال ودنا من البحر المحيط. وهؤلاء يحرقون ملوكهم إذا ماتوا ويحرقون معهم عبيدهم وأماءهم ونسائهم ومن كان خاصاً بهم كالكاتب والوزير والمديم والطبيب.

قال أبو عبيدة البكري الصقالبة ذوو بأس شديد وشدّة وصولة ولولا إختلافهم بكثرة تفرع أعراقهم، وتفرق أفخاذهم لما قامت لهم أمة من الأمم ،وإن تجاراتهم تختلف في البر والبحر الى الروس، وبلاد اصطنبول ينتعشون بالبرد ويهلكون بالحر.

وحكى صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (=الإدريسي)أن أجناس الصقالبة في عصره أربعة صلاوبة وبراصية وكراكرية وأرثانية وكلهم ينتسبون الى بلادهم غير الأرثانية يأكلون من وقع إليهم من الغرباء؛ لأنهم يسكنون في غياض وآجام على البحر المحيط كالوحوش. والروس ينتسبون الى مدينة إسمها روسيا على ساحل البحر المنسوب اليهم من شماله. ويقال إنهم ينتسبون الى رؤوس بن ترك بن طوج ،ولهم في بحر مانيطس جزائر يسكنونها ومراكب حربية يقاتلون عليها الخزر ويدخلون اليهم من خليج يصب في هذا البحر من نهر إتل ،فإذا صاروا الى عمود النهر دخلوا من خليج آخر يصب في بحر الخزر فيشنون الغارة عليهم وكانوا يدينون بالمجوسية ثم تنصروا، وهم يحرقون بالنار موتاهم، وفيهم من يحلق لحيته ومن يفتلها ومن يضفرها. ولهم لسان خاص بهم.

قال ابن الأثير في تأريخه ما معناه إن ابني مارمانوس وهما بسيل وقسطنطين وكانا ملكا قسطنطينية استنصرا ملك الروس على عدو لهما وزوجاه أختا لهمان فامتنعت من تسليم نفسها الى من يخالفها في الدين فتنصّر فكان هذا أول دين النصرانية في الروس. فلما تنصّر مكنته من نفسها وكان ذلك خمس وسبعين وثلاثمائة .ويجاور هذه الأمة اللان والبرجان ويقال إنهما أخوان والازكش، وكلهم نصارى ويجاورهم الارمن وهم من ولد ارمن بن ليطى

بن يونان بن يافث ،وهم أخوة الروم وبهم سمّي سقع أرمينية، وهم أصناف الساوردية والصاربة والكرج والكتز وكلهم يدينون بالنصرانية.

وأما الترك فهم ولد عابور بن سويد بن يافث وعلى هذا أكثر النسابين ،ومن الناس من يقول إنهم من ولد ترك بن طوج بن أفريدون، وهذا غلط لان أفريدون ولي على عهد الترك الولاية وهذا موجود في تواريخ الفرس. وزعم آخرون أنهم من ولد إبراهيم الخليل (عم) وأمهم أمة كانت لإبراهيم الخليل (عم) تسمى قيطورا وكان أبوها من العرب العاربة يسمى منطور. وقد جاء في الحديث بنو قيطورا ،وفسر بأنهم الترك وأن قيطورا ولدت لإبراهيم الخليل (عم) ثمانية أولاد سكن منهم ثلاثة وراء النهر وهم الترك والصغد وخرخيز، وعلى هذا يكونون من ولد سام.

والترك أصحاب قلوب قاسية ،وطباع جافية، ونفوس عانية. ومنهم من يسكن المدن، ومنهم من يسكن الجبال والبراري، يتقلبون مع الزمان في طلب الكلاء والعشب بالخيل والبقر والغنم ،ينزلون في بيوت الشعر والخركاوات وليس لهم عمل غير الصيد ،ويأكلون كل طائر وكل وحش .وليس لهم ملة ولا نحلة وإنما يرجعون إلى رسوم وضعتها ملوكهم ،وفيهم قبائل: وهم الخرلخية والخرجزية والكيماكية والغزية والبجناكية والطغزغزية والخلخلية والقلجية والغورية.

وعدّ صاحب كتاب "نزهة المشتاق" في طوائفهم القامانية والتركشية والأزكشية.وعدّ صاحب الأندلس فيهم الخزر والبلغار والبرطاس. فأما الخزر فساكنهم على بحر الخزر،ويسمى الآن بحر القرزم(=قزوين).

وقال ابن الأثير إنهم الكرج ،وليس بموافق بل هم من الأرمن يدينون بالنصرانية، ولهم أربع مدن خلميج وبلنجر وسمندر وإتل. ويقال إن جميعها من بناء أنوشروان. وهم طائفتان جند ،وهم مسلمون ويهود وهم الرعية وكانوا من قبل لا يعرفون ملة كالترك وإنما طرأ فيهم ما حكاه ابن الأثير إن صاحب قسطنطينية أيام هارون الرشيد أجلى من كان في مملكته من اليهود فقصدوا بلد الخزر فوجدوا قوماً عقلاء ساذجين، فعرضوا عليهم دينهم فوجدوهم

أصلح مما هم عليه فانقادوا اليه، وأقاموا زماناً ثم غزاهم جيش من خرسان فتغلب على بلادهم وملكها فصاروا رعية. وحكى ابن الأثير ايضاً أنهم أسلموا سنة أربع وخمسين ومائتين. وذكر في سبب إسلامهم أن الترك غزوهم فطلبوا من أهل خوارزم نصرتهم عليه، فقالوا لهن أنتم كفار فإن أسلمتم نصرناكم. فاسلموا الا ملكهم فنصرهم أهل خوارزم وأزالوا الترك عنهم ثم أسلم ملكهم بعد ذلك. وكانت الخاقانية فيهم في بيت معروف ما يعدل الخاقانية عنه يسمة خاقان خزر، وهو الذي تولى الملك وليس له أمر ولا نهي إلا أنه يعظم ويسجد له ولا يصل اليه أحد إلا الملك ومنْ في طبقته ،وأذا دخل اليه تمرّغ في التراب له وسجد ثم يقوم فلا يزال قائماً حتى يأذن له في الكلام والتقرب. وإذا حدث بهم خطب عظيم أخرج فيهم خاقان فلا يراه أحد من الاتراك ومن يصاقبهم من الكفرة إلا انصرف ولم يقابله تعظيماًله، وإذا مات ودفن لم يمر بقبره أحد إلا ترجّل وسجد ،فلا يركب حتى يغيب القبر عنه. وكانت طاعتهم للملك بحيث أن أحدهم إذا وجب عليه القتل فينصرف الى منزله فيقتل نفسه، وإذا أحبوا أن يولّوا ملكاً خنقوه، وإذا قارب ان يهلك قالواله كم تحب أن تقيم في الملك، فيقول كذا كذا سنة فيكتبوا ذلك ويشهدوا على نطقه، فإذا بلغ تلك السنة ولم يمت قتل.

وأما البلغار فمنسوبون الى السقع، وهم مسلمون أسلموا أيام المقتدر، وبعث ملكهم الى المقتدر يطلب منه فقيهاً يعرفه قواعد الاسلام، فأجابه الى ذلك، ثم وصل جماعة من البلغار الى بغداد يريدون الحج فأقيم لهم من الدواب والاقامات الوافرة ما استعانوا به، وسألهم سائل من أي الامم أنتم وما البلغار؟ فقال: قومُ متولدون بين الترك والصقالبة.

وأما برطاس فطائفة منفرشة على نهر يسمى بهذا الاسم يصب في نهر إتل ،وهم أصحاب بيوت من خشب وخركاوات ومسافة حيزهم خمسة عشر يوما، ولهم لسان خاص بهم.

وأما القبجق فمساكنهم في جبال وغياض من وراء دربند شروان مما يلي بحر الروس، ولهم عليه مدينة إسمها سرداق ،والبحر ينسب إليها ومنها يمتازون لان التجار تقصدها لبيع ما

يجلبونه إليهم من الثياب وغيرها ولشراء الجواري والمماليك والقندس والبرطاس، وأقام الله من هذه الطائفة بمصر والشام :

شعر قوم إذا قُوتِلوا كانوا ملائكة وإن هُمُ قاتلوا كانوا عفاريتا

وهم أعنى طائفة القبجق طوائف كلهم ترك وهم بركوا وطقسبا وأيشبا وبرت والارس وبرج أغلوا ومنكور أغلوا وبمك .وهؤلاء قد صاروا خوارزمية وفيهم طوائف أصغر مما ذكرنا وهم طغ بشقوط وقمنكوا وبزانكى وبجنا وقرابوكلوا وأزوجرطن ،وغير ذلك من أفخاذ يطول ذكرها.

وأما التتار فلم يكن لهم ذكر على ألسنة الناس لأنهم كانوا متاخمين الصي، وكان بين بلادهم وبلاد المسلمين بلاد الخطا، وهي التي تسمى تركستان ،وكان الخطا قد استولوا على ما وراء النهر وملكوها عدة سنين .فلما ملك علاء الدين محمد بن خوارزم شاه بلاد خرسان طمحت همته الى ما وراء النهر فقصدهم وأخذها منهم، وجرى بينهم وبينه حروب استأصلهم فيها وملك ما بأيديهم من البلاد ،فلما خلت تركستان من الخطا نزلها التتار، وكانوا أعداء لهم والحرب بينهم سجال ،فلما ملكوا بلادهم طمعوا في بلاد الاسلام لقربهم منها ومجاورتهم لها، فأراد الله تعالى تمليكهم إياها فحاربهم خوارزم شاه فلم يقف في وجوههم ،فانهزم منهم فتبعوه الى أن ألجأوه الى جزيرة في بحر الخزر مما يلي طبرستان فمات بها سنة سبع عشر وستمائة .ومن هذه السنة خرجوا من بلادهم ولم يزل أمرهم يتفاخم وسلطانهم يتعاظم الى أن ملكوا بلاد خرسان وفارس وبلاد الجبل وأذربيكان وآران وبلاد أرمينيا وما جاورها وتاخمها ،ثم العراق والشام وأخرجوا جميع ما ملكوه وقتلوا أهلها، وأنفذ الله جيشاً من الديار المصرية من الترك الذين قدمنا ذكرهم ليدعم بنصره فردوهم على أعقابهم واغمدوا السيوف في رقابهم وتبعوهم الى بلاد الشام ،واستخلصوا ما صار في أيديهم منها وغسلوا أوضار آثارهم عنها .وهذا الجيش هم العصابة المحمدية الظاهرون بالحق المؤيدين الى يوم القيامة.

ومن الترك ايضاً يأجوج ومأجوج ويقال أنهم أربعون صنفاً منهم طوال جداً، ومنهم قصار

جداً. والطوال يأجوج ،والقصار مأجوج. ومنهم ذوو وجوه مستديرة كالتراس والمجان المطرّقة وذوو أنياب بارزات. ويقال أن وراءهم مما يلي البحر المحيط فرقة وهم مسلطون عليهم مشغولون بهم، وكلامهم تمتمة يشبه الصفير .صغار العيون والرؤوس ،كبار الاذان ،يأكل بعضهم بعضاً .وللترك ما للعرب من معرفة الخيل وأنسابها، وعمل القسى والسهام، ولهم ما لهم من العيافة وهي تتبع آثار الأقدام والخف، وسيما في النظر في أكتاف العظام المسماة الواح الأكتاف من المعز والغنم، والريافة وهي تتبع لمواطن الماء في تخوم الارض بدلائل من النبات، من لون الأرض ومن حيوانها، والقيافة وهي الفراسة بالأمارات بإلحاق الولد بأبيه...

وحكى أبو عمر بن عبد البر في كتاب "القصد والامم الى معرفة أنساب الامم" أن وراء صين الصين أمماً منهم إذا طلعت الشمس يأوون الى مغارات فلا يخرجون منها حتى تغرب ،وأمة يلتحفون بشعورهم .وأمة لا شعور لهم وأكثر ما يأكلون سمك البحر وحشاش الارض. قال ويحاذيهم من ناحية الشمال أمة شقر عُراة يتناكحون كمال تتناكح البهائم تجتمع الجماعة على المرأة الواحدة. وقال بمشرق الارض عند مطلع الشمس أمة متولدة بين السباع والناس ذوو عيون مدورة، وأنياب بارزة ممدة ،وأذناب وأظفار معقفة بأصابع قصار ،يسكنون الجبال طعامهم الحوت ودواب البحر ولهم زروع ودواب يركبونها ،والله أعلم.)

يستقي أبو حامد الغرناطي –في النص الآتي–كثيرا من معلوماته من الملاحظات المباشرة عن الشعوب التي عاش بين ظهرانيها، لقد طوّف في بعض بلاد الشمال،ووصف ما رأى وما عرف، وكثيرا مما سيرد في النص الآتي إنما هو عن شاهد عيان يقدم براهين شخصية على وجود استيطان اسلامي كبير في الأجزاء الشرقية لأوربا، وإن ذلك الوجود يدخل ضمن التوازنات العسكرية في النزاع مع الروم.

(٨)

وصف بلاد البلغار والصقالبة والباشغرد لأبي حامد الغرناطي (توفي ٥٦٥ هجري=١١٧٠ ميلادي) ملاحظات شاهد عيان وردت في كتاب (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب)

بلاد البلغار

(ويوجد في أرض البلغار من عظام قوم عاد، وتوجد تحت الأرض أنياب الفيلة و الناب أبيض كالثلج، ثقيل كالرصاص، الواحد مائتا منٍّ وأكثر وأقل. لا يدري من أي حيوان هو. يُقطع ويُحمل إلى خوارزم وخراسان وتتخذ منه الأمشاط والحقاق وغير ذلك كما يتخذ من العاج، وهو أقوى من العاج لا ينكسر. وفوق هذه الولاية أمم لا عدد لهم يعطون الجزية لملك بلغار،ولهم ولاية تؤدي الخراج بينهم وبينها مسيرة شهر، يقال لها ويسوا، وولاية أخرى يقال لها يورا فيها يصطاد القندز والقاقم والسنجاب الجيد. والنهار يكون هناك في الصيف اثنتين وعشرين ساعة. ومنهم تجيء جلود القندز الجيد الفائق. والقندز حيوان عجيب يكون في الأنهار العظام، ويتخذ بيوتاً في البر إلى جانب النهر.

وسمعتُ ببلغار، وهي مدينة في آخر بلاد الإسلام في الشتاء، يكون النهار في الصيف عشرين ساعة، والليل أربع ساعات، ويكون الليل في الشتاء عشرين ساعة والنهار أربع ساعات، ويشتد البرد فيها، حتى إذا مات لأحد ميتاً لا يقدر أن يدفنه ستة شهور. لأن الأرض تصير كالحديد .ولا يمكن أن يحفر بها قبر. ولقد مات لي بها ولد، وكان في آخر الشتاء، فلم أقدر على دفنه، فبقي في البيت ثلاثة شهور حتى أمكن دفنه. ويبقى الميت كالحجر. وأهل البلغار أصبر الناس على البرد وسببه أن أكثر طعامهم العسل ولحم القندز والسنجاب.

ووراء ويسوا ولاية تعرف بيورا على بحر الظلمات يكون النهار عندهم في الصيف طويلاً جداً. حتى أن التجار يقولون إن الشمس لا تغيب مقدار أربعين يوماً. وفي الشتاء

أيضاً يكون الليل طويلاً مثل ذلك. والناس يحملون من بلاد الإسلام سيوفاً تتخذ في زنجان وأبهر وتبريز وأصفهان. ولا يتخذون لها آلة ولا حيلة إلا حديداً كما يخرج من النار. وذلك السيف هو الذي يصلح أن يحمل إلى يورا.

وأهل يورا ليس عندهم دواب ولا مواشٍ إلا أشجاراً عظيمة وغياضاً يكثر فيها العسل. ويكثر عندهم السمّور جداً. ويأكلون لحمه. والتجار يحملون إليهم هذه السيوف وعظام البقر وعظام الغنم، ويأخذون أثمانها جلود السمّور. ولهم في ذلك ربح كثير. والطريق إليهم في أرض لا يفارقها الثلج أبداً. ويتخذ الناس لأرجلهم ألواحاً ينحتونها، طول كل لوح باع، وعرضه شبر، مقدّم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي في رجله، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيوراً من جلود قوية يشدونها على أرجلهم. ويقرن الرجل بين اللوحين اللذين يكونان في رجله بشندال طويل مثل عنان الفرس، يمسكه في يده الشمال، وفي يده اليمنى عصا بطول الرجل، وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الإنسان خفيفة. ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج. ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة. فيذهب على ذلك الثلج بسرعة. ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحداً أن يمشي هناك البتة. لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبد. وأي حيوان مشى عليه يغوص فيه فيموت إلا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب فإنها تمشي عليه بخفة وبسرعة. والثعالب والأرانب في تلك البلاد تبيض جلودها، حتى تكون مثل القطن. وكذلك الذئاب أيضاً تكون في ناحية بلغار تبيضّ جلودها في زمن الشتاء.

وتلك السيوف تحمل من بلاد الإسلام إلى بلغار. وفيها ربح كثير. ثم يحملها البلغاريون إلى ويسوا موضع القندز. ثم أهل ويسوا يحملونها إلى "يورا" يشترونها بجلود السمور وبالجواري وبالغلمان. ثم كل آدمي يكون هناك يحتاج كل سنة إلى سيف يلقيه في بحر الظلمات. فإذا ألقوا السيوف أخرج الله لهم من البحر سمكة مثل الجبل العظيم تطردها سمكة أخرى أكبر منها أضعافاً مضاعفة. تريد أكلها. فتفر الصغرى من الكبرى. فتقرب من البر وتصير في موضع لا يمكنها الرجوع منه الى البحر، فتبقى هناك، وترجع الكبرى الى

البحر، ويخل أهل يورا الى البحر في السفن ويقطعون من جوانبها، وليس عند السمكة من ذلك حسّ ولا تتحرك فيملئون بيوتهم من لحمها ويصعدون على ظهرها وهي كالجبل العظيم.

بلاد الصقالبة

لما دخلتُ بلاد الصقالبة خرجت من بلغار، وركبت سفينة في نهر الصقالبة. وماؤه أسود مثل بحر الظلمات. كأنه الحبر. وهو مع ذلك حلو طيب صاف. ليس فيه سمك. وفيه الحيات السود الكبار. بعضها على بعض. أكثر من السمك. لا تؤذي أحداً، وفيه حيوان مثل السنّور الصغير. له جلد أسود يسمى سمور الماء تحمل جلوده إلى بلغار. ولما وصلت إلى بلادهم رأيت بلاداً واسعة. كثيرة العسل والحنطة والشعير والتفاح الكبير ويتعاملون بينهم بجلود السنجاب القديم الذي لا شعر عليه.

وللصقالبة سياسات عظيمة. إذا تعرض أحد لجارية غيره أو ولده أو دابته أو تعدّ بأي شيء من التعدي كان، أخذ من المتعدّي جملة من المال. فإن لم يكن له مال بيع أولاده وبناته وزوجته في تلك الجناية. فإن لم يكن له أهل ولا أولاد بيع هو. فلا يزال عبداً يخدم من يكون عنده حتى يموت وبلادهم آمنة. وإذا عامل المسلم منهم أحداً وأفلس الصقلبي بيع هو وأولاده وداره. ويعطى لذلك التاجر دينه. والصقالبة شجعان، وهم على مذهب الروم في النصرانية. نسطورية.

وحدّثت عنهم أنهم كل عشر سنين يكثر السحر عندهم وتفسد عليهم نساؤهم بالعجائز السحرة. فيأخذون كل عجوز في ولايتهم. فيشدّون أيديهن فإرجلهن ويلقينهن في النهر. فكل من رسبت من العجائز في الماء تركوها. وعملوا أنها ليست ساحرة. والتي تطفو على الماء يحرقونها بالنار.

بلاد الباشغرد

هي فوق بلاد الصقالبة بأربعين يوماً. وبلادهم تعرف بأنقورية هي ثمانية وسبعون مدينة، كل مدينة لها حصون ورساتيق وقرى وجبال وغياض وبساتين، وفيها من أولاد المغاربة آلاف لا عدد لهم، وفيها من أولاد الخوارزميين آلاف لا عدد لهم أيضاً، وأولاد الخوارزميين

يخدمون الملوك ويتظاهرون بالنصرانية يكتمون الإسلام. وأولاد المغاربة لا يخدمون النصارى إلا في الحرب. وهم يعلنون الإسلام.

ولما دخلت بين أولاد المغاربة أكرموني، وعلمتهم شيئا من العلم، وأطلقت ألسنة بعضهم بالعربية، وكنت أجتهد معهم في الإعادة والتكرير في فرائض الصلاة وسائر العبادات، وكانوا لا يعرفون الجمعة، فعلموا صلاة الجمعة والخطبة، وعندهم اليوم أكثر من عشرة آلاف مكان يخطب فيه الجمعة ظاهراً وباطناً، لأن ولايتهم عظيمة.

أقمت بينهم ثلاث سنين واشتريت جارية مولّدة من سيدها بعشرة دنانير، بنت خمس عشرة سنة، أحسن من القمر، سوداء الشعر والعين، بيضاء كالكافور. تعرف الطبخ والخياطة والرقم. وجاء منها ولد ومات. فأعتقتها وسميتها مريم.

وكان ملك باشغرد يخرب بلاد الروم فقلت لأولئك المسلمين، اجتهدوا في الجهاد مع هذا الملك، فإنه يكتب لكم فيه ثواب الجهاد. فخرجوا معه إلى بلاد قسطنطينية. وهزموا لملك الروم اثني عشر عسكراً. فجاء صاحب القسطنطينية طلباً للصلح. وبذل أموالاً كثيرة.

وحدثني بعض الأسارى من المسلمين ممن كان في الروم أن ملك الروم سأل: ما السبب في خروج ملك باشغرد إلى بلادي وتخريبها؟ وما كان له بهذا عادة. فقيل له: ملك باشغرد عنده عسكر من المسلمين، فقد تركهم يظهرون دينهم، فهم الذين أخرجوه إلى ولايتك، وخربوا بلادك. فقال لهم: وعندي مسلمون لا يقاتلون معي. فقيل له: أنت تقهرهم على النصرانية. فقال: لن أقهر مسلماً على ديني أبداً، وأبني لهم المساجد حتى يقاتلوا معي.

وملك باشغرد يسمى كزالي. وملكه أعظم من ملك صاحب الروم أضعافاً مضاعفة، لا تحصى جنده. وولايته أكثر من ولاية الروم عشرين يوماً وأكثر. وهو على مذهب الإفرنج ويسبيهم. وجميع الأمم يخافون من شره لكثرة جنده وشدة بأسه.

ولما سمع أنني منعت المسلمين من شرب الخمر، وأبحت الجواري وأربعة من الحرائر، قال: "ليس هذا من العقل. لأن الخمر يقوي الجسد. وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر. ودين الإسلام لا يكون على وفق العقل". قال: فقلت للترجمان: "قل للملك: شريعة المسلمين

ليست مثل شريعة النصارى. النصراني يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ولا يسكر. والمسلم الذي يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر. فيذهب عقله، ويصير كالمجنون، يزني، ويقتل، ويكفر، ولا خير عنده. وقد يعطي سلاحه وفرسه، ويضيع ماله في سبيل لذاته. والمسلمون هاهنا جندك، وإذا أمرت الواحد بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال. لأنه أهلكه في الشراب. وأما الجواري والنساء فإن المسلمين يوافقهم النكاح لحرارة طباعهم. وأيضاً فهم جندك. فإذا كثر أولادهم كثر جندك. فقال :اسمعوا من هذا الشيخ. فإنه عاقل. وقال: تزوجوا ما شئتم ولا تخالفوه. وتزوج (حامد) بامرأتين من بنات المسلمين المحتشمين، ورزق أولاداً. وهو شجاع فاضل. كنت أعطيه على كل مسألة يحفظها في حال صغره نصف دانق.

وفي باشغرد بقر وحشية كبار أمثال الفيلة، جلد الواحد منها حمل بغلين قويين ورأسه حمل عجلة، يصطادونه ويسمى التيتل وهو من أعجب الحيوان. طيب اللحم، سمين. وقرونه كبار طوال مثل أنياب الفيلة.)

يعتبر الإصطخري أحد الجغرافيين المتمرّسين الأوائل، إنه شديد الولع بالمسالك وبوصف الممالك،وقد أسهم على نحو ليس لأحد القدرة على التشكيك فيه ، في تطوير الجغرافية في الثقافة العربية–الإسلامية. وكتابه مثل بقية كتب المسالك والممالك كان دليلا لمعرفة الآخر. في هذا النص يقدم وصفا قيّما لبلاد الشمال، ويركز في حديثه عن بلاد الخزر على التقاليد السياسية الخاصة بإدارة الحكم،ولكن الحياة الاقتصادية تستأثر باهتمامةعلى نحو ملفت للنظر في هذه البلاد وفي بلاد الروس والسرير وبلغار. ولعل أهم مايلاحظ على الجغرافيين المسلمين الأوائل بخاصة انصراف الاهتمام لديهم إلى النواحي الخاصة بالواردات الاقتصادية والضرائب، وفيما يخص البلاد المتاخمة لدار الإسلام بالخراج. وهو أمر تفسره نشأة الجغرافيا الإسلامية التي ارتبطت بهذه القضية، فقد كانت كتب المسالك والممالك تعتبر أدلة للبلدان والمدن والقرى ومسالكها، ولأنواع المزروعات وكيفية جبايتها ، ومقاديرها، كما يظهر ذلك في المدونات الجغرافية المبكرة عند قدامة وابن خرداذبة

والإصطخري ومعاصريهم.والمقطع الآتي المأخوذ من كتاب (المسالك والممالك) يبرهن على هذا النوع من الاهتمام.

(٩)

وصف بلاد الخزر والسرير والروس وبلغار

الإصطخري(توفي بعد ٣٤٠هجري= بعد ٩٥١ميلادي)

من كتاب (المسالك والممالك)

(الخزر اسم الاقليم وقصبته تسمى أتل. وأتل اسم النهر إلى يجري إليه من الروس وبلغار. وأتل قطعتان قطعة على غربي هذا النهر المسمى الأتل، وهي أكبرهما وقطعة على شرقيه، والملك يسكن في الغربي منهما. ويسمى الملك بلسانهم "بك "ويسمى أيضاً "باك" . وهذه القطعة مقدارها في الطول نحو فرسخ. ويحيط بها سور إلا أنه مفترش البناء وأبنيتهم" خركاهات" لبود إلا شيئاً يسيراً بني من طين. ولهم أسواق وحمّامات، وفيها خلق من المسلمين يقال إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم ولهم نحو ثلاثين مسجداً .وقصر الملك بعيد من شط النهر وقصره من آجر، وليس لأحد بناء من آجر غيره، ولا يسوغ الملك لأحد أن يبني بالآجر. ولهذا السور أبواب أربعة منها إلى ما يلي النهر ومنها إلى ما يلي النهر ومنها إلى ما يلي الصحراء على ظهر المدينة.

وملكهم يهودي يقال إن له من الحاشية نحو أربعة آلاف رجل ،والخزر مسلمون ونصارى ويهود ،وفيهم عبدة أوثان. وأقل الفرق اليهود وأكثرهم المسلمون والنصارى إلا أن الملك وخاصته يهود، والغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان يسجد بعضهم لبعض عند التعظيم وأحكام خصوا بها على رسوم قديمة مخالفة لدين المسلمين واليهود والنصارى. وللملك من الجيش اثنا عشر ألف رجل. وإذا مات منهم رجل أقيم آخر مكانه.

وليست لهم جراية دارّة إلا شيء نزر يسير يصل إليهم في المدة الطويلة إذا كان لهم حرب أو حزبهم أمر يجتمعون له. وأبواب مال هذا الملك من الأرصاد وعشور التجارب على رسوم

لهم من كل طريق وبحر ونهر ولهم وظائف على أهل المحال والنواحي من كل صنف مما يحتاج إليه من طعام وشراب وغير ذلك.

وللملك سبعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين وأهل الأوثان إذا عرض للناس حكومة قضى منها هؤلاء،ن ولا يصل أهل الحوائج إلى الملك نفسه وإنما يصل إلى هؤلاء الحكام وبين هؤلاء يوم القضاء وبين الملك سفير يراسلونه فيما يجري من الأمر وينتهون إليه فيرد عليهم أمره ويمضونه .وليس لهذه المدينة قرى إلا أن مزارعهم مفترشة يخرجون في الصيف، في الزروع نحو عشرين فرسخاً ليزرعوا ويجمعوا بعضه على النهر، وبعضه على الصحارى فينقلون غلاتهم بالعجل وفي النهر. والغالب على قوتهم الأرز والسمك ،وهذا الذي يحمل منهم من العسل والشمع إنما يحمل اليهم من ناحية الروس وبلغار وكذلك هذه الجلود الخز التي تحمل إلى الأفاق لا تكون إلا في تلك الأنهار التي بناحية بلغار والروس وكويابة ولا تكون في شيء من الأقاليم فيما علمته. والنصف الشرقي من الخزر فيه معظم التجار والمسلمين والمتاجر والغربي خالصة للملك وجنده والخزر الخلص.

ولسان الخزر غير لسان الترك والفارسية ولا يشاركه لسان فريق من الأمم. وإنما نهر أتل فإنه فيما بلغني يخرج من قرب خرخيز فيجري فيما بين الكيماكية والغزية، وهو الحد بين الكيماكية والغزية ثم يذهب غرباً على ظهر بلغار ويعود راجعاً إلى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس ثم يمر على بلغار ثم على برطاس حتى يقع في بحر الخزر. ويقال إنه يتشعب من هذا النهر نيف وسبعون نهراً، ويبقى عمود النهر يجري على الخزر حتى يقع في البحر.

ويقال إن هذه المياه إذا كانت مجموعة في نهر واحد أعلاه يزيد على جيحون وبلغ من كثرة هذه المياه وغزارتها أنها تنتهي إلى البحر فتجري في البحر داخلا مسيرة يومين وتغلب على ماء البحر حتى يجمد في الشتاء لعذوبته وحلاوته. ويبين في البحر لونه من لون ماء البحر. وللخزر مدينة تسمى سمندر فيما بينها وبين باب الأبواب لها بساتين كثيرة ويقال إنها تشتمل على نحو من أربعة آلاف كرم إلى حد السرير والغالب على ثمارها الأعناب،

وفيها خلق من المسلمين ،ولهم بها مساجد ،وأبنيتهم من خشب قد نسجت وسطوحهم مستّمة، وملكهم من اليهود قرابة ملك الخزر. وبينهم وبين حد السرير فرسخان .وبينهم وبين صاحب السرير هدنة.

والسرير هم نصارى ،ويقال إن هذا السرير هو لبعض ملوك الفرس من ذهب فلما زال ملكهم حمل إلى السرير وحمله بعض ملوك الفرس. بلغني أنه من أولاد بهرام جوبين. والملك إلى يومنا هذا فيهم ويقال إن هذا السرير عُمل لبعض الاكاسرة في سنين كثيرة، وبين السرير وبين المسلمين هدنة. ولا أعلم في عمل الخزر مجمع ناس سوى سمندر. وبرطاس هم أمة متاخمون للخزر ليس بينهم وبين الخزر أمة أخرى وهم قوم مفترشون على وادي أتل، وبرطاس اسم الناحية ،وكذلك الروس والخزر والسرير اسم للمملكة لا للمدينة ولا للناس.

والخزر لا يشبهون الاتراك وهم سود الشعر. وهم صنفان صنف يسمون قراخزر. وهم سمر يضربون لشدة السمرة الى السواد كأنهم صنف من الهند وصنف بيض ظاهرو الحسن والجمال،والذي يقع من رقيق الخزر هم أهل الأوثان الذين يستجيزون بيع أولادهم واسترقاق بعضهم بعضاً. فأما اليهود منهم والنصارى فإنها تدين بتحريم إسترقاق بعضهم بعضاً مثل المسلمين .وبلد الخزر لا يرتفع شيء منه يحمل الى الآفاق غير الغرى. وأما الزيبق والعسل والشمع والخز والأوبار فمجلوب إليها. ولباس الخزر وما حواليها القراطف والأقبية ،وليس يكون عندهم شيء من الملبوس وإنما يحمل إليهم من نواحي جرجان وطبرستان وأرمينية وأذربيجان والروم. وأما سياستهم وأمر المملكة بهم فإن عظيمهم يسمى" خاقان خزر" وهو أجل من ملك الخزر إلا أن ملك الخزر هو الذي يقيمه، وإذا أرادوا أن يقيموا هذا الخاقان جاؤوا به فيخنقونه بحريرة حتى إذا قارب أن ينقطع نفسه، قالوا كم تشتهي مدة الملك فيقول كذا وكذا سنة فإن مات دونها وإلا قتل إذا بلغ تلك السنة. ولا تصلح الخاقانية عندهم إلا في أهل بيت معروفين وليس له من الأمر والنهي شيء إلا أنه يعظم ويسجد له إذا دخل اليه، ولا يصل اليه أحد إلا نفر يسير مثل الملك ومن في طبقته ولا يدخل عليه الملك إلا لحادثة فإذا دخل عليه تمرغ في التراب وسجد وقام من بعد حتى يأذن له بالتقرب ،وإذا

حزبهم حزب عظيم أخرج فيه خاقان فلا يراه أحد من الأتراك ومن يصاقبهم من أصناف الكفر إلا انصرف ولم يقاتله تعظيماً له. وإذا مات ودفن لم يمر بقبره أحد إلا ترجل وسجد ،ولا يركب ما لم يغب عن قبره، ويبلغ من طاعتهم لملكهم إن أحدهم ربما يجب عليه القتل ويكون من كبرائهم فلا يحب الملك أن يقتله ظاهراً فيأمره أن يقتل نفسه فينصرف إلى منزله ويقتل نفسه.

والخاقانية في قوم معروفين ليس لهم مملكة ويسار فإذا انتهت الرياسة إلى أحدهم عقدوا له ولم ينظروا إلى ما عليه من حال .ولقد أخبرني من أثق به أنه رأى في بعض أسواقهم شاباً يبيع الخبز كانوا يقولون إن خاقانهم إذا مات فليس أحد أحق منه بالخاقانية إلا أنه كان مسلماً ولا تعقد الخاقانية إلا لمن يدين باليهودية .والسرير والقبة الذهب التي لهم لا تضرب إلا لخاقان ومضاربه إذا برزوا فوق مضارب الملك ومسكنه في البلد أرفع من منزل مسكن الملك.

وبرطاس اسم للناحية وهم أصحاب بيوت خشب وهم مفترشون، وبسجرت هم صنفان صنف من آخر الغزية على ظهر بلغار ويقال إن مبلغهم نحو ألفي رجل ممتنعون في مشاجر لا يقدر عليهم وهم في طاعة بلغار وبسجرت آخرهم متاخمون لبجناك ،وهم وبجناك أتراك ،وهم متاخمون للروم. ولسان بلغار مثل لسان الخزر ولبرطاس لسان آخر، وكذلك لسان الروس غير لسان الخزر وبرطاس.

وبلغار اسم المدينة وهم مسلمون وفيها مسجد جامع ويقرب مدينة أخرى تسمى سوار فيها أيضاً مسجد جامعز. وأخبرني من كان يخطب بها أن مقدار عدد الناس بهاتين المدينتين نحو عشرة آلاف رجل ،ولهم أبنية خشب يأوونها في الشتاء وفي الصيف يفترشون في الخركاهات .وأخبرني الخاطب بها إن الليل عندهم لا يتهيأ أن يسير فيه الإنسان أكثر فرسخ في الصيف وفي الشتاء يقصر النهار ويطول الليل حتى يكون نهار الشتاء مثل ليالي الصيف.

والروس هم ثلاثة أصناف: فصنف هم أقرب إلى بلغار وملكهم يقيم بمدينة تسمى

كويابة وهم أكبر من بلغار ،وصنف أبعد منهم يسمونه الصلاوية، وصنف يسمونه الأرثانية وملكهم مقيم بأرثا. والناس يبلغون في التجارة إلى كوباية فأما أرثا فإنه لا يذكر أن أحداً دخلها من الغرباء لانهم يقتلون كل من وطيء أرضهم من الغرباء وإنما ينحدرون في الماء يتجرون فلا يخبرون بشيء من أمورهم ومتاجرهم ولا يتركون أحداً يصحبهم ولا يدخل بلادهم. ويحمل من أرثا السمور الأسود والرصاص.

والروس قوم يحرقون أنفسهم إذا ماتوا وتحرق مع مياسيرهم الجواري بطيبة من أنفسهن، وبعضهم يحلق اللحى، وبعضهم يفتله مثل الذوائب ولباسهم القراطف القصار .ولباس الخزر وبلغار وبجناك القراطق التامة. هؤلاء الروس يتجرون إلى الخزر ويتجرون إلى الروم وبلغار الأعظم وهم متاخمون للروم في شماليها وهم عدد كثير يبلغ من قوتهم أنهم ضربوا خراجاً على ما يلي بلادهم من الروم وبلغار الداخل هم نصارى.

المسافات بين بلاد الخزر ونواحيها من آبسكون إلى بلاد الخزر عن اليمين نحو ثلاثمائة فرسخ، ومن آبسكون عن يسار السائر إلى الخزر نحو ثلاثمائة فرسخ،ومن آبسكون إلى دهستان مراحل ،ويقطع هذا البحر إذا طابت الريح عرضاً من طبرستان إلى باب الأبواب في أسبوع. وأما من آبسكون إلى بلاد الخزر فإنه زائد على العرض لأنه مزوى. ومن أتل إلى سمندر أيام، ومن سمندر إلى باب الأبواب ستة أيام وبين مملكة السرير وباب الأبواب ثلاثة أيام، ومن أتل إلى أول حد برطاس مسيرة عشرين يوماً ،ومن أول برطاس إلى آخره نحو خمسة عشر يوماً، ومن برطاس إلى بجناك نحو عشر مراحل ،ومن أتل إلى بجناك مسيرة شهر، ومن أتل إلى بلغار على طريق المفازة نحو شهر وفي الماء نحو شهرين في الصعود وفي الحدود نحو عشرين يوماً، ومن بلغار إلى أول حد الروم نحو عشر مراحل، ومن بلغار إلى كويابة نحو عشرين مرحلة، ومن بجناك إلى بسجرت الداخل عشرة أيام، ومن بسجرت الداخل إلى بلغار خمس وعشرين مرحلة.

وأكثرها لصاحب خراسان، وما غادره فلمن يعتزى اليه ويقيم دعوته وينتمي الى دولته، قد جعلت طعمة وعليه فيها بعض لوازم يرفعها وهدايا يؤديها كصاحب بست لأنه يقيم

برجال كثيرة وعساكر جمة من رسومها المجباة بتلك الناحية لصاحب خراسان ،و منها ما هو كالمتغلب عليه وعلى ماله وعليهم من المؤنات وهم يعتزون الى صاحب خراسان كمحمد بن الياس وبتكين الحاجب، وقد استولى على غزنة وما جاورها. ومنها ما هو مجمول برمته ومجموع على جهته بالحسبانات القائمة والقوانين والارتفاعات المعروفة ،ومن ذلك هراة وهي من النواحي التي يقبض خراجها في كل عام دفعتين إذ في كثير من أعمال خراسان ما يجري هذا المجرى، وقد رسم بهذا الرسم، وفيها ما يقبض دفعة واحدة.

فأما عبرتها من وجوه أموالها وقوانين آدائها فمائة ألف دينار ،ومن الورق أربع مائة ألف درهم مع توابع قليلة، وفي قديم أوقاتها على ممر الدهور الخالية والسير العادلة الماضية ما كانت جباياتها عن هذا القدر أكثر وبركاتها أغزر وغلاتها أوفر. وهذا جملة ما عملته من صفة هذه الناحية وعرفته من أخبار هذا الصقع ،وما خلت أن في ذلك تقصيراً عما يحتاج إلى علمه والوقوف على رسمه.)

وقد كانت القسطنطنية ، وقبلها روما أهم مدينتين في بلاد الشمال، روما المدينة العريقة، ثمّ القسطنطينية التي ورثت المجد بعد ذلك، وأصبحت معقل المسيحية الأول طوال القرون الوسطى ، وقد كانت كنيستها من المعالم البارزة دينيا وعمرانيا، كثيرا ماستأثرت باهتمام الجغرافيين والرحالة. وهنا يقف ابن رستة على هذين المدينتين ، فيقدم عنهما تفصيلات على غاية من الأهمية للمدينتين وبخاصة للكنيستين الرئيستين فيهما. وتنبثق تلك الأهمية من كون الوصف يأتي من شاهد عيان، هو(هارون بن يحي) الذي أسر وتم ترحيله عبر تلك البلاد. ووصف الكنيستين ينمّ ليس عن ملاحظات تفصيلية ودقيقة ،فحسب، إنما عن شعور بالتوقير للطقوس الدينية المسيحية التي بعثت اعجابا لاينكر في نفس هارون .وبالنظر إلى أن هذا الوصف يعتبر وصفا من الدرجة الأولى، يقدمه شاهد عيان بضمير المتكلم، وينقل فيه الحوارات الحية، وأحيانا الكلام الرومي، فإن النص يدرج كأحد أهم المدونات عن مَعقَلي الروم: القسطنطينية وروما .والمثير في الأمر الدقة المتناهية للطقوس الدينية التي يحضرها البابا في كنيسة روما،ومادامت مدونة ابن رسته موثوقة ومبكرة، فإنها

تقدم لنا وثيقة تعود إلى القرن التاسع الميلادي عن الكيفية التي ينظر فيها أسير مسلم إلى الآخر دون أن ترشح منها أية أحكام قاسية،بل نلمس فيها احتفاء بروعة المدينتين والكنيستين ، والطقوس الدينية فيهما .ومع أن العداء كان مستحكما بين دار الإسلام وبلاد الروم في هذه الفترة، لكنّ شاهدنا –كما يظهر الأمر في وصفه– لم يقع ضحية المشاعر السائدة. إن النص الذي نقدمه في الفقرة اللاحقة من ابن رسته له في رأينا أهمية استثنائية في تلك الحقبة المتوترة التي فيها كما هو شائع بدأت الصور المشوّهة تتشكّل في أذهان الشعوب لبعضها بسبب التوترات الدينية التي كانت تصوغ الأفكار والمواقف والأحكام.

(١٠)

وصف القسطنطينية وكنيستها، ووصف بلاد الروم، ومدينة روما. ابن رستة(كان حيا أواخر القرن الثالث الهجري=بداية القرن العاشر الميلادي من كتاب (الأعلاق النفسية)

(ذكر هرون بن يحيى أنه سُبي وحمل إلى قسطنطينية على طريق البخر في المراكب من عسقلان، فساروا ثلاثة أيام حتى بلغوا مدينة يقال لها أنطالية، وهي مدينة على ساحل بحر الروم ثم حملوا منها على البريد مسيرة ثلاثة أيام في الجبال والأودية والمزارع، حتى ينتهي بهم إلى مدينة يقال لها نقية، وهي مدينة عظيمة بها ناس كثير حتى انتهوا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة يقال لها سنقرة، وهي مدينة صغيرة في صحراء ملساء.

قال ثم خرجنا مشاة فمشينا في الصحراء ويمنتنا ويسرتنا قرى للروم حتى انتهينا إلى البحر في مقدار يومين، ثم ركبنا البحر فسرنا مقدار يوم ،حتى انتهينا إلى مدينة قسطنطينية ،وهي مدينة عظيمة اثنا عشر فرسخاً في اثني عشر فرسخا. وفرسخهم على ما ذكر ميل ونصف. ويحيط البحر مما يلي المشرق منها وغربيّها صحراء يؤخذ منها إلى الرومية، وعليها حصن ،والباب الذي يؤخذ منه إلى الرومية من ذهب وإلى جانبه ناس من خدمه ،ويسمى باب الذهب. وعلى الباب تماثيل خمسة على مثال الفيلة ،وتمثال على صورة رجل قائم قد

أخذ بزمام تلك الفيلة .ولها باب مما يلي الجزيرة يقال له باب بيغاس، موضع يتنزّه الملك اليه ،وهو باب من حديد . وبقرب الكنيسة في وسط المدينة بلاط الملك،وهو قصر وإلى جانبه موضع يقال له البذرون، وهو يشبه الميدان يجتمع اليه فيه البطارقة فيشرف عليهم الملك من قصره في وسط المدينة، وقد صور في القصر أصنام مفرغة من صفر على مثال الخيل والناس والوحوش والسباع وغير ذلك.

وعلى غربي الميدان مما يلي باب الذهب بابان يسوقون إلى هذين البابين ثمانية من الخيل، وهناك عجلتان من ذهب يشدُّ كل عجلة على أربعة من الخيل ويركب فوق العجلة رجلان قد البسا ثياباً منسوجة بالذهب، ويتركها تجري بما نيط اليها من العجل حتى تخرج من تلك الأبواب فتدور على تلك الأصنام ثلاث دورات فأيُّها سبق صاحبها ألقى إليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب، وكلّ من في قسطنطينية يشهدون ذلك الميدان ويبصرون، وعلى قصر الملك سور واحد يحيط بجميع القصر ودورانه فرسخ ،أحد جنباته مما يلي المغرب متصل بالبحر وله ثلاثة أبواب من حديد يقال لاحدها باب البيدرون، والآخر باب المنكنا ،والثالث باب البحر، وأما باب البيدرون فتدخل في دهليز مقدار مائة خطوة في عرض خمسين خطوة وعلى الجانبين من الدهليز أسرّة موضوعة عليها فرش من ديباج ومضربّات ووسائد، وعليها قوم من السودان متنصّرة بأيديهم أترسة ملّبسة ذهباً ،ورماح عليها ذهب.

وأما باب المنكنا فتدخل إلى دهليز طوله مقدار مائتي خطوة في عرض خمسين خطوة مفروش بالرخام وأسرّة موضوعة في جانبي الدهليز عليها قوم خَزر في أيديهم القسّي، وفي الدهليز أربعة حبوس: حبس منها للمسلمين، وحبس لاهل طرسوس، وحبس للعامّة، وحبس لصاحب الشرط .وباب البحر فانّك تدخل في دهليز طوله ثلثمائة خطوة في عرض خمسين خطوة ،وهو مفروش بآجر أحمر، وفي الدهليز أسرّة يمنة ويسرة عليها فرش متخذة، وعليها قوم أتراك بأيديهم القسّي والأترسة، فتمضي في الدهليز حتى تنتهي إلى فضاء مقدار ثلثمائة خطوة ثم تنتهي الى الستر المعلّق على الباب الذي يفضي الى الدار، ويسرة

الداخل كنيسة الملك ولها عشرة أبواب أربعة منها ذهب وستة فضة، وفي المقصورة التي يقف عليها الملك موضع أربع أذرع في أربع أذرع مرصّع ذلك الموضع بالُدّر والياقوت ،وكذلك مسنده الذي يستند اليه مرصّع بالدر والياقوت. وعلى باب المذبح أربعة أعمدة من رخام منقورة من قطعة واحدة ،وطول المذبح الذي يصلى عليه القُسُّ ستة أشبار في عرض ستة أشبار ،وهو قطعة خشب عود قماريّ مرصّع بالدرّ والياقوت يقف عليه قُسّ الملك وسائر سقوف الكنيسة كلّها آزاج معمولة من الذهب والفضة ،ولهذه الكنيسة أربعة صحون كل صحن منها مائتا خطوة في عرض مائة خطوة، وأما الصحن الشرقي ففيه جرن محفور من رخام طوله عشر أذرع في عرض مثلها، وقد نصب هذا الجرن على رأس عمود من رخام ارتفاعه من الأرض أربع أذرع قد عقد عليه قبّة من رصاص، وأعلى القبّة قبّة من فضة تحمل هذه القبّة اثنا عشر عموداً طول كل عمود أربع أذرع أحد أعمدتها على رأسه صورة بازى، وعلى الثاني صورة حمل، وعلى الثالث صورة ثور، وعلى الرابع تمثال ديك، وعلى الخامس تمثال أسد، وعلى السادس تمثال لبوة وعلى السابع تمثال ذئب وعلى الثامن تمثال قبج وعلى التاسع تمثال طاوس وعلى العاشر تمثال فرس ،وعلى الحادي عشر تمثال فيل ،وعلى الثاني عشر تمثال ملك. وبالقرب من هذه القبّة في هذا الصحن على مائتي خطوة صهريج قد أجرى منه الماء الى تلك التماثيل على رؤوس الأساطين،فإذا كان يوم عيدهم ملىء ذلك الصهريج بمقدار عشرة آلاف دورق نبيذ وألف دورق عسل أبيض يطرح على ذلك الشراب فيطيّب بالسنبل والقرنفل والدراصيني مقدار حمل ،ويغطّى ذلك الصهريج الاّ شيئا منه بشيء، فإذا خرج الملك الى خارج ودخل الكنيسة وقع عينه على تلك الصور وما ينبع من أفواهها وآذانها من ذلك الشراب فيجتمع في الجرن حتى يمتلىء فيسقى كلّ من خرج معه من حشمه الى العيد كل واحد شربة، فإذا رفعت الستر ودخلت الدار فهو صحن عظيم طوله أربع مائة خطوة في مثلها مفروش بالرخام الأخضر مزوّق الحيطان بالفسيفساء والوان التزاويق وعلى اليمنى من داخل الدار بيت مال الملك وفي جوفه تمثال فرس قائم عليه فارس قد اتخذ عيناه من ياقوتتين حمراوين وعلى شمال الداخل مجلس يكون طوله مائتي

خطوة في عرض خمسين خطوة، وفي المجلس مائدة من خلنج ومائدة من عاج،وفي الصدر من المجلس مائدة من ذهب فاذا انقضى العيد وخرج من الكنيسة جاء الملك الى هذا المجلس فقعد في الصدر على مائدة الذهب ،وهو يوم الميلاد ويؤمر فيؤتى بأسارى المسلمين فاقعدوا على تلك الموائد، وحمل اليه عند قعوده في الصدر اربع موائد من ذهب تحمل كل مائدة على عجلة.

يقال إن إحدى تلك الموائد كانت لسليمان ابن داود عليه السلام مرصّعة بالدّر والياقوت، والثانية لداود عليه السلام مرصّعة أيضاً، والثالثة مائدة قارون، والرابعة مائدة قسطنطين الملك، فتوضع بين يديه ولا يؤكل عليها إنما تترك ما دام الملك على مائدته، فإذا قام رفعت ثم يؤتى بالمسلمين وعلى تلك الموائد من الحارّ والبارد أمر عظيم ،ثم ينادي منادي الملك فيقول وحياة رأس الملك ما في هذه الأطعمة شيء من لحم خنزير وينقل إليهم تلك الأطعمة في صحاف الذهب والفضة ,ثم يؤتى بشيء يقال له الأرقنا وهو شيء متخذ من الخشب المربع على صنعة معصرة وتغشى تلك المعصرة بأدم وثيق ثم يجعل فيه ستون أنبوبة من صفر رؤوسها الى أنصافها الى فوق قد غشيت تلك الأنابيب بالذهب فوق الأدم حتى لا يبين منها الا اليسير على تقارب أقدارها واحدة أطول من الأخرى وإلى جانب هذا الشيء المربع ثقب يجعل فيه منفخ ككور الحدادين ويؤتى بثلاثة صلبان فيجعل اثنان منها في طرفيه وواحد في الوسط، ثم يؤتى برجلين ينفخان في ذلك المنفخ ويقوم الاستاذ فيحسب على تلك الأنابيب فيتكلم كل أنبوبة بحالها على حسب ما يحسب عليه من الثناء على الملك، والقوم كلهم جلوس على الموائد ويدخل عليه عشرون رجلا بأيديهم الجلباقات والجلباق الصنج يضربون فيها ما داموا يأكلون ويطعمون على هذه الصفة اثني عشر يوماً فإذا كان آخر هذه الأيام يعطى كل أسير من المسلمين دينارين وثلاثة دراهم ،ثم يقوم الملك ويخرج من باب البيدرون

خروج الملك الى الكنيسة العظمى التي للعامة

يأمر بأن يفرش له في طريقه من باب القصر إلى الكنيسة التي للعامة في وسط المدينة

حصر ويطرح فوقها رياحين وخضرة، ويزيّن الحائط يمنة ويسرة من ممره بالديباج ،ثم يخرج بين يديه عشرة آلاف شيخ عليهم ديباج أحمر مسبلة شعورهم الى أكتافهم ليس عليهم برانس ،ثم يجيء خلفهم عشرة آلاف شاب عليهم ديباج أبيض مشاة كلهم ،ثم يجيء عشرة آلاف غلام عليهم ديباج أخضر، ثم يجيء عشرة آلاف خادم عليهم ديباج لون السماء في أيديهم الطبرزينات الملبسة ذهباً ،ثم يجيء بعدهم خمسة آلاف خصي أواسط عليهم ملحم خراساني أبيض بأيديهم صلبان ذهب ،ثم يجيء بعدهم عشرة آلاف غلام أتراك وخزر عليهم صدر مسيّرة بأيديهم رماح واترسة ملبسة كلها ذهباً ،ثم يجيء مائة بطريق من الكبار عليهم ثياب الديباج الملّون بأيديهم مجامر من ذهب يبخرون بالعود القمارى، ثم يجيء اثنا عشر بطريقاً من رؤساء البطارقة عليهم ثياب منسوجة بالذهب في يد كل واحد قضيب من ذهب، ثم يجيء مائة غلام عليهم ثياب مشهّرة مرصّعة باللؤلؤ يحملون تابوتا من ذهب فيه كسوة الملك لصلاته ،ثم يجيء رجل بين يديه يقال له الرحوم، يسكّت الناس ،ويقول: اسكتوا، ثم يجيء رجل شيخ وبيده طشت وإبريق من ذهب مرصّعان بالدرّ والياقوت، ثم يقبل الملك وعليه ثياب الأكسيمون، وهي ثياب من ابريسم منسوج بالجوهر وعلى رأسه تاج وعليه خفّان احدهما أسود والآخر أحمر، وخلفه الوزير وبيد الملك حقّ من ذهب فيه تراب، وهو راجل كلما مشى خطوتين يقول الوزير بلسانهم "من رمونت ابيابطرا "وتفسيره "أذكروا الموت "فإذا قال له ذلك وقف الملك وفتح الحقّ ونظر الى التراب وقبّله وبكى ،فيسير كذلك حتى ينتهي إلى باب الكنيسة فيقدّم الرجل الطشت واللإبريق فيغسل الملك يده ،ويقول لوزيره "إنّي بريء من دماء الناس كلهم؛ لأن الله لا يسألني عن دمائهم وقد جعلتها في رقبتك" ويخلع ثيابه التي عليه على وزيره، ويأخذ دواة بلاطس وهي دواة الرجل الذي تبرأ من دم المسيح عليه السلام ويجعلها في رقبة الوزير ويقول له :"دن بالحق كما دان بلاطس بالحق" ويدور به على أسواق قسطنطينية، فينادون به" دن بالحق كما قلّدك الملك أمور الناس" ، ثم يأمر الملك بادخال أسارى المسلمين الكنيسة فينظرون الى تلك الزينة والملك ،فيصيحون "أطال الله بقاء الملك سنين كثيرة" ثلاث مرات

،ثم يؤمر فيخلع عليهم، ويساق خلفه ثلاث جنائب شهب عليها سروج ذهب مرصّعة بالدرّ والياقوت، وجلال ديباج مرصّعة أيضاً بمثل ذلك لا يركبها فيدخلونها الى الكنيسة ولها بها لجام معلّق يقولون إنه متى أخذت الدابّة اللّجام في فمها ظفرنا ببلاد الإسلام، فتجيء الدابّة فتشم اللجام فتراجع إلى خلفها، ولم تتقدّم إلى اللجام .ويقال إن هذه الدوابّ من نسل دابّة كانت لاوسطاط ثم ينصرف الملك من الكنيسة الى قصره.

وفي غربي الكنيسة على عشرة خطى عمود يكون طوله مقدار مائة ذراع ،وهو مركّب عمود على عمود قد شبّك العمود بسلاسل من فضّة على رأس العمود مائدة من رخام مربّعة أربع أذرع في أربع أذرع ،وفوقها قبر معمول من رخام فيه اسطليانس الذي بنى هذه الكنيسة، وفوق القبر تمثال فرس من صفر،وفوق الفرس صورة إسطليانس وعلى رأسه تاج من ذهب مرصّع بالدرّ والياقوت. وذكر أنه تاج هذا الملك، ويده اليمنى قائمة كأنه يدعو الناس الى قسطنطينية. وعلى الباب الغربي من الكنيسة مجلس فيه أربعة وعشرون باباً صغاراً ،كل باب شبر في شبر معمولة على ساعات الليل والنهار ؛فكلما انقضت ساعة انفتحت منها باب من ذات نفسها ،وإذا انغلقت انغلقت من ذات نفسها. وذكروا أنه اتخذ ذلك بلونيوس، وذُكر أن خيلهم معلّمة لا تبرح من مكانها ولا يحتاج الى من يمسكها إذا نزل عنها القُوّاد ولا تصيح ولا تجلب، انما يقال لها شطه فتقف كذلك الى أن يخرج صاحبها من عند الملك. قال فسألت بعض الناس عن أمرها فذهبوا بي الى ثلاثة تماثيل من صفر على هيئة الفرس منصوبة على باب الملك عملها بلونيوس الحكيم طلسما للدواب ألا تصهل ولا تشغب بعضها على بعض. وعلى باب الملك أيضاً أربع حيات معمولة من صفر أذنابها في أفواهها طلسما للحيات ألا تضر، يقصد الصبيّ الى حية فيأخذها فلا تضره. ومما يلي باب الذهب من المدينة قبّة قنطرة معقودة في وسط سوق المدينة فيها صنمان واحد يشير كأنه يقول بيديه هاته، والآخر يشير بيده كأنه يقول اصبر ساعة، وهما طلسمان فيؤتى بالأسارى فيوقفون بين هذين الصنمين ينتظر بهم الفرج ،ويذهب رسول يعلم الملك ذلك فان رجع الرسول وهم وقوف ذهب بهم الى الحبس، وان وافاهم الرسول وقد جوّز بهم الصنمين قتلوا

ولم يبق منهم على أحد.

ولقسطنطينية قناة ماء يدخل إليها من بلد يقال له بلغر يجري اليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوما ،فينقسم اذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث، فثلث يذهب الى دار الملك ،وثلث يذهب الى حبوس المسلمين ،والثلث الثالث يذهب الى حمامات البطارقة وسائر أهل المدينة فإنهم يشربون الماء الذي بين العذب والمالح. وأهل بلغر يحاربون الروم والروم تحاربهم.

وذكر هارون أن حوالي قسطنطينية ديرات الرهبان، وعلى باب قسطنطينية دير يدعى دير ساطرا ينزله خمسمائة راهب، وهذا النهر الذي يدخل المدينة ينقسم ثلاثة أقسام يجري في وسطه، وعلى فرسخ مما يلي الشمال من المدينة دير يقال له مونس فيه ألف راهب. ومما يلي شرقي قسطنطينية منها على أربعة فراسخ موضع فيه أربعة ديرات فيها اثنا عشر ألف راهب ،أحدها مؤنس والثاني فسادر والثالث قوقياى والرابع دير مريم، ومما يلي غربيّ المدينة ديران فيها ستة آلاف راهب، ثم تخرج فتصير في صحراء ملساء فيها مزارع وقرى اثنتي عشرة مرحلة حتى تنتهي الى مدينة يقال لها سلوقية ،وهي مدينة عظيمة كبيرة مما يلي مشرق المدينة الجبل ،وغربيها البحر ولها أربعة أنهار تسقيها وفيها دير يقال له مرقش فيه اثنا عشر ألف راهب وتخرج فتسير على ساحل البحر ثلاث منازل في صحراء ليس فيها من العمران شيء، وهي مدينة عظيمة فيها أسواق وحواليها أنهار كثيرة وتسقيها أنهار مطرن وعليها سوران وخندق يحيط بالمدينة، وتخرج منها فتسير في غياض من الشجر في وسط الصقالبة لهم بيوت من خشب ينزلونها وهم نصارى كانوا يتنصرون على عهد بسوس الملك فهم اليوم على دين النصرانية ،فتسير فيهم مقدار شهر في مشاجرهم حتى تنتهي الى مدينة يقال لها بلاطيس ،وهي مدينة عظيمة طولها ستة أميال في مثلها وهي كثيرة الخير، فيها من الزيتون وأنواع الفواكه، ولها نهران جاريان يطّردان فيها، . وهي مدينة الأنكبرديين قد نزلوا في صحاريهم على مقدار عشرين خطوة ، .وهم على هيئة الأكراد ينزلون الصحارى في الخيام وتخرج من هذه القرية فتسير وسطهم مقدار شهر في غياض وأشجار وربما يلقاك تلال فيها منهم أصناف حلول ،حتى تنتهي الى قرية تدعى البندقيس ،وهم نزول في صحراء

ملساء ليس لهم قرى ولا مدائن انما بيوتهم من خشب منحوت صفائح وهم على دين النصرانية، فتسير في وسطهم مقدار عشرين يوماً ،تنزل عليها وترتحل من عندهم ،وتمتار من طعامهم وتتزود منه حتى توافي مدينة الرومية ،وهي مدينة يدبر أمرها ملك يقال له الباب(=البابا) وطولها أربعون ميلاً في أربعين ميلاً يجري اليها نهر من غربي المدينة فيخترق سككها قد فرش أسفل النهر بالصفر وبني ضفتاه أيضاً بالصفر، وقد عقد عليها جسور من صفر.

وفي وسط المدينة الكنيسة العظمى طول الكنيسة مقدار فرسخين، وعليها ثلاثمائة وستون باباً، وفي وسط الكنيسة برج طوله في الهواء مائة ذراع، وعلى رأس البرج قبة مبنية من الرصاص، وقد اتخذ على رأس القبة تمثال زرزرمن صفر فإذا كان أوان ادراك الزيتون جاءت الريح فدخلت في الزرزر فيصيح فيجتمع زرازر تلك المدينة في منقار كل واحد منها زيتونة فيطرحنها على ذلك البرج، فيؤخذ ذلك الزيتون ويعصر ويستخرج دهنها، فهو يكفيهم لمصابيح الكنيسة الى السنة القابلة من ذلك الوقت.وفي الكنيسة قبر رجلين من الحواريين معمول من ذهب أحدهما في شرقي الكنيسة والآخر في غربيها، يقال لأحد صاحبي القبرين شمعون الصفا والآخر بالوس، فإذا كان فصح النصارى في كل سنة، وهو يوم الخميس جاء الملك ففتح باب القبر ونزل الى القبر ومعه موسى فحلق رأس شمعون ولحيته وقلم إظفاره وصعد، وقسّم لكل رجل من أهل مملكته شعرة، هذا عملهم في كل سنة منذ تسع مائة سنة.

وحيطان هذه الكنيسة كلها مغشاة بالذهب وأبوابها الغربية من نحاس صيني ،والأبواب الداخلة التي على بيعة صلاتهم كلها مغشاة بالذهب، والموضع الذي يقعد عليه الكهنة مغشى كله بالذهب، وفي كل ركن من أركان هذه الكنيسة برج على كل برج قبة مبنية من فضة يضرب عليها النواقيس ،وفيها ألف مروحة ذهب عرض كل واحدة ذراع في ذراع مرصعة بالدر والياقوت ولها مقابض من ذهب ولها ستمائة صليب من ذهب، في وسط كل صليب درة ووزن كل صليب ألف مثقال، ولها اثنا عشر صليباً على عدد الحواريين في كل

صليب مائة منا ذهب ولها اثنان وسبعون صليباً على عدد تلامذة الحواريين في كل صليب خمسمائة مثقال ذهب، وفيها ألف ومائتا كأس ذهب يجعل فيها الخمر للتقريب مرصعة كلها بالجوهر، وقد بنى بيت المذبح أربعاً وعشرين ذراعاً في عرض اثنتي عشرة ذراعاً، وفيها من الشمامسة والقسيسين ثلاثة آلاف ومائتا نفس على كلهم ديباج أبيض قيمة كل ثوب مائة دينار الى مائة وخمسين ديناراً وعليهم طيالسة متسوجة بالذهب والدر ،ولها من السدنة ممن يتولون إشعال القناديل ستمائة.

وفي غربي هذه المدينة البحر الكبير وحوالي المدينة البساتين والزيتون، ويغزو أهلها البربر من ناحية الأندلس وتاهرت على البحر من بلاد إدريس بن إدريس وتاهرت العليا، وأهل الرومية صغيرهم وكبيرهم يحلقون لحاهم كلها لا يتركون منها شعرة واحدة على أذقانهم ويحلقون وسط هاماتهم ،فسألتهم عن السبب في حلق لحاهم، وقلت لهم" إن زين الرجال في اللحى فما مرادكم من هذا الذي تفعلونه بأنفسكم" فقالوا" إن كل من لم يحلق لحيته لم يكن نصرانياً خالصاً وذلك أنه جاءنا شمعون الصفا والحواريون لم يكن معهم عصى ولا جراب إنما كانوا مساكين ضعفاء وكنا نحن إذ ذاك ملوكاً علينا الديباج ونحن على كراسي الذهب يدعونا الى دين النصرانية فلم نجبهم فأخذناهم وعذبناهم وحلقنا رؤوسهم ولحاهم ،فلما ظهر لنا صدق قولهم صرنا نحلق لحانا كفارة لما ارتكبناه من حلق لحاهم" .

ومن هذه المدينة تركب البحر فتسير ثلاثة أشهر حتى تنتهي الى بلاد ملك برجان وتسير منها في جبال وعقاب شهراً واحداً حتى تنتهي الى بلاد فرنجة، ومنها تخرج فتسير أربعة أشهر حتى تنتهي الى مدينة برطينية وهي مدينة كبيرة على ساحل بحر المغرب، ويتملك عليها سبعة من الملوك. وعلى باب مدينتها صنم إذا رام الغريب أن يدخلها نام فلا يمكنه دخولها حتى يأخذه أهل المدينة فيقفوا على مغزاه ومقصده في دخول المدينة، وهم قوم نصارى وهم آخر بلاد الروم وليس وراءهم عمران.

ما وجدناه من صفة مدينة الرومية

ثلاث نواحٍ منها في البحر العظيم مما يلي القبلة والمشرق والمغرب ،والناحية الرابعة مما يلي

البرّ والجربيَّة يعني الشمال، وطولها من الباب الغربي الى الشرقي ثمانية وعشرون ميلا ولها حائطان من حجارة، وبينهما فضاء ستون ذراعاً، وعرض السور الخارج ثمان أذرع، وسمكه اثنتان وأربعون ذراعاً، وفيما بين السورين نهر يسمَّى فسطيطالس، وهو مغطى ببلاط نحاس طول كل بلاطة ست وأربعون ذراعاً ،وعدد ما فيه من البلاط اثنتان وأربعون ألف بلاطة، وعمق النهر اثنتان وتسعون ذراعاً في عرض ست وأربعين ذراعاً ،وفيما بين باب الذهب الى باب الملك اثنا عشر ميلا، وسوق ممتدة من الشرق الى الغرب مثلّثة الاسطوانات وحنيَّتا الاوسط منها بعمد نحاس وقصبة العمود منها وقاعدته ورأسه مفرّغة وسمك كل عمود منها ثلاثون ذراعاً، وفوق هذه العمد نقير من نحاس من المغرب الى المشرق يجري فيه لسان من البحر، وتجري السفن في هذا النقير بحمولتها، وتحته حوانيت التجار للشراء والبيع فتجيء السفينة بما تحمله حتى تقف على حانوت الرجل الذي يبتاع منها.

وفي المدينة كنائس فجميع ما فيها أربع وعشرون كنيسة، وكنائس أخر تقام الصلوات فيها كل يوم ألف ومائتا كنيسة وثلاثة وعشرون ألف دير عظام وحول سورها ألف ومائتان وعشرون عموداً فيها الرهبان جنس يسهرون الليل كلّه، وفيها أسواق عظام وفي كل سوق قناتان عظيمتان من ماء، وأسواقها كلّها مبلّطة برخام أبيض وفيها أربعون ألف حمّام، وفيها مجامع أسواق يقام فيها التجارات خمسة وتسعون موضعاً. وليس فيها من تسع ساعات من يوم السبت حتى تغييب الشمس من يوم الأحد شراء ولا بيع وهم كلهم في الصلاة إلا ساعتين بعد أخذهم القربان للطعام، ثم ينصرفون اليها. وفيها مجامع لمن يلتمس صنوف العلم والحكمة من الرجال مائة وعشرون مجمعاً، وفي جميع كنائس المدينة من آنية الذهب والفضة عشرة آلاف قنطار وأربع مائة جرّة من ذهب ومائتا جرّة من نحاس شبه الذهب وخمسون وثلثمائة منارة، والذي يظهرون في أيام الشعانين من صلب الذهب واحد وعشرون ألف صليب ،ومن صلب الفضّة والحديد والنحاس المنقوشة المموّهة بالذهب عشرة آلاف صليب.

وفيها من المصاحف(=الأناجيل) التي تقرأ في الكنيسة مكتوبة بالذهب والفضة ستة آلاف وأربع مائة مصحف وفيها من الكهنة والشمامسة ممن يجري عليهم الارزاق ثمانية

وأربعون ألفاً لا ينقص عددهم كلما مات أحدهم أقاموا مكانه آخر، وقد تركنا من ذكر ذلك أشياء كثيرة كرهنا ايداع جميعها هذا الكتاب استسرافاً واستكثاراً ولأنها بالكذب أشبه منها بالصدق وإن كان جميع ذلك مدوّناً في الكتب يدور بين الناس قد استحسنوه وقبلوه واتّفقوا على التصديق به.)

رأينا كيف أن ابن رسته حرص على تقديم الوصف الاستقصائي الذي ذكره شاهد عيان عن بلاد الروم ، وكيف ظهرت مدينة روما في القسم الثاني من النص، لكنّ ياقوت الحموي يوسّع الوصف، ويربط المدينة بالتاريخ الروماني ، ويعتذر عمّا سيقدمه ، إذ قد لايُصدّق، ولكن مايشفع له أنه ناقل للوصف وليس واصفا(ورومية من عجائب الدنيا بناء و عظماً وكثرة خلق .وأنا من قبل أن آخذ في ذكرها أبرأُ إلى الناظر في كتابي هذا مما أحكيه من أمرها، فإنها عظيمة جداً خارجة عن العادة مستحيل وقوع مثلها) ، ومأان ينتهي من تقديم وصف روما، الاّ ويعود للتذكير بالتحذير الي بدأ به(جميع ما ذكرته ههنا من صفة هذه المدينة هو من كتاب أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه ،وليس في القصة شيء أصعب من كون مدينة تكون على هذه الصفة من العظم على أن ضياعها إلى مسيرة أشهر لا تقوم مزدرعاتها بميرة أهلها).ولكن يحسن الآن أن نقترب إلى النص .

(١١)

وصف رومـــا

ياقوت الحموي(توفي ٦٢٥هجري=١٢٢٩ميلادي)

من كتاب (معجم البلدان)

(رُومِيَةُ: بتخفيف الياء من تحتها نقطتان، كذا قيّده الثقات، قال الأصمعي: وهو مثل أنطاكية وأفامية ونيقية وسلوقية وملطية، وهو كثير في كلام الروم وبلادهم، وهما روميتان: إحداهما بالروم والأخرى بالمدائن بُنيت وسمّيت باسم ملك، فأما التي في بلاد الروم فهي مدينة رياسة الروم وعلمهم.

قال بعضهم: هي مسماة باسم رومي بن لنطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام. وذكر بعضهم: إنما سمّي الروم روماً لإضافتهم إلى مدينة رومية واسمها رومانس بالرومية، فعرّب هذا الاسم فسمي من كان بها رومياً، وهي شمالي وغربي القسطنطينية بينهما مسيرة خمسين يوماً أو أكثر، وهي اليوم بيد الأفرنج، وملكها يقال له ملك ألمان، وبها يسكن البابا الذي تطيعه الفرنجية،وهو لهم بمنزلة الإمام، متى خالفه أحد منهم كان عندهم عاصياً مخطئاً يستحق النفي والطرد والقتل، يحرّم عليهم نساءهم وغسلهم وأكلهم وشربهم فلا يمكّن أحداً منهم مخالفته.

وذكر بطليموس في كتاب" الملحمة "قال: مدينة رومية طولها خمس وثلاثون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها إحدى وأربعون درجة وخمسون دقيقة، في الإقليم الخامس، طالعها عشرون درجة من برج العقرب تحت سبع عشرة درجة من برج السرطان، يقابلها مثلها من برج الجدي، بيت ملكها مثلها من الحمل، بيت عاقبتها مثلها من الميزان، لها شركة في كف الجذماء، حولها كل نحو عامر، وفيها جاءت الرواية من كل فيلسوف وحكيم، وفيها قامت الأعلام والنجوم. وقد روي عن جُبير بن مطعم أنه قال: لولا أصوات أهل رومية وضجّهم لسمع الناس صليل الشمس حيث تطلع وحيث تغرب؛ ورومية من عجائب الدنيا بناء و عظماً وكثرة خلق .وأنا من قبل أن آخذ في ذكرها أبرأُ إلى الناظر في كتابي هذا مما أحكيه من أمرها، فإنها عظيمة جداً خارجة عن العادة مستحيل وقوع مثلها، ولكنني رأيت جماعة ممن اشتهروا برواية العلم قد ذكروا ما نحن حاكوه فاتبعناهم في الرواية، والله أعلم.

روي عن ابن عباس، رضي الله عنه، أنه قال: حلية بيت المقدس أهبطت من الجنة فأصابتها الروم فانطلقت بها الى مدينة لهم يقال لها رومية، قال: وكان الراكب يسير بضوء ذلك الحلي مسيرة خمس ليال.

وقال رجل من آل أبي موسى: أخبرني رجل يهودي قال: دخلت رومية وإن سوق الطير فيها فرسخ، وقال مجاهد: في بلد الروم مدينة يقال لها رومية فيها ستمائة ألف حمّام. وقال

الوليد بن مسلم الدمشقي: أخبرني رجل من التجار قال: ركبنا البحر وألقتنا السفينة الى ساحل رومية فأرسلنا إليهم إنّا إياكم أردنا، فأرسلوا إلينا رسولاً، فخرجنا معه نريدها فَعَلَوْنا جبلاً في الطريق فإذا بشيء أخضر كهيئة اللُّجّ فكبّرنا فقال لنا الرسول: لم كبّرتم؟ قلنا: هذا البحر ومن سبيلنا أن نكبّر إذا رأيناه، فضحك وقال: هذه سقوف رومية وهي كلها مرصّصة، قال :فلمّا انتهينا إلى المدينة إذا استدارتها أربعون ميلاً في كل ميل منها باب مفتوح، قال: فانتهينا إلى أوّل باب وإذا سوق البياطرة وما أشبهه ثم صعدنا درجاً فإذا سوق الصيارفة والبزازين. ثم دخلنا المدينة فإذا في وسطها برج عظيم واسع في أحد جانبيه كنيسة قد استقبل بمحرابها المغرب وببابها المشرق، وفي وسط البرج بركة مبلطة بالنحاس يخرج منها ماء المدينة كله، وفي وسطها عمود من حجارة عليه صورة رجل من حجارة، قال: فسألت بعض أهلها فقلت ما هذا؟ فقال: إن الذي بنى هذه المدينة قال لأهلها لا تخافوا على مدينتكم حتى يأتيكم قوم على هذه الصفة فهم الذين يفتحونها . وذكر بعض الرهبان ممن دخلها وأقام بها أن طولها ثمانية وعشرون ميلاً في ثلاثة وعشرين ميلاً، ولها ثلاثة أبواب من ذهب، فمن باب الذهب الذي في شرقيها إلى البابين الآخرين ثلاثة وعشرون ميلاً، ولها ثلاثة جوانب في البحر والرابع في البر، والباب الأول الشرقي والآخر الغربي والآخر اليمنى، ولها سبعة أبواب أخر سوى هذه الثلاثة الأبواب من نحاس مذهب، ولها حائطان من حجارة رخام وفضاء طوله مائتا ذراع بين الحائطين، وعرض السور الخارج ثمانية عشر ذراعاً، وارتفاعه اثنان وستون ذراعاً، وبين السورين نهر ماؤه عذب يدور في جميع المدينة ويدخل دورهم مطبق بدفوف النحاس كل دفة منها ستة وأربعون ذراعاً، وعدد الدفوف مائتان وأربعون ألف دفة، وهذا كله من نحاس، وعمود النهر ثلاثة وتسعون ذراعاً في عرض ثلاثة وأربعين ذراعاً، فكلما همّ بهم عدوّ وأتاهم رفعت تلك الدفوف فيصير بين السورين بحر لا يرام، وفيما بين أبواب الذهب إلى باب الملك اثنا عشر ميلاً وسوق مادّ من شرقيها الى غربيّها بأساطين النحاس مسقف بالنحاس وفوقه سوق آخر، وفي الجميع التجار، وبين يدي هذا السور سوق آخر على أعمدة نحاس كل عمود منها ثلاثون ذراعاً، وبين هذه

الأعمدة نقيرة من نحاس في طول السوق من أوله إلى آخره فيه لسان يجري من البحر فتجيء السفينة في هذا النقير وفيها الأمتعة حتى تجتاز في السوق بين يدي التجار فتقف على تاجر تاجر فيبتاع منها ما يريد ثم ترجع إلى البحر.

وفي داخل المدينة كنيسة مبنية على اسم مار بطرس ومار بولس الحواريين، وهما مدفونان فيها، وطول هذه الكنيسة ألف ذراع في خمسمائة ذراع في سمك مائتي ذراع، وفيها ثلاث باسليقات بقناطر نحاس، وفيها أيضاً كنيسة بنيت باسم اصطفانوس رأس الشهداء، طولها ستمائة ذراع في عرض ثلاثمائة ذراع سمك مائة وخمسين ذراعاً، وثلاث باسليقات بقناطرها وأركانها، وسقوف هذه الكنيسة وحيطانها وأرضها وأبوابها وكواها كلّها وجميع ما فيها كأنه حجر واحد، وفي المدينة كنائس كثيرة، منها أربع وعشرون كنيسة للخاصة، وفيها كنائس لا تحصى للعامة، وفي المدينة عشرة آلاف دير للرجال والنساء، وحول سورها ثلاثون ألف عمود للرهبان، وفيها اثنا عشر ألف زقاق يجري في كل زقاق منها نهران واحد للشرب والآخر للحشوش، وفيها اثنا عشر ألف سوق، في كل سوق قناة ماء عذب، وأسواقها كلها مفروشة بالرخام الأبيض منصوبة على أعمدة النحاس مطبقة بدفوف النحاس، وفيها عشرون ألف سوق بعد هذه الأسواق صغار، وفيها ستمائة ألف وستون حمّام، وليس يباع في هذه المدينة ولا يشترى من ستّ ساعات من يوم السبت حتى تغرب الشمس من يوم الأحد، وفيها مجامع لمن يلتمس صنوف العلم من الطب والنجوم وغير ذلك يقال إنها مائة وعشرون موضعاً، وفيها كنيسة تسمى كنيسة الأمم إلى جانبها قصر الملك، وتسمى هذه الكنيسة صهيون بصهيون بيت المقدس، طولها فرسخ في فرسخ في سمك مائتي ذراع، ومساحة هيكلها ستة أجربة، والمذبح الذي يقدّس عليه القربان من زبرجد أخضر طوله عشرون ذراعاً في عرض عشرة أذرع يحمله عشرون تمثالاً من ذهب طول كل تمثال ثلاثة أذرع أعينها يواقيت حمر، وإذا قرّب على هذا المذبح قربان في الأعياد لا يطفأُ إلا يصاب ؛ وفي رومية من الثياب الفاخرة ما يليق به.

وفي الكنيسة ألف ومائتا أسطوانة من المرمر الملمّع ومثلها من النحاس المذهب طول كل

اسطوانة خمسون ذراعاً، وفي الهيكل ألف وأربعمائة وأربعون أسطوانة طول كل أسطوانة ستون ذراعاً لكل أسطوانة رجل معروف من الأساقفة، وفي الكنيسة ألف ومائتا باب كبار من النحاس الأصفر المفرّغ وأربعون باباً كباراً من ذهب سوى أبواب الآبنوس والعاج وغير ذلك، وفيها ألف باسليق طول كل باسليق أربعمائة وثمانية وعشرون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً، لكل باسليق أربعمائة وأربعون عموداً من رخام مختلف ألوانه، طول كل واحد ستة وثلاثون ذراعاً، وفيها أربعمائة قنطرة تحمل كل قنطرة عشرون عموداً من رخام، وفيها مائة ألف وثلاثون ألف سلسلة ذهب معلّقة في السقف ببكر ذهب تعلّق فيها القناديل سوى القناديل التي تسرج يوم الأحد، وهذه القناديل تسرج يوم أعيادهم وبعض مواسمهم، وفيها الأساقفة ستمائة وثمانية عشر أسقفاً، ومن الكهنة والشمامسة ممن يجري عليه الرزق من الكنيسة دون غيرهم خمسون ألفاً، كلما مات واحد أقاموا مكانه آخر.

وفي المدينة كنيسة الملك وفيها خزائنه التي فيها أواني الذهب والفضة مما قد جُعل للمذبح، وفيها عشرة آلاف جرّة ذهب يقال لها الميزان وعشرة آلاف خوان ذهب وعشرة آلاف كأس وعشرة آلاف مروحة ذهب ،ومن المنائر التي تدار حول المذبح سبعمائة منارة كلها ذهب، وفيها من الصلبان التي تُخْرج يوم الشعانين ثلاثون ألف صليب ذهب ومن صلبان الحديد والنحاس المنقوشة المموّهة بالذهب ما لا يحصى ومن المقطوريات عشرون ألف مقطورية، وفيها ألف مقطرة من ذهب يمشون بها أمام القرابين، ومن المصاحف الذهب والفضة عشرة آلاف مصحف، وللبيعة وحدها سبعة آلاف حمّام سوى غير ذلك من المستغلات، ومجلس الملك المعروف بالبلاط تكون مساحته مائة جريب وخمسين جريباً، والإيوان الذي فيه مائة ذراع في خمسين ذراعاً ملبس كله ذهباً.

وقد مثل في هذه الكنيسة مثال كل نبي منذ آدم، عليه السلام، إلى عيسى بن مريم، عليه السلام، لا يشك الناظر إليهم أنهم أحياء، وفيها ثلاثة آلاف باب نحاس مموّه بالذهب، وحول مجلس الملك مائة عمود مموهة بالذهب على كل واحد منها صنم من نحاس مفرغ في يد كل صنم جرس مكتوب عليه ذكر أمة من الأمم وجميعها طلسمات، فإذا همّ بغزوها

ملك من الملوك تحرك ذلك الصنم وحرك الجرس الذي في يده فيعلمون أن ملك تلك الأمة يريدهم فيأخذون حذرهم، وحول الكنيسة حائطان من حجارة طولهما فرسخ وارتفاع كل واحد منها مائة ذراع وعشرون ذراعاً لهما أربعة أبواب، وبين يدي الكنيسة صحن يكون خمسة أميال في مثلها في وسطه عمود من نحاس ارتفاعه خمسون ذراعاً، وهذا كله قطعة واحدة مفرغة، وفوقه تمثال طائر يقال له السوداني من ذهب على صدره نقش طلسم ،وفي منقاره مثال زيتونة وفي كل واحدة من رجليه مثال ذلك، فإذا كان أوان الزيتون لم يبق طائر في الأرض إلا وأتى وفي منقاره زيتونة وفي كل واحدة من رجليه زيتونة حتى يطرح ذلك على رأس الطلسم، فزيّت أهل رومية وزيتونهم من ذلك، وهذا الطلسم عمله لهم بليناس صاحب الطلسمات، وهذا الصحن عليه أمناء وحفظة من قبل الملك وأبوابه مختومة، فإذا امتلأ وذهب أوان الزيتون اجتمع الأمناء فعصروه فيعطى الملك والبطارقة ومن يجري مجراهم قسطهم من الزيت ويجعل الباقي للقناديل التي للبيع، وهذه القصة، أعني قصة السوداني، مشهورة قلما رأيت كتاباً تذكر فيه عجائب البلاد إلا وقد ذكرت فيه.

وقد روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: من عجائب الدنيا شجرة برومية من نحاس عليها صورة سودانية في منقارها زيتونة فإذا كان أوان الزيتون صفرت فوق الشجرة فيوافي كل طائر في الأرض من جنسها بثلاث زيتونات في منقاره ورجليه حتى يلقى ذلك على تلك الشجرة فيعصر أهل رومية ما يكفيهم لقناديل بيعتهم وأكلهم لجميع الحول؛ وفي بعض كنائسهم نهر يدخل من خارج المدينة، في هذا النهر من الضفادع والسلاحف والسراطين أمر عظيم، فعلى الموضع الذي يدخل منه الكنيسة صورة صنم من حجارة وفي يده حديدة معقفة كأنه يريد أن يتناول بها شيئاً من الماء، فإذا انتهت إليه هذه الدواب المؤذية رجعت مصاعدة ولم يدخل الكنيسة منها شيء البتة؛ قال المؤلف: جميع ما ذكرته ههنا من صفة هذه المدينة هو من كتاب أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه ،وليس في القصة شيء أصعب من كون مدينة تكون على هذه الصفة من العظم على أن ضياعها إلى مسيرة أشهر لا تقوم مزدرعاتها بميرة أهلها، وعلى ذلك فقد حكى جماعة من

بغداد أنها كانت من العظم والسعة وكثرة الخلق والحمّامات.)

كان الوقوف على أهم مدينتين في بلاد الشمال مهما ،كونهما من أبرز الرموز الدينية والحضارية في الدولتين الرومانية والبيزنطية، لكن ذلك لايحجب ا هتمام الجغرافييّن والرحالة من وصف غيرهما ، وفي هذا النص يقف القزويني على بعض البلاد والمدن الأخرى.

(١٢)
مدن وبلاد إفرنجية
القزويني(٦٨٢هجري=١٢٨٣ميلادي) من كتاب
(آثار البلاد وأخبار العباد)

إفرنجة

(بلدة عظيمة ومملكة عريضة في بلاد النصارى، بردها شديد جداً وهواؤها غليظ لفرط البرد. وإنها كثيرة الخيرات والفواكه والغلات، غزيرة الأنهار كثيرة الثمار، ذات زرع وضرع وشجر وعسل، صيودها كثيرة الأنواع. بها معادن الفضة، وتضرب بها سيوف قطاعة جداً، وسيوف افرنجة أمضى من سيوف الهند. وأهلها نصارى. ولهم ملك ذو بأس وعدد كثير وقوة ملك له مدينتان أو ثلاث على ساحل البحر من هذا الجانب في وسط بلاد الإسلام، وهو يحميها من ذلك الجانب، كلما بعث المسلمون إليها من يفتحها يبعث هو من ذلك الجانب من يحميها. وعساكره ذوو بأس شديد لا يرون الفرار أصلاً عند اللقاء، ويرون الموت دون ذلك. لا ترى أقذر منهم وهم أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد، ولا يغسلون ثيابهم منذ لبسوها إلى أن تتقطع. ويحلقون لحاهم وإنما تنبت بعد الحلق خشنة مستكرهة. سُئل واحد عن الحلق اللحى فقال: الشعر فضلة أنتم تزيلونها عن سوءاتكم فكيف نتركها نحن على وجوهنا؟

أُفْسُوسُ

مـدينة مـشـهـورة بأرض الروم، وهي مـدينة دقـيـانوس الجـبـار الذي هرب منه أصـحـاب الكهف، وبين الكهف والمدينة مقدار فرسخين، والكهف مستقبل بنات نعش لا تدخله الشمس، فيه رجال موتى لم يتغيروا وعددهم سبعة: ستة منهم نيام على ظهورهم، وواحد منهم في آخر الكهف مضطجع على يمينه، وظهره إلى جدار الكهف، وعند أرجلهم كلب ميت لم يسقط من أعضائه شيء، وهو باسط ذراعيه بالوصيد كافتراش السباع، وعلى الكهف مسجد يستجاب فيه الدعاء، يقصده الناس، وأهل المدينة يرون بالليل على الكهف نوراً عظيماً، ويعرفون أن ذلك النور من سكان الكهف...

أبو لدة

مدينة بأرض الفرنج عظيمة مبنية بالحجارة. لا يسكنها إلا الرهبان ولا تدخلها امرأة لأنه أوصى شهيدها بذلك، واسم شهيدها باج الب، زعموا أنه كان أسقفاً بافرنجة، فتشاجر أهلها وأتى هذا الموضع، وبنى هذه المدينة. وهي كنيسة عظيمة معتبرة عند النصارى.

حكى الطرطوشي قال: ما رأيت في جميع بلاد النصارى أعظم منها ولا أكثر ذهباً وفضة. وأكثر أوانيها كالمجامر والكؤوس والأباريق والقصاع من الذهب والفضة. وبها صنم من فضة على صورة شهيدها، وجهه إلى المغرب، وبها صنم آخر من ذهب وزنه ثلاثمائة رطل، ملصق ظهره بلوح واسع عريض جداً، قد كلّل بالياقوت والزمرد، وهو مفتوح اليدين على شكل المصلوب، وهو صورة المسيح، عليه السلام. وبها من صلبان الذهب والفضة وألواح الآثار كلها من الذهب والفضة قد كلّل بالياقوت.

أشت

مدينة بأرض الإفرنج، حكى العذري أن بهذه المدينة عادة عجيبة، وهي أن أهلها إذا اشتروا متاعاً كتبوا ثمنه عليه وتركوه في دكانهم، فمن وافقه بذلك الثمن أخذه وترك ثمنه مكانه. ولحوانيتهم حراس، فمن ضاع منه شيئاً غرموا الحارس قيمته.

أفش

مدينة في بلاد الإفرنج مبنية بالصخور المهندمة على طرف نهر يسمى نهر أفش. بها جمّة

غزيرة الماء جداً. عليها بيت واسع الفضاء يستحمّ فيه أهلها على بعد من الجمة، خوفاً من شدة سخونة الماء الذي يفور من الجمة.

انطرحت

مدينة بأرض الفرنج عظيمة واسعة الرقعة. أرضها سبخة لا يصلح فيها شيء من الزروع والغراس، ومعاشهم من المواشي ودرّها وأصوافها. وليس ببلادهم حطب يشعلونه بحاجاتهم، وإنما عندهم طين يقوم مقام الحطب، وذاك أنهم يعمدون في الصيف إذا خفت المياه إلى مروجهم، ويقطعون فيها الطين بالفؤوس على شكل الطوب، فيقطع كل رجل منها مقدار حاجته ويبسطه في الشمس ينشف، فيكون خفيفاً جداً، فإذا عرض على النار يشتعل، وتأخذ فيه النار كما تأخذ في الحطب. وله نار عظيمة ذات وهج عظيم كنار كير الزجّاجين، وإذا احترقت قطاعة لا جمر لها بل لها رماد.

إيرلاندة

جزيرة في شمالي الإقليم السادس وغربيه ؛ قال العذري: ليس للمجوس قاعدة إلا هذه الجزيرة في جميع الدنيا، ودورها ألف ميل، وأهلها على رسم المجوس وزيّهم، يلبسون برانس قيمة الواحد منها مائة دينار. وأما أشرافهم فيلبسون برانس مكلّلة باللآلئ.

وحكي أن في سواحلها يصيدون فراخ الأبلينة، وهو نون عظيم جداً، يصيدون أجراءها يتأدّمون بها. وذكروا أن هذه الأجراء تتولد في شهر أيلول فتصاد في تشرين الأول والثاني وكانون الأول والثاني، في هذه الأشهر الأربعة، وبعد ذلك يصلب لحمها فلا يصلح للأكل.

أما كيفية صيدها فقد ذكر العذري أن الصيادين يجتمعون في مراكب، ومعهم نشيل كبير من حديد ذو أضراس حداد، وفي النشيل حلقة عظيمة قويّة، وفي الحلقة حبل قويّ، فإذا ظفروا بالجرو صفقوا بأيديهم وصوّتوا، فيتلهى الجرو بالتصفيق ويقرب من المراكب مستأنساً بها، فينضم أحد الملاحين إليها ويحك جبهته حكاً شديداً، فيستلذ الجرو بذلك، ثم يضع النشيل وسط رأسه ويأخذ مطرقة من حديد قوية، ويضرب بها على النشيل بأتم قوة ثلاث ضربات، فلا يحسّ بالضربة الأولى وبالثانية، والثالثة يضطرب اضطراباً شديداً، فربما صادف بذنبه شيئاً من المراكب فيعطبها، ولا يزال يضطرب حتى يأخذه اللغوب.

ثم يتعاون ركاب المراكب على جذبه حتى يصير إلى الساحل. وربما أحست أم الجرو باضطرابه فتتبعهم، فيستعدون بالثوم الكثير المدقوق ويخوّضون به الماء، فإذا شمت رائحة الثوم استبعثتها ورجعت القهقرى إلى خلف، ثم يقطعون لحم الجرو ويملّحونه. ولحمه أبيض كالثلج وجلده أسود كالنقس.

باكويه(=باكو)

مدينة بنواحي دربند بقرب شروان. بها عين نفط عظيمة تبلغ قبالتها في كل يوم ألف درهم، وإلى جانبها عين أخرى تسيل بنفط أبيض كدهن الزئبق، لا تنقطع نهاراً ولا ليلاً، تبلغ قبالتها مثل الأولى.

من عجائبها ما ذكر أبو حامد الأندلسي أن بها أرضاً ليس في ترابها حرارة كثيرة يجدها الإنسان، والناس يصيدون الغزلان وغيرها ويقطعون لحمها ويجعلونه في جلودها مع الملح وما شاؤوا من الأبازير، ويأخذون أنبوبة من القصب الغليظ النافذ، ويشدون القصب على جلد الصيد ويدفنونه تحت ذلك التراب، ويتركون القصب خارجاً فتخرج مائية اللحم كلها من القصبة، فإذا نفذت المائية علموا أن اللحم قد نضج فيخرجونه وقد تهرأ.

وحكى بعض التجار أنه رأى بها ناراً لا تزال تضطرم ولا تنطفئ لأن موضعها معدن الكبريت. وحكى أبو حامد الأندلسي أن بقرب باكويه جبلاً أسود في سنامه شق طويل، يخرج منه الماء ويخرج مع ذلك الماء مثل صناج الدانق من النحاس وأكبر أو أصغر، يحملها الناس إلى الآفاق للتعجب.

باني وأريشة

مدينتان بأرض الفرنج، سمّيتا باسم بانيهما: أما باني فاسم ملك تلك الناحية في قديم الدهر، وأريشة اسم زوجته. أما مدينة الباني فمدينة شريفة في وسطها سارية من رخام، وعلى تلك السارية صورة باني كأنه ينظر إلى البحر إلى إقبال مراكبه من إفريقية. وعلى ميل من مدينة باني مدينة أريشة، وفي وسط المدينة سارية من رخام عليها صورة أريشة، صوّر جميعاً من رخام تذكرة لهما، وسميت المدينتان باسميهما.

برذيل

مدينة بناحية افرنجة كثيرة المياه والأشجار والفواكه والحبوب. أكثر أهلها نصارى. بها بنيان منيفة على سوار عظيمة، وفي سواحل هذه المدينة يوجد العنبر الجيد. وحكي أنهم إذا أصابهم كلب الشتاء وامتنع عليهم ركوب البحر، مشوا إلى جزيرة بقربهم يقال لها انواطى، بها نوع من الشجر يسمى مادقة ، فإذا أصابهم الجوع قشروا هذه الشجرة فوجدوا بين لحائها وخشبها شيئاً أبيض فاقتاتوا بها الشهر والشهرين وأكثر حتى يطيب الهواء. بها جبل مشرف عليها وعلى البحر المحيط وعليه صنم، وذلك كأنه يخبر الناس بترك التعرض لسلوك البحر المحيط، لئلا يطمع أحد ممن خرج من برذيل بركوب البحر الذي عنده طمع في سلوكه.

بُرْطَاس

ولاية واسعة بالخزر مفترشة على نهر أتل، أهلها مسلمون، لهم لغة مغايرة لجميع اللغات، أبنيتهم من الخشب يأوون إليها في الشتاء، وأما في الصيف فيفرشون في الخرقاهات.)

لكنّ الأمر لايقتصر على القزويني ، في ذكر بعض المدن في بلاد الشمال ،فالهروي يضيف مدنا أخرى ، و يعود ثانية إلى القسطنطينية وروما.

(١٣)

صقلية، قبرص، القسطنطينية، سالونيك،روما

أبو الحسن الهروي (توفي ٦١١هجري=١٢١٥ميلادي)

من كتاب (الإشارات إلى معرفة الزيارات)

(صقلية: وبجزيرة إسقلية جبل النار مطل على البحر شاهق في الهواء يُرى في النهار الدخان طالع منه وفي الليل النار. وحدثني رجل من علماء البلاد أنه رأى حيواناً على شكل السمان رصاصي اللون يطير في وسط هذه النار ويعود إليها وقيل هو السمندل. وأنا فما رأيت إلا حجارة سوداء مثقبة مثال حجر الرجل للحمّام تقع من هذا الجبل إلى ناحية البحر

وقيل بالفرغانة جبل مثله تحرق الحجارة ويباع رمادها ثلاث أواقي بدرهم يبيّضون به الثياب.
واجتمعت بجزيرة إسقلية بالقائد أبي القاسم بن حمّود بن الحجر وذكر لي أنه من ولد عمر بن عبد العزيز، وكنت مرضت في مسجد عين الشفا، وهذه العين تزار ومنَّ الله عز وجل عليّ بالعافية وأحسن هذا القائد إليّ وكتب معي كتباً إلى السلطان تحثه على أخذ هذه الجزيرة، وغرق المركب عند خروجي من هذه الجزيرة ،وركبت مع قوم من الروم إلى جزيرة قبرس.

جزيرة قبرس :ورأيت بجزيرة قبرس مكتوباً على حجر ما هذه صورته بعد البسملة وسورة الإخلاص: "هذا قبر عروة بن ثابت توفي في شهر رمضان سنة تسع وعشرين للهجرة". وهذا الحجر مبنيّ في حائط الكنيسة الشرقية. وبها قبر أم حرام ابنة مِلحان أخت سُليم رضي الله عليهما. والله أعلم.

مدينة القسطنطانية :في جانب سورها قبر أبي أيوب الأنصاري (رض) صاحب رسول الله(صلعم). واسمه خالد بن زيد ولما قتل دفنه المسلمون وقالوا للروم: " هذا من كبار أصحاب نبينا فوالله إن نُبش لا دق بناقوس في أرض العرب أبداً ". وبها الجامع الذي بناه مسلمة بن عبدالملك والتابعون (رض)، وبه قبر رجل من ولد الحسين (رض). وبها الأصنام النحاس والرخام والعمد والطلسمات العجيبة والمنائر التي تقدم ذكرها والآثار التي ليس في ربع المسلمين مثلها. وبها أيا صوفيا وهي الكنيسة العظمى عندهم ويقولون بها ملك من الملائكة مقيم بها، وقد عملوا دائر مكانه دارابزين من الذهب... وهذه المدينة هي أكبر من اسمها فالله تعالى يجعلها دار الإسلام بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى.

مدينة صالونيك : يقصدها الروم والفرنج ويزورونها.

مدينة رومية الكبرى :بها بطرس وشمعون الصفا وبولص من حواري المسيح عليه السلام في توابيت من الفضة معلقة بالسلاسل في هيكل الكنيسة العظمى التي لهم. وبهذه المدينة من الآثار والأصنام والعمد ...أما قول الناس إن لها سبعة أسوار فإذا دخلها الداخل لا يعرف كيف يخرج فلا أصل لهذا الكلام ولا صحة له بل لها حبس عمارتها على هيئة الحلزون،

وإذا حُبس به أحد لا يهتدي للخروج منه وهذا صورته.

وحدثني من أثق بقوله إنه دخل جزيرة لويزل أقصى بلاد الفرنج، ورأى هناك كنيسة بها رهبان وسدنة من قبل البابا وبها ثلاث شجرات ورقها أحمر شديد الحمرة وتحمل كل شجرة من الطيور شيئاً كثيراً ويملّحون الطيور ويهدونها إلى ملوكهم. وسألت غيره عن ذلك فأخبرني بصحته وحدثني أنه رأى في بلد الريد من بلاد الفرنج نساء ديس المرأة يماس قدميها، وإذا خلّفت المرأة ثديها إلى وراء أكتافها التقت رؤوس أناملها. وهذا جميعه ما رأيته بل أثق بمن ذكره والله أعلم بصحة ذلك.

عدنا إلى ذكر بلاد الروم

شرقي بحر القسطنطينية البرج الذي بناه مسلمة والتابعون مدينة نيقيا من أعمال إصطنبول على البر الشرقي، وهي المدينة التي اجتمع بها آباء الملّة المسيحية وكانوا ثلثمائة وثمانية عشر أباً ،ويزعمون أن المسيح عليه السلام كان معهم في هذا الجمع ،وهو أول المجامع لهذه الملة وبه أظهروا إمانة التي هي أصل دينهم وصورهم وصورة المسيح على كراسيهم بهذه المدينة في بيعتها ولهم فيها الاعتقاد العظيم.

الطريق من هذه المدينة إلى بلاد الروم الشمالية

قبر أبي محمد البطّال على رأس تل في حدّ تخوم البلاد عمُّورية بها قبور جماعة استشهدوا مع المعتصم (رض) وبها آثار عجيبة... سلطان وكي وهو موضع عجيب ويقال له أيضاً الثيرما بالرومي ويقال له اوكرم وهو على تخوم البلاد وحد الكافر. وبهذا الموضع آثار آزاج معقودة وتحتها الماء الذي ليس مثله في البلاد في صفائه وحرارته وحلاوته ومنفعته يقصده أصحاب الأمراض من البلاد ...

مدينة قونية: بها قبر إفلاطون الحكيم بالكنيسة التي إلى جانب الجامع. ورأيت في بستان قمر الدين سريراً من الرخام عليه صورة رجل وامرأة نياماً تحت إزار والجميع مستخرج من جسم الرخام وذرعته طولاً وعرضاً ...

مدينة قيصارية: بها حبس محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب (رض). وبها جامع

البطّال. وبها البضرم به آثار قديمة، وبه قبّة الخيالة، وبه الحمّام الذي ذكروا أن بليناس الحكيم عمله للملك قيصر يُحمى بسراج والله أعلم. وعنده جبل عسيب به قبر امرئ القيس شاعر العَرب،ولذلك قال:

أجــارتنا إن الخُطوب تنوب   وإني مقــيمٌ ما أقام عــسيب

أجارتنا إنّا غريبان ها هنــا   وكلّ غريب للغريب نسيب

ذكر الأُبرُوق: وهو موضع ببلاد الروم يزار من الآفاق، وبلغني أن به شهداء من عهد عمر بن الخطاب (رض) وأنهم لا يبلون ولا يحلقون رؤوسهم ويقلمون أظفارهم فقصدته لأنظر حقيقة ذلك. وهو في لحف جبل يدخل إليه من باب برج ويمشي الداخل تحت الأرض إلى أن ينتهي إلى موضع واسع وهو جبل مخسوف تبين السماء من فوقه وفي وسطه بحيرة ودائرها بيوت الفلاّحي،ن وهم قوم من الروم مزدرعهم ظاهر الموضع وبيوتهم داخله. وهناك كنيسة لطيفة ومسجد فإن كان الزائر مسلماً أتوا به إلى المسجد ،وإن كان نصرانيا أتو به إلى الكنيسة ،ثم يدحل إلى بهو فيه جماعة قد قتلوا وآثار طعنات الأسنة وضربات السيوف فيهم ،ومنهم من قد راح بعض أعضائه وعليهم ثياب من القطن لم يتغيروا. وهناك أيضاً في موضع آخر أربعة قيام قد أسندوا ظهورهم إلى حائط المغارة ومعهم صبي قد وضع راسه على يد واحد منهم طوال من الرجال أسمر اللون وعليه قباء من القطن وكفه مفتوح كأنه يصافح ورأس الصبي على زنده وإلى جانبه رجل على وجهه ضربة ،وقد قطعت شفته العليا وظهرت أسنانه وهم بعمائم. وهناك أيضاً تابوت فيه امرأة وعلى صدرها صغير وحلمة ثديها في فيه. وهناك أيضاً خمسة أنفس قيام ظهورهم إلى حائط الموضع وهناك أيضاً في موضع عال سرير عليه اثنا عشر رجلاً فيهم صبي مخضوب بالحنّا يداه ورجلاه. والروم يزعمون أنهم منهم، والمسلمون يقولون إنهم من أصحاب عمر بن الخطاب (رض) ماتوا هناك صبراً. وأما حلق رؤوسهم وتقليم أظفارهم فليس لذلك صحة إلا أنهم قوم قد يبست جلودهم على العظام ولم يتغيروا والله أعلم بذلك.

مدينة أُبْلُستين: قريب منها بلد خراب يقال له أبسس يقال إنه بلد ذقيانوس وبه آثار

عجيبة وعمارة قديمة. وغربي هذه البلدة الكهف ،وهو كما قال الله عز وجل في كتابه العزيز ووصفه بقوله (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين إذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه .الآية) وقد تقدم ذكر الكهف والرقيم وهذا أصح ما روي والله أعلم بالصحيح.

مدينة ملطية : قيل بناها الإسكندر ويقال إن جامعها بنته الصحابة والتابعون رضي الله عليهم. والله أعلم بصحة ذلك.

مدينة أرزن الروم: بها قبر الحجّاج بن علاط.

كشف لنا الهروي جانبا من المدن الرومية ، وكما ظهر فقد زار بعضها،ومروياته عنها مباشرة، لكن بلاد الشمال مترامية، ويحسن العودة إلى بعض أطرافها،و يقدم ياقوت وصفا مفصّلا لبلاد الترك، إنها تلك البلاد الشاسعة في الأواسط الغربية العليا لقارة آسيا حيث تستوطن أقوام كثيرة ومختلفة الأعراق واللغات والعقائد، وياقوت كعادته جامع كبير لمرويات تعود إلى رحّالة ومبعوثين وقادة،وهم ممن أتيحت لهم الظروف بالسفر ومشاهدة البلاد التي يكتب عنها.وهو ، كما سيتضح في الفقرة القادمة يستند إلى شهادات حية جديرة بالاهتمام.

(١٤)
وصف بلاد تركســتان
ياقوت الحموي: من كتاب (معجم البلدان)

(تركستان: هو اسم جامع لجميع بلاد الترك ؛ وفي الحديث: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: الترك أول من يسلب أمتي ما خوّلوا . وعن ابن عباس أنه قال: ليكونن الملك، أو قال الخلافة، في ولدي حتى يغلب على عزهم الحُمْر الوجوه الذين كأن وجوههم المجانٌ المطرّقة . وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال: لا تقوم الساعة حتى يجيء قوم عراض الوجوه صغار الأعين فطس الأنوف حتى يربطوا خيولهم بشاطئ دجلة . وعن معاوية: لا

تبعثوا الرّابضين اتركوهم ما تركوكم الترك والحبشة . وخبر آخر عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: اتركوا الترك ما تركوكم.

وقيل إن الشاة لا تضع في بلاد الترك أقل من أربعة، وربما وضعت خمسة أو ستة كما تضع الكلاب، وأما اثنين أو ثلاثة فإنما يكون نادراً، وهي كبار جداً، ولها ألايَا كبار تجرها على الأرض. وأوسع بلاد الترك بلاد التغزغز، وحدّهم الصين والتّبّت والخرلخ والكيماك والغزّ والجفر والبجناك والبذكش واذكس وخفشاق وخرخيز. وأول حدّهم من جهة المسلمين فاراب، قالوا: ومدائنهم المشهورة ست عشرة مدينة، والتغزغز في الترك كالبادية، أصحاب عمد يرحلون ويحلُّون، والبذكشية أهل بلاد وقرى.

وكان هشام بن عبدالملك بعث إلى ملك الترك يدعوه إلى الإسلام، قال الرسول: فدخلت عليه وهو يتخذ سرجاً بيده فقال للترجمان: من هذا؟ فقال: رسول ملك العرب، قال: غلامي! قال: نعم، قال: فأمر بي إلى بيت كثير اللحم قليل الخبز، ثم استدعاني وقال لي: ما بغيتك؟ فتلطفت له وقلت: إن صاحبي يريد نصيحتك ،ويراك على ضلال، ويحبُّ لك الدخول في الإسلام، قال: وما الإسلام؟ فأخبرته بشرائطه وحظره وإباحته وفروضه وعبادته، فتركني أياماً ثم ركب ذات يوم في عشرة أنفس مع كل واحد منهم لواء وأمر بحملي معه، فمضينا حتى صعد تلاً وحول التل غيضة، فلما طلعت الشمس أمر واحداً من أولئك أن ينشر لواءه ويليح به، ففعل، فوافى عشرة آلاف فارس مسلح كلهم يقول: جاه جاه، حتى وقفوا تحت التل وصعد مقدمهم فكفر للملك، فما زال يأمر واحداً واحداً أن ينشر لواءه ويليح به، فإذا فعل ذلك وافى عشرة آلاف فارس مسلح فيقف تحت التل حتى نشر الألوية العشرة وصار تحت التل مائة ألف فارس مدجج، ثم قال للترجمان: قل لهذا الرسول يعرّف صاحبه أن ليس في هؤلاء حجّام ولا إسكاف ولا خياط فإذا أسلموا والتزموا شروط الإسلام من أين يأكلون؟

ومن ملوك الترك كيماك دون ألفين، وهم بادية يبيعون الكلأ، فإذا ولد للرجل ولد ربّاه وعاله وقام بأمره حتى يحتلم ثم يدفع إليه قوساً وسهاماً ويخرجه من منزله ويقول له: احتل

لنفسك، ويصيره بمنزلة الغريب الأجنبي ؛ ومنهم من يبيع ذكور ولده وإناثهم بما ينفقونه ؛ ومن سنتهم أن البنات البكور مكشفات الرؤوس، فإذا أراد الرجل أن يتزوج ألقى على رأس إحداهن ثوباً فإذا فعل ذلك صارت زوجته لا يمنعها منه مانع .

وذكر تميم بن بحر المطوّعي أن بلدهم شديد البرد، وإنما يسلك فيه ستة أشهر في السنة، وأنه سلك في بلاد خاقان التغزغزي على بريد أنفذه خاقان إليه وأنه كان يسير في اليوم والليلة ثلاث سكك بأشد سير وأحثه، فسار عشرين يوماً في بواد فيها عيون وكلأ وليس فيها قرية ولا مدينة إلا أصحاب السكك، وهم نزول في خيام، وكان حمل معه زاداً لعشرين يوماً، ثم سافر بعد ذلك عشرين يوماً في قرى متصلة وعمارات كثيرة، وأكثر أهلها عبدة نيران على مذهب المجوس، ومنهم زنادقة على مذهب ماني، وأنه بعد هذه الأيام وصل إلى مدينة الملك وذكر أنها مدينة حصينة عظيمة حولها رساتيق عامرة وقرى متصلة ولها اثنا عشر باباً من حديد مفرطة العظم، قال: وهي كثيرة الأهل والزحام والأسواق والتجارات، والغالب على أهلها مذهب الزنادقة، وذكر أنه حزر ما بعدها إلى بلاد الصين مسيرة ثلاثمائة فرسخ، قال: وأظنه أكثر من ذلك، قال: وعن يمين بلدة التغزغز بلاد الترك لا يخالطها غيرهم، وعن يسار التغزغز كيماك وأمامها بلاد الصين، وذكر أنه نظر قبل وصوله إلى المدينة خيمة الملك من ذهب وعلى رأس قصره تسعمائة رجل، وقد استفاض بين أهل المشرق أن مع الترك حصى يستمطرون به، ويجيئهم الثلج حين أرادوا.

وذكر أحمد بن محمد الهمذاني عن أبي العباس عيسى بن محمد المروزي قال: لم نزل نسمع في البلاد التي من وراء النهر وغيرها من الكور الموازية لبلاد الترك الكفرة الغزّيّة والتغزغزية والخزلجية، وفيهم المملكة، ولهم في أنفسهم شأن عظيم ونكاية في الأعداء شديدة، إن من الترك من يستمطر في السفارة وغيرها فيمطر ويحدث ما شاء من برد وثلج ونحو ذلك، فكنا بين منكر ومصدق، حتى رأيت داود بن منصور بن أبي علي الباذغيسي، وكان رجلاً صالحاً قد تولى خراسان، فحمد أمره بها، وقد خلا بابن ملك الترك الغزية، وكان يقال له بالقيق بن حيويه، فقال له: بلغنا عن الترك أنهم يجلبون المطر والثلج متى شاؤوا فما

عندك في ذلك؟ فقال: الترك أحقر وأذل عند الله من أن يستطيعوا هذا الأمر، والذي بلغك حق ولكن له خبرٌ أحدثك به: كان بعض أجدادي راغم أباه، وكان الملك في ذلك العصر قد شذّ عنه واتخذ لنفسه أصحاباً من مواليه وغلمانه وغيرهم ممن يحب الصعلكة، وتوجه نحو شرق البلاد يُغير على الناس ويصيد ما يظهر له ولأصحابه، فانتهى به المسير إلى بلد ذكر أهله أن لا منفذ لأحد وراءه، وهناك جبل، قالوا: إن الشمس تطلع من وراء هذا الجبل، وهي قريبة من الأرض جداً، فلا تقع على شيء إلا أحرقته، قال: أو ليس هناك ساكن ولا وحش؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يتهيأ لهم المقام على ما ذكرتم؟ قالوا: أما الناس فلهم أسراب تحت الأرض وغيران في الجبال، فإذا طلعت الشمس بادروا إليها واستكنوا فيها حتى ترتفع الشمس عنهم فيخرجون، وأما الوحوش فإنها تلتقط حصّى هناك قد ألهمت معرفته، فكل وحشية تأخذ حصاة بفيها وترفع رأسها إلى السماء فتظللها وتبرز عند ذلك غمامة تحجب بينها وبين الشمس، قال: فقصد جدي تلك الناحية فوجد الأمر على ما بلغه، فحمل هو وأصحابه على الوحوش حتى عرف الحصى والتقطه، فحملوا منه ما قدروا عليه إلى بلادهم، فهو معهم إلى الآن، فإذا أرادوا المطر حرّكوا منه شيئاً يسيراً فينشأ الغيم فيوافي المطر، وإن أرادوا الثلج والبَرَد زادوا في تحريكه فيوافيهم الثلج والبرد، فهذه قصتهم، وليس ذلك من حيلة عندهم، ولكنه من قدرة الله تعالى.

قال أبو العباس: وسمعت إسماعيل بن أحمد الساماني أمير خراسان يقول: غزوت الترك في بعض السنين في نحو عشرين ألف رجل من المسلمين، فخرج إليّ منهم ستون ألفاً في السلاح الشاك، فواقعتهم أياماً، فإني ليوماً في قتالهم إذ اجتمع إليّ خلق من غلمان الأتراك وغيرهم من الأتراك المستأمنة فقالوا لي: إن لنا في عسكر الكفرة قرابات وإخواناً، وقد أنذرونا بموافاة فلان، قال: وكان هذا الذي ذكروه كالكاهن عندهم، وكانوا يزعمون أنه ينشيء سحاب البَرَد والثلج وغير ذلك، فيقصد بها من يريد هلاكه، وقالوا: قد عزم أن يمطر على عسكرنا بَرَداً عظاماً لا يصيب البَرَد إنساناً إلا قتله، قال: فانتهرتهم وقلت لهم: ما خرج الكفر من قلوبكم بعد، وهل يستطيع هذا أحد من البشر؟ قالوا: قد أنذرناك وأنت أعلم غداً عند ارتفاع النهار؛ فلما كان من الغد وارتفاع النهار نشأت سحابة عظيمة هائلة من

رأس جبل كنت مستنداً بعسكري إليه ثم لم تزل تنتشر وتزيد حتى أظلت عسكري كله، فهالني سوادها وما رأيت منها وما سمعت فيها من الأصوات الهائلة وعلمت أنها فتنة، فنزلت عن دابتي وصليت ركعتين وأهل العسكر يموج بعضهم في بعض وهم لا يشكّون في البلاء، فدعوت الله وعفرت وجهي في التراب وقلت: اللهم أغثنا فإن عبادك يضعفون عن محنتك وأنا أعلم أن القدرة لك وأنه لا يملك الضر والنفع إلا أنت، اللهم إن هذه السحابة إن أمطرت علينا كانت فتنة للمسلمين وسطوة للمشركين، فاصرف عنا شرها بحولك وقوتك يا ذا الجلال والحول والقوة ؛ قال: وأكثرت الدعاء ووجهي على التراب رغبة ورهبة إلى الله تعالى وعلماً أنه لا يأتي الخير إلا من عنده ولا يصرف السوء غيره، فبينما أنا كذلك إذ تبادر إلي الغلمان وغيرهم من الجند يبشرونني بالسلامة، وأخذوا بعضدي ينهضونني من سجدتي ويقولون: انظر أيها الأمير، فرفعت رأسي فإذا السحابة قد زالت عن عسكري وقصدت عسكر الترك تمطر عليهم برَداً عظاماً وإذا هم يموجون، وقد نفرت دوابهم وتقلعت خيامهم، وما تقع برَدة على واحد منهم إلا أوهنته أو قتلته، فقال أصحابي: نحمل عليهم؟ فقلت: لا، لأن عذاب الله أدهى وأمرّ، ولم يفلت منهم إلا القليل، وتركوا عسكرهم بجميع ما فيه وهربوا، فلما كان من الغد جئنا إلى معسكرهم فوجدنا فيه من الغنائم ما لا يوصف، فحملنا ذلك وحمدنا الله على السلامة وعلمنا أنه هو الذي سهل لنا ذلك وملكناه؛ قلت هذه أخبار سطرتها كما وجدتها، والله أعلم بصحتها.)

وكانت جزيرة صقلية مثار اهتمام المسلمين الذين فتحوها منذ وقت مبكّر، ولمد طويلة ظل وجودهم فيها بارزا، وتركوا بصمات ثقافية عميقة الأثر فيها، وكان هذا أحد أسباب الاشارات الكثيرة التي ترد حولها في كثير من المدونات العربية الجغرافية والتاريخية والأدبية، ويقدّم ابن حوقل وصفا شاملا لها ، هو بمثابة تقديم قبل أن نصل إلى معرفتها المباشرة مع ابن جبير.

(١٥)
وصف جزيرة صقلية
ابن حوقل(توفي بعد٣٦٧هجري=بعد٩٧٧ميلادي)
من كتاب(صورة الأرض)

(صقلية: ...وهي جزيرة على شكل مثلث متساوي الساقين زاويته الحادة من غربي الجزيرة، طولها سبعة أيام في اربعة أيام. وهي في شرقي الأندلس في لجّ البحر وتحاذيها من بلاد المغرب بلاد أفريقية وباجة وطبرقة إلى مرسى الجزر، وغربيها في البحر جزيرة قرشقة ومن جنوب صقلية جزيرة قوسرة، وعلى ساحل البحر شرقيها من البر الأعظم الذي عليه قسطنطينية مدينة ريو ثم نواحي قلورية، والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون وأكثر أرضها مسكونة مزروعة، وليس لها مدينة مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم، قصبة صقلية، وهي على نحو البحر وهي خمس حارات متجاورة غير متباينة ببعيد مسافة، وإن كانت حدودها ظاهرة بينة.

ومنها المدينة الكبرى المسماة بلرم وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع، يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الأكبر وكان بيعة للروم قبيل فتحها. وفيه هيكل عظيم ويقول بعض المنطقيين إن حكيم يونان يعني ارسطوطاليس في خشبة معلق في هذا الهيكل الذي قد اتخذه المسلمون مسجداً، وإن النصارى كانت تعظم قبره وتستشفي به لما شاهدت يونان عليه من إكباره وإعظامه؛ قال: والسبب في تعليقه بين السماء والأرض ما كان الناس يلاقونه عند الاستسقاء والاستشقاء والأمور المهمة التي توجب الفزعة إلى الله تعالى، والتقرب اليه في حين الشدة وخوف الهلكة، وعند وطئ بعضهم لبعض، وقد رأيت خشبة يوشك أن يكون هذا القبر فيها.

وتجاهها مدينة تعرف بالخالصة ذات سور من حجارة. وليس كسور بلرم يسكنها السلطان وأتباعه، وفيها حمامان ولا أسواق فيها ولا فنادق، وفيها مسجد جامع صغير مقتصد، وبها

جيش للسلطان ودار صناعة للبحر والديوان، ولها أربعة أبواب من قبولها ودبورها وغربها وشرقيها البحر وسور لا باب له. وحارة تعرف بحارة الصقالبة وهي أعمر من المدينتين اللتين ذكرتهما وأجلّ، ومرسى البحر بها وبها عيون جارية بينها وبين صقلية ومياه كالحد بينهما. وحارة تعرف بحارة المسجد المعروف بابن سقلاب وهي كبيرة أيضاً، وليس بها مياه جارية وشرب أهلها من الآبار وعلى طرفها الوادي المعروف بوادي عباس، وهو عظيم كبير ومطاحنهم عليه كثيرة وبساتينهم وأجنتهم غير منتفعة به. والحارة الجديدة وهي كبيرة تقارب حارة المسجد، وليس بينهما فرق ولا فاصلة ولا عليهما ولا على حارة الصقالبة سور. وأكثر الأسواق فيما بين مسجد ابن سقلاب والحارة الجديدة: كسوق الزّياتين بأجمعهم والدّقاقين والصيارفة والصيادنة والحدادين والصياقلة، وأسواق القمح والطرازيين والسمّاكين و الأبزاريين، وطائفة من القصابين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة والريحانيين والجرارين والخبازين والجدالين، وطائفة من العطارين والجزارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين خارج المدينة، وببلرم طائفة من القصابين والجرارين والأساكفة وبها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم، والقليل منهم في المدينة برأس السماط ويجاورهم القطّانون والحلاّجون والحذاؤون وبها غير سوق صالح. ويدل على قدرهم وعددهم صفة مسجد جامعهم ببلرم، وذلك أني حزرت المجتمع فيه إذا غصّ بأهله بلغ سبعة آلاف رجل ونيفاً لأنه لا يقوم فيه أكثر من ستة وثلاثين صفاً للصلاة وكل منها لا يزيد على مائتي رجل.

وبصقلية من المساجد في مدينة بلرم والمدينة المعروفة بالخالصة والحارات المحيطة بها من وراء سوريهما عامرة، أكثرها قائمة على عروشها بحيطانها وأبوابها نيّف وثلاثمائة مسجد، يتواطأ أهل الخبرة منهم في علمها ويتساوون في معرفتها وعددها، وبظاهرها مما حف بها ولاصقها وبين أجنتها وأبراجها، ومحال كانت متصلة بالأقرب فالأقرب منها على الوادي المعروف بوادي عباس، ومجاورة للمكان المعروف بالمعسكر في ضمن البلد متبددة في فحص عباس، وبعضها في أثر بعض إلى المنزل المعروف بالبيضاء، قرية تشرف على المدينة،

وبينهما نحو نصف فرسخ وقد خربت ؛ هلك أربابها بما دار عليهم من الفتن، يعرف ذلك جميعهم غير مختلفين في مقدارها، وإنها تزيد على مائتي مسجد . ولم أر لهذه العدة من المساجد بمكان ولا بلد من البلدان الكبار التي تستولي على ضعف مساحتها شبهاً، ولا سمعت من يدّعيه إلا ما يتذاكره أهل قرطبة من أن بها خمس مائة مسجد .

ولم أقف على حقيقة ذلك من قرطبة وذكرته في موضعه على شك مني فيه، وأنا محققه بصقلية لأني شاهدت أكثره، ولقد كنت واقفاً ذات يوم بها في جوار دار أبي محمد عبدالواحد بن محمد المعروف بالقفصي الفقيه الوثائقي، فرأيت من مسجده في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصري، ومنها شيء تجاه شيء، وبينهما عرض الطريق فقط، وسألت عن ذلك فأخبرت أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم، كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه، لا يشركه فيه غير أهله وغاشيته، وربما كانا اخوان منهم متلاصقة داراهما متصاقبة الحيطان، وقد عمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده . وفي جملة هذه العشرة المساجد التي ذكرتها مسجد يصلي فيه أبو محمد بن القفصي هذا، وبينه وبين دار ولدٍ له يتفقه دون الأربعين خطوة، وقد ابتنى ابنه مسجداً إلى جانب داره وهو أحد حدودها الأول جديداً مغلق الباب أبداً، ويحضر أوقات الصلاة وهو جالس في دهليز داره المجاورة الملاصقة لمسجده، فلا يصلي فيه . وكأن رغبته كانت في ابتنائه أن يقال مسجد الفقيه بن الفقيه، وهو حدث له من نفسه محل عظيم وخطر جسيم، وكأنه لعظم خطره عنده أنه يظن أبو أبيه أو أنه بغير أب لبأوه وصلفه وحسن ركبته وزيّه .

وفي هذه الأربعين خطوة التي ذكرت بين مسجده ومسجد أبيه مسجد آخر معلق له إمام وفيه مكتب . وبها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحونة بالرياء والنفاق والبطّالين والفساق ومتمرّدين، شيوخ وأحداث اغثاث رثاث قد عملوا السجادات منتصبين لأخذ الصدقات وقذف المحصنات، نقم منزلة وبلايا شاملة وحتوف مصبوبة منصوبة، وأكثرهم يقودون ومنهم من لا يرى ذلك لشدة الرياء والسمعة، وأكثرهم بالزور تطوعاً يشهدون مع جهل لا يفرق فيه بين فرض الوضوء وسنته، ويقصدهم من أعوزه المكان لبطالته والموضع

لعيارته فيؤونه وربما شاركوه بتافه من المأكول على أحوال يقبح ذكرها... وأحسب تأسيسها كان على غير التقوى حسب ما أسست عليه المساجد المتقدم ذكرها، فهارت وباد أهلها بما جنوه من الفتن والعصيان وشق عصا السلطان، والله أعلم.

وكنت قد ذكرت أحوال الخالصة وأبوابها وما فيها، ولم أذكر بلرم وهي المدينة القديمة، وأشهر أبوابها باب البحر، وسمي بذلك لقربه من البحر، ويليه باب أحدثه أبو الحسين أحمد بن الحسن بن أبي الحسين لشكوى أهل هذه الناحية بُعد مخرجهم، فعمله على نشز مطل على نهر وعين تدعى عين شفاء، وبها يعرف هذا الباب وقتنا هذا ولمن قرب منه مرفق بهذه العين. ثم باب يعرف بشنتغات وهو باب قديم وإليه باب يعرف بباب روطه، وروطه نهر كبير يهبط من هذا الباب إليه، وأصله تحت هذا الباب وفيه ماء صالح عليه أرحية كثيرة متقاطرة. ثم باب الرياض وهو أيضاً محدث استحدثه أبو الحسين أحمد بن الحسن، وكان بجواره باب يعرف بابن قرهب في موضع غير حصين، وكانت المدينة قوتلت عليه قديماً فدخل على أهلها منه معرّة وضرر جسيم، فسدّه أبو الحسين وأزاله. وبجواره باب الأنباء وهو أقدم أبوابها، وإليه باب السودان تجاه الحدادين ثم باب الحديد ومنه المخرج الى حارة اليهود، وإليه باب استحدثه أبو الحسين أيضاً ،ولم يسمّ باسم ويخرج منه الى حارة أبي جمين، وجميعها تسعة أبواب.

وهذه المدينة مستطيلة ذات سوق قد أخذ من شرقها الى غربها يعرف بالسماط مفروش بالحجارة، عامر من أوله الى آخره بضروب التجارة، ويطيف بها عيون كثيرة منصبّة من غربها الى شرقها، ويكون مقدارها ما يدير رحى وعلى مائها غير رحى تطحن في غير مكان، ويجاور مصب ماء هذه العيون من حيث بدؤ مسيلها الى حيث مصبها في البحر أراضٍ كثيرة، تغلب عليها السباخ وآجام فيها قصب فارسي، وبحائر ومقاث صالحة. وفي خلال أراضيها بقاعٌ قد غلب عليها البربير وهو البردي المعمول منه الطوامير، ولا أعلم لما بمص من البربير نظيراً على وجه الأرض، إلا ما بصقلية منه وأكثره يفتل حبالاً لمراسي المراكب، وأقله يعمل للسلطان منه طوامير القراطيس ولن يزيد على قلة كفايته.

وشرب أهل المدينة وهم المجاورون لسورها من نحو باب الرياض الى نحو عين شفاء من مياه هذه العيون، وباقي أهلها وأهل الخالصة وجميع أهل الحارات شربهم من آبار دورهم خفيفاً كان أو ثقيلاً من الماء، ويلذ لهم على كثرة المياه العذبة الجارية عندهم، وذلك لكثر أكلهم البصل .وشرب أهل المعسكر فمن العين المعروفة بالغربال وماؤها صالح. وبالمعسكر عين تعرف بعين التسع دون الغربال في كثرة الماء، وعين تعرف بعين أبي سعيد دونها، وعين تعرف بعين أبي علي، وكان من بعض ولاتهم، فهي مضافة اليه. وشرب الناحية المعروفة بالغربية، فمن العين المعروفة بعين الحديد وهناك معدن للسلطان من الحديد يصرف ما يستثار منه لحاجته في مراكبه وقرسطياته، وكان هذا المعدن لبني الأغلب يجدي عليهم الكثير، وهو بقرب قرية تعرف ببلهرا، وفيها عيون وأنهار تتفجر منها وهي تمد وادي عباس وتقويه وهي كثيرة البساتين والكروم.

ويحيط بالبلد عيون غير مشهورة وينتفع بمياهها كالقادوس في ناحية القبلة، وبها الفوارة الصغيرة والفوارة الكبيرة على أنف الجبل من البلد، وهي أغزر عيونهم ماء وتنصرف هذه المياه الى أجنتهم. ولقرية البيضاء عين حسنة تعرف بالبيضاء وتصاقب الغربال والغربية، وشرب الناحية المعروفة ببرج البطّال من العين المعروفة بعين أبي مالك، وأكثر مياه الدبور من أراضي المدينة لأجنّتهم فبالسواني. ولهم أجنة كثيرة الخير وبساتين أعذاء بخوس لا تسقى كالشأم، وأكثر مياه البلد والحارات من الأبار ثقيلة غير مرئة، وإنما صرفهم الى شربها رغبة عن شرب الماء الجاري العذب قلة مروآتهم وكثرة أكلهم للبصل، وفساد حواسهم بكثرة تغذّيهم بالنيّ منه وما فيهم من لا يأكله كل يوم أو يؤكل في داره صباح مساء من سائر طبقاتهم، وهو الذي أفسد تخيلهم وضر أدمغتهم وحير حواسهم وغير عقولهم ونقص أفهامهم وبلّد معارفهم، وأفسد سحنة وجوههم وأحال أمزجتهم حتى رأوا الأشياء أو أكثرها على خلاف ما هي به.

ومما يؤيد قولي ويشهد ببرهانه ما حكاه يوسف بن ابراهيم الكاتب في كتاب" أخبار الأطباء" عند نزوله بدمشق على عيسى بن الحكم وهو المسيح المتطبّب، قال: ذاكرتُه بالبصل

فلم يزل في ذمّه ووصف معائبه، وكان عيسى وسلمويه بن بيان يسلكان طريق الرهبان ولا يحمدان شيئاً يزيد في الباءة ويقولان إن ذلك يتلف الأبدان ويذهب الأنفس، فلم استحسن الاحتجاج عليه بزيادة البصل في الباءة فقلت قد رأيت منه في سفري هذا منفعة، فسال عنها فقلت إني كنت أذوق الماء في بعض المناهل فأجده كريهاً، فآكل البصل وأعاود شربه فأجد حاله قد نقصت، وكان عيسى قليل الضحك فاستضحك من قولي ثم استرجع بجزع منه وقال: يعزز عليّ أن يغلط مثلك هذا الغلط لأنك صرت إلى أسمج نكتة في البصل، فجعلتها منقبة يا هذا، أليس متى حدث بالدماغ فساد فسدت الحواس حتى ينقص حس الشم وحس الذوق والسمع والبصر؟ فقلت: أجل. فقال: إن خاصية البصل إحداث فساد في الدماغ، وإنما قلّل حسك لملوحة الماء ولكراهيته ما أحدثه البصل في دماغك من الفساد. وهذه قضية عقلية، فأما نتيجتها فليس بالبلد عاقل ولا فاضل ولا عالم بالحقيقة بفنّ من فنون العلم، ولا ذو مروؤة ولا متدين والغالب عليه الرعاع، وأكثر أهله سقّاط أوضاع لا عقول لهم ولا دين كامل، وأكثرهم برقجانة وموال يدعون ولاء قوم افتتحوها وقد هلكوا.

وحدّثني غير إنسان منهم أن عثمان بن الخرّاز ولي قضاءهم، وكان ورعاً قد ركن الى قوم منهم في العدالة والشهادة، ووقف آخرين عن قبولهم فرفعت اليه امرأة اعتورتها مطالبة في دار لها باطلة، فسألها البيّنة وادّعت ملك اليد الى شهود وشهادات معها وأحضرتهم عنده، فاستزادها شهوداً وكان يسكن الى شهادة أبي ابراهيم اسحاق بن الماجلي المعلّم، وكان له بأمرها علم وسألته إقامة الشهادة وهو ينكل عنها، الى أن ضمنت له رشوة رباعيات على إدائها، فشهد لها بذلك واتفق أن عثمان بادر بامضاء تنفيذ الحكم بشهادة اسحاق وعمل على التسجيل لها بذلك، وطلب اسحاق ما ضمنته المرأة له فدفعته وأبت أن تعطيه ما ضمنته له ظناً بحقها، وثقة أن الشهادة قد قامت وأنها لا تحتاج الى اسحاق ولا غيره، وأحضر الحاكم اسحاق ليبدأ بشهادته على نفسه بانفاذ الحكم للمرأة بشهادته فقال: أعزّ الله الحاكم هذه الشهادة أنا راجع عنها لأمور قد أشكلت عليّ منها، وكان الحاكم قد حفظ على اسحاق في الشهادة ما لا يجوز معه على الرجوع، فاستراب قصّته وكشف عنها

بالفحص الشديد فظهرت له القصة على وجهها، فكان لا يقبل شهادته ولا شهادة غيره وخرّج جماعتهم وأسقط شهادتهم. وصارت أكثر احكامه جارية على الصلح وشك فيهم فلم تثنه اليهم رغبة ولا رهبة الى أن هلك بينهم وحضرته المنيّة فقال: ليس بجميع البلد من يوصى اليه ؛ ودفع ديوانه الى رجل كان بها من الغرباء يعرف بالغضائري من أهل القيروان، وكان يزكيه وظهرت هذه القصة لأهل البلد فكانت إحدى وسائل ابن الماجلي في إجلابهم واختيارهم له وتصييره حاكماً عليهم وخطيباً لهم، رغبة من بعضهم في مظاهرته على ما يرجوه من الخيانة. وكان اسحاق على قولهم خفيف الوزن شديد الجهل كثير الاعجاب بتخلّفه، غير ركيز ولا مهيب ولا في سمت القضاة، وحسبك بمعلم برقجاني جعل قاضيا.

وحدّثني رجل من المقيمين بها يعرف بأبي الحارث فحل بن فلاح اللهيصي ثم الكتامي، ورأيته يخبر كثيراً من أخبار البلد أنه كان ورجل سمّاه بين يدي اسحاق بن الماجلي بعد أن ولي الحكم بها يوماً وهو في محراب الجامع جالساً وبيده قضية لهما في مهر وهو مقبل على قراءتها، فكلما مرّ له فصل داوم على تقريظه لحسن ما تأتي له من المعاني الجيدة والشروط البديعة واستيفاء أسباب البلاغة، وهما سكوت وهو مع كل فصل يفعل ذلك إلى أن قام من المحراب وكان فيه متصدراً كالقضاة، فجلس بين أيديهما ولم يزل يقرأه ويعيد وصفه ويقول: ما أراكما تسمعان هذه الحكومة التي ما حكم بمثلها والله أحد على وجه الأرض؟ وأعاد قراءتها ثم رجع الى مكانه من المحراب ؛ قال: وكان ربما مد يده الى الخصوم بالضرب. وأخبرني جماعة منهم أن رجلاً تقدّم اليه بخصم له فراجعه في مناظرته، وكان بين يديه مقصّ كبير فأخذه وأومأ به الى الرجل ليضربه في وجهه، فأقبل الرجل على نعل اسحاق وكانت بين يديه فتناولها فقال: ولِمَ مسست نعلي لتضربني بها؟ فقال: لا ولكن خشية أن تقصد بالمقص وجهي لأتقي بها منك. وله أخبار كثيرة في أنواع من الجنون والخباط، كان من مجانين المعلمين وحمقاهم وكان من كبارهم وعليتهم.

والغالب على البلد المعلمون، والمكاتب به في كل مكان وهم فيه على طبقات مختلفة ومنازل شتى متباينة من الصراع والخباط على ما يفوق جنون معلمي كل بلد وحمق كل ناحية، حتى أنهم المتكلمون على السلطان في سيره واختباراته والاطلاق بالقبائح من

ألسنتهم بمعائبه وإضافة محاسنه الى قبائحه. وبالبلد منهم ما يقارب ثلاثمائة معلم ولم ينقص من ذلك إلا القليل، وليس كهذه العدة بمكان من الأماكن ولا في بلد من البلدان، وإنما توافرت عدتهم مع قلة منفعتهم لفرارهم من الغزو ورغبتهم عن الجهاد. وذلك أن بلدهم ثغر من ثغور الروم وناحية تحادّ العدو والجهاد فيهم لم يزل قائماً والنفير دائماً منذ فتحت صقلية، وولاتهم لا يفترونه وإذا نفروا لم يفتروا بالبلد أحداً إلا من بذل الفدية عن نفسه أو اقام العذر في تخلفه مع رابطة السلطان، وكان قد سبق الرسم باعفاء المعلمين قديماً بينهم من النوائب وحملت عليهم المغارم، ففزع الى التعليم بُلهُهم وحسّنه لديهم جهلهم مع قلة الانتفاع به والجدوى منه ؛ فإن فيهم الكثير تمر به السنة فلا يصيب من جميع صبيانه وهم كثير عشرة دنانير، فأي منزلة أقبح وصورة أخسّ واوتح من رجل باع ما اوجب الله تعالى عليه من الجهاد وشرفه والغزو وعزّه بأخس منزلة واوضح حرفة واسقط صنيعة؟ على أنها في أعيان البلاد مع تخريج أولاد السراة وأهل الامكان عنصر الخذلان ومظانٌّ الحرمان، وبالاجماع منهم ومن كل انسان أن المعلم احمق محكوم عليه بالنقص والجهل والخفّة وقلة العقل.

ومن اعظم الرزيّة وأشد البلية وأقطع النازلة أن جميع أهل صقلية، لصغر أحلامهم ونقص درايتهم وبعد أفهامهم، يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم ومحصّلوهم وأرباب فتاويهم وعدولهم، وبهم عندهم يقوم الحلال والحرام وتعقد الاحكام وتنفذ الشهادات وهم الادباء الخطباء. ولقد رأيت ولداً كان لاسحاق بن الماجلي المعلم القاضي المتقدم ذكره يخطبهم نحو حولين، يجزم الاسماء مع الصلة ويجرّ الأفعال من أول خطبته الى آخرها. وخاطبت أديباً كان من أهلها يسعى ويدّعي الدراية بجميع الأحوال، وقد نصب هذا الخطيب ما لم يسم فاعله أو رفع منصوباً، وأظنه كان مفعولاً به فقلت: أما سمعت الخطيب وما كان منه؟ وذكرته له وقد ذهب عني اللفظ فقال: كأنه والله يا سيدي كما تقول غير أنا نحن لا نأبه لمثل هذا.

ومن كبائر المذكورين من المعلمين بها في السير والعدالة، وهو بالضد للغباء والجهالة وأشدهم تقدماً عندهم أبو عبدالله محمد بن عيسى بن مطر، المعلم في مسجد الزهري

بالسماط وقد سافر يشرّق ودخل المشرق وكتب الحديث. وأبو الحسن علي بن بانة المعروف بابن ألف سوط وهو إليه في العدالة، ويراه قوم منهم فوقه في العلم والفقه وظلف النفس، وكلاهما غبي عم ناقص رزيٌّ المنظر والمخبر. وحدثني أبو عبدالله محمد بن عيسى المعروف بالناشئ القروي المتكلم وكنا معاً بصقلية قال: بينا أنا واقفاً بالسماط بقرب مكتب ابن مطر أحادث إخواناً لي إذ وقف بهم ابن مطر، فسلموا عليه وسلم عليّ فرددت عليه وأخذ في صفتي وما اعتقده باقبح عبارة وأبشع لفظ وإشارة، وقال في خلال قوله لي: يعزز عليّ بعدك عن الحق ، فقلت: لعن الله أبعدنا عن الحق، وأقلنا علماً به، فالتاث لونه وتغير فقال له القوم: قد انصفك لأنه إنما لعن الابعد من الحق ولم يقصد إلا الأقل علماً بالله، فقال: الست عراقي المذهب ؟ فقلت: لا، وذلك أن أهل العراق يدّعون مرجئة، وإنما وسموا بذلك لتركهم القطع على أهل الكبائر بالخلود، وأخذت أصف المسئلة بيننا وبينهم فقال: ما أرى قولكم إلا قريباً من قولنا. فقلت: يا هذا إنما أصف لك رأي أهل العراق المذموم عندي وأنا ضدهم. فقال: وكيف؟ فقلت: نحن نقطع على تخليد أهل الكبائر في النار. فقال: ما ظننت يقول بهذا غير أهل العراق. وهو يجهله صباح مساء يكفرهم في كل مقعد ومشهد ويكفر المعتزلة ولا يعلم اعتقادها بين الفرقتين التي هي أشهر أهل المذاهب، ويطلق اللعن عليهما وهو لا يفرق بين الوعيدي من المرجئ، وهذه المنزلة أعلى منازل البله. ورحم الله ناقلاً فلقد ظلمه نقله الأخبار بقطعهم عليه بالانفراد بالجهل.

وكنت جالساً بصقلية يوم الجمعة لعشر خلون من رجب سنة اثنتين وستين(=وثلاثمئة) على دكان المعروف بابن الانطاكي في سماط بلرم، وكان يوماً مطيراً في الساعة السادسة وعلي القيام الى الجامع وابن الأنطاكي معاً والجامع منا على غلوة، إذ أقبل ابن ألف سوط من نحو الجامع ومنزله بالقرب منه فقلنا: إلى أين؟ فقال: قد صلى الناس وأنا أمضي أتقدم لاشهد جنازة الخطيب. وكان ابن الماجلي الخطيب الذي قدمت ذكر تخلفه توفي ليلة الجمعة هذه، ومضى يريد باب البحر وأطال، ثم رجع وقد أئسنا من الصلاة. فقلنا: إلى أين؟ فقال: بلغني أنهم ما صلوا بعد فعدت لعلي الحق الصلاة. ومضى فبقينا حيارى في

أمره نتعاود قلة تحصيله وما يدفع الناس اليه في شهادة مثله إذ أقبل فقلنا: هيه! فقال: قد صلّوا وأنا ماض لأصلي في المصلى! وهذا الرجل عندهم أثبت القوم عدالة وأشفهم منزلة وهذه صورته.

وأكثرت عنه وعن ابن مطر وجماعتهم واصفاً قلة فطنهم وكلال أفهامهم وحدة جهلهم وسرعة طيشهم، وموت يقظتهم وبراعة لؤمهم مع دوام غفلتهم وبشاعة تعاطيهم وكثرة معائبهم وسخف أغذيتهم المؤكدة جهلهم، وسوء تخلّيهم في كتاب جعلته أبواباً عشرة، بدأت منها بذكر ما يتفاخر به أهل الأمصار والقبائل والبلدان، وما يلحقهم من الفضائل وكيفية لحاقها بالكور والمدن والرذائل المقصرة ببعضها عن الفخر والطيب والحسن، ووسمته بكتاب "صقلية "ولم أترك لهم من فضيلة ورذيلة الى جميع ما خصُّوا به ومنعوه وأعطوه وما حرموه، الى غلظ طباعهم وسوء أخلاقهم وما انفردوا به من المطاعم المنتنة والأعراض القذرة الدرنة، وغلبة كثرة الجفاء وطول المراء، وسميت جميع معلميهم الى ما وصل اليّ من أخبارهم ومحلهم في الرقاعة وخلعهم على مر الأيام للسلطان والطاعة، وحال الفرقة التي ليست كفرقة من فرق الإسلام ولا نحلة من النحل، ولا في بلد من البلدان ولا بدعة من البدع ولا مشاكلة لنحلة في دين من الأديان. وهم المشعمذون أكثر أهل حصونهم وباديتهم وضياعهم، رأيهم التزويج الى النصارى على أن ما كان بينهم من ولد ذكر لحق بأبيه من المشعمذين وما كانت من أنثى فنصرانية مع أمها، لا يصلون ولا يتطهرون ولا يزكون ولا يحجون. وفيهم من يصوم شهر رمضان ويغتسلون إذا صاموا من الجنابة، وهذه منقبة لا يشركهم فيها أحد وفضيلة دون جميع الخلق، احرزوا بها في الجهل قصب السبق. ولقد أعددت كتابي هذا بذكرهم فيه ولكن نفوس أهل النبل وقلوب أهل الفضل متطلعة الى علم الكل، ولذكرها في الخزائن منزلة ليست على ما هي به في الحقيقة.

ومن أرثّ ما رأيته بها وأغثّه خمسة معلمين في مكتب واحد يعلمون فيه الصبيان، شركاء متشاكسون على باب عين شفاء يرؤسهم شيخ يعرف بالملطاط: جبس ضبس أشقر أزرق من أقدم الناس على شهادة زور، وولدان له ورجل يعرف بابن الوداني، وآخر يدعى

بأخي رجاء على مراتب في شركتهم .وخرجت من صقلية وقد مات ابن الوداني فلو شاهدهم أكثر الناس حزناً وأشدهم إخباتاً وسمتاً عند وفاته، وتفجّعهم له وحنينهم عليه وتساكرهم في بكائهم عند عزائهم، لقهقه وضحك أو أبلس لجهلهم كالمرتبك.

وأما حال يسارهم فإنهم مع قلة مؤنهم ونزور نفقاتهم وكثرة غلاتهم ليس فيهم رجل ملك بدرة عين، ولا رآها قط إلا عند سلطان إن كان ممن يدخل اليه ومحله محل من يؤذن له عليه. وبالأموال والجبايات واليسار يعتبر أحوال أهل المدن والكور والأقاليم، وكذلك النبل والفضل الى غير ذلك مع أن مال جزيرة صقلية وقتنا هذا وهو أجلّ أوقاتها وأكثره وأغزره بأجمعه من سائر وجوهه وقوانينه خمسها ومستغلاتها، ومال اللطف والجوالي المرسومة على الجماجم ومال البحر والهدية الواجبة في كل سنة على أهل قلورية وقبالة الصيود، وجميع المرافق وجهاتها.

فأما غلاّتها وخصبها وما هي عليه في أسباب المآكل والمشارب،فالخصب والسعة قديماً وفيما مضى، ودخلتها وقد استحالت جميع أمورها من الخصب الى الجذب، وخلق أربابها من أهل باديتها فكأرباب الجزائر العجم الغُتم الصم البكم، وسكانها الذين لم يصفهم الأسفار من وراء بهيمة غامرة لألبابهم وغفلة عن الحقوق والمواجب ظاهرة في معاملاتهم، وقول من الحق بعيد وشنآن للغريب والطارئ عليهم عظيم شديد، لا يألفون ولا يؤلفون آخذين لذلك عن حاضرتهم لأنهم أيضاً في بغض التجار والغرباء المجهزين بمنزلة ليست لجيل من أجيال العالم الجُفاة، ولا في أهل الجبال الاجلاف الجساة مع قوام مصالحهم بالجلاّبين وفقرهم وفاقتهم الى المسافرين، لأنها جزيرة لم تختص بوجه من فضائل البلدان غير القمح والصوف والشعر والخمر وصبابة من القند، الى شيء من ثياب الكتان.

والحق فيها أحق أن يتّبع فإنه لا نظير لها الجودة ورخصاً. ويباع مستعملها مما يقطع قطعين من الخمسين رباعياً الى ستين رباعياً، فيزيد على ما يشترى من أمثاله بمصر بالخمسين والستين ديناراً كثيراً. وجميع ما تقع اليه الضرورات وتدفع الحاجة اليه من سائر الطلبات مجلوب الى بلدهم ومحمول الى جزيرتهم. وقد جمعت مع فساد عقول أهلها وأديانهم

فساد التربة والقمح والحبوب، ولا يحول الحول عليها عندهم إلا وقد فسدت وربما ساست في الأنادر قبل دخول المطامير والأهراء، وليس يشبه وسخهم في دورهم وسخ أقذار اليهود ولا ظلمة منازلهم وسوادها سواد الأتاتين والأفران، وأجلّهم منزلة يسرح الدجاج على مقعده وتذرق الطيور على مصلاّه ومخدّته .)

كشفت لنا شهادة ابن حوقل واقع الحياة الاجتماعية والتعليمية في صقلية، ومع أنه كان متبرما وهو يصف انهيار القيم العلمية فيها، لكن شهادته الحية المبكّرة التي تعود إلى أواسط القرن الرابع تكتسب قيمة، فلابن حوقل مكانة خاصة بين الجغرافيين المسلمين ووصفه للحياة الفكرية في صقلية يسلط الضوء على جانب مهم من جوانب الحياة في هذه الجزيرة التي نبدأ اعتبارا من نص ابن جبير الآتي في التعرّف إليها برفقة رحّالة كبير، رحّالة أقل مايمكن وصفه به، أنه يمتاز بقوة ملاحظة نادرة،ونثر أدبي بليغ يتمرد على تقاليد النثر العربي الكلاسيكي الذي ضربه التصنّع في عصر ابن جبير. يكفينا هنا أن نقف على ماكتبه عن صقلية ، وسنعود بعد ذلك إلى كشف الأبعاد التي تتصف بها النصوص الأخرى التي خُصصت لمناطق مختلفة.

(١٦)
رحلة ابن جبير الى جزيرة صقلية
(توفي ٦١٤هجري=١٢١٧ميلادي)من كتاب
(رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك)
المعروفة بـ(رحلة ابن جبير)

(... وفي يوم السبت الثامن والعشرين لجمادي المذكورة، والسادس لأكتوبر، صعدنا إلى المركب، وهو سفينة من السفن الكبار، بمنة الله على المسلمين بالماء والزاد، وحاز المسلمون مواضعهم بانفراد عن الإفرنج، وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين، وهم حجاج بيت المقدس، عالم لا يحصى ينتهي إلى أزيد من ألفي إنسان، أراح الله من صحبتهم بعاجل

السلامة ومأمول التسهيل والصنع الجميل بمنه وكرمه، لا معبود سواه. ونحن به منتظرون موافقة الريح وكمال الوسق، بمشيئة الله عز وجل.

شهر رجب الفرد

استهل هلاله ليلة الثلاثاء، بموافقة التاسع لشهر أكتوبر، ونحن على ظهر المركب بمرسى عكة منتظرون كمال وسقه، والاقلاع باسم الله تعالى وبركته وجميل صنعه وكريم مشيئته. وتمادى مقامنا فيه مدة اثني عشر يوماً لعدم استقامة الريح. وفي مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب، وذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلا في فصلي الربيع والخريف، والسفر لا يكون إلا فيهما، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا في هذين الفصلين. والسفر في الفصل الربيعي من نصف ابريل، وفيه تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها إلى آخر شهر مايه، وأكثر وأقل بحسب ما يقضي الله تعالى به والسفر في الفصل الخريفي من نصف أكتوبر، وفيه تتحرك الريح الشرقية، ومدتها أقصر من المدة الربيعية، وإنما هي عندهم خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوما وأكثر وأقل. وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف، والريح الغربية أكثرها دواما. فالمسافرون إلى المغرب وإلى صقلية وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين انتظار وعد صادق، فسبحان المبدع في حكمته، المعجز في قدرته، لا إله سواه.

وكنا طول هذه المدة التي أقمنا فيها على ظهر المركب نبيت في البر ونتفقد المركب في الأحيان. فلما كان سَحر يوم الخميس العاشر لرجب المذكور، والثامن عشر لأكتوبر، أقلع المركب، وكنا على عادتنا في البر بائتين، ولم يحسن النهار للروم بأهبة السفر، فضيعنا الحزم ونسينا المثل المضروب في إعداد الماء والزاد وأن لا يفارق الإنسان رحله. فأصبحنا والمركب لا عين له ولا أثر، فاكترينا للحين زورقا كبيرا له أربعة مجاذيف وأقلعنا نتبعه، وكانت مخاطرة عصم الله منها، فأدركنا المركب مع العشي، فحمدنا الله عز وجل على ما منّ به، وكان أول ذلك اليوم يوم شدتنا في هذا السفر الطويل، وآخره والحمد لله يوم فرجنا، ولله الحمد والشكر على كل حال.

واتصل جرينا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام، ثم هبّت علينا الريح الغربية من مكمنها دافعة في وجه المركب، فأخذ رئيسه ومدبره الرومي الجنوي، وكان بصيرا بصنعته، حاذقا في شغل الرياسة البحرية، يراوغها تارة يمينا وتارة شمالا طمعا أن لا يرجع على عقبه، والبحر في أثناء ذلك رهو ساكن، فلما كان نصف الليل، أو قريب منه، ليلة السبت التاسع عشر لرجب المذكور، والسابع والعشرين لأكتوبر، ترددت علينا الريح الغربية فقصفت قرية الصاري المعروف بالأردمون والقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع، وعصم الله من وقوعها في المركب، لأنها كانت تشبه الصواري عظما وضخامة، فتبادر البحريون إليها، وحط شراع الصاري الكبير، وعطل المركب من جريه، وصيح بالبحريين الملازمين للعشاري المرتبط بها، وحصلنا في أمر لا يعلمه إلا الله تعالى، وشرعوا في رفع الشراع الكبير، وأقاموا في الأردمون شراعا يعرف بالدولن، وبتنا بليلة شهباء، إلى أن وضح الصباح، وقد منّ الله عز وجل بالسلامة.

وشرع البحريون في إصلاح قرية أخرى من خشبة كانت معدة عندهم، والريح الغربية على أول لجاجها، ونحن بين اليأس والرجاء نتردّد مغلبين حسن الثقة بجميل صنع الله تعال،ى وحفي لطفه، ومعهود فضله، سبحانه، هو أهل ذلك، جلّت قدرته، وتناهت عظمته، لا إله سواه.

وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين منه تحركت الريح الشرقية نسيما فاترا عليلا، فاستبشرت النفوس بها رجاء في نمائها وقوتها، فكانت نفَسًا خافتا، ثم بعد ذلك غشى البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير، ولم يبق للجهات الأربع نفَس يتنسم، فبقينا لا عبين على صفحة ماء، تخاله العين سبيكة لجين، كأنا نجول بين سماءين، وهذا الهواء الذي يسميه البحريون الغليني.

وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب المذكور، وهو أول يوم من نوفمبر العجمي، كان للنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا له في إسراج الشمع، وكاد لا يخلو أحد منهم، صغيرا أو كبيرا، ذكرا أو أنثى، من شمعة في يده، وتقدم قسيسوهم للصلاة في المركب بهم، ثم قاموا واحدا واحدا لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم، والمركب يزهر كله أعلاه

وأسفله سرجا متقدة، وتمادينا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة، ثم أصبحنا بمثل ذلك الهواء الساكن، واتصل بنا ذلك إلى ليلة الأحد السابع والعشرين منه، فتحركت ريح شمالية، فعاد المركب بها لحريته واستبشرت النفوس، والحمد لله.

شهر شعبان المكرم

رغم هلاله علينا، فاكملنا عدة أيام رجب، فهو على الكمال من ليلة الخميس، بموافقة الثامن من نوفمبر، وقد تم لنا على ظهر البحر، ومن يوم إقلاعنا من عكّة اثنان وعشرون يوماً حتى عدمنا الأنس، واستشعرنا القنط واليأس، وصنع الله عز وجل مأمول، ولطفه الخفي بنا كفيل بمنّه وكرمه. وقل الزاد بايدي الناس، لكن هم من هذا المركب بمنة الله، في مدينة جامعة للمرافق، فكل ما يحتاج شراؤه يوجد، من خبز، وماء، ومن جميع الفواكه والأدم، كالرمان والسفرجل والبطيخ السندي والكمثري والشاه بلوط والجوز والحمص والباقلاء نياً ومطبوخاً والبصل والثوم والتين والجبن والحوت، وغير ذلك مما يطول ذكره، عاينا جميع ذلك يباع. وفي خلال هذه الأيام كلها لم يظهر لنا برٌّ، والله يأتي بالفرج القريب.

ومات فيه رجلان من المسلمين، رحمهما الله، فقُذفا في البحر، ومن البلغريين اثنان أيضا، ومات منهم بعد ذلك خلق كثير، وسقط منهم واحد في البحر حيا، فاحتمله الموج أسرع من خطفة البارق، وورث هؤلاء الأموات من المسلمين والنصارى البلغريين رئيس المركب، لأنها سنّة عندهم في كل من يموت في البحر، ولا سبيل لوارث الميث إلى ميراثه. فطال عجبا من ذلك.

وفي سحَر يوم الثلاثاء السادس من الشهر المؤرخ، والثالث عشر من نوفمبر، ظهرت لنا جبال في البحر، وقد اشتدت الريح الغربية، وتوالى اعصارها، وكانت تتقلب بالقبول والدبور. فألجأتنا إلى أحد تلك الجبال، فأرسينا عنده. وسألنا عن الموضع، فاعلمنا أنه من جزائر الرومانية. وهذه الجزائر تنيف على الثلاث مئة وخمسين جزيرة، وهي إلى عمل صاحب القسطنطينية، والروم يحذَرون أهلها كحذر المسلمين، لأنهم لا صلح بينهم، فاقمنا بذلك المرسى يوم الثلاثاء المذكور وصدر يوم الأربعاء بعده. ونزل من تلك الجزيرة قوم بايعوا

أهل المركب بعض ساعة من النهار في الخبز واللحم بعد أمان أخذوه.

ثم أقلعنا يوم الأربعاء المذكور، وقد تمّ لنا على ظهر المركب ثمانية وعشرون يوماً، وظهر لنا يوم الخميس بعده برّ جزيرة أقريطش، وهذه الجزيرة أيضاً لعمل صاحب القسطنطينية، وطولها ينيف على الثلاث مئة ميل... فبقينا نجري بطولها وهي منا على اليمين، والبحر في أثناء ذلك كله هائل، والريح لا توافق، ونحن ننتظر الفرج من الله عز وجل بصبر جميل، ونرتقب جل جلاله معهود التيسير والتسهيل بمنه ولطفه.

ثورة الريح الشمالية

وفي يوم السبت العاشر لشعبان المذكور، والسابع عشر لنوفمبر، انقطع عنا بر الجزيرة المذكورة، ونحن نجري بريح شمالية موافقة، فذئرت وعصفت فطار لها المركب بجناحي شراعه، والبحر بها قد جنّ واستشرى لجاجه، وقذفت بالزبد أمواجه، فتخال غواربه المتموجة جبالا مثلجة، ومع تلك استشعرت النفوس الأنس، وغلب رجاؤها اليأس، وقد كنا مدة الستة وعشرون يوماً المذكورة، التي لم يظهر لنا فيها بر، نرجم الظنون، ونغازل المنون، حذراً من نفاد الزاد والماء، والحصول بين المهلكين الجوع والظماء، فمن قائل يقول: إنّا قد ملنا في جرينا إلى بر المغرب، وهو بر أفريقية، وآخر يزعم: أنا قد ملنا إلى بر الأرض الكبيرة، بر القسطنطينية وما يليها، ومنهم من بقول: إلى اللاذقية جهة الشام، ومنهم من يقول: إلى دمياط بر الاسكندرية. وكنا نحذر أن تلجئنا الريح إلى إحدى جزائر الرومانية الخالية، فنشتو فيها، أو تضطرنا الحال إلى المعمور منها، وليس في هذه الوجوه المتوقعة كلها وجه فيه حظ لمختار، حتى أتى الله بالفرج، وأذهب الباس واليأس، ومكّن في النفوس الإيناس، بعد مكابدة الأمرين، ومقاساة البرحين، فلله در القائل:

البحر مرّ المذاق صعبٌ لا جُعِلتْ حاجتي إليه
أليس ماءً ونحن طينٌ فما عسى صبرُنا عليه

ونحن الآن بفضل الله تعالى نتطلع البشرى بظهور بر صقلية، إن شاء الله.

الرياح العاصفة الغربية

وفي النصف من ليلة الأحد الحادي عشر منه انقلبت الريح غربية، وكشف النوء من المغرب، وجاءت الريح عاصفة فأخذت بنا جهة الشمال، وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد، والبحر قد هاج هائجه، وماج مائجه، فرمى يموج كالجبال، يصدم المركب صدمات يتقلب لها على عظمه تقلب الغصن الرطيب، وكان كالسور علواً فيرتفع له الموج ارتفاعا يرمي في وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب. فلما جن الليل اشتد تلاطمه، وصكت الآذان غماغمه، واستشرى عصوف الريح. فحطت الشرع، واقتصر على الدلالين الصغار دون أصناف الصواري. ووقع اليأس من الدنيا، وودعنا الحياة بسلام، وجاءنا الموج من كل مكان، وظننا أنا قد أُحيط بنا، فيا لها ليلة يشيب لها سود الذوائب، مذكورة في ليالي الشوائب، مقدمة في تعداد الحوداث والنوائب، ونحن منها في مثل ليل صول طولا، فاصبحنا ولم نكد، فكان من الاتفاقات الموحشة أن أبصرنا بر اقريطش عن يسارنا، وجباله قد قامت أمامنا، وكنا قد خلفناه عن يميننا، فأسقطتنا الريح عن مجرانا، ونحن نظن أنا قد جزناه. فسقط في أيدينا، وخالفنا المجرى المعهود الميمون، وهو أن يكون البر المذكور منا يمينا، في استقبال صقلية. فاستسلمنا للقدر، وتجرعنا غصص هذا الكدر، وقلنا:

سيكونُ الذي قُضِي   سخطَ العبد أو رَضي

وفي أثناء ذلك انبسطت الشمس، ولان البحر قليلا، وصممنا نروم أخذ مرسى في البر المذكور إلى أن يقضي الله قضاءه وينفذ حكمه، ولكل سفر أوان، وسفر البحر إنما هو في إبانه، والمعهود من زمانه، لا أن يعتسف في فصول أشهر الشتاء اعتسافا له، والأمر لله من قبل ومن بعد فالحذر الحذر، من ركوب مثل هذا الخطر، وإن كان المحذور لا يغني عن المقدور شيئا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ثم أن الريح ساعدت عند استقبالنا البر بعض مساعدة، فانصرفنا عنه وتركناه يمينا وعدنا إلى قريب من المجرى المقصود، وجرينا بعض ليلة الثلاثاء الثالث عشر منه، وقد تم لنا على ظهر المركب أربعة وثلاثون يوما، والشرع مصلبة، وهو عندهم أعدل جري لأنه لا يكون إلا بالريح التي تتلقى مؤخر المركب في مجراه، فأصبحنا يوم الثلاثاء المذكور على مثل تلك

الحال، وساعدت الريح، ففرحنا وسررنا، وطلعت علينا مراكب قاصدة مقصدنا فاستبشرنا بها وعلمنا أنا على مجرى مقصود، ولله الحمد والشكر على كل حال من الأحوال. ثم انقلبت الريح غربية، وهبت عاصفا، فألجأتنا اضطراراً بعد أن جرت لنا بعض ليلة الأربعاء يوم الأربعاء إلى مرسى من مراسي جزائر الرومانية، جزيرة من جزائر الرومانية، وهو رأس الجزيرة، ومنه إلى الأرض الكبيرة مجاز فيه الاثنا عشر ميلاً، فأصبحنا به يوم الخميس الخامس عشر لشعبان المكرم، والثاني والعشرين لنوفمبر، فحمدنا الله عز وجل على ما منّ به من السلامة، وتوافت بعدنا إلى ذلك المرسى خمسة مراكب، منها اثنان كانا قد أقلعا من بر الاسكندرية عن عهد نحو خمسين يوماً فأسقطتهما الريح، فأقمنا بذلك المرسى أربعة أيام، وجدّد الناس به الماء والزاد لأن العمارة كانت منا قريبا، فنزل أهل الجزيرة وبايعوا أهل المركب في الخبز واللحم والزيت وما كان عندهم من الأدم. ولم يكن خبزهم براً خالصاً إنما كان خليطاً بالشعير وكان يضرب للسواد. فتهافت الناس عليه على غلائه، ولم يكن بالرخيص في سومه، وشكروا الله على ما منّ به عليهم. وفي هذا المرسى كمل لنا على ظهر البحر أربعون يوما، والحمد لله على كل حال، ومدة مقامنا بالمرسى لم يفتر عصوف الريح الغربية، وعادت أشد ما يكون هبوبا، فحمدنا الله تعاليعلى أن لم تأخذنا ونحن على ظهر البحر جارين، والحمد لله على جميل صنعه.

وأقلعنا من المرسى المذكور يوم الإثنين التاسع عشر لشعبان المذكور، والسادس والعشرين لنوفمبر، بريح طيبة موافقة، فاستبشرنا بها واستطلعنا جميل صنع الله عز وجل ولطف قضائه، لا رب سواه. وتمادى سيرنا إلى يوم الخميس الثاني والعشرين لشعبان، والتاسع لنوفمبر، ثم انقلبت الريح غربية وأنشات سحابة فيها رعد قاصف، وزجتها ريح عاصف، وتقدمها برق خاطف، فارسلت حاصبا من البَرَد صبته علينا في المركب شآبيب متداركة، فارتاعت له النفوس، ثم أسرع انقشاعها، وانجلى عن الأنفس ارتياعها، وبتنا ليلة الجمعة مبيت وحشة، وطالعنا بها اليأس من مكمنه، فلما أسفر الصبح وطلع النهار أبصرنا بر صقلية لائحا أمامنا. فيا لها بشرى ومسرّة، لو لم تعد حسرة في كرّة فأمسينا ليلة السبت،

وهو أول يوم من دجنبر، ونحن على ادراكه في أقل من ثلثها أو منتصفها، ولكل أجل كتاب وميقات، وكم أمل تعترض دونه الآفات، فما كان إلا كلا ولا حتى ضربت في وجوهنا ريح انكصتنا على الأعقاب، وحالت بين الابصار والارتقاب. وما زالت تعصف، حتى كادت تنسف وتقصف، فحطت الشرع عن صواريها، واستسلمت النفوس لباريها، وتركنا بين السفينة ومجريها، وتتابعت علينا عوارض ديم، حصلنا منها ومن الليل والبحر في ثلاث ظلم، وعباب الموج تتوالى صدماته، وتطفر الألباب رجفاته. فنبذت نفوسنا كل أمنية، وتاهبت للقاء المنية.

وقطعنا هذه الليلة البهماء في مصادمة أهوال، ومكابدة أوجال، ومقاساة أحوال، يا لها من أحوال! ثم أصبحنا يوم السبت ليوم عصيب، أخذ من هول ليلة بأوفر نصيب، والأمواج والرياح تترامى بنا حيث شاءت، وقد استسلمنا للقضاء، وتمسكنا بأسباب الرجاء. ثم تداركنا صنع الله تعالى مع المساء ففترت الريح ولان متن البحر وأسفر وجه الجو. واصبحنا يوم الأحد ثاني دجنبر، والخامس والعشرين لشعبان، وقد بدل لنا من الخوف والأمان وتطلعت الوجوه كأنها انتشرت من الأكفان، وساعدت الريح بعض مساعدة. فعدنا نطلب من البر أثراً بعد عين، ونرجم الظنون بين متى وأين، والله عز وجل لطيف بعباده، وكفيل بمعهود صنعه الجميل ومعتاده، لا رب سواه.

شهر رمضان المعظم

استهل هلاله ليلة الجمعة السابع لشهر دجنبر ونحن بإزاء الأرض الكبيرة على متن البحر مترددين، وقد منّ الله علينا بريح شرقية فاترة المهب سرنا بها سيرا رويدا حتى وصلنا هذا الموضع من ازاء الأرض الكبيرة المذكورة، وأبصرنا فيها ضياعا وعمارة كثيرة، أعلمنا أنها من قلورية، وهي من بلاد صاحب صقلية، لأن بلاده في الأرض الكبيرة تتصل نحو شهرين. وبهذا الموضع نزل كثير من البلغريين فائزين بأنفسهم لمسغبة مسّت أهل المركب لعدم الزاد ونفاده. وحسبك أنا كنا نقتصر على مقدار رطل من الخبز اليابس نتقسمه بين أربعة منا نبلّه بيسير من الماء فنتبلغ به. وكل من نزل من البلغريين باع فضلة زاده، فترفق المسلمون بابتياع

ما أمكن منه على غلائه وانتهى إلى مقدار خبزة بدرهم من الخالص، فما ظنك بمدة شهرين على ظهر البحر في مسافة ظن الناس أنهم يقطعونها في عشرة أيام أو خمسة عشر يوما للغاية، فالحازم من أدخل زاد ثلاثين يوما، وسائر الناس لعشرين يوما، ولخمسة عشر يوماً.

ومن العجب في الاتفاقات في الأسفار البحرية أنا استطلعنا على ظهر البحر أهلّة ثلاثة أشهر. هلال رجب، وهلال شعبان، وهلال رمضان هذا، وفي يوم مستهله مع الصباح أبصرنا أمامنا جبل النار، وهو جبل البركان المشهور بصقلية، فاستبشرنا بذلك، والله تعالى يعظم أجورنا على ما كابدناه، ويختم لنا بأجمل الصنع وأسناه، ويوزعنا في كل حال شكر ما أولاه، بمنّه وكرمه.

ثم حركتنا من ذلك الموضع ريح موافقة، فلما كان عشي يوم السبت ثاني الشهر المذكور أشتد هبوبها فزجت المركب تزجية سريعة، فلم يكن إلا كلا ولا حتى أدتنا إلى أول المضيق والليل قد جن، وهذا المضيق ينحصر فيه البحر إلى مقدار ستة أميال، وأضيق موضع فيه ثلاثة أميال يعترض من بر الأرض الكبيرة إلى بر جزيرة صقلية، والبحر بهذا المضيق ينصب انصباب السيل العرم، ويغلي غليان المرجل، لشدة انحصاره وانضغاطه، وشقه صعب على المراكب. فاستمر مركبنا في سيره، والريح الجنوبية تسوقه سوقا عنيفا، وبر الأرض الكبيرة عن يميننا، وبر صقلية عن يسارنا.

الإشراف على الغرق

فلما كان مع نصف ليلة الأحد الثالث للشهر المبارك، وقد شارفنا مدينة مسينة من الجزيرة المذكورة، دهمتنا زعقات البحريين بأن المركب قد أمالته الريح بقوتها إلى أحد البرين وهو ضارب فيه، فأمر رئيسهم بحط الشرع للحين، فلم ينحط شراع الصاري المعروف بالأردمون، وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به، فلما أعياهم مزقه الرائس بالسكين قطعا قطعا طمعا في توقيفه، وفي أثناء هذه المحاولة سنح المركب بكلكله على البر والتقاه بسكانيه، وهما رجلاه اللتان يصرف بهما، وقامت الصيحة الهائلة في المركب، فجاءت الطامة الكبرى، والصدعة التي لم نطق لها جبراً، والقارعة الصماء التي لم تدع لنا صبرا،

والتدم النصارى التداما، واستسلم المسلمون لقضاء ربهم استسلاما، ولم يجدوا سوى حبل الرجاء استمساكا واعتصاما.

وتعاورت الريح والامواج صفح المركب حتى تكسرت رجله الواحدة فالقى الرائس مرسى من مراسيه طمعا في تمسكه به، فلم يغن شيئا، فقطع حبله وتركه في البحر، فلما تحققنا أنها هي قمنا فشددنا للموت حيازيمنا، وأمضينا على الصبر الجميل عزائمنا، وأقمنا نرتقب الصباح أو الحين المتاح، وقد علا الصياح، وارتفع الصراخ من أطفال الروم ونسائهم، والقى الجميع عن يد الأذعان، وقد جيل بين العير والنزوان. ونحن قيام نبصر البر قريبا، ونتردد بين أن نلقي بأنفسنا إليه سبحا، أو ننتظر لعل الفرج من الله يطلع صبحا. فأحضرنا نية الثبات، والبحريون قد ضموا العشارى لإخراج المهم من رجالهم ونسائهم وأسبابهم، فساروا به إلى البر دفعة واحدة، ثم لم يطيقوا رده، وقذفه الموج مكسرا على ظهر البر، فتكمن حينئذ اليأس من النفوس، وفي أثناء مكابدة هذه الأحوال أسر الصبح، فجاء نصر الله والفتح، وحققنا النظر فإذا بمدينة مسينة أمامنا على أقل من نصف الميل وقد حيل بيننا وبينها، فعجبنا من قدرة الله عز وجل في تصريف أقداره، وقلنا: رب مجلوب إليه حتفه في عتبة داره.

الزوارق المغيثة

ثم تمكن الشروق فجاءتنا الزوارق مغيثة، ووقعت الصيحة في المدينة، فخرج ملك صقلية غليام بنفسه في جملة من رجاله متطلعا لتلك الحال: وبادرنا إلى النزول في الزوارق والأمواج لشدتها لا تمكنها الوصول إلى المركب. فكان نزولنا فيها خاتمة الهول العظيم، ونجونا إلى البر العظيم، ونجونا إلى البر منجى أبي نصر عن قدر، وتلف للناس بعض أسبابهم فتسلوا عن الغنيمة بإيابهم.

ومن العجب، على ما أخبرنا به، أن هذا الملك الرومي المذكور أبصر فقراء من المسلمين يتطلعون من المركب وليس لهم شئ يؤدونه نزولهم لأن أصحاب الزوارق أغلوا على الناس في تخليصهم، فسأل عنهم، فأعلم بقصتهم، فأمر لهم بمئة رباعي من سكنه ينزلون بها، وخلص جميع المسلمين عن سلام، وقيل: الحمد لله رب العالمين.

وفرّغ النصارى جميع ما كان لهم فيه، فأصبح في اليوم الثاني وقد جعلته الأمواج جذاذا، ورمت به إلى البر أفلاذا، فعاد عبرة للناظرين، وآية للمتوسمين. ووقع العجب من سلامتنا منه، وجددنا شكر الله عز وجل على ما من به من لطيف صنعه وجميل قضائه وتخليصه لنا من أن يكون هذا القدر ينفذ علينا في الأرض الكبيرة أو إحدى جزائر الروم المعمورة. فكنا، لو سلمنا، نُستعبَد للأبد، والله عز وجل يعيننا على أداء شكر هذه المنة والنعمة، وما تداركنا به من لحظات الرأفة والرحمة، إنه على ذلك قدير، وبعوائد الفضل والخير جدير، لا إله سواه.

ومن جملة صنع الله عز وجل لنا، ولطفه بنا، في هذه الحادثة، كون هذا الملك الرومي حاضرا فيها. ولولا ذلك لانتهب جميع ما في المركب انتهابا، وربما كان يستعبد جميع من فيه من المسلمين، لأن العادة جرت لهم بذلك. وكان وصول هذا الملك لهذه البلاد، بسبب أسطوله الذي ينشئه، رحمة لنا، والحمد لله عليما منّ به علينا من حسن نظره الكفيل بنا، لا إله سواه.

مدينة مسينة من جزيرة صقلية

هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان، تغص بقاطنيها، وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها،مملوءة نتنا ورجسا، موحشة لا تُوجد لغريب أنسا، أسواقها نافقة حفيلة، وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة، لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان، وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان، مستندة إلى جبال قد انتظمت حضيضها وخنادقها، والبحر يعترض أمامها في الجهة الجنوبية منها. ومرساها أعجب مراسي البلاد البحرية، لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه وتنصب منها إلى البر خشبة يتصرف عليها، فالحمّال يصعد بحمله إليها ولا يحتاج لزوارق في وسقها ولا في تفريغها إلا ما كان مرسيا على البعد منها يسيراً، فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها واصطبلاتها، وذلك لإفراط عمق البحر فيها، وهو زقاق معترض بينها وبين الأرض الكبيرة،

بمقدار ثلاثة أميال، ويقابلها منه بلدة تعرف برية، وهي عمالة كبيرة. وهذه المدينة: مسينة، رأس جزيرة صقلية، وهي كثيرة المدن والعمائر والضياع، وتسميتها تطول. وطول هذه الجزيرة: صقلية، سبعةأيام، وعرضها مسيرة خمسة أيام، وبها جبل البركان المذكور، وهو يأتزر بالسحب لإفراط سموه ويعتم بالثلج شتاء وصيفا دائما، وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف، وكفى بأنها ابنة الأندس في سعة العمارة، وكثرة الخصب والرفاهة، مشحونة بالأرزاق على اختلافها، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها، لكنها معمورة بعبدة الصلبان، يمشون في مناكبها، ويرتعون في أكنافها. والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، وقد حسنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم أتاوة في فصلين من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها، والله عز وجل يصلح أحوالهم، ويجعل العقبى الجميلة مآلهم، بمنه. وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط والبندق والأجاص وغيرها من الفواكه.

المسلمون في صقلية

وليس في مسينه هذه من المسلمين إلا نفر يسير من ذوي المهن، ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب، وأحسن مدنها قاعدة ملكها، والمسلمون يعرفونها بالمدينة، والنصارى يعرفونها ببلازمة، وفيها سكنى الحضريين من المسلمين، ولهم فيها المساجد، والأسواق المختص بهم في الأرباض كثير. وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها. لكن المدينة الكبيرة التي هي مسكن ملكها غليام أكبرها وأحفلها وبعدها مسينة. وبالمدينة إن شاء الله يكون مقامنا، ومنها نؤمل سفرنا إلى حيث يقضي الله عز وجل من بلاد المغرب، إن شاء الله.

الملك غليام وحسن سيرته

وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب، وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه متمسك بشريعة الإسلام، وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله، حتى أن الناظر في مطبخته رجل من المسلمين،وله جملة من العبيد السود المسلمين، وعليهم قائد منهم. ووزراؤه وحجابه الفتيان، وله منهم جملة

كبيرة، هم أهل دولته والمرتسمون بخاصته، وعليهم يلوح رونق مملكته، لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة، وما منهم إلا من له الحاشية والخول والأتباع.

القصر الأبيض

ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الأنيقة، ولا سيما بحضرة ملكة المدينة المذكورة. وله بمسينة قصر أبيض كالحمامة مطل على ساحل البحر. وهو كثير الاتخاذ للفتيان والجواري. وليس في ملوك النصارى أترف في الملك ولا أنعم ولا أرفه منه، وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ،ووضع أساليبه ،وتقسيم مراتب رجاله ،وتفخيم أبهة الملك ،وإظهار زينته بملوك المسلمين، وملكه عظيم جدا. وله الأطباء والمنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم، شديد الحرص عليهم، حتى أنه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه، والله يعيذ المسلمين من الفتنة به بمنُهُ. وسنه نحو الثلاثين سنة، كفى الله المسلمين عاديته وبسطته. ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته، على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به: الحمد لله حق حمده. وكانت علامة أبيه: الحمد لله شكرا لأنعمه.

المسلمون في دولة غليام

وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن. ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور، وهو يحيي بن فتيان الطراز، وهو يطرز بالذهب في طراز الملك: أن الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة، تعيدها الجواري المذكورات مسلمة، وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله، ولهن في فعل الخير أمور عجيبة. وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا المشرك. فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته، فكان يقول لهم: ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به، تسكينا لهم.وأما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعا وتأجّراً، ويتصدق تقرباً إلى الله وتزلّفاً، ويفتك الأسرى ويربي الأصاغر منهم ويزوجهم ويحسن إليهم، ويفعل الخير ما استطاع.

وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمي هذه الجزيرة ،وسر من أسرار اعتناء الله عز وجل بهم. لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح، من وجوههم وكبرائهم، بعد تقدمة رغبة منه إلينا في ذلك، فاحتفل في كرامتنا وبرّنا ، وباح لنا بسره المكنون بعد مراقبة منه مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه. فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهدها المعظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام، فأخبرناه، وهو يذوب شوقاً وتحرقاً، واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة قدسهما الله، ورغب في أن لا نبخل عليه بما أمكن من ذلك. وقال لنا: أنتم مدلون بإظهار الإسلام، فائزون بما قصدتم له، رابحون إن شاء الله في متجركم. ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا، معتقلون في ملكة كافر بالله، قد وضع في أعناقنا ربقة الرق، فغايتنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج، واستهداء أدعيتهم، والاغتباط بما نتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة، لنتخذها عدة للإيمان، وذخيرة للأكفان، فتفطرت قلوبنا له اشفاقاً ودعونا له بحسن الخاتمة، واتحفناه ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه. وأبلغ في مجازاتنا ومكافأتنا واستكتمناه سائر اخوانه من الفتيان.

ولهم في فعل الجميل أخبار مأثورة، وفي افتكاك الأسرى صنائع عند الله مشكورة. وجميع خدمتهم على مثل أحوالهم. ومن عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون أفذاذاً من مجلسه فيقضون صلاتهم. وربما يكونون بموضع تلحقه عين ملكهم فيسترهم الله عز وجل، فلا يزالون بأعمالهم ونياتهم وبنصائحهم الباطنة للمسلمين في جهاد دائم، والله ينفعهم ويجمل خلاصهم بمنه.ولهذا الملك بمدينة مسينة المذكورة دار صنعة البحر تحتوي من الأساطيل على ما لا يحصى عدد مراكبه، وله بالمدينة مثل ذلك.

مغادرة صقلية

فكان نزولنا في أحد الفنادق، وأقمنا بها تسعة أيام، فلما كان ليلة الثلاثاء الثاني عشر للشهر المبارك المذكور، والثامن عشر لدجنبر، ركبنا في زورق متوجهين إلى المدينة المتقدم ذكرها، وصرنا قريبا من الساحل بحيث نبصره رأي العين، وأرسل الله علينا ريحا شرقية

رخاء طيبة زجت الزورق أهنأ تزجية وسرنا نسرح اللحظ في عمائر وقرى متصلة وحصون ومعاقل في فتن الجبال مشرفة، وأبصرنا عن يمننا في البحر تسع جزائر قد قامت جبالا مرتفعة: على مقربة من بر الجزيرة اثنتان منها، تخرج منهما النار دائما، وأبصرنا الدخان صاعدا منهما، ويظهر بالليل ناراً حمراء ذات السن تصعد في الجو، وهو البركان المشهور خبره، وأعلمنا أن خروجها من منافس في الجبلين المذكورين يصعد منها نفس ناري بقوة شديدة تكون عنه النار، وربما قذف فيها الحجر الكبير فتلقي به في الساعة إلى الهواء لقوة ذلك النفس وتمنعه من الاستقرار والانتهاء إلى القعر، وهذا من أعجب المسموعات الصحيحة.

وأما الجبل الشامخ الذي بالجزيرة، المعروف بجبل النار، فشأنه أيضا عجيب، وذلك أن ناراً تخرج منه في بعض السنين كالسيل العرم، فلا تمر بشئ إلا أحرقته حتى تنتهي إلى البحر فتركب ثبجه على صفحة حتى تغوص فيه، فسبحان المبدع في عجائب مخلوقاته، لا إله سواه. إلى أن حللنا عشي يوم الأربعاء، بعد يوم الثلاثاء المؤرخ، مرسى مدينة شفلودي، وبينها وبين مسينة مجرى ونصف مجرى.

مدينة شفلودي من جزيرة صقلية

هي مدينة ساحلية كثيرة الخصب، واسعة المرافق، منتظمة أشجار الأعناب وغيرها، مرتبة الأسواق، تسكنها طائفة من المسلمين، وعليها قنة جبل واسعة مستديرة، فيها قلعة لم ير أمنع منها اتخذوها عدة لأسطول يفجؤهم من جهة البحر من جهة المسلمين، نصرهم الله. وكان اقلاعنا منها نصف الليل، فجئنا مدينة ثرمة ضحوة يوم الخميس بسير رويد. وبين المدينتين خمسة وعشرون ميلا، فانتقلنا فيها من ذلك الزورق إلى زورق ثان اكتريناه لكون البحريين الذين صحبونا فيه من أهلها.

مدينة ثرمة من الجزيرة المذكورة

هي أحسن وضعا من التي تقدم ذكرها، وهي حصينة، تركب البحر وتشرف عليه، وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد، ولها قلعة سامية منيعة. وفي أسفل البلدة حمة قد أغنت أهلها عن اتخاذ حمام. وهذه البلدة من الخصب وسعة الرزق على غاية.

والجزيرة بأسرها من أعجب بلاد الله في الخصب وسعة الأرزاق. فأقمنا بها يوم الخميس الرابع عشر للشهر المذكور، ونحن قد أرسينا في واد بأسفلها ويطلع فيه المد من البحر ثم ينحسر عنه. وبتنا بها ليلة الجمعة، ثم انقلب الهواء غربيا، فلم نجد للإقلاع سبيلا، وبيننا وبين المدينة المقصودة المعروفة عند النصارى ببلارمة خمسة وعشرون ميلا، فخشينا طول المقام، وحمدنا الله تعالى على ما أنعم به من التسهيل في قطع المسافة في يومين، وقد تلبث الزوارق في قطعها، على ما أعلمنا به، العشرين يوماً والثلاثين يوماً ونيفاً على ذلك. فأصبحنا يوم الجمعة منتصف الشهر المبارك على نية من المسير في البر على أقدامنا، فنفذنا لطيتنا وتحملنا بعض أسبابنا وخلفنا بعض الأصحاب على الأسباب الباقية في الزورق، وسرنا في طريق كأنها عمارة وكثرة صادر ووراد، وطوائف النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسوننا، فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس أهل الجهل، عصم الله جميع أمة محمد، صلى الله عليه وسلم، من الفتنة بهم بعزته ومنه، فانتهينا إلى قصر سعد، وهو على فرسخ من المدينة، وقد أخذ منا الإعياء فملنا إليه وبتنا فيه.

وهذا القصر على ساحل البحر مشيد البناء عتيقه قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة، لم يزل ولا يزال، بفضل الله، مسكنا للعباد منهم، وحوله قبور كثيرة للمسلمين: أهل الزهادة والورع، وهو موصوف بالفضل والبركة مقصود من كل مكان، وبإزائه عين تعرف بعين المجنونة، وله باب وثيق من الحديد، وداخله مساكن، وعلالي مشرفة وبيوت منتظمة، وهو كامل مرافق السكنى، وفي أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء، مستطيل ذو حنايا مستطيلة، مفروش بحصر نظيفة، لم ير أحسن منها صنعة، وقد علق فيه نحو الأربعين قنديلا من أنواع الصفر والزجاج، وأمامه شارع واسع يستدير بأعلى القصر، وفي أسفل القصر بئر عذبة فبتنا في هذا المسجد أحسن مبيت وأطيبه، وسمعنا الأذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه. وأكرمنا القوم الساكنون فيه. وله إمام يصلي بهم الفريضة والتراويح في هذا الشهر المبارك. وبمقربة من هذا القصر، بنحو الميل إلى جهة المدينة، قصر آخر

عليصفته يعرف بقصر جعفر، وداخله سقاية تفور بماء عذب. وأبصرنا للنصارى في هذه الطريق كنائس معدة لمرضى النصارى، ولهم في مدنهم مثل ذلك على صفة مارستانات المسلمين، وأبصرنا لهم بعكة وبصور مثل ذلك، فعجبنا من اعتنائهم بهذا القدر.

فلما صلينا الصبح توجهنا إلى المدينة فجئنا لندخل، فمُنعنا وحمُلنا إلى الباب المتصل بقصور الملك الافرنجي، أراح الله المسلمين من ملكته، وأدينا إلى المستخلف من قبله ليسألنا عن مقصدنا، وكذلك فعلهم بكل غريب، فسلك رحاب وأبواب وساحات ملوكية، وأبصرنا من القصور المشرفة والميادين المنتظمة والبساتين والمراتب المتخذة لأهل الخدمة ما راع أبصارنا وأذهل أفكارنا، وتذكرنا قول الله عز وجل "ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفا من فضة ومعارج عليها يظهرون" وأبصرنا فيما أبصرناه مجلسا في ساحة فسيحة قد أحدق بها بستان وانتظمت جوانبها بلاطات، والمجلس قد أخذ استطالة تلك الساحة كلها، فعجبنا من طوله وأشراف مناظره، فأعلمنا أنه موضع غذاء الملك مع أصحابه وتلك البلاطات والمراتب حيث تقعد حكامه. وأهل الخدمة والعمالة أمامه. فخرج الينا ذلك المستخلف يتهادى بين خديمين يحفان به ويرفعان أذياله، فأبصرنا شيخا طويل السبلة أبيضها ذا أبهة، فسألنا عن مقصدنا وعن بلدنا بكلام عربي لين، فأعلمناه، فأظهر الإشفاق علينا وأمر بانصرافنا بعد أن أحفى في السلام والدعاء، فعجبنا من شأنه.

وكان أول سؤاله لنا عن خبر القسطنطينية العظمى وما عندنا منه، فلم يكن عندنا ما نعلمه به، وقد نقيد خبرها بعد هذا. وكان من أغرب ما شاهدناه من الأمور الفتانة أن أحد من كان قاعداً عند باب القصر من النصارى قال لنا عند انصرافنا عن القصر المذكور: تحفظوا بما عندكم يا حجاج من العمال الممكسين لئلا يقع عليكم. وظن أن عندنا تجارةتقتضي التمكيس. فاستجاب له أحد النصارى، فقال: ما أعجب أمرك، يدخلون حرم الملك، يخافون من شئ، ما كنت أود لهم إلا آلافا من الرباعيات، انهضوا بسلام لا خوف عليكم. فقضينا عجبا مما شاهدناه وسمعناه. وخرجنا إلى أحد الفنادق فنزلنا فيه، وذلك يوم

السبت السادس عشر للشهر المبارك، والثاني والعشرين لدجنبر، وفي خروجنا من القصر المذكور سلكنا بلاطا متصلا مشينا فيه مسافة طويلة، وهو مسقف، حتى انتهينا إلى كنيسة عظيمة البناء. فاعلمنا أن ذلك البلاط ممشى الملك إلى هذه الكنيسة.

ذكر المدينة التي هي حضرة صقلية

هي بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر، ومراد عيش يانع أخضر، عتيقة أنيقة، مشرقة مونقة، تتطلع بمرأى فتان، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان، فسيحة السكك والشوارع، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع، عجيبة الشأن، قرطبية البنيان، مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان، يشقها نهر معين، ويطرد في جنباتها أربع عيون، قد زخرفت فيها لملكها دنياه، فاتخذها حضرة ملكه الإفرنجي أباده الله، تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود في نحور الكواعب، ويتقلب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب، فكم له فيها، لا عمرت به، من مقاصير ومصانع، ومناظر ومطالع، وكم له بجهاتها من ديارات قد زخرف بنيانها، ورفه بالأقطاعات الواسعة رهبانها، وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها، وعسى الله عن قريب أن يصلح لهذه الجزيرة الزمان، فيعيدها دار إيمان، وينقلها من الخوف للأمان، بعزته، أنه على ما يشاء قدير. وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان، يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي، ولهم بها قاض يرتفعون اليه في أحكامهم، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون في وقيده في هذا الشهر المبارك، وأما المساجد فكثيرة لا تحصى، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن. وبالجملة فهم غرباء عن اخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم، تلافاهم الله بصنع جميل بمنه.

ومن جملة شبه هذه المدينة بقرطبة، والشئ قد تشبه بالشئ من إحدى جهاته، أن لها

مدينة قديمة تعرف بالقصر القديم هي في وسط المدينة الحديثة، وعلى هذا المثال موضوع قرطبة، حرسها الله. وبهذا القصر القديم ديار كأنها القصور المشيدة لها مناظر في الجو مطلة تحار الأبصار في حسنها.

كنيسة الإنطاكي

ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكي، أبصرناها يوم الميلاد، وهو يوم عيد لهم عظيم، وقد احتفلوا لها رجالا ونساء، فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه، ويقع القطع بأنها أعجب مصانع الدنيا المزخرفة جدرها الداخلة ذهب كلها، وفيها من ألواح الرخام الملون ما لم ير مثله قط، قد رصعت كلها بفصوص الذهب وكللت بأشجار الفصوص الخضر ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج، فتخطف الأبصار بساطع شعاعها، وتحدث في النفوس فتنة نعوذ بالله منها، وأعلمنا أن بانيها الذي تنسب إليه انفق فيها قناطير من الذهب، وكان وزيرا لجد هذا الملك المشرك، ولهذه الكنيسة صومعة قد قامت على أعمدة سوار من الرخام ملونة وعلت قبة على أخرى سوار كلها فتعرف بصومعة السواري، وهي من أعجب ما يبصر من البنيان، شرّفها الله عن قريب بالأذان، بلطفه وكريم صنعه.

وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين: فصيحات الألسن، ملتحفات، منتقبات، خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب، والتحفن اللحف الرائقة، وانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة، وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر. فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر :

إن منْ يدخل الكنيسة يوماً يلـــق فيها جآذراً وظـــباء

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو، ويؤدي إلى أباطيل اللهو، ونعوذ به من تقييد،يؤدي إلى تفنيد، إنه سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة. فكان مقامنا بهذه المدينة سبعة أيام، ونزولنا بها في أحد فنادقها التي يسكنها المسلمون، وخرجنا منها صبيحة يوم

الجمعة الثاني والعشرين لهذا الشهر المبارك، والثامن والعشرين لشهر دجنبر، إلى مدينة أطرابنش، بسبب مركبين بها: أحدهما يتوجه إلى الأندلس والثاني إلى سبتة، وكنا أقلعنا إلى الاسكندرية فيه، وفيهما حجاج وتجار من المسلمين، فسلكنا على قرى متصلة وضياع متجاورة، وأبصرنا محارث ومزارع لم نر مثل تربتها طيباً وكرماً واتساعاً، فشبهناها بقنبانية قرطبة، أو هذه أطيب وأمتن.

وبتنا في الطريق ليلة واحدة في بلدة تعرف بعلقمة، وهي كبيرة متسعة، فيها السوق والمساجد، وسكانها وسكان هذه الضياع التي في هذه الطريق كلها مسلمون، وقمنا منها سَحَر يوم السبت الثالث والعشرين لهذا الشهر المبارك، والتاسع والعشرين لدجنبر، فاجتزنا بمقربة منها على حصن يعرف بحصن الحمة، وهو بلد كبير فيه حمامات كثيرة، وقد فجرها الله ينابيع في الأرض وأسالها عناصر لا يكاد البدن يحتملها لإفراط حرها، فأجزنا منها واحدة على الطريق، فنزلنا إليها عن الدواب وأرحنا الأبدان والاستحمام فيها. ووصلنا إلى أطرابيش عصر ذلك اليوم، فنزلنا فيها في دار اكتريناها.

ذكر مدنية اطرابنش من جزيرة صقلية

هي مدينة صغيرة الساحة، غير كبيرة المساحة، مسورة بيضاء كالحمامة، مرساها من أحسن المراسي وأوفقها للمراكب، ولذلك يقصد الروم كثيراً إليها ولا سيما المقلعون إلى بر العدوة، فإن بينها وبين تونس مسيرة يوم وليلة، فالسفر منها إليها لا يتعطل شتاء ولا صيفاً إلا ريثما تهب الريح الموافقة، فمجراها في ذلك مجرى المجاز القريب. وبهذه المدينة السوق والحمام وجميع ما يحتاج اليه من مرافق المدن، لكنها في لهوات البحر لإحاطته بها من ثلاث جهات، واتصال البر بها من جهة واحدة ضيقة، والبحر فاغر فاه لها من سائر الجهات، فأهلها يرون أنه لا بد له من الاستيلاء عليها وإن تراخى مدى أيامها، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى. وهي مرفقة موافقة لرخاء السعر بها لأنها على محرث عظيم، وسكانها المسلمون والنصارى، ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس، وبركها من جهة الشرق مائلا إلى الشمال على مقربة منها جبل عظيم مفرط السمو متسع في أعلاه قنة تنقطع عنه، وفيها

معقل للروم، وبينه وبين الجبل قنطرة، ويتصل به في الجبل للروم بلد كبير، ويقال إن حريمه من أحسن حريم هذه الجزيرة، جعلها الله سببا للمسلمين.

وبهذا الجبل الكروم والمزارع، وأعلمنا أن به نحو أربع مئة عين متفجرة، وهو يعرف بجبل حامد، والصعود إليه هين من إحدى جهاته، وهم يرون أن منه يكون فتح هذه الجزيرة، إن شاء الله، ولا سبيل أن يتركوا مسلما يصعد إليه، ولذلك أعدّوا في ذلك المعقل الحصين، فلو أحسوا بحادثة حصلوا حريمهم فيه وقطعوا القنطرة. واعترض بينهم وبين الذي في أعلاه متصل به خندق كبير. وشأن هذا البلد العجيب، فمن العجب أن يكون فيه من العيون المتفجرة ما تقدم ذكره، وأطرابنش في هذا البسيط ولا ماء لها إلا من بئر على البعد منها، وفي ديارها آبار قصيرة الأرشية ماؤها كلها شريب لا يساغ. وألفينا المركبين اللذين يرومان الاقلاع إلى المغرب بها، ونحن، إن شاء الله، نأمل ركوب أحدهما، وهو القاصد إلى بر الأندلس، والله بمعهود صنعه الجميل كفيل بمنّه. وفي غربي هذه البلدة: أطرابنش المذكورة، ثلاث جزائر في البحر على نحو فرسخين منها، وهي صغار متجاورة: إحداها تعرف بمليطمة، والاخرى بيابسة، والثالثة تعرف بالراهب، نسبت إلى راهب يسكنها في بناء أعلاها كأنه الحصن، وهي مكمن للعدو، والجزيرتان لا عمارة فيهما، ولا يعمر الثالثة سوى الراهب المذكور.

شهر شوال

استهل هلاله ليلة السبت الخامس من يَنَيْر بشهادة ثبتت عند حاكم أطرابنش المذكورة بأنه أبصر هلال شهر رمضان ليلة الخميس، ويوم الخميس كان صيام أهل مدينة صقلية المتقدم ذكرها، فعيَّد الناس على الكمال بحساب يوم الخميس المذكور، وكان مُصَلاّنا في هذا العيد المبارك بأحد مساجد أطرابنش المذكورة مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج إلى المصلّى لعذر كان لهم. فصلينا صلاة الغرباء جبر الله كل غريب إلى وطنه، وخرج أهل البلد إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات، فعجبنا من ذلك ومن أغضاء النصارى لهم عليه. ونحن قد اتفق كراؤنا في المركب المتوجه إن شاء الله إلى بر

الأندلس، ونظرنا في الزاد، والله المتكفل بالتسيير والتسهيل.

ووصل أمر من ملك صقلية بعقلة المراكب بجميع السواحل بجزيرته بسبب الأسطول الذي يعمّره ويعدّه، فليس لمركب سبيل للسفر إلى أن يسافر الأسطول المذكور، خيب الله سعيه ولا تمم قصده. فبادر الروم الجَنَويّون، أصحاب المركبين المذكورين، إلى الصعود فيهما تحصّنا من الوالي، ثم امتد سبب الرشوة بينهم وبينه فأقاموا بمركبيهم ينتظرون هواء يقلعون به. وفي هذا التاريخ المذكور وصلتنا أخبار موحشة من الغرب، منها تغلب صاحب ميورقة على بجاية، والله لا يحقق ذلك، ويجعل العاقبة والهدنة للمسلمين بمنه وكرمه.

والناس في هذه المدينة يرجمون الظنون في مقصد هذا الأسطول الذي يحاول هذا الطاغية تعميره، وعدد أجفانه، فيما يقال، ثلاث مئة: بين طرائد ومراكب، يقال: أكثر من ذلك، ويستصحب معه نحو مئة سفينة تحمل الطعام، والله يقطع به ويجعل الدائرة عليه. فمنهم من يزعم أن مقصده الإسكندرية، حرسها الله وعصمها، ومنهم من يقول: إن مقصده ميورقة، حرسها الله، ومنهم من يزعم أن مقصده أفريقية، حماها الله، ناكثا لعهده في السلم بسبب الأنباء الموحشة الطارئة من جهة المغرب. وهذا أبعد الظنون من الإمكان لأنه مظهر للوفاء بالعهد، والله يعين عليه ولا يعينه، ومنهم من يرى أن احتفاله إنما هو لقصد القسطنطينية العظمى بسبب ما ورد من قبلها من النبأ العظيم الشان، المهدي للنفوس بشائر تتضمن عجائب من الحدثان، وتشهد للحديث المأثور عن المصطفى، صلى الله عليه وسلم، بصدق البرهان، وذلك بأنه ذكر أن صاحبها توفي وترك الملك بعده لزوجه ولها ابن صغير، فقام ابن عم له في الملك وقتل الزوج المذكورة، وثقف الابن المذكور، ثم ابناً للثائر المذكور عطفته الرحم على الابن المعتقل فأطلق سبيله، وكان أبوه قد أمره بقتله، فرمت به الاقدار إلى هذه الجزيرة بعد خطوب جرت عليه، فوردها على حالة ابتذال، ومهنة استعمال، خادما لأحد الرهبان، مسدلا على شارته الملوكية ستراً من الامتهان، ففشى الأمر، وذاع السر، ولم يغن عنه ذلك الستر. فاستحضر عن أمر الملك الصقلي غليام، المذكور قبل، واستنطق واستفهم، فزعم أنه عبد لذلك الراهب وخديمه، ثم إن طائفة من الروم الجَنويّين

المسافرين إلى القسطنطينية أثبتوا صفته وحققوا أنه هو مع مخايل ودلائل ملوكية لا حت منه: منها، فيما ذكر لنا، أن الملك غليام خرج في يوم زينة له وقد اصطف الناس للسلام عليه وأحضروا الفتى المذكور في جملة الخاصة، فصقع الجميع خدمة للملك وتعظيما لطوعه عليهم ألا ذلك الفتى فإنه لم يزد على الايمان في السلام، فعلم أن الهمة الملوكية منعته من المدخل مدخل السوقة، فاعتنى به الملك غليام وأكرم مثواه وأذكى عيون الاحتراس عليه خوفا من اغتيال يلحقه بتدسيس من ابن عمه الثائر عليه.

وكانت له أخت موصوفة بالجمال علق بها ابن العم الثائر على الملك المذكور، فلم يمكنه تزويجها بسبب أن الروم لا تنكح في الاقارب، فحمله الحب المصمي والهوى المصم المعمي، والسعادة التي تفضي بصاحبها إلى العاقبة الحسنى وترمي، على أخذها والتوجه بها إلى الأمير مسعود صاحب الدروب وقونية وبلاد العجم المجاورة للقسطنطينية، وقد تقدم ذكر غنائه في الإسلام فيما مضى من هذا التقييد، وحسبك أن صاحب القسطنطينية لم يزل يؤدي الجزية إليه ولصالحه على ما يجاوره من البلاد، فأسلم مع ابنة عمه على يده، وسيق له صليب ذهب قد أحمي عليه في النار فوضعه تحت قدمه، وهي عندهم أعظم علامات الترك لدين النصرانية والوفاء بذمة دين الإسلام، وتزوج ابنة العم المذكورة وبلغ هواه، وأخذ جيوش المسلمين معه إلى القسطنطينية فدخلها بهم وقتل من أهلها نحو الخمسين ألفا من الروم، وأعانه الأغريقيون على فعله، وهم فرقة من أهل الكتاب وكلامهم بالعربية، وبينهم وبين سائر الفرق من جنسهم عداوة كامنة، وهم لا يرون أكل لحم الخنزير، فشفوا نفوسهم من أعاديهم، وقرع الله نبع الكفر بعضه ببعض واستولى المسلمون على القسطنطينية ونقلت أموالها كلها، وهي ما لا يأخذه الاحصاء، إلى الأمير مسعود، وجعل من المسلمين فيها ما ينيف على الاربعين ألف فارس، واتصلت بلادهم بها. وهذا الفتح، إذا صح، من أكبر شروط الساعة، والله اعلم بغيبه.

الفينا هذا الحديث بهذه الجزيرة مستفيضا على ألسنة المسلمين والنصارى محققين له لا شك عندهم فيه، أنبأت به مراكب الروم التي وصلت من القسطنطينية. وكان أول سؤال

مستخلف الملك بالمدينة لنا، يوم أحضرنا لديه عند دخولنا المدينة، عما عتدنا من خبر القسطنطينية، فلم يكن عندنا علم ولا تعرفنا معنى السؤال عنها إلا بعد ذلك. وتحققوه أيضا من جهة ملك هذا الصبي وما كان من اتباع الثائر عليه إياه عيونا يروم اغتياله. فهو اليوم بسبب ذلك عند صاحب صقلية محترس محافظ عليه، لا يكاد يصل لحظ العيون إليه.

وأخبرنا أنه رطيب غصن الصبا، محتدم حمرة الشباب، صقيل رونق الملك،عليه ناظر في علم اللسان العربي وغيره، بارع في الأدب الملوكي، ذو دهاء على فتوة سنه وغمرية شبيبته. فالملك الصقلي على مايذكر يروم توجيه الأسطول المذكور إلى القسطنطينية أنفة لهذا الصبي المذكور، وماجرى عليه، وكيفما توجه الأمر فيه من هذه المقاصد فالله عزّ وجل ينكصه خاسرا على عقبه، ويعرّفه شؤم مذهبه، ويجعل قواصف الرياح خاسفة به، إنه على مايشاء قدير. وهذا الخبر القسطنطيني،حققه الله، من أعظم عجائب الدنيا وكوائنها المرتقبة، ولله القدرة البالغة في أحكامه وأقداره.

شهر ذي القعدة

استهل هلاله ليلة الأثنين الرابع من شهر فبراير ونحن بمدينة اطرابنش، المتقدم ذكرها، منتظرين انسلاخ فصل الشتاء وإقلاع المركب الجنوي الذي أملنا ركوبه إلى الاندلس، إن شاء الله عز وجل، والله سبحانه ييُمّن مقصدنا ويُيسّر مرامنا بمنّه وكرمه.

وفي مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس، تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها، دمرهم الله، وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة، والمقام تحت عهدة الذمة، وغلظة الملك، الى طوارئ دواعي الفتنة في الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم ونسائهم. وربما تسبب إلى بعض اشياخهم أسباب نكالية تدعوه إلى فراق دينه، فمنها قصة اتفقت في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التي هي حضرة ملكهم الطاغية، ويعرف بابن زرعة، ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الإسلام والانغماس في دين النصرانية، ومهر في حفظ الإنجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين

شريعتهم، فعاد في جملة القسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية، وربما طرأ حكم إسلامي فيستفتى أيضا فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية، ويقع الوقوف عند فتياه في كلا الحكمين، وكان له مسجد بإزاء داره أعاده كنيسة، نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة، ومع ذلك فاعلمنا أنه يكتم إيمانه. فلعله داخل تحت الاستثناء، في قوله: "ألا من أكره قلبه مطمئن الإيمان".

ووصل هذه الأيام إلى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم القائد أبو القاسم بن حمود، المعروف بابن الحجر، وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابرا عن كابر، وقرر لدينا مع ذلك أنه من أهل العمل الصالح، مريد للخير، محب في أهله، كثير الصنائع الأخروية من افتكاك الأسارى، وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج، إلى مآثر جمة، ومناقب كريمة، فارتجت هذه المدينة لوصوله، وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية الزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه فيها أحاديث مزورة نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحدين أيدهم الله، فكادت تقضي عليه لولا حارس المدة، وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفا على الثلاثين ألف دينار مؤمنية، ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقي دون مال ،فاتفق في هذه الايام رضي الطاغية عنه وأمره بالنفوذ لمهم من اشغاله السلطانية فنفذ لها نفوذ الملوك المغلوب على نفسه وماله، وصدرت عند وصوله الى هذه البلدة رغبة في الاجتماع بنا، فاجتمعنا به فاظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم ما يبكي العيون دما ويذيب القلوب ألما .فمن ذلك أنه قال :كنت أود لو أباع أنا وأهل بيتي ،فلعل البيع كان يتخلصنا مما نحن فيه ويؤدي بنا الى الحصول في بلادالمسلمين ،فتأمل حالا يؤدي بهذا الرجل مع جلالة قدره وعظم منصبه الى ان يتمنى مثل هذا التمني مع كونه مثقلا عيالا وبنين وبنات. فسألنا له الله عز وجل حسن التخليص مما هو فيه ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة. وواجب على كل مسلم الدعاء لهم في كل موقف يقفه بين يدي الله عز وجل . وفارقناه باكيا مبكيا واستمال نفوسنا بشرف منزعه وخصوصية شمائله ورزانة

حصاته وشمول مبّرته ،وتكرمته وحسن خلقه وخليقته .وكنا قد ابصرنا له ولإخوتهى ولإهل بيته بالمدينة ديارا كأنها القصور المشيدة الانيقة وشأنهم بالجملة كبير لا سيما هذا الرجل منهم وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جميلة مع فقراء الحجاج وصعاليكهم أصلحت أحوالهم ويسرت لهم الكراء والزاد، والله ينفعه بها ويجازيه الجزاء الاوفى عليها بمنه .

ومن أعظم ما منى به أهل هذه الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجه أو تغضب المرأة على ابنتها فتحلق المغضوب عليه أنفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة فيتنصّر ويتعمّد فلا يجد الأب للابن سبيلا ولا الأم للبنت سبيلا فتخيل حال من يُمنى بمثل هذا في أهله وولده ويقطع عمره متوقعا لوقوع هذه الفتنة فيهم ! فهم الدهر كله في مدارات الأهل والولد خوف هذه الحال . وأهل النظر في العواقب منهم يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة إقريطش من المسلمين في المدة السالفة فإنه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعدالشيء حالا بعد حال حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ،وفرّ منهم من قضى الله بنجاته، وحقّت كلمة العذاب على الكافرين، والله غالب على أمره لا اله سواه .

ومن عظم هذا الرجل الحمودي المذكور في نفوس النصارى أبادهم الله أنهم يزعمون أنه لو تنصّر لما بقى في الجزيرة مسلم الا وفعل فعله اتباعا له ،واقتداء به .تكفل الله بعصمته جميعهم ونجّاهم مما هم فيه بفضله وكرمه .

ومن أعجب ما شاهدناه من أحوالهم التي تقطع النفوس اشفاقا وتذيب القلوب رأفة وحنانا أن أحد أعيان هذه البلدة وجه ابنه إلى أحد أصحابنا الحجاج راغبا في أن يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الادراك فإن رضيها تزوجها وإن لم يرضها زوجها ممن رضى لها من أهل بلده ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيه وأخوتها طمعا في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين فطاب الأب والأخوة نفْسا لذلك لعلهم يجدون السبيل للتخص إلى بلاد المسلمين بأنفسهم إذا زالت هذه العقلة المقيدة عنهم فتأجر هذا الرجل المرغوب إليه بقبول ذلك وأعانه على استغنام هذه الفرصة المؤدية إلى خبر الدينا والآخرة .

وطال عجبنا من حال تؤدي بانسان إلى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب وإسلامها الى يد من يغربها، واحتمال الصبر عنها، ومكابدة الشوق اليها والوحشة دونها كما أنّا استغربنا حال الصبية صانها الله، ورضّاها بفراق من لها رغبة في الاسلام واستمساكا بعروته الوثقى، والله عز وجل يعصمها ويكفلها ،ويؤنسها بنظم شملها ويجمل الصنع لها بمنه. واستشارها الاب فيما هم به من ذلك .فقالت:إن امسكتني فأنت مسئول عني.
وكانت هذه الصبية دون أم ولها أخوان وأخت صغيرة أشقاء لها

شهر ذي الحجة

غم هلاله علينا لتوالي الأنواء فأكلمنا أيام شهر ذي القعدة بحسابه من ليلة الأربعاء السادس لشهر مارس ونحن بهذه المدينة المذكورة طامعين في قرب السفر مستبشرين بطيب الهواء، والله ييسر مرامنا ويتكفل بسلامتنا بعزته ،واتفق أن ابصرنا الهلال ليلة الأربعاء كبيرا فعُلم أنه من ليلة الثلاثاء فانتقل حساب الشهر اليها.

وفي ظهر يوم الاربعاء التاسع من الشهر المذكور والثالث عشر من مارس ،وهو يوم عرفة ، عرفنا الله بركته وبركة الموقف الكريم فيه بعرفات ،كان صعودنا الى المركب يمّنه الله ورزقنا السلامة فيه ،مبيتين للسفر ،قرّب الله علينا مسافته .فأصبحنا على ظهر المركب صبيحة يوم عيدالأضحى ،نفعنا الله بمقاساة الوحشة فيه، ونحن نيف على الخمسين رجلا من المسلمين، عصم الجميع ونظم شملهم بأوطانهم بمنه وكرمه، إنه سبحانه كفيل بذلك. ورُمنا الاقلاع فلم توافق الريح، فلم نزل نتردد من المركب إلى البرّ ،ونبيت السفر كل ليلة اثني عشر يوما إلى أن أذن الله بالاقلاع صبيحة يوم الاثنين الحادي والعشرين لذي الحجة المذكور، والخامس والعشرين لمارس، فاقلعنا على بركة الله تعالى في ثلاثة مراكب من الروم قد توافقت على الاصطحاب في الجري وأن يمسك المتقدم منها على المتأخر، فوصلنا إلى جزيرة الراهب، وقد تقدم ذكرها في هذا التقييد، وبينها وبين أطرابنش نحو ثمانية عشر ميلا، فتغيرت الريح علينا، فملنا إلى مرساها.

فكان من الاتفاق العجيب أن الفينا فيها مركب مركون الجنوي المقلع من الاسكندرية بنحو مئتي رجل ونيف من أصحابنا الحجاج المغاربة الذين كنا فارقناهم بمكة، قدسها الله،

في ذي الحجة من سنة تسع، ولم نسمع لهم خبراً منذ فارقناهم ولا سمعوا لنا، وكان فيهم جماعة من أصحابنا من أهل غرناطة، منهم الفقيه أبو جعفر بن سعد صاحبنا ونزيلنا بمكة مدة مقامنا فيها، فلحين ما علموا بناتطلعوا الينا من المركب متعلقين بحافاته وجوانبه رافعين أصواتهم ببشرى السلامة واللقاء مسرورين بالاجتماع باكين من الفرح دهشين ذاهلين لوقوع المسرة من نفوسهم، ونحن لهم على مثل تلك الحال. فكان يوما مشهودا اتخذناه عقب العيد عيداً جديدا. ونزل الأصحاب بعضهم إلى بعض، وباتوا وبتنا بأسر ليلة وانعمها، وجعلنا هذا الاجتماع عنوانا كريما لما نؤمله من انتظام الشمل بالأوطان، إن شاء الله عز وجل.

وأهب الله علينا ريحا طيبة في سحر تلك الليلة، وهي ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر المذكور، فأقلعنا بها ونحن في أربعة مراكب كلها تؤمل جزيرة الأندلس، بحول الله تعالى، وسرنا ذلك اليوم كله بريح تزجي المراكب تزجية حثيثة، ونحن من الشوق إلى الاندلس بحال تكاد لها النفوس تقوم مقام الرياح في حث الرياح وانزعاجها، والله يمن بالتسهيل والتعجيل. ثم انقلبت الريح غربية، بعد مسير يوم وليلتين، فضربت في وجوهنا فانكصتنا على الأعقاب، فرجعنا عودا على بدء إلى مرسى جزيرة الراهب، فوصلنا إليه ليلة الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور.

ثم أقلعنا منه عشي يوم الجمعة بعده منفردين دون المراكب المذكورة. فأزعجتنا ريح شديدة خرق لها المركب في الجري، فأصبحنا يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر ونحن على طرف جزيرة سردانية وقد قطعناها جريا، وطولها أزيد من مئتي ميل، فاستبشرنا وسررنا. وقدر للمركب في يوم وليلتين قطع نيف على خمس مئة ميل، فكان أمرا مستغربا، ثم إن الريح الموافقة ركدت عنا وهبت ريح أسقطتنا ليلة الاثنين الثامن والعشرين منه، وهو أول أبريل، الى جهة بر إفريقية، فارسينا يوم الاثنين المذكور بجزيرة تعرف بخالطة، وهي جزيرة غير معمورة، ويقال: إنها كانت معمورة، في القديم، وهي مقصد العدو، وبينها وبين البر المذكور نحو ثلاثين ميلا، وهو منّا رأي العين، فأقمنا بها بعد أهوال لقيناها في دخول مرساها، عصم الله منها، وتوالت الأنواء علينا فيها ونحن ننتظر فرجا من الله تعالى. وكان

مقامنا فيها أربعة أيام، آخرها يوم الخميس مستهل محرم.

شهر محرم سنة إحدى وثمانين

غم هلاله علينا فحسبناه على الكمال من ليلة الخميس الرابع لشهر أبريل، عرفنا الله بركة هذه السنة ويمنها ورزقنا خيرها ووقانا شرها ومن علينا بنظم الشمل فيها، إنه سميع مجيب .وفي ليلة الجمعة الثاني منه أهب الله علينا ريحا شرقية أقلعنا بها، وهي لينة رخاء إلى أن استشرت فعادت ريحا شديدة جرى بها المركب أقوى جري وأعدله، وما زلنا منذ ركبنا البحر نتنسم هذا الأفق الشرقي شوقا إلى ريحه فلا يهب منه نسيم حتى خلناه لعدمه عنقاء مغربا، إلى أن تداركنا الله بلطفه وجميل صنعه فأجراه لنا الآن في شهر نيسان، عرفنا الله السلامة بمنه وكرمه.

وصحبتنا هذه الريح الشرقية نحو يومين سرنا فيهما سيرا حثيثا، وتركنا جزيرة سردانية عن يميننا، ثم تلاعبت بنا الرياح المختلفة فأقمنا بها نضرب البحر طولا وعرضا ولا يتراءى لنا بر حتى ساءت ظنون وتوهمنا اسقاط الرياح لنا إلى جهة بر برشلونة، دمرها الله، إلى أن أذن الله بالفرج فأبصرنا جزيرة يابسة ليلة السبت العاشر من الشهر المذكور، ونحن لا نكاد نتبينه لبعد خيالا خفيا، فلما كان يوم السبت المذكور بان لنا، فدخلنا مرسى الجزيرة المذكورة مع الليل بعد مكابدة اختلاف الرياح في دخوله. فأرسينا والمدينة منا على مقدار أربعة أميال، وكان إرساؤنا بازاء فرمنتيرة ،وهي منقطعة عن جزيرة يابسة، وبينهما مقدار أربعة أميال أو خمسة، وفيها قرى كثيرة معمورة، فأقمنا بمرساها ونحن بمقربة من الجبلين المنقطعين المتناظرين المعروفين بالشيخ والعجوز، وفي تلك الليلة مع المغيب أبصرنا جبال بر الأندلس، وأقربها منا جبل دانية المعروف بقاعون. فحدقت الأبصار لهذا البر سرورا بمرآه واستبشرت الأنفس بالدنو منه. وأصبحنا يوم الأحد الحادي عشر من الشهر بالمرسى المذكور والريح غربية، ونحن ننتظر تتميم الصنع الجميل من الله عز وجل بإرسال الريح الموافقة، نشرا بين يدي رحمته إن شاء الله.

وفي صحوة يوم الثلاثاء الثالث عشر منه أقلعنا على اليمن والبركة بريح شرقية لينة المهب

لها نفس خافت، داعين لله عز وجل في إحياء ذمائها، وتقوية اجرائها، وجبال دانية أمامنا رأي العين، والله يتمم فضله علينا، ويكمل صنعه بعزته لنا. وتمادت وانتشرت بفضل الله تعالى، فنزلنا بقرطاجنّة عشي يوم الخميس الخامس عشر منه، شاكرين لله على ما منّ به من السلامة والعافية، والحمد لله رب العالمين، وصلواته عليمحمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين. ثم أقلعنا منها إثر صلاة الجمعة السادس عشر منه فبتنا في فحص قرطاجنة بالبرج المعروف ببرج الثلاثة صهاريج، ثم منه يوم السبت إلى مرسيه، ومنها في اليوم بعينه إلى لبرالة، ثم منها يوم الأحد إلى لورقة، ثم منها يوم الاثنين إلى المنصورة، ثم منها يوم الثلاثاء إلى قنالش بسْطة، ثم منها يوم الاربعاء إلى وادي آش، ثم منها يوم الخميس الثاني والعشرين لمحرم، والخامس والعشرين لابريل، الى المنزل بغرناطة:

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قرّ عينا بالإياب المسافرُ

والحمد لله على الصنع الجميل الذي أولاه، والتيسير والتسهيل الذي والاه، وصلواته على سيد المرسلين الأولين منهم والآخرين محمد رسوله الكريم ومصطفاه، وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهداه، وسلم وشرف وكرم. فكانت مدة مقامنا من لدن خروجنا من غرناطة إلى وقت إيابنا هذا عامين كاملين وثلاثة أشهر ونصفا، والحمد لله رب العالمين.)

كشفت لنا رحلة ابن جبير المثيرة في البحر المتوسط من الشرق إلى الغرب، مرورا بصقلية عن تجربة نادرة في الابحار الذي استمر عدة أشهر، وما يلفت النظر حقا هو وقوفة المتأنّي على الحياة في صقلية التي بدت ساحرة من وصفه الخلاب لها، والأمر الذي يلاحظه كل قارئ لهذه الرحلة هو الإعجاب الذي يمتزج بالتحسر، الإعجاب بأهل الجزيرة وحياتهم وملكهم، والتحسر على كونها خارج دار الإسلام، فابن جبير يمنّي نفسه بان تنظمّ صقلية ثانية إلى العالم الذي يراه جديرا بها،وحيثما استثاره موقف تنشط في نفسه تلك الرغبة. والواقع فان هذ النص يصلح أن يكون مرثاة للأمل الضائع، والتمنيات الخاسرة.

وإذا كان ابن جبير قد مخر البحر من الشرق إلى الغرب ، فإن سلفا له هو الطرطوشي قد قام برحلة في البر الأوربي فقدم وصفا مبكّرا لمساره من الغرب إلى الشرق، إذ يخترق أوربا مارا

بوسطها في رحلة لاتدّخر وسعا في التفصيل بكل مايستحق الاهتمام. لم تحظ رحلة الطرطوشي بشهرة نظيراتها كرحلة ابن فضلان وابن بطوطة، لكنها مثل رحلة أبي دلف التي سنوردها فيما بعد تنطوي على ملاحظات قيّمة للأوضاع الإقتصادية والإجتماعية في أوربا،ملاحظات دقيقة تبدأ باقليم الباسك وتنتهي ببلاد الصقالبة ، ويعرّج في أثناء ذلك على كثير من المناطق والبلدان الأوربية. تكمن القيمة الفعلية لرحلة الطرطوشي في بُعدها الوثائقي الدقيق، واهتمامها بتفاصيل يجعلها مدونة ثرية لمعرفة قلب الشمال خلال القرن العاشر الميلادي.وهي تورد قوائم بأهم الأقوام والقبائل والملوك في ذلك القرن ،ومع أن البكري يمزج بين مرويات الطرطوشي وكتّاب آخرين كالمسعودي فأن النص يبقى محافظا على قيمته التاريخية التي تؤكدها نظرة الطرطوشي الخاصة لبلاد الشمال.

(١٧)

رحلة إبراهيم الطرطوشي في غرب أوروباووسطهاوشرقها

(عاش الطرطوشي في الأندلس خلال القرن ٤الهجري=١٠ الميلادي) وزار أوربا في حدود ٩٦٥م

أوردها البكري(توفي ٤٨٤هجري=١٠٩٤ ميلادي) في كتاب(المسالك والممالك)

جملة من القول في بلاد الجليقيّين

والإفرنج وغيرهم من قبائل النصارى إلى بلد الصقالبة

(قال إبراهيم: بلد الجلّيقيّين (=الباسك) سهل جميعه، والغالب على أرضهم الرمل، وأكثر قوتهم الدخن والذُّرة ومعوّلهم في الأشربة على شراب التفاح والبشكة، وهو شراب يتّخذ من الدقيق. وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق، لا يتنظّفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد. ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم، ويزعمون أن

الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تنعم به أجسامهم وتصح أبدانهم. وثيابهم أضيق الثياب وهي منفرجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم. ولهم بأس شديد، لا يرون الفرار عند اللقاء في الحرب ويرون الموت دونه.

بلاد إفرنجة

في وسط الإقليم الخامس، وهواؤها غليظ لشدة بردها، ومصيفها معتدل. وهو بلد كثير الفاكهة غزير الأنهار، منبعثة من ذوب الثلج. ومدائنه متقنة الأسوار محكمة البناء، وآخر حدودها بحر الشام، وحدُّه آخر البحر المحيط، البحر الشامي بقبلّيها والبحر المحيط بجوفيها. ويتصل ببلاد رومة أيضاً من ناحية الجوف بلاد الصقالبة بينهما شعراء ملتفّة، مسيرة الأيام الكثيرة، ويتّصل بالشرق أيضاً بالصقالبة ويتصل بالغرب بالبشكنس، ويتصل أيضا ببلاد بيوره وهم الذين يعرفون بالأمانيس، ولهم كلام غير كلام الإفرنج.

وتتمادى إفرنجة في الطول والعرض مسيرة شهرين مع غيرها من القبائل. ويحجز بين بلاد إفرنجة وبلد الصقالبة في الجوف والشرق الجبل المعترض بين البحرين، فيتمادى بلد الإفرنج مع ساحل البحر القبلي الشامي حتى يلتصق بجزيرة رومة وبلد لنقبرذية، ويتمادى مع الجبل المعترض في الجوف الى البحر المحيط. ويتصل بالصقالبة بلاد المجوس المعروفين بالإنقلش، وسيوف إفرنجية تفوق سيوف الهند.

ذكر بلد الإنقلش

وهم جنس من الأتراك نزلوا مصاقبين للصقالبة. وحدّ بلدهم في الغرب بلد بويرة وبلد بويصلاو. وفي الجوف منهم الرّوس وفي الشرق منهم البجناك وقفار لا تسكن، هي بين بلد البجناك وبين بلد البلقارين من الصقالبة،وفي القبلة بعض بلاد البلقارين ومسافة قفار لا تسكن.

وأما بلاد الروس فهم في جزيرة حواليها بحيرة، و طول جزيرتهم مسيرة خمسةأيام، وفيها مشاجر وغياض. وملكهم يقال له خاقان روس ؛ وهم في نحو مئة ألف إنسان. وهم يغزون الصقالبة في السفن. وبلقان تبع للروس وموافقون لهم. وليس للروس مزارع ولا كسب إلا

بسيوفهم.

وقيل: هم ثلاثة أصناف، صنف منهم ينزل ملكهم مدينة كودانية، وهي أقرب من بلقانة وهم أقرب الروس الى بلقان ؛ وصنف آخر يسمون الصلاوة ؛ وصنف ثالث يسمون الأوثانية، وملكهم مقيم بأوثان، والتجار إليهم لا يتجاوزون كويانة. فأما أوثان فلم يجد (=الطرطوشي) أحداً يخبر أنه دخلها لأنهم يقتلون كل من وطيء أرضهم من الغرباء، والله أعلم.

ذكر الصقالب

الصقالب من ولد ماذاي بن يافث، ومساكنهم من الشمال الى أن تتّصل بالمغرب.

قال إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي: بلاد الصقالب متّصل من البحر الشامي الى البحر المحيط الى الشمال ؛ فتغلّب قبائل الجوف(= الشمال)على بعضها وسكنوا حتى الآن فيما بينهم. وهم أجناس كثيرة مختلفة ؛ وقد كانوا فيما سلف يجمعهم ملك سمته ماخا، وكان من جنس منهم يدعى ولينانا. وهذا الجنس معظّم فيهم، ثم اختلفت كلمتهم فزال نظامهم وتحزّبت أجناسهم وملك كل جنس منهم ملك. وملوكهم الآن أربعة: ملك البلقارين (=البلغار)، وبويصلاو ملك فراغة وبويمة وكركوا (= بولسلاس الأول ملك براغ وبوهيميا وكراكاو في القرن العاشر) ومشقه ملك الجوف (=مسكو الأول ملك بولندا في القرن العاشر) ؛ وناقون في آخر الغرب(ناكون أمير القبائل التي استوطنت شمال المانيا في القرن نفسه).

وجاور بلد ناقون في آخر الغرب سكسون وبعض مرمان(=نورمان، وهم سكان البلاد الاسكندنافية) وبلده رخيصة الأسعار كثيرة الخيل، ومنها يخرج إلى غيرها. ولهم سلاح شاك من الدروع والبيضات(= الخوذ) والسيوف.

فمن فرغ إلى مايليه عشرة أميال إلى الجسر خمسون ميلا، وهو جسر من خشب، في طوله ميل. ومن الجسر إلى حصن ناقون نحو أربعين ميلاً، ويسمى غراد، وترجمته: الحصن الكبير. وفي قبل غراد حصن مبني في بحيرة عذبة الماء، وكذلك تبني الصقالبة أكثر

حصونهم. تعمد إلى المروج الكثيرة المياه والآجام فتخطّ فيه خطا مستديراً أو مربعاً قدر ما تريد من شكل الحصن وسعة ساحته، وتحفر حواليه وتردم بالتراب المحفور، وقد أوثق بالألواح والخشب على مثال الطوابي، حتى يبلغ السور إلى الغاية التي تريد. وتذرع له باباً من أي شقّ تشاء ويختلف إليه على جسر من خشب. ومن حصن غراد إلى البحر المحيط أحد عشر ميلا. ولا تنفذ العساكر في بلاد ناقون إلا بالجهد الشديد، لأن بلده كله متمرج وآجام وحمأة.

فأما بلد بويصلاو فطوله من مدينة فراغة إلى مدينة كركوا مسيرة ثلاث جمعات، وهو مجاوز في الطول لبلاد الأتراك. ومدينة فراغة مبنية بالحجر والجير، وهي أكثر البلاد متاجر، تأتيها من مدينة كركوا الروس والصقالبة بالمتاجر، ويأتيهم من بلاد الأتراك الإسلام واليهود والترك بالمتاجر أيضاً والمثاقيل المرقطية، فيحملون من عندهم الدقيق والقزدير وضروب الأوبار. وبلادهم أطيب بلاد أهل الجوف وأزكاها معيشة، يباع القمح عندهم بقنشار(=عملة) ما يكفي به المرء شهراً. ويباع الشعير بقنشار علف أربعين ليلة لدابة، ويباع عندهم عشر دجاجات بقنشار. وبمدينة فراغة تصنع السروج واللجم والدرق المستعملة والمتخذة في بلادهم.

ويصنع في بلاد بويمة (=بوهيميا وهي الأراضي الجيكوسلافاكية)منيدلات خفاف مهللة النسج على هيئة الشبكة لا تصلح لشيء. وثمنها عندهم في كل زمان عشرة مناديل بقنشار؛ بها يتبايعون ويتعاملون، يملكون منها الأوعية وهي عندهم مال. وأثمن الأشياء يبتاع بها، الحنطة والدقيق والخيل والذهب والفضة وجميع الأشياء. ومن العجيب أنّ أهل بويمة سمر سود الشعور، والشُّقرة فيهم قليلة.

والطريق من ماذن برغ (= مغد بورغ ، مدينة المانية) إلى بلاد بويصلاو ومنه إلى حصن قليوي عشرة أميال ومنه إلى نوب غراد ميلان. وهوحصن مبني بالحجارة والصاروج، وهو على نهر صلاوة وفيه يقع نهر بوده. ومن حصن نوب غراد إلى ملاحة اليهود –وهي على نهر صلاوة أيضاً – ثلاثون ميلاً، ومنها إلى حصن بورجين –وهي على نهر ملداوه – ومنه إلى

طرف الشعراء خمسة وعشرون ميلاً. ومن أولها إلى آخرها أربعون ميلاً، في جبال وأوعار ؛ ومنها إلى جسر من خشب، على حمأة، نحو الميلين ؛ ومن آخر الشعراء يدخل مدينة فراغة.

فأما بلد مشقه فهو أوسع بلادهم، وهو كثير الطعام واللحم والعسل والحرث. وجبايته المثاقيل المرقطية، وهي أرزاق رجاله في كل شهر، لكل واحد عدد معروف منها. وله ثلاثة آلاف درّاع، وهم أجناد تعدل المئة منهم عشر مئة من غيرهم ؛ ويعطي الرجال الملابس والخيل والسلاح وجميع ما يحتاجون إليه. وإذا ولد لأحدهم ولد أمر بإجراء الرزق عليه ساعة يولد ذكراً كان أو أنثى. فإذا بلغ،فإن كان ذكراً زوجه ودفع عنه النّحلة الى والد الجارية، وإن كانت أنثى أنكحها ودفع النحلة إلى أبيها. والنّحلة عند الصقالبة عظيمة، ومذهبهم فيها كمذهب البربر وإذا ولد للمرء ابنتان أو ثلاث فهن سبب غنائه ،وإن ولد له ولدان فهو سبب فقره.

ويجاور مشقه في الشرق الروس وفي الجوف بروس(= البروسيون) وسكنى بروس على البحر المحيط، ولهم لسان على حدة لا يعرفون ألسنة المجاورين لهم. وهم مشهورون في شجاعتهم، إذا أتاهم جيش لا يتوانى أحدهم حتى يلحق به صاحبه، وإنما يخرج لا يلوي على أحد، فيضرب بسيفه حتى يموت .ويغير عليهم الروس في المراكب من المغرب. وفي المغرب من الروس مدينة النساء، ولها بسائط ومماليك. وهن يحملن من عبيدهن، فإذا وضعت المرأة ذكراً قتلته ؛ ويركبن الخيل ويباشرن الحرب، ولهن بأس وبسالة. قال إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي: وخبر هذه المدينة حقٌّ أخبرني بذلك هوته(= امبراطور المانيا أوتو الأول) ملك الروم.

وفي الغرب من هذه المدينة قبيلة من الصقالبة يقال لها أمة ولتابه، وهي في غياض من بلاد مشقه مما يلي المغرب وبعض الجوف. ولهم مدينة عظيمة على البحر المحيط، لها إثنا عشر باباً ولها مرسى ؛ وهم يستعملون له شطوراً حرلاً. وهم يحاربون مشقه، وشوكتهم شديدة، وليس لهم ملك ولا يناقدون لأحد، وإنما الحكام فيهم أشياخهم.

فأما ملك البلقارين فقال إبراهيم بن يعقوب: لم أدخل بلده ولكني رأيت رسله بمدينة

ماذن برغ، حين وفدوا على هوته الملك يلبسون ملابس ضيقة ويتمنطقون بأحزمة طوال قد ركب عليها ترامس الذهب والفضة. وملكهم عظيم القدر يضع على رأسه التاج وله الكتاب والأزمّة وأصحاب الخطط وأمر ونهي على نظم وترتيب كالمعهود للملوك الأكابر. ولهم معرفة بالألسن ويترجمون الإنجيل باللسان الصقلبي، وهم نصارى.

قال إبراهيم بن يعقوب: وإنما تنصّر ملك البلقارين، وأغار على بلاد الروم وحاصر مدينة القسطنطينية ،حتى داراه ملكها وأرضاه بجزيل العطايا. وكان مما استرضاه به أن زوّجه ابنته فحملته على التّنصُّر.

قال المؤلف(=البكري): فيدلّ قول إبراهيم أن تنصره كان بعد ثلثمائة من الهجرة. وقال غيره إنّما تنصر منهم من تنصر على عهد بسليوس الملك وبقوا على نصرانيتهم الى اليوم.

قال إبراهيم: و القسطنطينية من بلقارين في القبلة وتجاورهم أيضاً في الشرق والجوف البجاناكية. وفي الغرب منها بحيرة بناجيه(=خليج البندقية) وهو خليج يخرج من البحر الشامي بين الأرض الكبيرة والقسطنطينية. فيحيط بالأرض الكبيرة سواحل رومة وسواحل لنقبردية(=لومبارديا (وينقطع باقولايه فتصير هذه المواضع كلها جزيرة واحدة قد أحاط بها البحر الشامي من القبلة وذراع بناجيه من جهة المشرق والجوف وبقي منها فتح من جهة المغرب. وتسكن حافتي هذا الخليج من مخرجه في المشرق من البحر الشامي الصقالبة؛ ففي الشرق منهم البلقارين وفي الغرب غيرهم من الصقالب. وهؤلاء الذين يسكنون في الغرب منه أشد بأساً؛ وأهل تلك الناحية يستأمنونهم ويتقون شدتهم. وبلادهم جبال شامخة وعرة المسالك.

وبالجملة فإن الصقالب ذوو صولة وبطش ولولا اختلافهم بكثرة تفرّع أعراقهم وتفرق أفخاذهم ما قامت لهم في الشدة أمة من الأمم. وسكنوا من البلدان أجزلها ريعاً وأكثرها أقواتاً، وهم يجتهدون في الفلاحة وطلب الأرزاق، ويفوقون في ذلك جميع أمم الجوف. وتختلف تجارتهم في البر والبحر الى الروس والقسطنطينية. وجلّ قبائل الجوف يتكلمون بالصقلبية لاختلاطهم بهم، منهم قبائل الطدشكيين(=قبائل المانية)

والأنقليين(الهنغاريون) والبجاناكية والروس والخزر. وليس يكون الجوع في بلدان الجوف كلها من القحط وتوالي الجدب، إنما يكون من كثرة الغيث وتوالي الجمّة(الفيضانات). ولا يكون المحل عندهم مهلكاً لأنه لا يتقيه من أصابه لرطوبة بلادهم وشدة بردها. وهم يزرعون في فصلين من العام، في القيظ والربيع، ويرفعون رفعين ؛ وأكثر زرعهم الدّخن.

والبرد فيهم سليم وإن تفاقم، والحر مهلك. وهم لا يقدمون على السفر الى بلاد لنقبردية لحرّها، لأن الحر يطغى عندهم فيهلكون. والسلامة عندهم إنما تكون فيما يكون فيه المزاج جامداً، فإذا انذاب وفار ذوي الجسد جاءه الموت من قبل ذلك. وتعمهم علّتان لا يكاد أحدهم يسلم من أحدهما، وهما ريحان: الحمرة والنواصير. وهم يجتنبون أكل الفراريج، فإنها تصرعهم بزعمهم ويقوي عليهم ريح الحمرة ؛ ويأكلون لحوم البقر والإوز فتلائمهم. وهم يلبسون الثياب الواسعة إلا أن أردان أكمامهم ضيقة. ويحجب ملوكهم نساءهم، ولهن غيرة شديدة عليهم. ويكون للرجل منهم عشرون زوجة فصاعداً. وأكثر أشجار شعابهم التفاح والإجاص والفرشك(=الخوخ). وفيها طائر غريب تعلوه خضرة، يحكي كلما يسمعه من أصوات الناس والدّواب ؛ وقد يوجد فيصيدونه، ويسمى بالصقلبية سبا. وفيها دجاج بريّة تسمى أيضاً بالصقلبية تترا، وهي طيبة اللحم، وتسمع أصواتها من أعالي الشجر على فرسخ وأكثرها صنفان: سود وموشّات، أجمل من الطواويس. ولهم ضروب من المزاهر والمزامير، ولهم مزمار طوله أكثر من ذراعين، ومزهر عليه من الأوتار ثمانية أوتار، وباطنه مسطح لا مقبّب. وأشربتهم وأنبذتهم العسل.

قال المسعودي: والصقالبة أجناس كثيرة ؛ فمن أجناسهم الصبرابه (=الصرب) ودولابه (=دولايه) ونامجين (= يرجح أنهم الألمان)، وهذا الجنس أشجعهم وأفرسهم ؛ وجنس يقال له سرنين، وهو عندهم مهيب ؛ وجنس يقال له مزاره(= المورافيون) وحيرواس (=الكروات) وصاصين وحشيابين. ومن هذه الأجناس ما هو ينقاد إلى دين النصرانية على مذهب اليعقوبية ؛ ومنهم من لا كتاب له ولا ينقاد إلى شريعة، وهم جاهلية، وجنس الملك من هؤلاء. والجنس الذي ذكرنا أنه يدعى سرنين، يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات رئيسهم،

ويحرقون دوابهم. ولهم أفعال مثل أفعال الهند. وهم يتصلون بالشرق ويبعدون من الغرب. وهم يطربون ويفرحون عند حرق الميت، ويزعمون أن سرورهم وأطرابهم لرحمة ربه إيّاه ونساء الميت يقطعن أيديهن ووجوههن بالسكاكين.

وإذا زعمت واحدة منهن أنها محبة له علقت حبلاً وارتقت إليه على كرسي فتشتد به في عنقها ثم يجذب الكرسي من تحتها فتبقى معلّقة تضطرب حتى تموت ثم تحرق وتلحق بزوجها. ونساؤهم إذا نكحن لم يفجرن، إلا أن البكر إذا أحبت رجلاً صارت إليه وأقامت عنده شهوتها، فإذا تزوجها الزوج فوجدها عذراء قال لها: " لو كان فيك خيراً لرغب فيك الرجال ولاخترت لنفسك من يأخذ عذرتك " فيرسلها ويبرأ منها.

وبلاد الصقالبة أشد البلاد برداً، وأقوى ما يكون ذلك عندهم إذا أقمرت الليالي وأصحت الأيام، فحينئذ يشتد البرد ويقوى الجمد فتتحجر الأرض وتجمد الأشربة كلها وتتقرمد البئر والحياض حتى تأتي كالحجارة. وإذا استنثر الناس على لحاهم صفائح الجمد يكون كالزجاج فيعسر تكسّره حتى يصطلى أو يدخل كنّاً. وإذا كان الليل مظلماً والنهار مغيّماً فحينئذ ينجلي الضّريب(= الثلج) ويفتر البرد. وفي هذا الوقت تنكسر السفن ويهلك من فيها، لأنه يواجهها من جليد أنهار هذه البلاد قطع كالجبال الرواسي. وربما ظفر من تلك القطعة الشابّ والجلد من الرجال فيسلم عليها.

وليس لهم حمّامات وإنما يتّخذون بيوتاً من خشب ويسد خصاصه بشيء يتكون على أشجارهم يشبه الطحلب ويسمونه مخ، وهو مقام الزّفت لسفنهم. ويبنون كانوناً من حجارة في إحدى زواياه ويفتحون في أعلاه روزنة تلقاءه، لخروج دخانه، فإذا سخن سدّوا تلك الروزنة وأغلقوا باب البيت، وفيه مناصب الماء، وصبوا من ذلك الماء على الكانون المحتمي، وترتفع أبخرته ؛ ويكون بيد كل واحد منهم ضغث من حشيش يحرك به الهواء ويجذبه إلى نفسه فتنفتح مسامهم ويخرج فضول أجسامهم فتجري منهم السيول. ولا يكون على أحدهم أثر جرب ولا قرح. وهم يسمون هذا البيت الأطبّا.

وملوكهم يسافرون بالعجل العظام العالية الجارية على أربعة أفلاك وقوائم. في زواياها

أربعة أعمدة وثيقة وعلّق منها هودج بسلاسل حصينة وكُسي بالديباج فلا يتقلقل الجالس فيه تقلقل العجلة، يعدّونه أيضاً للمرضى والجرحى. والصقالبة تحارب الروم والإفرنج والنوكبرد(= اللومبارديون) وغيرهم من الأمم، والحرب بينهم سجال.

ذكر بلاد الروم وجمل من أخبارهم

كانت رومة دار مملكتهم ونزلها من ملوكهم تسعة وعشرون ملكاً،ثم نزل بعمّورية منهم ملكان، ثم انتقلت مملكتهم إلى رومة فنزلها ملكان ثم ملك بها قسطنطين الأكبر فانتقل إلى بزنطية وبنى عليها سوراً وسماها القسطنطينية. ولها نحو مائة باب، وطولها من الباب الشرقي إلى الباب الغربي ثمانية وعشرون ميلاً، وقيل اثني عشر فرسخاً في مثلها. وفرسخهم ميل ونصف. بها قصر الملك ،ويحيط به سور منيف، وعلى مقربة منه كنيسة الملك، لها عشرة أبواب، أربعة منها ذهب وستة من فضة. وفي المقصورة التي يصلي فيها الملك موضع أربعة أذرع في اربعة أذرع مرصّع بالدّر والياقوت والأرقنا، آلة من خشب مربعة على هيئة المعصرة يغشى بأدم وثيق تجعل فيه ستون أنبوبة قد غشيت تلك الأنابيب بالذهب دون الأدم، لا يتبين منها إلا اليسير. وهي على مقادير مختلفة في الطول ليست متساوية. وتوضع ثلاثة صلبان فوق الآلة: صليب في طرفها وصليب في وسطها وصليب على الطرف الثاني، وفي جانب هذه الآلة المربعة ثقب يجعل فيه منفخ مثل كور الحدادين ورجلان يغانيان ذلك المنفخ لا يفتران، ويقوم الأستاذ فيحسب على تلك الأنابيب. وهذه الآلة من أجلّ ما عندهم، تسمع منها أصوات غريبة مطربة ومحزنة. وملوكهم لا يستغنون عنها في أكثر أحوالهم، وهي من الغريب المتعذر، والله أعلم.

وإذا أراد الملك الخروج إلى هذه الكنيسة العظمى فرش له طريقه، من باب القصر الى الكنيسة، حصر وفوق الحُصر ضروب الرياحين الطيبة وتزين حوز المدينة، يمنة ويسرة، بالديباج وضروب ثياب الحرير. ويخرج بين يديه عشرة آلاف شيخ عليهم كلهم ديباج أبيض ثم يخرج بعدهم عشرة آلاف خادم عليهم ديباج في لون السماء، في أيديهم الطبرزينات الملبسة بالذهب ؛ ثم يخرج بعدهم خمسة آلاف من فتيان الصقالبة أوساط،

عليهم ملاحم خراسانيات بيض، بأيديهم كلهم صلبان الذهب. ثم يخرج من بعدهم عشرة آلاف غلام أتراك وخزر عليهم أقبية مذهبة وبأيديهم رماح وأترسة ملبسة بالذهب. ثم يخرج بعدهم مئة بطريق عليهم ثياب منسوجة بالذهب في يد كل واحد منهم قضيب من ذهب. ثم يخرج مئة غلام عليهم ثياب مشهورة مرصعة باللؤلؤ يحملون تابوتاً من ذهب فيه كسوة الملك لصلاته. ثم يخرج رجل بين يديه يقال له الرّحوم، يسكت الناس، ثم يخرج شيخ بيده طست وإبريق من ذهب مرصعان بالدر والياقوت. ثم يخرج الملك ماشياً وعليه ثياب الأكسيمون، وهي ثياب من الإبريسم منسوجة بالجوهر كلها، وخفه مرصع بالدر والياقوت. وفي يد الملك حقّ من ذهب فيها تراب، وكلما خطا خطوة يقول له الوزير بلسانهم: "من رمونت انبابطر" ؛ تفسيره: " إذكر الموت والبلى " . فإذا قال له ذلك وقف الملك وفتح الحق ونظر الى التراب وقبّله وبكى. فيسير كذلك حتى ينتهي إلى باب الكنيسة، فيقدم الرجل الطست والإبريق فيغسل الملك يده ويقول الوزير: " إني بريء من دماء الناس كلهم، والله لا يسالني عن دمائهم، وإني قد جعلتها في عنقك " ، ويخلع ثيابه التي عليه على وزيره، ويقول له: " دن بالحق " ، ويأمر فيه أن يدورعلى أسواق القسطنطينية، ويقال له: " دن بالحق كما قال لك الملك " . ويلبس الملك الثياب التي يدخل بها الكنيسة ؛ ويأمر بإدخال أسارى المسلمين الكنيسة فينظرون إلى تلك الزينة فينادون: "أطال الله بقاء الملك سنين كثيرة " . يقولون ذلك ثلاث مرات. ويساق خلف الملك ثلاث من الخيل تقاد ولا يركبونها، (=يقال إنها من نسل خيل كانت للإسكندر وتوارثها ملوك اليونانيين ثم ملوك الروم، لما غلبوا على المملكة)، عليها سروج قرابيسها من الزمرد الأخضر والياقوت الأحمر وركبها وألبابها وما اتصل بها مرصع من الحجارة بمثل ذلك.

قال أبو سعيد الفارقي: رأيتهم يحملون بين يدي الملك سيوفاً عدة تشبه التي للإسكندر؛ طول كل سيف ثمانية أشبار، وهي مرصعة كلها بنفيس الجوهر. فإذا انقضت نواميس شرعهم عاد الملك، على الهيئة الأولى، إلى قصره. وباب الذهب منها في الجانب الجنوبي، ومنه يأخذ إلى رومية .وفيها عجائب يكاد السامع ألا يقبلها، وفيها من الذهب والجواهر في

أبوابها وأسرتها وجميع أمورها.

رومة

ومدينة رومة في سهل من الأرض يحيط بها على بعد. والمطل عليها منها جبل عوديه، بينه وبينها ستة أميال. ودور مدينة رومة أربعون ميلاً وقطرها اثنا عشر ميلاً؛ يشقها نهر يسمى تيتوش، وينقسم قسمان ثم يلتقيان في آخرها. وفي وسط مدينة رومة حصن يقال له منت أرقوط في صخرة مرتفعة منيعة، ولم يطف بهذا الحصن عدو قط.

ورومة قد تغلّب عليها مرات. وبين رومة والبحر الشامي اثنا عشر ميلاً، وكذلك بينها وبين البحر الجوفي. وأهل مدينة رومة أحسن خلق الله وجوهاً؛ ويدبر أمرهم برومة البابه. ويجب على كل ملك من ملوك النصارى إذا اجتمع بالبابه أن ينبطح على الأرض بين يديه، فلا يزال يقبّل رِجل البابه ولا يرفع رأسه حتى يأمره البابه بالقيام. وكانت رومة القديمة تسمى رومة باليه أي "عجوز". وكان النهر يعترضها فبنى يوانش الأسقف خلف الوادي مدينة أخرى فلذلك صار النهر يشقها فلَبن الضفة والضفة بالقزدير والرصاص وأُلبنت حيطانه بمثل ذلك. وفي داخل مدينة رومة كنيسة شانتاباطر(= القديس بطرس) وفيها صورة قارله من ذهب بلحيته وجميع هيئته وهو في خلق عبوس، قد رفع عن الأرض في خشبة مصلوباً. وفي وسط الكنيسة صورة أخرى لبعض ملوكهم من ذهب أيضاً. ولهذه الكنيسة أربعة أبواب من فضة، سبكاً واحداً، كلها مسقفة بقراميد الصفر، ملصقة بالقزدير. وحيطانها كلها نحاس أصفر رومي، وأعمدتها وأساطينها من بيت المقدس، وهي في غاية من الحسن والجمال. ويزان في هذه الكنيسة مخلبان من مخالب العنقاء، وهم يسمونها الغديقة، طول كل مخلب منها عشر شبراً. وداخل هذه المدينة بيت مبني باسم باطوش وبولش (= القديسان بطرس وبولص) الحواريين. وطول هذه الكنيسة ثلثمائة ذراع وسمكها مئة وخمسون ذراع.

ذكر شيء من سير الروم وأخبارهم ومذاهبهم

أهل رومة أجمعون يحلقون لحاهم كلها ويحلقون أوساط هامهم ويزعمون أن كل من لم يحلق لحيته لم يكن نصرانياً خالصاً. ويقول علماؤهم إن سبب ذلك: أنه لما جاءهم

شمعون الصفا(= واحد من الأسباط الاثني عشر) والحواريون، وهم قوم مساكين ليس بيد كل واحد منهم إلا عصا وجراب، قالوا: ونحن ملوك نلبس الديباج ونجلس على كراسي الذهب، فدعونا إلى النصرانية فلم نجبهم وأخذناهم وعذبناهم وحلقنا رؤسهم ولحاهم، فلما ظهر لنا صدق قولهم حلقنا لحانا كفارة لما ركبنا من حلق لحاهم. وإنما صار النصارى يعظمون يوم الأحد لأن النصارى يزعمون أن المسيح قام في القبر ليلة الأحد وارتفع إلى السماء ليلة الأحد، بعد إجتماعه بالحواريين. وهم لا يرون الغسل من الجنابة ولا وضوء عندهم للصلاة، إنما عبادتهم النية، ولا يأخذون القربان حتى يقولوا هذا لحمك ودمك، يريدون المسيح، وليس بخمر ولا خبز. والسكر عندهم حرام، ولا يتكلم أحد إذا أخذ القربان حتى يغسل فمه، وإذا تقربوا قبّل بعضهم بعضاً وعانقه. ولا يتزوج أحد منهم أكثر من إمرأة واحدة ولا يتنزّى عليها، فإذا زنت باعها. وليس لهم طلاق، ويورثون النساء جزءين والرجال جزء. ومن سنتهم ألا يلبس الخفاف الحمر إلا ملك ؛ وهم يخففون في الحكم على الشريف ويثقلون على الوضيع حتى يبلغ به البيع. ومن أحكامهم أن من زنى بأمَةِ غيره في دار سيدها فعليه حدّ معروف، وإن زنى بها خارج الدار فلا شيء عليه، كأنه لم يأت ريبة .ومن أولد عندهم فولده زنيم منها ولا يجوز لذلك الولد عندهم رتبة كرتب القسيسية، ولا يرث أباه إذا كان له ولد من حرة ؛ وولد الحرة يحيط بميراثه وإن لم يكن له ولد غير ولد الأمَة ورثه.

وهم يفطرون في صومهم يومين من كل جمعة، وهما يوم السبت ويوم الأحد. وأمر الصوم عندهم خفيف، ليس بالشديد اللزوم، وإنما أصله عندهم الصوم الذي صامه المسيح، بزعمهم إستدفاعاً لإبليس، وكان صومه أربعين يوماً كاملاً موصولة بلياليها في قولهم ؛ وهم لا يصومون يوماً كاملاً ولا ليلة كاملة، ومن منهم بين المسلمين يؤخر الفطر حياء منهم. وهم في موضع مملكتهم لا يصومون إلاّ نصف النهار أو نحوه. والمواظب منهم للصلاة والجماعات من شهد الكنيسة يومَ الأحد وليلته وأيام القرابين السبعة ولو غاب عنها عمرة كله لم يطعن بذلك عليه طاعن ولا عابه عائب. وليس يشتمل ديوان النصارى، الذي هو

ديوان فقههم وكنز علمهم وعليه معوّلهم في احكامهم واعتمادهم في شرائعهم، إلا على خمسمائة وسبع وخمسين مسئلة ؛ ومن هذه المسائل –على قلتها – مسائل موضوعة لا معنى لها ولا حاجة بهم الى تفسيرها، لم تقع في سالف الزمن ولا يقع في غابره. وليست سنّتهم مأخوذة من تنزيل ولا رواية عن نبي، وإنما جميعها عن ملوكهم. وأيمانهم، التي لا يعدونها، بالله الذي لا يعبد غيره ولا يدان إلا له وإلا فخلع النصرانية وبريء من المعمودية وطرح على المذبح حيضة يهودية وإلا فلعنه البطريق الأكبر والشمامسة (=الخدم الكنسيون) والديرانيون وأصحاب الصوامع ومقرِّبة القربان والأميري من الثلثمائة والثمانية عشر أسقفاً الذين خرجوا من بيوتهم حتى أقاموا دين النصرانية وإلا مُشق الناقوس وطبخ به لحم جمل وأكله يوم الإثنين مدخل الصوم وإلا فلقي الله بعمل اسحاق طهربا اليهودي.)

نصل الآن الى مايمكن اعتباره اكثر الرحلات شهرة إلى بلاد الشمال، رحلة ابن فضلان التي انطلق فيها من بغداد ليصل روسيا شاقا طريقا متعرّجا وصعبا. ومع انه لايعلم أحد بالضبط إلى أين انتهى ابن فضلان، لأن النص عرّض للتخريب، بعد ان كان معروفا إلى زمن ياقوت الحموي في القرن الثاني عشر الميلادي– كما أشرنا في البحث التمهيدي لهذا الكتاب –فإن كثيرا من التفسيرات ترجّح أنه بلغ البلاد الإسكندنافية، لكنّ وصفه لشرق اوربا وشمالها يعتبر تاريخا اجتماعيا أصيلا في وقت كانت فيه الأقوام التي تستوطنها مازال معظمها وثنيا في القرن العاشر الميلادي. وكما سيتضح فإن ملاحظات ابن فضلان ثرية ومتنوعة، وتكشف الأنساق الثقافية والاجتماعية والدينية للشعوب الشمالية في ذلك الوقت.

(١٨)

رحلة ابن فضلان الى بلاد الشمال
وهي في وصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة
(مبعوث الخليفة العباسي المقتدر الذي حكم
من٢٩٥-٣٢٠هجرية=٩٠٧-٩٣٢ميلادي إليبلاد الصقالبة بُعث
عام٣٠٩هجري=٩٢١ ميلادي، ولايعرف تاريخ العودة)

(قال أحمد بن فضلان :

لما وصل كتاب المش بن يلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام ويبني له مسجدا وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له فأجيب إلى ما سأل من ذلك .

وكان السفير له نذير الحرمي فندبت أنا لقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدى إليه والإشراف على الفقهاء والمعلمين وسبب له بالمال المحمول إليه لبناء ما ذكرناه وللجراية على الفقهاء والمعلمين على الضيعة المعروفة بأرثخشمثين من أرض خوارزم من ضياع ابن الفرات(= في بلاد تركستان)

وكان الرسول إلى المقتدر من صاحب الصقالبة رجل يقال له عبد الله بن باشتو الخزري (=سفير الصقالبة في بغداد) والرسول من جهة السلطان(=سلطان خراسان) سوسن الرسي مولى نذير الحرمي وتكين التركي وبارس الصقلابي(= من رجال الخليفة المقتدر) وأنا معهم على ما ذكرت فسلمت إليه الهداياله ولامرأته ولأولاده واخوته وقواده وأدوية كان كتب إلى نذير يطلبها.

العجم والأتراك

فرحلنا من مدينة السلام يوم الخميس لأحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع

وثلاثمئة (= حزيران/ يونيو ٩٢١م) فأقمنا بالنهروان يوما واحدا ،ورحلنا مجدين حتى وافينا الدسكرة، فأقمنا بها ثلاثة أيام ،ثم رحلنا قاصدين لا نلوي على شيء ،حتى صرنا إلى حلوان فأقمنا بها يومين ، وسرنا منها إلى قرميسين(= كرمنشاه) فأقمنا بها يومين، ثم رحلنا فسرنا حتى وصلنا إلى همذان فأقمنا بها ثلاثة أيام . ثم سرنا حتى قدمنا ساوة(=بين همذان والري) فأقمنا بها يومين ومنها إلى الري فأقمنا بها أحد عشر يوما ننتظر أحمد بن علي أخا صعلوك لأنه كان بخوار الري .

ثم رحلنا إلى خوار الري فأقمنا بها ثلاثة أيام ثم رحلنا إلى سمنان ثم منها إلى الدامغان وصادفنا بها ابن قارن من قبل الداعي فتنكرنا في القافلة ،وسرنا مجدين حتى قدمنا نيسابور، وقد قتل ليلى بن نعمان، فأصبنا بها حمويه كوسا صاحب جيش خراسان ، ثم رحلنا إلى سرخس ومنها إلى مرو (= أحدى مدن خراسان) منها إلى قشمهان وهي طرف مفازة آمل، فأقمنا بها ثلاثة أيام نريح الجمال لدخول المفازة . ثم قطعنا المفازة إلى آمل ثم عبرنا جيحون وصرنا إلى آفرير رباط طاهر بن علي . ثم رحلنا إلى بيكند ثم دخلنا بخارا (= مشهورة تقع حاليا في أوزبكستان) وصرنا إلى الجيهاني وهو كاتب أمير خراسان وهو يدعى بخراسان الشيخ العميد فتقدم بأخذ دار لنا، وأقام لنا رجلا يقضي حوائجنا ويزيح عللنا في كل ما نريد فأقمنا أياما .ثم استأذن لنا على نصر بن أحمد فدخلنا إليه ،وهو غلام أمرد فسلمنا عليه بالإمرة، وأمرنا بالجلوس. فكان أول ما بدأنا به أن قال:" كيف خلفتم مولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وسلامته في نفسه وفتيانه وأوليائه؟" فقلنا :"بخير" قال: "زاده الله خيرا" .

ثم قرئ الكتاب عليه بتسلم أرثخشمثين من الفضل بن موسى النصراني وكيل ابن الفرات وتسليمها إلى أحمد بن موسى الخوارزمي وإنفاذنا والكتاب إلى صاحبه بخوارزم بترك العرض لنا والكتاب بباب الترك ببذرقتنا وترك العرض لنا. فقال :"وأين حمد بن موسى؟" فقلنا :"خلفناه بمدينة السلام ليخرج خلفنا لخمسة أيام" فقال:" سمعا وطاعة لما أمر به مولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه" .

قال :واتصل الخبر بالفضل بن موسى النصراني وكيل ابن الفرات فأعمل الحيلة في أمر أحمد بن موسى ،وكتب إلى عمال المعاون بطريق خراسان من جند سرخس إلى بيكند : " أن أذكوا العيون على أحمد بن موسى الخوارزمي في الخانات والمراصد، وهو رجل من صفته ونعته فمن ظفر به فليعتقله إلى أن يرد عليه كتابنا بالمسألة" فأُخذ بمرو وأعتُقل

وأقمنا نحن ببخارا ثمانية وعشرين يوما، وقد كان الفضل بن موسى أيضا واطأ عبد الله بن باشتو وغيره من أصحابنا يقولون : " إن أقمنا هجم الشتاء وفاتنا الدخول وأحمد بن موسى إذا وافانا لحق بنا" .

قال ورأيت الدراهم ببخارا ألوانا شتى ؛منها دراهم يقال لها الغطريفية وهي نحاس وشبه وصفر، يؤخذ منها عدد بلا وزن مئة منها بدرهم فضة .وإذا شروطهم في مهور نسائهم تزوج فلان ابن فلان فلانة بنت فلان على كذا وكذا ألف درهم غطريفية، وكذلك أيضا شراء عقارهم وشراء عبيدهم لا يذكرون غيرها من الدراهم ولهم دراهم أخر صفر وحده أربعون منها بدانق ولهم أيضا دراهم صفر يقال لها السمرقندية ستة منها بدانق

فلما سمعت كلام عبد الله بن باشتو وكلام غيره يحذرونني من هجوم الشتاء، رحلنا من بخارا راجعين إلى النهر فتكارينا سفينة إلى خوارزم والمسافة إليها من الموضع الذي اكترينا منه السفينة أكثر من مئتي فرسخ، فكنا نسير بعض النهار ولا يستوي لنا سيره كله من البرد وشدته إلى أن قدمنا خوارزم، فدخلنا على أميرها محمد بن عراق خوارزم شاه فأكرمنا وقربنا وأنزلنا دارا .

فلما كان بعد ثلاثة أيام أحضرنا وناظرنا في الدخول إلى بلد الترك وقال: " لا آذن لكم في ذلك، ولا يحل إلي ترككم تغررون بدمائكم ،وأنا أعلم أنها حيلة أوقعها هذا الغلام" يعني تكين" لأنه كان عندنا حدادا وقد وقف على بيع الحديد ببلد الكفار ،وهو الذي غرّ نذيرا وحمله على كلام أمير المؤمنين ،وإيصال كتاب ملك الصقالبة إليه،، والأمير الأجل "يعني أمير خراسان" كان أحق بإقامة الدعوة لأمير المؤمنين في ذلك البلد، لو وجد محيصا. ومن بعد فبينكم وبين هذا البلد الذي تذكرون ألف قبيلة من الكفار، وهذا تمويه على السلطان.

وقد نصحتكم، ولا بد من الكتاب إلى الأمير الأجل حتى يراجع السلطان أيده الله في المكاتبة وتقيمون أنتم إلى وقت يعود الجواب " .

فانصرفنا عنه ذلك اليوم ،ثم عاودناه ،ولم نزل نرفق به ونقول :" هذا أمر أمير المؤمنين وكتابه فما وجه المراجعة فيه "حتى أذن لنا ،فانحدرنا من خوارزم إلى الجرجانية وبينها وبين خوارزم في الماء خمسون فرسخا.

ورأيت دراهم خوارزم مزيفة ورصاصا وزيوفا وصفرا، ويسمون الدرهم طازجة ووزنه أربعة دوانيق ونصف. والصيرفي منهم يبيع الكعاب والدوامات والدراهم . وهم أوحش الناس كلاما وطبعا كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير وبها قرية على يوم يقال لها أردكو أهلها يقال لهم الكردلية كلامهم أشبه شيء بنقيق الضفادع ،وهم يتبرؤون من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في دبر كل صلاة .

فأقمنا بالجرجانية أياما وجمد نهر جيحون من أوله إلى آخره ،وكان سمك الجمد سبعة عشر شبرا ،وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق، وهو ثابت لا يتخلخل .فأقام على ذلك ثلاثة أشهر ، فرأينا بلدا ما ظننا إلا أن بابا من الزمهرير قد فتح علينا منه، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة. وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه وأراد بره قال له :"تعال إلي حتى نتحدث، فإن عندي نارا طيبة" هذا إذا بالغ في بره وصلته إلا أن الله تعالى قد لطف بهم في الحطب وأرخصه عليهم حمل عجلة من حطب الطاغ بدرهمين من دراهمـــهم تكون زهاء ثلاثة آلاف رطل. ورسم سؤالهم أن لا يقف السائل على الباب بل يدخل إلى دار الواحد منهم فيقعد ساعة عند ناره يصطلي ثم يقول :" بكند "يعني "الخبز" فإن أعطوه شيئا أخذ وإلا خرج .

وتطاول مقامنا بالجرجانية، وذلك أنا أقمنا بها أياما من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال؛ وكان طول مقامنا من جهة البرد وشدته. ولقد بلغني أن رجلين ساقا اثني عشر جملا ليحملا عليها حطبا من بعض الغياض فنسيا أن يأخذا معهما قداحة وحراقة وأنهما باتا بغير نار فأصبحا والجمال موتى لشدة البرد ، ولقد رأيت لهواء بردها بأن السوق بها

والشوارع لتخلو حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحدا ولا يستقبله إنسان .ولقد كنت أخرج من الحمام ،فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي، وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار، ولقد كنت أنام في بيت جوف بيت وفيه قبة لبود تركية، وأنا مدثر بالأكسية والفرى فربما التصق خدي على المخدة. ولقد رأيت الجباب بها تكسي البوستينات (=عباءات جلدية) من جلود الغنم لئلا تتشقق وتنكسر فلا يغني ذلك شيئا . ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد ،وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك .

فلما انتصف شوال من سنة تسع وثلاثمئة ،أخذ الزمان في التغي،ر وانحل نهر جيحون ، وأخذنا نحن فيما نحتاج إليه من آلة السفر، واشترينا الجمال التركية، واستعملنا السفر من جلود الجمال لعبور الأنهار التي نحتاج أن نعبرها في بلد الترك، وتزودنا الخبز والجاورس (=الجريش) والنمكسوذ (= اللحم المقدّد) لثلاثة أشهر.

وأمرنا من كنا نأنس به من أهل البلد بالاستظهار في الثياب والاستكثار منها، وهولوا علينا الأمر ،وعظموا القصة فلما شاهدنا ذلك كان أضعاف ما وصف لنا، فكان كل رجل منا عليه قرطق(=معطف) وفوقه خفتان (=قفطان) وفوقه بوستين وفوقه لبادة وبُرنس لا تبدو منه إلا عيناه وسراويل طاق ،وآخر مبطن وران وخف كيمخت(=حذاء من جليد سميك) وفوق الخف خف آخر، فكان الواحد منا إذا ركب الجمل لم يقدر أن يتحرك لما عليه من الثياب.

وتأخر عنا الفقيه والمعلم والغلمان الذين خرجوا معنا من مدينة السلام فزعا من الدخول إلى ذلك البلد، وسرت أنا والرسول وسلف له والغلامان تكين وبارس، فلما كان في اليوم الذي عزمنا فيه على المسير قلت لهم :"يا قوم معكم غلام الملك وقد وقف على أمركم كله، ومعكم كتب السلطان، ولا أشك أن فيها ذكر توجيه أربعة آلاف دينار المسيبية له، وتصيرون إلى ملك أعجمي فيطالبكم بذلك" فقالوا :"لا تخش من هذا فإنه غير مطالب لنا "فحذرتهم وقلت:" أنا أعلم أنه يطالبكم" فلم يقبلوا .

واستدف (= استقام) أمر القافلة واكترينا دليلا يقال له قلواس من أهل الجرجانية ،ثم توكلنا على الله عز وجل وفوضنا أمرنا إليه. ورحلنا من الجرجانية يوم الاثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمئة ،فنزلنا رباطا يقال له" زمجان" وهو بباب الترك ،ثم رحلنا من الغد فنزلنا منزلا يقال له" جيت" وجاءنا الثلج حتى مشت الجمال إلى ركبها فيه، فأقمنا بهذا المنزل يومين.

ثم أوغلنا في بلد الترك لا نلوي على شيء، ولا يلقانا أحد في برية قفر بغير جبل فسرنا فيها عشرة أيام ،ولقد لقينا من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف ،ونسينا كل ما مر بنا، وأشرفنا على تلف الأنفس . ولقد أصابنا في بعض الأيام برد شديد. وكان تكين يسايرني وإلى جانبه رجل من الأتراك يكلمه بالتركية فضحك تكين وقال :"إن هذا التركي يقول لك أي شيء يريد ربنا منا هو ذا يقتلنا بالبرد، ولو علمنا ما يريد لرفعناه إليه" فقلت له :"قل له يريد منكم أن تقولوا لا إله إلا الله "فضحك وقال:" لو علمنا لفعلنا" .

ثم صرنا بعد ذلك إلى موضع فيه من حطب الطاغ شيء عظيم، فنزلناه، وأوقدت القافلة واصطلوا ونزعوا ثيابهم وشرّورها .ثم رحلنا فما زلنا نسير في كل ليلة من نصف الليل إلى وقت العصر أو إلى الظهر بأشد سير يكون وأعظمه ،ثم ننزل. فلما سرنا خمس عشرة ليلة وصلنا إلى جبل عظيم كثير الحجارة وفيه عيون تنجرف عبره وبالحفرة تستقر الماء، فلما قطعناه أفضينا إلى قبيلة من الأتراك يعرفون بالغزية(=قبائل انتشرت بين الفولغا والدانوب) وإذا هم بادية لهم بيوت شعر يحلون ويرتحلون ترى منهم الأبيات في كل مكان ومثلها في مكان آخر على عمل البادية وتنقلهم وإذا هم في شقاء، وهم مع ذلك كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين ولا يرجعون إلى عقل ولا يعبدون شيئا بل يسمون كبراءهم أربابا فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له :"يا رب إيش أعمل في كذا وكذا" وأمرهم شورى بينهم غير أنهم متى اتفقوا على شيء وعزموا عليه جاء أرذلهم وأخسهم فنقض ما قد أجمعوا عليه، وسمعتهم يقولون" لا إله إلا الله محمد رسول الله "تقربا بهذا القول إلى من

يجتاز بهم من المسلمين لا اعتقادا لذلك، وإذا ظلم أحد منهم أو جرى عليه أمر يكرهه رفع رأسه إلى السماء وقال "بير تنكري "وهو بالتركية" الله الواحد "لأن بير بالتركية واحد وتنكري الله بلغة الترك ولا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك، وليس بينهم وبين الماء عمل خاصة في الشتاء، ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم كذلك لا تستر المرأة شيئا من بدنها عن أحد من الناس .

ولقد نزلنا يوما على رجل منهم فجلسنا وامرأة الرجل معنا فبينا هي تحدثنا إذ كشفت فرجها وحكته ونحن ننظر إليها فسترنا وجوهنا وقلنا" أستغفر الله" فضحك زوجها وقال للترجمان "قل لهم تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه فلا يوصل إليه هو خير من أن تغطيه وتمكّن منه" . وليس يعرفون الزنا ،ومن ظهروا منه على شيء من فعله شقوه بنصفين؛ وذلك أنهم يجمعون بين أغصان شجرتين ثم يشدونه بالأغصان ويرسلون الشجرتين فينشق الذي شد إليهما .

وقال بعضهم وسمعني أقرا قرآنا فاستحسن القرآن وأقبل يقول للترجمان قل له" لا تسكت "وقال لي هذا الرجل يوما على لسان الترجمان" قل لهذا العربي ألربنا عز وجل امرأة "فاستعظمت ذلك وسبحت الله ،واستغفرته فسبح واستغفر كما فعلت، وكذلك رسم التركي كلما سمع المسلم يسبح ويهلل قال مثله.

ورسوم تزويجهم وهو أن يخطب الواحد منهم إلى الآخر بعض حرمه إما ابنته أو أخته أو بعض من يملك أمره على كذا وكذا ثوب خوارزمي فإذا وافقه حملها إليه، وربما كان المهر جمالا أو دواب أو غير ذلك .وليس يصل الواحد إلى امرأته حتى يوفي الصداق الذي قد وافق وليها عليه، فإذا وفاه إياه جاء غير محتشم حتى يدخل إلى المنزل الذي هي فيه فيأخذها بحضرة أبيها وأمها وإخوتها فلا يمنعونه من ذلك . وإذا مات الرجل وله زوجة وأولاد تزوج الأكبر من ولده بامرأته إذا لم تكن أمه ولا يقدر أحد من التجار ولا غيرهم أن يغتسل من جنابة بحضرتهم إلا ليلا من حيث لا يرونه وذلك أنهم يغضبون ويقولون هذا يريد أن يسحرنا لأنه قد تفرس في الماء ويغرمونه مالا .

ولا يقدر أحد من المسلمين أن يجتاز ببلدهم حتى يجعل له منهم صديقا ينزل عليه ويحمل له من بلد الإسلام ثوبا ولامرأته مقنعة وشيئا من فلفل وجاورس وزبيب وجوز، فإذا قدم على صديقه ضرب له قبة وحمل إليه من الغنم على قدره حتى يتولى المسلم ذبحها؛ لأن الترك لا يذبحون وإنما يضرب الواحد منهم رأس الشاة حتى تموت. وإذا أراد الرجل منهم الرحيل وقد قام عليه شيء من جماله ودوابه أو احتاج إلى مال ترك ما قد قام عند صديقه التركي ،وأخذ من جماله ودوابه وماله حاجته ورحل فإذا عاد من الوجه الذي يقصده قضاه ماله ورد إليه جماله ودوابه. وكذلك لو اجتاز بالتركي إنسان لا يعرفه ثم قال أنا ضيفك وأنا أريد من جمالك ودوابك ودراهمك دفع إليه ما يريد، فإن مات التاجر في وجهه ذلك وعادت القافلة لقيهم التركي وقال أين ضيفي فإن قالوا مات حط القافلة، ثم جاء إلى أنبل تاجر يراه فيهم فحل متاعه وهو ينظر فأخذ من دراهمه مثل ماله عند ذلك التاجر بغير زيادة حبة وكذلك يأخذ من دوابه وجماله، وقال ذلك ابن عمك وأنت أحق من غرم عنه ،وإن فر فعل أيضا ذلك الفعل وقال له ذلك مسلم مثلك خذ أنت منه وإن لم يوافق المسلم ضيفه في الجادة سأل عن بلاده أين هو ،فإذا أرشد إليه سار في طلبه مسيرة أيام حتى يصير إليه ويرفع ماله عنده وكذلك ما يهديه له ، وهذه أيضا سبيل التركي إذا دخل الجرجانية سأل عن ضيفه فنزل عليه حتى يرتحل، ومتى مات التركي عند صديقه المسلم واجتازت القافلة وفيها صديقه قتلوه وقالوا أنت قتلته بحبسك إياه ولو لم تحبسه لما مات وكذلك إن سقاه نبيذا فتردى من حائط قتلوه به فإن لم يكن في القافلة عمدوا إلى أجل من فيها فقتلوه .

وأمر اللواط عندهم عظيم جدا ولقد نزل على حي كوذركين وهو خليفة ملك الترك رجل من أهل خوارزم فأقام عند ضيف له مدة في ابتياع غنم وكان للتركي ابن أمرد فلم يزل الخوارزمي يداريه ويراوده عن نفسه حتى طاوعه على ما أراد وجاء التركي فوجدهما في بنيانهما فرفع التركي ذلك إلى كوذركي فقال له "اجمع الترك" فجمعهم فلما اجتمعوا قال للتركي "بالحق تحب أن أحكم أم بالباطل "قال "بالحق "قال "أحضر ابنك" فأحضره فقال "يجب عليه وعلى التاجر أن يقتلا جميعا" فامتعض التركي من ذلك وقال "لا أسلم ابني

"فقال" فيفتدي التاجر نفسه"ففعل ودفع للتركي غنما للفعل بابنه ودفع إلى كوذركين أربعمئة شاة لما رفع عنه وارتحل عن بلد الترك .

فأول من لقينا من ملوكهم ورؤسائهم ينال الصغير(= ولي العهد) وقد كان أسلم فقيل له إن أسلمت لم ترؤسنا فرجع عن إسلامهن فلما وصلنا إلى الموضع الذي هو فيه قال" لا أترككم تجوزون لأن هذا شيء ما سمعنا به قط ولا ظننا أنه يكون" فرفقنا به إلى أن رضي بخفتان جرجاني يساوي عشرة دراهم وشقة باي باف (لباس خاص بالمرأة)وأقراص خبز وكف زبيب ومئة جوزة ،فلما دفعنا هذا إليه سجد لنا ،وهذا رسمهم إذا أكرم الرجل الرجل سجد له وقال" لولا أن بيوتي نائية عن الطريق لحملت إليكم غنما وبرا" وانصرف عنا وارتحلنا .

فلما كان من غد لقينا رجل واحد من الأتراك دميم الخلقة رث الثياب قميء المنظر خسيس المخبر، وقد أخذنا مطر شديد فقال" قفوا" فوقفت القافلة بأسرها، وهي نحو ثلاثة آلاف دابة وخمسة آلاف رجل ،ثم قال" ليس يجوز منكم أحد" فوقفنا طاعة لأمره فقلنا له "نحن أصدقاء كوذركين" فأقبل يضحك ويقول "منْ كوذركين أنا أخْرى على لحية كوذركين "ثم قال "بكند "يعني "الخبز "بلغة خوارزم فدفعتُ إليه أقراصا فأخذها، وقال "مروا قد رحمتكم " .

قال وإذا مرض الرجل منهم وكان له جوار وعبيد خدموه ولم يقربه أحد من أهل بيته ويضربون له خيمة ناحية من البيوت فلا يزال فيها إلى أن يموت أو يبرأ وإن كان عبدا أو فقيرا رموا به في الصحراء وارتحلوا عنه .

وإذا مات الرجل منهم حفروا له حفيرة كبيرة كهيئة البيت وعمدوا إليه فألبسوه قرطقة ومنطقته وقوسه، وجعلوا في يده قدحا من خشب فيه نبيذ، وتركوا بين يديه إناء من خشب فيه نبيذ، وجاءوا بكل ماله فجعلوه معه في ذلك البيت ،ثم أجلسوه فيه فسقفوا البيت عليه وجعلوا فوقه مثل القبة من الطين وعمدوا إلى دوابه على قدر كثرتها فقتلوا منها مئة رأس إلى مئتي رأس إلى رأس واحد، وأكلوا لحومها إلا الرأس والقوائم والجلد والذنب

،فإنهم يصلبون ذلك على الخشب وقالوا هذه دوابه يركبها إلى الجنة ،فإن كان قتل إنسانا وكان شجاعا نحتوا صورا من خشب على عدد من قتل وجعلوها على قبره وقالوا هؤلاء غلمانه يخدمونه في الجنة .

وربما تغافلوا على قتل الدواب يوما أو يومين فيحثهم شيخ من كبارهم فيقول" رأيت فلانا "يعني الميت في النوم فقال لي "هو ذا تراني وقد سبقني أصحابي وشققت رجلاي من أتباعي لهم ولست ألحقهم، وقد بقيت وحدي "فعندها يعمدون إلى دوابه فيقتلوها ويصلبونها عند قبره فإذا كان بعد يوم أو يومين جاءهم ذلك الشيخ وقال "قد رأيت فلانا وقال عرّف أهلي وأصحابي أني قد لحقت من تقدمني واسترحت من التعب" .

قال : والترك كلهم ينتفون لحاهم إلا أسبلتهم وربما رأيت الشيخ الهرم منهم وقد نتف لحيته وترك شيئا منها تحت ذقنه وعليه البوستين فإذا رآه إنسان من بعد لم يشك أنه تيس وملك الترك الغزية يقال له يبغو وهو اسم الأمير وكل من ملك هذه القبيلة فبهذا الاسم يسمى ويقال لخليفته كوذركين وكذا كل من يخلف رئيسا منهم يقال له كوذركين.

ثم نزلنا بعد ارتحالنا من ناحية هؤلاء بصاحب جيشهم ويقال له "أترك بن القطغان" فضرب لنا قبابا تركية وأنزلنا فيها وإذا له ضبنة(=العيال والأهل) وحاشية وبيوت كبيرة، وساق إلينا غنما وقاد دواب ،لنذبح الغنم ونركب الدواب ،ودعا هو جماعة من أهل بيته وبني عمه فقتل لهم غنما كثيرة ، وكنا قد أهدينا إليه هدية من ثياب وزبيب وجوز وفلفل وجاورس، فرأيت امرأته وقد كانت امرأة أبيه، وقد أخذت لحما ولبنا وشيئا مما أتحفناه به وخرجت من البيوت إلى الصحراء فحفرت حفيرة ودفنت الذي كان معها فيها ،وتكلمت بكلام فقلت للترجمان" ما تقول؟" قال "تقول هذه هدية للقطغان أبي الترك أهداها له العرب" فلما كان في الليل دخلت أنا والترجمان إليه وهو في قبته جالس ومعنا كتاب نذير الحرمي إليه يأمره فيه بالإسلام ويحضه عليه ووجه إليه خمسين دينارا فيها عدة دنانير مسيبية وثلاثة مثاقيل مسك وجلود أديم وثياب مروية وقطعنا له منها قرطقين وخف أديم وثوب ديباج وخمسة أثواب حرير، فدفعنا إليه هديته ودفعنا إلى امرأته مقنعة وخاتما

،وقرأت عليه الكتاب فقال للترجمان "لست أقول لكم شيئا حتى ترجعوا، وأكتب إلى السلطان بما أنا عازم عليه" ونزع الديباجة التي كانت عليه ليلبس الخلع التي ذكرنا فرأيت القرطق الذي تحتها وقد تقطع وسخا ؛لأن رسومهم أن لا ينزع الواحد منهم الثوب الذي يلي جسده حتى ينتثر قطعا، وإذا هو قد نتف لحيته كلها وسباله فبقي كالخادم. ورأيت الترك يذكرون أنه أفرسهم .ولقد رأيت يوما وهو يسايرنا على فرسه إذ مرت وزة طائرة فأوتر قوسه وحرك دابته تحتها، ثم رماها فإذا هو قد أنزلها.

فلما كان في بعض الأيام وجه خلف القواد الذين يلونه وهم طرخان وينال وابن أخيهما وإيلغز، وكان طرخان أنبلهم وأجلهم ،وكان أعرج أعمى أشل فقال لهم "إن هؤلاء رسل ملك العرب إلى صهري ألمش بن شلكي، ولم يخير لي أن أطلقهم إلا عن مشورتكم "فقال طرخان "هذا شيء ما رأيناه قط ولا سمعنا به، ولا اجتاز بنا رسول سلطان مذ كنا نحن وآباؤنا، وما أظن إلا أن السلطان قد أعمل الحيلة ووجه هؤلاء إلى الخزر ليستجيش بهم علينا، والوجه أن يقطع هؤلاء الرسل نصفين نصفين ونأخذ ما معهم" . وقال آخر منهم "لا بل نأخذ ما معهم ونتركهم عراة يرجعون من حيث جاءوا" وقال آخر" لا ولكن لنا عند ملك الخزر أسراء فنبعث بهؤلاء نفادي بهم أولئك" فما زالوا يتراجعون بينهم هذه الأشياء سبعة أيام ،ونحن في حالة الموت حتى أجمع رأيهم على أن يخلوا سبيلنا ،ونمضي .فخلعنا على طرخان خفتانا مرويا وشقتين باي باف وعلى أصحابه كل واحد قرطقا، وكذلك على ينال، ودفعنا إليهم فلفلا وجاورس وأقراصا من خبز وانصرفوا عنا.

ورحلنا حتى صرنا إلى نهر يغندي (=زيندي) فأخرج الناس سفرهم ،وهي من جلود الجمال فبسطوها وأخذوا بالأثاث من الجمال التركية لأنها مدورة فجعلوها في جوفها حتى تمتد ،ثم حشوها بالثياب والمتاع فإذا امتلأت جلس في كل سفرة جماعة من خمسة وستة وأربعة وأقل وأكثر ويأخذون بأيديهم خشب الخدنك(=خشب البتولا) فيجعلونه كالمجاديف ولا يزالون يجدفون والماء يحملها وهي تدور حتى نعبر ،فأما الدواب والجمال فإنه يصاح بها فتعبر سباحة، ولا بد أن تعبر جماعة من المقاتلة ومعهم السلاح قبل أن يعبر شيء

من القافلة؛ ليكونوا طليعة للناس خيفة من الباشغرد(=قوم من الأتراك) أن يكبسوا الناس وهم يعبرون . فعبرنا يغندي على هذه الصفة التي ذكرنا ثم عبرنا بعد ذلك نهرا يقال له جام في السفر أيضا، ثم عبرنا جاخش (سجير) ثم أذل (=أوييل) ثم أردن (=زاكسباي) ثم وارش(=كالدغايتي) ثم أختي (=آشي)ثم وتبا (=ياك) وهذه كلها أنهار كبار.

ثم صرنا بعد ذلك إلى البنجاك(قبيلة من الأتراك في الأورال وحوض الفولغا،وضفاف بحر قزوين) وإذا هم نزول على ماء شبيه بالبحر غير جار، وإذا هم سمر شديدو السمرة وإذا هم محلقوا اللحى فقراء خلاف الغزية لأني رأيت من الغزية من يملك عشرة آلاف دابة ومئة ألف رأس من الغنم ،وأكثر ما ترعى من الغنم ما بين الثلج تبحث بأظلافها تطلب الحشيش فإذا لم تجده قضمت الثلج فسمنت غاية السمن ،فإذا كان الصيف وأكلت الحشيش هزلت ،فنزلنا على البجناك يوما واحدا . ثم ارتحلنا فنزلنا على نهر جيخ (=أحد فروع جيحون) وهو أكبر نهر رأيناه وأعظمه وأشده جرية .ولقد رأيت سفرة انقلبت فيه فغرق من كان فيها، وذهبت رجال كثير من الناس وغرقت عدة جمال ودواب ،ولم نعبره إلا بجهد. ثم سرنا أياما وعبرنا نهر حاخا (=جاغان)ثم بعده نهر أرخز، ثم باجاغ، ثم سمور، ثم كنال، ثم نهر سوخ ،ثم نهر كنجلو.

ووقفنا في بلد قوم من الأتراك يقال لهم الباشغرد فحذرناهم أشد الحذر، وذلك أنهم شر الأتراك وأقذرهم، وأشدهم إقداما على القتل . يلقى الرجل الرجل فيفرز هامته ،ويأخذها ويتركه. وهم يحلقون لحاهم ،ويأكلون القمل .يتتبع الواحد منهم درز قرطقة (=الرُّقع في الثياب) فيقرض القمل بأسنانه. ولقد كان معنا منهم واحد قد أسلم ،وكان يخدمنا فرأيته وجد قملة في ثوبه فقصعها بظفره ثم لحسها وقال لما رآني" جيد" . وكل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الإحليل، ويعلقها عليه .فإذا أراد سفرا أو لقاء عدو قبّلها وسجد لها، وقال "يا رب افعل بي كذا وكذا" فقلت للترجمان "سل بعضهم ما حجتهم في هذا ولم جعله ربه "قال "لأني خرجت من مثله فلست أعرف لنفسي خالقا غيره" . ومنهم من يزعم أن له أثني عشر ربا: للشتاء رب ،وللصيف رب ،وللمطر رب، وللريح رب، وللشجر

رب، وللناس رب، وللدواب رب ،وللماء رب ،ولليل رب، وللنهار رب، وللموت رب ، وللأرض رب. والرب الذي في السماء أكبرهم إلا أنه يجتمع مع هؤلاء باتفاق، ويرضى كل واحد منهم بما يعمل شريكه. تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

ورأينا طائفة منهم تعبد الحيات ،وطائفة تعبد السمك، وطائفة تعبد الكراكي. فعرفوني أنهم كانوا يحاربون قوما من أعدائهم فهزموهم، وأن الكراكي صاحت وراءهم ففزعوا وانهزموا بعدها هُزموا؛ فعبدوا الكراكي لذلك وقالوا" هذه ربنا وهذه فعالاته هزم أعداءنا" فهم يعبدونها لذلك.

قال: وسرنا من بلد هؤلاء فعبرنا نهر جرمشان ،ثم نهر أورن ،ثم نهر أورم ،ثم نهر بياناخ، ثم نهر وتيغ، ثم نهر نياسنه ،ثم نهر جاوشيز، وبين النهر والنهر مما ذكرنا اليومان والثلاثة والأربعة وأقل من ذلك وأكثر.

الصقالبة

فلما كنا من ملك الصقالبة وهو الذي قصدنا له على مسيرة يوم وليلة ،وجه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يده وإخوته وأولاده، فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاورس، وساروا معنا. فلما صرنا منه على فرسخين تلقانا هو بنفسه ،فلما رآنا نزل فخرّ ساجدا شكرا لله جل وعز، وكان في كمه دراهم فنثرها علينا ونصب لنا قبابا فنزلناها .

وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشر وثلاثمئة فكانت المسافة من الجرجانية إلى بلده سبعين يوما، فأقمنا يوم الأحد ويوم الأثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء في القباب التي ضربت لنا حتى جمع الملوك والقواد وأهل بلده ليسمعوا قراءة الكتاب.

فلما كان يوم الخميس واجتمعوا نشرنا المطردين (= الراية) اللذين كانا معنا وأسرجنا الدابة بالسرج الموجه إليه وألبسناه السواد (= شعار العباسيين) وعممناه، وأخرجتُ كتاب الخليفة وقلت له" لا يجوز أن نجلس والكتاب يُقرأ "فقام على قدميه هو ومن حضر من وجوه أهل مملكته ، وهو رجل بدين بطين جدا. وبدأتُ فقرأت صدر الكتاب فلما بلغت

منه "سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو" قلت "ردَّ على أمير المؤمنين السلام "ثم أمرته بالجلوس ،فجلس عند قراءة كتاب نذير الحرمي، فلما استتممته نثر أصحابه عليه الدراهم الكثيرة ،ثم أخرجت الهدايا من الطيب والثياب واللؤلؤ له ولامرأته، فلم أزل أعرض عليه وعليها شيئا شيئا حتى فرغنا من ذلك ،ثم خلعت على امرأته بحضرة الناس وكانت جالسة إلى جنبه. وهذه سنتهم وزيهم فلما خلعت عليها نثر النساء عليها الدراهم وانصرفنا.

فلما كان بعد ساعة وجه إلينا فدخلنا إليه، وهو في قبته والملوك عن يمينه، وأمرنا أن نجلس عن يساره، وإذا أولاده جلوس بين يديه، وهو وحده على سرير مغشى بالديباج الرومي ،فدعا بالمائدة فقدِّمت وعليها اللحم المشوي وحده .فابتدأ هو فأخذ سكينا وقطع لقمة وأكلها وثانية وثالثة ،ثم احتز قطعة دفعها إلى سوسن الرسول ، فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجعلت بين يديه وكذلك الرسم لا يمد أحد يده إلى الأكل حتى يناوله الملك لقمة فساعة يتناولها قد جاءته مائدة ثم ناولني فجاءتني مائدة ، ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة ،ثم ناول الملك الثاني فجاءته مائدة ،ثم ناول الملك الرابع فجاءته مائدة ،ثم ناول أولاده فجاءتهم الموائد . وأكلنا كل واحد من مائدته لا يشركه فيها أحد ولا يتناول من مائدة غيره شيئا ،فإذا فرغ من الطعام حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته إلى منزله . فلما أكلنا دعا بشراب العسل وهم يسمونه السجو(=نوع من الخمر) ليومه وليلته فشرب قدحا، ثم قام قائما فقال" هذا سروري بمولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه" وقام الملوك الأربعة وأولاده لقيامه، وقمنا نحن أيضا ،حتى إذا فعل ذلك ثلاث مرات ثم انصرفنا من عنده .

وقد كان يخطب له على منبره قبل قدومي " اللهم وأصلح الملك يلطوار ملك بلغار" فقلت أنا له" إن الله هو الملك ولا يسمى على المنبر بهذا الاسم غيره جل وعز، وهذا مولاك أمير المؤمنين قد رضي لنفسه أن يقال على منابره في الشرق والغرب اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين وكذا من كان قبله من آبائه الخلفاء ،وقد

قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تطروني كما أطْرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله "فقال لي "فكيف يجوز أن يخطب لي" قلت باسمك واسم أبيك "قال" إن أبي كان كافرا ولا أحب أن أذكر اسمه على المنبر ،وأنا أيضا فما أحب أن يذكر اسمي ،إذ كان الذي سماني به كافرا، ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين؟" فقلت "جعفر" قال" فيجوز أن أتسمى باسمه" قلت" نعم "قال" قد جعلت اسمي جعفرا، واسم أبي عبد الله فتقدم إلى الخطيب بذلك "ففعلت .

فكان يخطب له "اللهم وأصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين" . ولما كان بعد قراءة الكتاب وإيصال الهدايا بثلاثة أيام بعث إل، وقد كان بلغه أمر الأربعة آلاف دينار وما كان من حيلة النصراني في تأخيرها وكان خبرها في الكتاب. فلما دخلت إليه أمرني بالجلوس ،فجلست ورمى إلي كتاب أمير المؤمنين فقال" من جاء بهذا الكتاب؟" قلت "أنا "ثم رمى إلي كتاب الوزير فقال" وهذا أيضا؟" قلت "أنا "قال فالمال" الذي ذكر فيهما ما فُعل به؟" قلت "تعذر جمعه وضاق الوقت وخشينا فوت الدخول، فتركناه ليلحق بنا" فقال" إنما جئتم بأجمعكم وأنفق عليكم مولاي ما أنفق لحمل هذا المال إلي حتى أبني به حصنا يمنعني من اليهود الذين قد استعبدوني ،فأما الهدية فغلامي قد كان يحسن أن يجيء بها "قلت" هو كذلك إلا أنا قد اجتهدنا "فقال للترجمان" قل له أنا لا أعرف هؤلاء إنما أعرفك أنت ،وذلك أن هؤلاء قوم عجم ولو علم الأستاذ أيده الله أنهم يبلغون ما تبلغ ما بعث بك حتى تحفظ علي وتقرأ كتابي وتسمع جوابي ولست أطالب غيرك بدرهم فاخرج من المال فهو أصلح لك" فانصرفت من بين يديه مذعورا مغموما ،وكان رجلا له منظر وهيبة ،بدين عريض، كأنما يتكلم من خابية .فخرجت من عنده ،وجمعت أصحابي وعرفتهم ما جرى بيني وبينه، وقلت لهم "من هذا حذرت" .

وكان مؤذنه يثنّي الإقامة إذا أذّن فقلت له "إن مولاك أمير المؤمنين يفرد في داره الإقامة" فقال للمؤذن "اقبل ما يقوله لك ولا تخالفه" فأقام المؤذن على ذلك أياما وهو يسألني عن المال ويناظرني فيه، وأنا أؤيّسه منه ،وأحتج فيه .فلما يئس منه تقدم إلى المؤذن أن يثنّي

الإقامة،ففعل ،وأراد بذلك أن يجعله طريقا إلى مناظرتي، فلما سمعت تثنيته للإقامة نهيته وصحت عليه، فعرف الملك فأحضرني وأحضر أصحابي . فلما اجتمعنا قال الترجمان "قل له- يعنيني -ما يقول في مؤذنين أفرد أحدهما وثنّى الآخر ،ثم صلى كل واحد منهما بقوم. أتجوز الصلاة أم لا؟" قلت "الصلاة جائزة" فقال" باختلاف أم بإجماع؟" قلت"بإجماع" قال "قل له فما يقول في رجل دفع إلى قوم مالا لأقوام ضعفى محاصرين مستعبدين، فخانوه" فقلت "هذا لا يجوز، وهؤلاء قوم سوء" قال "باختلاف أم بإجماع "قلت" بإجماع" فقال للترجمان" قل له تعلم أن الخليفة -أطال الله بقاءه- لو بعث إلي جيشا كان يقدر علي؟" قلت" لا "قال "فأمير خراسان؟" قلت" لا" قال" أليس لبعد المسافة وكثرة من بيننا من قبائل الكفار؟" قلت" بلى" قال "قل له فوالله إني لبمكاني البعيد الذي تراني فيه، وإني لخائف من مولاي أمير المؤمنين، وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه فيدعو علي فأهلك بمكاني، وهو في مملكته ،وبيني وبينه البلدان الشاسعة ،وأنتم تأكلون خبزه وتلبسون ثيابه، وترونه في كل وقت خنتموه في مقدار رسالة بعثكم بها إلي إلى قوم ضعفى ، وخنتم المسلمين لا أقبل منكم أمر ديني حتى يجيئني من ينصح لي فيما يقول، فإذا جاءني إنسان بهذه الصورة قبلت منه" فألجمنا، وما أحرنا جوابا، وانصرفنا من عنده .

قال: فكان بعد هذا القول يؤثرني ويقربني، ويباعد أصحابي، ويسميني أبا بكر الصديق. ورأيت في بلده من العجائب ما لا أحصيها كثرة ، من ذلك أن أول ليلة بتناها في بلده رأيت قبل مغيب الشمس بساعة قياسية أفق السماء وقد احمرت احمرارا شديدا، وسمعت في الجو أصواتا شديدة،وهمهمة عالية ،فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني، وإذا تلك الهمهمة والأصوات منه، وإذا فيه أمثال الناس والدواب، وإذا في أيدي الأشباح التي فيه تشبه الناس رماح وسيوف أتبينها وأتخيلها، وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها أيضا رجالا ودواب وسلاحا، فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة، ففزعنا من ذلك، وأقبلنا على التضرع والدعاء. وهم يضحكون منا، ويتعجبون من فعلنا.

قال: وكنا ننظر إلى القطعة تحمل على القطعة فتختلطان جميعا ساعة ثم تفترقان، فما زال الأمر كذلك ساعة من الليل ثم غابتا. فسألنا الملك عن ذلك ،فزعم أن أجداده كانوا يقولون إن هؤلاء من مؤمني الجن وكفارهم ،وهم يقتتلون في كل عشية، وإنهم ما عدموا هذا مذ كانوا في كل ليلة .

قال : ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد– قد وقع إلى تلك الناحية– قبّتي لنتحدث فتحدثنا بمقدار ما يقرأ إنسان أقل من نصف سبع، ونحن ننتظر أذان العتمة فإذا بالأذان فخرجنا من القبة وقد طلع الفجر فقلت للمؤذن "أي شيء أذنت؟" قال" أذان الفجر" قلت "فالعشاء الآخرة؟" قال" نصليها مع المغرب" قلت" فالليل؟" قال" كما ترى وقد كان أقصر من هذا إلا أنه قد أخذ في الطول" وذكر أنه منذ شهر ما نام خوفا أن تفوته صلاة الغداة، وذلك أن الإنسان يجعل القدر على النار وقت المغرب ثم يصلي الغداة وما آن لها أن تنضج.

قال :ورأيت النهار عندهم طويلا جدا، وإذا أنه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل ثم يطول الليل ويقصر النهار ،فلما كانت الليلة الثانية جلست خارج القبة وراقبت السماء فلم أر من الكواكب إلا عددا يسيرا ظننت أنه نحو الخمسة عشر كوكبا متفرقة ،وإذا الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب بتة، وإذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من أكثر من غلوة سهم .

قال: ورأيت القمر لا يتوسط السماء بل يطلع في أرجائها ساعة ثم يطلع الفجر فيغيب القمر. وحدثني الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوم يقال لهم ويسو(= يرجح أنهم سكان روسيا البيضاء) الليل عندهم أقل من ساعة .

قال :ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمرّ كل شيء فيه من الأرض والجبال وكل شيء ينظر الإنسان إليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى، فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء .

وعرّفني أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار وعاد النهار في قصر الليل

حتى إن الرجل منا ليخرج إلى موضع يقالله إتل(=لايقصد بها هنا نهر الفولغا إنما مدينة فولغاغراد) بيننا وبينه أقل من مسيرة فرسخ وقت طلوع الفجر فلا يبلغه إلى العتمة إلى وقت طلوع الكواكب كلها حتى تطبق السماء، فما برحنا من البلد حتى امتد الليل وقصر النهار.

ورأيتهم يتبركون بعواء الكلاب جدا ويفرحون به ويقولون سنة خصب وبركة وسلامة .

ورأيت الحيات عندهم كثيرة حتى إن الغصن من الشجرة لتلتف عليه العشرة منها والأكثر ولا يقتلونها ولا تؤذيهم حتى لقد رأيت في بعض المواضع شجرة طويلة يكون طولها أكثر من مئة ذراع وقد سقطت وإذا بدنها عظيم جدا، فوقفت أنظر إليه إذ تحرك فراعني ذلك وتأملته ،فإذا عليه حية قريبة منه في الغلظ والطول، فلما رأتني سقطت عنه وغابت بين الشجر، فجئت فزعا فحدثت الملك ومن كان في مجلسه فلم يكترثوا لذلك، وقال" لا تجزع فليس تؤذيك " ونزلنا مع الملك منزلا فدخلت أنا وأصحابي تكين وسوسن وبارس، ومعنا رجل من أصحاب الملك بين الشجر فرأينا عودا صغيرا أخضر كرقة المغزل وأطول، فيه عرق أخضر على رأس العرق ورقة عريضة مبسوطة على الأرض مفروش عليها مثل النابت فيها حب ولا يشك من يأكله أنه رمان أمليسي (=لانواة لحبّاته)فأكلنا منه فإذا به من اللذة أمر عظيم فما زلنا نتبعه ونأكله . ورأيت لهم تفاحا أخضر شديد الخضرة ،وأشد حموضة من خل الخمر، وتأكله الجواري فيسمن عليه. ولم أر في بلدهم أكثر من شجر البندق .لقد رأيت منه غياضا تكون الغيضة أربعين فرسخا في مثلها .ورأيت لهم شجرا لا أدري ما هو، مفرط الطول وساقه أجرد من الورق، ورؤوسه كرؤوس النخل، له خوص دقاق إلا أنه مجتمع يجيئون إلى موضع يعرفونه من ساقه فيثقبونه ويجعلون تحته إناء، فتجري إليه من ذلك الثقب ماء أطيب من العسل ،إن أكثر الإنسان منه أسكره كما يسكر الخمر .

وأكثر أكلهم الجاورس ولحم الدابة على أن الحنطة والشعير كثير ،وكل من زرع شيئا أخذه لنفسه ليس للملك فيه حق ،غير أنهم يؤدون إليه في كل سنة من كل بيت جلد سمور، وإذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان فغنمت كان له معهم حصة ولا بد لكل من يعترس أو يدعو دعوة من زلّة(=العرس) للملك على قدر الوليمة ،وساخرخ (= كمية)من نبيذ

العسل، وحنطة ردية لأن أرضهم سوداء منتنة.

وليس لهم مواضع يجمعون فيها طعامهم ولكنهم يحفرون في الأرض آبارا، ويجعلون الطعام فيها فليس يمضي عليه إلا أيام يسيرة حتى يتغير ويريّح فلا ينتفع به. وليس لهم زيت ولا شيرج(=زيت السمسم) ولا دهن بتة ،وإنما يقيمون مقام هذه الأدهان دهن السمك. فكل شيء يستعملونه فيه يكون زفرا، ويعملون من الشعير حساء يحسونه الجواري والغلمان، وربما طبخوا الشعير باللحم ،فأكل الموالي اللحم وأطعموا الجواري الشعير إلا أن يكون رأس تيس فيطعم من اللحم . وكلهم يلبسون القلانس، فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ولا أحد يكون معه فإذا اجتاز في السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه ،فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم إلى رؤوسهم، وكذلك كل من يدخل إلى الملك من صغير وكبير حتى أولاده وإخوته ساعة ينظرون إليه قد أخذوا قلانسهم فجعلوها تحت آباطهم ثم أوموا إليه برؤوسهم وجلسوا ، ثم قاموا حتى يأمرهم بالجلوس وكل من يجلس بين يديه فإنما يجلس باركا ولا يخرج قلنسوته ولا يظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك . وكلهم في قباب إلا أن قبة الملك كبيرة جدا تسع ألف نفس وأكثر، مفروشة بالفرش الأرمني ،وله في وسطها سرير مغشى بالديباج الرومي ، ومن رسومهم أنه إذا ولد لابن الرجل مولود أخذه جده دون أبيه وقال" أنا أحق به من أبيه في حضنه "حتى يصير رجلا وإذا مات منهم الرجل ورثه أخوه دون ولده، فعرّفت الملك أن هذا غير جائز وعرّفته كيف المواريث حتى فهمها .

وما رأيت أكثر من الصواعق في بلدهم، وإذا وقعت الصاعقة على بيت لم يقربوه ويتركونه على حالته وجميع من فيه من رجل ومال وغير ذلك حتى يتلفه الزمان، ويقولون هذا بيت مغضوب عليهم.

وإذا قتل الرجل منهم الرجل عمدا أقادوه به(قتلوه قصاصا) وإذا قتله خطأ صنعوا له صندوقا من خشب الخدنك، وجعلوه في جوفه وسمّروه عليه وجعلوا معه ثلاثة أرغفة وكوز ماء، ونصبوا له ثلاث خشبات مثل الشبائح وعلقوه بينها ،وقالوا: نجعله بين السماء والأرض

يصيبه المطر والشمس لعل الله أن يرحمه. فلا يزال معلقا حتى يبليه الزمان وتهب به الرياح. وإذا رأوا إنسانا له حركة ومعرفة بالأشياء قالوا "هذا حقه أن يخدم ربنا "فأخذوه وجعلوا في عنقه حبلا وعلقوه في شجرة حتى يتقطّع .

ولقد حدثني ترجمان الملك أن سنديا سقط إلى ذلك البلد، فأقام عند الملك برهة من الزمان يخدمه، وكان خفيفا فهما ،فأراد جماعة منهم الخروج معهم فنهاه عن ذلك، فاستأذن السندي الملك في الخروج معهم فنهاه عن ذلك ،وألح عليه حتى أذن له فخرج معهم في سفينة ،فرأوه حركا كيسا ،فتآمروا بينهم وقالوا "هذا يصلح لخدمة ربنا فنوجه به إليه "واجتازوا في طريقهم بغيضة فأخرجوه إليها و جعلوا في عنقه حبلا، وشدوه في رأس شجرة عالية وتركوه ومضوا ، وإذا كانوا يسيرون في طريق فأراد أحدهم البول فبال وعليه سلاحه انتهبوه وأخذوا سلاحه وثيابه وجميع ما معه، وهذا رسم لهم. ومن حطّ عنه سلاحه وجعله ناحية وبال لم يعرضوا له. وينزل الرجال والنساء إلى النهر فيغتسلون جميعا عراة لا يستتر بعضهم من بعض ولا يزنون بوجه ولا سبب. ومن زنا منهم كائنا من كان ضربوا له أربع سكك ،وشدوا يديه ورجليه إليها ،وقطعوا بالفأس من رقبته إلى فخذيه ، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضا، ثم يعلق كل قطعة منه ومنها على شجرة .

وما زلت اجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك .ويقتلون السارق كما يقتلون الزاني . وفي غياضهم عسل كثير في مساكن النحل يعرفونها فيخرجون لطلب ذلك ،فربما وقع عليهم قوما من أعدائهم فقتلوهم .وفيهم تجار كثير يخرجون إلى أرض الترك فيجلبون الغنم وإلى بلد يقال له ويسو، فيجلبون السمور والثعلب الأسود . ورأينا فيهم أهل بيت يكونون خمسة الآف نفس من امرأة ورجل قد أسلموا كلهم يعرفون بالبرنجار(=يرجح أنهم المنغول) وقد بنوا لهم مسجدا من خشب يصلون فيه، ولا يعرفون القراءة، فعلمت جماعة ما يصلون به .

ولقد اسلم على يدي رجل يقال له" طالوت" فأسميته "عبد الله" فقال" أريد أن تسميني باسمك محمدا" ففعلت وأسلمت امرأته وأمه وأولاده فسموا كلهم "محمدا"

وعلمته: الحمد لله،و قل هو الله أحد. فكان فرحه بهاتين السورتين أكثر من فرحه إن صار ملك الصقالبة.

وكنا لما وافينا الملك وجدناه نازلا على ماء يقال له خلجة وهي ثلاث بحيرات منها اثنتان كبيرتان وواحدة صغيرة إلا أنه ليس في جميعها شيء يلحق غوره، وبين هذا الموضع وبين نهر لهم عظيم يصب إلى بلاد الخزر يقال له نهر إتل(=الفولغا) نحو الفرسخ وعلى هذا النهر موضع سوق تقوم في كل مديدة ،ويباع فيها المتاع الكثير النفيس . وكان تكين حدثني أن في بلد الملك رجلا عظيم الخلق جدا فلما صرت إلى البلد سألت الملك عنه فقال" نعم قد كان في بلدنا، ومات ولم يكن من أهل البلد ولا من الناس أيضا، وكان من خبره أن قوما من التجار خرجوا إلى نهر إتل وهو نهر بيننا وبينه يوم واحد كما يخرجون، وهذا النهر قد مد وطغى ماؤه فلم أشعر يوما إلا وقد وافاني جماعة من التجار، فقالوا :أيها الملك قد قفا على الماء رجل إن كان من أمة تقرب منا فلا مقام لنا في هذه الديار وليس لنا غير التحويل . فركبت معهم حتى صرت إلى النهر، فإذا أنا بالرجل، وإذا هو بذراعي اثنا عشر ذراعا، وإذا له رأس كأكبر ما يكون من القدور ،وأنف أكثر من شبر، وعينان عظيمتان ،وأصابع تكون أكثر من شبر شبر .فراعني أمره، وداخلني ما داخل القوم من الفزع ،وأقبلنا نكلمه ولا يكلمنا بل ينظر إلينا . فحملته إلى مكاني، وكتبت إلى أهل ويسو، وهم منا على ثلاثة أشهر أسألهم عنه فكتبوا إلي يعرفونني أن هذا الرجل من يأجوج ومأجوج، وهم منا على ثلاثة أشهر عراة ،يحول بيننا وبينهم البحر لأنهم على شطه ،وهم مثل البهائم ينكح بعضهم بعضا. يخرج الله عز وجل لهم كل يوم سمكة من البحر فيجيء الواحد منهم ومعه المدية فيجز منها قدر ما يكفيه ويكفي عياله فإن أخذ فوق ما يقنعه اشتكى بطنه ،وكذلك عياله يشتكون بطونهم ،وربما مات وماتوا بأسرهم ،فإذا أخذوا منها حاجتهم انقلبت ووقعت في البحر، فهم في كل يوم على ذلك . وبيننا وبينهم البحر من جانب والجبال محيطة بهم من جوانب أخر، والسد أيضا قد حال بينهم وبين الباب الذي كانوا يخرجون منه .فإذا أراد الله عز وجل أن يخرجهم إلى العمارات سبب لهم فتح السد ونضب البحر

وانقطع عنهم السمك " قال: فسألته عن الرجل ،فقال "أقام عندي مدة فلم يكن ينظر إليه صبي إلا مات ولا حامل إلا طرحت حملها وكان إن تمكن من إنسان عصره بيديه حتى يقتله، فلما رأيت ذلك علقته في شجرة عالية حتى مات، إن أردت أن تنظر إلى عظامه ورأسه مضيت معك حتى تنظر إليها" فقلت أ"نا والله أحب ذاك" فركب معي إلى غيضة كبيرة فيها شجر عظام ،فتقدمني إلى شجرة سقطت عظامه ورأسه تحتها فرأيت رأسه مثل القفير الكبير ،وإذا أضلاعه أكبر من عراجين النخل، وكذلك عظام ساقيه وذراعيه فتعجبت منه، وأنصرفت.

قال وارتحل الملك من الماء الذي يسمى خلجة إلى نهر يقال له جاوشيز ،فأقام به شهرين ثم أراد الرحيل فبعث إلى قوم يقال لهم سواز يأمرهم بالرحيل معه ،فأبوا عليه وافترقوا فرقتين فرقة مع ختنه، وكان قد تملك عليهم واسمه ويرغ فبعث إليهم الملك، وقال "إن الله عز وجل قد منّ علي بالإسلام وبدولة أمير المؤمنين فأنا عبده ،وهذه الأمة قد قلدتني فمن خالفني لقيته بالسيف" وكانت الفرقة الأخرى مع ملك من قبيلة يعرف بملك اسكل وكان في طاعته إلا أنه لم يكن داخلا في الإسلام .

فلما وجه إليهم هذه الرسالة خافوا ناحيته فرحلوا بأجمعهم معه إلى نهر جاوشيز، وهو نهر قليل العرض يكون عرضه خمسة أذرع وماؤه إلى السرة وفيه مواضع إلى الترقوة وأكثره قامة وحوله شجر كثير من الشجر الخدنك وغيره، وبالقرب منه صحراء واسعة يذكرون أن بها حيوانا دون الجمل في الكبر وفوق الثور رأسه رأس جمل وذنبه ذنب ثور وبدنه بدن بغل وحوافره مثل أظلاف الثور له في وسط رأسه قرن واحد غليظ مستدير كلما أرتفع دق حتى يصير مثل سنان الرمح فمنه ما يكون طوله خمسة أذرع إلى ثلاثة أذرع إلى أكثر وأقل يرتعي ورق الشجر جيد الخضرة إذا رأى الفارس قصده فإن كان تحته جواد أمن منه بجهد وإن لحقه أخذه من ظهر دابته بقرنه ثم زج به في الهواء واستقبله بقرنه فلا يزال كذلك حتى يقتله ، ولا يعرض للدابة بوجه ولا سبب .وهم يطلبونه في الصحراء والغياض حتى يقتلوه .وذلك أنهم يصعدون الشجر العالية التي يكون بينها، ويجتمع لذلك عدة من الرماة بالسهام

المسمومة فإذا توسطهم رموه حتى يشخنوه ويقتلوه . ولقد رأيت عند الملك ثلاث طيفوريات (= أطباق عميقة) كبار تشبه الجزع اليماني عرفني أنها معمولة من أصل قرن هذا الحيوان وذكر بعض أهل البلد أنه الكركدن.

قال: وما رأيت منهم إنسانا يحمر بل أكثرهم معلول، وربما يموت أكثرهم بالقولنج حتى إنه ليكون بالطفل الرضيع منهم، وإذا مات المسلم عندهم أو زوج المرأة الخوارزميه غسلوه غسل المسلمين ثم حملوه على عجلة تجره وبين يديه مطرد حتى يصيروا به إلى المكان الذي يدفنونه فيه، فإذا صار إليه أخذوه عن العجلة وجعلوه على الأرض ثم خطوا حوله خطا ونحوه، ثم حفروا داخل ذلك الخط قبره وجعلوا له لحدا ودفنوه وكذلك يفعلون بموتاهم . ولا تبكي النساء على الميت بل الرجال منهم يبكون عليه يجيئون في اليوم الذي مات فيقفون على باب قبته فيضجون بأقبح بكاء يكون وأوحشه . هؤلاء للأحرار فإذا انقضى بكاؤهم وافى العبيد ومعهم جلود مضفورة فلا يزالون يبكون ويضربون جنوبهم وما ظهر من أبدانهم بتلك السيور حتى تصير في أجسادهم مثل ضرب السوط ولا بد من أن ينصبوا بباب قبته مطردا ويحضروا سلاحه فيجعلونها حول قبره ولا يقطعون البكاء سنتين. فإذا انقضت السنتان حطوا المطرد وأخذوا من شعورهم ودعا أقرباء الميت دعوة يعرف بها خروجهم من الحزن وإن كانت له زوجة تزوجت، هذا إذا كان من الرؤساء فأما العامة فيفعلون بعض هذا بموتاهم

وعلى ملك الصقالبة ضريبة يؤديها إلى ملك الخزر من كل بيت في مملكته جلد سمور ، وإذا قدمت السفينة من بلد الخزر إلى بلد الصقالبة ركب الملك فأحصى ما فيها وأخذ من جميع العشر، وإذا قدم الروس أو غيرهم من سائر الأجناس برقيق فللملك أن يختار من كل عشرة أرؤس رأسا . وابن ملك الصقالبة رهينة عند ملك الخزر، وقد كان اتصل بملك الخزر عن ابنة ملك الصقالبة جمال فوجه يخطبها فاحتج عليه ورده فبعث وأخذها غصبا ،وهو يهودي وهي مسلمة فماتت عنده فوجه يطلب بنتا له أخرى، فساعة اتصل ذلك بملك الصقالبة بادر فزوجها الملك اسكل وهو من تحت يده خيفة أن يغتصبه إياها كما فعل

بأختها، وإنما دعا ملك الصقالبة أن يكاتب السلطان ويسأله أن يبني له حصنا خوفا من ملك الخزر .

قال : وسألته يوما فقلت له "مملكتك واسعة ،وأموالك جمة ،وخراجك كثير، فلم سألت السلطان أن يبني حصنا بمال من عنده لا مقدار له ؟"فقال" رأيت دولة الإسلام مقبلة وأموالهم يؤخذ من حلها، فالتمست ذلك لهذه العلة، ولو أني أردت أن أبني حصنا من أموالي من فضة أو ذهب لما تعذر ذلك علي وإنما تبركت بمال أمير المؤمنين فسألته ذلك" .

الروسية

قال :ورأيت الروسية(= الروس) وقد وافوا في تجارتهم ،ونزلوا على نهر إتل فلم أر أتم أبدانا منهم كأنهم النخل شقر حمر لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين ،ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه ويخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه جميع ما ذكرنا، وسيوفهم صفائح مشطبة أفرنجية ومن حد ظفر الواحد منهم إلى عنقه مخضر شجر وصور وغير ذلك . وكل امرأة منهم فعلى ثديها حقة مشدودة إما من حديد وإما من فضة وإما من نحاس وإما من ذهب على قدر مال زوجها ومقداره، وفي كل حقة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضا، وفي أعناقهن أطواق من ذهب وفضة لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقا، وإن ملك عشرين ألفا صاغ لها طوقين ،وكذلك كل عشرة آلاف يزداد طوقا لامرأته، فربما كان في عنق الواحدة منهن الأطواق الكثيرة . وأجل الحلي عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذي يكون على السفن يبالغون فيه ويشترون الخرزة بدرهم وينظمونه عقودا لنسائهم.

وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا يغسلون أيديهم من الطعام بل هم كالحمير الضالة يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل ،وهو نهر كبي،ر ويبنون على شطه بيوتا كبارا من الخشب . ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر ولكل واحد سرير يجلس عليه، ومعهم الجواري الروقة(=الغواني) للتجار فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه

الحال بعضهم بحذاء بعض ،وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي أربه . ولا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه، وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتدفعها إلى مولاها فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة، ثم يمتخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئا من القذر إلا فعله في ذلك الماء ، فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي إلى جانبه ففعل مثل فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحد منهم يمتخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها .

وساعة توافي سفنهم إلى هذا المرسى ،يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم وبصل ولبن ونبيذ حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الإنسان ،وحولها صور صغار، وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت في الأرض ،فيوافي إلى الصورة الكبيرة ، ويسجد لها ثم يقول لها" يا رب قد جئت من بلد بعيد، ومعي من الجواري كذا وكذا رأسا ومن السمور كذا وكذا جلدا" حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته ثم يقول" وجئتك بهذه الهدية" ثم يترك الذي معه بين يدي الخشبة ويقول" أريد أن ترزقني تاجرا معه دنانير ودراهم كثيرة فيشتري مني كل ما أريد ولا يخالفني فيما أقول" ثم ينصرف . فإن تعسر عليه بيعه وطالت أيامه عاد بهدية ثانية وثالثة، فإن تعذر ما يريد حمل إلى كل صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألها الشفاعة وقال "هؤلاء نساء ربنا وبناته وبنوه "فلا يزال يطلب إلى صورة صورة يسألها ويستشفع بها ويتضرع بين يديها فربما تسهل له البيع، فباع فيقول "قد قضى ربي حاجتي وأحتاج أن أكافيه" فيعمد إلى عدة من الغنم أو البقر فيقتلها، ويتصدق ببعض اللحم ,ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها ,ويعلق رؤوس البقر أو الغنم على ذلك الخشب المنصوب في الأرض ,فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت جميع ذلك ,فيقول الذي فعله" قد رضي ربي عني وأكل هديتي" .

وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم وطرحوه فيها وجعلوا معه شيئا من الخبز والماء، ولا يقربونه ولا يكلمونه بل لا يتعاهدونه في كل أيام مرضه ،لا سيما إن كان ضعيفا أو مملوكا، فإن برئ وقام رجع إليهم ،وإن مات أحرقوه، فإن كان مملوكا تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير . وإذا أصابوا سارقا أو لصا جاءوا به إلى شجرة غليظة ، وشدوا في عنقه حبلا وثيقا وعلقوه فيها، ويبقى معلقا حتى يتقطع من المكث بالرياح والأمطار .

وكان يقال لي إنهم يفعلون برؤسهم عند الموت أمورا أقلها الحرق، فكنت أحب أن أقف على ذلك حتى بلغني موت رجل منهم جليل ،فجعلوه في قبره وسقفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها . وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها، والغني يجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاث: فثلث لأهله ،وثلث يقطعون له به ثيابا، وثلث ينبذون به نبيذا يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها .

وهم مستهترون بالنبيذ يشربونه ليلا ونهارا، وربما مات الواحد منهم والقدح في يده ، وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه "من منكم يموت معه؟" فيقول بعضهم " أنا "فإذا قال ذلك فقد وجب عليه لا يستوي له أن يرجع أبدا، ولو أراد ذلك ما تُرك. وأكثر من يفعل هذا الجواري . فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره، قالوا لجواريه" من يموت معه؟" فقالت إحداهن" أنا "فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث سلكت حتى إنها ربما غسلتا رجليها بأيديهما، وأخذوا في شانه وقطع الثياب له وإصلاح ما يحتاج إليه ، والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحة مستبشرة .

فلما كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية حضرتُ إلى النهر الذي فيه سفينته، فإذا هي قد أخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخدنك وغيره، وجعل أيضا حولها مثل الأنابير الكبار من الخشب ،ثم مدت حتى جعلت على ذلك الخشب، وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهم، وهو بعد في قبره لم يخرجوه ،ثم جاءوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات الديباج الرومي والمساند الديباج الرومي ،ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها "ملك الموت" ففرشت على السرير الفرش التي ذكرنا، وهي وليت خياطته

وإصلاحه ،وهي تقتل الجواري ورأيتها جوان بيرة(=العجوز الشمطاء) ضخمة مكفهرة. فلما وافوا قبره نحوا التراب عن الخشب ونحوا الخشب واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه، فرأيته قد اسود لبرد البلد، وقد كانوا جعلوا معه في قبره نبيذا وفاكهة وطنبورا، فأخرجوا جميع ذلك فإذا هو لم ينتن ولم يتغير منه شيء غير لونه . فألبسوه سراويل ورانا وخفا وقرطقا وخفتان ديباج له أزرار ذهب، وجعلوا على رأسه قلنسوة ديباج سمورية، وحملوه حتى أدخلوه القبة التي على السفينة ،وأجلسوه على المضربة، وأسندوه بالمساند، وجاءوا بالنبيذ والفاكهة والريحان فجعلوه معه . وجاءوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه، وجاءوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة، ثم جاءوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى غرقتا ،ثم قطعوهما بالسيف وألقوا لحمهما في السفينة . ثم جاءوا ببقرتين فقطعوهما أيضا وألقوهما فيها، ثم أحضروا ديكا ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها ، والجارية التي تريد أن تقتل ذاهبة وجائية تدخل قبة قبة من قبابهم فيجامعها صاحب القبة، ويقول لها" قولي لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك" فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاءوا بالجارية إلى شيء قد عملوه مثل ملبن الباب، فوضعت رجليها على أكف الرجال، وأشرفت على ذلك الملبن وتكلمت بكلام لها، فأنزلوها ثم أصعدوها ثانية ففعلت كفعلها في المرة الأولى، ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة ففعلت فعلها في المرتين ،ثم دفعوا إليها دجاجة فقطعت رأسها ،ورمت به وأخذوا الدجاجة فألقوها في السفينة .

فسألت الترجمان عن فعلها فقال" قالت في أول مرة أصعدوها هو ذا أرى أبي وأمي ،وقالت في الثانية هو ذا أرى جميع قرابتي الموتى قعودا، وقالت في المرة الثالثة هو ذا أرى مولاي قاعدا في الجنة، والجنة حسنة خضراء، ومعه الرجال والغلمان، وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه" فمروا بها نحو السفينة فنزعت سوارين كانا عليها ودفعتهما إلى المرأة التي تسمى "ملك الموت" وهي التي تقتلها ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها، وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت، ثم أصعدوها إلى السفينة ولم

يدخلوها إلى القبة ،وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا إليها قدحا نبيذا فغنت عليه وشربته فقال لي الترجمان :إنها تودع صواحباتها بذلك، ثم دفع إليها قدح آخر فأخذته، وطولت الغناء والعجوز تستحثها على شربه ،والدخول إلى القبة التي فيها مولاها .فرأيتها وقد تبلدت وأرادت دخول القبة فأدخلت رأسها بينها وبين السفينة فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبة ودخلت معها ، وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها، فيجزع غيرها من الجواري ولا يطلبن الموت مع مواليهن ثم دخل إلى القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ثم أضجعوها إلى جانب مولاها ،وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها وجعلت العجوز التي تسمى "ملك الموت "في عنقها حبلا مخالفا ودفعته إلى اثنين ليجذباه وأقبلت، ومعها خنجر عريض النصل فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعا موضعا وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت . ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبة وأشعلها بالنار ثم مشى القهقرى نحو قفاه إلى السفينة ووجهه إلى الناس والخشبة المشعلة في يده الواحدة ويده الأخرى على باب استه وهو عريان حتى أحرق الخشب المعبأ الذي تحت السفينة من بعدما وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها .

ثم وافى الناس بالخشب والحطب ومع كل واحد خشبة قد ألهب رأسها فيلقيها في ذلك الخشب، فتأخذ النار في الحطب ثم في السفينة ثم في القبة والرجل والجارية وجميع ما فيها ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتد لهب النار واضطرم تسعرها ،وكان إلى جانبي رجل من الروسية فسمعته يكلم الترجمان الذي معي فسألته عما قال له فقال إنه يقول "أنتم يا معاشر العرب حمقى "فقلت "لم ذلك ؟"قال" إنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم، وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب، وتأكله التراب والهوام والدود ،ونحن نحرقه بالنار في لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته "، ثم ضحك ضحكا مفرطا فسألت عن ذلك فقال "من محبة ربه له قد بعث الريح حتى تأخذه في ساعة" .

فما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والجارية والمولى رمادا مددا، ثم بنوا على موضع السفينة وكانوا قد أخرجوها من النهر شبيها بالتل المدور ونصبوا في

وسطه خشبة كبيرة خدنك ،وكتبوا عليها اسم الرجل واسم ملك الروس وانصرفوا .

قال : ومن رسم ملك الروس أن يكون معه في قصره أربعمئة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده فهم يموتون بموته ويقتلون دونه ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب وجارية أخرى يطؤها، وهؤلاء الأربعمئة يجلسون تحت سريره. وسريره عظيم مرصع بنفيس الجوهر ،ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه، وربما وطئ الواحدة منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا . ولا ينزل عن سريره فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت، وإذا أراد الركوب قدموا دابته إلى السرير فركبها منه، وإذا أراد النزول قدم دابته حتى يكون نزوله عليه .وله خليفة يسوس الجيوش، ويواقع الأعداء، ويخلفه في رعيته

الخزر

فأما ملك الخزر واسمه خاقان فإنه لا يظهر إلا في كل أربعة أشهر متنزه، ويقال له خاقان الكبير، ويقال لخليفته خاقان به وهو الذي يقود الجيوش ويسوسها ويدبر أمر المملكة ويقوم بها ويظهر ويغزو وله تذعن الملوك الذين يصاقبونه ويدخل في كل يوم إلى خاقان الأكبر متواضعا يظهر الأخبات والسكينة ولا يدخل عليه إلا حافيا وبيده حطب فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب فإذا فرغ من الوقود جلس مع الملك على سريره عم يمينه ويخلفه رجل يقال له كندر خاقان ويخلف هذا أيضا رجل يقال له جاوشيغر .

ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ولا يكلمهم ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا والولايات في الحل والعقد والعقوبات وتدبير المملكة على خليفته خاقان به . ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتا ويحفر له في كل بيت منها قبر وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل وتفرش فيه وتطرح النورة فوق ذلك وتحت الدار نهر والنهر نهر كبير يجري ويجعلون القبر فوق ذلك النهر ويقولون حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام . وإذا دفن ضربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدرى أين قبره من تلك البيوت ويسمى قبره الجنة ويقولون قد دخل الجنة وتفرش البيوت كلها بالديباج

المنسوج بالذهب .

ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه يأخذها طوعا أو كرها وله من الجواري السراري لفراشه ستون ما منهن إلا فائقة الجمال وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصر مفرد لها قبة مغشاة بالساج وحول كل قبة مضرب ولكل واحدة منهم خادم يحجبها ،فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه ويقف الخادم على باب قبة الملك فإذا وطئها أخذ بيدها وانصرف ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة .

وإذا ركب هذا الملك الكبير ركب سائر الجيوش لركوبه ويكون بينه وبين المواكب ميل فلا يراه أحد من رعيته إلا خر لوجهه ساجدا له لا يرفع رأسه حتى يجوزه . ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يوما واحدا قتلته الرعية وخاصته وقالوا هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه . وإذا بعث سرية لم تول الدبر بوجه ولا سبب ،فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها، فأما القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم وربما قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهم وربما علقهم بأعناقهم في الشجر وربما جعلهم إذا أحسن إليهم ساسة .

وللملك الخزر مدينة عظيمة على النهر إتل وهي جانبان في أحد الجانبين المسلمون وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه، وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له "خز" وهو مسلم ،وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في أمورهم ولا يقضي بينهم غيره.)

وفي هذا السياق يحسن أن نورد رحلة مبكرة قام بها الشاعر الأندلسي الغزال، إنها تصور انطباعات أديب بجانب محدد من بلاد الشمال، لكنها تصلح ابضا أنموذجا للإرتحالات التي تعرض بإسلوب أدبي رفيع العلاقات بين الشاعر والمرأة الأجنبية التي تستثير مشاعره.

(١٩)

رحلة الغزال إلى بلاد الشمال

عاش من(١٥٦-٢٥٠هجري=٧٧٠-٨٦٤ميلادي)

بدات الرحلة في (عام ٢٣١هجري=٨٤٥ميلادي)

أوردها ابن دحية (توفي ٦٣٣هجري=١٢٣٦ميلادي)

في كتاب(المطرب من أشعار أهل المغرب)

(ولما وفد على السلطان عبدالرحمن رسل ملك المجوس تطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية، وإيقاعهم بجهاتها ثم هزيمتهم بها، وقتل قائد الأسطول فيها، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك، فأمر الغزال أن يمشي في رسالته مع رسل ملكهم، لما كان الغزال عليه من حدّة الخاطر، وبديهة الرأي، وحسن الجواب والنجدة والإقدام والدخول والخروج من كل باب، وصحبتُه يحيى بن حبيب، فنهض إلى مدينة شلب(= مدينة اندلسيةجنوب باجة)، وقد أنشئ لهما مركب حسن كامل الآلة، وروجع ملك المجوس على رسالته وكوفئ على هديته، ومشى رسول ملكهم في مركبهم الذي جاءوا فيه مع مركب الغزال، فلما حاذوا الطرف الأعظم الداخل في البحر الذي هو حدّ الأندلس في آخر الغرب، وهو الجبل المعروف بألوية هاج عليهم البحر، وعصفت بهم ريح شديدة وحصلوا في الحد الذي وصف الغزال في قوله :

قال لي يحيى وصر	نا بين موج كالجبال
وتولّتنا رياح	من دبور وشمال
شقّت القلعين وانـ	ـبتّت عُرا تلك الحبال
وتمطّى ملك المو	ت إلينا عن حيال
فرأينا الموت رأى ال	عين حالاً بعد حال
لم يكن للقوم فينا	يا رفيقي رأس مال

ثم إن الغزال سلم من هول تلك البحار، وركوب الأخطار ؛ ووصل أول بلاد المجوس إلى جزيرة من جزائرها، فإقاموا فيها أياماً وأصلحوا مراكبهم، وأجمّوا أنفسهم. وتقدم مركب المجوس الى ملكهم، فأعلمه بلحاق الرسل معهم، فسرّ بذلك ووجّه فيهم، فمشوا اليه الى مستقر ملكه، وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط، فيها مياه مطّردة وجنات، وبينها وبين البر ثلاث مجار، وهي ثلاثمائة ميل، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم. وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة، منها صغار وكبار، أهلها كلهم مجوس، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام، وهم مجوس، وهم اليوم على دين النصرانية وقد تركوا عبادة النار، ودينهم الذي كانوا عليه، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم في البحر هم على دينهم الأول من عبادة النار، ونكاح الأم والأخت وغير ذلك من أصناف الشّنار. وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم. فأمر لهم الملك بمنزل حسن من منازلهم، وأخرج اليهم من يلقاهم، واحتفل المجوس لرؤيتهم. فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم.

ثم أنهم أنزلوا في كرامة، واقاموا يومهم ذلك، واستدعاهم بعد يومين الى رؤيته، فاشترط الغزال عليه الاّ يسجد له ولا يخرجهما عن شيء من سنتهما، فأجابهما الى ذلك. فلما مشيا اليه قعد لهما في أحسن هيئة، وأمر بالمدخل الذي يفضي اليه، فضيّق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعاً، فلما وصل إليه جلس إلى الأرض وقدم رجليه وزحف على أليته زحفة، فلما جاز الباب استوى واقفاً. والملك قد أعد له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة. فما هاله ذلك ولا ذعره، بل قام ماثلاً بين يديه، فقال: " السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمه مشهدك، والتحية الكريمة لك، ولا زلت تمتّع بالعز والبقاء والكرامة الماضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة، المتصلة بالدوام في جوار الحي القيوم، الذي كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه المرجع" .

ففسّر له الترجمان ما قاله، فأعظم الكلام، وقال: " هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهاتهم" ، وعجب من جلوسه الى الأرض وتقديمه رجليه في الدخول، قال: " أردنا أن نذله، فقابل وجوهنا بنعليه، ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه" . ثم دفع إليه كتاب

السلطان عبدالرحمن وقرئ عليه الكتاب، وفسِّر له. فاستحسنه وأخذه في يده، فرفعه ثم وضعه في حجره، وأمر بالهدية ففتحت عيابها، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأواني، فأعجب بها، وأمر بهم فانصرفوا الى منزلهم ووسع الجراية عليهم. وللغزال معهم مجالس مذكورة، ومقاوم مشهورة، في بعضها جادل علماءهم فبكّتهم، وفي بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم.

ولما سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجّهت فيه لتراه، فلما دخل عليها سلم، ثم شخص فيها طويلاً ينظرها نظر المتعجب. فقالت لترجمانها: "سله عن إدمان نظره لماذا هو؟ ألفرط استحسان أم لضد ذلك؟" فقال: "ما هو إلا أنّي لم أتوهم أن في العالم منظراً مثل هذا، وقد رأيت عند ملكنا نساءً انتخبن له من جميع الأمم فلم أر فيهن حسناً يشبه هذا".
فقالت لترجمانها: " سله أمجّدٌ هو أم هازل؟" فقال: " لا، بل مجّد". فقالت له: "فليس في بلدهم إذا جمال"، فقال الغزال: "فاعرضوا عليّ من نسائكم حتى أقيسها بها". فوجهت الملكة في نساء معلومات بالجمال فحضرن، فصعد فيهن وصوّب ثم قال: "فيهن جمال وليس كجمال الملكة، لأن الحسن الذي لها والصفات المناسبة ليس يميزه كل أحد، وإنما يعنى به الشعراء، وإن أحبت الملكة أن أصف حسنها وحسبها وعقلها في شعر يروى في جميع بلادنا فعلت ذلك". فسرّت بذلك سروراً عظيماً وزهيت، وأمرت له بصلة، فامتنع مِنْ أخذها الغزال، وقال:" لا أفعل". فقالت للترجمان: "سله، لم لا يقبل صلتي؟ ألأنه حقَرها أم لأنه حقَرني؟ "فسأله، فقال الغزال:" إن صلتها لجزيلة وإن الأخذ منها لتشرُّف لأنها ملكة بنت ملك، ولكن كفاني من الصلة نظري إليها وإقبالها عليّ، فحسبي بذلك صلة، وإنما أريد أن تصلني بالوصول إليها أبداً". فلما فسر لها الترجمان كلامه زادت منه سروراً وعجباً، وقالت: "تحمل صلتُه إليه، ومتى أحب أن يأتيني زائراً فلا يحجب، وله عندي من الكرامة والرحب والسعة". فشكرها الغزال، ودعا لها وانصرف.

قال تمّام بن علقمة: سمعت الغزال يحدِّث بهذا الحديث، فقلت له:" وكان لها من الجمال في نفسها بعض هذه المنزلة التي صورت؟" فقال:" وأبيك، لقد كانت فيها حلاوة،

ولكني اجتلبت بهذا القول محبتها، ونلت منها فوق ما أردت".

قال تمام بن علقمة: وأخبرني أحد أصحابه، قال: "أُولعت زوجة ملك المجوس بالغزال فكانت لا تصبر عنه يوماً حتى توجّه فيه، ويقيم عندها يحدثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم، وبمن يجاورهم من الأمم. فقلما انصرف يوماً قط من عندها إلا أتبعته هدية، تلطفه بها من ثياب أو طعام أو طيب، حتى شاع خبرها معه، وأنكره أصحابه، وحُذّر منه الغزال، فحذر وأغبَّ زيارتها. فباحثته عن ذلك، فقال لها ما حُذّر منه. فضحكت، وقالت له: " ليس في ديننا نحن هذا، ولا عندنا غيرة، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن، تقيم المرأة معه ما أحبت، وتفارقه إذا كرهت. وأما عادة المجوس قبل أن يصل اليهم دين رومة، فالا يمتنع أحد من النساء على أحد من الرجال، إلا أن يصحب الشريفة الوضيع، فتعيّر بذلك، ويحجره عليها أهلها". فلما سمع ذلك الغزال من قولها أنس اليه، وعاد الى استرساله.

قال تمام: كان الغزال في اكتهاله وسيماً، وكان في صباه جميلاً، ولذلك سمّى بالغزال. ومشى الى بلاد المجوس وهو قد شارف الخمسين وقد وخطه الشيب، ولكنه كان مجتمع الأشُد، ضَرْبَ الجسم، حسن الصورة. فسألته يوماً زوجة الملك –واسمها نود– عن سنّه، فقال مداعباً لها: " عشرون سنة". فقالت للترجمان: "ومَنْ هو من عشرين سنة يكون به هذا الشيب؟" فقال للترجمان: " وما تنكر من هذا؟ ألم ترقط مهراً ينتج وهو أشهب؟" فضحكت نود، وأعجبت بقوله. فقال في ذلك الغزال بديها:

كلفت يا قلبي هوىً متعِباً ... غالبتَ منه الضيغمَ الأغلبا
إني تعلّقتُ مجوسيةً ... تأبى لشمس الحسن أن تغرُبا
أقصى بلاد الله لي حيث لا ... يلقى اليها ذاهب مذهبا
يا نود يا رُودَ الشباب التي ... تُطلِعُ من أزرارها الكوكبا
يا بأبي الشخصُ الذي لا أرى ... أحلى على قلبي ولا أعذَبا
إن قلتُ يوماً إن عيني رأتْ ... مشبِهَه لم أعدُ أن أكذبا
قالت أرى فودَيه قد نوّرا ... دُعابةً توجب أن أدْعبا

قلـت لـهـــــا يـا بـأبى إنـــه	قـــد يُنتَجُ المهــرُ كـذا أشهـبـــا
فـاستـضـحكت عُجْباً بقـولى لهـا	وإنما قلـت لكي تَعجـــبـــا

لما أنشد "نود" الشعرَ وفسره الترجمان لها، ضحكت منه وأمرته بالخضاب. ففعل ذلك الغزال، وغدا عليها يوماً ثانياً وقد اختضب، فمدحت خضابه وحسّنته عنده، ففي ذلك يقول الغزال:

بـكرَت تحـسِّنُ لي سـواد خِـضـابي	فـكـأن ذاك أعـــادني لـشــــبـابي
مـا الشـيبُ عنـدي والخضـاب لواصف	إلا كــــشـــمـسٍ جُلّلت بضـبـاب
تخـفَى قـليـلاً ثم يقـشَعـهـا الصَّبـا	فـيـصـيـُر مـا سُتِـرت بـه لذَهـاب
لا تُـنكري وضَح المشـيـب فـإنما	هـو زهـرةُ الأفـــــهـام والألـبـاب
فلديَّ مـا تهـوينَ من شـأن الصَّبـا	وطـــلاوةِ الأخـــــــلاق والآداب

ثم انفصل الغزال عنهم، وصحبه الرسل الى شنت يعقوب بكتاب ملك المجوس الى صاحبها. فأقام عنده مكرّماً شهرين، حتى انقضى حجُّهم، فصدر الى قشتالة مع الصادرين، ومنها خرج الى طليطلة حتى لحق بحضرة السلطان عبدالرحمن بعد انقضاء عشرين شهراً.

تشكّل رحلة سلاّم الترجمان إلى بلاد يأجوج ومأجوج حدثا خاصا، لأنه كان مبعوثا من الخليفة الواثق للتحقق من السد الذي بناه الإسكندر ذو القرنين للفصل بين أقوام يأجوج ومأجوج وبقية بني البشر اتقاء شرّهم، وخبر هذه الرحلة متداول بين الجغرافيين المسلمين ، وقد ذكر ابن خرداذبة وابن فضلان والإدريسي وابن حوقل والإصطخري وابن سعيد وغيرهم هذه الأقوام، وأورد بعضهم نص الرحلة، وأشارابن بطوطةإليهم رحلته ، لكنه شكك بوجود السد الذي وصفه سلاّم الترجمان وقال(لم أر بتلك البلاد مَنْ رأى السد المذكور ، ولا مَنْ رأى من رآه) ، إلى ذلك فقد وردت إشارة في رحلات ماركو بولو إلى هذه الأقوام وبلادها.وتكاد تكون رحلة سلاّم مغامرة من مغامرات الخيال، لكنّ ابن خرداذبه يوثّقها ، كما يشير إلى ذلك في مقدمة النص وخاتمته.

(٢٠)
رحلة سلاّم الترجمان إلى بلاد يأجوج ومأجوج
(ارتحل بأمر من الخليفة العباسي الواثق الذي حكم بين ٢٢٧-٢٣٣هجري ٨٤١-٨٤٧ميلادي)
أوردها ابن خرداذبه (توفي ٣٠٠هجري=٩١٣ميلادي)
في كتاب (المسالك والممالك)

صفة سد ياجوج وماجوج

فحدثني سلام الترجمان أن الواثق بالله لما رأى في منامه كأن السد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين ياجوج وماجوج قد انفتح فطلب رجلا يخرجه إلى الموضع فيستخبر خبره ، فقال أشناس : ما هاهنا أحد يصلح إلا سلاّم الترجمان ،وكان يتكلم بثلاثين لسانا، قال : فدعا بي الواثق ،وقال : أريد أن تخرج إلى السد حتى تعاينه وتجيئني بخبره، وضم إلى خمسين رجلا شباب أقوياء، ووصلني بخمسة آلاف دينار وأعطاني ديتي عشرة آلاف درهم ،وأمر فأُعطي كل رجل من الخمسين ألف درهم ورزق سنة، وأمر أن يهيأ للرجال اللبابيد وتغشى بالاديم، واستعمل لهم اللستبانات بالفراء والركب الخشب ،وأعطاني مائتي بغل لحمل الزاد والماء فشخصنا من "سُرَّ من رأى "بكتاب من الواثق بالله إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية وهو بتفليس في إنفاذنا ،وكتب لنا إسحاق إلى صاحب السرير ،وكتب لنا صاحب السرير إلى ملك اللاّن، وكتب لنا ملك اللاّن إلى فيلان شاه، وكتب لنا فيلان شاه إلى طرخان ملك الخزر، فاقمنا عند ملك الخزر يوما وليلة حتى وجه معنا خمسة أدلاء فسرنا من عنده ستة وعشرين يوما فانتهينا إلى أرض سوداء مُنتنة الرائحة. وكنا قد تزودنا قبل دخولها خلاًّ نشمّه من الرائحة المنكرة ،فسرنا فيها عشرة أيام، ثم صرنا إلى مدن خراب، فسرنا فيها عشرين يوما .فسألنا عن حال تلك المدن فخُبِّرنا أنها المدن التي كان ياجوج وماجوج

يتطرقونها فخربوها، ثم صرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي فيه شعبة منه السدّ، وفي تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية مسلمون يقرؤون القرآن ،لهم كتاتيب ومساجد فسألونا من أين أقبلنا، فأخبرناهم أنّا رسل أمير المؤمنين، فأقبلوا يتعجبون ويقولون: أمير المؤمنين! فنقول: نعم، فقالوا: شيخ هو أم شاب؟ فقلنا :شاب، فعجبوا أيضا، فقالوا: أين يكون؟ فقلنا: بالعراق، في مدينة يقال لها سُرَّ من رأى ،فقالوا: ما سمعنا بهذا قط.

وبين كل حصن من تلك الحصون إلى الحصن الآخر فرسخ إلى فرسخين أقل وأكثر، ثم صرنا إلى مدينة يقال لها أيكة تربيعها عشرة فراسخ ولها أبواب حديد يرسل الأبواب من فرقها، وفيها مزارع وأرحاء داخل المدينة، وهي التي كان ينزلها ذو القرنين بعسكره ،بينها وبين السد مسيرة ثلاثة أيام وبينها وبين السد حصون وقرى حتى تصير إلى السد في اليوم الثالث، وهو جبل مستدير ذكروا أن ياجوج وماجوج فيه، وهما صنفان ذكروا أن ياجوج أطول من ماجوج ويكون طول أحدهم ما بين ذراع إلى ذراع ونصف ،وأقل وأكثر، ثم صرنا إلى جبل عال عليه حصن ،والسد الذي بناه ذو القرنين هو فج بين جبلين عرضه مائتا ذراع، وهو الطريق الذي يخرجون منه فيتفرقون في الأرض فحفر أساسه ثلاثين ذراعا إلى أسفل وبناه بالحديد والنحاس حتى ساقه إلى وجه الأرض ،ثم رفع عضادتين مما يلي الجبل من جنبتي الفج عرض كل عضادة خمس وعشرون ذراعا في سمك خمسين ذراعا الظاهر من تحتهما عشر أذرع خارج الباب، وكله بناء بلبن من حديد مغيب في نحاس تكون اللبنة ذراعا ونصفا في ذراع ونصف في سمك أربع أصابع ودروند حديد طرفاه على العضادتين طوله مائة وعشرون ذراعا قد ركب على العضادتين على كل واحدة بمقدار عشر أذرع في عرض خمس أذرع، وفوق الدروند بناء بذلك اللبن الحديد في النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مد البصر يكون البناء فوق الدروند نحوا من ستين ذراعا، وفوق ذلك شرف حديد في طرف كل شرفة قرنتان تنثنى كل واحدة منهما على الأخرى طول كل شرفة خمس أذرع في عرض أربع أذرع وعليه سبع وثلاثون شرفة، وإذا باب حديد مصراعين معلقين عرض كل مصراع خمسون ذراعا في ارتفاع خمس وسبعين ذراعا في ثخن خمس أذرع وقائمتاهما في

دوارة على قدر الدروند لا يدخل من الباب ولا من الجبل ريح كأنه خلق خلقة وعلى الباب قفل طوله سبع أذرع في غلظ باع في الإستدارة، والقفل لا يحتضنه رجلان وارتفاع القفل من الأرض خمس وعشرون ذراعا ،وفوق القفل بقدر خمس أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل وقفيزاه كل واحد منهما ذراعان وعلى الغلق مفتاح معلق طوله ذراع ونصف وله اثنتا عشرة دندانكة كل دندانكة في صفة دستج الهواوين واستدارة المفتاح أربعة أشبار معلق في سلسلة ملحومة بالباب طولها ثماني أذرع في استدارة أربعة أشبار، والحلقة التي فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق وعتبة الباب عرضها عشر أذرع في بسط مائة ذراع سوى ما تحت العضادتين ،والظاهر منها خمس أذرع وهذه الذراع كلها بالذراع السوداء، ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتي ذراع في مائتي ذراع وعلى باب هذين الحصنين شجرتان وبين الحصنين عين عذبة، وفي أحد الحصنين آلة البناء التي بني بها السد من القدور الحديد والمغارف الحديد على كل ديكدان أربع قدور مثل قدور الصابون وهناك بقية من اللبن الحديد قد التزق بعضه ببعض من الصدأ،

ورئيس تلك الحصون يركب في كل يوم اثنين وخميس وهم يتوارثون ذلك الباب كما يتوارث الخلفاء الخلافة ،يجيء راكبا ومعه ثلاثة رجال على عنق كل رجل مرزبة، ومع الباب درجة فيصعد على أعلى الدرجة فيضرب القفل ضربة في أول النهار فيسمع لهم جلبة مثل كور الزنابير ثم يخمدون، فإذا كان عند الظهر ضربه ضربة أخرى، ويصغي بأذنه إلى الباب فتكون جلبتهم في الثانية أشد من الأوّلة ثم يخمدون فإذا كان وقت العصر ضرب ضربة أخرى فيضجُّون مثل ذلك ثم يقعد إلى مغيب الشمس ثم ينصرف الغرض في قرع القفل أن يسمع مَن وراء الباب ،فيعلموا أن هناك حفظة ويعلم هؤلاء أن هاولئك لم يحدثوا في الباب حدثا، وبالقرب من هذا الموضع حصن كبير يكون عشرة فراسخ في عشرة فراسخ تدبيره مائة فرسخ.

قال سلاّم فقلت لمن كان بالحضرة من أهل الحصون: هل عاب من هذا الباب شيء قط؟ قالوا: ما فيه إلا هذا الشقّ ،والشقّ كان بالعرض مثل الخيط دقيق. فقلت :تخشون عليه شيئا؟ فقالوا :لا إن هذا الباب ثخنه خمس أذرع بذراع الإسكندر يكون ذراعا ونصفا

بالأسود كل ذراع واحدة من ذراع الإسكندر، قال :فدنوت وأخرجت من خُفّى سكينا فحككت موضع الشقّ ،فأخرج منه مقدار نصف درهم وأشده في منديل لأُريه الواثق بالله، وعلى فرد مصراع الباب الأيمن في أعلاه مكتوب بالحديد باللسان الأول: فإذا جاء وَعْد ربي جعله دكّاء ،وكان وَعْد ربي حقا :وننظر إلى البناية وأكثره مخطّط ساف أصفر من نحاس وساف أسود من حديد، وفي الجبل محفور الموضع الذي صُبّ فيه الأبواب ،وموضع القدور التي كان يخلط فيها النحاس والموضع الذي كان يغلي فيه الرصاص والنحاس وقدور شبيهة بالصفر لكل قدر ثلاث عُرى فيها السلاسل والكلاليب التي كان يمد بها النحاس إلى فوق السور، وسألنا مَنْ هناك: هل رأيتم من ياجوج وماجوج أحدا ؟ فذكروا أنهم رأوا مرة عددا فوق الجبل فهبت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم ،وكان مقدار الرجل في رأى العين شبرا ونصفا، والجبل من خارج ليس له متن ولا سفح ولا عليه نبات ولا حشيش ولا شجرة ولا غير ذلك ،وهو جبل مسلنطح قائم أملس أبيض.

فلما انصرفنا أخذ الإدلاء بنا إلى ناحية خراسان، وكان الملك يسمى اللب ،ثم خرجنا من ذلك الموضع وصرنا إلى موضع ملك يقال له طبانويَن، وهو صاحب الخراج .فأقمنا عندهم أياما وسرنا من ذلك الموضع حتى وردنا سمرقند في ثمانية أشهر، ووردنا على أسبيشاب، وعبرنا نهر بلخ ثم صرنا إلى شروسنة وإلى بخارا وإلى تِرمِذ، ثم وصلنا إلى نيسابور، ومات من الرجال الذين كانوا معنا ومَن مرض منهم في الذهاب اثنان وعشرون رجلا مَن مات منهم دُفن في ثيابه ،ومَن مرض خلّفناه مريضا في بعض القرى ،ومات في المرجع أربعة عشر رجلا ،فوردنا نيسابور ونحن أربعة عشر رجلا، وكان أصحاب الحصون زودونا ما كفانا، ثم صرنا إلى عبد الله بن طاهر فوصلني بثمانية آلاف درهم، ووصل كل رجل معي بخمس مائة درهم ، وأجرى للفارس خمسة دراهم وللراجل ثلاثة دراهم في كل يوم إلى الري، ولم يسلم من البغال التي كانت معنا إلا ثلاثة وعشرون بغلا، ووردنا سُرَّ من رأى فدخلت على الواثق فأخبرته بالقصة ،وأريته الحديد الذي كنت حككته من الباب. فحمد الله .وأمر بصدقة يُتصدق بها، وأعطى الرجال كل رجل ألف دينار، وكان وصولنا إلى السد في ستة عشر شهرا ورجعنا في اثني عشر شهرا وأيام.

فحدثني سلاّم الترجمان بجملة هذا الخبر ثم أملاه عليّ من كتاب كان كتبه للواثق بالله) .

إلى وقت قريب ظلت رحلة أبي دُلف إلى أرمينيا والأجزاء الوسطى من آسيا شبه مجهولة، قياسا برحلته الأخرى المشهورة إلى الصين والهند."وهذه الرحلة تكاد تنصرف إلى الأحوال الإقتصادية والطبيعية لهذه المناطق الوعرة. والحق فإن هذه الرحلة تعتبر أغزر النصوص ثراء بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والاقتصادية لعدد كبير من الشعوب التي قيّض لأبي دلف زيارتها .إنه صاحب ملاحظات ثاقبة، ولديه معلومات مثيرة للعجب في مجال المعادن ،والصناعات اليدوية، والزراعة، والمناخ، والشعوب، وتضاريس الطبيعة ،والقيم الأخلاقية السائدة في المناطق التي يزورها. ومع أن رحلته في تنتهي في بلاد فارس، لكنها تعرض تصورات شاملة لكثير من بلاد الشمالية، وهي بعمومها نص بالغ الأهمية للأحوال الاجتماعية في القرن العاشر الميلادي.

(٢١)

رحلة أبي دُلف إلى أرمينيا وبلاد القوقاز وأذربيجان وماجاورها من البلاد(عاش أبو دُلف مسعر بن المهلهل الخزرجي بين ٣٠٠-٣٩٠هجري=٩١٣-١٠٠١ميلادي)

وقام بهذه الرحلة على الأغلب بعد رحلته المشهورة مبعوثا إلى الصين حوالي ٣٣١هجري=٩٤٣ميلادي،ويرجّح أنه قام بها بعد ٣٤٠هجري لوجود اشارات فيها عن احداث وقعت عام٣٤١هجري=حوالي ٩٦٠ميلادي)

أما بعد حمد الله والثناء على أولى مقاماته في أرضه وسمائه، ومسألة العون على الخير كله، فإني جردت لكما يامن أنا عبدكما أدام الله لكما العز والتأييد والقدرة والتمكين، جملة من سفري كان من بخارى إلى الصين على خط الوتر ورجوعي منها على الهند، وهو سمت قوسه . وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها وسلكته من قبائلها. ولم

أستقص المقالة حذرا من الإطالة، ورأيت الآن تجريد رسالة شافية تجمع عامة ما شاهدته، وتحيط بأكثر ما عاينته لينتفع به المعتبرون ،ويتدرب به أولو العزة والطمأنينة، ويثقف به رأي من عجز عن سياحة الأرض، فأبدأ بذكر المعادن الطبيعية والعجائب المعدنية إذ هي أعم نفعا، فأتحرى في ذلك الايجاز .والله ولي التوفيق، وهو حسبي ونعم المعين.

ولما شارفت الصنعة الشريفة والتجارة المربحة من التصعيدات والتقطيرات والحلول والتكليسات خامر قلبي شك في الحجارة واشتبهت على العقاقير فأوجب الرأي اتباع الركازات والمنابع فوصلت بالخبر والصفة إلى "الشيرز"(= مدينة في جنوب أذربيجان سابقا) وهي مدينة بين المراغة وزنجان وشهر زور والدينور بين جبال، تجمع معادن الذهب، ومعادن الزئبق، ومعادن الأسرب (= القصدير)،ومعادن الفضة ،ومعادن الزرنيخ الأصفر ، ومعادن للحجارة المعروفة بالجمست ،فأما ذهبها فهو ثلاثة أنواع نوع يعرف بالقومسي (نسبة إلى مدينة قومس جنوب قزوين) وهو تراب يصب عليه الماء، فيسيل ويبقى تبر كالذّر يجمع بالزئبق، وهو أحمر خلوقي (=فاتح) ثقيل، نقي، صبغ ممتنع على النار، لين يمتد، .ونوع آخر يقال له الشهرني يوجد قطعا من حبة إلى عشرة مثاقيل صبغ صلب رزين إلا أن فيه يبسا قليلا . ونوع آخر يقال له السجابذي، أبيض،رخو، رزين أحمر المحك يصبغ بالزاج، وزرنيخها مصفح قليل الغبار يدخل في التزابين والتزاويق، ومنه خاصة يعمل أهل اصفهان فصوصا ولا أحمر فيها . وزريبقها أجل من الخراساني، وأثقل وأنقى،وقداختبرناه فتقرر من الثلثين واحد في كيان الفضة المعدنية ،ولم نجد من ذلك في المشرق. وأما فضتها فإنها تعز لعز الفحم عندهم.

هذه المدينة يحيط سورها ببحير في وسطها، لا يدرك له قرار. وإني ارسيت فيه أربعة عشر ألف ذراع وكسورا من ألف فلم تستقر المثقلة ،ولا اطمأنت واستدارته نحو جريب بالهاشمي(=وحدة قياس للمساحة قرابة ٤٠٠م٢) ومتى بل ماؤه بتراب صار لوقته حجرا صلدا ،وتخرج منه سبعة أنهار كل واحد منها ينزل على رحى ثم يخرج تحت السور، وبها بيت نار عظيم الشأن منه تذكى نيران المجوس إلى المشرق والمغرب وعلى رأس قبته هلال فضة

هو طلسمه وقد حاول قلعه خلق من الأمراء والمتغلبين فلم يقدروا على ذلك(= يقصد بذلك المعبد الزرادشتي المشهور "آذار جوشناسب" في مدينة الشيز). ومن أعاجيب هذا البيت أيضا أن كانونه يوقد منذ سبعمائة سنة فلا يوجد فيه رماد البتة، ولا ينقطع الوقود عنه ساعة من الزمان. وهذه المدينة بناها هرمز بن خسر وشير بن بهرام بحجر وكلس. وعند هذا البيت ايوانات شاهقة وأبنية عظيمة هائلة، ومتى قصد هذه المدينة عدو نصب المنجنيق على سورها ،فإن حجره يقع في البحيرة التي ذكرناها، فإن آخر منجنيقه ولو ذراعا. بالمثل سقط الحجر خارج السور.

والخبر في بناء هذه المدينة أن هرمز ملك الفرس بلغه أن مولودا ولدا مباركا يولد في بيت المقدس في قرية يقال لها بيت لحم ،وأن قربانه يكون ذهبا وزيتا ولبانا ،فأنفذ بعض ثقاته بمال عظيم وأمره أن يشتري من بيت المقدس ألف قنطار زيتا، وحمل معه لبانا كثيرا، وأمره أن يمضي إلى بيت المقدس،ويسأل عن أمر هذا المولود فإذا وقف عليه دفع الهدية إلى أمه ،وبشرها بما يكون لولدها من الشرف والذكر وفعل الخير، ويسألها أن تدعو له ولأهل مملكته. ففعل الرجل ما أمر وصار إلى مريم فدفع إليها ما وجه به معه، وعرّفها بركة ولدها. فلما أراد الانصراف عنها دفعت إليه جراب تراب، وقالت له عرّف صاحبك أن سيكون لهذا التراب بناء فأخذه وانصرف.

فلما صار إلى موضع "الشيز" وهو إذ ذاك صحراء مات. وقد كان قبل موته حين أحس بذلك دفن الجراب هنالك، واتصل الخبر بالملك. فتزعم الفرس أنه وجّه رجلا معه ،وقال له "اقض إلى المكان الذي مات فيه صاحبنا فابن على الجراب بيت نار". وقال "ومن أين أعرف مكانه؟"، قال" امض فلن يخفى عليك"، فلما وصل إلى الموضع تحير وبقى لا يدري أي شئ يصنع، فلما أمسى وأجنّه الليل ،نظر إلى نور عظيم يرتفع من مكان بالقرب منه فعلم أنه الموضع الذي يريده. فصار إليه ،وخط حول النور خط وبات ،فلما أصبح أمر بالبناء على ذلك الخط ،فهو بيت النار الذي بالشيز.

وخرجتُ من هذه المدينة إلى مدينة أخرى على أربعة فراسخ تعرف بالران(=في أرمينيا)

فيها معدن ذهب ثقيل أبيض فضي أحمر المحك إذا حمل على عشرته واحد من الفضة أحمر، ووجدت معدن الأسرب بها، واستعملت منه مرداسنجا(=مركّب كيمياوي يقصد به أوكسيد الرصاص) فخلص لي من كل مَنٍّ دانق ونصف فضة، ولم أجد فيما سواه من معادن الرصاص .ووجدت بها اليبروح (= مخدّر نباتي)كثيرا عظيم الخلقة يكون الواحد منه عشرة أذرع أو أكثر من ذلك. وفي هذه المدينة نهر من شرب منه أمن من الحصاة ،وبها حشيشة تضحك من تكون معه حتى يخرج به الضحك إلى الرعونة، وإن سقطت منه أو شئ منها اعتراه حزن لذلك فبكى، وبها حجارة بيض غير شفافة تقيم الرصاص ويقع بها من السحاب دويبة تنفع من داء الثعلب باللطوخ ،وثعالبها قرع الرؤوس بلا شعر البتة.

وسرتُ منها إلى وادي اسفندوبة (=يرجح أنه نهر سفيد رود) فوجدت عليها حمامات كثيرة بورقية (=حمامات معدنية) تنفع من الرياح في العصب فقط، وبه حمة تصلح للحفاء. ووصلت منها إلى معدن زاج أحمر سوري ينبت فيه الذهب الأبيض في الصيف، فيحمر من داخل حقه. وخرجت من هناك إلى "الطرم" فوجدت بها "ويزنجان" معادن للزاج شريفة تفوق المصري والقبرسي والكرماني ،ووجدت بها معادن بوارق وشبوب البياض والحمرة ،ووجدت بها حمة تصلح للجراحة العتيقة فأما الطرية فلا. ووجدت بها عينا تنبع ماء يستحجر إذا ضربه الهواء تنفع من ديم الأرحام سيالا، ومن دبر الحمير جامدا. ووجدت بها حجارة بيضاء تقوم مقام الباذزهر.

ووصلت إلى قلعة ملك الديلم المعروفة "بسميران" فرايت في ابنيتها وأعمال فيها ما لم أشاهده في غيرها من مواطن الملوك ،وذاك أن فيها ألفين وثمانمائة ونيفا وخمسين دارا كبارا وصغارا. وكان محمد بن مسافر صاحبها إذا نظر إلى سلعة حسناء أو عمل محكم سأل عن صانعه فإذا أخبر بمكانه وموضعه أنفذ إليه من المال ما يرغب مثله فيه، وضمن له أضعاف ذلك إذا صار إليه فإذا حصل عنده منع أن يخرج من القلعة بقية عمره. وكان يأخذ أولاد رعيته ويسلمهم في الصناعات. وكان كثير الدخل قليل الخرج واسع المال ذا كنوز عظمية فما زال على ذلك إلى أن أضمر أولاده ومخالفته رحمة منهم لمن عندهم من الناس الذين هم في زي الأسارى ،فخرج يوما لبعض متصيداته فلما عاد غلقوا باب القلعة دونه،

وامتنعوا عليه ،فاعتصم منهم بقلعة أخرى في بعض أعماله، وأطلقوا من كان عنده من الصناع وكانوا خمسة آلاف إنسان، فكثر الدعاء لهم بذلك. وأدركت ابنه الأوسط الحمية والأنفة أن ينسبه أبوه إلى العقوق، وأنه إنما رغب في الأموال والذخائر والكنوز. فجمع جمعا عظيما من الديلم وخرج إلى أذربيجان فكان من أمره مالا يخفى على القاصي والداني.

ثم إني رجعت إلى أذربيجان في الجبل إلى "موقان"(= سلسلة جبال في أذربيجان) فكان مسيري ثمانين فرسخا تحت الشجر على ساحل بحر طبرستان العظيم (=بحر قزوين)حتى أثبت موضعا يقال له "باكويه"(= باكو) من أعمال "شروان" فألقيت به عينا للنفط تبلغ قبالتها كل يوم ألف درهم وإلى جانبها عينا أخرى تسيل نفطا أبيض كدهن الزئبق لا ينقطع ليلا ولا نهاراً يبلغ ضمانه مثل ذلك.

وسرت من هناك في بلد الأرمن حتى انتهيت إلى تفليس. وهي مدينة لا إسلام وراءها، يجري فيها نهر يقال له "الكر" يصب إلى البحر وفيه غروب تطحن وعليها سور عظيم وبها حمامات شديدة الحرارة لا توقد ولا يستقى لها ماء وعلتها عند أولى الفهم تغني عن تكلف الإبانة عنها، وأردت أن أمضي إلى مغار الطيس لا نظر إليه فلم يمكن ذلك لسبب قطع عنه وانكفيت إلى الغرض. ومنها إلى أردبيل(=في شمال إيران) فركبت جبال الويزور(= في أرمينيا) وقبان(=كفان) وخاجين(=خاتشين) والربع وحندان والبذين، وبها معدن الشب المنسوب إليها، وهو شب الحمرة المعروف باليماني ،ومنها يحمل إلى اليمن وواسط ،ولا ينصبغ الصوف بواسط إلا به ،وهو أقوى من المصري، وبها وبأردبيل وهذه الجبال التي تقدم ذكرها حمامات تصلح للحرب فقط .وبالبنذين موضع يكون تكسيره ثلاثة أجربة، يقال إن فيه موقف رجل لا يقوم فيه أحد يدعو الله إلا استجيب منه ؛وفيه تعقد أعلام المحمرة المعروفين بالخرمية(=أحد المذاهب الثنوية الفارسية) ومنه خرج بابك، وفيه يتوقعون المهدي(=ثار بابك الخرمي ،ثم قتل عام ٨٣٧م) وتحته نهر عظيم إن اغتسل فيه صاحب الحميات العتيقة قلعها عنه، وإلى جانبه نهر الرس(=أراكس) وعليه رمان عجيب لم أر في بلد من البلدان مثله، وبها تين عجيب، وزبيبها يجفف في التنانير؛ لأنه لا

شمس عندهم لكثرة الضباب. ولم تصح السماء عندهم قط .وعندهم كبريت قليل يجدونه قطعا على المياه ويسمن النساء إذا شربنه مع الفتيت.

ونهر الرس يخرج إلى صحراء البلاسجان، وهي إلى شاطئ البحر، وفي الطول من برزند إلى برذغة (=مدينة قوقازية). ومنها ورثان والبيلقان (= تعرف آثارها الآن بأرين-كالا). وفي هذه الصحراء خمسة آلاف قرية أو أكثر خربا، إلا أن حيطانها وأبينيتها قائمة لم تتغير لجودة التربة وصحتها. ويقال إن تلك القرى كانت لأصحاب الرس الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن، ويقال إنهم رهط جالوت قتلهم داود وسليمان عليهما السلام ،لما منعوا الخراج ،وقتل جالوت بأرمية، وبها قبره وكنيسة الفتح وكنيسة العز بأرمية أيضا. وبأرمية أيضا البحيرة المرة التي لا نبات عليها ولا حيوان بقربها ، وفي وسطها جبال يقال لها كبوذان، وفيها قرى يسكنها ملاحو سفن ذلك البحر واستدارتها خمسون فرسخا ،ويقطع عرضها في ليلة ويخرج منها ملح، يجلو يشبه بالتوتيا(= الزنك) وعلى ساحلها مما يلي المشرق عيون تنبع ويستحجر ماؤها(=يتكون منه الرخام) إذا أصابه الهواء، وعيون تصب إلى البحر ماء مرا وحامضا وملحا إذا صب على الزيبق فتته لوقته وأقامه حجرا يابسا.

وهناك حجارة بيض رخوة تبيض الأسرب في الذوب حتى تلحقه ببياض القلعي وقريب من الفضة، وعليها قلاع حصينة. وجانب من هذه البحيرة يأخذ إلى موضع يقال له وادي الكرد، فيه طرائف من الأحجار، وعليه مما يلي سلماس حمة شريفة جليلة نفيسة الخطر كثيرة المنفعة، وهي بالاجماع والموافقة خير ما يخرج من كل معدن في الأرض ،يقال لها "زراوند" . وإليها ينسب البورق الزرواندي ؛وذلك أن الإنسان أو البهيمة يلقى فيها وبه كلوم ،قد اندملت ،وقروح قد التحمت، ودونها عظام موهنة وأزجة كامنة وشظايا غالصة فتتفجر أفواهها، ويخرج ما فيها من قيح وغيره، وتجتمع على النظافة ويأمن الإنسان غائلها .

وعهدي بمن توليت حمله إليها وبه علل من جرب وسلغ وقولنج وجزاز وضربان في الساقين واسترخاء في العصب ،وهم لازم وحم دائم، وبه سهم قد نبت اللحم على نصله وغار في بدنه، وكنا نتوقعه يصدع كبده صباح مساء ،فأقام ثلاثة أيام وخرج السهم من خاصرته لأنها أرق موضع وجد فيه منفذا، ولم أر مثل هذا الماء إلا في بلد " التيز" والمكران،

فإني أذكر علته إذا بلغت إلى سلوكي موضعه إن شاء الله وحده.

ومن شرف هذه الحمة أن مع مجراها مجرى ماء عذب زلال بارد، فإذا شرب منه إنسان فقد أمن الخوانيق، ووسع عروق الطحال الرقاق ،وأسهل السوداء من غير مشقة ،فإذا اكتحل صاحب العشا من مائها باردا أبصر، ومن اشتم من طينها لم تقمر عينه من الثلج، والبهيمة التي تدخلها لا تجرب ولا يجرب لها ولد أبدا ،ويصب إلى هذه البحيرة أنهار كثيرة ولأرمينيه بورق هذه الحمة وبورق البحيرة(= وان) التي يستخرج منها الطريخ(=سمك) وبورق يكون في باجنيس(=منطقة في أرمينيا) وهو بلد بني سليم. وفي هذا البلد ملاحة جيدة الملح، وبها أيضا معدن للملح الاندراني(= بلوري) وبها معدن مغنيسيا، ومعدن نحاس، وهو الذي "بحيزان"(=جوار بدليس) ومنه يكون التوتيا المحمودي والضفادعي وفيه شئ من الزاج الأسود لا خير فيه. وملحها دون ملح "حيزان" وبها نبات الخزامى والشيح الذي يخرج الحبات من الجوف إلا أن التركي خير منه وأقوى. وبها ابسنتين (نبات مر المذاق)جيد "وانيتمون"(=معدن فضي) صالح وبها "أسطو خوذوس" وحشائش كثيرة نافعة ،وبها السنبل الرومي، وبينها وبين "أقلوغونيا(=منطقة جبلية في تركيا)" بلد كبير لا يخرج منه عالم ولا خرج فيما سلف وذلك بالطبع. وفي هذا البلد قلاع حصينة منها قلعة يقال لها "وريمان؟ وهي في وسط البحر على سن جبل لا ترام وهناك نهر يغور في الأرض يقال إنه نهر "نصيبين". والجذام يسرع إلى أهلها لكثرة أكلهم الكرنب، والغدر فيهم طباع. وقد احتج لهم في ذلك وأقام عندهم بعض إخواني وزعم أنه لا غدر فيهم. وقال إن الرجل منهم إذا كان فقيرا لم يحب أن يراه أهل بلده. وهذه الخلة من كرم الطبيعة ،وصفاء الطينة.

وفي أهل هذا البلد خدمة الضيف، وقرى واسع ،وحسن طاعة لرهبانهم حتى أن الواحد منهم إذا حضرته الوفاة أحضر القس ودفع إليه مالا واعترف له بذنب مما عمله، والقس يستغفر له وقد تضمن له الصفح والعفو عن سائر ذنوبه ،ويقال إن القس يبسط كساءه ،فكلما ذكر ذنبا بسط القس يده ثم قبضها، وقال قد أخذته ثم يطرحه في كسائه فإذا لم يبق له ذنب ،جمع القس كساءه وحمله وخرج ،وقال قد حملت ذنوبك وأنا ألقيها في الصحراء ،ويقرر في نفسه الغفران والتجاوز. وليس هذه السنّة في شئ من الأديان كلها إلا

في هؤلاء. وهم ضرب من الأرمن فقط.

وأصواتهم في درس إنجيلهم وإيقاع نغمهم أطيب وأشجى من أصوات غيرهم من فرق النصارى، وترنمهم أبكى لقلب المحزون المائل طبعه إلى المراثي والنوح من رنات العرب بالندب، وألحانهم في البيع أحلى على سمع الطرب الصابر؛ لأن المرح والفرح من ترجيع الأغاني. ويقال إن ترتيب غنائهم بالأوتار لطيب صحيح. وفيها جبل يقال له "ماسيس(=أرارات)" يخرج من أصله عيون كثيرة غزيرة لا تنقص عن حالها ولا تزيد، باردة في الصيف مانعة حامية في الشتاء، ناعمة، لا يفارق الثلج رأسه شتاء ولا صيفا، ويتولد في ثلجه دود عظام جدا يكون الدودة نحو العشرين ذراعا أو أكثر، في استدارته عشرة أذرع.

وبأرمينية عيون يخرج منها ماء حامض مفتح وأكثرها حول هذا الجبل، وبها زرنيخ أصفر كثير في معدن واحد مما يلي المشرق. وبها زاجات وكباريت قليلة. ولا معدن فضة ولا ذهب بها. وأرمينية رخيصة الأسعار ،وربما كان القحط بها عظيما جدا. وهي كثيرة الآفات وبها حجارة كثيرة ذوات خواص مذكورات. وتقوم بها عدة أسواق في السنة تباع فيها أشياء كثيرة من الفرس والديباج والبغال والبزبون وغير ذلك. وأرمينية قليلة الآثار وبها معدن مارقشيتا صفراء والذي بارض "الشيز" في القرية المعروفة "بنمراور" خير منه، ولا أظن أني رأيت مثله. ويتصل أرمينية بجبال الحور ثم بجبال "داس" ثم "بالحرانية" "ونريز". "ونريز" هذه كانت مملكة لحافرة طئ. وكانت طرفا مقصودا قد قصده أبو تمام والبحتري وغيرهما، وكان علي بن مر الطائي صاحبها ممدحا يقصده الشعراء فينصرفون عنه باللهى حتى غلب على البلد صنف من الأكراد يعرفون]بالهذبانية .[فملكوا المدينة وعطلوا رسمها وأخربوا رساتيقها وعقوا آثارها ،وتمادت بهم هذه الحال زمانا، فلما ضعف السلطان، وأمنوا طلب الولاه، وقصد الأمراء عمروا ما أخربوا واستعملوا في تلك الناحية مثل من تقدمهم ووصلوا قراها بالسلق والدينور وأعمال شهرزور.

وشهرزور مدينات وقرى وفيها مدينة كبيرة وهي قصبتها في وقتنا هذا يقال "نيم أزراي" وأهلها عصاة على السلطان، قد استطعموا الخلاف واستعذبوا العصيان. والمدينة في صحراء

ولأهلها بطش وشدة يمنعون أنفسهم ويحمون حوزتهم. وسمك سور المدينة ثمانية أذرع، وأكثر أمرائهم منهم وبها عقارب قتالة أضر من عقارب "نصيبين". وهم موالي عمر بن عبد العزيز وجرأهم الاكراد بالغلبة على الأمراء ومخالفة الخلفاء وذلك أن بلدهم مشتى سنتين ألف بيت من أصناف الأكراد الجلالية واليابسان والحكمية والسولية.

ولهم به مزارع كثيرة ومن صحاريه يكون أكثر أقواتهم وبقرب من هذه المدينة جبل يعرف بشعران وآخر يعرف بالزلم فيه حب الزلم الذي يصلح لأدوية الجماع ولا أعرفه في مكان غيره. ومنها إلى ديلستان. سبعة فراسخ.

وهذه قرية كان الديلم في أيام الأكاسرة إذا خرجوا عن بلادهم للغارة عسكروا بها وخلفوا سوادهم لديها وانتشروا في الأرض عائثين فإذا فرغوا من غاراتهم عادوا إليها ورحلوا منها إلى مستقرهم فهي تعرف إلى اليوم بهم.

وبشهر زور مدينة أخرى دونها في العصيان والنجدة تعرف "بيبير" وأهلها شيعة صالحية زيدية أسلموا على يد زبد بن علي. وهذه المدينة مأوى كل ذاعر ومأوى كل صاحب غارة. وقد كان أهل نيم أزراي أوقعوا بأهل هذه المدينة وقتلوهم وسلبوهم وأحرقوهم بالنار عصبية للدين وظاهر الشرعية وذلك في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

وبين المدينتين مدينة صغيرة يقال لها "دزدان" بناؤها على بناء "الشيز" وداخلها بحيرة تخرج إلى خارجها تركض الخيل على أعلى سور لسعته وعرضه. وهي ممتنعة على الأكراد والولاة والرعية. وكنت كثيرا ما أنظر إلى رئيسها الذي يدعونه الأمير وهو يجلس على برج مبني على بابها عالي البناء ينظر الجالس عليه إلى عدة فراسخ وبيده سيف مجرد، فمتى نظر إلى خيل من بعض الجهات لمع بسيفه فانجلفت مواشي أهلها وعواملهم إليها. وفيها مسجد جامع. وهي مدينة منصورة يقال أن داود سليمان عليهما السلام دعوا لها ولأهلها بالنصرة فهي ممتنعة أبدا عمن يرومها ويقال إن "طالوت" كان منها وبها واستنصر بنو إسرائيل وذلك أن جالوت خرج من المشرق وداود نمن المغرب فأيده الله عليه. وهذه المدينة بناها "دارا" ولم يظفر الاسكندر بها ولا أقام أهلها له الدعوة ولا تملكها المسلمون ولا فتحوها وإنما دخل

أهلها الإسلام بعد اليأس من طاعتهم. والمتغلبون عليها من أهلها إلى اليوم يقولون إنهم من ولد طالوت وأعمالها متصلة بخانقين وبكوخ "جدران". وكوخ "جدان" مخصوصة بالعنب "السونايا" وقلة رمد لاعين والجدري. ومنها إلى خانقين يعترض نهر تامرا وبخانقين عين للنفط عظيمة كثيرة الدخل وبها قنطرة على واديها عظيمة الشأن تكون أربعة وعشرين طاقا. كل طاق يكون عشرين ذراعا. عليها جادة خراسان إلى الكوفة ومكة وينتهي الطريق إلى طريق قصر "شيرين" وبها أبنية شاهقة بكل الطرف عن تحديدها ويضيق الفكر عن الاحاطة بها. وهي إيوانات كثيرة متصلة وخلوات وخزائن وقصور وعقود ومنتزهات ومستشرقات وأروقة وميادين ومصايد وحجرات ودساكر يطيل ذوو اللب الوقوف عليها تبني عن طول وقوة وأعمار طويلة يعتبر بها ذوو البصائر. والملك الذي بناها أبرويز وبحلوان من الآثار قريب من قصر شيرين ومنها إلى طاق الحجام وهو عقد من الحجارة على قارعة الطريق في مضيق بين جبلين عجيب البناء عالي السمك ومنه إلى ماذروستان وهو إيوان واحد عظيم وبين يديه ذكة عظيمة وبستان خراب بناه بهرام جور يقع الثلج على نصفه مما يلي المشرق وخراسان، ولا يقع على النصف الآخر الذي يلي العراق ومنه إلى مرج إلى مرج القلعة وهو مرج أفيح وبه آثار قلعة عادية عجيبة البناءز وماء حلوان وبيءٌ رديءٌ كبريتي ينبت عليه الدفلي. وبها رمان لم أر في بلد من البلاد مثله. وبها أيضا تين عجيب الأمر يقال له "الشاهنجير" تفسيره ملك التين. وبالقرب منها جبل فيها عدة عيون كبريت ينتفع بها من أدواء كثيرة.

ويقربها أيضاً جبل عليه صومعة تعرف بدير الغار وسميت بهذا الاسم لأن قوماً يزعمون أن أبا نواس خرج من العراق قاصدا إلى خراسان فوصل إلى هذه وكان فيها راهب شلف حسن الوجه ظريف الهيئة فأضاف أبا نواس وقرأه ولم ينو في أمره غاية. فلما شربا دعاه أبو نواس إلى البدال فاجابه. فلما قضى حاجته من أبي نواس غدر به وامتنع عليه فقتله أبو نواس ولم يسكن الصومعة إلى يومنا هذا أحد. وهي مركز ظراف حلوان يشربون فيها لهذه العلة ولأن موضعها طيب نزه وعليها مكتوب بخط يذكرون أنه خط أبي نواس:

ما أنصف الراهب من نفسه … إذ يَنكح الناس ولا يُنكحُ

وبمرج القلعة مدينة حسناء باردة الهواء جدا وفيها مياه باردة. وعندها قلعة تشرف على بساتينها إلا أنها خراب يقال أن ابرويز قتل ابنا له فيها فخربت من ذلك. وقد كان بحكم التركي هم ببنائها فمات قبل ذلك. ومنها إلى الطرز وهي مدينة ذات جامع في صحراء واسعة وفيها إيوان عظيم بناه خسر وكرد بن شاهان ولا أثر بها سواه ويعطف منها يمنة إلى ما سبذان ومهرجان قذق وهي مدن عة منها اريوجان وهي مدينة حسنة في صحراء، بين جبال كثيرة الشجر كثيرة الحمات والكباريت والزاجات والبوارق والاملاح. وماؤها يخرج إلى "البندنيجين" فيسقى النخل بها ولا أثر بها إلا حمات ثلاث وعين إن احتقن انسان بمائها أسهل إسهالا عظيما وأن شربه قذف اخلاطا كثيرة. وهو يضر أعصاب الرأسز ومن هذه المدينة إلى "الرد" و "البراو" عدة فراسخ وبها قبر المهدي ولا أثر بها إلا بناء قد تعفت رسومه ولم يبق منه آثار ثم يخرج منها إلى" السيروان" وبها آثار حسنة ومواطن عجيبة.

ثم يخرج منها إلى "الصيمرة" وهي مدينة حسنة تجمع النخل والزيتون والجوز والثلج وفواكه الجبل والسهل. وبينها وبين الطرحان قنطرة عظيمة تكون ضعف قنطرة خانقين بديعة عجيبة. ومنها إلى قرميسين وهي مدينة حسنة عجيبة ولا أثر في داخلها إلا أثر دار يقال أنها كانت عجيبةز وقد شاهدنا بها شيئا عجيبا في سنة أربعين وثلاثمائةز وذلك أن رجلا من رؤسائها أراد بناء دار قدرها لنفسه وحرمه وحاشيته وصورها المهندسون له. فلما ابتدأ في حفر الأساس ظهر له بناء فاستقصاه فافضى به إلى دار على الصورة التي صورت له لا يغار من حجرها ومجالسها وصحونها وقبابها وبيوتها شيئا. وزعموا أن هذه الدار من عمل الذي صور "شبديز".

قال وصورة "شبديز" على فرسخ من مدينة فرميسين وهو رجل على فرس من حجر عليه درع لا يخزم من الحديد شيئا يتبين زرده، والمسامير المسمرة في الزرد لا يشك من نظر إليه أنه متحرك. وهذه الصورة صورة "برويز" على فرسه "شبديز" وليس صورة في الأرض تشبهها. وفي الطاق الذي هذه الصورة فيه عدة صور من نساء ورجال "رجالة وفرسان" .وبين يديه رجل في زي فاعل على رأسه قلنسوة وهو مشدود الوسط بيده بال كأنه يحفر به الأرض والماء يخرج من تحت رجله، وتسير من هذا المكان إلى قنطرة على واد عريض

تكون مثل قنطرة خانقين بل أحكم منها صنعة .ومنها إلى جبل يقال له "سميرة" عال مشرف وفيه صور بديعة ونقوش حسنة يقال إن كسرى أبرويز كلف عملها لفرهاذ الحكيم. ودون هذا الموضع قنطرة عظيمة عجيبة البناء على واد بعيد القعر.

ثم تسير من هذه القنطرة إلى قرية كبيرة غناء كثيرة الخير يقال لها "أبا أيوب" منسوبة إلى رجل من "بين جرهم" يكنى أبا أيوب بناها وفيها دكان عظيم بالصخر وقد نقض بعض صخره رجل من الأكراد وبنى به حصنا عظيما يقال له "سرماخ" في جبل مظلل على هذه القرية.

وبعد هذا المكان قنطرة أعظم ما تقدم ذكره وألقى صنعه تعرف بقنطرة النعمان وكان السبب في بنائها أن النعمان بن النمذر في بعض ما كان يفد على كسرى اجتاز بواد عظيم بعيد القعر شاق النزول والصعود. فبينما هو يسير فيه إذ لحق امرأة معها صبي تريد العبور. فلما جاءها موكبه وقد كانت كشفت ثيابها والصبي على عنقها ارتاعت ودهشت فألقت ثيابها وسقط الصبي عن عنقها فغرق، فغم لذلك النعمان ورق لها ونذر أن يبني هناك قنطرة فاستأذن كسرى في ذلك فلم يأذن له لئلا يكون للعرب في بلد العجم أثر. فلما وافى "بهرام جوبين" لقتال أبرويز استنجد النعمان فانجده على شرائط شرطها عليه منها أن يجعل له نصف الخراج يبرس وكوني وأن يبني القنطرة التي قدمنا ذكرها فأجابه إلى ذلك فلما انصرف بهرام جوبين بني النعمان القنطرة التي ذكرنا.

وتسير من هذه القنطرة قرية تعرف "بدستجرد كسروية" فيها ابنية عجيبة من جواسق وأيوانات كلها من الصخر المهندم لا يشك الناظر إليها أنها صخرة واحدة منقورة. ومنها إلى قرية أخرى يقال لها "ولا شجرد" ذات العيون يقال ان فيها ألف عين يجتمع ماؤها إلى نهر واحد. ومنها إلى "ماذران" وهي بحيرة يخرج منها ماء كثير مقدار أن يدير مائة رحى متفرقة مختلفة. وعندها قصر كسرى شامخ البناء وبين يديه زلاقة وبستان كبير. ومنها إلى قصر اللصوص. وبناء هذا القصر عجيب جدا. وذلك أنه على دكة من حجر ارتفاعها عن وجه الأرض نحو عشرين ذراعا وفيه ايوانات وجواسق وخزائن تفوق ما تقدم رفعة وعلوا يتحير في بنائه وحسن نقوشه الابصار. وكان هذا القصر معقل أبرويز متنزهة لكثرة صيده

وعذوبة مائه وحسن مروجه وصحاريه. وحول هذا القصر مدينة كبيرة لها جامع.

ومنها إلى موضع يعرف بمطبخ كسرى أربعة فراسخ. وهذا المطبخ بناء عظيم في صحراء لا شئ حوله من العمران. وكان أبرويز كما ذكرنا ينزل بقصر اللصوص وابنه شاه مروان ينزل "بأسد اباد" وبين المطبخ وبين قصر اللصوص أربعة فراسخ وبينه وبين أسد أباد ثلاثة فراسخ فاذا أراد الملك أن يتغذى اصطف الغلمان سماطين من قصر اللصوص إلى موضع الطبخ وبينهما أربعة فراسخ فيتناول بعضهم الغضائر من بعض إليه وكذلك من المطبخ إلى أسد أباد وبينهما ثلاثة فراسخ. وسميت بأسد أباذ باسد ابن ذي السرو الحميري.

ومنها إلى همذان. همذان مدينة دار ابن دارا وفي وسط همذان المدينة العتيقة وهي مدينة كبيرة مبنية على دكة يكون ارتفاعها ثلاثين ذراعا ولها أربعة أبواب طاقات عالية. وكان "دارا" بناها استحسانا للمكان وكان موضعها أجمة مسبعة فلم تزل حتى غيض الماء عنها وبنى المدينة فيها. وقد قيل أنها كانت قديمة وأن "دارا" لما زحف إليه "ذو القرنين" شاور وزراءه في مدينة حصينة يحرز فيها حرمه وكنوزه فقال له بعضهم أعرف مدينة خرابا بين جبال شامخة وطرق وعرة ان بناها الملك وأحرز فيها ذخائره ووكل بحفظها أربعة الف من ثقاته امتنعت على كل من رامها. ووصفها له فسار إليها دارا حتى رآها وعلم أنها تمتنع على من أرادها فبناها وجعل فيها خزائن غامضة لأمواله وكنوزه وجمع فيها حرمه ووكل بها ثقاته فلما كان من أمره مع دارا ما كان أنفذ إليها ذو القرنين جيشا عظيما فأقام عليها مدة لا يقدر على فتحها فهمّ صاحب الجيس بالانصراف فقال له نصحاؤه كاتب الملك في انصرافك وعرفه أمرها. فكتب إليه في ذلك فكتب ذو القرنين إلى مؤدبه ارسطاطليس يعرفه أمرها فأجابه أن صورها لي بطرقها وجبالها وأنهارها. ففعل ذلك وأنفذ الصورة إليه. فكتب يأمره بسد نهرها على نحو الفرسخ سنة وأن يجعل سده سكرا ويوثقه فإذا كان بعد سنة فتح ماءه وقرن البتر والجواميس والبغال والبراذين بعضها مع بعض وأرسلها في الماء فإنها تفتح السكر وإذا فتحته حمل الماء على المدينة فهدم سورها وتهيأ له دخولها. ففعل ذلك. فاقتلع الماء بحدته لما انفتح السكر، سور المدينة وحمل معه صخورا كبارا هي إلى وقتنا هذا في شوارع مدينة همذان ودخل أصحاب ذي القرنين المدينة لما اقتلع الماء السور.

وقرية همذان. ذهبية كلها إلا أن الفحم بها قليل وينفق على ذلك مقدار ما يحصل منه ولا ريح فيه. ولا حمة فيها ولا معدن بها إلا معدن حجر "سباذج" قد ظهرهم.ووراء قرية أبي ايوب المعروفة بالدكان قرية على فرسخ فيها بحيرة صغيرة القدر في رأي العين لا يدرك غورها. ويقال أن فيها غرق بعض ملوك الفرس وأن والدته سارت ومعها الأموال فبذلت لمن يخرجه أو شيئا من عظامه الرغائب، وأن الغواصين اجتهدوا في ذلك فلم يلحقوا لها غوار. فلما رأت ذلك أمرت بطمها فحمل إليها من التراب ما لا يوقف على كثرته فكان يطرح فيها فلا تيبس فلما أعياها سده انصرفت وعندها تل تراب عظيم هائل ياقل أنه حمل دفعة واحدة تركته ليعمل الناس كثرة ما حملت وطرحت فيها فلم ينفعها ذلك. وماء هذه البحيرة يختلط بماء "الدينور" ويصبان جميعا إلى واد يمر على حمة مدرجة لها حياض يتبع الماء إلى الحوض الأسف فإذا زاد ماء الوادي وغمر الحوض الأسفل نبع ماء الحمة في الحوض الذي فوقه فلا يزال على هذا الترتيب إلى آخر الحياض فإذا نقص الماء من الحوض الأعلى نبع الماء الذي تحته ولا يزال الأمر كذلك من حوض إلى الحوض الأسفل وماء هذا يجتمع وماء الصيمرة ويصبان جميعا إلى "السوس" وبلغني أن الماء الذي تحت "شبديز" بقرميسين إذا ضربت ألف درهم وألقيت فيه حرارة السبك زادت ستة دراهم ولا أدري ما العلة في هذا. وتسير من همذان إلى نهاوند وبها ثور وسمكة من حجر حسناء الصنعة يقال إنهما طلسم لبعض الآفات التي كانت بها. وبها آثار للفرس حسنة وحصن في وسطها عجيب البناء على السمك. وبها قبور قوم من العرب استشهدوا في صدر الإسلام وبها قبر عمرو ابن معدي كرب. وماؤها بإجماع العلماء عذى مرى. وبها شجر خلاف تعمل منه الصوالجة ليس في شئ من البلدان مثله صلابة وجودة. ويقال أن رسولا لملك الروم ارسل إلى المأمون وهو بمرو فدفع إليه كتابا فلما قرأه ضم إلى الرسول حجماعة من الجند وكتب له إلى عامل نهاوند أن يخلي بيته وبين ما يريد فلما صار إليه قال له افعل ما أحببت فصار إلى بابها الشرقي وذرع ما بين المصراعين ثم حفر في النصف من الذرع نحو العشرين ذراعا فافضى إلى صخرة عظيمة فأمر بقلعها فقلعت وإذا تحتها بيت لطيف فيه صندوقا ذهب مقفلان فاخذهما وانصرف إلى المأمون فأنفذ معه المأمون قوما بلغوه إلى صاحبه ولم يدر أحد ما كان في الصندوقين.

وبعدها إلى الكراج ولا آثار كسروية بها بل فيها آثار لآل أبي دلف وأبنية حسنة جليلة تدل على مملكة عظيمة ولها حمات وعيون ومنابع وهي الجادة بين الأهواز ولاري وبين اصفهان وهمذان.

وبعدها "قم" وهي مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها والذي بناها طليحة بن الأحوص الأشعري وفيها آبار ليس مثلها في الأرض عذوبة وبردا. ويقال ان الثلج ربما خرج منها في الصيف. وأبنيتها بالآجر وفيها سراديب في نهاية الطيب ومنها إلى "الري" مفازة سبخة فهيا رباطات ومناظر ومسالح وفي وسط هذه المفازة حصن عظيم عادي هائل البناء له أبرجة مفرطة الكبر والعلو وسوره عريض عال مبني بالأجر الكبار. وداخله أبنية آزاج وعقود ويكون تقدير صحنه "جريبين" مساحة أو أكثر. وعلى بعض أماصينه مكتوب: تقوم الأجرة من آجر هذا القصر بدرهم وثلثي درهم، وثلاثة أرطال خبز، ودانق توابل، وقنينة خمر صاف فمن صدق بذلك وإلا فلينطح رأسه بأي اركانه شاء. وهذا الحصن يعرف "بدير كجين" وحوله صهاريج منقورة في الحجارة واسعة عظيمة. "والري" لا أثر فيها للعجم لأن العرب عفت آثار الفرس بها ونقضت أبنيتهم. وفي وسط الري مدينة أيضا عجيبة بأبواب حديد وسور عظيم. وفيها المسجد الجامع. وفي وسط المدينة أيضا جبل شامخ عليه قلعة حصينة بناها رافع بن هرثمة وهي اليوم خراب ويشرف على المدينة جبل يعرف "بطبرك" فيه أبنية آثار الفرس ونواويس وفيه معادن للذهب والفضة. لا يقوم دخلها بالنفقة عليها. وبالري موضع مما يلي المشرق يقال له "جيلا باذ" وفيه أبنية وأيوانات وعقود شاهقة وبرك ومتنزهات عجيبة بناها "مرداويز" لا يشك من نظر إليها أنها من الأبنية القديمة الكسروية وبها سجن عظيم مهول يحيط به بحر عميق عليه أجمة قصب وهو من طين عليه دكة من تراب لا يعمل فيه نقب ولا ولا يتخلص منه ذاعر بضرب من الحيل ولم أر في الأبنية الحصينة في معناه مثله. وكان بها رجل من المجوس مات في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وعهدي به وهو يسقى جيش خراسان وتباعهم ومتصرفيهم من الحول إلى الحول شرابا في نهاية الجودة مع ما يتبعه من حملان وخلعة وطيب ومأكول وفاكهة. ويقال أن تقدير ثمن الظروف التي تخرج من داره إلى الناس فيها الشراب في كل سنة خمسون ألف درهم. وكان

من كرمه أنه متى لقيته جماعة من الخاصة أو العامة مع الغرباء في أي زي كانوا فسألوه شرابا ختم لهم على شمع أو طين إلى خازنه لكل واحد منهم قرابة تسعر عشر رطلا ولكل قرابة خمسة دراهم للفاكهة والنقل ولا يمتنع على أحد بتة ولم نشاهد في زماننا مثله وخبره متعارف مشهور.

وقد خرج من "الري" عدة من العلماء والكتاب والشعراء وكان فيهم رؤساء وتناء منهم الجريش بن أحمد ملك ألف قرية ليس فيها جريب واحد عصب ولا قطاع ولا إيغار. وكان إذا قدم مدينة "السلم" حملت خزائنه في الطب-دون غيره على مائة جمل. وكان إذا حضر مجلس الوزير طرح له مصلى ولم يفعل هذا بأحد، غيره من سائر الملوك. ومياه "الري" عذبة وبئة وبها ماء يقال له "السورين" رأيت أهلها ينكرونه ويتطيرون منه ولا يقربونه. فسألت عن أمره فقال لي شيخ منهم سبب ذلك أن السيف الذي قتل به يحيى ابن زيد عليه السلام غسل به. ولهم الثياب الرازية التي لا تعمل في سائر الدنيا إلا في بلدهم. ولقد رأيت ثوبا منها تكسيره نحو مائتي شبر وقد بيع بعشرة آلاف ألف درهم. ولأهلها الخبث والغباوة والذكاء ولهم النقب الذي لا يلحقهم فيه أحد. يقال أن بعضهم ينقب من الفراسخ الكثيرة وينقب تحت المياه مثل دجلة وكبار الأنهار. والنقب الرازي يضرب به المثل. ومعهم جسارة على سفك الدماء والقتل. ومن "الري" الرستاق يقال له قصران وهي جبال شامخة عالية إذا امتنع أهلها على السلطان لحمل الخراج لم يقدر عليهم وإنما لهم عند صاحب الري رهائن.

وأكثر فاكهة "الريط من هذه الجبال. ويقيم الورد بالري أربعة أشهر، ويؤكل بها المشمش والاجاص أكثر من هذا المقدار وبها حمامات صغار تنفع من الجرب ومعادن خفية. وأرضها تتصل بجبال "بني قارن" و "دبناوند"، وجبال الديلم وطبرستان. وشاهدت في بعض جبالها بحيرة تكون استدارتها نحو جريب يعتصر فيها مياه أوديتها وسيول شعابها في أيام الشتاء والربيع فلا يزيد قدر مائها، ولا ينقص في شتاء ولا صيف وأنه لينصب في اليوم الواحد من أيام الشتاء والربيع ما لو ساح على الأرض لكان بحرا عجاجا. وحول هذه البحيرة ميادين نرجس وبنفسج وورد. وبالقرب منها أثر قصر قديم لم يبق منه إلا بعض حيطانه وقبة باب داره، ولم أجد أحدا يعطيني خبرا.

وديناوند مدينتان تعرف احداهما بويمة والأخرى "بشلمبة" وفي كل واحدة منهما مسجد جامع وبينهما قرى كثيرة وجبال عالية ويخرج من بين المدينتين واد يقال له "وادي الهبر" عجيب الشأن كثير الشجر والحمات والمياه والغياض فنفذ ماؤه إلى خوارى الري. وبويمة هذه ريح عظيمة تهب ليلا ونهارا أياما من السنة معروفة تكون نحو ثلاثة أشهر فلا يحجبها عن الناس حجاب. وربما قتلت من تلحقه في طريق أو صحراء فينتقل أهل هذه المدينة عنها إلى جبل بالقرب منها فيستترون به حتى ينقضي أوانها ثم يعودون إلى منازلهم. ويدباوند جبل عال مشرف شاهق شامخ لا يفارق أعلاه الثلاج شتاء ولا صيفا ولا يقدر أحد من الناس يعلو ذروته، ولا يقاربها يعرف بجبل "بيوراسف" يراه الناس من مرج القلعة ومن عقبة همذان والناظر إليه من "الري" يظن أنه مشرف عليه وأن المسافة بينهما فرسخ أو فرسخان وبينهما ثلاثون فرسخا. ويزعم العامة أن سليمان بي داود عليهما السلام حبس فيه ماردا من مردة الشياطين ياقل له صخر المارد وزعم آخرون "أفريدون" الملك حبس فيه "بيوراسب" وأن دخانا يخرج من كهف في الجبل يقول العامة أنه نفسه ولذلك أيضا يرون نارا في ذلك الكهف يقولون أنها عيناه وأن همهمته تسمع من ذلك الكهف فاعتبرت ذلك وارتصدته ولزمت المكان وصعدت في الجبل حتى وصلت إلى نصفه بمشقة شديدة ومخاطرة بالنفس وما أظن أن أحدا تجاوز الموضع الذي بلغت إليه بل ما وصل إليه إنسان فيما أظن وتأملت الجبال فرأيت عينا كبيرة نقية وحولها كبريت مستحجر فإذا طلعت عليه الشمس والتهبت فظهرت فيه نار وإلى جانبه مجرى يمر تحت الجبل تخترقه رياح مختلفة فتحقدث بينها أصوات متضادة على إيقاعات متناسبة فمرة مثل صهيل الخيل ومرة مثل نهيق الحيمر ومرة مثل كلام الناس. ويظهر للمصغي إليها مثل الكلام الجهوري دون المفهوم وفوق المجهول يتخيل السامع أنه كلام بدوي ولغة أنسى.

وذلك الدخان الذي يزعمون أنه نفسه بخار تلكل العين الكبريتية. وهذه حال يحتمل على ظاهر هذه الصورة ما تدعيه العامة. ووجدت في بعض شعاب هذا الجبل آثار بناء قديم وحولها مشاهد تدل على أنها مصايف بعض الاكاسرة.

وإذا نظر أهل هذه الناحية إلى النمل تذخر الحب وتكثر من ذلك علموا أنها سنة قحط

وجدب. وإذا دامت عليهم الأمطار وتأذوا بها وأرادوا قطعها صبوا لبن المعز على النار فانقطعت. وقد امتحنت هذا من دعواهم دفعات فوجدتهم فيه صادقين. وما رأى أحد رأس هذا الجبل في وقت من الأوقات منسحرا عنه الثلج إلا وقعت الفتنة وهريقت الدماء من الجهة التي تراها منسحرة. وهذه العلامة أيضا صحيحة باجماع أهل البلد. وبالقرب من هذا الجبل معدن الكحل والمرتك والأسرب والزاج.

وعلى حد هذا المكان طبرستان وهي مدن كثيرة وأعمال واسعة وبها غياض لا تحصى وأنهار ومياه واسعة وبها عدة معادن، الذهب أجلها وأجودها ما يوجد "بخشم" وهو شعب في جبل بها وبطبرستان، اليوم في يد العلوية وهم ملوكها منذ خرج عنها سليمان بن عبد الله بن طاهر. وعدلهم ظاهر وسياستهم منتظمة وأمر الرعية معهم مستقيم وأول من ملكها بلقب بالناصر وبعده الداعي ثم الهادي وصاحبها في وقتنا هذا التأثرز وبطبرستان أترج ليس في سائر البلدان مثله حسنا وكبرا. ويعمل بها ماء الزعفران يصاعد كالماورد ولا يتم عمله في غيرها. والمطر فيها دائم مدة الشتاء وأكثر أشهر الصيف وبها حملت كثيرة ولها قصب سكر دون الاهوازي. ووردها غير ذكي. وبها جماعة يتعاطون الحذق بعلم النجوم. وبها معادن زاجات وشبوب منها الشب الأبيض الذي يصلح لتبييض الفضة السوداء وليس يكون إلا بها ولا يعمل في بلد من البلدان مثل المرداسنج المعمول بها. وتعمل بها أكسية عجيبة يبلغ الكساء منها جملة دنانير وكذا مناديلها موصوفة في جميع البلدان. وهي متصلة بجرجان ومن الري على طريق الجادة يسير الناس إلى جرجان في المفازة وعن ذات الشمال من الجادة جبال طبرستان وفي بعض جبال طبرستان بين "سمنان" و "دامغان" فلجة تخرج منها ريح في أوقات من السنة إلى من يسلك طريق الجادة فلا تصيب أحدا إلا أتت عليه ولو أنه مشتمل بالوبر وبين الطريق وهذه الفلجة فرسخ واحد وفتحها نحو أربع مائة ذراع ومقدار ما ينال أذاها فرسخان. وليس تأتي على شئ إلا جعلته كالرميم. ويقال لهذه الفلجة وما يقرب منها من الطريق "المأذران"، وأني لأذكر وقد صرت إليها مجتازا ومعي نحو المائتي نفس أو أكثر ومن الدواب أكثر من ذلك فهبت علينا فما سلم من سائر الناس

والدواب غيري ورجل آخر لا غير وذلك أن دوابنا كانت جيادا فوافت بنا أزجا وصهريجا كانا على الطريق فاستكنا بالأزج وسدرنا ثلاثة أيام بلياليها لا نحس بشئ ثم استيقظنا بعد ذلك فوجدنا الدابتين قد نفقتا ويسر الله عز وجل لنا قافلة حملتنا وقد أشفينا على التلف.

وسمنان مدينة صغيرة كثيرة الأهل واسعة الفواكه والخيرات لها مياه عذبة ويعمل بها مناديل منقوشة الأعلام مثمنة يبلغ المنديل خمسين دينارا ويعمل بها ايضا سبنيات عجيبة الصنعة تباع السبنية بمائتي دينار وأكثر ويقال أن المرأة التي تعملها تعمى من دقة الصنعة وكثرة العمل. والدامغان مدينة حسناء كثرة الفواكه وفاكهتها نهاية. والرياح بها لا تنقطع ليلا ولا نهاراً. وبها مقسم للماء كسروى عجيب الشأن يخرج ماؤه من مغارة في جبل ثم ينقسم إذا انحدر عنه على مائة وعشرين قسما لمائة وعشرين رستاقا لا يزيد قسم على صاحبه ولا يمكن تأليفه على غير هذه القسمة وهو مستطرف جدا ما رأيت في سائر البلدان مثله ولا شاهدت أحسن منه، وهناك قرية تعرف بقرية طالجمالين" فيها عين تنبع دما لا يشكل فيه لأنه جامع لأوصاف الدم كلها. إذا ألقى فيه زئبق صار لوقته حجرا يابسا صلبا منقشا. وتعرف هذه القرية أيضا "بفنجار". وبالدامغان تفلح يقال له القومسي جيد حسن أحمر الصبغ مشرق الحمرة يحمل إلى العراق. وبها معادن زاجات وأملاح ولا كباريت فيها. وبها معدن للذهب صالح. ومنها إلى قرية كبيرة شبيهة بالمدينة الصغيرة يقال لها "بسطام" كان منها أبو زيد البسطامي رحمة الله عليه. وبها تفلح حسن يحمل إلى العراق بالبسطامي. وبها خاصيتان عجيبتان أحدهما أنه لم ير عاشق قط من أهلها ومتى دخلها إنسان في قلبه هوى وشرب من مائها، زال العشق عنه. والأخرى أنه لم يرمد بها أحد قط. ولا معدن فيها إلا شئ من مغنيسيا. ولها ماء مر ينفع إذا شرب على الريق، من البخر وإذا احتقن به أبرأ البواسير الباطنة. وتنقطع بها رائحة العود ولو أنه من أجود الهندي ويزكو بها رائحة المسك والعنبر والكافور وسائر اصناف الطيب إلا العود فإنه ينقطع. وبها حجارة سود يبيض الأسرب بها بياضا حسناء وبها حبات صغار وثابات وذباب كثير مؤذ. وشرابها أخضر وعلى تل بازاء نهر فيها قصر مفرط السعة، عالي السور، كثير الأبنية والمقاصير يقال أنه من

بناء شابور ذي الاكتاف ودجاجها لا تأكل العذرة.

وسرت منها متياسرا الى جرجان في هبوط وصعود وأودية هائلية. وجرجان مدينة حسنة على واد عظيم في ثغور بلدان السهل والجبل والبر والبحر وبها النخل والزيتون والجوز والرمان وقصب السكر والأترج وبها ابريسم جيد لا يستحيل صبغه وبها أحجار كثيرة لها خواص عجيبة وبها ثعابين تهول الناظر ولا ضرر بها. وسرت منها في مفازة خوارزم فرايت بها آثارا كثيرة لجماعة من ملوك العرب والعجم وأشجارها وغياضها كثيرة جدا ويقع فيها ثلج. ومطرها دائم لا يكاد ينقطع وهي متصلة برساتيق نيسابور وأيضا رستاق تعرف باسبيقان خسف منه بعض السنين بنيف وثلاثين قرية وهبت عليها ريح عاصف فحملت من ذلك الخسف رملا أحمر جاوزت به في الجو أعمال طوس ونيسابور ومرت به نحو مائة وخمسين وهذا مما شاهدته ووقفت عليه وذلك أني مررت بهذا الرستاق وهو في نهاية العمارة وكثرة البساتين وتخرق الأنهار فما استقررت بنيسابور حتى اتصل بي أنه قد خسف به فعدت لأنظر إليه فرايته وقد ساخ في الأرض نحو مائة قامة أو أكثر ورأيت المياه تخر فيه من جوانبه. وطوس أربع مدن منها اثنتان كبيرتان واثنتان صغيرتان. وبها آثار أبنية اسلامية جليلة وبها دار حميد بن قحطبة ومساحتها ميل في مثله.

وفي بعض بساتينها قبر علي بن موسى الرضا رضي الله عنه وقبر الرشيد. وبينها وبين نيسابور قصر هائل عظيم محكم البنيان لم أر مثله علو جدران واحكام بناء وفي داخله مقاصير تتحير في حسنها الأوهام. وازاج وأروقة وخزائن وحجر للخلوة. وسألت عن أمره فوجدت أهل البلد وهم مجتمعون على أنه من بناء بعض التبابعة وأنه قصد بلد الصين من اليمن فلما صرا إلى هذا المكان رأى أن يخلف حرمه وكنوزه وذخائره في مكان يسكن غليه ويسير متخففا. فبنى هذا القصر وأجرى له نهرا عظيما آثاره بينة وأودعه كنوزه وذخائره وحرمه ومضى إلى الصين فبلغ ما أراد وانصرف وحمل بعض ما كان جعله في القصر وبقيت له فيه أموال وذخائر تخفى أمكنتها إلا أن صفات موضعها مكتوبة معه فلم يزل على هذا الحال تجتاز به القوافل وتنزله السابلة ولا يعلمون أن فيه شيئا حتى استبان ذلك. واستخرجه أسعد ابن أبي يعفر صاحب "كحلان" في أيامنا هذه لأن الصفة كانت وقعت إليه فوجه

قوما استخرجوها وحملوها إليه.

وليس بنيسابور أثر ظاهر للعجم ولا للعرب إلا أبنية بناها بعض آل طاهر شبيهة بالأبنية القديمة. ولمائها خصاية في إظهار البغاء والأبنة قل من يسلم من ذلك إلا من أقل شراب الماء بها. وهذا عند أهلها خبر مستفيض وأكثر ما ينال الغرباء. وفي نسائها جمال ظاهر وقلة امتناع عمن يريدهن. وبها معدن نحاس تفوق سائر معادن الأرض جودته. وبها ريباس عظيم ويكبر حتى تصير القصبة الواحدة منه تزن خمسين منا وأكثر وسيستغظم هذا من قولي من يسمعه وما قلت إلا ما شاهدته ورأيت وبها سفرجل يعظم جدا ولقد وزنت منه واحدة فكان وزنها أربعة مائة درهم ونيفا وعشرين درهما. وفي وسط المدينة مدينة عتيقة لها سور شاهق وخندق عظيم وأبرجة هائلة. وعلى حدها مدينة هراة يجلب منها الزبيب الخراساني الجيد والقشمش ويقال أن ذا القرنين بنى سورها وسور أصفهان القديم.

وأصبهان صحيحة الهواء نقية الجو خالية من جميع الهوام لا تبلى في تربتها الموتى ولا تتغير فيها رائحة اللحم ولو بقيت القدر بعد أن نطبخ شهرا ما تغيرت. وربما حفر الإنسان بها حفيرة لحال من الأحوال فيهجم على قبر له ألوف السنين والميت فيه على حاله لم يتغير. وتربتها أصح ترب الأرض. ويبقى بها التفاح غضا سبع سنين. ولا يتسوس بها الحنطة كما تتسوس في غيرها. وبها آثار كثيرة حسنة وبينها وبين الاهواز قنطرة "يذج" وهي من العجائب المذكورة لأنها مبنية بالصخر على واد يابس بعيد القعر. وايذج كثيرة الزلازل وبها معادن كثيرة وبها ضرب من القاقلي تنفع عصارته النقرس. وفيها بيت نار قديم كان يوقد إلى زمن الرشيد. ودونها بفرسخين مما يلي البصرة صور في الماء وهو مجمع أنهار يعرف بفم البواب إذا وقع فيه إنسان أو دابة لا يزال يدور به أبدا حتى يموت ثم يقذفه إلى الشاطئ من غير أن يغيب في الماء أو يركبه. وهذا من الأمور الطريفة لأن الذي يقع فيه لا يرسب فيه ولا يعلو ماؤه عليه.

ويفتتح لخراجها قبل النيروز الفارسي بشهر. وهذا الرسم مخالف لرسوم الخراج في سائر الدنيا ولا يجاوزها المد والجزر. ويه سفلى ارض الأهواز منخفضة عنها بكثير ومائية قصب سكرها تزيد على سائر قصب السكر في سائر الأهواز أربعة في كل عشرة وفانيذها يعمل

عمل السجزى.

وسوق الأهواز تخترقها مياه مختلفة منها الوادي الأعظم وهو ماء "تستر" يمر على جانبها. ومنه يأخذ واد عظيم يدخلها. وعلى هذا الوادي قنطرة عظيمة عليها مسجد واسع حسن وعليه أرجاء عجيبة ونواعير بديعة وماؤه في وقت المدود أحمر ويصب إلى الباسيان والبحر. ويخترقها وادي المسرقان وهو من ماء "تستر" ايضا ويخترق عسكر مكرم ولون مائه في سائر أيام نقصان المياه أبيض ويزداد في وقت المدود بياضا وسكرها أجود سكر الأهواز وعلى الواد الأعظم شاذروان حسن عجيب متقن الصنعة معمول من الصخر المهندم يحبس الماء على أنهار عدة وبإزائه مسجد لعلي بن موسى الرضا خطه في اجتيازه به وهو مقبل من المدينة يريد خراسان وبها نهر آخر يمر على حافتها من جانب المشرق يأخذ من واد ويعرف بشو رآب وبها آثار كسروية يسيرة. ومنها إلى "رام هرمز" وهذه مدينة جليلة والطريق منها إلى "دورق" على بيوت نار في مفازة مقفرة وفيها أبنية عادية عجيبة. والمعادن في أعمالها كثيرة. وقل ما رايت ملحا أحكم في الصنعة من ملحها. وبدورق آثار قديمة لقباذ بن داراوبها صيد كثير إلا أنه يتجنب الرعى في أماكن منها ولا يدخلها بوجه ولا سبب. ويقال أن خاصية ذلك من طلسم عملته أمه له لأنه كان لهجا بالصيد في تلك الأماكن فربما أخل بالنظر في أمور المملكة مدة. فيقال أنها عملت له هذا الطلسم ليتجنب الوحش تلك المواضع التي كان يتصيد بها. وبها هوام قتالة لا يبل سليمها. وبهاعيون الكبريت الأصفر البحري وهو بسرج الليل عليه. ولا يوجد هذا الكبريت في غيرها. وأن حمل منها إلى سواها لم يسرج، وأن أتى بالنار من غير "دورق" واشتغلت في ذلك الكبريت أحرقته أصلا فأما نارها فانها لا تحرقه. وهذا من ظريف الأشياء وعجيبها ولا يوقف على العلة في ذلك. وفي أهلها سماحة ليست لغيرهم من أهل الأهواز وأكثر نسائها لا يرددن يد لامس. وأهلها قليلو الغيرة.

وآسك متصلة بها وهي مدينة وقريات وفيها أيوان عال حسن في صحراء على عين غزيرة وبيئة وبازاء هذا الأيوان قبة مسجد منيفة ينيف سمكها على مائة ذراع بناها قباذ وفيها مسجد وخارجها عدة قبور لقوم استشهدوا في أيام الفتوح. وعلى هذه القبة آثار الستائر

وما رأيت في سائر البلدان قبة أحسن بناء منها ولا أحكم صنعة وعلى بابها الغربي كتابة منقوشة في الصخر بالفهلوية وبينها وبين أرجان قرية تعرف "بالهنديجان" ذات آثار عجيبة وابنية عادية وتثأر منها الدفائن كما تثار بمصر وبها نواويس بديعة الصنعة وبيوت نار.

ويقال أن جيلا من الهند لما قصدت بعض ملوك الفرس لتزيل مملكته كانت الوقعة في هذا المكان فغلبت الفرس الهند فهزمتم هزيمة قبيحة فهم يتبركون بهذا الموضع. ونهر المسرقان يشق أعمالا كثيرة ويسقى ضياعا واسعة. ومبدؤه من "تستر" وتستر ذات آثار وأعاجيب وخواص. وبها قبر دانيال عليه السلام وقد قيل بالسوس ولها قناطر وشاذروان ما رأيت في شئ من البلدان مثلها. وبها معادن كثيرة. وأكثر أبنيتها لقرد جشنس بن شاه مرد وكان من عظماء الفرس. أكثر همته في البناء وأحكامه وتشييده. وهناك قنطرة عجيبة مشهورة بنتها أخته خوراذام أردشير وهي التي احتالت حتى قتلت بعض ملوك اليمن وذلك أنه قتل اخاها ثم تزوجها بعد قتله اياه. فلما زفت اليه وهي كارهة لذلك وكانت قد أخذت معها عدة غلمان مرد من أبناء ملوك فارس وألبستهم ألبسة الجواري إن ملك العرب قد قتل ملوككم وأهل الرياسة منكم وهو قاتلكم متى علم بكم ثم لم يقنعه الذي فعل حتى اغتصب ملكتكم وابنة ملككم نفسها. وقد عزمت على قتله فأي شئ عندكم قالوا نحن طوع يديك. مريئا بما شئت. قالت إذا دخلت إليه فادخلوا معي كأنكم جوار لي فإذا خلوت به وجئته بخنجر معي وليكن معكم أنتم خناجر فإذا فعلت ذلك فاجهزوا عليه قالوا نفعل كما تريدين. فلما أدخلت إليه وخلا بها وهو لا يأبه بالغلمان وبظنهم جواريها وجاءته بالخنجر وبادر الغلمان فقتلوه.

وخرجت واياهم إلى مكان بالقرب من غلمانه وحاشيته فأتوا عليهم. وهي أيضا صاحبة القنطرة المعروفة بقنطرة "خرراذ" التي بين ايذج والرباط. وهذه القنطرة من عجائب الدنيا وذلك أنها مبنية على واد يابس لا ماء فيه إلا في أوان المدود من الأمطار فإنه حينئذ يصير بحرا عجاجا وفتحه على وجه الأرض أكثر من ألف ذراع وعمقه مائة وخمسون ذراعا وفتح أسفله في قراره نحو عشرة أذرع. وقد ابتدئ بعمل هذه القنطرة من أسفلها إلى أن بلغ بها وجه الأرض بالرصاص والحديد كلما علا البناء ضاق وجعل بين وجهه وجنب الوادي حشو

من خبث الحديد وصب عليه الرصاص المذاب حتى صار بينه وبين وجه الأرض نحو أربعين ذراعا وصار فتحه هناك مائة واثنى عشر ذراعا فقعدت القنطرة عليه فهي على وجه الأرض وحشي ما بينها وبين جنبي الوادي بالرصاص المصلب بنحاته النحاس وهذه القنطرة طاق واحد عجيب الصنعة محكم العمل. وكان المسعي قطعها فمكث دهرا لا يتسع أحد لبنائها فاضر ذلك بالسابلة ومن كان يجتاز عليها لا سيما في الشتاء ومدود الأودية.

وكان ربما صار إليها قوم ممن بقرب منها فاحتالوا في قلع حشوها من الرصاص بالجهد الشديد فلم تزل على ذلك دهرا حتى أعاد ما انهدم منها وعقدها أبو عبدالله محمد بن أحمد القمي المعروف بالشيخ وزير الحسن بن بويه فإنه جمع الصناع والمهندسين واستفرغ الجهد والوسع في أمرها فكان الرجال يحطون إليها بالزبل في البكر والحبال فإذا استقروا على الأساس أذابوا الرصاص والحديد وصبوه على الحجارة ولم يمكنه عقد الطاق إلا بعد سنين فيقال انه لزمه على ذلك سوى أجرة الفعلة فإن أكثرهم كانوا مسخرين من رساتيق ايذج واصفهان ثلاثمائة ألف دينار وخمسون ألف دينار. وفي مشاهدتها والنظر إليها عبرة لأولى الألباب.)

ونصل إلى الرحّالة الكبير ابن بطوطة الذي مخر العالم القديم من الغرب إلى الشرق، ومن الشمال إلى الجنوب. وتبدأ رحلته إلى بلاد الشمال من آسيا الصغرى ، فيتجه شمالا إلى روسيا ، لكن بلاد (الظلمة) تصدّه بصعابها التي لاتبدو مقنعة بالنسبة لرحّالة مسكون بالرحيل مثله(عظم المؤنة وقلة الجدوى) ، فيتجه صوب القسطنطينية ، ويتجول في المدينة العظيمة ، ويدور حول كنيستها المشهورة– التي قدمنا نصوصا عنها من قبل– ويقفل راجعا باتجاه الشمال الشرقي، وسرعانماينعطف إلى أواسط آسيا ثم جنوبها.

إن رحلته إلى هذه البلاد تبيّن التنوع الطبيعي والديني والثقافي لما يسمى الآن بشرق أوربا، وآسيا الصغرى ، ثم الأجزاء الشمالية من آسيا، ورحلته التي نختتم بها نصوص الرحلات في هذا القسم من الكتاب تتبوأ المكانة الأولى بين الرحلات التي قام بها رحّالة مسلمون، فابن بطوطة أكثر قدرة من غيره على الصبر والمطا ولة في الارتحال، وهو الذي ينطبق عليه

مصطلح "الرحّالة" تمام الانطباق، فقد سلخ شطرا كبيرا من عمره في التسيار، ورحلته إلى بعض البلاد الشمالية -كما سنرى - تضع من حيث أهميتها الأثنوغرافية إشارة الختام المناسبة للحديث عن بلاد الشمال.

(٢٢)

رحلة ابن بطوطة الى بلاد الأوزبك وشرق أوروبا والقسطنطينية ثم الأجزاء الوسطى العليا من آسيا (توفي٧٧٩هجري=١٣٧٧ميلادي) من رحلته المسمّاة (تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)

من صنوب (=ميناء على البحر الأسود) إلى القرم

ثم استقامت الريح وسافرنا، فلما توسطنا البحر هال علينا وجرى لنا مثل المرة الأولى ثم ساعدت الريح ،ورأينا جبال البر .وقصدنا مرسى يسمى الكرش(=في البحر الأسود) فأردنا دخوله فأشار إلينا أناس كانوا بالجبل أن لا تدخلوا، فخفنا على أنفسنا وظننا أن هنالك أجفانا للعدو، فرجعنا مع البر .فلما قربنا قلت لصاحب المركب :"أريد ان أنزل ها هنا، فأنزلني بالساحل" . ورأيت كنيسة، فقصدتها فوجدت بها راهبا ،ورأيت في أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي عليه عمامة متقلدا سيفا وبيده رمح وبين يديه سراج يوقد ، فقلت للراهب:" ما هذه الصورة؟" فقال :"هذه صورة النبي علي" فأعجبت من قوله. وبتنا تلك الليلة بالكنيسة .وطبخنا دجاجة ولم نستطع أكلها إذ كانت مما استصحبناه معنا في المركب، ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه ،وهذا الموضع الذي نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (= الفيافي الروسية)والدشت بلسان الترك هو الصحراء، وهذه الصحراء واسعة قاحلة لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب ،وانما يوقدون الأرواث ويسمونها التّزك فترى كبرائهم يلقطونها ويجعلونها في أطراف ثيابهم ولا يسافر في هذه الصحراء إلا في العجل، وهي مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد

أوزبك وثلاثة في بلاد غيره.

ولما كان الغد من وصولنا إلى هذه المرسى، توجه بعض التجار من أصحابنا إلى منْ بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق، وهم على دين النصرانية فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا إلى مدينة الكفا، وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى وأكثرهم الجنويون ،ولهم أمير يعرف بالدمدير، ونزلنا منها بمسجد المسلمين. ولما نزلنا بهذا الجامع أقمنا منها ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية، ولم أكن سمعتها قط فهالني ذلك، وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرأوا القرآن، ويذكروا الله ويؤذنوا ،ففعلوا ذلك فإذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح ،فسلم علينا ،واستفهمناه عن شأنه، فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك ،وقال: " لما سمعت القراءة والأذان خفت عليكم ،فجئت كما ترون "ثم انصرف عنا، وما رأينا إلا خيرا. ولما كان الغد جاء إلينا الأمير وصنع طعاما فأكلناه عنده ،وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق، وكلهم كفار .ونزلنا إلى مرساها ،فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري صغيرا وكبيرا، وهو من مراسي الدنيا الشهيرة.

ثم اكترينا عجلة وسافرنا إلى مدينة القرم ،وهي مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان، وعليها أمير من قبله اسمه تلكتمور، وكان أحد خدام هذا الأمير قد صحبنا في طريقنا فعرفه بقدومنا ،فبعث إلي مع إمامه سعد الدين بفرس، ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخرساني. فأكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن إلينا، وهو معظم عندهم .ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم .وأخبرني هذاالشيخ زاده أن بخارج هذه المدينة راهبا من النصارى في دير يتعبد ويكثر الصوم ،وأنه انتهى إلى ان يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول، وأنه يكاشف بالأمور .ورغب أن أصحبه في التوجيه إليه فأبيت ،ثم ندمت بعدذلك على أن لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره.

ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائلي قاضي الحنفية، ولقيت بها قاضي الشافعية، وهو يسمى بخضر ،والفقيه المدرس علاء الدين الآصي ،وخطيب الشافعية

أبا بكر ،وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمّره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة، والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين، وكان من الروم فأسلم وحسن إسلامه ،والشيخ الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين.وكان الأمير تلكتمور مريضا فدخلنا عليه فأكرمنا وأحسن إلينا .

وكان عليّ التوجه إلى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك ،فعملت في السير في صحبته، واشتريت العجلات برسم ذلك ،وهم يسمون العجلة عربة وهي عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار، ومنها ما يجره فرسان، ومنها مايجره أكثر من ذلك، وتجرها أيضا البقر والجمال على حال العربة في ثقلها أوخفتها ،والذي يخدم العربة يركب إحدى الأفراس التي تجرها ويكون عليه سرج وفي يده سوط يحركها للمشي وعود كبير يصوبها إذاعاجت عن القصد، ويجعل عليالعربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق، وهي خفيفة الحمل وتكسة باللبد أو بالملف ويكون فيها طيقان مشبكة ،ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه، ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل يقرأ ويكتب وهو في حال سيره والتي تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا ،وعليها قفل .

وجهزت لما أردت عربة لركوبي مغشاة باللبد، ومعي بها جارية ،وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري ،وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرها ثلاثة من الجمال أحدهما خادم العربة. وسرنا في صحبة الأمير تلكتمور ،وأخيه عيسى وولده قطلو دمور وصاربوك، وسار أيضا معه في هذه الوجهة إمامه سعد الدين، والخطيب أبو بكر، والقاضي شمس الدين والفقيه شرف الدين موسى ،والمعروف علاء الدين خطة هذا المعرف أن يكون بين يدي الأمير في مجلسه ،فإذا أتى القاضي يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال: " بسم الله سيدنا ومولانا قاضي القضاة والحكام مبين الفتاوي والاحكام بسم الله" واذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار إليه قال: " بسم الله سيدنا ومولانا فلان الدين بسم الله" فتهيأ من كان حاضرا لدخول الداخل ويقوم إليه ويفسح له في المجلس. وعادة الأتراك أن يسيروا في هذه

الصحراء سيرا كسير الحجاج في درب الحجاز. ويرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون بعد صلاة الظهر وينزلون عشيا ،وإذا نزلوا حلوا الخيل والإبل والبقر عن العربات سرحوها للرعي ليلا ونهارا ،ولا يعلف أحد دابة السلطان ولا غيره .وخاصية هذه الصحراء أن نباتها يقوم مقام الشعير للدواب وليس لغيرها من البلاد هذه الخاصية؛ ولذلك كثرت الدواب بها ودوابهم لا رعاة لها ولا حراس وذلك لشدة أحكامهم في السرقة. وحكمهم فيها أنه من وجد عنده فرس مسروق كلف أن يرده إلى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله فإن لم يقدر على ذلك أخذ أولاده في ذلك. فإن لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة.

وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وإنما يصنعون طعاما من شيء شبه الانلي، يسمونه الدوقي (= المجروش) يجعلون على النار الماء فإذا غلي صبوا عليه شيئا من الدوقي ، وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحفة، ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه ويشربون عليه لبن اليخل ،وهم يسمونه القمز. وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج يستعملون في بعض الأوقات طعاما يسمونه البورخاني ،وهو عجين يقطعونه قطيعات صغارا ،ويثقبون أوساطها ويجعلونها في قدرة ، فإذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها. ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقي الذي تقدم ذكره، وهم يرون أكل الحلواء عيبا .ولقد حضرت يوما عند السلطان أوزبك في رمضان فأُحضرت لحوم الخيل ،وهي أكثر ما يأكلون من اللحم ولحوم الأغنام والرشتا، وهو شبه الأطرية، يطبخ ويشرب باللبن، وأتيته تلك الليلة بطبق حلوا صنعها بعض أصحابي فقدمتها بين يديه فجعل إصبعه عليها وجعله على فيه ،ولم يزد على ذلك .وأخبرني الأمير تلكتمور أن أحد الكبار من مماليك هذا السلطان، وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدا قال له السلطان يوم: " كل الحلواء وأعتقكم جميعا" فأبى وقال: " لو قتلتني ما أكلتها" .

ولما خرجنا من مدينة القرم نزلنا بزاوية الأمير تلكتمور في موضع يعرف بسجان، فبعث إلي أن أحضرعنده، فركبت إليه وكان لي فرس معد لركوبي يقوده خديم العربة، فإذا أردت ركوبه ركبته وأتيت الزاوية، فوجدت الأمير قد وضع بها طعاما كثيرا فيه الخبز ،ثم أتوا بماء

أبيض في صحاف صغار فشرب القوم منه . وكان الشيخ مظفر الدين يلي الأمير في مجلسه، وأنا أليه ،فقلت له :"ما هذا ؟" :" هذا ماء الدهن" فلم أفهم ما قال، فذقته فوجدت له حموضة فتركته .فلما خرجت سألت عنه فقال :"هو نبيذ يصنعونه من الدوقي، وهم حنفية المذهب، والنبيذ عندهم حلال ،ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقي البوزه (=البوظة) وإنما قال الشيخ مظفر الدين :"ماء الدخن" ولسانه فيه اللكنة الأعجمية فظننت أنه يقول "ماء الدهن "وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القرم ،وصلنا إلى ماء كثير نخوضه يوما كاملا ،وإذا كثر خوض الدواب والعربات في هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة فذهب الأمير إلى راحتلي ،وقدمني أمامه مع بعض خدامه وكتب لي كتابا إلى أمير أزاق، يعلمه أني أريد القدوم على الملك، ويحضه على إكرامي .

وسرنا حتى انتهينا إلى ماء آخر نخوضه نصف يوم ، ثم سرنا بعده ثلاثا، ووصلنا إلى مدينة أزاق وهي على ساحل البحر حسنة العمارة يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات ،وبها من الفتيان أخي بجقجي ،وهو من العظماء يطعم الوارد والصادر .ولما وصل كتاب الأمير تلكتمور إلى أزاق وهو محمد خواجة الخوارزمي خرج إلى استقبالي ومعه القاضي والطلبة، وأخرج الطعام فلما سلمنا عليه نزل بموضع أكلنا فيه ووصلنا المدينة ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس علهما السلام ،وخرج شيخ من أهل أزاق يسمى برجب النهر ملكي نسبة إلى قرية بالعراق، فأضافنا بزاوية له ضيافة حسنة .

وبعد يومين من قدومنا قدم الأمير تلكتمور وخرج الأمير محمد للقائه ومعه القاضي والطلبة ،وأعدوا له الضيافة وضربوا ثلاث قباب متصلا بعضها ببعض إحداها من الحرير عجيبة والثنتان من الكتان ،وأداروا عليها سراجة وهي المسماة عندنا أفراج، وخارجها الدهليز، وهو على هيئة البرج عندنا. ولما نزل الأمير بسطت بين يديه شقاق الحرير يمشي عليها فكان من مكارمه وفضله أن قدمني أمامه ليرى ذلك الأمير منزلتي عنده، ثم وصلنا إلى الخباء الأولى، وهي المعدة لجلوسه ،وفي صدرها كرسي من الخشب لجلوسه كبير مرصع وعليه مرتبة حسنة فقدمني الأمير أمامه ،وقدم الشيخ مظفر الدين، وصعد هو فجلس فيما

بيننا ،ونحن جميعا على المرتبة وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبتها عن يسار الكرسي على فرش فاخرة ،ووقف ولدا الأمير تلكتمور وأخوه الأمير محمد وأولاده في الخدمة، ثم أتوا بالأطعمة من لحوم الخيل وسواها، وأتوا بألبان الخيل ثم أتوا بالبوزة ،وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان وللأمير وللحاضرين يقول ذلك بالعربي ،ثم يفسره لهم بالتركي. وفي أثناء ذلك يكرر القرّاء آيات من القرآن بترجيع عجيب، ثم أخذوا في الغناء يغنون بالعربي، ويسمونه القوال ،ثم بالفارسي يسمونه الملمع .ثم أتوا بطعام آخر، ولم يزالوا على ذلك إلى العشي. وكلما أردتُ الخروج منعني الأمير .ثم جاءوا بكسوة للأمير وكساوي لولديه وأخيه والشيخ مظفر الدين ولي، وأتوا بعشرة أفراس للأمير ولأخيه ولولديه بستة أفراس ولكل كبير من أصحابه بفرس ولي بفرس .

والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا وثمنها نزر، قيمة الجيد منها خمسون درهما أو ستون من دراهمهم، وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه. وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر بالأكاديش ومنها معاشهم وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر ،فيكون للتركي منهم آلاف منها، ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل أنهم يضعون في العربات التي تركب فيها نساؤهم قطعة لبد في طول الشبر مربوطة إلى عود رقيق في طول الذراع في ركن العربة ويجعل لكل ألف فرس قطعة .ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ومن له دون ذلك، وتحمل هذه الخيل إلى بلاد الهند فيكون في الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه ،ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم ويسمى عندهم القَشِيّ (=السائس) ويركب أحدها وبيده عصا طويلة فيها حبل ،فإذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمى الحبل في عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر للرعي .وإذا وصلوا بها إلى أرض السند أطعموها العلف لأن نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير، ويموت لهم منها الكثير ،ويسرق ويغرمون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال له

ششنقار(=هشتنكار قرب بيشاور) ويغرمون عليها بُملتان قاعدة بلاد السند .وكانوا فيما تقدم يغرمون ربع ما يجلبونه فرفع ملك الهند إلى السلطان محمد ذلك ،وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ومن تجار الكفار العشر، ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير لأنهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون دينارا ،وربما باعوها بضعف ذلك وضعفيهز والجياد منها تساوي خمسمائة دينار وأكثر من ذلك ،وأهل الهند لا يبتاعونها للجري والسبق لأنهم يلبسون في الحرب الدروع ويدرعون الخيل، وإنما يبتغون قوة الخيل واتساع خطاها، والخيل التي يبتغونها للسبق تُجلب إليهم من اليمن وعمان وفارس ،ويباع الفرس منها بألف دينار إلى أربعة آلاف. ولما سافر الأمير تلكتمور عن هذه المدينة أقمت ثلاثة أيام حتى جهز لي الأمير محمد خواجة آلات سفري .

وسافرت إلى مدينة الماجر (= على ضفاف نهر كوما)وهي مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير ،وبها البساتين والفواكه الكثيرة .نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائح العراق، وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه ،وفي زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم ،ومنهم المتزوج والعزب .وعيشتهم من الفتوح ولأهل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء، وفي كل ليلة يأتون إلى الزاوية بالخيل والبقر والغنم ،ويأتي السطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ويجزلون الإحسان ويعطون العطاء الكثير وخصوصا النساء ؛فإنهن يكثرن الصدقة ويتحرين افعال الخير .وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة. فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر ،وهو من فقهاء بخارى وفضلائها وله جماعة من الطلبة والقراء يقرأون بين يديه ،وعظ وذكّر وأمير المدينة حاضر وكبراؤها ،فقام الشيخ محمد البطائحي فقال: " إن الفقيه يريد السفر ونريد له زوادة" ثم خلع فرجية مرعز كانت عليه وقال: " هذه مني إليه "فكان الحاضرون بين منْ خلع ثوبه ومنْ أعطى فرسا ومنْ أعطى دراهم ،واجتمع له كثير من ذلك كله ،ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهوديا سلم علي وكلمني بالعربي، فسألته عن بلاده فذكر أنه من

بلاد الأندلس، وإنه قـدم منهـا في البـر ولم يسلك بحـرا ،وأتى على طريق القـسطنطينيـة العظمى وبلاد الروم وبلاد الجركس(= القوقاز) وذكر أن عهده بالأندلس منذ أربعة أشهر، وأخبرني التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك بصحة ما قاله .

ورأيت بهـذه البلاد عجبا من تعظيم النساء عندهم، وهن أعلى شأنا من الرجال .فأما نساء الأمراء فكانت أول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الأمير سَلْطِية في عربة لهـا،وكلها مجللة بالملف الأزرق الطيب، وطيقـان البيت مـفتوحة وأبوابه ،وبين يديهـا أربع جوار فاتنات الحسن بديعات اللباس ،وخلفهـا جـملة من العربات فيهـا جوار يتبعنها، ولما قربت من منزل الأمير نزلت عن العربة إلى الأرض، ونزل معهـا نحو ثلاثين من الجواري يرفعن أذيالها، ولأثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة، ويرفعن الأذيال عن الأرض من كل جانب ومشت كـذلك متبختـرة ،فلمـا وصلت إلى الأمير قام إليـهـا وسلم عليـهـا ، وأجلسها إلى جانبه ودار بها جواريها وجاءوا بروايا القِمِز فصبّت منه في قدح وجلست على ركبتيهـا قدام الأمير وناولته القـدح فشرب ثـم سقـت أخاه وسقـاها الأمير وحـضـر الطعـام فأكلت معه وأعطاني كسوة وانصرفت . وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء وسنذكر نساء الملك فيما بعد .

وأمـا نسـاء البـاعـة والسوقة فرأيتهـن وإحـداهن تكون في العربة والخيل تجرها وبين يـديهـا الثـلاث والأربع من الجـواري يرفـعـن أذيالهـا وعلـى رأسـهـا البـغطاق(=تاج للزينة) وهـو أقروف(=زينة) مرصع بالجوهر وفي أعلاه ريش ،وتكـون طيقـان البـيت مفـتحـة وهـي بادية الوجه لأن نساء الأتراك لا يحتجبن وتأتي إحداهن على هذا الترتيبُ ومعها عبيدها بالغنم واللبن فـتبيعه من الناس بالسلع العطرية، وربما كـان مع المرأة منهن زوجهـا فيظنه من يراها بعض خدامها ولا يكون عليه من الثياب إلا فروة من جلد الغنم ،وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكُلا .

وتجهزنا من مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان وكان على أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له بش دغ (= في القوقاز) ومعنى بش عندهم خمسة ومعنى دغ الجبل، وبهذه الجبال

الخمسة عين ماء حار منْ اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض. وارتحلنا إلى موضع المحلة ،فوصلتاه أول يوم من رمضان فوجدنا المحلة قد رحلت، فعدنا إلى الموضع الذي رحلنا منه لأن المحلة تنزل بالقرب منه ،فضربت بيتي على تل هنالك وركزت العَلم أمام البيت،وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك وأقبلت المحلة وهم يسمونها الأردو(=المخيّم) فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق ودخان الطبخ صاعد في الهواء، وهم يطبخون في حال رحيلهم ،والعربات تجرها الخيل بهم فإذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض وهي خفيفة المحمل ،وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت. واجتاز بنا خواتين السلطان كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة منهن وهي بنت الأمير عيسى بك وسنذكرها، رأت البيت بأعليالتل والعلم أمامه وهو علامة الوارد فبعثت الفتيان والجواري فسلموا علي وبلغوا سلامها إلي، وهي واقفة تنتظرهم فبعثت إليها بهدية مع بعض أصحابي، ومع معرّف الأمير تلكتمور فقبلتها تبركا، وأمرتْ أن أنزل في جوارها وانصرفت وأقبل السطان فنزل في محلته على حدة.

السلطان محمد أوزبك وعائلته

والسلطان اسمه محمد أزوبك خان (=سلطان مغولي من القبيلة الذهبية، توفيَ في ٧٤١هحري=١٣٤٢ميلادي) ومعنى خان عندهم السلطان .وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى ،مجتهد في جهادهم، وبلاده متسعة ومدنهم عظيمة منها الكفا والقرم والماجر وأزاق وسرادق وخوارزم وحضرته السرا. وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها وهم :مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه إمام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة أيد الله أمره وأعز نصره(=المغربي أبو الحسن علي بن أبي سعيد) وسلطان مصر والشام وسلطان العراق والسلطان أوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر وسلطان الهند وسلطان الصين.

ويكون هذا السلطان إذا سافر في محلة على حدة معه مماليكه وأرباب دولته وتكون كل

خاتون من خواتينه على حدة في محلتها ،وإذا أراد أن يكون عنده إحداهن بعث إليها يعلمها بذلك فتتهيأ له. وله في محل قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع .ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة ،وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورؤوسها مرصعة بالجواهر ،ويقعد السلطان على السرير، وعن يمينه الخاتون طيطغلي، وتليها الخاتون كبك، وعلى يساره الخاتون بيلون، وتليها الخاتون اردجي، ويقف أسفل السرير علياليمين ولد السلطان تين بك، وعن الشمال ولده الثاني جان بك، وتجلس بين يديه ابنته أيت كججك وإذا أتت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير، وأما طيطغلي ،وهي الملكة وأحظاهن عنده فإنه يستقبلها إلى باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها، فإذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان، وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب. ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل إنسان منهم إذا أتى مجلس السلطان يأتي معه غلام بكرسيه. ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمه وإخوته وأقاربه ويقف مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وعن شمال ثم يدخل الناس للسلام الأمثل فالأمثل ثلاثة ثلاثة فيسلمون، وينصرفون فيجلسون على بعد .

فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ،ثم ينصرف سائرهن فيتبعنها إلى محلتها ،فإذا دخلت إليها انصرفت كل واحدة إلى محلتها راكبة عربتها ،ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل، وأمام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان ، وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركبانا ومثلهم مشاة بأيديهم القضبان والسيوف مشدودة على أوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان. وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها ومجيئها .

وكان نزولي من المحلة في جوار ولد السلطان جان بك الذي يقع ذكره فيما بعد ،وفي الغد

من يوم وصولي دخلت إلى السلطان بعد صلاة العصر وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء وقد صنع طعاما كثيرا وأفطرنا بمحضره ،وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضي حمزة في شأني بالخير وأشاروا على السلطان بإكرامي ،وهؤلاء الأتراك لا يعرفون إنزال الوارد ولا إجراء النفقة وإنما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز، وتلك كرامتهم. وبعد هذا بأيام صليت صلاة العصر مع السلطان فلما أردت الإنصراف أمرني بالقعود وجاءوا بالطعام والمشروبات كما يصنع من الدوقي ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل، وفي تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء فجعل إصبعه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك .

وكل خاتون من الخواتين تركب في عربة للبيت، وفي البيت الذي تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو من الخشب المرصع ،وتكون الخيل التي تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب وخديم العربة الذي يركب أحد الخيل فتى يدعى القشي، والخاتون قاعدة في عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولو خاتون ومعنى ذلك الوزيرة وعن شمالها امرأة من القواعد أيضا تسمى كجك خاتون ومعنى ذلك الحاجبة وبين يديها ست من الجواري الصغار يقال لهن البنات ،فائقات الجمال متناهيات الكمال ،ومن ورائها ثنتان منهن تستند إليهن وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجوهر وبأعلاها ريش الطواويس وعليها ثياب حرير مرصعة بالجواهر شبه المنوت التي يلبسها الروم، وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلا وهو شبه الأقروف، وفي اعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجوهر وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب من الحرير مذهب يسمى النخّ ويكون بين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتيان الروميين والهنديين ،وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما، وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة في كل عربة الثلاث والأربع من الجواري الكبار والصغار وثيابهن الحرير وعلى رؤوسهن الكلا ،وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر وتحمل خزائن الخاتون وأموالها وأثاثها وطعامها، ومع كل عربة غلام موكل بها

متزوج بجارية من الجواري التي ذكرناها، فإن العادة عندهن أن لا يدخل بين الجواري من الغلمان إلا من كان له بينهن زوجة، وكل خاتون فهي على هذا الترتيب ولنذكرهن على الإنفراد:

فالخاتون الكبرى: هي الملكة أم ولدي السلطان جاك بك وتين بك وسنذكرهما، وليست أم ابنته ايت كججك وأمها كانت الملكة قبل هذه ، وإسم هذه الخاتون طيطغلى وهي أحظى نساء هذا السلطان عنده .عندها يبيت أكثر لياليه، ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها وإلا فهي أبخل الخواتين. وحدثني من أعتمده من العارفين بأخبار هذه الملكة أن السلطان يحبها للخاصية التي فيها؛ وهي أنه يجدها كل ليلة كأنها بكر ،وذكر لي غيره أنها من سلالة المرأة التي يذكر أن المُلك زال عن سليمان عليه السلام بسببها ،ولما عاد إليه ملكه أمر أن توضع بصحراء لا عمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق، وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقةً وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة. ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرها منْ أخبر أنه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها إلا هذه الخاتون اللهم إلا ان بعض أهل الصين أخبرني أن بالصين صنفا من نسائها على هذه الصورة، ولم يقع بيدي ذلك ولا عرفت له حقيقة. وفي غد اجتماعي بالسلطان دخلت إلى هذه الخاتون، وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كأنهن خديمات لها، وبين يديها نحو خمسون جارية صغارا يسمون البنات ،وبين أيديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك ،وهن ينقينه وبين يدي الخاتون صينية ذهب مملوءة منه وهي تنقيه، فسلمنا عليها. وكان في جملة أصحابي قاريء يقرأ القرآن على طبقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب فقرأ ،ثم أمرت أن يؤتى بالقمز فأتى به في أقداح خشب لطاف خفاف فأخذت القدح بيدها وناولتني إياه، وتلك نهاية الكرامة عندهم. ولم أكن شربت القمز قبلها ،ولكن لم يمكنني إلا قبوله، وذقته ولا خير فيه، ودفعته لأحد أصحابي .وسألتني عن كثير من حال سفرنا فأجبناها ،ثم انصرفنا عنها. وكان ابتداؤنا بها لأجل عظمتها عند الملك.

والخاتون الثانية التي تلي الملكة اسمها كبك خاتون، ومعناها بالتركية النُّخالة وهي بنت الأمير نَغَطي وأبوها حي مبتلى بعلة النقرس، وقد رأيته. وفي غد دخولنا على الملكة دخلنا

على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ المصحف الكريم، وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا ،فسلمنا عليها وأحسنت في السلام والكلام، وقرأ قارئنا فاستحسنته، وأمرت بالقمز فأحضر، وناولتني القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة وانصرفنا عنها .

والخاتون الثالثة اسمها بَيْلون، وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور(=تقفور) ودخلنا على هذه الخاتون ،وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات ،منهن قائمات وقاعدات والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم. فسألت عن حالنا ومقدمنا وبعد أوطاننا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رقة منها وشفقة ،وامرت بالطعام، فأُحضر وأكلنا بين يديها وهي تنظر إلينا، ولما أردنا الانصراف ،قالت: " لا تنقطعوا علينا، وترددوا إلينا، وطالبونا بحوائجكم" وأظهرت مكارم الأخلاق وبعثت في أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها، ومع هذه الخاتون كان سفري إلى القسطنطينية العظمى كما نذكره بعد.

والخاتون الرابعة اسمها أردجا ،وأرد بلسانهم المحلة ،وسميت بذلك لولادتها في المحلة وهي بنت الأمير الكبير عيسى بك أمير الألوس (=إحدى قبائل المغول الكبيرة) ومعناها أمير الأمراء ،وأدركته حيّا وهو متزوج ببنت السلطان ايت كججك، وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل وأشفقهن، وهي التي بعثت إلي لما رأيت بيتي على التل عند جواز المحلة ،كما قدمناه ،ودخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها ما لا مزيد عليه ، وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها، ودعت بالقمز فشرب أصحابنا ،وسألت عن حالنا فأجبناها، ودخلنا أيضا إلى أختها زوجة الأمير علي بن أزرق .

وبنت السلطان المعظم أوزبك اسمها إيت كججك ، ومعنى اسمها الكلب الصغير فإن إيت هو الكلب وكججك هو الصغير، وقد قدمنا أن الترك يسمون بالفال كما تفعل العرب، وتوجهنا إلى هذه الخاتون بنت الملك ،وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال

من محلة والدها فأمرت بإحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء، وحضر زوجها الأمير عيسى الذي بنتُه زوجة السلطان، فقعد معها على فراش واحد وهومعتل بالنقرس فلا يستطيع التصرف على قدميه ولا ركوب الفرس ،وإنما يركب العربة وإذا أراد الدخول على السلطان أنّزله خدامه وأدخلوه إلى المجلس محمولا . وعلى هذه الصورة رأيت أيضا الأمير نغطي ،وهو أبو الخاتون الثانية. وهذه العلة فاشية في هؤلاء الأتراك .ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الأخلاق ما لم نره من سواها، وأجزلت الإحسان وأفضلت جزاها الله خيرا .

وولدا السلطان هما شقيقان وأمهما جميعا الملكة طيطغلي التي قدمنا ذكرها والأكبر منهما اسمه تين بك وبك معناه الأمير وتين معناه الجسد، فكأن اسمه أمير الجسد واسم أخيه جان بك ومعنى جان الروح فكأنه يسمى أمير الروح، وكل واحد منهما له محلة على حدة وكان تين بك من أجمل خلق الله صورة ،وعهد له أبوه بالملك وكانت له الحظوة والتشريف عنده ،ولم يرد الله ذلك فإنه لما مات أبوه ولي يسيرا ثم قتل لامور قبيحة جرت له، وولي أخوه جان بك وهو خير منه وأفضل وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذي تولى تربية جان بك وأشار علي هو والقاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامي والإمام المقري حسام الدين البخاري وسواهم حين قدومي أن يكون نزولي بمحلة جان بك المذكور لفضله ففعلت ذلك.

أرض الشمال وبلاد الظلمة

وكنت سمعت بمدينة بلغار (= تقع أطلالها جنوب قازان) فأردت التوجه إليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضا في عكس ذلك الفصل ،وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر، فطلبت منه أن يوصلني إليها فبعث معي من أوصلني إليها وردني إليه ،ووصلتها في رمضان فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصلينا وصليناها التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر أثر ذلك ،وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضا وأقمت بها ثلاثا .

وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة والدخول إليها من بلغار وبينهما أربعون يوما ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى ،والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار؛ فإن تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابه فيها، والكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها في الجليد، ولا يدخلها إلا الأقوياء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها موفرة بطعامه وشرابه وحطبه فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر .والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مرارا كثيرة، وتنتهي قيمته إلى ألف دينار ونحوها، وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب، ويكون هو المقدم تتبعه سائر الكلاب بالعربات فإذا وقف وقفت . وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بني آدم وإلا غضب الكلب، وفر وترك صاحبه للتلف .

فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا إلى منزلهم المعتاد ،فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بإزائه من السمور والسنجاب والقاقم فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه وإن لم يرضه تركه فيزيدونه، وربما رفعوا متاعهم أعني أهل الظلمة وتركوا متاع التجار، وهكذا بيعهم وشراؤهم ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم الإنس ولا يرون أحدا .

والقاقُم هو أحسن أنواع الفراء وتساوي الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون، وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير على طول الشبر،وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله ،والسمور دون ذلك تساوي الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها، ومن خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل. وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفرواتهم عند العنق، وكذلك تجار فارس والعراقين . وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذي بعثه السلطان صحبتي فوجدت محله السلطان على الموضع المعروف ببش دغ ،وذلك في الثامن والعشرين من رمضان .وحضرت معه صلاة العيد، وصادف يوم العيد الجمعة .

ترتيب الأوزبك في العيد

لما كان صباح العيد ركب السلطان في عساكره العظيمة، وركبت كل خاتون عربتها، ومعها عساكرها ،وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها إذ هي الملكة على الحقيقة، ورثت الملك من أمها، وركب أولاد السلطان كل واحد في عسكره .وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين السايلي، ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ ،فركبوا وركب القاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامي والشريف ابن عبد الحميد. وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولي عهد السلطان، ومعهم الأطبال والأعلام، فصلى بهم القاضي شهاب الدين وخطب أحسن خطبة وركب السلطان، وانتهى إلى برج خشب يسمى عندهم الكشك، فجلس فيه ومعه خواتينه، ونصب برج ثان دونه فجلس فيه ولي عهده وابنته صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينه و شماله فيهما أبناء السلطان وأقاربه، ونصبت الكراسي للأمراء وأبناء الملوك ،وتسمى الصندليات عن يمين البرج وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبلات للرمي لكل أمير طومان طبلة مختصة به أمير طومان عندهم هو الذي يركب له عشرة آلاف، فكان الحاضرون من أمراء طومان سبعة عشر يقودون مائه وسبعين ألفا، وعسكره أكثر من ذلك، ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه فكانوا على ذلك ساعة ،ثم أتى بالخلع فخلعت على كل أمير خلعة ،وعندما يلبسها يأتي على أسفل برج السلطان فيخدم وخدمته أن يمس الأرض بركبته اليمنى ويمد رجله تحتها والأخرى قائمة ،ثم يؤتى بفرس مسرج ملجم فيرفع حافره ويقبل فيه الأمير ويقوده بنفسه إلى كرسيه، وهنالك يرتبه ويقف مع عسكره ويفعل هذا الفعل مع كل أمير منهم .

ثم ينزل السلطان عن البرج ويركب الفرس وعن يمينه ولي العهد وتليه بنته الملكة ايت كججك وعن يساره ابنه الثاني، وبين يديه الخواتين الأربع في عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب والخيل التي تجرها مجللة بالحرير المذهب، وينزل جميع الأمراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة فيمشون بين يدي السلطان على أقدامهم إلى أن

يصل إلى الوطاق. والوطاق هو إفراج، وقد نصبت هنالك باركة عظيمة والباركة عندهم بيت عظيم له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب، وفي الأعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع ،،وتظهر هذه الباركة على البعد كأنها ثنية ويوضع عن يمينها ويسارا سقائف من القطن والكتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير وينصب في وسط الباركة السرير الأعظم وهم يسمونه التخت، وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة وفوقه فرش عظيم وفي وسط هذا السرير الأعظم مرتبة يجلس عليها السلطان والخاتون الكبرى وعن يمينه مرتبة جلست بها بنته ايت كججك ومعها الخاتون أردوجي وعن يساره مرتبة جلست عليها الخاتون بيلون ومعها الخاتون كبك ونصب عن يمين السرير كرسي قعد عليه تين بك ولد السلطان ونصب عن شماله كرسي قعد عليه جان بك ولده الثاني ونصبت كراسي عن اليمن والشمال جلس فوقها أبناء الملوك الكبار ثم الأمراء الصغار مثل أمراء هزارة وهم الذين يقودون ألفا ، ثم أتي بالطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلك وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة وتوضع بين يدي كل أمير مائدة، ويأتي الباروجي وهو مقطّع اللحم وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير، وفي حزامه جملة سكاكين في أغمادها ويكون لكل أمير باورجي فإذا قدمت المائدة قعد بين يدي أميره ويؤتى بصفحة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء فيقطع الباورجي اللحم قطعا صغارا، ولهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطا بالعظم فإنهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم ثم يؤتى بأواني الذهب والفضة للشرب وأكثر شربهم نبيذ العسل، وهم حنفية المذهب يحللون شرب النبيذ ،فإذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت برجلها ثم ناولته القدح فشرب ثم تأخذ قدحا آخر فتناوله للخاتون الكبرى فتشرب منه، ثم تناوله لسائر الخواتين على ترتيبهن ،ثم يأخذ ولي العهد القدح ويخدم ويناوله أباه فيشرب ،ثم الخواتين ثم أخته ،ويخدم جميعهن، ثم يقوم الولد الثاني فيأخذ القدح ويسقي أخاه ويخدم له، ثم يقوم الأمراء الكبار فيسقي كل واحد منهم ولي العهد

ويخدم له ثم يقوم أبناء الملوك،فيسقي كلواحد منهم هذا الابن الثاني ويخدم له،ثم يقوم الأمراء الصغار، فيسقون ابناء الملوك، ويغنون أثناء ذلك بالموالية .

وكانت قد نصبت قبة كبيرة إزاء المسجد للقاضي والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشايخ وأنا معهم، فأوتينا بموائد الذهب والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الأتراك، ولا يتصرف في ذلك اليوم من بين يدي السلطان إلا الكبار فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد إلى من أراد فكان من الفقهاء من أكل ومنهم من تورع عن الأكل في موائد الفضة والذهب .ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القمز فأمر السلطان بتفريقها على الناس وأتوا الي بعربة منها، فأعطيتها لجيراني من الأتراك.ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة فأبطأ السلطان فمن قائل إنه لا يأتي لأن السكر قد غلب عليه. ومن قائل إنه لا يترك الجمعة ،فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل. فسلم على السيد الشريف وتبسم له ،وكان يخاطبه بآطا، وهو الأب بلسان التركية ،ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس إلى منازلهم، وانصرف السلطان إلى الباركة، فبقي على حاله إلى صلاة العصر ،ثم انصرف الناس أجمعون،وبقي مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته.

من مدينة الحاج ترخان إلى القسطنطينية

ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضى العيد فوصلنا إلى مدينة الحاج ترخان ،ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم والمنسوب إليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركي نزل بموضعها، وحرر له السلطان هذا الموضع فصار قرية عظمت وتمدنت وهي من أحسن المدن. عظيمة الأسواق مبنية على نهر أتل (=الفولغا)وهو من أنهار الدنيا الكبار، وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به، ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بالآلاف من أحمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر والتبن هنالك لا تأكله الدواب لأنه يضرها، وكذلك ببلاد الهند، وإنما أكلها الحشيش الأخضر لخصب البلاد .ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل، وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون.

ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن

لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود إليه ، فأذن لها ، ورغبتُ منه أن يأذن لي في التوجه بصحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمنعني خوفا علي، فلاطفته وقلت له: " إنما أدخلها في حرمتك وجوارك ،فلا أخاف من أحد" فأذن لي، وودعناه ،ووصلني بألف وخمسمائة دينار ،وخلعة وأفراس كثيرة. وأعطتني كل خاتون منهن سبائك الفضة ،وهم يسمونها صوم واحدتها صومة، وأعطت بنته أكثر منهن ،وكستني وأركبتني واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة .

وسافرنا في العاشر من شوال (=سنة ٧٣٤هجرية الموافق ١٤حزيرن ١٣٣٤ميلادية) في صحبة الخاتون بيلون، وتحت حرمتها. ورحل السلطان في تشييعها مرحلة، ورجع هو والملكة وولي عهده. وسافر سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية، ثم رجعن. وسافر الأمير بيدرة في خمسة آلاف من عسكره. وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين، والباقون من الترك. وكان معها من الجواري نحو مائتين، وأكثرهن روميات. وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة، ونحو ألفي فرس لجرها وللركوب ونحو ثلاثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرها ،وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ،ومن الهنديين مثلهم .وقائدهم الأكبر يسمى بسنبل الهندي، وقائد الروميين يسمى بميخائيل. ويقول له الأتراك لؤلؤ، وهو من الشجعان الكبار. وتركت جواريها وأثقالها بمحلة السلطان إذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل، وتوجهنا إلى مدينة أكك (= على بحر آزوف)وهي مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخلوات شديدة البرد ،وبينها وبين السرا حضرة السلطان مسيرة عشرة، وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة جبال الروس ، وهم نصارى شقر الشعور، زرق العيون قباح الصور أهل غدر. وعندهم معادن الفضة، ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهي سبائك الفضة التي بها يباع ويشترى في هذه البلاد ووزن الصومة منها خمس أواقي.

ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة سرداق(= سولديا في جزيرة القرم) وهي من دشت قفجق على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها، وبخارجها البساتين والمياه ، وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم ،وهم أهل الصنائع. وأكثر بيوتها خشب.

وكانت هذه المدينة كبيرة فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك، وكانت الغلبة للروم فانتصر للترك أصحابهم وقتلوا الروم شر قتلة، ونفوا أكثرهم، وبقي بعضهم تحت الذمة إلى الآن. وكانت الضيافة تحمل إلى الخاتون في كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر الدوقي والقمز وألبان البقر والغنم .والسفر في هذه البلاد مُضحى ومُعشى ، وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره إلى آخر حد بلاده تعظيما لها لا خوفا عليها لأن تلك البلاد آمنة.

ثم وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم بابا سلطوق، وبابا عندهم بمعناه عند البربر سواء إلا أنهم يفخمون الباء ويذكرون أن سلطوق هذ كان مكاشفا، لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع. وهذه البلاد آخر بلاد الأتراك بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما في برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها ،يتزود لها الماء ويحمل في الروايا والقرب على العربات. وكان دخولنا إليها في أيام البرد فلم نحتج إلى كثير من الماء. والاتراك يرفعون الألبان في القرب ويخلطونها بالدوقي المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون. وأخذنا من هذه البلدة في الإستعداد للبرية واحتجت إلى زيادة أفراس ،فأتيت الخاتون فأعلمتها بذلك، وكنت أسلّم عليها صباحا ومساء ،ومتى أتيتها تبعث إلي بالفرسين والثلاثة وبالغنم فكنت أترك الخيل لا أذبحها ، وكان من معي من الغلمان والخدم يأكلون مع أصحابنا الأتراك فاجتمع لي نحو خمسين فرسا وأمرت إلي الخاتون بخمسة عشر فرسا، وأمرت وكيلها ساروجة الرومي ان يختارها سمانا من خيل المطبخ، وقالت: " لا تخف فإن احتجت إلى غيرها زدناك " .

ودخلنا البرية في منتصف ذي القعدة ،فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان إلى أول البرية تسعة وعشرين يوما وإقامتنا خمسة ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوما مضحي ومعشي وما رأينا إلا خيرا والحمد لله . ثم وصلنا بعد ذلك إلى حصن مهتولي، وهو أول عمالة الروم .وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها فوصلنا إلى هذا الحصن فاستقبلنا كفالي نقوله الرومي في عسكر عظيم ،وضيافة عظيمة، وجاءت الخواتين والدايات من دار أبيها ملك القسطنطينية. وبين مهتولي والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما منها ستة عشر يوما إلى الخليج وستة منه إلى القسطنطينية ،ولا يسافر من هذا الحصن إلا

بالخيل والبغال ،وتترك العربات به لأجل الوعر والجبال.وجاء كفالي المذكور ببغال كثيرة ، وبعثت إلي الخاتون بستة منها ،وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركته من أصحابي وغلماني مع العربات والأثقال، فأمر لهم بدار، ورجع الأمير بيدرة بعساكره، ولم يسافر مع الخاتون إلا ناسها ،وتركت مسجدها بهذا الحصن وارتفع حكم الأذان، وكان يؤتى إليها بالخمور في الضيافة فتشربها وبالخنازير. وأخبرني بعض خواصها أنها أكلتها ولم يبق معها من يصلي إلا بعض الأتراك كان يصلي معنا، وتغيرت البواطن لدخولنا في بلاد الكفر. ولكن الخاتون أوصت الأمير كفالي بإكرامي .ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا.

ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك ،وهو بسفح جبل على نهر زخار، يقال له اصطفيلي .ولم يبق من هذا الحصن إلا آثاره وبخارجه قرية كبيرة . ثم سرنا يومين ووصلنا إلى الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة، فوجدنا فيه المد فأقمنا حتى كان الجزر وخضناه وعرضه نحو ميلين ومشينا أربعة أميال في رمال، ووصلنا الخليج الثاني فخضناه وعرضه نحو ثلاثة أميال، ثم مشينا نحو ميلين في حجارة ورمل ووصلنا الخليج الثالث، وقد ابتدأ المد فتعبنا فيه وعرضه ميل واحد فعرض الخليج كله مائيه ويابسه اثنا عشر ميلا، وتصير ماء كلها في أيام المطر فلا تخاض إلا في القوارب .

وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة، وهي صغيرة لكنها حسنة مانعة وكنائسها وديارها حسان والأنهار تخرقها والبساتين تحفها، ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة إلى الأخرى ،وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا، والخاتون في قصر لأبيها هنالك، ثم قدم أخوها وشقيقها واسمه كفالي قراس في خمسة آلاف فارس شاكين السلاح، ولما أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرسا أشهب ،ولبس ثيابا بيضاء وجعل رأسه مظللا مكللا بالجواهر، وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض أيضا وعليهم مظللات مزركشة بالذهب، وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا عليه شكة فارس من البيضة المجوهرة والدروع والتركش والقوس والسيوف وبيده رمح في طرف رأسه راية، وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة وتلك الخيل المقودة

هي مراكب ابن السلطان، وقسّم فرسانه على أفواج كل فوج فيه مائتا فارس ،لهم أمير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين السلاح وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشرة من العلامات ملونة بأيدي عشرة من الفرسان وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ومعهم ستة يضربون الأبواق والأنفار والصرنايات، وهي الغيطات. وركبت الخاتون في مماليكها وجواريها وفتيانها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب والفضة المرصعة ،وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لها أيضا النسيج مرصعة بالجوهر، وعلى رأسها تاج مرصع فرسها مجلل حرير مزركش بالذهب، وفي يديه ورجليه خلاخل الذهب وفي عنقه قلائد مرصعة وعظم السرج مكسو ذهبا مكلل جوهرا، وكان التقاؤهما في بسيط من الأرض على نحو ميل من البلد وترجّل لها أخوها لأنه أصغر منها وقبّل ركابها وقبّلت رأسه وترجل الأمراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعا ركابها ، وانصرفت مع أخيها .

وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى مدينة كبيرة على ساحل البحر لاتثبت الآن اسمها، ذات أنهار وأشجار .نزلنا بخارجها ووصل أخو الخاتون ولي العهد في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم، وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء إلا أن الحفل أعظم والجمع أكثر ، وتلاقت معه أخته في مثل زيها الأول وترجلا جميعا وأوتي بخباء حرير فدخلت فيه ولا أعلم كيفية سلامها .

ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية فلما كان الغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ركبانا ومشاة في أحسن زي وأجمل لباس ،وضربت عند الصبح الأطبال والأبواق والأنفار وركبت العساكر. وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب هذه الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بأيديهم عصى طوال في أعلى كل عصا شبه كرة من جلد يرفعون بها الورق ،وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى ،ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج، ولم أقدر على الدخول فيما بينهم ،فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها خوفا على نفسي، وذكر لي أنها لما قربت من أبويها ترجّلت وقبّلت الأرض بين أيديهما ثم قبلت حافري فرسيهما، وفعل كبار

أصحابها مثل فعلها في ذلك .

مدينة القسطنطينية

وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية العظمى ،وقد ضربوا نواقيصها حتى ارتجت الآفاق لاختلاف أصواتها ،ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانة، وسمعتهم يقولون "سراكنوا سراكنوا" ومعناها المسلمون(=وتطلق على العرب أيضا،والروم تسمي العرب سارقنوس أي عبيد سارة زوجة إبراهيم) ومنعونا من الدخول. فقال لهم أصاب الخاتون :"إنهم من جهتنا" فقالوا :"لا يدخلون إلا بإذن" فأقمنا بالباب .وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك وهي بين يدي والدها ،فذكرت له شأننا فأمر بدخولنا ،وعيّن لنا دارا بمقربة من دار الخاتون ، وكتب لنا أمرا بأن لا نُعترض حيث نذهب من المدينة، ونودي بذلك في الأسواق، وأقمنا بالدار ثلاثا، فبعث إلينا الضيافة من الدقيق والخبز والغلة والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش .

وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان ، واسمه تكفور بن السلطان وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة، لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة في الكنائس وترك الملك لولده وسنذكره وفي اليوم الرابع من وصولنا إلى القسطنطينية بعثت إلى الخاتون الفتى سنبل الهندي ،فأخذ بيدي وأدخلني إلى القصر ،فجزنا أربعة أبواب في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة ،فلما وصلنا إلى الباب الخامس تركني الفتى سنبل، ودخل ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين ففتشوني لئلا يكون معي سكين ،وقال لي القائد :تلك عادة لهم لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام غريب أو بلدي وكذلك الفعل بأرض الهند ،ثم لما فتشوني قام الموكل بالباب ،فأخذ بيدي وفتح الباب وأحاط بي أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمي واثنان من ورائي فدخلوا بي إلى مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد في وسطه ماء ومن جهتها الأشجار والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا لا يتكلم أحد منهم، وفي وسط المشور

ثلاثة رجال وقوف، أسلمني أولئك الأربعة إليهم فأمسكوا بثيابي كما فعل الآخرون وأشار إليهم رجل فتقدموا بي، وكان أحدهم يهوديا فقال لي بالعربي : "لا تخف فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد، وأنا الترجمان وأصلي من بلاد الشام" فسألته كيف أسلّم فقال : " قل السلام عليكم "ثم وصلت إلى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه ،وأسفل السرير الخاتون وإخوتها، وعن يمينه ستة رجال، وعن يساره أربعة، وكلهم بالسلاح فأشار إلي قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنيهة ليسكن روعي ،ففعلت ذلك ثم وصلت إليه فسلمت عليه، وأشار أن أجلس فلم أفعل ،وسألني عن بيت المقدس والصخرة المقدسة وعن القمامة (=الكنيسة) وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليه السلام، ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم ،فأجبته عن ذلك كله، واليهودي يترجم بيني وبينه. فأعجبه كلامي وقال لأولاده : أكرموا هذا الرجل وأمنوه. ثم خلع علي خلعة، وأمر لي بفرس ملجم، ومظلة من التي يجعله الملك فوق رأسه وهي علامة الأمان، وطلبت منه أن يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها ،وأذكرها في بلادي فعيّن لي ذلك ومن العوائد عندهم أن الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والأنفار والأطبال ليراه الناس، وأكثر ما يفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذون فطافوا بي في الأسواق.

والمدينة هي متناهية في الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر على شكل وادي سلا من بلاد المغرب، وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت، وهو الآن يعبر في القوارب واسم هذا النهر أبسمي، وأحد القسمين من المدينة يسمى اصطنبول وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة، وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم ،وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة بها نساء .والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر ،وفي أعلاه قلعة صغيرة. وقصر السلطان والسور

يحيط بهذا الجبل ،وهو مانع لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة ،والكنيسة العظمى هي في وسط هذا القسم من المدينة ،وأمام القسم الثاني منها فيسمى الغلطة وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح في قربة من النهر ،وهذا القسم خاص بنصارى الإفرنج يسكنونه وهم أصناف فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل افرانسا، وحكمهم إلى ملك القسطنطينية يقدم عليه منهم من يرتضونه ويسمونه القمص(=القنصل) وعليهم وظيفة في كل عام لملك القسطنطينية وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا، وجميعهم أهل تجارة .ومرساهم من أعظم المراسي رأيت به نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار، وأما الصغار فلا تحصى كثرة وأسواق هذا القسم حسنة إلا أن الأقذار غالبة عليها ويشقها نهر صغير قذر نجس ،وكنائسهم لا خير فيها.

والكنيسة العظمى إنما نذكر خارجها وأما داخلها فلم أشاهده ،وهي تسمى عندهم أيا صوفيا، ويذكر أنها من بناء آصف بن برخياء وهو ابن خالة سليمان عليه السلام ،وهي من أعظم كنائس الروم، وعليها سور يطيف بها فكأنها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا ،ولها حرم هو نحو ميل عليه باب كبيرة ولا يمنع أحد من دخوله ،وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره ،وهو شبه مشهور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان نحو ذراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة والأشجار منظمة عن جهتي الساقية .ومن باب الكنيسة إلى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع عليه دوالي العنب، وفي أسفله الياسمين والرياحين وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب يجلس عليها خدام ذلك الباب ،وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم، وفي وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد إليها على درج خشب وفيها كرسي كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيهم وسنذكره، وعن يسار القبة التي على باب هذا المشور سوق العطارين والساقية التي ذكرناها تنقسم قسمين: أحدهما يمر بسوق العطارين، والآخر يمر بالسوق حيث القضاة والكتاب.

وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقيمون طرقها ويوقدون سرجها ويغلقون أبوابها ولا يدعون أحدا بداخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم الذي يزعمون أنه بقية من الخشبة التي صلب عليها شبيه عيسى عليه السلام، وهو على باب الكنيسة مجعول في جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع ،وقد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليبا . وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقتاه من الذهب الخالص .

وذُكر لي أن عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي إلى آلاف، وأن بعضهم من ذرية الحواريين، وأن بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الأبكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف ،وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله . ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس أن يأتوا كل يوم صباحا الى زيارة هذه الكنيسة ،ويأتي إليها البابا مرة في السنة . وإذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك إلى لقائه ويترجل له، وعند دخول المدينة يمشي بين يديه على قدميه ويأتيه صباحا ومساء للسلام طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف

والمانستار (=الدير) على مثل لفظ المارستان إلا أن نونه متقدمة وراءه متأخرة وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين، وهذه المانستارات بها كثيرة فمنها المانستار عمّره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية وسنذكره، وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة ،ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل إليها ،وهما في داخل بستان يشقهما نهر ماء ، وأحدهما للرجال والآخر للنساء، وفي كل واحد منها كنيسة ،وتدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبدات، وقد حبس على كل واحد منهما أحباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم بناهما أحد الملوك، ومنها مانستاران عن يسار الداخل إلى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين، ويطيف بها بيوت، وأحدهما يسكنه العميان والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممن بلغ الستين أو نحوها، ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك . وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه وأكثر هؤلاء الملوك

إذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستار ،ولبس المسوح وهي ثياب الشعر، وقلد ولده الملك واشتغل بالعبادة حتى يموت .وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء ،وهي كثيرة بهذه المدينة. ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي إلى مانستار يشقه نهر، وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهن المسوح ورؤوسهن محلوقة فيها قلانيس اللبد، ولهن جمال فائق ،وعليهن أثر العبادة ،وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الإنجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم ،فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر ،وقال لي الرومي :"إن هؤلاء البنات من بنات الملوك ،وهبن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة ،وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة" ودخلت أيضا إلى كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبي يقرأ لهن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الأولين، فقال لي الرومي :"هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتعبدون بهذه الكنيسة "ودخلت إلى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد، وإلى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء، وإلى كنائس فيها الرهبان يكون في الكنيسة منها مائة رجل أو أكثر أو أقل وأكثر هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون وكنائسها لا تحصى كثرة ،وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤوسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا ،والنساء لهن عمائم كبار .

والملك المترهب جرجيس ولّى الملك لابنه ،وانقطع للعبادة، وبنى مانستارا كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها. وكنت يوما مع الرومي المعين للركوب معي فإذا بهذا الملك ماش على قدميه، وعليه المسوح وعلى رأسه قلنسوة لبد، وله لحية بيضاء طويلة ووجهه حسن عليه أثر العبادة ،وخلفه وأمامه جماعة من الرهبان وبيده عكاز، وفي عنقه سبحة ، فلما رآه الرومي نزل وقال لي :" انزل فهذا والد الملك "فلما سلم عليه الرومي سأله عني ، ثم وقف وبعث لي فجئت إليه ،فأخذ بيدي ،وقال لذلك الرومي ،وكان يعرف اللسان العربي :" قل لهذا السراكنوا،يعني المسلم، أنا أصافح اليد التي دخلت بيت المقدس ،والرجل التي مشت داخل الصخرة، والكنيسة العظمى التي تسمى قمامة، وبيت لحم، وجعل يده على قدمي

ومسح بها وجهه، فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم، ثم أخذ بيدي ومشيت معه، فسألني عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى وأطال السؤال، ودخلت معه إلى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفا، ولما قارب الباب الأعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه ،وهو من كبارهم في الرهبانية ولما رآهم أرسل يدي فقلت له: " أريد الدخول معك إلى الكنيسة" فقال للترجمان قل له: " لا بد لداخلها من السجود للصليب الأعظم ،فإن هذا مما سنته الأوائل ،ولا يمكن خلافه "فتركته، ودخل وحده ولم أراه بعدها .

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سوق الكتّاب ، فرآني القاضي فبعث إلي أحد أعوانه، فسأل الرومي الذي معي فقال له :إنه من طلبة المسلمين، فلما عاد إليه أخبره بذلك فبعث إلى أحد أعوانه، وهم يسمون القاضي النجشي كفالي ،فقال لي: " النجشي كفالي يدعوك" فصعدت إلى القبة التي تقدم تقدم ذكرها، فرأيت شيخا حسن الوجه واللمة عليه لباس الرهبان وهو الملف الأسود وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون ،فقام إلي وقام أصحابه وقال: " أنت ضيف الملك، ويجب علينا إكرامك" وسألني عن بيت المقدس والشام ومصر، وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام، وقال لي: " لا بد لك أن تأتي إلى داري فأضيفك "فانصرفت عنه ولم ألقه بعد .

ولما ظهر لمن كان في صحبة الخاتون من الأتراك أنها على دين أبيها، وراغبة في المقام معه، طلبوا منها الإذن في العودة إلى بلادهم، فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا ،وبعثت معهم من يوصلهم إلى بلادهم أمير يسمى ساروجة الصغير في خمسمائة فارس ،وبعثت إلي فأعطتني ثلاثمائة دينار من ذهبهم يسمونه البربرة، وليس بالطيب، وألفي درهم بندقية ، وشقة ملف من عمل البنات ،وهو أجود أنواعه، وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف وفرسين، وذلك من عطاء أبيها وأوصت بي ساروجة. وودعتها، وانصرفت .وكانت مدة مقامي عندهم شهرا وستة أيام.

وسافرنا صحبة ساروجة فكان يكرمني حتى وصلنا إلى آخر بلادهم ،حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا فركبنا العربات ودخلنا البرية ووصل ساروجة معنا إلى مدينة بابا سلوق ،وأقام بها ثلاثا في الضيافة وانصرف إلى بلاده ،وذلك في اشتداد البرد .وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين أحدهما مبطن وفي رجلي خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان من البرغالي وهو من جلد الفرس مبطن بجلد ذئب ،وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة إلا جمدت لحينها، وإذا غسلت وجهي بالماء إلى لحيتي فيجمد فأحركها فيسقط منها شبه الثلج ،والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب ،وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما علي من ثياب حتى يركبني أصحابي .

ثم وصلت إلى مدينة الحاج ترخان حيث فارقنا السلطان أوزبك فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه، فسافرنا على أتل وما يليه من المياه ثلاثا، وهي جامدة وكنا اذا احتجنا الماء قطعنا قطعا من الجليد وجعلناه في القدرة حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به .

ووصلنا إلى مدينة السرا ،وتعرف بسرا بركة، وهي حضرة السلطان أوزبك .ودخلنا على السلطان فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فأعلمناه، وأمر بإجراء النفقة علينا وأنزلنا مدينة السرا، وهي من أحسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الأرض تغص بأهلها كثرة حسنة الأسواق متسعة الشوارع ،وركبنا يوما مع بعض كبرائها وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها .وكان منزلنا في طرف منها، فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها إلا بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعامنا ،فما وصلنا إلى المنزل إلا عند المغرب .ومشينا يوما في عرضها ذاهبين راجعين في نصف يوم، وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين، وفيها ثلاثة عشر مسجد لإقامة الجمعة أحدها للشافعية وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جدا ،وفيها طوائف من الناس منهم المغل، وهم أهل البلاد والسلاطين، وبعضهم مسلمون ومنهم الآص(=شعب من أصول آرية) وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى، وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها والتجار

والغرباء من أهل العراقيين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطا على أموال التجارة. وقصر السلطان بها يسمى الطون طاش ،والطون معناه الذهب وطاش معناه حجر.

وقاضي هذه الحضرة بدر الدين الأعرج من خيار القضاة، وبها من مدرسي الشافعية الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزي أحد الفضلاء ،وبها من المالكية شمس الدين المصري وهو ممن يطعن في ديانته، وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا، وبها زاوية الفقيه الإمام العالم نعمان الدين الخوارزمي رأيته بها ،وهو من فضلاء المشايخ حسن الأخلاق كريم النفع شديد التواضع شديد السطو على أهل الدنيا، يأتي إليه السلطان أوزبك زائرا في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه ،ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ،ويتواضع له والشيخ بضد ذلك، وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان فإنه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم .وأكرمني جزاه الله خيرا وبعث إلي بغلام تركي ،وشاهدت له بركة وكنت أردت السفر من السرا إلى خوارزم فنهاني عن ذلك، وقال لي: " أقم أياما، وحينئذ تسافر" فنازعتني النفس ووجدت رفقة كبيرة آخذة في السفر فيهم تجار أعرفهم، فاتفقت معهم على السفر في صحبتهم وذكرت له ذلك فقال لي: " لا بد لك من الإقامة" فعزمت على السفر فأبقى لي غلام أقمت بسببه. وهذه من الكرامات الظاهرة .

ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابه ذلك الغلام الأبق بمدينة الحاج ترخان، فجاء به إليه فحينئذ سافرت إلى خوارزم ،وبينها وبين حضرة السرا صحراء مسيرة أربعين يوما لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ، وإنما تجر العربات بها الجمال .فسرنا من السرا عشرة أيام، فوصلنا إلى مدينة سرا جوق، ومعنى جوق صغير فكأنهم قالوا سرا الصغيرة ،وهي على شاطيء نهر كبير زخار يقال له ألوصو(= مدينة سرايتشك على مصب نهر أورال) ومعناه الماء الكثير وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد ،وإلى هذه المدينة إنتهى سفرنا بالخيل التي تجر العربات وبعناها بحساب أربع دنانير دراهم للفرس، وأقل من ذلك لأجل ضعفها ورخصها لهذه

المدينة، واكترينا الجمال لجر العربات .وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمر من الترك ويقال له أطا ،ومعناه الوالد أضافنا بها ،ودعا لنا وأضافنا أيضا قاضيها ولا أعرف اسمه.

ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادا لا ننزل إلا ساعتين إحداهما عند الضحى والأخرى عند المغرب، وتكون الإقامة قدر ما يطبخون الدوقي ويشربونه، وهو يطبخ من غلية واحدة ويكون معهم الخليع من اللحم يجعلونه عليه ويصببون عليه اللبن، وكل إنسان إنما ينام أو يأكل في عربته حال السير. وكان لي في عربتي ثلاث من الجواري ،ومن عادة المسافرين في هذه البرية الإسراع لقلة أعشابها ،والجمال التي تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به إلا في سنة أخرى بعد أن يسمن، والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء المطر والحسيان.

مدينة خوارزم

ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه ،ووصلنا إلى خوارزم (=يقصد الجرجانية على نهر جيحون،عاصمة إقليم خوارزم) وهي أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الأثيرة، وهي ترتج بسكانها لكثرتهم ،وتموج بهم موج البحر. ولقد ركبت بها يوما ودخلت السوق فلما توسطته وبلغت منتهى الزحام في موضع يقال له الشَّورْ(=حومة السوق) لم أستطع أن أجوز ذلك الموضع لكثرة الإزدحام، وأردت الرجوع فما أمكنني لكثرة الناس فبقيت متحيرا، وبعد جهد شديد رجعت .وذكر لي بعض الناس أن تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة، وتوجهت إلى المسجد الجامع والمدرسة.

وهذه المدينة تحت إمرة السلطان أوزبك،وله فيها أمير كبير يدعى قطلودمور، وهو الذي عمر هذه المدرسة ،وما معها من المواضع المضافة. أما الجامع فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك. وبخوارزم مارستان له طبيب شامي يعرف بالصهيوني نسبة إلى صهيون من بلاد الشام . ولم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاق من أهل خوارزم ولا أكرم نفوسا ولا أحب في الغرباء، ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم، وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف

كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة، فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة ،وفي كل جامع درة معلقة برسم ذلك ،ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح الجامع أو تطعم للفقراء والمساكين .ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان .

وبخارخ خوارزم نهر جيحون(= أمودريا) أحد الأنهار الأربعة من الجنة، وهو يجمد في أوان البرد كما يجمد نهر أتل(= الفولغا) ويسلك الناس عليه، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر، وربما سلكوا عليه عند أخذه في الذوبان فهلكوا. ويسافر فيه أيام الصيف بالمراكب إلى ترمذ، ويجلبون منها القمح والشعير ،وهي مسيرة عشر للمنحدر. وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين البكري، وكان من كبار الصالحين، وفيها الطعام للوارد والصادر، وشيخهم المدرس سيف الدين بن عضبة من كبار أهل خوارزم ،وبها أيضا زاوية شيخها الصالح المجاور جلال الدين السمر قندي من كبار الصالحين أضافنا بها، وبخارجها قبر الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، وعليه قبة. وزمخشر قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم .

ولما أتيتُ إلى بهذه المدينة نزلت بخارجها، وتوجه بعض أصحابي إلى القاضي الصدر أبي حفص عمر البكري، فبعث إلي نائبه نور الاسلام فسلم علي، ثم عاد إليه ثم أتى القاضي في جماعة من أصحابه فسلم علي، وهو فتي السن كبير الفعال ،وله نائبان أحدهما نور الإسلام المذكور والآخر نور الدين الكرماني من كبار الفقهاء، وهو الشديد في أحكامه القوي في ذات الله تعالى. ولما حصل الاجتماع بالقاضي قال لي: " إن هذه المدينة كثيرة الزحام ودخولكم نهارا لا يتأتى وسيأتي إليكم نور الإسلام لتدخلوا معه في آخر الليل " ففعلنا ذلك ،ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد ،ولما كان بعد صلاة الصبح أتى إلينا القاضي المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة منهم مولانا همام الدين، ومولانا زين الدين المقدسي، ومولانا رضي الدين يحيى، ومولانا فضل الله الرضوي، ومولانا جلال الدين العمادي ،ومولانا شمس الدين السنجري إمام أميرها. وهم أهل مكارم وفضائل والغالب

على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه ؛لأن السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة .وكنت أيام إقامتي بهاأصلّي الجمعة مع القاضي أبي حفص عمر المذكور بمسجده ،فإذا فرغت الصلاة ذهبت معه إلى داره وهي قريبة من المسجد فأدخل معه إلى مجلسه،وهو من أبدع المجالس فيه الفرش الحافلة ،وحيطانه مكسوة بالملف، وفيه طيقان كثيرة ،وفي كل طاق منها أواني الفضة المموهة بالذهب والاواني العراقية، وكذلك عادة أهل تلك البلاد أن يصنعوا في بيوتهم ثم يأتي بالطعام الكثير ،وهو من أهل الرفاهينة والمال الكثير والرباع، وهو سلف الأمير قطلودمور متزوج بأخت امرأته، واسمها جيجا أغا. وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكّرين، وأكبرهم مولانا زين الدين المقدسي، والخطيب مولانا حسام الدين المشاطي الخطيب المصقع أحد الخطباء الأربعة الذين لم اسمع في الدنيا أحسن منهم .

وأمير خوارزم هو الأمير الكبير قطلودمور، ومعنى اسمه" الحديد المبارك" لأن قطرا هو المبارك ودمور هو الحديد . وهذا الأمير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك وأكبر أمرائه ، وهو واليه على خراسان ،وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيطغلي المتقدم ذكرها، وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة. ولما اتاني القاضي مسلما علي كما ذكرته ،قال لي :"إن الأمير قد علم بقدومك ،وبه بقية مرض يمنعه من الإتيان إليك " فركبتُ مع القاضي إلى زيارته/ وأتينا داره فدخلنا مشورا كبير أكثر بيوته خشب /ثم دخلنا مشوارا صغيرا فيه قبة خشب مزخرفة قد كسيت حيطانها بالملف الملون وسقفها بالحرير المذهب، والأمير على فرش له من الحرير وقد غطى رجليه لما بهما من النقرس، وهي فاشية في الترك فسلّمت عليه ،وأجلسني إلى جانبه ،وقعد القاضي والفقهاء. وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك ،وعن الخاتون بيلون وعن أبيهما ،وعن مدينة القسطنطينية فأعلمته بذلك كله ،ثم أتي بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكراكي أفراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا(=حلوى محشوة بالتمر والجوز) والكعك والحلوى، ثم أتى بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب

والفضة ، ومعه ملاعق الذهب، وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه الملاعق الخشب، ومن العنب والبطيخ العجيب .ومن عوائد هذا الأمير أن يأتي القاضي في كل يوم إلى مشوره ، ويجلس بمجلس معد له، ومعه الفقهاء وكتابه ،ويجلس في مقابلة أحد الأمراء الكبراء ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم يسمون الارغُجية(=مَنْ يفصل في المنازعات الأولية)) ويتحاكم الناس إليهم، فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي، وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء وأحكامهم مضبوطة عادلة لأنهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة. ولما عدنا إلى المدرسة بعد الجلوس مع الأمير بعث إلينا الأرز والدقيق والسمن والابزار وأحمال الحطب. وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم، وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم .وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في الفحم ثم إذا صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوه بها ثانية كذلك حتى يتلاشى.

صليت في بعض أيام الجمع على عادتي بمسجد أبي حفص،فقال لي: " إن الأمير أمر لك بخمسمائة درهم ،وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى، يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه" فلما أمر بذلك قلت: " أيها الأمير تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين لو جعلت له جميع المال كان احسن له للنفع" فقال: " أفعل ذلك" وقد أمر لك بالألف كاملقز ثم بعثها الأمير صحبة إمامه شمس الدين السنجري في خريطة يحملها غلامه وصرفها من الذهب المغربي ثلاثمائة دينار.

وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين دينارا دراهم، وركبته في ذهابي إلى المسجد، فما أعطيت ثمنه إلا من تلك الألف. وتكاثرت عندي الخيل بعد ذلك حتى انتهت إلى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به ،ولم تزل حالي في الزيادة حتى دخلت أرض الهند. وكانت عندي خيل كثيرة لكني كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه أمام الخيل، وبقي عندي إلى انقضاء ثلاث سنين، ولما هلك تغيرت حالي. وبعثت إلي الخاتون جيجا أغا امرأة القاضي مائة دينار دراهم ، وصنعت لي أختها ترابك زوجة الأمير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التي بنتها وفي الطعام للوارد والصادر

وبعثت إلي بفروة سمور وفرس جيد، وهي من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن ،جزاها الله خيرا .

ولما انفصلت من الدعوة التي صنعت لي هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية تعرضت لي بالباب امرأة عليها ثياب دنسة على رأسها مقنعة ومعها نسوة لاأذكر عددهن، فسلمت علي فرددت عليها السلام ،ولم أقف معها ولا التفت إليها ،فلما خرجت أدركني بعض الناس وقالوا لي :أن المرأة التي سلمت علي هي الخاتون، فخجلت عند ذلك، وأردت الرجوع إليها فوجدتها قد انصرفت، فأبلغت إليها السلام مع بعض خدامها، واعتذرت عما ما كان مني لعدم معرفتي بها.

وبطيخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقا ولا غربا إلا ما كان من بطيخ بخارى، ويليه بطيخ أصفهان وقشره أخضر وباطنه أحمر ،وهو صادق الحلاوة وفيه صلابة. ومن العجائب أنه يقدد وييبس في الشمس ويجعل في القواصر كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقي، ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين وليس في جميع الفواكه اليابسة أطيب منه. وكنت أيام إقامتي بدهلي من بلاد الهند متى قدم المسافرون بعثت من يشتري لي منهم قديد البطيخ. وكان ملك الهند إذا أتي إليه بشيء منه بعث إلي به لما يعلم من محبتي فيه ومن عادته أنه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم ويتفقدهم بذلك.

كان قد صحبني من مدينة السرا إلى خوارزم شريف من أهل كربلاء يسمى علي بن منصور، وكان من التجار، فكنت أكلفه أن يشتري لي الثياب وسواها، فكان يشتري لي الثوب بعشرة دنانير ،ويقول اشتريتها بثمانية، ويحاسبني بالثمانية، ويدفع الدينارين من ماله، وانا لا علم لي بفعله إلا ان تعرفت على ذلك من ألسنة الناس، وكان مع ذلك قد أسلفني دنانير فلما وصل إلى إحسان أمير خوارزم ،رددت إليه ما أسلفنيه وأردت أن أحسن بعده إليه مكافأة لأفعاله الحسنة فأبى ذلك وحلف أن لا أفعل ،وأردت أن أحسن إلى فتى كان اسمه كافور فحلف أن لا أفعل .وكان أكرم من لقيته من العراقيين. وعزم على السفر معي إلى بلادالهند، ثم إن جماعة من أهل بلده وصلوا خوارزم برسم السفر إلى الصين فأخذ في السفر معهم، فقلت له في ذلك، فقال :"هؤلاء أهل بلدي، يعودون إلى أهلي وأقاربي ،

ويذكرون إني سافرت إلى الهند برسم الكدية، فيكون سبّة علي لا أفعل ذلك"، وسافر معهم إلى الصين فبلغني بعد وأنا بأرض الهند أنه لما بلغ إلى مدينة المالق(= على وادي إيلي، وكانت عاصمة إحدى إمبراطوريات المغول) وهي آخر البلاد من عمالة ما وراء النهر وأول بلاد الصين، أقام بها وبعث فتى له بما كان عنده من المتاع فأبطأ الفتى عليه، وفي أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار ونزل معه في فندق واحد فطلب منه الشريف أن يسلفه شيئا بخلال ما يصل فتاه فلم يفعل ثم أكد قبح ما صنع في عدم التوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه في المسكن الذي كان له في الفندق، فبلغ ذلك الشريف فاغتم منه ودخل إلى بيته فذبح نفسه فأُدرك وبه رمق، واتهموا غلاما كان له بقتله، فقال :"لا تظلموه فإني أنا فعلت ذلك" . ومات من يومه غفر الله له، وكان قد حكى لي عن نفسه أنه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قرضا فلقيه ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام فطلبه بالمال وكان قد باع ما اشترى به من المتاع بالدين فاستحيا من صاحب المال ،ودخل إلى بيته وربط عمامته بسقف البيت وأراد أن يختنق نفسه، وكان في أجله تأخير فتذكر صاحبا له من الصيارفة فقصده، وذكر له القضية فسلفه مالا دفعه للتاجر.)

نختتم كتاب الشمال ، بما ينبغي أن يختتم به، إنها الإنطباعات الثرية التي أوردها أسامة بن منقذ عن الصليبيين الذين قدموا من أماكن متفرقة من الشمال ، ثم استوطنوا الأرض المقدسة مدة طويلة ، وتتشكّل حساسية ابن منقذ من نوع الإختلاف الذي يتصف به (الآخر) الذي قدم من أراض نائية بصورة حملات ذات طابع ديني ، لكنها سرعان ماتحولت اهدافها إلى استيطان دائم.

وكان ابن منقذ أميرا ومحاربا وقائدا شجاعا ورقيقا، وكل هذا لم يحجب عنه النظرات المتبصّرة بقوة الخصوم وشجاعتهم في الحروب، لكنه وجّه نقدا جذريا لنظام القيم الإجتماعية والدينية الشائع بينهم.

لم يكتب ابن منقذ نصا متكاملا حول أهل الشمال من الصليبيين، لكنّ شذرات كثيرة عنهم وردت في تضاعيف كتابه (الإعتبار) ،وهي كافية لأعطاء صورة مفصّلة عن تصوراته وموقفه.

(٢٣)
أسامة بن منقذ يصف الصليبيين
(عاش بين٤٨٨-٥٨٤هجري=١٠٩٥-١١٨٨ميلادي)

عاصر بعض الممالك الصليبية في بلاد الشام ، وكان كثير الاحتكاك بالصليبيّن بوصفه أميرا ومقاتلا وفارسا، واشترك في معارك كثيرة ضدهم

(والمقاطع الآتية مقتبسة من كتابه(الاعتبار)

١- لما وصلنا عسقلان سَحَراً ووضعنا أثقالنا عند المصلى، صبحونا الإفرنج عند طلوع الشمس. فخرج إلينا ناصر الدولة ياقوت، وإلى عسقلان، فقال: " ارفعوا، ارفعوا أثقالكم" . قلت: "تخاف لا يغلبونا الإفرنج عليها؟" قال: "نعم". قلت: " لا تخف، هم يرونا في البرية ويعارضونا. إلى أن وصلنا إلى عسقلان ما خفناهم، تخافهم الآن ونحن عند مدينتنا؟" .ثم إن الافرنج وقفوا على بعد ساعة. ثم رجعوا إلى بلادهم. جمعوا لنا وجاؤونا بالفارس والراجل والخيم، يريدون منازلة عسقلان. فخرجنا إليهم، وقد خرج راجل عسقلان. فدرت على سرب الرجالة وقلت: "يا أصحابنا؟ ارجعوا إلى سوركم ودعونا وإياهم، فإن نصرنا عليهم فأنتم تلحقونا. وإن نصروا علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم" . فامتنعوا من الرجوع. فتركتهم ومضيت إلى الإفرنج، وقد حطوا خيامهم ليضربوها. فاحتطنا بهم وأعجلناهم عن طي خيامهم. فرموها كما هي منثورة وساروا راجعين.

فلما انفسحوا عن البلد تبعهم أقوام ما عندهم منعة ولا غناء. فرجع الإفرنج حملوا على أولئك فقتلوا منهم نفرا. فانهزمت الرجالة الذين ردتهم فما رجعوا، ورموا تراسهم. ولقينا الإفرنج فرددناهم، ومضوا عائدين إلى بلادهم، وهي قريبة من عسقلان.

وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون، وقالوا: "كان ابن منقذ أخبر منا، قال لنا: ارجعوا، ما فعلنا، حتى انهزمنا وافتضحنا" .

٢- وكان أخي عز الدولة أبو الحسن علي رحمه الله في جملة من سار معي من دمشق، هو وأصحابه، إلى عسقلان، وكان رحمه الله من فرسان المسلمين، يقاتل للدين لا للدنيا. فخرجنا يوماً من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل وقتالها. فوصلناهم وقاتلناهم. ورأيت، عند رجوعنا على البلد، غلة كبيرة. فوقفت في أصحابي وقدحنا ناراً وطرحناها في البيادر. وصرنا ننتقل من موضع إلى موضع. ومضى العسكر تقدَّمني. فاجتمع الإفرنج لعنهم الله من تلك الحصون، وهي كلها متقاربة، وفيها خيل كثيرة للإفرنج، لمغاداة عسقلان ومراوحتها.

وخرجوا على أصحابنا فجاءني فارس منهم يركض وقال: " قد جاء الإفرنج" ، فسرت إلى أصحابنا وقد وصلهم أوائل الفرنج، وهم لعنهم الله أكثر الناس احترازا في الحرب. فصعدوا على رابية وقفوا عليها، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم. وبين الرابيتين فضاء أصحابنا المنقطعون، وأصحاب الجنائب عبور تحتهم، لا ينزل إليهم منهم فارس خوفاً من كمين أو مكيدة ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم. ونحن مقابلهم في قلة، وعسكرنا قد تقدمنا منهزمين. وما زال الإفرنج وقوفا على تلك الرابية إلى أن انقطع عبور أصحابنا. ثم ساروا إلينا فاندفعنا بين أيديهم، والقتال بيننا، لا يجدون في طلبنا. ومن وقف فرسه قتلوه. ومن وقع أخذوه. ثم عادوا عنا. وقدر الله سبحانه لنا بالسلامة باحترازهم. ولو كنا في عددهم ونصرنا عليهم، كما نصروا علينا، كنا أفنيناهم.

٣- ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين، رحمه الله. وكاتب الملك الصالح في تسيير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر، وكان محسناً إليهم. فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج. وكتب إليَ يقول: "ترجع إلى مصر، وأنت تعرف ما بيني وبينك. وإن كنت مستوحشا من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أسوان إليك، وأمدك بما تتقوى به على محاربة الحبشة (فأسوان ثغر من ثغور المسلمين)، وأسيّر إليك أهلك وأولادك". ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره، فقال: "يا فلان! ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنها، تعود إليها! العمر أقصر من ذلك. أنا أنفذ آخذ لأهلك الأمان

من ملك الإفرنج، وأسير من يحضرهم" . فأنفذ–رحمه الله– أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر. وسيرت الأمان مع غلام لي، وكتاب الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح. فسيرهم، في عشاري من الخاص، إلى دمياط. وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد، ووصّى بهم. وأقلعوا من دمياط في بطسة(= مركَب) من بطس الإفرنج. فلما دنوا من عكا، والملك–لا رحمه الله–فيها، نفذ قوماً في مركب صغير كسروا البطسة بالفؤوس، وأصحابي يرونهم، وركب ووقف على الساحل، نهب كل ما فيه. فخرج إليه غلام لي سباحة، والأمان معه. وقال له: "يا مولاي الملك! ما هذا أمانك؟ قال: "بلى! ولكن هذا رسم المسلمين: إذا انكسر لهم مركب على بلد نهبه أهل ذلك البلد!" قال: "فتسبينا؟ قال: "لا" . وأنزلهم–لعنه الله–في دار، وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهم. وقد كان في المركب حلي أودعه النساء، وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار. فأخذ الجميع ونفذ لهم خمسمائة دينار، وقال: " توصلوا بهذه إلى بلادكم!" وكانوا رجالاً ونساءً من خمسين نسمة.

وكنت إذ ذاك مع الملك العادل" في بلاد الملك مسعود(= سلطان قونية): رعبان وكيسون. فهوّن علي سلامة أولادي وأولاد أخي ،وحُرِمنا ذهاب ما ذهب من المال، إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة. فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت.

فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال. والله–سبحانه–يعوض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته.

٤– وشاهدت من الطعنات العظيمة، طعنة طعنها فارس من الإفرنج–خذلهم الله–فارساً من أجنادنا يقال له: بن قنيب، كلابي، قطع له ثلاثة أضلاع من جانبه اليسار، وثلاثة اضلاع من جانبه الأيمن، وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل! ومات لساعته.

وطعن رجل من أجنادنا، كردي، يقال له: ميّاح، فارساً من الإفرنج، أدخل قطعة من الزرد

في جوفه وقتله، ثم إن الإفرنج أغاروا علينا بعد أيام، وميّاح قد تزوج وخرج وهو لابس، وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العروس، قد تشهّر به. فطعنه فارس من الإفرنج فقتله، رحمه الله." يا قُربَ مأتمه من العرس".

ومن عجائب الطعن أن رجلاً من الأكراد، يقال له: حَمَدات، كان قديم الصحبة، قد سافر مع والدي، رحمه الله، إلى إصبهان، إلى دركاه(= بلاط) السلطان ملكشاه(=السلجوقي المتوفى عام٤٨٦) فكبر وضعف بصره ونشأ له أولاد. فقال له عمي عز الدين ،رحمه الله: "يا حمدات! قد كبرت وضعفت. ولك علينا حق وخدمة. فلو لزمت مسجدك (وكان له مسجد على باب دراه) وأثبتنا أولادك في الديوان، ويكون لك أنت كل شهر ديناران وحمل دقيق، وأنت في مسجدك".

قال: "أفعل يا أمير". فأجري له ذلك مديدة. ثم جاء إلى عمي وقال: "يا أمير! والله، ما تطاوعني نفسي على القعود في البيت. وقتلي على فرسي أشهى إلي من موتي على فراشي". قال: "الأمر لك". وأمر برد ديوانه عليه كما كان.

فما مضى إلا الأيام القلائل حتى أغار علينا السرداني(= الكونت وليام جورديان) صاحب طرابلس. ففزع الناس إليهم، وحمدات في جملة الروع. فوقف على رقعة من الأرض مستقبل القبلة. فحمل عليه فارس من الإفرنج من غربيّه. فصاح إليه بعض أصحابنا: "يا حمدات!" فالتفت رأي الفارس قاصده. فرد رأس فرسه شمالا، ومسك رمحه بيده وسدده إلى صدر الإفرنجي، فطعنه نفذ الرمح منه. فرجع الإفرنجي متعلقاً برقبة حصانه في آخر رمقه. فلما انقضى القتال قال حمدات لعمي: " يا أمير! لو أن حمدات في المسجد من كان طعن هذه الطعنة؟".

وقد كان جرى لنا مثل ذلك: وهو أن فلاحاً من العَلاة جاء يركض إلى أبي وعمي، رحمهما الله. قال: " شاهدت سِرية إفرنج تائهين قد جاءوا من البرية. لو خرجتم إليهم أخذتموهم". فركب أبي وعماي وخرجوا بالعسكر إلى السربة التائهة، وإذا به السرداني، صاحب طرابلس، في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي(=مرتزقة من أصول مشرقية في خدمة

الإفرنج)، وهم رماة الإفرنج. فلما رأوا أصحابنا ركبوا خيلهم وأطلقوا على أصحابنا هزموهم، وتموا(=استمروا) يطردونهم. فأحرف (=مال) عليهم مملوك لوالدي، يقال له: ياقوت الطويل، وأبي وعمي-رحمهما الله-يريانه. فطعن فارساً منهم إلى جانبه فارس آخر، وهما يتبعان أصحابنا. فرمى الفارسين والفرسين!

وكان هذا الغلام كثير التخليط والزلات، لا يزال قد فعل فعلة يجب تأديبه عليها! فكلما هم والدي به وبتأديبه، يقول عمي: " يا أخي! بحياتك هب لي ذنبه. ولا تنس له تلك الطعنة!" فيصفح عنه لكلام أخيه.

٥- ومرة أخرى شاهدته وقد أغارت علينا خيل محمود ابن قراجا(= صاحب حماة) ونحن على فسحة من البلد، وخيل محمود أقرب إليه منا. وأنا قد حضرت القتال ومارست الحرب. فلبست كزاغندي (=سترة حماية كالدرع)، وركبت حصاني، وأخذت رمحي، وهو-رحمه الله-على بغلة. فقلت: "يا مولاي! ما تركب حصانك!" قال: "بلى". وسار كما هو غير منزعج ولا مستعجل. وأنا، لخوفي عليه، ألحّ عليه في ركوبه حصانه، إلى أن وصلنا إلى البلد، وهو على بغلته. فلما عاد أولئك وأمنّا، قلت: "يا مولاي! ترى العدو وقد حال بيننا وبين البلد وأنت لا تركب بعض جنائبك وأنا أخاطبك فلا تسمع!" قال: " يا ولدي! في طالعي أنني لا أرتاع".

وكان-رحمه الله-له اليد الطولى في النجوم، مع ورعه ودينه وصومه الدهر، وتلاوة القرآن. وكان يحرضني على معرفة علم النجوم فآبى وأمتنع. فيقول: "فأعرف أسماء النجوم: ما يطلع منها ويغرب". فكان يرني النجوم ويعرفني أسماءها.

٦- ورأيت من إقدام الرجال ونخواتهم في الحرب: أنا أصبحنا وقت صلاة الصبح، رأينا سربة من الإفرنج، نحوا من عشرة فوارس، جاؤوا إلى باب المدينة قبل أن يفتح. فقالوا للبواب: "أيَ شئ اسم هذا البلد؟" والباب خشب، بينهما عوارض، وهو داخل الباب. قال: "شيزر". فرموه بنشاب من خلل الباب، ورجعوا وخيلهم تخب بهم. فركبنا، فكان عمي-رحمه الله-أول راكب وأنا معه، والإفرنج رائحون غير منزعجين، و يلحقنا من الجند

نفر. فقلت لعمي: " على أمرك آخذ أصحابنا وأتبعهم أقلعهم وهم غير بعيدين". قال: " لا (وكان أخبر مني بالحرب) في الشام إفرنجي لا يعرف شيزر؟ هذه مكيدة!".

ودعا فارسين من الجند على فرسين سوابق، وقال: "امضيا اكشفا تل ملح(= موضع قرب شيزر)، وكان مكمناً للإفرنج. فلما شارفاه خرج عليهما عسكر أنطاكية جميعه. فاستقبلنا متسرعين نريد الفرصة فيهم، قبل ركود الحرب، ومعنا جمعة النميري وابنه محمود. وجمعة فارسنا وشيخنا. فوقع ابنه محمود في وسطهم، فصاح جمعة: "يا فرسان الخيل! ولدي!" فرجعنا معه في ستة عشر فارساً. طعنّا ستة عشر فارساً من الفرنج وأخذنا صاحبنا من بينهم. واختلطنا نحن وهم حتى أخذ واحد رأس جمعة تحت إبطه، فخلّص بعض تلك الطعنات.

ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب بإقدامه. فوالله لقد سرت مع عمي-رحمه الله-أغرنا على أفامية. واتفق أن رجالها خرجوا ليسيروا قافلة، فسيروها، وعادوا. ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلاً. ورأيت جمعة النميري-رحمه الله- وفيه نصف قنطارية قد طعن بها في لبد السرج، وخرج الرمح من البداد إلى فخذه، ونفذ إلى خلفه، فانكسرت القنطارية فيه. فراعني ذلك. فقال: "لا بأس! أنا سالم". ومسك سنان القنطارية وجذبها منه، وهو وفرسه سالمان. فقلت: "يا أبا محمود! أشتهي أتقرب من الحصن أبصره". قال: "سر". فرحت أنا وهو نخبّ فرسينا. فلما أشرفنا على الحصن إذا من الإفرنج ثمانية من الفرسان وقوف على الطريق، وهي مشرفة على الميدان من ارتفاع لا ينزل منه إلا من تلك الطريق. فقال لي جمعة: "حتى أريك ما أصنع فيهم" قلت: "ما هذا إنصاف. بل نحمل عليهم أنا وأنت". قال: "سر". فحملنا عليهم فهزمناهم، ورجعنا ونحن نرى أنا قد فعلنا شيئا ما يقدر يفعله غيرنا: نحن اثنان قد هزمنا ثمانية فرسان من الإفرنج.

فوقفنا على ذلك الشرف ننتظر الحصن، فما راعنا إلا رويجل(= تصغير) قد طلع علينا من ذلك السند الصعب(= واجهة الجبل)، معه قوس ونشاب، فرمانا، ولا سبيل لنا إليه، فهزمنا. والله ما صدقنا نتخلص منه وخيلنا سالمة! ورجعنا دخلنا مرج أفامية فسقنا منه غنيمة كبيرة من الجواميس والبقر والغنم. وانصرفنا وفي قلبي من ذلك الراجل الذي هزمنا

حسرة، والذي ما كان لنا إليه سبيل. وكيف هزمنا راجل واحد وقد هزمنا ثمانية فرسان من الإفرنج.

٧- وشهدت يوماً وقد أغارت علينا خيل كفر طاب(= شمال حماة)، في قلّة، ففزعا إليهم طامعين فيهم لقلتهم، وقد كمنوا لنا كمينا في جماعة منهم. وانهزم الذين أغاروا، فتبعناهم حتى أبعدنا عن البلد. فخرج إلينا الكمين، ورجع إلينا الذين كنا نطردهم. فراينا أننا إن انهزمنا قلعونا كلنا. فالتقيناهم مستقلين. فنصرنا الله عليهم فقلعنا منهم ثمانية عشر فارساً: منهم من طعن فمات، ومنهم من طُعن فوقع وهو سالم، ومنهم من طُعن حصانه فهو راجل. فجذب الذين في الأرض منهم سالمون سيوفهم ووقفوا: كل من اجتاز بهم ضربوه. فاجتاز جمعة النميري-رحمه الله- بواحد منهم، فخطا إليه وضربه على رأسه، وعلى رأسه قلنسوة، فقطعها، وشق جبهته وجرى منها الدم حتى نزح. وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة. فلقيته، ونحن فيما نحن فيه من الإفرنج، فقلت له: "يا أبا محمود! ما تعصب جرحك!" فقال: "ما هذا وقت العصائب وشد الجراح!" وكان لا يزال على وجهه خرقة سوداء. وهو رمد وفي عينيه عروق حمر. فلما أصابه ذلك الجرح وخرج منه الدم الكثير زال ما كان يشكوه من عينيه، ولم يعد يناله منهما رمد ولا ألم: "فربما صحت الأجسام بالعلل".

وأما الإفرنج فإنهم اجتمعوا، بعد ما قتلنا منهم من قتلنا، ووقفوا مقابلنا. فجاءني ابن عمي ذخيرة الدولة، أبو القنا خطام-رحمه الله- فقال: "يا بن عمي! معك جنيبتان(= فرس سهلة الانقياد)، وأنا على هذا الفرس الحطم"! قلت للغلام: "قدم له الحصان الأحمر"! فقدمه له. فساعة ما استوى في سرجه حمل على الإفرنج وحده، فأفرجوا له حتى توسطهم، وطعنوه ورموه، وطعنوا الحصان، وأقلبوا قنطارياتهم وصاروا يركسونه بها، وعليه زردية حصينة ما تعمل رماحهم فيها. فتصايحنا "صاحبكم! صاحبكم!" وحملنا عليهم فهزمناهم عنه، واستخلصناه وهو سالم. وأما الحصان فمات في يومه. فسبحان المسلم القادر!

وتلك الوقعة إنما كانت لسعادة جمعة وشفاء عينيه. فسبحان القائل: " وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم " .

٨- وأغار علينا عسكر أنطاكية وأصحابنا قد التقوا أوائلهم وجاؤوا قدامهم، وأنا واقف في طريقهم أنتظر وصولهم إلي، لعلي أنال منهم فرصة، وأصحابنا يعبرون علي منهزمين. فعبر علي، في مَن عبر، محمود بن جمعة. فقلت: "قف يا محمود!" فوقف لحظة ثم دفع فرسه ومضى عني. ووصلني أوائل خيلهم. فاندفعت بين أيديهم وأنا راد رمحي إليهم، ملتفت أنظرهم لا يتسرع إلي منهم فارس يطعني. وبين يدي جماعة من أصحابنا. ونحن بين بساتين لها حيطان طول قعدة الرجل. فندس فرسي بصدرها رجل من أصحابنا، فردت راس فرسي على يساري. فضربتها بالمهاميز ففزت(=قفزت) الحائط. فضبطت حتى صرت أنا والإفرنج مصطفين، وبيننا الحائط! فتسرع منهم فارس عليه تشهير حرير أخضر وأصفر. فظننت أن ما تحته درع، فتركته حتى تجاوزني، وضربت الفرس بالمهاميز، ففزت الحائط. وطعنته، فمال إلى أن وصل رأسه ركابه، ووقع ترسه والرمح من يده، والخوذة عن رأسه، ونحن قد وصلنا إلى رجالتنا. ثم عاد انتصب في سرجه. وكان عليه زردية تحت التشهير، فما جرحته الطعنة. وأدركه أصحابه، ثم عادوا. وأخذ الرجالة الترس والرمح والخوذة.

فلما انقضى القتال ورجع الإفرنج جاءني جمعة-رحمه الله-يعتذر عن ابنه محمود. وقال: "هذا الكلب انهزم عنك"! قلت: " وأي شئ يكون؟" قال: "ينهزم عنك ولا يكون شئ؟" قلت: "وحياتك يا أبا محمود! وأنت تنهزم عني أيضا!" قال "يا شين! والله إن موتي أسهل علي من أن أنهزم عنك" . ولم يمض إلا أيام قلائل حتى أغارت علينا خيل حماة، فأخذوا لنا باقورة (= قطيع أبقار)وحبسوها في جزيرة، تحت الطاحون الجلالي وطلع الرماة على الطاحون يحمون الباقورة. فوصلتهم أنا وجمعة وشجاع الدولة مولد لنا، وكان رجلاً شجاعاً. فقلت لهما: "نعبر الماء ونأخذ الدواب" . فعبرنا. فأما ماضي فضربت فرسه نشابة فقتلتها. وبالجهد أوصلته إلى أصحابه. وأما أنا فضربت فرسي نشابة في أصل رقبتها فجازت فيها قدر شبر، فوالله ما رمحت، ولا قلقت، ولا كأنها أحست بالجرح. وأما جمعة

فرجع خوفاً على فرسه، فلما عدنا قلت: " يا أبا محمود! ما قلت لك إنك تنهزم عني! وأنت تلوم ابنك محمودا! "قال: " والله ما خفت إلا على الفرس فإنها تعز علي". واعتذر.

٩- وقد كنا ذلك اليوم التقينا، نحن وخيل حماة، وقد سبقهم بعضهم بالباقورة إلى الجزيرة. فاقتتلنا نحن وهم، وفيهم فرسان عسكر حماة: سرهنك، وغازي التلّي، ومحمود بن بلداجي، وحضر الطوط، واسباسلار خطلخ، وهم أكثر عدداً منا. فحملنا عليهم، فهزمناهم. وقصدت فارساً منهم أريد أطعنه، وإذا هو حضر الطوط. فقال: "الصنيعة يا فلان!" فعدلت عنه إلى آخر فطعنته، فوقع الرمح تحت إبطه. فلو تركه ما كان وقع. فشد عضده عليه، يريد يأخذ الرمح، والفرس مسندرة بي(= مسرعة)، فطار في السرج على رقبة الحصان، فوقع. ثم قام وهو على شفير الوادي المنحدر إلى الجلالي، فضرب حصانه وساقه بين يديه ونزل. وحمدت الله-سبحانه-الذي ما ناله ضرر من تلك الطعنة، لأنه كان غازي التلي. وكان-رحمه الله-رجلاً جيداً.

١٠- ونزل علينا عسكر أنطاكية، في بعض الأيام، منزلا كان ينزله كلما نزل علينا. ونحن ركاب مقابلهم، وبيننا النهر. فلم يقصدنا منهم أحد. وضربوا خيامهم ونزلوا فيها. فرجعنا نحن نزلنا في دورنا، ونحن نراهم من الحصن(= حصن شيزر). فخرج من جندنا نحو من عشرين فارساً إلى بندرقنين، قرية بالقرب من البلد، يرعون خيلهم. وقد تركوا رماحهم في دورهم. فخرج من الإفرنج فارسان سارا إلى قريب من أولئك الجند الذين يرعون خيلهم.

فصادفا رجلاً على الطريق يسوق بهيمة فأخذاه وبهيمته، ونحن نراهم من الحصن. وركب أولئك الجند ووقفوا ما معهم رماح. فقال عمي: " أبصروا الساعة ما يعمل". فلما دنا من الفارسين، وهو يركض، كف رأس فرسه وسار خلفهم سترة. فلما رأى عمي توقفه عنهما، وهو على روشن له في الحصن، يراه، دخل من الروشن مغضبا، وقال: " هذا خذلان"! وكان توقف جمعة خوفاً من جُورة كانت بين يدي الفارسين، لا يكون لهم فيها كمين. فلما وصل تلك الجورة، وما فيها أحد، حمل على الفارسين، خلص الرجل

والبهيمة، وطردهما إلى الخيام. وكان ابن ميمون، صاحب أنطاكية(=بوهيموند) يرى ما جرى. فلما وصل الفارسان أنفذ أخذ ترسيهما جعلهما معالف للدواب! ورمى خيمتهما وطردهما، وقال: " فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الإفرنج! ما أنتم رجال، أنتم نساء!"

وأما جمعة فوبخه عمي وحرد عليه، لوقوفه عنهما أول ما وصلهما. فقال: " يا مولاي! خفت لا يكون لهم في جورة رابية القرامطة كمين يخرج علي. فلما كشفتها وما رأيت فيها أحداً استخلصت الرجل والبهيمة وطردتهما حتى دخلا عسكرهما". فلا والله ما قبل عذره، ولا رضي عنه.

١١- والإفرنج-خذلهم الله-ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان. ولا عندهم ناس إلا الفرسان. فهم أصحاب الرأي، وهم أصحاب القضاء والحكم. وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس(= رينيه)، من الشعراء، وبيننا وبينهم صلح. وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فلك بن فلك(= فولك الخامس ملك بيت المقدس سنة ٥٢٦): "هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولاد الغنم. فولدت وماتت أولادها. وردها علينا بعد أن أتلفها". فقال الملك لستة سبعة من الفرسان: "قوموا اعملوا له حكما". فخرجوا من مجلسه، واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شئ واحد. وعادوا إلى مجلس الملك. فقالوا: "قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم". فأمره الملك بغرامة، فتوسل إلي، وثقّل علي، وسألني، حتى أخذت منه أربعمائة دينار، وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الإفرنج يغيره ولا ينقضه. فالفارس أمر عظيم عندهم. ولقد قال لي الملك: "يا فلان! بحق ديني، لقد فرحت البارحة فرحا عظيما!" قلت: "الله يفرح الملك! بماذا فرحت؟" قال: "قالوا لي: إنك فارس عظيم. وما كنت أعتقد أنك فارس:. قلت: "يا مولاي! أنا فارس من جنسي وقومي". وإذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم.

١٢- وكان نزل علينا دنكري(= تانكريد) وهو أول أصحاب أنطاكية بعد ميمون، فقاتلنا ثم اصطلحنا، فنفذ يطلب حصاناً لغلام لعمي عز الدين، رحمه الله. وكان فرساً جواداً. فنفذه له عمي تحت رجل من أصحابنا كردي يقال له: حسنون. وكان من الفرسان الشجعان. وهو شاب مقبول الصورة دقيق، ليسابق بالحصان بين يدي دنكري. فسابق به فسبق الخيل المجراة كلها. وحضر بين يدي دنكري، فصار الفرسان يكشفون سواعده ويتعجبون من دقته وشبابه. وقد عرفوا أنه فارس شجاع. فخلع عليه دنكري. فقال له حسنون: "يا مولاي! أريدك تعطيني أمانك، أنك إن ظفرت بي في القتال تصطنعني وتطلقني". فأعطاه أمانه، على ماتوهم حسنون، فإنهم لا يتكلمون إلا بالإفرنجي ماندري ما يقولون.

ومضى على هذا سنة أو أكثر، وانقضت مدة الصلح(= عام ٥٠١)، وجاءنا دنكري في عسكر أنطاكية، فقاتلنا عند سور المدينة. وكانت خيلنا لقيت أوائلهم. فطعن فيهم رجل يقال له: كامل المشطوب، من أصحابنا، كردي. وهو وحسنون نظراء في الشجاعة. وحسنون واقف مع والدي، رحمه الله-على حجرة له ينتظر حصانه يأتيه به غلامه من عند البيطار، ويأتيه كزاغنده. فأبطأ عليه، وأقلقه طعن كامل المشطوب، فقال لوالدي: "يا مولاي! مر لي بلباس خفيف". فقال: "هذه البغال عليها السلاح واقفة. مهما صلح لك البسه". وأنا إذ ذاك واقف خلف والدي، وأنا صبي، وهو أول يوم رأيت فيه القتال. فنظر الكزاغندات في عيبها على البغال، فما وافقته، وهو يغلي يريد يتقدم يعمل كما عمل كامل المشطوب! فتقدم على حجرته وهو معري، فاعترضه فارس منهم، فطعن الفرس في قطاتها، فعضت على فأس اللجام، وحملت به حتى رمته في وسط موكب الإفرنج. فأخذوه أسيراً. وعذبوه أنواع العذاب. وأرادوا قلع عينه اليسرى. فقال لهم دنكري-لعنه الله-: "اقلعوا عينه اليمنى حتى إذا حمل الترس استرت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئاً!". فقلعوا عينه اليمنى كما أمرهم، وطلبوا منه ألف دينار، وحصاناً أدهم كان لوالدي من خيل خفاجة، جواداً من أحسن الخيل. فاشتراه بالحصان، رحمه الله.

وكان خرج من شيزر في ذلك اليوم راجل كثير. فحمل عليهم الفرنج فما زعزعوهم من مكانهم. فحرد دنكري وقال: "أنتم فرساني، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم. وهؤلاء سرجند (= راجلون) ما تقدرون تقلعونهم من موضعهم". قالوا: "إنما خوفنا على الخيل، وإلا دسناهم وطعناهم". قال: "الخيل لي، من قتل حصانه أخلفته عليه". فحملوا على الناس عدة حملات، فقتل منهم سبعون حصاناً، وما قدروا يزحزحونهم من مواقفهم.

١٣– وكان بأفامية فارس من كبار فرسانهم، يقال له: بدرهوا(= بدروفانت)، فكان أبداً يقول: "ترى ما ألتقي جمعة في القتال؟ "وجمعة يقول: "ترى ما ألتقي بدرهوا في القتال؟ " فنزل علينا عسكر أنطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله. وبيننا وبينهم الماء ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم. فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت موكبنا، والماء بينه وبينهم، وصاح بهم: " فيكم جمعة؟" قالوا: "لا". والله ما كان حاضراً فيهم. وكان ذلك الفارس بدرهوا. فالتفت فرأى أربعة فوارس منا، من ناحيته: يحيى بن صافي الأعسر، وسهل بن أبي غانم الكردي، وحارثة النميري، وفارس آخر، فحمل عليهم فهزمهم. ولحق واحداً منهم طعنة طعنة فشلة(= واهنة)، ما ألحقه حصانه ليمكن الطعن. وعاد إلى الخيام.

ودخل أولئك النفر في البلد فافتضحوا، واستخفهم الناس، ولاموهم، وازرروا بهم. قالوا: "أربعة فوارس يهزمهم فارس واحد! كنتم افترقتم له، فكان طعن واحدا منكم، وكان الثلاثة قتلوه. ولا قد افتضحتم" وكان أشد الناس عليهم جمعة النميري. فكأن تلك الهزيمة منحتهم قلوبا غير قلوبهم، وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها. فانتخوا، وقاتلوا، واشتهروا في الحرب. وصاروا من الفرسان المعدودين، بعد تلك الهزيمة. واما بدرهوا فانه سار بعد ذلك من افامية في بعض شغله يريد انطاكية. فخرج عليه الأسد من غاب في الروج(= بين حلب والمعرّة)، في طريقه، فخطفه عن بغلته، ودخل به الى الغاب أكله، لا رحمه الله!

١٤– ومن اقدام الرجل الواحد على الجمع الكثير: فمن ذلك ان اسباسلار مودود

(=القائد مودود بن ألتون تكين حاكم الموصل)رحمه الله نزل بظاهر شيزر، يوم الخميس تاسع ربيع الاول سنة خمس وخمسمائة. وقد قصده دنكري، صاحب انطاكية، في جمع كثير. فخرج اليه عمي ووالدي رحمهما الله وقالا: "الصواب ان ترحل(وكان نازلا شرقي البلد على النهر) وتنزل في البلد، ويضرب العسكر خيامهم على السطوحات في المدينة! ونلقي الافرنج بعد ان نحرر خيامنا واثقالنا". فرحل ونزل كما قالا له. واصبحا خرجا اليه، وخرج من شيزر خمسة الاف راجل معدين. ففرح بهم اسباسلار وقويت نفسه.

وكان معه –رحمه الله– رجال جياد. فصفوا من قِبلي الماء، والافرنج نزول شماليه. فمنعوهم من الشرب والورود نهارهم. فلما كان الليل رحلوا راجعين الى بلادهم، والناس حولهم، فنزلوا على تل التُرمسي، فمنعوهم الورود كما عملوا بالامس. فرحلوا في الليل، ونزلوا على التلول، والعسكر قد ضايقهم ومنعهم من المسير: فاحتاطوا بالماء ومنعوهم من الورود. ورحلوا في الليل متوجهين الى أفامية. ففرغ اليهم العسكر واحتاطوا بهم، وهم سائرون. فخرج منهم فارس واحد فحمل على التاس حتى توسطهم، فقتلوا حصانه واثخنوه بالجراح، فقاتل وهو راجل حتى وصل الى اصحابه. ودخل الافرنج أرضهم. وعاد المسلمون عنهم. ومضى اسباسلار مودود–رحمه الله– الى دمشق.

فجاءنا بعد اشهر كتاب دنكري، صاحب انطاكية، مع فارس معه غلمان واصحاب، يقول: "هذا فارس محتشم من الإفرنج، وصل حجّ ويريد الرجوع الى بلاده. وسألني أن أسيّره إليكم يبصر فرسانكم. وقد نفّذته. فاستوصوا به". وكان شابا حسن اللباس، الا أن فيه آثار جراح كثيره. وفي وجهه ضربة سيف قد قدت من مفرقه الى حكمته. فسالت عنه فقالوا: "هذا الذي حمل على عسكر اسباسلار مودود، وقتلوا حصانه، وقاتل حتى رجع الى اصحابه". فتعالى الله القادر على ما يشاء كيف شاء لا يؤخر الاجل الاحجام ولا يقدمه الاقدام!

١٥– ومن ذلك: ان دنكري، صاحب انطاكية، أغار على شيزر، فاستاق دواب كثيرة وقتل وسبى ونزل على قرية يقال لها: زلين، فيها مغار معلّقة لا يوصل اليها، في وسط

الجبل. ما إليها من فوق. منزل، ولا إليها من تحت مطلع. إنما ينزل اليها من يحتمي فيها بالحبال. وذلك يوم الخميس، العشرين من ربيع الاخر، سنة اثنتين وخمسمائة.فجاء شيطان من فرسانهم الى دنكري فقال: " اعمل لي صندوقا من خشب، وأنا اقعد فيه، ودلوني من الجبل اليهم بسلاسل اوثقوهافي الصندوق، حتى لا يقطعوها بالسيوف فاسقط". فعملوا له صندوقا ودلوه بالسلاسل المعلقات الى المغار، فاخذها وانزل كل من كان فيها الى دنكري. وذلك أن المغار بهو ما فيه مكان يستتر الناس فيه، وذلك يرميهم بالنشاب، فلا تقع نشابة الا في انسان، لضيق الموضع وكثرة الناس فيه!

وكان ممن أُسر، في جملة من أسر في ذلك اليوم، امراة كانت من أصل جيد من العرب، وُصفتْ لعمي عز الدين أبي العساكر سلطان–رحمه الله– قبل ذلك، وهي في بيت أبيها. فارسل عمي عجوزا من أصحابه تبصرها. وعادت تصفها وجمالها وعقلها، إما لرغبة بذلوها لها، وإما أروها غيرها. فخطبها عمي وتزوجها. فلما دخلت عليه رأى غير ما وصف له منها: ثم هي خرساء. فوفاها مهرها، وردها إلى قومها، فأُسرت من بيوت قومها ذلك اليوم. فقال عمي: " ما أدع امراة تزوجتها وانكشفت عليّ في أسر الإفرنج". فاشتراها –رحمه الله– بخمسمائة دينار، وسلّمها إلى أهلها.

١٦– فقضى الله–سبحانه–أن العسكر(= جيش المسلمين) رحل عن كفرطاب إلى دانيث(= من أعمال حلب). وصبحهم عسكر أنطاكية، يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الآخر–وكان تسليم كفرطاب يوم الجمعة ثالث عشر ربيع الأخر فقتل الأمير السيد–رحمه الله–وخلق كثير من المسلمين وعاد الوالد–رحمه الله–وكنت فارقته من كفرطاب، وقد كسر العسكر. ونحن في كفرطاب نحرزها نريد نعمرها، وكان إسباسلار سلمها إلينا، ونحن نخرج الأسارى، كل اثنين في قيد، من أهل شيزر. وقد احترق نصف ذا وقد بقيت فخذه. وذا قد مات في النار. فرايت منهم عبرة عظيمة. فتركناها وعدنا إلى شيزر مع الوالد، رحمه الله. وقد أخذ كل ما كان معه من الخيام والحمال والبغال والبرك وتفرق العسكر.

١٧– وكان ما جرى عليهم بمكيدة من لؤلؤ الخادم(=أمير حلب سنة ٥١٢)، صاحب حلب، ذلك الوقت. قرر، مع صاحب انطاكية(= روجار) : أن يحتال عليهم ويفرقهم، ويخرج ذلك من أنطاكية بعسكره يكسرهم. فأرسل إلى إسباسلار برسق–رحمه الله–يقول: " تنفذ لي بعض الأمراء، ومعه جماعة من العسكر، اسلم إليه حلب. فإني أخاف من أهل البلد الا يطاوعوني على التسليم. فأريد أن يكون مع الأمير جماعة أتقوّى بهم على الحلبيين" فنفذ إليه أمير الجيوش أوزبه (= أوزبك)ومعه ثلاثة آلاف فارس وصبحهم روجار–لعنه الله–كسرهم لنفاذ المشيئة.وعاد الإفرنج–لعنهم الله–إلى كفرطاب عمروها وسكنوها.

وقدر الله تعالى أن خلّص الأسرى من الفرنج الذين أخذوا من كفرطاب. فإن الأمراء اقتسموهم، وأبقوهم معهم ليشتروا أنفسهم. إلا ما كان من أمير الجيوش: فإنه تقدم الذين طلعوا في سهمه، ضرب رقاب جميعهم قبل أن يتوجه إليحلب. وافترق العسكر–من سلم منهم من دانيث–وتوجهوا إلى بلادهم. فذلك الرجل الذي طلع وحده إلى برج كفرطاب، كان سبب أخذها.

ومن ذلك: كان في خدمتي رجل يقال له: نمير العلاروزي، راجل شجاع أيّد(= قوي)، نهض، هو وقوم من رجال شيزر، إلى الرُّوج(= بين حلب والمعرة)، إلى الإفرنج. فعثروا في البلد على قافلة من الإفرنج في مغارة. فقال بعضهم لبعض: "من يدخل عليهم؟" قال نمير:"أنا" . فدفع إليهم سيفه وترسه، وجذب سكينه، ودخل عليهم فاستقبله رجل منهم. فضربه بالسكين رماه، وبرك عليه يقتله، وخلفه إفرنجي معه سيف. فضربه، وعلى ظهر نمير مزود فيه خبز، فهو يرد عنه! فلما قتل الرجل الذي تحته التفت إلى صاحب السيف يريده. فضربه بالسيف في جانب وجهه فقطع حاجبه وجفن عينه وخده وأنفه وشفته العليا. فتدلى جانب وجهه عليصدره. فخرج من المغارة، إلى أصحابه، فشدوا جرحه، ورجعوا به، في ليلة باردة ماطرة. فوصل شيزر وهو على تلك الحالة. فخيط وجهه، وداوى جراحه، فبرأ وعاد إلى ما كان عليه، إلا أن عينه تلفت. وهو أحد الثلاثة الذين رماهم الاسماعيلية من حصن شيزر.

١٨- كنت أتردد إلى ملك الإفرنج(=فولك الخامس)، في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملك(=أمير دمشق عام ٥٣٤)-رحمه الله-ليدٍ كانت للوالد-رحمه الله-على بغدوين الملك(= بلدوين الثاني ملك بيت المقدس)، والد الملكة(=مليسندة) امرأة الملك فلك بن فلك. فكان الإفرنج يسوقون أساراهم إلي لأشتريهم. فكنت أشتري منهم من سهل الله خلاصه. فخرج شيطان منهم، يقال له: كليام جيبا(= وليام)، في موكب له يغزو، فأخذ مركباً فيه حجاج من المغاربة: نحو أربعمائة نفس، رجالاً ونساء، فكان يجئ أقوام مع مالكهم فأشتري منهم من قدرت على شرائه .وفيهم رجل شاب يسلّم ويقعد، لا يتكلم. فسألت عنه، فقيل لي: هو رجل زاهد، صاحبه(= مالكه) دباغ. فقلت له: "بكم تبيعني هذا؟" قال: " وحق ديني ما أبيعه إلا هو وهذا الشيخ، جملة كما اشتريتهما، بثلاثة وأربعين ديناراً". فاشتريتهما. واشتريت لي منهم نفراً. واشتريت للأمير معين الدين(= أمير دمشق السلجوقي)-رحمه الله- منهم نفراً بمائة وعشرين ديناراً، ووزنت ما كان معي، وضمنت علي بالباقي.

وجئت إلى دمشق، فقلت للأمير معين الدين، رحمه الله:" قد اشتريت لك أسارى أختصك بهم، وما كان معي ثمنهم. والآن قد وصلت إلى بيتي. إن أردتهم وزنت ثمنهم، وإلا وزنته أنا". قال: "لا! بل أنا أزن، والله، ثمنهم وأنا أرغب الناس في ثوابهم". وكان-رحمه الله-أسرع الناس إلى فعل خير وكسب مثوبة. ووزن ثمنهم. وعدت بعد أيام إلى عكا. وقد بقي من الأسرى عند كليام جيبا ثمانية وثلاثون أسيراً. وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على يدي. فاشتريتها منه، وما وزنت ثمنها. فركبت إلى داره-لعنه الله-وقلت: "تبيعني منهم عشرة؟" قال:"وحق ديني ما أبيع إلا الجميع". قلت: "ما معي ثمن الجميع. وأنا أشتري بعضهم. والنوبة الأخرى أشتري الباقي". قال:" ما أبيعك إلا الجميع". فانصرفت. وقدر الله-سبحانه-أنهم هربوا في تلك الليلة جميعهم. وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين: إذا وصل إليهم الأسير أخفوه، وأوصلوه إلى بلاد الإسلام.

وتطلّبهم ذلك الملعون، فما ظفر منهم بأحد. وأحسن الله-سبحانه-خلاصهم. وأصبح يطالبني بثمن المرأة التي اشتريتها وما وزنت ثمنها، وقد هربت فيمن هرب. فقلت: "سلمها إلي وخذ ثمنها!" قال: "ثمنها لي من أمس. قبل أن تهرب!" وألزمني بوزن ثمنها فوزنته. وهان علي ذلك لمسرتي بخلاص أولئك المساكين.

١٩- ومن عجائب السلامة، إذا جرى بها القدر، وسبقت بها المشيئة: أن الأمير فخر الدين قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق(= أمير حصن كيفا في ديار بكر)-رحمه الله-عمل على مدينة آمد(= عاصمة مقاطعة ديار بكر) عدة مرار، وأنا في خدمته، ولا يبلغ منها مقصوده. وكان آخر ما عمل عليها أن أميراً من الأكراد كان مديونا بآمد، راسله ومعه جماعة من أصحابه. وقرر الأمير أن يصله العساكر في ليلة تواعدوا إليها، ويطلعهم بالحبال ويملك آمد. فعوّل فخر الدين في ذلك المهم على خادم له إفرنجي، يقال له: ياروق، والعسكر كله يمقته ويكرهه الإفرنج-لعنهم الله-نزلوا علينا بالفارس والراجل. وبيننا وبينهم العاصي، وهو زائد زيادة عظيمة. لا يمكنهم أن يجوزوا إلينا، ولا نقدر نحن أن نجوز إليهم. فنزلوا على الجبل بخيامهم. ونزل منهم قوم إلى البساتين، وهي من جانبهم، هملوا خيلهم في القصيل(= الزرع) وناموا. فتجرد شباب من رجالة شيزر، وخلعوا ثيابهم، وأخذوا سيوفهم، وسبحوا إلى أولئك النيام، فقتلوا بعضهم. وتكاثروا على أصحابنا، فرموا نفوسهم إلى الماء وجازوا، وعسكر الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل ومن جانبهم مسجد يعرف بمسجد أبي المجد بن سمية. وفيه رجل يقال له: حسن الزاهد، وهو واقف على سطح في المسجد يصلي، وعليه ثياب سود صوف، ونحن نراه ومالنا إليه سبيل. وقد جاء الإفرنج فنزلوا على باب المسجد" وصعدوا إليه، ونحن نقول: " لا حول ولا قوة إلا بالله! الساعة يقتلونه!" فلا والله ما قطع صلاته ولا زال من مكانه! وعاد الإفرنج نزلوا، ركبوا خيلهم، وانصرفوا. وهو واقف مكانه يصلي! ولا نشك أن الله-سبحانه-أعماهم عنه، وستره عن أبصارهم. فسبحان القادر الرحيم!.

٢٠- ومن ألطاف الله تعالى: أن ملك الروم(= جان الثاني كومنينيوس) لما نزل على

شيزر، في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، خرج من شيزر جماعة من الرجالة للقتال. فاقتطعهم الروم، فقتلوا بعضا، وأسروا بعضا. فكان، في جملة من أسروا، زاهد من بني كردوس، من الصالحية، من مولّدي محمود بن صالح، صاحب حلب. فلما عاد الروم كان معهم مأسوراً. فوصل القسطنطينية. فهو في بعض الأيام فيها، إذ لقيه إنسان فقال: " أنت ابن كردوس؟" قال: "نعم!" قال: " سر معي أوقفني على صاحبك". فسار معه حتى أراه صاحبه فقاوله على ثمنه، حتى تقرر بينه وبين الرومي مبلغ أرضاه. فوزن له الثمن. وأعطى ابن كردوس نفقة وقال: " تبلغ بها إلى أهلك! وامض في دعة الله تعالى!" فخرج من القسطنطينية .وتوصل إلى أن عاد إلى شيزر. وذلك من فرج الله تعالى وخفي لطفه. ولا يدري من الذي شراه وأطلقه.

وقد جرى لي ما يشبه ذلك: لما خرج علينا الإفرنج، في طريق مصر، وقتلوا عباس بن ابي الفتوح وابنه نصراً الكبير، انهزمنا نحن إلى جبل قريب منا. فصعد الناس فيه رجالة يمشون، يجرون خيلهم. وأنا على إكديش، ولا أستطيع المشي. فصعدت وأنا راكب. وسفوح ذلك الجبل كلها نقارة وحصى، كلما وطئه الفرس انهرّ تحت قوائمه. فضربت الأكديش ليطلع فما استطاع. ونزل والحصى والنقارة تنزل به. فترجلت عنه، وأقمته، ووقفت لا أقدر على المشي. فنزل إلي رجل من الجبل فمسك بيدي، وبرذوني في يدي الأخرى، حتى أطلعني. ولا والله، ما أدري من هو ولا عدت رأيته.

وقد كان في ذلك الوقت الصعب، يُمتنّ فيه بيسير الإحسان، ويطلب المكافأة عنه. ولقد شربت من بعض الأتراك شربة ماء أعطيته عنها دينارين. وما زال، بعد وصولنا دمشق، يقتضي حوائجه ويتوصل بي إلى أغراضه، لأجل تلك الشربة التي سقانيها! وما كان ذلك الذي أعانني إلا ملكا رحمني الله تعالى، فأغاثني به!

٢١– ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة–رضوان الله عليهم–يقاتلون: للجنة لا لرغبة ولا لسمعة. ومن ذلك: أن ملك الألمان الإفرنجي(= كونراد الثالث)–لعنه الله–لما وصل الشام، اجتمع إليه كل من بالشام من الإفرنج. وقصد دمشق. فخرج عسكر دمشق

وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي، رحمهما الله. وكانا من خيار المسلمين. فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن: " ما هؤلاء الروم؟" قال: " بلى!" قال: " فإلى متى نحن وقوف؟" قال: "سر على اسم الله تعالى!" فتقدما قاتلا حتى قتلا-رحمهما الله في مكان واحد!

ومن الناس من يقاتل للوفاء. فمن ذلك: أن رجلاً من الأكراد يقال له: فارس، وكان، كاسمه، فارساً وأي فارس! فحضر أبي وعمي-رحمهما الله- وقعة كانت بينهما وبين سيف الدولة خلف بن مُلاعب(= صاحب أفامية)، عمل عليهم فيها، وغدر بهم. وقد حشد وجمع وهم غير متأهبين لما درى. وسبب ذلك: أنه راسلهم، وقال: "نمضي إلى أسفونا(=جوار معرة النعمان)، وفيها الفرنج، نأخذها" فسبقه أصحابنا إليها، وترجلوا، وزحفوا إلى الحصن نقبوه. وهم في القتال وابن ملاعب وصل. فأخذ خيل من ان ترجل من أصحابنا، ووقع القتال بينهم، بعد ما كان للإفرنج! واشتد بينهم القتال. فقاتل فارس الكردي قتالاً عظيماً. وجرح عدة جراح. وما زال يقاتل ويجرح حتى أثخن بالجراح. وانفصل القتال. فاجتاز به أبي وعمي رحمهما الله وهو محمول بين الرجال، فوقفا عليه وهنآه بالسلامة. فقال: والله ما قاتلت أريد السلامة! لكن لكم علي جميل وفضل كثير! وما رأيتكم في شدة مثل هذا اليوم. فقلت: "أقاتل بين أيديكم، وأجازيكم عن جميلكم، وأقتل قدامكم".

وقضى الله سبحانه أنه عوفي من تلك الجراح، ومضى إلى جبلة(= قرب اللاذقية)، وفيها فخر الملك ابن عمار(= صاحب طرابلس عام ٥٠١). وفي اللاذقية الإفرنج. فخرجت خيل من جبلة تريد الغارة على اللاذقية. وخرجت خيل من اللاذقية تريد الغارة على جبلة. فنزل الفريقان في الطريق، وبينهما رابية. فطلع فارس من الإفرنج، من جانبهم، يكشف الرابية. وطلع فارس الكردي، من الجانب الآخر، يكشف لأصحابه! فالتقى الفارسان على متن الرابية. فحمل كل واحد منهما على صاحبه، فاختلفا طعنتين، فوقعا ميتين! وبقيت الحصن تتصاول على الرابية، والفارسان قتيلان.

وكان لفارس هذا، عندنا، ولد، اسمه علاّن، من الجند. له الخيل الملاح والعدة الحسنة. ولكن ما كان كأبيه. فنزل دنكري، صاحب أنطاكية، يوماً، وقاتلنا قبل ضرب الخيام. وهذا علاّن بن فارس على حصان مليح باغز(= نشيط)، من أحسن الخيل، وهو واقف على رفعة من الأرض. فحمل عليه فارس من الإفرنج، وهو كالغافل، فطعن حصانه في رقبته نفذ القنطارية. فشب الحصان رمى علاّن. وعاد الإفرنجي، والحصان معارضه والقنطارية في رقبته، كأنه تجنبه، يتمختر بغنيمة حسنة!

٢٢- وعلى ذكر الخيل: ففيها الصبور كالرجال، وفيها الخوّار. فمن ذلك: أنه كان في جندنا رجل كردي يقال له: كامل المشطوب. فيه الشجاعة والدين والخير، رحمه الله، وله حصان أدهم أصم، مثل الجمل. فالتقى هو وفارس من الإفرنج، فطعن الإفرنجي حصانه في موضع القلادة، فمالت رقبته منشدة الطعنة، وخرجت القنطارية من أصل رقبة الحصان، فضربت فخذ كامل المشطوب، وخرجت من الجانب الآخر وما تزعزع الحصان من تلك الطعنة، ولا فارسه. فكنت أرى ذلك الجرح الذي في فخذه، بعد ما اندمل وخَتَم، وهو كأكبر ما يكون من الجراح. وسلم الحصان، وعاد حضر عليه القتال. فالتقى هو وفارس من الإفرنج، فطعن الحصان في جبهته خسفها ولم يتزعزع. وسلم من تلك الطعنة الثانية. فكانت بعد أن ختمت إذا أطبق الإنسان كفه وأدخلها في جبهة الحصان، في موضع الجرح وسعها!

وكان من طريف ما جرى في ذلك الحصان: أن أخي، عز الدولة، ابا الحسن، علياً-رحمه الله-اشتراه من كامل المشطوب. وكان ثقيل العدو. فأخرجه في ضمان قرية كانت بيننا وبين فارس من إفرنج كفرطاب. فبقي عنده سنة ثم مات. فأرسل إلينا يطلب ثمنه! قلنا: "اشتريته، وركبته، ومات عندك! كيف تطلب ثمنه؟" قال: "أنت سقيتموه شيئا يموت منه بعد سنة" فعجبنا من جهله وسخافة عقله.

وجرح تحتي حصان على حمص، شقت الطعنة قلبه. وأصابه عدة سهام. فأخرجني من المعركة ومنخراه يدميان بالدم كالفَرْلَتين(= القلفة)! وما أنكرت منه شيئاً وبعد وصولي إلى

أصحابي مات!   وجرح تحتي حصان، في بلد شيزر، في حرب محمود ابن قراجا(= صاحب حماة)، ثلاثة جراح، وأنا أقاتل عليه، ولا أعلم، والله، أنه قد جرح، لأني ما أنكرت منه شيئاً!.

٢٣- ومن نفاذ المشيئة في الآجال والأعمار: أن الإفرنج خذلهم الله أجمع رأيهم على أن يقصدوا دمشق ويأخذوها(وقع ذلك بقيادة بالدوين الأول في عام ٥٠٨) فاجتمع منهم خلق كثير. وسار إليهم صاحب الرها وتل باشر(=جوسلين الأول) وصاحب أنطاكية(= روجار) فنزل صاحب أنطاكية علي شيزر، في طريقه إلى دمشق. وقد تبايعوا بينهم دور دمشق وحماماتها وقياسيرها. واشتراها البرجاسيّة(التجار، البرجوازيون)، ووزنوا لهم أثمانها. وما عندهم شك في فتحها وملكها. وكفر طاب إذ ذاك لصاحب أنطاكية. فجرد من عسكره مائة فارس، انتخبهم وأمرهم بالمقام بكفر طاب مقابلنا ومقابل حماة. فلما سار إلى دمشق اجتمع من بالشام من المسلمين لقصد كفرطاب. وأنفذوا رجلا من أصحابنا، يقال له: قنيب بن مالك، فجس لهم كفرطاب في الليل، فوصلها، دارها وعاد، وقال: " أبشروا بالغنيمة والسلامة" فسار المسلمون إليهم فالتقوا على مثكير. فنصر الله سبحانه الإسلام، وقتلوا الإفرنج جميعهم، وكان قنيب، الذي جس لهم كفرطاب، قد رأى في خندقها دواب كثيرة. فلما ظفروا بالإفرنج وقتلوهم طمع في أخذ تلك الدواب التي في الخندق، ورجا أن يفوز بالغنيمة وحده! فمضى يركض إلى الخندق. فرمى عليه رجل من الإفرنج، من الحصن حجرا فقتله. وكانت له عندنا والدة عجوز كبيرة تندب في مأتمنا، ثم تندب ولدها. فكانت إذا ندبت على ابنها قنيب يتدفق ثدياها باللبن حتى تغرق ثيابها. فإذا فرغت من ندبها عليه وسكنت،عاد ثدياها كالجلدتين: ما فيهما قطرة لبن! فسبحان من أشرب القلوب الحنّة(= الحنان) على الأولاد.

ولما قيل لصاحب أنطاكية، وهو على دمشق: "قد قتل المسلمون أصحابك" . قال: " ما هو صحيح! قد تركت بكفرطاب مائة فارس تلتقي المسلمين كلهم! " .وقضى الله سبحانه أن المسلمين بدمشق نصروا على الإفرنج، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأخذوا جميع دوابهم.

فرحلوا عن دمشق أسوأ رحيل وأذله. والحمد لله رب العالمين.

ومن عجيب ما جرى في تلك الوقعة بالإفرنج: أنه كان في عسكر حماة أخوان كرديان. اسم الواحد: بدر، واسم الآخر: عنّاز. وكان هذا -عنّاز- ضعيف النظر. فلما كسر الإفرنج وقتلوا، قطعوا رؤوسهم وشدوها في سموط(= السير يشدّ به السرج) خيلهم. وقطع عناز رأسا وشده في سموطه. فرآه قوم من عسكر حماة فقالوا له: " يا عنّاز! أي شئ هذا الرأي معك؟" قال: "سبحان الله لما جرى بيني وبينه، حتى قتلته!". قالوا له: "يا رجل! هذا رأس أخيك بدر!" فنظره وتأمله فإذا هو راس أخيه! فاستحيا من الناس، وخرج من حماة. فما ندري أين قصد، ولا عدنا سمعنا له خبرا! وكان أخوه بدر قد قتل في تلك الوقعة. قتله الإفرنج، خذلهم الله تعالى! وكان من قوة هذا الرجل: أنه كان يمسك رسغ رجل البغل، ويضرب البغل، فلا يقدر يخلص رجله من يده! ويأخذ المسمار البيطاري بين أصابعه، وينفذه في دف خشب البلوط! وكان أكله مثل قوّته! لا بل أعظم!

٢٤- وقد ذكرت شيئا من أفعال الرجال. وساذكر شيئا من أفعال النساء، بعد بساط أقدمه: وذلك أن أنطاكية كانت لشيطان من الإفرنج، يقال له: روجار فمضى يحج إلى البيت المقدس، وصاحب البيت المقدس بغدوين البرونس(= الأمير بالدوين الثاني) وهو رجل شيخ. وروجار شاب.: فقال لبغدوين: " اجعل بيني وبينك شرطا إن مت قبلك كانت أنطاكية لك. وإن مت قبلي كان البيت المقدس لي". فتعاقدا وتواثقا على ذلك. وقدر الله تعالى أن نجم الدين إيلغازي بن أرتق(= أمير ماردين) رحمه الله لقي روجار بـ"وانيث"، يوم الخميس خامس جمادى الأولى، سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، فقتله، وقتل جميع عسكره. ولم يدخل أنطاكية منهم إلا دون العشرين رجلا. وسار بغدوين إلى أنطاكية فتسلّمها، وضرب مع نجم الدين مصافا بعد أربعين يوما. وكان إيلغازي إذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوما! فشرب، بعد كسر الإفرنج وقتلهم، ودخل في الُخمار، فما أفاق حتى وصل الملك بغدوين البرونس إلى أنطاكية بعسكره. فكان المصاف الثاني بينهما على السواء: كسر بعض الإفرنج بعض المسلمين، وكسر بعض المسلمين بعض الفرنج. وقتل من

هؤلاء وهؤلاء جماعة. وأسر المسلمون روبرت صاحب صيهون وبُلاطنُس (= حصن بين اللاذقية وحماة)وتلك الناحية. وكان صديقا لأتابك طغدكين، صاحب دمشق ذلك الوقت.

وكان مع نجم الدين إيلغازي لما اجتمع بالإفرنج في أفامية، حين وصل عساكر الشرق مع بُرسق بن بُرسق. فقال هذا روبرت الأبرص لأتابك طغد كين: "ما أدري بأي شئ أضيفك! ولكن قد أبحتك بلادي. أنفذ خيلك تغير عليها ،وتأخذ كل ما وجدوه. على ألا يسبوا ولا يقتلوا. الدواب والمال والغلّة لهم، يأخذون ذلك مباحا لهم ، فلما أُسر روبرت، وأتابك طغد كين حاضر المصاف في معونة إيلغازي، قطع روبرت على نفسه عشرة آلاف دينار. فقال إيلغازي: "امضوا به إلى أتابك لعله يفزعه فيزيدنا في القطيعة(= الفدية)!" فمضوا به، وأتابك في خيمته يشرب. فلما رآه مقبلا قام شمّر أذيال قبائه في البند(= نطاق)، وأخذ سيفه، وخرج إليه ضرب رقبته! فنفّذ إليه إيلغازي يعتب عليه، وقال: " نحن محتاجون إلى دينار واحد للتركمان. هذا كان قد قطع على نفسه عشرة آلاف دينار، نفّذته إليك تُفزعه لعله يزيدنا في القطيعة، قتلته" قال: "أنا ما أحسن أُفزع إلا كذا".

٢٥- ثم ملك بغدوين البرونس أنطاكية، وكان لأبي وعمي رحمهما الله عليه جميل كبير، حيث كان أسَره نور الدولة بَلَك رحمه الله(= صاحب ملطية)، وصار بعد قتل بلك إلى حسام الدين، تمرتاش بن إيلغازي(=وذلك في عام ٥١٩). فحمله إلينا، إلى شيزر، ليتوسط أبي وعمي رحمهما الله بيعه. فأحسنّا إليه. فلما ملَك كانت لصاحب أنطاكية علينا قطيعة سامحنا بها ،وصار أمرنا في أنطاكية نافذا. فهو فيما هو فيه، وعنده رسول من أصحابنا، إذ وصل مركب إلى السويدية(= ميناء في الاسكندرونة)، فيه صبي عليه أخلاق(=ثياب بالية). فحضر عنده ،وعرّفه أنه ابن ميمون(=بهموند) فسلم أنطاكية إليه، وخرج منها ضرب خيمة في ظاهرها. فحلف لنا رسولنا الذي كان عنده أنه (= بالدوين) اشترى عليق خيله تلك الليلة من السوق. وأهراء أنطاكية ملآى من الغلة ،ورجع بغدوين إلى القدس.

وخرج على الناس من ذلك الشيطان، ابن ميمون بلية عظيمة، فنزل علينا يوما من الأيام بعسكره. فضرب خيامه، ونحن قد ركبنا مقابلهم. فما خرج إلينا منهم أحد، ونزلوا في خيامهم. ونحن ركاب على شرف نبصرهم وبيننا وبينهم العاصي. فنزل من بيننا ابن عمي، ليث الدولة، يحيى بن مالك بن حميد رحمه الله يسير إلى العاصي. فظنناه يسقي فرسه. فخاض الماء، وعبر، وسار نحو موكب للإفرنج واقف بالقرب من خيامهم! فلما دنا منهم نزل إليه فارس واحد. فحمل كل واحد منهما على صاحبه، وراغ(= حاد) كل واحد منهما عن طعنة الآخر. فتسرعت أنا وأمثالي من الشباب، ذلك الوقت، إليهما. ونزل ذلك الموكب وركب ابن ميمون وعسكره وجاءوا كالسيل، وصاحبنا قد طُعنت فرسه. فالتقت أوائل خيلنا وأوائل خيلهم. وفي أجنادنا رجل كردي، يقال له: ميكائيل، قد جاء في أوائل خيلهم منهزما، وخلفه فارس إفرنجي قد لزَّه. وللكردي بين يديه ضجيج وصياح عال. فلقيته، فمال على ذلك الفارس الكردي، وزلّ عن طريقي، وقصد خيلا لنا في جماعة على الماء واقفين مما يلينا، وأنا خلفه أجهد أن يلحقه حصاني فأطعنه، فلا يلحقه، ولا الإفرنجي يلتفت إلي، إلا يريد تلك الخيل المجتمعة، إلى أن وصل إلى خيلنا، وأنا تابعه، فطعن أصحابي حصانه طعنة أوثقته، وأصحابه في أثره في جمع ما لنا بهم قوة! فرجع الفارس، وحصانه في آخر رمقه، التقاهم فردهم جميعهم، وعاد، وهم معه. وكان الفارس ابن ميمون، صاحب أنطاكية، وهو صبيي ،قد امتلأ قلبه من الرعب ولو ترك أصحابه هزمونا إلى ان يدخلونا المدينة!

كل ذلك وأمه عجوز، يقال لها: بُريكة مملوكة لرجل كردي من أصحابنا، يقال له: علي بن محجوب، واقفة بين الخيل على شط النهر، في يدها شربة تستقي بها وتسقي الناس! وأكثر أصحابنا، الذين كانوا على الشّرف، لما رأوا الإفرنج مقبلين في ذلك الجمع اندفعوا نحو المدينة. وتلك الشيطانة واقفة لا يروعها ذلك الأمر العظيم.

وأنا ذاكر شيئا من أمر هذه بُّريكة، وإن لم يكن موضعه. لكن الحديث شجون.كان مولاها (=علي) يتديّن ولا يشرب الخمر. فقال لوالدي يوماً: "والله، يا أمير، ما أستحل آكل من

الديوان. ولا آكل إلا من كسب بريكة!" وهو الجاهل فنفذتْ أحضرتْ نسيبا لها من الضياع، وأظنه أخاها، وأخفته في البيت إلى الليل. واجتمعت هي وهو على زوجها علي، عبد ابن أبي الربداء. قتلاه، واحتملا بجميع مالها. وأصبحت عندنا بشيزر. وقالت: "غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر!" فأراحت الناس من هذا الشيطان. ورعينا لها ما فعلت ،وكانت عندنا في الكرامة والاحترام.

٢٦- وكان في أمراء مصر رجل يقال له: ندى الصليحي، في وجهه ضربتان: الواحدة من حاجبه الأيمن إلى حد شعر رأسه، والأخرى من حاجبه الأيسر إلى حد شعر رأسه. فسألته عنهما فقال:" كنت أنهض وأنا شاب، من عسقلان، وأنا راجل. فنهضت يوما إلى طريق بيت المقدس، أريد حجّاج الإفرنج. فصادفنا قوما منهم. فلقيت رجلا معه قنطارية، وخلفه امرأته معها كوز خشب فيه ماء. فطعنني الرجل هذه الطعنة الواحدة، وضربته قتلته. فمشت إليَّ امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي، جرحتني هذا الجرح الآخر! فوسما وجهي".

ومن إقدام النساء: أن جماعة من الإفرنج الحجّاج حجّوا وعادوا إلى رَفَنيّة (= جنوب غرب حماة) وكانت ذلك الوقت لهم وخرجوا منها يريدون أفامية. فتاهوا في الليل، وجاءوا إلى شيزر وهي إذ ذاك بغير سور فدخلوا المدينة، وهم في نحو من سبعمائة ثمانمائة: رجال ونساء وصبيان. وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمي عز الدين أبي العساكر سلطان، وفخر الدين أبي كامل شافع رحمهما الله ليلقيا عروسين قد تزوجاهما من بني الصوفي الحلبيين، أختين. ووالدي-رحمه الله-في الحصن. فخرج رجل من المدينة في شغل له، في الليل، فرأى إفرنجيا! فعاد أخذ سيفه وخرج قتله. ووقع الصياح في البلد. وخرج الناس فقتلوهم، وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والفضة والبهائم.

وفي شيزر امرأة من نساء أصحابنا، يقال لها: نضرة بنت بوزرماط، خرجت مع الناس أخذت إفرنجيا أدخلته بيتها، وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها، وعادت وخرجت أخذت آخر. فاجتمع عندها ثلاثة من الإفرنج. فأخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم،

وخرجت دعت قوما من جيرانها قتلوهم.

ووصل عمّاي والعسكر في الليل، وقد كان انهزم من الإفرنج ناس، وتبعهم رجال من شيزر فقتلوهم في ظاهر البلد. فصارت الخيل تعثر في الليل، في القتلى، ولا يدرون بماذا تعثر، حتى ترجل أحدهم وأبصر القتلى في الظلام! فهالهم ذلك، واعتقدوا أن البلد قد كبس! وكانت غنيمة ساقها الله-عز وجل- إلى الناس. فصار إلى دار والدي رحمه الله عدة من الجواري من سبيهم. وهم لعنهم الله جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم فرأى جارية مليحة شابة، فقال لقهرمانة دراه: "أدخلي هذه الحمام، واصلحي كسوتها، واعملي شغلها للسفر". ففعلت. وسلمها إلى بعض خدامه، وسيّرها إلى الأمير شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك، صاحب قلعة جعبر(= على الفرات)، وكان صديقه. وكتب إليه يقول: "غنمنا من الإفرنج غنيمة قد نفّذت لك سهما منها". فوافقته وأعجبته، واتخذها لنفسه. فولدت له ولدا أسماه: بدران. فجعله أبوه ولي عهده. وكبر ومات والده. وتولى بدران البلد والرعية، وأمه الآمرة الناهية. فواعدت قوما، وتدلّت من القلعة بحبل، ومضى بها أولئك إلى سُروج(= أورفة) وهي إذ ذاك للإفرنج، فتزوجت بإفرنجي إسكاف وابنها صاحب قلعة جعبر!

٢٧- وكان في أولئك الذين صاروا إلى دار والدي، امراة عجوز، ومعها بنت لها: امرأة شابة حسنة الخلقة، وابن مشتد. فاسلم الابن وحسن إسلامه فيما يرى من صلاته وصومه. وتعلم الترخيم(= تركيب الرخام) من مرخِّم كان يرخِّم دار والدي. فلما طال مقامه زوجه الوالد امرأة من قوم صالحين. وقام له بكل ما احتاج لعرسه وبيته. فرزق منها ولدين، وكبرا وصار لكل واحد منهما خمس ست سنين. والغلام راؤول، أبوهما، مسرور بهما. فأخذهما وأمهما وما في بيته، وأصبح بأفامية عند الإفرنج! وتنصّر هو وأولاده بعد الإسلام والصلاة والدين! فالله تعالى يطهّر الدنيا منهم.

٢٨- سبحان الخالق البارئ! إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبّح الله تعالى وقدّسه، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل، وسأذكر شيئا من أمورهم وعجائب عقولهم.

كان في عسكر الملك فلك بن فلك(= فولك الخامس ملك القدس) فارس محتشم إفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود، فأنس بي، وصار ملازمي يدعوني: "أخي" وبيننا المودة والمعاشرة. فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده قال لي: "يا أخي! أنا سائر إلى بلادي، وأريدك تُنفذ معي ابنك ،وكان ابني معي. وهو ابن أربع عشرة سنة(= مرهف الذي سيكون من مقرّبي صلاح الدين الأيوبي ،فيما بعدّ) إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية. وإذا رجع كان مثل رجل عاقل!". فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل! فإن ابني لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج! فقلت: "وحياتك هذا الذي كان في نفسي. لكن منعني من ذلك أن جدته تحبه. وما تركته يخرج معي حتى استحلفتني أني أرده إليها". قال: "وأمك تعيش؟: قلت:"نعم" قال "لاتخالفها!".

ومن عجيب طبّهم: أن صاحب المُنطيرة(= شمال لبنان) كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضي من أصحابه. فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له: ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد! فقلنا له: "ما أسرع ما داويت المرضى!" قال:" أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دُمّلة، وامرأة قد لحقها نُشاف(= بُله). فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت. وحميَت المرأة(=من الحمية) ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شئ يداويهم. وقال للفارس: أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة! قال: أحضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا. فحضر الفارس والفأس. وأنا حاضر. فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفاس ضربة واحدة اقطعها! فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة، ما انقطعت! ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته. وابصر المرأة فقال: هذه امرأة في راسها شيطان قد عشقها! احلقوا شعرها فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم: الثوم والخردل. فزاد بها النشاف. فقال: الشيطان قد دخل في راسها فاخذ الموسى وشق راسها صليبا، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكة بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إلي حاجة؟ قالوا: لا! فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه!.

وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك: كان للملك خازن من فرسانهم يقال له: برناد(= ريرناد)، لعنه الله. من ألعن الإفرنج وأرجسهم. فرمَحه حصان في ساقه. فعمّلت عليه رجله، وفتحت في أربعة عشر موضعا. والجراح كلما ختم موضع فَتح موضع. وأنا أدعو بهلاكه. فجاءه طبيب إفرنجي فأزال عنه تلك المراهم، وجعل يغسلها بالخل الحاذق، فختمت تلك الجراح وبرأ، وقام مثل الشيطان.

ومن عجيب طبهم: أنه كان عندنا بشيزر صانع يقال له: أبوالفتح، له ولد قد طلع في رقبته خنازير(= قروح). وكلما ختم موضع فتح موضع. فدخل أنطاكية في شغل له، وابنه معه. فرآه رجل إفرنجي فسأله عنه، فقال: هو ولدي" قال: " تحلف لي بدينك: إن وصفت لك دواء يبرئه، لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة، حتى أصف لك دواء يبرئه؟ فحلف. فقال له: "تأخذ له أشنانا غير مطحون، تحرقه وتربّيه بالزيت والخل الحاذق، وتداويه به حتى يأكل الموضع. ثم خذ الرصاص المحُرق وربّه بالسمن. ثم داوه به، فهو يبرئه" فداواه بذلك فبرأ. وختمت تلك الجراح. وعاد إلى ما كان عليه من الصحة. وقد داويت بهذا الدواء من طلع فيه هذا الداء، فنفعه وأزال ما كان يشكوه.

٢٩- فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا(=استوطنوا بلاد المسلمين) وعاشروا المسلمين. فمن جفاء أخلاقهم، قبّحهم الله: أنني كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة. فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفي الداوية(حرّاس المعبد)، وهم أصدقائي، يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلّي فيه. فدخلته يوما فكبرت في الصلاة، فهجم علي واحد من الإفرنج، مسكني ورد وجهي إلى الشرق، وقال: "كذا صل فتبادر إليه قوم من الداويّة، أخذوه أخرجوه عني. وعدت أنا إلى الصلاة. فاغتفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه، ورد وجهي إلى الشرق، وقال: "كذا صل" فعاد الداويّة دخلوا إليه وأخرجوه، واعتذروا إلي، وقالوا: "هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق". فقلت: "حسبي من الصلاة" فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان

وتغير وجهه ورعدته، وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة.

ورأيت واحداً منهم، جاء إلى الأمير معين الدين رحمه الله وهو في الصخرة(= جامع الصخرة في القدس)، فقال: "تريد تبصر الله صغيرا" قال: "نعم!" فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم، والمسيح عليه السلام صغير في حجرها! فقال: "هذا الله صغيرا!" تعالى الله عما يقول الكافرون علوّا كبيرا.

٣٠- وليس عندهم شئ من النخوة والغيرة. يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة،ويعتزل بها، ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث! فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى.

ومما شاهدت من ذلك: أني كنت إذا جئت إلى نابلس(= كانت آنذاك تحت سيطرة الإفرنج) أنزل في دار رجل يقال له: معز، داره عمارة المسلمين. لها طاقات تفتح إلى الطريق. ويقابلها، من جانب الطريق الآخر، دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار. يأخذ قنينة من النبيذ، وينادي عليه ويقول: "فلان التاجر قد فتح بتّية(= دنٌ) من هذا الخمر. من أراد منها شيئا فهو في موضع كذا وكذا. وأجرته عن ندائه النبيذ الذي في تلك القنينة. فجاء يوما ووجد رجلا مع امرأته في الفراش! فقال له: "أي شئ ادخلك إلى امرأتي" قال:"كنت تعبان دخلت أستريح" قال: فكيف دخلت إلى فراشي" قال: :وجدت فراشا مفروشا نمت فيه" قال: "والمرأة نائمة معك؟ " قال: الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟ قال: وحق ديني إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته.

ومن ذلك: أنه كان عندنا رجل حمّامي يقال له: سالم، من أهل المعرّة في حمام لوالدي، رحمه الله. قال: "فتحت حماما في المعرّة أتعيش منها. فدخل إليها فارس منهم. وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام. فمد يده فجذب مئزري من وسطي رماه! فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي. فقال: سالم! فتقربت منه. فمد يده على عانتي وقال: سالم! جيد وحق ديني أعمل لي كذا، واستلقي على ظهره، وله مثل لحيته في ذلك الموضع! فحلقته. فمر يده عليه فاستوطأه(= وجد ناعما) فقال: سالم بحق دينك اعمل للداما! (=المذام) يعني امرأته! وقال لغلام له :قل للداما تجئ! فمضى الغلام وأحضرها وأدخلها.

فاستلقت على ظهرها! وقال: اعمل كما عملت لي! فحلقت ذلك الشعر، وزوجها قاعد ينظرني فشكرني ووهبني حق خدمتي".

فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة! وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة.

ومما يقارب هذا: أنني دخلت الحمام بمدينة صور، فجلست في خلوة فيها فقال لي بعض غلماني في الحمام: معنا امرأة فلما خرجت جلست على المصاطب، وإذا التي كانت في الحمام قد خرجت وهي مقابلي، قد لبست ثيابها، وهي واقفة مع أبيها. ولم أتحقق أنها امرأة. فقلت لواحد من أصحابي: "بالله أبصر: هذه امرأة هي؟". وأنا أقصد: أن يسأل عنها فمضى وأنا أراه، رفع ذيلها وطلع فيها فالتفت إلي أبوها وقال: هذه ابنتي ماتت أمها، ومالها من يغسل رأسها، فأدخلتها معي الحمام غسلت راسها، قلت جيد ما عملت. هذا لك فيه ثواب.

٣١- ومن عجيب طبهم: ما حدثنا به كليام دبور(=غوليام دي بور)، صاحب طبرية، وكان مقدما فيهم. واتفق أنه رافق الأمير معين الدين رحمه الله من عكا إلى طبرية، وأنا معه. فحدثنا في الطريق قال: كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر، فمرض واشرف على الموت. فجئنا إلى قس كبير من قسوسنا، قلنا: تجئ معنا حتى تبصر الفارس فلانا؟ قال: نعم ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفي! فلما رآه قال: أعطوني شمعا فأحضرنا له قليل شمع. فلينه وعمله مثل عقد الإصبع. وعمل كل واحدة في جانب أنفه. فمات الفارس!

فقلنا له: قد مات! قد مات! قال: نعم. كان يتعذب، سددت أنفه حتى يموت ويستريح.

٣٢- نرجع إلى حديث محاربيهم: حضرت بطبرية، في عيد من أعيادهم، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح. وقد خرج معهم عجوزان فانيتان، أوقفوهما في رأس الميدان، وتركوا في رأسه الآخر خنزيرا سمطوه(=شووه)، وطرحوه على صخرة. وسابقوا بين العجوزين، ومع كل واحدة منهما سرية من الخيالة يشدون منها، والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة، وهم يضحكون حتى سبقت واحدة منهن، فأخذت ذلك الخنزير في

سبقها.

وشهدت يوما بنابلس، وقد أحضروا اثنين للمبارزة وكان سبب ذلك: أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس، فاتهموا بها رجلا من الفلاحين: وقالوا: هو دلّ الحرامية على الضيعة". فهرب فنفّذ الملك فقبض أولاده. فعاد إليه، وقال: "أنصفني أنا أبارز الذي قال عني: إنني دَلَلت الحرامية على القرية". فقال الملك لصاحب القرية المُقطع "أحضر من يبارزه. فمضى إلى قريته، وفيها رجل حداد، فأخذه وقال له: "تبارز" إشفاقا من المقطع على فلاحيه، لا يقتل منهم واحد، فتخرّب فلاحته! فشاهدت هذا الحداد، وهو شاب قوي، إلا أنه قد انقطع، يمشي ويجلس، يطلب ما يشربه. وذلك الآخر الذي طلب البراز، شيخ إلا أنه قوي النفس، يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة! فجاء البسكند(= الفسكونت، قائد المنطقة)، وهو شحنة البلد، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس، وجعل الناس حولهم حلقة. والتقيا. فكان الشيخ يلز ذلك الحداد، وهو يتأخر، حتى يلجئه إلى الحلقة. ثم يعود إلى الوسط. وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم. فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما، وهو يقول بالعجلة. ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة. وأعيا ذلك الشيخ. فضربه الحداد، فوقع، ووقعت عصاه تحت ظهره. فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه في عينيه، ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه! ثم قام عنه، وضرب راسه بالعصا حتى قتله! فطرحو في رقبته، في الوقت، حبلا، وجروه شنقوه! وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته(= زرد يلبس تحت القلنسوة)، وأركبه خلفه، وأخذه وانصرف. وهذا من جملة فقههم وحكمهم، لعنهم الله.

٣٣- ومضيت مرة مع الأمير معين الدين رحمه الله إلى القدس، فنزلنا نابلس، فخرج من عنده رجل أعمى، وهو شاب عليه ملبوس جيد، مسلم، وحمل له فاكهة، وساله في أن يأذن له في الوصول إلى خدمته إلى دمشق. ففعل. وسالت عنه فخبرت أن أمه كانت مزوَّجة لرجل إفرنجي، فقتلته. وكان ابنها يحتال على حجابهم، ويتعاون هو وأمه على قتلهم. فاتهموه بذلك، وعملوا له حكم الإفرنج: جلّسوا بَتّية عظيمة وملؤوها ماء، وعرضوا عليها دف خشب، وكتفوا ذلك المتهم، وربطوا في كتافه حبلا، ورقوه في البتية: فإن كان بريئا غاص في الماء، فرفعوه بذلك الحبل، لئلا يموت في الماء وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء!

فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص، فما قدر فوجب عليه حكمهم-لعنهم الله فكَحَلوه(= سملوا عينية بمرود الكحل). ثم إن الرجل وصل إلى دمشق، فأجرى له الأمير معين الدين-رحمه الله-ما يحتاجه. وقال لبعض غلمانه: "تمضي به إلى برهان الدين البلخي-رحمه الله- تقول له: تأمر من يقرئ هذا القرآن وشيئا من الفقه. فقال له ذلك الأعمى: "النصر والغلَب! ما كان هذا ظني!" قال" وما ظننت ب؟ي" قال: "تعطيني الحصان والبغلة والسلاح، وتجعلني فارسا!" قال: "ما اعتقدت أن أعمى يصير من الفرسان!."

٣٤- ومن الإفرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين، فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم. لكنهم شاذّ لا يقاس عليه. فمن ذلك أنني نفّذت صاحبا إلى أنطاكية في شغل. وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي(= تيودورس صوفيلانوس)، وبيني وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم في انطاكية. فقال لصاحبي يوماً: "قد دعاني صديق لي من الإفرنج. تجئ معي حتى ترى زيهم" قال: فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العُتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج، قد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بأنطاكية مُلك يعيش منه. فأحضر مائدة حسنة، وطعاما في غاية النظافة والجودة. ورآني متوقفا عن الأكل، فقال: كل طيب النفس، فأنا ما آكل من طعام الإفرنج! ولي طبآخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن. ولا يدخل داري لحم خنزير. فأكلت وأنا محتزر،وانصرفنا.

فأنا بعد مجتازاً في السوق، وامرأة إفرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم، وما أدرى ما تقول! فاجتمع علي خلق من الإفرنج، فأيقنت بالهلاك، وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني. فجاء فقال لتلك المرأة: مالك ولهذا المسلم؟ قالت هذا قتل أخي عرس(=هورس). وكان هذا عرس فارسا بأفامية، فقتله بعض الجند حماة. فصاح عليها وقال: هذا رجل برجاسي (= تاجر) لا يقاتل، ولا يحضر القتال، وصاح على أولئك المجتمعين فتفرقوا، وأخذ بيدي ومضى. فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل.

مصادر كتاب الشمال

الاصطخري ،أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي(٣٤٦=٩٥٧)

- المسالك والممالك، ليدن،مطبعة بريل،١٩٣٧

ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (٧٧٩=١٣٧٧)

- رحلة ابن بطوطة المسمّاة : تحفة النظّار في غرائب الأمصار، تحقيق كرم البستاني،بيروت، دار صادر

البكري ، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد (٤٨٧=١٠٩٤)

-المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن، أندري فيري ، تونس، الدار العربية للكتاب-بيت الحكمة، ١٩٩٢

ابن جبير ،أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني (٦١٤=١٢١٧)

- رحلة بن جبير، بيروت،دار صادر

أبو حامد الغرناطي ، محمد بن عبد الرحيم الأندلسي (٥٦٥=١١٧٠)

- تحفة الألباب ونخبة الاعجاب، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت، دار الجيل-المغرب دار الآفاق الجديدة

ابن حوقل،أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي(توفي بعد ٣٦٧ =بعد ٩٧٧)

- صورة الأرض، بيروت، دار صادر، ١٩٣٩

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد اله بن أحمد (توفي بين ٢٨٠ و٣٠٠= حوالي ٨٩٢-٩١٣)

- المسالك والممالك، بعناية م.ج.دي خويه، ليدن ، بريل ،١٨٨٩

ابن دحية الكلبي (٦٣٣=١٢٣٦)

- المطرب من أشعار اهل المغرب، تحقيق إبراهيم الإبياري (القاهرة،١٩٥٤)

أبو دلف الينبوعي ،مسعر بن مهلهل(٣٩٠=١٠٠١)

-الرسالة الثانية، نشر وتحقيق بطرس بولغاكوف وانس خالدوف ، ترجمة وتعليق محمد منير موسى، بيروت ، عالم الكتب

ابن رسته، ابو علي أحمد بن عمر(توفي حوالي ٣٠٠=حوالي٩١٢)

- كتاب الأعلاق النفيسة، ليدن ، بريل، ١٨٩٣

ابن سعيد المغربي، علي بن موسى الأندلسي(٦٨٥=١٢٨٦)

- كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر.

الإدريسي، محمد بن محمد الصقلّي (٥٦٠=١١٦٥)

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت ،عالم الكتب ، ١٩٨٩

الدمشقي (= شيخ الربوة) محمد بن أبي طالب الأنصاري (٧٢٧=١٣٢٧)

- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، مكتبة المثنى .

أبو الفداء ، إسماعيل بن علي (٧٣٢=١٣٣١)

- تقويم البلدان ، اعتنى بتصحيحه جوزيف توسن رينود وماك كوكين ديسلان، باريس، دار الطباعة السلطانية ، ١٨٤٠

ابن فضلان ، أحمد بن العباس بن راشد بن حمّاد(عاش في النصف الثاني من القرن ٣ الهجري

النصف الأول من ا لقرن ٤ الهجري=النصف الأول من القرن٩الميلادي-النصف الأول من القرن العاشر الميلادي)

- رحلة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هجري=٩٢١ ميلادي، تحقيق سامي الدهان، دمشق ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٧

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود الأنصاري (٦٨٢=١٢٨٣)

- آثار البلاد وأخبار البلاد، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٩

المسعودي، علي بن الحسين بن علي (٣٤٦=٩٥٧)
- التنبيه والاشراف ، بيروت ، دار تحقيق التراث، ١٩٦٨
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٦٤
ابن منقذ، أبو المظفّر محب الدين أسامة بن منقذ (٥٨٤=١١٨٨) .
- من كتاب الاعتبار ، تحقيق عبد الكريم الأشتر ، دمشق ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٠
الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي (٦١١=١٢١٥)
- الإشارات الى معرفة الزيارات، تحقيق ونشر جانين سوريل–طومين، دمشق ، ١٩٥٣
ياقوت الحموي ،أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (٦٢٦=١٢٢٩)
- معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر

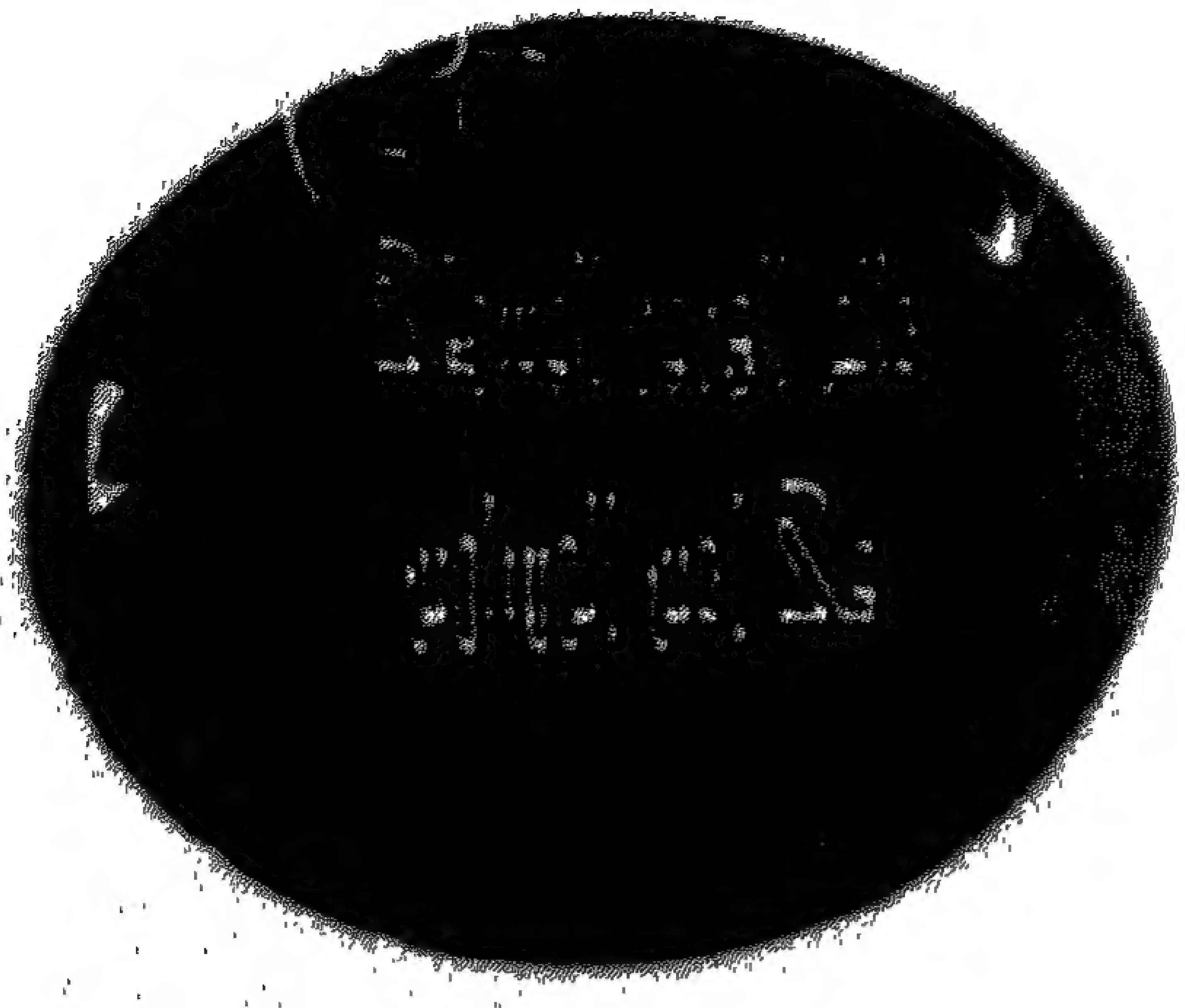

هذا الكتاب

[illegible]

منشورات المجمع الثقافي

Cultural Foundation Publications

[illegible]

http://WWW.Cultural.org.ae